الأعراق البشرية

هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟

آلان إتش جودمان، يولاندا تي موزِس،
جوزيف إل جونز



الأعراق البشرية

هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟

تأليف
آلان إتش جودمان ويولاندا تي موزِس وجوزيف إل جونز

ترجمة
شيماء طه الريدي
هبة عبد المولى أحمد

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم



الأعراق البشرية

آلان إتش جودمان
ويولاندا تي موزِس
وجوزيف إل جونز

Race

Alan H. Goodman,
Yolanda T. Moses,
and Joseph L. Jones

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٨٨١ ٦

المحتويات

شكر وتقدير

هذا الكتاب هو نتاجُ عشر سنواتٍ من العمل الذي يشمل مرحلة صياغة الفكرة، ومرحلة البحث، ومرحلة إنشاء الموقع الإلكتروني، وخصوصًا إنشاء عناصر المتحف ومعروضاته. كان ثمَّة الكثير من الأشخاص والمنظَّمات التي عاونت الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا في تطوير وإنتاج وتنفيذ برنامج التعليم العام «الأعراق البشرية: هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟» ومن بينهم أعضاءُ اللجنة الاستشارية للمشروع: مايكل إل بليكي (كلية ويليام وماري)، ولويس كاساجراند (متحف بوسطن للأطفال)، وروبرت هان (مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها)، وفاي هاريسون (جامعة فلوريدا)، وتوماس هولت (جامعة شيكاغو)، وجانيس هاتشينسون (جامعة هيوستن)، ومارفين كريسلوف (كلية أوبرلين)، وريتشارد ليونتين (جامعة هارفرد)، وجيفري لونج (جامعة نيو مكسيكو)، وشيرلي مالكوم (الجمعية الأمريكية لتقدُّم العلوم)، وكارول موكوباداي (جامعة سان خوسيه الحكومية)، ومايكل أومي (جامعة كاليفورنيا في بيركلي)، وكايونج بارك (جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس)، وكينيث برويت (جامعة كولومبيا)، وإنيد شيلدكراوت (متحف الفن الأفريقي)، وثيودور شو (منظمة صندوق التعليم والدفاع القانوني التابعة للجمعية الوطنية للنهوض بالمُلوَّنين)، ومارسيلو سواريس-أوروسكو (جامعة نيويورك)، وديفيد هيرست توماس (المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي)، وراسل ثورنتون (جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس)، وأرلين توريس (جامعة مدينة نيويورك).

بالإضافة إلى ذلك، أسهم فريقُ العمل بالجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا إسهامًا كبيرًا في المشروع. ونخصُّ بالذكر كلًّا من المدير التنفيذي ويليام ديفيس، ونائب المدير التنفيذي إلين لينش، والمُراقِب المالي سوزان ماتينجلي، والخبيرتَين الإعلاميتَين السابقتَين سوزانا بودمان ولورين شوارتز، ومدير الاجتماعات الأسبق لوسيل هورن، ومنسِّق الاجتماعات

الأسبق خارا منتر، ومديري التحرير الأسبقَين ستيسي لاثروب ودانا وينيك، بمجلة أنثروبولوجي نيوز، ومدير النشر أونا شميد، ومدير العلاقات العامة ديمون دوجر، ومدير التحرير إيمي جولدنبِرج، بمجلة أنثروبولوجي نيوز، ومدير الإنتاج مارك بوكر، بمجلة أنثروبولوجي نيوز، ومنسِّق الاجتماعات ومدير المعارض كارلا فرنانديز.

عملت فيليكا جوميز متدرِّبًا في المشروع، وشاركت في تأليف دليل الأسرة المنشور على الموقع الإلكتروني لمشروع «العرق». كما شغلت إيمي بكريك منصب مساعِد المشروع؛ حيث ساهمت في تنسيق هذا المشروع الضخم وتنظيم العمل بين الجميع. وتركت ماري مارجريت أوفربي — من منطلق حماسها البالغ تجاه المشروع — وظيفةً دائمة في الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا، وكانت على مدى سنواتٍ عديدة القوة المُحرِّكة للمشروع بحُكم منصبها كمديرة له، حتى اكتملَ الموقع الإلكتروني والمعرض.

أفاد المعرضُ والكتاب إفادةً جمَّة من جهود التعاون مع شركة كاليفورنيا نيوزريل. أنتجت كاليفورنيا نيوزريل — تحت إدارة لاري أدلمان — الفيديو الرائع «العرق: قوة الوَهْم» (راجِع الوثائقي الحائز على جوائز كان مصدر إلهامٍ لمشروعنا، وفي الواقع لدينا مُقتطفاتٌ من لقاءَين عن هذا الموضوع في الكتاب).

تكرَّم عددٌ من الباحثين الذائعي الصيت من قطاعاتٍ معرفيةٍ مختلفة — في ظل قيودٍ زمنية ومواعيدَ نهائيةٍ ضيقة — بالموافَقة على تدوين أصواتهم وتضمينها في صورة مقالاتٍ، وفي هذا الصدد نتوجَّه بخالص الشكر إلى كاماري كلارك، وفاي هاريسون، ونينا يابلونسكي، وكينيث كيد، وإيان هاني لوبيز، وكارول موكوباداي، ومايكل أومي، ونيل إيرفين بينتر، وميكا بولوك، وسوزان ريفرباي، وأودري سميدلي، ديبورا توماس، وأرلين توريس، وبوني أورتشولي، وجوزيف واتكينز. وثمة آخرون ذُكرَت أقوالٌ لهم أو مقالاتٌ بصورةٍ مباشرة في الكتاب من خلال مُقتطفاتٍ واقتباسات من فيديو «العرق: قوة الوَهْم» أو من خلال تضمينها في المعرض المتحفي؛ ومن بينهم العالِمان جوزيف جريفز وريتشارد ليونتين. وسرَدَ قصةَ الخلية المَنْجلية على نحوٍ شائق فرانك وفيكي جياكوماتسا.

في شركة «وايلي بلاكويل»، حصلنا على كل التوجيه والتشجيع من جانب روزالي روبرتسون وجوليا كيرك؛ فقد أدركت روزالي منذ البداية أهمية مشروعنا. وبأسلوبٍ غاية في الإتقان، استطاعت هي وجوليا أن تُقدِّما سبعَ مراجعاتٍ ثاقبة وبنَّاءة للغاية لمسوَّدة الكتاب استخدمناها بالفعل، آملين في تحسين منتجنا النهائي. ونودُّ أن نشكُر أيضًا هؤلاء المُراجعين المجهولي الاسم. أما جوليا كيرك؛ فقد كانت شريكَ عمل رائعًا؛ حيث ذلَّلت لنا

عقبات استِصدار مئات التصريحات لعددٍ هائل من الصور والرسومات الخاصة بالكتاب، وكذلك التعقيدات التي يَنطوي عليها العديد من الإجراءات المتعلِّقة بإنتاج كتابٍ متعدِّد الأوجه كهذا الكتاب. وحوَّلت شارلوت فروست الكتابَ من كتابٍ مُعقَّد للغاية إلى كتابٍ ذي تصميمٍ شائق ونسقٍ لونيٍّ مُمتع. وأخيرًا، فليسيتي مارش التي كانت شريكَ عمل رائعًا فيما يختص بأعمال التحرير والتصميم.

لم يكن لهذا المشروع أن يرى النور لولا الدعم المالي من جانب العديد من الأشخاص الذين سمحوا لنا باستخدام الصور والمحتوى النصي (راجِع «أشخاصٌ ندين لهم بالشكر والتقدير».) جاءَ الدعمُ المالي الأكبر للمشروع من جانب الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا ومؤسسة العلوم الوطنية الأمريكية. كما قدَّمت مؤسسة فورد على وجه الخصوص تمويلًا لبدء العمل في هذا المشروع ولإنتاج الكتاب الذي بين أيدينا الآن؛ ومن ثمَّ نتوجه بخالص الشكر والعِرفان لمسئولي برنامج التمويل: ألفونس تي ديسينا بمؤسسة العلوم الوطنية الأمريكية، ولكلٍّ من مارجريت ويلكرسون وجيرترود فريزر، وإيرما ماكلورين، وآيرين كورينفيلد بمؤسسة فورد.

أثناء العمل في هذا المشروع، استفدنا جميعًا من أشكالٍ عديدة من المُساعَدات ومن أناسٍ كُثُر. يودُّ آلان جودمان أن يتوجَّه بالشكر إلى الكثير من الطلاب والموظَّفين وأعضاء هيئة التدريس بكلية هامبشير وغيرها من الأماكن، لا سيَّما طلاب الصَّف الثامن بالمدرسة المتوسطة الإقليمية في أمهرست بولاية ماساتشوستس، الذين فَكَّروا في أفضل الطرق لتبادل الفِكَر حول العرق والاختلاف البشري. في مستهل القرن العشرين، ساعدتُ أنا وزملائي في تنظيم «حلقاتٍ دراسية» حول العرق، لا لشيءٍ آخر سوى الرغبة في دراسة الطُّرق المختلفة التي يتغلغل بها العرق في حياتنا. فقد علَّمني أبي أن تكون لي وجهة نظر نقدية وأن يكون رأيي موضع نقاشٍ ومحل نظرٍ دائمًا.

أدركتُ كثيرًا قوة القصص وفاعليتها من صانعي الأفلام لاري أدلمان، وكريستينا سومرز، ولو سميث، وكذلك من مُنسِّقي المعارض ومن بينهم جوان جونز-ريتسي وربرت جارفينكل. وبالإضافة إلى أعضاء الهيئة الاستشارية، ساعَدني أيضًا كثيرٌ من الزملاء بصفةٍ شخصية، ومن بينهم — على سبيل المثال لا الحصر — لاري أدلمان، وجورج أرميلاجوس، ولي بيكر، ومايكل بليكي، وجوزيف جريفز، وفاي هاريسون، وإفيلين هاموندس، وتوماس ليزرمان، وريتشارد لوونتين، وجوناثان ماركس، ومايكل مونتويا، ولين مورجان، وليث مولينجز، ودين روبنسون، وبانو سوبرامانيان. أضافت زوجتي تشايا هيلر، وعلماء

الأنثروبولوجيا الثقافية، فِكَرًا رائعة حول كيفية إيصال قوة فكرة العِرق، علاوةً على ما قدَّموه لي من تشجيعٍ أدبي ومعنوي يوميًّا. ومما شجَّعني على نشر تلك الفِكَر وأشعرني بالراحة حيال ذلك عندما أخذَت ابنتي روبي جودمان، ابنة الثماني سنوات، تشرح لستيلا جوردون، ابنة السنوات الخمس، أن والدها ذاهبٌ إلى تكساس للتحدُّث بشأن العنصرية. سألَتها ستيلا عمَّا تعنيه كلمة «عنصرية» وأجابتها روبي بأن «العنصرية هي أن يَحتقر البيضُ السود.» وأجابت ستيلا: «ماذا لو احتقر شخصٌ أسود البشرة شخصًا أبيض البشرة؟» وأجابت روبي: «هذه أيضًا عنصرية، لكنها أقل شيوعًا وأقل ضررًا من احتقار البِيض للسود.» نأمل أن يساعد هذا الكتاب في كشف النقاب عن بعض الأنظمة الكامنة وراء العرق والعنصرية وأسباب الأضرار المترتِّبة على العنصرية.

تودُّ يولاندا موزس أن تتوجَّه بالشكر إلى الكثير من الأشخاص الذين ساعدوا في جعل هذا المشروع واقعًا ملموسًا والذين منحوها الدعم الشخصي على مدار تلك السنوات. في جامعة كاليفورنيا في ريفرسايد، كانت الإسهامات الفكرية لكلٍّ من توم باترسون وويندي أشمور وكريستين جايلي وسانج هي لي وتي إس هارفي ذات قيمةٍ كبيرة لي بينما كنتُ أصوغ فِكَري التي ضمَّنتها هذا الكتاب. أشكرهم جميعًا على دعمهم لي. وأتوجَّه بشُكرٍ خاصٍّ إلى الطلاب في صفوفي الدراسية الذين تحدَّوني لشرح التعقيدات المتعلِّقة بالتركيب الاجتماعي للعِرق والاختلاف البشري بأساليبَ تماشَت مع تجاربهم الحياتية بشأن العرق والعنصرية. وأودُّ أن أشكر طلاب الدراسات العليا التالي ذكرهم مِمَّن ساعدوني في مهامَّ متنوعةٍ مرتبطة بهذا الكتاب، بدءًا من مرحلة البحث الأساسي وحتى المساعدة في متابعة إجراءات استصدار الكثير من التصريحات؛ وهم سكوت سميث، وجون جست، وجيني بان، وبريسيلا لوفورت، وإيزابيل بلاسِنشا، وريتشارد ألفاريز، ودوريس لوجان. وأخصُّ بالشكر أيضًا عُضوَي هيئة التدريس فيليسيا جاريت وسونيا زامورا، اللتَين ساعدتاني في كتابة المسوَّدات الأولى. وأخيرًا، أتوجَّه بالشكر إلى أسرتي، زوجي جيمس إف باويك، الذي مضى على زواجنا ما يقرب من أربعين عامًا، وابنتيَّ اليافعتَين شانا وتوني، الذين كانوا جميعًا بمنزلة لجنة استطلاع الآراء حول أفكاري وأبحاثي وأنشطتي المتعلقة بهذا المشروع منذ بدايته. أتوجَّه بالشكر أيضًا إلى والدتي ويلي لي موزس، البالغة من العمر تسعين عامًا، على تشجيعها لي على إتمام هذا المشروع حتى يُدرِك الآخرون ما يعنيه «ألَّا يعيش المرءُ يومًا في حياته دون أن يُفكِّر في العرق.»

يتوجَّه جوزيف جونز بالشكر أولًا إلى آلان جودمان ويولاندا موزس على دعمهما وتوجيههما القيِّم في سبيل تحقيق رؤيته في إقامة العدالة الاجتماعية وتفعيل دور الأنثروبولوجيا المعنيِّ بحل مشكلات المجتمع في سبيل إحداث تغيير اجتماعي. وثمَّة كثيرون غيرهم مِمَّن يُشاركون هذه الرؤية ولم يضنُّوا بوقتهم ومعرفتهم، ساعَدوني في تكوين فهمٍ أفضل لاستخدامات العِرق وحدوده في الثقافة الإنسانية وعلم الأحياء؛ ومن بينهم مايكل بليكي ومارك ماك (اللذان قدَّماني إلى مجتمع الأنثروبولوجيا وجامعة هوارد)، وفاي هاريسون، وأودري سميدلي، وآر بروك توماس، وألان سويدلاند، وبوب بينتر، وجون بريسي، ومادي ماركيز، ودولا أمارازيريفارديناو، وفارين بيري، وجون هيجينسون، وكثيرون غيرهم في جامعة ماساتشوستس في أمهرست وخارج الأكاديمية. وآمُل أن تصلكم آراؤهم وتأثيراتهم المتنوعة بينما تقرءون هذا الكتاب.

لقد كانت أسرتي مصدر دعم وإلهام لي؛ فلم تضنَّ زوجتي دانيال بوقتها وتشجيعها وملاحظاتها التي لا غِنى عنها أثناء إعداد مسوَّدة الكتاب. كما شرعت ابنتي الصغيرة نيا، بأسلوبٍ بريء تمامًا يتماشى مع عمرها الذي لم يتجاوز السنوات الخمس، في طرح أسئلة مباشرة حول الاختلافات بين البشر. أكَّدت أسئلتها من جديد على الحاجة إلى تعليم الأطفال الصغار على نحوٍ استباقي معنى الاختلاف والعرق. وأُعبِّر عن خالص امتناني لأمي ماري جونز، ولأبي الراحل روبرت جونز، على الدروس الكثيرة المُتواصلة، وبالطبع على العقود العديدة التي منحاني خلالها حبًّا ودعمًا وثقة لا تنتهي. وجهودي هنا ليست سوى امتداد لعدم قدرتهما على قبول العنصرية. عسى أن يُساعد هذا الكتاب آخرين أن يُدركوا من خلال عدم المساواة الاجتماعية حقيقة المساواة بين البشر.

تمهيد



شكل ١: هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟

على غرار شبكات المعنى والأفعال التي تتلاحم معًا وتعمل باستمرارٍ على إعادة صياغة فكرة العِرق القوية، فإنَّ وضع كتابٍ عن العِرق يشترك في تأليفه أكثر من مؤلِّفٍ واحد إنما يتحقَّق من خلال تضافُر مجموعة من العلاقات الشخصية والمؤسسية والمِهنية المتعددة.

وهذا ما حرصنا عليه في الكتاب بالإضافة إلى حرصنا أيضًا على أن تكون لدينا مجموعةٌ كبيرة ومُركَّبة ونشطة وداعمة من المؤيدين؛ نظرًا لما يعنيه ذلك من قيمة لنا. وينطبق هذا بصفةٍ خاصة على المشروع والكتاب اللذَين نحن بصددهما الآن.

يبدو أيضًا أن العِرق يختلف حسب خبرة الشخص ومكانه وتاريخه؛ ومن ثمَّ نعتقد أن هذا الكتاب سيؤثر في كل قارئٍ على نحوٍ مختلف بعض الشيء. وربما يَنجذب القُرَّاء إلى مواضع الكتاب التي تُمثِّل لهم اهتمامًا ومغزًى معيَّنًا على المستوى الفردي، كما هو الحال حيال المعارض والمواقع الإلكترونية. ومع ذلك، فقد راعَيْنا في تصميم الكتاب أن يُستهَلَّ ببدايةٍ واضحة يليها وسطٌ ثم نهاية؛ مما يسمح بتطوير معرفتنا وتحليلنا على النحو الأفضل. وبوصفه كتابًا مصاحبًا للمشروع الأكبر المُسمَّى «الأعراق البشرية: هل نحن حقًا على هذا القدر من الاختلاف؟» فقد صُمِّم بهدف قراءته من أوَّله إلى آخره، وبوصفه أيضًا كتابًا تمهيديًّا عن العرق (وكذلك عن العنصرية والاختلافات البيولوجية بين البشر). ونأمُل أن نكون قد عبَّرنا عن رسائلنا الرئيسية بأساليب من شأنها أن تترك صداها ومردودها لدى القُرَّاء كافة.

تبلوَر المشروع الذي قادنا إلى تأليف هذا الكتاب، واتخذ شكلًا مُعترَفًا به للمرة الأولى، عام ١٩٩٧. يولاندا موزس، وهي أحد المشاركين في تأليف هذا الكتاب، والتي صارت فيما بعدُ رئيس الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا، المنظَّمة الأكبر والأهم على مستوى العالم لعلماء الأنثروبولوجيا المُحترفين، دعت باحثين من أقسام الأنثروبولوجيا إلى الاجتماع معًا لمناقشة ما يعنيه مُصطلح «العِرق» في تخصُّصاتهم الفرعية.

خرَج المشاركون في هذه الجلسة النقاشية التي شهدها الاجتماع السنوي للجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا بإجماع آراءٍ واضح على أنه بدلًا من أن يتبنى كلٌّ منا موقفًا مفاهيميًّا مختلفًا، فإن ثمة الكثير من نقاط الاتفاق التي تجمعنا، وهو ما توصَّلنا إليه من واقع سجلاتٍ فكريةٍ مختلفة وبملاحظاتٍ وبياناتٍ مختلفة. ووجدنا أن أقسام الأنثروبولوجيا؛ مثل الأنثروبولوجيا اللُّغوية، وعلم الآثار، والأنثروبولوجيا البيولوجية، والأنثروبولوجيا السياسية، تُسلِّط الضوءَ على الجوانب المتنوِّعة لفكرة العِرق وآليات العنصرية، وهي فكرةٌ مُتغيِّرة على نحوٍ معقَّد.

هل تذكر حكاية الأشخاص المعصوبي العينَين الذين يَتلمَّسون أجزاءً مختلفة في جسم الفيل؟ أحدهم يَلمس الذيل ويعتقد أنه ممسكٌ بثعبان، وآخر يلمس خرطوم الفيل ويعتقد أنه يتحسَّس جدارًا. كان الأمرُ شديدَ الشبه بذلك؛ بدا من الواضح أننا نستطيع

من خلال العمل معًا، وأخيرًا التعاون مع زملاء من مجالاتٍ أخرى بدءًا من الفيزياء إلى علم الإنسانيات؛ التوصُّلَ إلى وصفٍ وفهمٍ أفضل لجسم الفيل ككلٍّ؛ وهو ما يعني في سياق حديثنا هذا التوصُّل إلى وصفٍ وفهمٍ أفضل لمفهوم العِرق والعنصرية.

وأخيرًا، بدا من الواضح إلى أي مدًى كانت فكرة «العرق» أداةً ضارَّة في أيدي الأفراد ذوي السلطة لاستبقاء وضعٍ عنصري راهن والاستفادة منه. أُسِّست أنظمةٌ من عدم المساواة ورُسِّخت حول الفكرة الدامغة بأن الاختلافات العرقية وأوجه التفاوت وعدم المساواة كانت تُعزى إلى أسبابٍ بيولوجية وطبيعية. وهذه المفاهيم يتردَّد صداها اليوم، بيد أنه بات من الواضح أنها مفاهيم يُمكن دحضها، وتستند ببساطة إلى علمٍ زائف؛ ولهذا السبب، شعرنا أننا مُضطرُّون إلى إيضاح أنَّ العرق موضوعٌ قويٌّ ومؤثر، لكنه لا يوجد له أساسٌ يتعلق بالجينات أو بعلم الأحياء، وإنما هو مفهومٌ ثقافي؛ ومن ثمَّ يمكن تغييره.

ومن ثمَّ خَلَصنا إلى أن ثمة خطوةً ضرورية على طريق التغيير قد اتُّخِذت بالفعل؛ تحدَّث بعضنا إلى بعض، وأدركنا أن في مقدورنا أن نتواصل، واستطعنا معًا التعبير بوضوح عن فكرة مُعقَّدة. ومع ذلك، لا تكفي هذه الخطوة الضرورية لإحداث تغييراتٍ. احتجْنا أيضًا إلى ما هو أكثر من مجرَّد الحديث إلى زملائنا وطلابنا الجامعيين. ولم يكن من الممكن أن يخرج هذا الكتاب إلى النور لولاهم، ونأملُ أن نصلَ من خلاله إلى مزيدٍ من قاعات الدراسة في الجامعات. نحتاج أيضًا إلى تكثيف النقاشات العامة حول مفهوم العرق، راجعين مرةً أخرى إلى القضايا الجوهرية؛ مثل كيف نشأت فكرة العرق في التاريخ، وكيف اختُرِعت، وكيف أن العرق والاختلاف البشري موضوعان مختلفان. ونحتاج إلى أنْ نُحاول وأنْ نُدرِج الجميعَ في النقاش.

شكَّل برنامجُ «العرق»، وهو برنامج التعليم العام الذي يُمثل هذا الكتابُ جزءًا منه، لجنةً توجيهية تحت إشراف الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا وتحت القيادة الاسترشادية للدكتورة بيجي أوفربي. وكان من بين نتائجها الملموسة موقعٌ إلكتروني (www.understandingrace.org) أنشأته شركة إس تو إن ميديا (بقيادة كاثي بروسينكساي) ومعرضٌ متحفيٌّ صُمِّم وأُنشئ بالتعاون مع شركائنا في المتحف، وهم فريقُ العمل الاستثنائي بمتحف مينيسوتا للعلوم، بقيادة رئيس المتحف إريك جولي، وترأَّس المشروعَ روبرت جارفنكل وجوان جونز-ريتسي، وإليهما ندينُ بالفضل الأول وبخالص الامتنان. ببساطة، لم يكن من الممكن أبدًا لهذا الكتاب أن يظهر لولا روبرت

وجوان وفريقهما المُبدِع الذي يجيد التعامل مع العقبات، وما يتَّسمون به من رُوح الإقدام والتعاون.

ظلَّ المَعرض المتحفي، وهو في الأساس مشروعٌ ضخمٌ يتألَّف من أكثر من خمسين عنصرًا تقريبًا من المعروضات، ويشغل مساحةً مقدارها ٥ آلاف قدم مربَّعة؛ ظلَّ يجوب البلاد حتى عام ٢٠١٥، وحقق نجاحًا مُذهلًا حتى إنَّ معرضًا مماثلًا له تقريبًا وفي حجمه تمامًا قد أُقيم على غراره، فضلًا عن إنشاء نسخةٍ أصغر بمساحة ١٥٠٠ قدم مربعة لصالات العرض المجتمعية الأصغر حجمًا.

الفصل الأول

أمورٌ ذات صلة بالعرق

هل العِرق حقيقي؟ الأمر نسبيٌّ أحيانًا؛ فهل من الواضح أنه حقيقي؟

لا يهمُّ إنْ كنا نتحدث عن العرق أو نخشى الحديث عنه، إنْ كنا نسهبُ كثيرًا أو نقتصد كثيرًا في كلامنا عنه؛ فنحن على ما يبدو لا نتعمَّق فيه كثيرًا على أيِّ حال.



شكل ١-١: حفل التخرُّج في مدرسة سيوارد مونتيسوري (جزءٌ من مجموعة «ليك ستريت» الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٧–٢٠٠٠) التصوير الفوتوغرافي: وينج يونج هيوي.

كيف نَخرج من حالة الجمود هذه؟

الإجابة هي أن نبدأ في طرح أسئلةٍ مختلفة عن العرق ونجيب عنها. يعتقد معظم الناس أن العرق حقيقي، وهم على حقٍّ بالتأكيد. العرق حقيقي، بيد أنه ليس حقيقيًّا من حيث طريقة تفكيرنا فيه على أنه مُتأصِّلٌ وموجودٌ منذ الأزل، وله أساسٌ بيولوجي. إنَّ العرق بالأحرى هو فكرةٌ راسخة ذات عواقبَ وخيمةٍ ومدمِّرة؛ لأننا جعلناه كذلك عبر تاريخنا وثقافتنا.

يهدف هذا الكتاب إلى توجيه القُرَّاء بحيث يفهمون كيف أن العرق حقيقي وغير حقيقي في آنٍ واحد. ويُمكن تبديد الجذور الأكثر رسوخًا للعِرق والتفكير العنصري والعنصرية السافِرة من خلال التركيز ببساطة على مفهوم التنوُّع والقبول كما هو شائع حاليًّا. على الجانب الآخر، لا يُمكن لمنهجٍ موضوعي وعلميٍّ صِرف أن يسرد القصة الكاملة للكيفية التي شكَّل بها العرق الأحداثَ التاريخية والتي يواصل بها تأثيره القويَّ على حياة الأفراد. إنه بلا شك لا يسرد كلَّ شيءٍ عن التباين القائم في تجارب الأفراد بشأن العرق واختلافها عبر الزمان والمكان.

نحن نهدف في هذا الكتاب إلى تقديم مزيج من المعالجة العلمية، والتاريخية، والتجارب الشخصية. والنتيجة التي نأمُلها من ذلك هي تحريرُ تلك الفكرة على نحوٍ رائع. لقد أصبح العرق بمنزلة كُرة غزل يتشابك فيها التاريخ، والثقافة، والهُوية، وعلم الأحياء. وهدفنا هو فكُّ تشابك تلك الكُرَة وحَلُّ خيوطها. وبمجرد فكِّها، يتسنى للمرء فهم المزيد عن الاختلافات الطبيعية بين البشر جميعًا، والكيفية التي أصبح بها العرق تلك القوة المؤثِّرة.

نعلم أن العرق يبدو حقيقيًّا بالتأكيد لأي شخص مُنغمِس في الثقافة السائدة لأمريكا الشمالية؛ فالعِرق يبدو حقيقيًّا على نحوٍ واضح، ويستطيع المرءُ كلَّ يوم أن يلاحظ اختلافَ الأفراد في المظهر الخارجي. ومن الأمور المثيرة للانتباه أن العرق حقيقي — لا لأسبابٍ بيولوجية — وإنما لأسبابٍ تتعلق بالأساليب اليومية التي نُفسِّر بها الاختلافات، ونسبغ بها معنًى على تلك الاختلافات البيولوجية. قد يبدو الأمر على خلاف التوقعات البديهية، لكن العِرق له أساسٌ بيولوجي؛ نظرًا لأن فكرة العرق — وتحديدًا العيش في مجتمعٍ عِرقي مع إمكانية وصولٍ متفاوتة إلى الموارد — لها تأثيراتٌ على الجسم تظهر في معدل وفيات الرُّضَّع والبالغين. إذا كان العرق وهمًا، فإنه إذن وهمٌ قويٌّ على نحوٍ غريب.

مع هذا، فإن ما استوعبنا أنه دليلٌ رأيناه بأعيننا على «حقائق» العرق مثل الاختلافات في لون البشرة وغيرها من العلامات المزعومة للاستدلال على العرق، ليست له أهميةٌ اجتماعية

وسياسية متأصِّلة أو أشدُّ تأصُّلًا مما تسبغه عليه ثقافتنا. ثمة اختلافاتٌ لغوية وثقافية وبيولوجية ووراثية بين البشر، إلا أن هذه الاختلافات ليست عِرقية؛ بمعنى أنها لا تُقسِّم الأفراد «بطبيعتهم» إلى أعراق.

من الآراء الرئيسية في علم الأنثروبولوجيا أن ما نراه على أنه حقيقي إنما يُعزى غالبًا إلى ما تهيئ آراؤنا السائدة عقولنا لرؤيته. وبالطريقة نفسها التي اعتدنا بها الاعتقادَ بأن الشمس تدور حول الأرض؛ فإننا نرى الاختلاف على أنه عِرق لا لسببٍ آخر سوى أن الفكرة مُنتشرة حولنا وليست محل نظرٍ أو نقاش. وكما تقول رئيسة كلية سبيلمان بيفرلي تيتوم، فإن العرق مثل الضباب الدخاني؛ إذا كنا داخله، فهو كلُّ ما نراه، وعلاوةً على ذلك، فإنه يعوق رؤيتنا الواضحة لطبيعة الاختلاف الحقيقية. حان الوقت لأنْ ينقشع هذا الضباب ويزول.

إنَّ ما نأمله في هذا الكتاب، المصاحِب لموقعٍ إلكتروني ومعرضٍ متحفي حائزَين على جوائز، هو أن نوضِّح كيف أن فكرة العرق لا تزال تُواصل تبعاتها، كلَّ يوم، على كل جوانب حياتنا. العرق ليس بنيةً اجتماعية فحسب، إنه عقدٌ اجتماعيٌّ قوي. سجَّل دستورُ الولايات المتحدة العبدَ الأفريقي على أنه يُمثِّل ثلاثة أخماس الشخص الواحد. وعلى الرغم من تعديل هذه الصيغة وفقًا للتعديل الثالث عشر للدستور الأمريكي (أقرَّت أيضًا معظم الولايات قوانينَ إضافيةً لمناهضة اختلاط الأجناس؛ أي التزاوج بين أعراقٍ مختلفة) فإن العقد العرقي أعمق بكثير من القوانين والبَيانات «الرسمية». يُعزى سبب رسوخ العقد العرقي على وجه التحديد إلى أن فكرة العرق محفورةٌ بعمق في أذهان المجتمع الأمريكي ومؤسساته. وما نريده هو أن نوضِّح العقد الاجتماعي؛ ومن ثمَّ نكشف عن الجذور العميقة للتفكير العِرقي والعنصري. وكما أن الحشائش الضارة تعود لتنمو من جديد إذا لم نجتثَّها من جذورها، فلا سبيلَ أمامنا للقضاء على العنصرية ما لم نهتمَّ بدراسة جذورها وصولًا إلى الفِكَر الأساسية التي تقوم عليها.

وعلى الرغم من أن فكرة العرق أصبحت — ولا تزال — محفورةً على نحوٍ جوهري في أذهاننا ومؤسَّساتنا، ففي وسعنا تغيير طريقة فهمنا للعِرق، بل والكيفية التي يتمُّ بها تضمين العرق في المؤسسات وجعله جزءًا منها. ولن يتأتَّى لنا ذلك بتجنُّب العرق أو التظاهُر بأنه غير ملحوظ، وإنما بالأحرى عن طريق فهم عِلم الاختلاف البشري، وتاريخ العِرق وثقافته وسياساته، وكل التجارب الحياتية اليومية المرتبطة بالعرق والعنصرية.

غالبًا ما يمرُّ طلابنا — وهؤلاء ممَّن زاروا المعرض — بلحظاتٍ من «الكَشْف»، يرون فيها العرق بمنظورٍ مختلف لم يعرفوه قط من قبلُ. فجأةً، يُرى العرق على أنه ليس مكونًا طبيعيًّا وإنما فكرةٌ ونِتاجٌ ثقافي. إنه لأمرٌ مُذهل!

ولحُسن الحظ، أيضًا، أن لحظات الكَشْف هذه لا تتطلب تدريبًا مُسبقًا في علم الجينوم، أو الأنثروبولوجيا، أو الفلسفة، أو أي مجالٍ معرفيٍّ آخر. وإنما كلُّ ما تتطلَّبه في حقيقة الأمر هو انفتاحٌ ومُكاشَفة في مناقشة الفرضيات التي كنا نعتقد في صحتها على نحوٍ واضح.

تخيَّل أنك تعيش حياتك في مكانٍ طبيعي لم يقُدك قط أنت أو المحيطين بك إلى التشكيك في أن الأرض يُمكن أن تكون شيئًا آخر خلاف كونها مسطحة. اعتلِ قمة جبل، وأمعِن النظر في المسافة المُمتدة أمامك، ولاحِظ كيف أن الأفق يبدو مقوَّسًا للداخل. هذا التقوُّس علامةٌ على أن الأرض كروية. حان الوقت للانتباه إلى علاماتٍ كهذه، ومع ذلك، عليك أن تتوخَّى الحذر؛ فالنتائج تكون مُربكة للعقل. والتحوُّل من رؤية الأرض على أنها مسطَّحة إلى رؤيتها على أنها كروية هو ما يُطلِق عليه العلماءُ تحوُّلات النموذج الفكري. ويمكن لتحوُّل النموذج الفكري، أو التغيُّر في نظرة المرء ورؤيته إلى العالم، أن يكون مُربكًا. والأمرُ يستغرق بعضَ الوقت لتنظيم الأفكار وإعادة ترتيبها.

بالإضافة إلى ما يطرحه هذا الكتاب من حُجةٍ جديدة، فإنه يَنفرد بميزةٍ أخرى، وهي أنه مُصاحِب لمشروع التعليم العام الوطني «الأعراق البشرية: هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟» الذي حقَّق نجاحًا مُذهلًا. يتألَّف هذا المشروع المطوَّر من قِبل الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا من مجموعة من المَعارض المتنقِّلة (يوجد حاليًّا معرضان بمساحة ٥ آلاف قدم مربَّعة يجوبان أنحاء البلاد، ومعرضٌ أصغر بمساحة ١٥٠٠ قدمٍ مربعة تقريبًا)، وموقع إلكتروني، ومواد تعليمية إضافية. يتمحور المشروع حول ثلاث فِكَرٍ رئيسيةٍ قوية: (١) العرق اختراعٌ بشريٌّ حديث. (٢) يتعلق العرق بالثقافة وليس بعلم الأحياء (مِن دواعي المفارقة أنَّه على الرغم من أن العرق لا يتعلق بعلم الأحياء أو بالبنية الوراثية؛ فإنَّ له نتائج بيولوجية. وسيتم تركيز الضوء في هذا الكتاب على بعض هذه النتائج، لا سيَّما فيما يخص الصحة والثروة). (٣) العرق والعنصرية موجودان بقوة داخل المؤسسات وفي حياتنا اليومية. والكتاب مُنظَّم في ثلاثة أقسام تماشيًا مع تلك الفِكَر الرئيسة الثلاث: قسمٌ عن التاريخ، يليه قسمٌ عن العِلم، وقسمٌ أخير عن التجارب الحياتية.

نأملُ أن يستحوذ هذا الكتاب على اهتمام أولئك الذين زاروا الموقع الإلكتروني أو المعرض، وكذلك القرَّاء الجُدد. وبالنسبة إلى مَنْ زاروا الموقع الإلكتروني والمعرض،

فسيجدون في الكتاب مزيدًا من الشروح المُفصَّلة والأحداث التي وقعت على خلفية الموضوع والتي لم يكن من المُمكن توضيحها في جولةٍ تفقدية داخل المعرض. يتضمن الكتاب أكثر من مائة صورة نهدف من خلالها إلى استيعاب المعنى الذي تشرحه الصور وتُوضحه، وكذلك إلى تعزيز ما يمكن شرحه على النحو الأفضل من خلال الكتابة الموجزة.

إنَّ الهدف من الكتاب الذي بين يديك أن يكون كتابًا تمهيديًّا جوهريًّا عن فكرة العرق وحقيقته، وعن كيفية ارتباط هذه الفكرة بالعنصرية في المؤسسات وفي حياتنا اليومية. ومن وجهة نظرنا، فإن الأعراق البشرية «لا وجود لها في الطبيعة.» وإنما الفكرة بالأحرى أن البشر هم مَنِ اخترعوا العرق.

من خلال الجمع بين الآراء والأمثلة المُستقاة من مجالات العلم والتاريخ والقصص الفردية، فإننا نهدف إلى تأليف كتابٍ جادٍّ في موضوعه ولكنه جذاب أيضًا ومُفعَم بالحيوية. وهدفنا هو أن ننأى بالقرَّاء عن التقسيم الثنائي المغلوط للأعراق البشرية على أنها حقيقية وغير حقيقية. نريد أن يُدرك القُراء دور التحليلات الاجتماعية والبيولوجية المعاصرة في إظهار أن العِرق حقيقي، والطُّرق التي توضح من خلالها أن العرق بات فجأةً فكرةً بالية ومُهمَلة (لا سيَّما من حيث كونه طريقة للتفكير في الاختلافات الوراثية بين البشر). نريد لهذا الكتاب أن يُحدِث تحوُّلًا عميقًا لدى قرائه، وأن يمرَّ الجميع بلحظة من «الكَشْف».

تتمثَّل الفِكَر الرئيسية الخمس التي يتناولها هذا الكتاب فيما يلي:

(١) «فكرة العرق هي فكرة مُختَرَعة.» اختُرِعَ العرق كطريقة لتصنيف الجماعات — وبالتبعية الأفراد — وترتيبهم. لم يَحدث هذا الاختراع في معملٍ معزول أو في مكانٍ واحد كلَّ مرة. وإنما أخذت هذه الفكرة العلمية والاجتماعية تسود ببطءٍ، وأصبحت حقيقيةً أكثر فأكثر من خلال الاستكشافات الأوروبية والاستعمار والعبودية في الأمريكتَين. في القرن الثامن عشر، ربما كان للعِرق معنًى لأن الاختلافات الجسدية (أو الاختلافات المتعلِّقة بالنمط الظاهري) بين الأوروبيِّين وغيرهم كانت هائلة فيما يبدو.

وعلى الرغم من أن العرق اختراعٌ بشري نتناوله في القسم الأول من هذا الكتاب، فإن الفكرة كانت قوية ومؤثِّرة من الناحية السياسية؛ لأن الاعتقاد في وجود أعراقٍ مُنفصلة وغير متساوية كان بمنزلة التبرير الأدبي والأخلاقي الوحيد فعليًّا للمعاملات اللاإنسانية التي مُورست في شكل الاستعمار والعبودية. في القسم الأول من الكتاب، سوف نتحدَّث عن القصة الجذَّابة للتاريخ الاجتماعي والديني والسياسي والعلمي المتشابك للعِرق. والقصة معروضة في أربعة أجزاءٍ على نحوٍ مُتماثل تمامًا مع النسق المُتبَع في المعرض.

(٢) «التباين البيولوجي بين البشر حقيقيٌّ وواضحٌ ومذهلٌ وضروريٌّ.» نحن متباينون حقًّا. يقدم الجزء الثاني من هذا الكتاب معلوماتٍ تمهيدية عن التبايُن الجيني بين البشر؛ أي النمط الذي يظهر به التباين ضمن الأفراد وبين الأفراد والجماعات. بمفهوم التطوُّر، حتى إذا لم يكن التنوع يضفي بهجةً على الحياة، فإنه بالتأكيد أحد المقومات المطلوبة لبقاء النوع البشري.

(٣) «فكرة العرق لا تُفسِّر التباين بين البشر.» من كبرى خرافات العرق على الإطلاق أننا — بصفتنا بشرًا — لنا أعراقٌ بيولوجية وأنه على المستوى البيولوجي، أو بمعنًى أدق، على المستوى الجيني، يُحدِّد عِرقنا جانبًا كبيرًا من حجم الاختلاف القائم بيننا وفي إمكاناتنا، ومع ذلك، يخبرنا علم التباين البشري خلاف ذلك. إنَّ العرق بوصفه تباينًا جينيًّا خرافة؛ فالعرق لا يُفسِّر التباين، كما أنه ليس بِنية وراثية نافعة. في هذا الكتاب، سنستعين بمجموعة من الأمثلة المترابطة لبيان سبب ذلك.

(٤) «العرق ثابتٌ ومُتغيِّر في آنٍ واحد.» فكرة العرق هي أمرٌ نتشارك فيه جميعًا إلى حدٍّ كبير. ونحن نرى أن العرق في الوقت الحالي لم يَختلف كثيرًا — في جوهره — عمَّا كان عليه منذ مائة عام أو حتى ثلاثمائة عام مضت. بيد أن حقائق العرق — كيف تُدخل الأفكار في الخبرات الحياتية — تتغيَّر من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان. أمامنا الفرصة هنا لمشاركة بعضٍ من تلك النماذج الحياتية المختلفة التي اتَّسمت بأنها ذات طابعٍ عِرقي. تخيَّل كيف كان يصبح الأمر لو كنتَ أحد السكان الأمريكيِّين الأصليِّين ورأيت الأوروبيين للمرة الأولى؟ كيف كان يُصبح الأمر لو كنتَ أحد اليابانيِّين الموجودين في أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية؟ نتوقَّع أن يُساعد فهم كيفية اختلاف العرق بين المجموعات المختلفة في تقديم فهمٍ أعمقَ لكل مجموعة، وفهمٍ أعمقَ لمفهوم العرق نفسه.

(٥) «نحن مَنْ بيدهم مُستقبل العرق.» الأمرُ متروكٌ لنا في الطريقة التي نُواصل بها فهم العرق واستخدامه. ولدينا اعتقادٌ راسخ بأن كتابنا سيُسهم في إحداث إصلاحٍ جوهري في طريقة تفكير العامة — على اختلاف فئاتهم — في العرق وكيفية حديثهم عنه. ومن خلال شرح الكيفية التي تمَّ بها استغلال قوة العرق في الماضي لتقسيمنا، سنُوضِّح في هذا الكتاب كيف أن هذه المعرفة الجديدة هي قوةٌ تهدف نحو الفهم والاتحاد من جديد. بمجرَّد أن نفهم العرق وما يتَّصل به من حقائق وخرافات، يتوقف التذرُّع بالعرق كمُبرِّر جاهز للاختلافات المفرطة بين البشر من حيث الثروة، والصحة، وغير ذلك من مؤشرات المساواة الأساسية والتجارب الحياتية.

العرق اختراعٌ بشريٌّ حديث.

يرجع تاريخُ العرق إلى بضع مئاتٍ فقط من السنين، مقارنةً بالتاريخ البشري الممتدِّ لفتراتٍ طويلة. وعلى الرغم من أن فكرة العرق ليست علمية، فإنها افترضَت وجود اختلافاتٍ كبيرة بين البشر سمحتْ بتقسيمهم إلى عددٍ محدود من الفئات أو الأعراق. ومع ذلك، هل نحن مُختلفون بدرجةٍ كبيرة؟ يشترك كلُّ البشر في أصلٍ مشترك، ولأن كلًّا منا يُمثل مجموعةً فريدة من الصفات الموروثة، فإن كل البشر يُظهِرون تباينًا بيولوجيًّا.

ارتبطَت فكرة العرق منذ البداية بالسلطة والتدرُّج الهرمي بين البشر؛ حيث كان يُنظَر إلى مجموعةٍ ما على أنها أعظم شأنًا، ويُنظَر إلى الآخرين على أنهم أدنى شأنًا. وعلى الرغم من إثبات بطلان مفاهيم التراتبية الهَرَمية، وإزالة العوائق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فلا تزال فكرة العرق الموروثة تُشكِّل حياة الأفراد وعلاقاتهم في الولايات المتحدة وفي كل أنحاء العالم.

ربما يردُّ هذا الكتاب على المفاهيم الشائعة عن العرق، ويُثير تساؤلاتٍ، ويُحفِّز التفكير النقدي. ونأمُل أن يسهم المعرض، والموقع الإلكتروني العام، والمواد التعليمية التي أنتجها مشروع «العرق»، في تعزيز الحوار على مستوى الأُسر والمجتمعات في كل أنحاء الولايات المتحدة، وأن يساعد في تحسين العلاقات بيننا جميعًا.

الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا

نص الفيديو الافتتاحي لمعرض «العرق»

العِرق.

ما العِرق؟

ما الذي نعرفه حقًّا عن العِرق؟

إليكم ما نعرفه بالفعل: العرق كلمةٌ قصيرة ذات تاريخٍ طويل في الولايات المتحدة الأمريكية. يمكنكم التفكير في تاريخ أمريكا وفكر الأمريكيِّين عن العرق على أنهما متصلان، ومتشابكان، ومتغيِّران باستمرار. العرق مُبتكَر كهذه اللوحة الزيتية تمامًا، وهو فكرةٌ قوية ومؤثرة اخترعها المجتمع.

العرق مفهومٌ راسخ شكَّل اقتصاد أمتنا وقوانينها ومؤسساتها الاجتماعية، وهو مفهومٌ معقَّد شكَّل مصير كلٍّ منا. وكثيرٌ من الفِكَر التي نربطها حاليًّا بالعرق نشأت خلال عصر الاستكشاف الأوروبي.

سافر أوروبيون أمثال كريستوفر كولومبوس عبر البحار وقابلوا، ثم استعمروا أو غزوا، شعوبًا في أفريقيا وآسيا والأمريكيتَين، مُختلفين كثيرًا عنهم في الشكل واللغة والسلوك. ثم جاء العلماءُ

والمنادون بالمذهب الطبيعي بعد ذلك، فصنَّفوا تلك الاختلافات إلى أنظمة أصبحت أساسًا لمفهوم العرق كما نعرفه حاليًّا.

في المستعمرات الأمريكية، كان العُمَّال الأوائل خدمًا أوروبيين يعملون بنظام التعاقد الطويل الأجل.

عندما تم جلب العمَّال الأفارقة عنوةً إلى فرجينيا في أوائل عام ١٦١٩، كانت المكانة الاجتماعية تتحدَّد من خلال الثروة والدين، لا الصفات الجسدية مثل لون البشرة.

إلا أن الوضع تغيَّر.

بمرور الوقت، أصبح للاختلافات الجسدية أهميتها، ومع ظهور تجارة الرقيق عبر الأطلنطي، شرع مُلَّاكُ الأراضي الزراعية في إحلال العبيد الأفارقة الذين استُعبِدوا بموجب صكوك العبودية الدائمة محل العُمَّال الأوروبيين. وسرعان ما ظهرت بنيةٌ اجتماعيةٌ جديدة تستند بصفةٍ أساسية إلى لون البشرة، وهي بُنيةٌ يتصدَّرها الأشخاص ذوو الأصول الإنجليزية ويأتي في نهايتها العبيدُ الأفارقة والهنود الأمريكيون.

بحلول عام ١٧٧٦، عندما أوردَ توماس جفرسون — وهو من مالكي العبيد — عبارة «كلُّ البشر خُلِقوا سواسية» في إعلان الاستقلال، وُلِدت أمةٌ ديمقراطية تنطوي على تناقضٍ كبير في جوهرها بشأن قضية العرق. وعلى الرغم من تأكيد أمتنا الجديدة على استقلالها من الطغيان والاستبداد الأوروبي، كان يُنظَر إلى السود والهنود الأمريكيِّين على أنهم أقل من البشر، ولا يستحقون الحريات نفسها التي يحظى بها البِيض.

في القرنين التاسع عشر والعشرين، استمرَّت فكرة العرق في تشكيل الحياة في الولايات المتحدة. ودعم ظهورُ «عِلم الأعراق» الاعتقادَ الشائع بأن الأشخاص ذوي البشرة غير البيضاء أدنى درجةً من الناحية البيولوجية. ويُعتبر إخراج الأمريكيِّين الأصليِّين من أراضيهم، وإقرار الفصل العنصري، واعتقال اليابانيين الموجودين في أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية أمثلةً موروثة عن العواقب التي قادنا إليها هذا التفكير.

يخبرنا العِلمُ حاليًّا أن كلَّ البشر يشتركون في أصلٍ مُشتركٍ واحد. وعلى الرغم من وجود اختلافاتٍ بيننا، فإننا متشابهون أيضًا في نواحٍ كثيرة للغاية.

تؤدي الديموغرافيات المتغيِّرة في الولايات المتحدة وفي مختلف أرجاء العالم إلى ظهور أنماطٍ جديدة من الزواج، والإسكان، والتعليم، والتوظيف، وفِكرٍ جديد بشأن العرق.

وعلى الرغم من مظاهر التقدُّم هذه، فلا يزال تراث العرق يؤثر فينا بأساليب شتى.

إنَّ الفرضيات الراسخة، والصور النمطية المتأصِّلة، عن العرق تجعلنا نعتقد أن الاختلافات القائمة من حيث الثروة، أو الصحة، أو الإسكان، أو التعليم، أو التوظيف، أو القدرة البدنية في المجال

الرياضي، هي أمورٌ طبيعية. ونعجز أن نرى الامتيازات التي مُنِحَت للبعض وحُرِم منها آخرون بسبب لون البشرة.

لقد عزَّز هذا الاختراعُ، المُسمَّى العرق، مُمارسات التمييز وعدم المساواة على مدى قرون.

لقد أثَّر في كيفية تواصلنا كبشر بعضنا مع بعض؛ ومن هذا المنطلق، صمَّمت الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا هذا المعرض لمشاركة قصة العرق المُعقَّدة، وتمييز الوَهْم عن الحقيقة، والتشجيع على وجود نقاشاتٍ هادِفة حول العرق في المدارس، وفي أماكن العمل، وفي الأُسر والمجتمعات.

فكِّر كيف يمكن أن يتغيَّر رأيك في لوحةٍ ما بينما تمعن النظر فيها عن كثبٍ أكبر.

ندعوك إلى اتخاذ النهج نفسه في نظرتك للعِرق. اختبِر فِكَرك ومعتقداتك بشأن العرق وافحصها من جديد.

الجزء الأول

تاريخ العرق والاختلاف والعنصرية



هذه الصورة المُتخيَّلة عن بياض البشرة، المُلتقَطة هنا، لا تُعتبر غالبًا جزءًا من اختراع الأعراق؛ فمن المُسلَّم به جدلًا أن بياض البشرة هو أحد معايير الجمال والاستواء؛ ومن ثمَّ فإنه يُتيح الوصول إلى السلطة، وإن كان هذا اختراعًا حديثًا نسبيًّا (الصورة بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم، كرايج ثيزن).

الفصل الثاني

مقدمة إلى العرق

واصل العالَمُ مسيرته طوال الغالبية الساحقة من تاريخه دون أن يعرف العرق، في حين لم تخلُ الولايات المتحدة منه قط.

ديفيد روديجر، «كيف صَمَد العرق في تاريخ الولايات المتحدة، منذ فترة الاستيطان والعبودية حتى ظاهرة أوباما؟»

(١) فهم حقيقة العرق

تكثُر التشبيهات الخاصة بالعرق؛ فأحيانًا يقال إنه عقدٌ اجتماعي، أو ضبابٌ معرفي، أو خرافةٌ خطيرة، أو وهمٌ قوي، وتُعبِّر هذه التشبيهات وغيرها عن حقيقة العرق في مجتمع الولايات المتحدة المعاصِر. العرق موجودٌ الآن في كل مكان. وأيًّا كان الالتباس وأوجه الخلاف المحيطة بتعريفاته أو توصيفاته، فقليلٌ هم مَن يناقشون هذه الفكرة ويجادلون فيها، وهذا أمرٌ مفهوم. نحن نعيش في مجتمعٍ مُشبَّع بالعرق، غارقٌ فيه؛ فقد تغلغل التفكيرُ العنصري في أرجائه، وهو يؤثِّر حاليًّا بطريقة أو بأخرى في تجاربنا جميعًا على مستوى الصحة، والتعليم، والحياة العاطفية، والصداقة، والعمل، والدين، والسياسة، وفي كل منحًى تقريبًا من مناحي حياتنا. هذه التأثيرات قد تكون ظاهرةً على نحوٍ مؤلم أو غير ملحوظة فعليًّا، إلا أنها موجودة دائمًا. ونتيجةً لذلك، نشأ معظمنا بمرور الوقت وفي داخله معتقداتٌ عِرقية راسخة تستند إلى هذه التجارب المُتراكمة وإلى مجموعةٍ ثابتة

من الصور وأشكال المعرفة الأخرى التي تُعزِّز الثقة في قدرتنا على رؤية العرق وإدراك وجوده. وفي النهاية، فإننا نُصبح خبراء في العرق، أو على الأقل خبراء في الكيفية التي نرى بها «الأعراق» ونَخبرُها، من حيث خصائصها المادية، وسلوكياتها، ولا سيَّما اختلافاتها المتأصِّلة أو الجوهرية.

إننا نناقش طبيعة العنصرية المعاصرة ومداها في محيط الأسرة والأصدقاء، وفي المنتديات على الإنترنت، بل وعبر «الحوار الوطني» المُتقطِّع، الذي تستحثُّه عادةً الأحداثُ الراهنة، وتجتاحه عباراتٌ رنَّانةٌ موجزة يمكن توقُّعها والتنبُّؤ بها. أحيانًا، قد تدفعنا تجاربُ الآخرين ومعتقداتهم إلى إعادة النظر في تجاربنا ومعتقداتنا، بيد أن هذا التبادل على مستوى التجارب والخبرات نادرًا ما يستقصي — أو يكشف عن — الركائز الثقافية القوية لالتزاماتنا الجَمْعية تجاه العرق والعنصرية. فَكِّر في الأمر. كَم مرة تقودنا النظرةُ الثانية التي يقتضيها تخمينُ العرق «الحقيقي» لشخصٍ ما إلى انتقاد فرضية أن العرق له أساسٌ بيولوجي في علم الأحياء أو فكرة الأنماط الظاهرية العرقية، أو التشكيك من الأساس في رغبتنا في «تصنيف» هذا الشخص على أساسٍ عِرقي؟ إن ما نُفكِّر فيه على الأرجح هو عدم توافُق هؤلاء الأفراد مع المعايير العرقية التي ثبتَ عدم صحتها منذ زمنٍ بعيد. بالتأكيد، قد يعترض مَنْ لا يزالون يهتمون بعَدِّ الأعراق وإحصائها على ما إذا كان ينبغي تقسيم البشر إلى ثلاثة أعراق أو أربعة أو خمسة أو يزيد. ومع ذلك، يقفز قليلون إلى الاستنتاج المنطقي الذي يسمح لهذه التفاصيل الثانوية في ظاهرها بتحدي إيماننا بالعرق بوصفه وسيلةً لبيان الاختلاف بين البشر، وتصنيفه؛ ومن ثمَّ إسباغ منزلةٍ معينة عليه. قد يُمثل اتخاذ هذه الخطوة تحدِّيًا حتى لأولئك الذين يكافحون من أجل إبطال «العقد العِرقي» وإلغائه (ميلز ١٩٩٧) ونبذ مفاهيم السيادة العرقية أو التفوق العرقي. ومن خلال عدم مشاركتنا في تلك القضايا والموضوعات الأساسية، أو الاكتفاء بالمشاركة السطحية فحسب، فإننا نُقوِّض قدرتنا على فهم العرق وطرح العُنصرية.

إنَّ التصالح مع تاريخنا المتنوِّع والمشترك فيما يخص العرق والعنصرية هو نقطة انطلاقٍ جيدة لأولئك الذين يرغبون في نبذ فكرة العرق. وفي الواقع، ثمة أمورٌ أكثر محلُّ تفكيرٍ فيما يتعلَّق بقدرتنا الجَمعية أو بعجزنا الجَمعي عن مواجهة ماضينا العرقي بإنصاف، من مجرَّد تكرار أخطاء الماضي وجرائمه؛ لأنه يُمثل تاريخًا حيًّا. إن هذا الماضي يعيش معنا وبداخلنا، ويمنعنا من مواصلة حياتنا معًا كأنداد. في بعض الأحيان، تُعاود الأحداث التاريخية المرتبطة بالعرق والعنصرية الظهور على السطح، بالمعنى الحرفي

للكلمة، لتُعيد صياغة ماضينا وحاضرنا. وهذا هو ما كان عليه الوضعُ في مستهلِّ القرن العشرين عندما أعادَ عمَّال البناء «اكتشافَ» المقبرة الأفريقية في نيويورك التي أُنشِئَتْ في حي مانهاتن السفلي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ساعدت أعمالُ الحفر اللاحقة وإخراجُ الأدوات ورُفات الهياكل العظمية لأكثر من أربعمائة شخصٍ من مقبرة الأمريكيِّين الأفارقة هذه الطاعنة في القِدَم في إثارة اهتمامٍ واسع بتاريخ العبودية في الشمال، ذلك التاريخ الذي لم يحظَ بالدراسة الكافية أو التقدير اللائق (بليكي ٢٠١٠).

كثيرًا ما تُواصل موروثاتنا العرقية وجودها في حجرات الدراسة، وأماكن العمل، والبنوك، وقاعات المحاكم، وفي مجموعةٍ كبيرة من الهيئات المؤسَّسية؛ حيث تزيد أو تنقص فرص الحياة والحقائق المادية على نحوٍ كبير. في هذه الأماكن، من السهل أن تُخفي طبيعةُ الإجراءات والتفاعلات — الموضوعية في ظاهرها — فرضياتٍ وتحيُّزاتٍ وعلاقات قوةٍ مُشبَّعة ضمنيًّا بالعرق. ويُمكن لهذه التفاعلات الروتينية أن تستدعي، وأن تُعزِّز، صورًا نمطية وعلاقات قوةٍ ذات أساسٍ عِرقي بأساليبَ ماكرةٍ وإن كانت فعَّالة، وخصوصًا من خلال وضع سياسات «الحياد العرقي» أو «عمى الألوان» (هاني لوبيز، الفصل السادس من هذا الكتاب). نحن نجسِّد ماضينا العرقي ونُرسِّخه إلى أعمق درجة من خلال تصنيفات الهوية المعاصرة وما يرتبط بها من تفاوت فيما يخصُّ الصحة والثروة والفرص التعليمية، وهي أمورٌ نناقشها في الجزء الثالث من هذا الكتاب. ومن ثمَّ، على الرغم من أنَّ البعض مُتحمِّسون حاليًّا لإعلان الولايات المتحدة مجتمعًا «خاليًا من العنصرية والتمييز العرقي»، فإنَّ هذه الفكرة التي كثيرًا ما يُتشدَّق بها تبدو عاريةً من الصحة ومحلَّ نقاشٍ للكثيرين، لا سيَّما أولئك المستهدفين باستئصال العنصرية واجتثاثها من جذورها، والمُكرَّسين لهذا الهدف (هاريسون ٢٠٠٥، الفصل السابع عشر من هذا الكتاب). في الواقع، بصرف النظر عن النتيجة، يرى معظم الناس أنَّ من الصعب تخيُّل فترةٍ لم يكن العرق فيها موجودًا أو تصوُّر الحياة بدونه. وبدلًا من ذلك، فإننا نميل إلى أن نستنتج ممَّا بات عليه الوضعُ حاليًّا من انتشار العرق وهيمنته — في المؤسسات، والثقافة الشعبية، واللغة، وغيرها — أنَّ العرق لطالما كان موجودًا وسيظل معنا دائمًا؛ فالعرق، فيما يبدو، جزءٌ حتمي من ماضينا ومصيرنا.

هل هذا ما عليه الوضعُ حقًّا؟ إلى أي مدًى تتغلغل جذورُ العرق في أعماق التاريخ البشري؟

(٢) اختراعٌ بشريٌّ حديث

كما تشير العبارة المُقتبَسة، وعلى نحوٍ مُستحيل كما يبدو عليه الوضعُ الآن، ثمة فترةٌ لم يكن العرق فيها قد شوَّه مفاهيم التنوع البشري بعدُ. في الواقع، يتفق معظمُ علماء الأنثروبولوجيا، والمؤرِّخون، وغيرهم من المَعنيِّين بدراسة الأنظمة الثقافية والاجتماعية ومقارنتها؛ أن تلك الفترة لم تكن ببعيدة للغاية (سميدلي ٢٠٠٧). إنهم لا يعترفون بالعرق بين البشر بوصفه نِتاج التطور البيولوجي أو الصنيع الإلهي. وبدلًا من ذلك، وضعَ الباحثون مجموعةً كبيرة ومُتزايدة من الدراسات والأبحاث التي توثِّق فكرة أن العرق بنيةٌ اجتماعية/تاريخية/ثقافية؛ منظومةٌ من الفِكَر، والهُويَّات، والعلاقات المادية، التي انبثقَت ببطءٍ في سياق الاستعمار والتوسُّع الاستعماري الذي اعتمدته أوروبا الغربية في مستهلِّ القرن الخامس عشر. وعلى النقيض من الاعتقاد الشائع بأن العرق صفةٌ بشريةٌ مميَّزة وفطرية ومُثبَتة تجريبيًّا، يُوضِّحون أن القوانين الأولى التي وُضِعت لإقامة الحدود العرقية والتراتبية الهَرَمية والحفاظ عليها لم تظهر حتى منتصف القرن السابع عشر، عندما كانت «النظرة العالمية العرقية» فكرةً جديدة يُطالعها العالَمُ لأول مرة (سميدلي ٢٠٠٧). وانطلاقًا من هذا المنظور، فإنَّ الأعراق البشرية ليست وحداتٍ بيولوجية. وعلى الرغم من وجود الكثير من السِّمات المادية (وعلى نحوٍ متزايد، الثقافية) المُشتركة على ما يبدو التي تُعزى إليها مرجعية الأعراق، فإن الأعراق في الواقع ما هي إلا كياناتٌ سياسيةٌ ناتجة عن تصرُّفاتنا الاجتماعية (بليكي ١٩٩٩، موكوباداي وآخرون ٢٠٠٧، هاريسون ١٩٩٥).

نحن نتَّفق في الرأي، والمعلومات الواردة في الفصول والأقسام القادمة تدعم وجهة النظر هذه التي ترى أنَّ العرق اختراعٌ بشري حديث. تُشير الأبحاث الراهنة إلى أن الأعراق البشرية موجودة لمجرد أننا اختلقناها وبالأشكال التي خلَّدناها بها ليس إلا، علاوةً على ذلك، فإننا نؤكِّد — تكرارًا لآراء المؤرِّخة باربرا فيلدز (١٩٩٠، ٢٠٠٣) — على أن الاعتراف بالعرق والعنصرية بوصفهما حقائقَ اجتماعيةً ثقافية، وليسا حقائق بيولوجية، ما هو إلا جانبٌ ضئيل من العمل التحليلي، وما خفي كان أعظم. أما ما يُطلِق عليه الأكاديميون المنهج «البنائي»، فإنه يقدِّم منظورًا تُوضَع من خلاله المظاهر والعلاقات والنتائج الأيديولوجية والمادية المتعلِّقة بالعرق والعنصرية والظواهر ذات الصلة موضع البحث النقدي (سميدلي ٢٠٠٧، هاريسون ٢٠٠٥). ببساطة، يُمثِّل هذا المنهج وسيلة — لا غاية — لفهم العرق؛ ومن ثمَّ فإننا لا نهدف ببساطة إلى إقناع القارئ بأن الأعراق البشرية هي بنياتٌ اجتماعية ثقافية، وإنما هدفنا بالأحرى في هذا القسم من الكتاب أن نوضِّح

بدقة كيف ولماذا أصبح العرق ولا يزال — شأن الطبقة الاجتماعية، والجنس، وغيرهما من «مَعاوِل الاضطهاد» (فارمر ٢٠٠٣) — عنصرًا راسخًا وفعَّالًا للتقسيم الطَّبَقي في المجتمع الأمريكي والثقافة الأمريكية. وكما يشير عنوان هذا الجزء، فإن التاريخ الصعب للعِرق في هذه الدولة هو في الواقع مجموعة من القصص أو الحكايات المتشابِكة التي توضِّح كيف تواطأت — وتبارت أحيانًا — قوى العادات والتقاليد، والدين، والقانون، والعِلم في توضيح الاختلاف البشري والتحكُّم فيه (من خلال قوانين مناهضة اختلاط الأجناس على سبيل المثال). إنَّ الخطوة الأولى نحو فهمٍ شامل للعِرق هي إدراك أصوله السياسية «غير الطبيعية» وتطوُّره المستمر بوصفه نِتاج النشاط البشري: ماذا كان مفهوم العرق قديمًا، وماذا صار اليوم، وما الذي من المُحتمَل أن نُحوِّله إليه في السنوات القادمة؟

سنستعرض خلال رحلتنا في هذا الكتاب الأصولَ التاريخية لفكرة الأعراق البشرية وتطورها. إلا أن من الملائم أولًا أن نعرض نبذةً موجزة عن «الفترة السابقة على ظهور فكرة العرق». من المؤكَّد أن الزعم القائل بأن العرق لم يدخل المشهد إلا في حقبةٍ متأخِّرة من التاريخ البشري، ربما تعود إلى بضع مئاتٍ من السنين؛ يترك مسألة الكيفية التي عالجت بها الشعوبُ الأولى الاختلاف البشري مفتوحةً على مصراعيها دون حسمٍ. كيف فَهم أسلافُنا التنوُّع الثقافي والبيولوجي حتى ذلك الحين؟ إذا كان العرق حديثًا في التجربة الإنسانية، فما الذي كان سابقًا على التفكير العرقي؟

لا شك أنَّ الشعوب السابقة كانت شعوبًا تتَّسم بالاستعلاء العرقي؛ إذ كانوا كثيرًا ما يعتقدون أنهم أعلى شأنًا من الناحية الثقافية من غيرهم، وكانوا أحيانًا يجنحون إلى العادة السيئة التي يصوِّرون فيها الآخرين على أنهم غير مُتحضِّرين ووحشيِّين أو همجيِّين، لدرجة أنهم كانوا يُبرِّرون العبودية والقتل على هذا الأساس. ومع هذا، كما سيُوضح أي كتابٍ تمهيدي عن الأنثروبولوجيا الثقافية، يختلف المنطق الاستعلائي العرقي عن المنطق العرقي الذي ظهر لاحقًا اختلافًا كبيرًا. وتتجلَّى هذه الاختلافات في أبلغ صورها فيما يتعلق بوصف الإمكانات البشرية ووجود العلاقة المُدرَكة بين الصفات الثقافية والبدنية، أو غيابها. قبل نشأة العرق، كان الناسُ أكثر ميلًا بكثير إلى ربط المُمارسات الثقافية على نحوٍ غريزي وصعب التغيير بالاختلافات الجسدية، التي غالبًا ما تُعزى إلى الظروف البيئية المختلفة (بريس ٢٠٠٥). ولم يكن الناسُ بالضرورة يميلون إلى الاعتقاد بأن تنوُّع النمط الظاهري عبر الجماعات يُمثِّل اختلافاتٍ فطريةً أو جوهرية — أي لا يمكن تجاوزها — في القدرة أو الشخصية. في الواقع، كان الناسُ قبل العرق على استعدادٍ أكبر لإمعان النظر

في الأنماط الظاهرية بما يجعلهم يتوصَّلون إلى أوجهِ شبهٍ سلوكيةٍ أعمقَ، إنْ لم يكن إلى أساسٍ مُشترك. علاوة على ذلك، بما أنهم اعتبروا الآخرين متخلِّفين ثقافيًّا من حيث اللغة أو الدين أو الغذاء أو الزينة أو غير ذلك من سلوكياتٍ أخرى، فقد مالوا إلى اعتبار هذه النقائص أمورًا قابلة للتقويم. وبمرور الوقت، أصبح من المُمكن محو النقائص السلوكية المُكتسَبة من خلال التنشئة الثقافية «الملائمة»، في حين لم يتسنَّ محو الدُّونية العرقية المتأصلة، بحُكم تعريفها.

مرةً أخرى، فإن التحيُّزات الثقافية ليست بالأمر الحميد على الإطلاق، وهدفنا في هذا الصدد لا أن نُصنِّف الأنظمة الطَّبَقية وفقًا لمدى خباثتها وضررها. في الواقع، يصعُب أحيانًا التمييز بين الاستعلاء الإثني والعنصرية؛ بسبب الخلط المتزايد بين الثقافة والعرق (هاريسون، الفصل السابع عشر من هذا الكتاب). الهدف هنا هو إبراز التحوُّل الخطير الذي يُمثله العرق في طبيعة العلاقات بين البشر؛ وهو تحوُّلٌ مُؤسِف — في محور التركيز الأساسي — من عادات وتقاليدَ مُكتسَبةٍ إلى مفاهيمَ ثابتةٍ أو جامدة عن الصفات الجسدية والأساسية. بوجهٍ عام، فإنَّ مفاهيم التنوع السابقة على ظهور العرق لم تمنع المرءَ من إدراك أو إقرار القدرة المشتركة للبشر على التعلُّم والإسهام على نحوٍ تامٍّ في أي ثقافة أو مجتمع، بصرف النظر عن الصفات المرتبطة بالنمط الظاهري التي استُخدِمت فيما بعدُ لتمييز الأعراق.

يشرح عالِمُ الكلاسيكيات فرانك سنودن (١٩٨٣) هذه الحقيقة بوضوح في دراسته المُبتكَرة «قبل التعصُّب اللَّوني»، التي أعدَّها عن «الصورة الذهنية للسُّود» في الفن والأدب المصري، والإغريقي، والروماني، والمسيحي المبكِّر. يلاحظ سنودن — مُحذِّرًا من الانجراف وراء قراءة القضايا الاجتماعية المعاصرة في ضوء الأحداث التاريخية السابقة — أن التفاعلات في بلدان البحر الأبيض المتوسط القديمة بين الشعوب التي تُصنَّف حاليًّا إلى سودٍ أو بِيض — حتى بين الخصوم السياسيِّين والعسكريين — كانت خالية من الوعي اللَّوني «الحادِّ» ومن أي نوعٍ من التمييز العرقي. ويُشير إلى أن هذه المجتمعات لم تنظر قطُّ إلى سواد البشرة باعتباره أساسًا للعبودية.

كما أن التاريخ القديم ليس تاريخ العرق الأبيض (بينتر ٢٠١٠). ومن غير المستغرب أن الحُجج المعارِضة للعِرق والعنصرية بوصفهما عناصرَ جامدة أو قديمة من العلاقات البشرية تطغى على كتابات ويليام إدوارد بورجاردت دو بويز (١٩٣٩)، وآنا جوليا كوبر (١٩٨٨)، وسانت كلير دريك (١٩٨٧، ١٩٩٠)، وآخرين ممَّن سعوا إلى

الدفاع عن الأمريكيِّين الأفارقة و«حمايتهم» من المزاعم التي تنعتهم بالدُّونية الفطرية والمتأصِّلة على نحوٍ غير قابل للتغيير.

تساعد المعالجة التاريخية والأنثروبولوجية الرصينة التي أعدَّها هؤلاء العلماء عن مفهوم العرق، والظواهر المرتبطة به المتمثِّلة في التعصُّب اللَّوني والتحيُّز الجنسي؛ في تشكيل الأساس الفكري للتفسيرات البنائية الراهنة. بيد أنه لا يتعيَّن على المرء — كما أشرنا أعلاه — أن يتفقَّد العصور القديمة ليُدرك قيمة الفترة التي تفوَّقت فيها الثقافة القابلة للتقويم على مفهوم العرق المستعصي تغييره بأن اعتبرته أمرًا خارجًا عن سيطرة المرء بحُكم ميلاده ونشأته حسب وجهة نظر مَن بيدهم سلطة تقرير هذه الأمور. من القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن العشرين، على سبيل المثال، كان الأمريكيُّون البِيض مبهورين بفكرة «تثقيف» الأمريكيِّين الأصليين و«تهذيبهم» عن طريق محو المُمارسات الثقافية الأصلية.

تُفرَد دراستنا التاريخية عن العرق في أربعة فصول، يعكس كلٌّ منها في تركيزه ومحتواه أحدَ مكونات التاريخ الأساسية للمعرض المتحفي المتنقل «الأعراق البشرية: هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟» وتتضمَّن الموضوعات التي نتناولها نشأة مفهوم العرق البشري، العرق والعنصرية في العِلم، تاريخ ومعنى العرق الأبيض والفئة العرقية «البيضاء»، ودور العنصرية/العَرقَنَة القانونية في خلق التفاوت الاجتماعي والامتيازات الاجتماعية والإبقاء عليهما. يتضمَّن كلُّ فصل مخططًا زمنيًّا للمفاهيم الأساسية والأحداث والأفراد، بالإضافة إلى مقالاتٍ ومقالاتٍ خاصة داعمة تقدِّم رؤًى أعمق وأشمل عن هذه الموضوعات. تساعد هذه السجلات التاريخية في إبراز العرق بوصفه واقعًا اجتماعيًّا وأحد الأوهام الكبرى للعِلم، وهي موضوعاتٌ سنَستكشِفها بالتفصيل في أجزاءٍ لاحقة من الكتاب. وفي سبيل إيصال هذه الموضوعات، فإننا نَستمِع إلى كثير من الأصوات التي تُمثِّل وجهات نظرٍ متعدِّدة؛ إذ نستمع إلى شخصياتٍ تاريخيةٍ بارزة، وبعضٍ من الباحثين الرائدين في الوقت الحالي، وآخرين مِمَّن توضِّح آراؤهم وتجاربهم الشخصية التناقضَ والمرونة اللتَين جعلتا العرق والعنصرية من القضايا المُلِحَّة للغاية بمرور الوقت. لا شك أن بعضَ الأفراد، أمثال بوكاهانتس، وتوماس جفرسون، وفريدريك دوجلاس، مألوفون للقُرَّاء. وربما آخرون، أمثال تاكاو أوزاوا، وجون بانش، وفرانز بواس، ليسوا بنفس القدر من الشُّهرة خارج نطاق الأوساط الأكاديمية.

في الفصل الثالث، نُعيدُ تشكيل الظروف الاجتماعية والاقتصادية الفريدة التي أدَّت إلى بدايات العرق «كما نعرفه» في مجتمع أمريكا الشمالية الاستعماري. في مقال عن نشأة الأيديولوجية العرقية، تُشير سميدلي إلى أن ظهور العرق لم يكن بالعملية التلقائية التي حدثَت عند نزول الأوروبيِّين والأفارقة بالشواطئ الأمريكية. وإنما ما نجده إجمالًا في المستعمرات الأولى هو أمزجةٌ مميَّزة من عِرقيَّات العالَم «القديم» والعالَم «الجديد» المتحاربة والمتحابَّة والمتعايشة معًا دون اللجوء إلى العرق أو العنصرية (برلين ٢٠٠٣). سيطرت في البداية اختلافاتُ الدين (مسيحيون في مقابل ملحدين) والجنسية على أذهان المُستعمِرين الأوائل على نحوٍ أكبرَ من اختلافات لون البشرة. تصف سميدلي كيف تغيَّر ذلك كلُّه عندما اخترع مُلَّاكُ الأراضي الأثرياء العرقَ بغرض تبرير العبودية، وادِّعاء أحقيتهم في الاستحواذ على أراضي سكان البلاد الأصليِّين، وتعزيز الانقسام في صفوف طبقة العُمَّال المتزايدة التمرُّد من الأمريكيِّين الأصليين والأوروبيين والأفارقة. يتناقض ظهورُ حالة العبودية الدائمة والقابلة للتوريث بالنسبة إلى السود على نحوٍ صارخ مع العبودية بالمفهوم الذي تُمارَس به في مجتمعاتٍ أخرى ومع المبادئ التأسيسية للدولة، بما في ذلك المفهوم السريع التطوُّر للحرية والعتق بوصفهما من حقوق الإنسان التي لا يُمكن التنازل عنها.

يُقدم الفصل الرابع مقدمةً تمهيدية لنقاشنا حول علم الاختلاف البشري (الجزء الثاني)، الذي نستبعد فيه من وجهة نظرٍ تطوُّرية إمكانية أن تكون الأعراق البشرية موجودة من الأساس. يستمدُّ الفصلُ اسمه من كتابٍ لعالِم الأحياء التطوُّري ستيفن جاي جولد بعنوان «التقليل من شأن الإنسان»؛ وهو تفنيدٌ كلاسيكي لدراسات الذكاء القائمة على العرق. وفيه نبحثُ كيف أدركَ العلماءُ وغيرهم خرافة العرق كمُكوِّنٍ بيولوجي من خلال دراسة تفاصيل الاختلاف البشري وتحليلها. ونروي نشأة علم الأعراق، والعنصرية العلمية، وانهيارهما ثم عودتهما بينما كان العلماء يميلون إلى البحث عن الاختلافات العرقية التي أوجدتهما أو اختلقتهما. في تلك الأثناء، فنَّدَ علماءُ آخرون الدراسات العرقية عن طريق إعادة توجيه بؤر تركيزها الأساسية بعيدًا عن النهايات الحتمية (أحيانًا دون التعرُّض لمفهوم العرق كمُكوِّن بيولوجي)، أو عن طريق تقديم وسيلة غير عِرقية لدراسة الاختلاف بين البشر (مثل ليفينجستون ١٩٦٢، بريس ٢٠٠٥). بناءً على ذلك، توجد في معظم العلوم فكرةٌ متوارَثة ثلاثية المَحاور تتكوَّن من: العرقية/العنصرية/مناهضة العنصرية. تتجلى هذه الفكرة أثناء مُتابعة المخطَّط الزمني لهذا الفصل (موكوباداي وموزس ١٩٩٧، أرميلاجوس وجودمان ١٩٩٨، مولينجز ٢٠٠٥، ماركس ٢٠١٠). في هذا

الفصل، يستعرض عالِمُ الآثار جو واتكينز بُعدًا مهمًّا للفِكَر العرقية المتوارَثة والمُتعارِضة بعلم الأنثروبولوجيا في مقالٍ عن العلاقة محل النزاع عادةً بين الأمريكيين الأصليين وتطبيق علم الآثار في الولايات المتحدة الأمريكية.

يستكشف الفصل الخامس أصول العرق الأبيض ونشأته وامتداده عبر تاريخ الولايات المتحدة. على مدى القرون القليلة الماضية، أجرى بعض المؤرِّخين وعلماء الاجتماع والمحلِّلين الثقافيين دراساتٍ عن العرق الأبيض بوصفه مجالًا بحثيًّا واستقصائيًّا ثريًّا يُعنى بالتركيب التاريخي والثقافي للفئة العرقية المتمثِّلة في «البِيض» والإبقاء عليها. يتناول هؤلاء الباحثون بالتفصيل الصعوبات السياسية والاقتصادية الأولى التي واجهَت المهاجرين الأوروبيين على مدى مسيراتهم المتنوعة نحو «الدخول في زُمرة البِيض والانتماء إليهم»، بالإضافة إلى الامتيازات الاجتماعية والمادية التي مُنِحَت لهم في النهاية، وحُرِمَ منها آخرون بدعاوى عِرقية، خلال هذه العمليات (برودكين ١٩٩٨، جاكوبسون ١٩٩٨، دومينجيز ١٩٨٦، روديجر ١٩٩٩، ٢٠٠٨، هاني لوبيز ١٩٩٦). إننا نتناول موضوع التميُّز العرقي للبِيض كأشخاص من وجهات نظر عدة. تقارن المؤرِّخة نيل بينتر بين وجهة نظر توماس جفرسون وميشيل جيوم جين دي كريفكير، وهو دبلوماسيٌّ عسكري وكاتِبٌ فرنسي، بشأن النقاء العرقي (الأنجلو ساكسوني) باعتباره أساسَ نشأة العرق الأبيض لدى الأمريكيين الأوائل. ومن خلال ربط الماضي والحاضر، تُشارك عالِمة الأنثروبولوجيا كارول موكوباداي في هذا الفصل بمقالٍ تنويري عن استمرار مُصطلح «قوقازي» في الثقافة الأمريكية. وتشير موكوباداي بإقناعٍ إلى أن اعتزال هذا الأثر من علم الأنماط العرقية قد فات أوانه منذ أمدٍ طويل. في الواقع، تُذكِّرنا الحدود المتغيِّرة للعِرق الأبيض بأن الفئات والهُويات العرقية، بوصفها نِتاج توتراتٍ تاريخية واجتماعية، ظاهرةً للعيان وفي الوقت نفسه ربما تكون أقل ثباتًا عما تبدو عليه.

في الفصل السادس، وهو آخر فصول الجزء الأول، نناقش كيف أُجيزَ العرق والعنصرية والامتيازات العرقية من قِبل مَن بيدهم سلطة تشريع تلك الأمور. وهذا موضوعٌ بحثناه في مناقشتنا للعِرق الأبيض وتناولناه هنا بتوسُّع بحيث يشمل تجارب غير البِيض على اختلاف مسمَّياتهم. فنذكر جوانبَ أساسية من التاريخ الأمريكي المشترك المتمثِّل في نزع ملكية الأراضي من الأمريكيِّين الأصليين، والعبودية القائمة على أساس العرق، وجهود مُناهضة الهجرة، ومعاداة السامية، والفَصل العُنصري، واعتقال الأمريكيين اليابانيين،

وفرض الخط الأحمر (ممارسة الحرمان أو زيادة التكلفة في الخدمات كالتأمين والتوظيف والحصول على الرعاية الصحية، وحتى التسوُّق للمقيمين في مناطق لها غالبيةٌ عرقيةٌ محدَّدة)، وغير ذلك من أشكال التمييز والاضطهاد القانونية الأخرى. بالتأكيد لم تمرَّ هذه الإجراءات مرور الكرام؛ ولذلك فإننا نوضِّح كيف تصدَّى لها مؤيدو العدالة العرقية و/أو عدَّلوها و/أو خصَّصوها لغرضٍ معين. وبناءً عليه، نقدِّم أيضًا أهم مراحل التوسُّع المُستمر والدءوب في مجال حقوق الإنسان والحقوق المدنية التي تُوفر معلوماتٍ عن الهُويَّات العرقية التي يَحتفي بها كثيرون اليوم على نحوٍ يُمكن تبريره. يقدم الكاتِب جوناثان أوديل روايةً صادقة ومؤثِّرة عن تلقينه — عندما كان صبيًّا صغيرًا — امتياز البِيض وثقافة جيم كرو التي ترجع إلى خمسينيات القرن العشرين. وإلى جانب مناقشة التجارب المعاصرة عن العرق والعنصرية الموجودة في الجزء الثالث، يُذكِّرنا هذا الفصل بالمسافة الشاسعة التي قطعناها كأمة، والتي ينبغي لنا قطعها لتحقيق المساواة الكاملة بين الأعراق.

في كتابٍ مُختصَر، تكون الأحداث التاريخية المقدَّمة في هذا القسم قليلة وغير كافية بالضرورة. ولحُسن الحظ، تتوافر بسهولة معالجاتٌ تاريخيةٌ مُتميِّزة عن مفهوم العرق، بعضُها كَتَبه أفرادٌ من المساهمين في هذا الكتاب. إلا أن ربط النقاط عبر الزمان والمكان لفهم المشكلات والتجارب الإنسانية فهمًا تامًّا قدر الإمكان هو الأمر الذي يضطلع به علماءُ الأنثروبولوجيا على النحو الأفضل. ونرى أن العلاقات العديدة والعميقة بين الثقافة، والعِلم، والمجتمع، التي نشرع في استكشافها في هذا القسم، تُقدِّم إطارًا مفاهيميًّا جديدًا لفهم التنوع أو الاختلاف البشري في السياق الأكبر لإنسانيتنا المشتركة. علاوةً على ذلك، لا غنى عن معرفة المعلومات المقدَّمة هنا لأي شخصٍ يرغب في إعادة التفكير في مفهوم العرق وطَرحِ العنصرية. وأملنا أن يتكوَّن لديك فهمٌ أكبر للعِرق والتاريخ بوصفهما القوى الحية التي تُحرِّك الهويات وأوجه التفاوت وعدم المساواة المعاصرة. دعنا نبدأ …

المراجع

Armelagos, George J., and Alan H. Goodman:

1998 Race, Racism and Anthropology. *In* Building a New Biocultural Synthesis: Political–Economic Perspectives on Human Biology. Alan

H. Goodman and Thomas L. Leatherman, eds. pp. 359–377. Ann Arbor: The University of Michigan Press.

Berlin, Ira:

2003 Generations of Captivity: A History of African-American Slaves. Cambridge, MA: The Belknap Press of Harvard University Press.

Blakey, Michael L.:

1999 Scientific Racism and the Biological Concept of Race. Literature and Psychology 45: 29–43.

Blakey, Michael L.:

2010 African Burial Ground Project: Paradigm for Cooperation. Museum International 62: 61–68.

Brace, C. Loring:

2005 "Race" Is a Four-Letter Word: The Genesis of the Concept. New York: Oxford University Press.

Brodkin, Karen:

1998 How Jews Became White Folks And What That Says about Race in America. New Brunswick: Rutgers University Press.

Cooper, Anna Julia:

1988 A Voice from the South. New York: Oxford University Press.

Dominguez, Virginia R.:

1986 White By Definition: Social Classification in Creole Louisiana. New Brunswick: Rutgers University Press.

Drake, St. Clair:

1987 Black Folk Here and There: An Essay in History and Anthropology, vol. 1. Los Angeles: Center for Afro-American Studies, University of California.

Drake, St. Clair:

1990 Black Folk Here and There: An Essay in History and Anthropology, vol. 2. Los Angeles: Center for Afro-American Studies, University of California.

Du Bois, W. E. B.:

1939 Black Folk Then and Now: An Essay in the History and Sociology of the Negro Race. New York: Henry Holt and Company.

Farmer, Paul:

2003 Pathologies of Power: Health, Human Rights and the New War on the Poor. Berkeley: University of California Press.

Fields, Barbara J.:

1990 Slavery, Race and Ideology in the United States of America. New Left Review 181: 95–118.

Fields, Barbara J.:

2003 Of Rogues and Geldings. The American Historical Review 108: 1397–1405.

Haney López, Ian F.:

1996 White by Law: The Legal Construction of Race. New York: New York University Press.

Harrison, Faye V.:

1995 The Persistent Power of "Race" in the Cultural and Political Economy of Racism. Annual Review of Anthropology 24: 47–74.

Harrison, Faye V., ed.:

2005 Resisting Racism and Xenophobia: Global Perspectives on Race, Gender, and Human Rights. Walnut Creek, CA: Altamira Press.

Jacobson, Matthew Frye:

1998 Whiteness of a Different Color: European Immigrants and the Alchemy of Race. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Livingstone, Frank:

1962 On the Nonexistence of Races. Current Anthropology 3: 279–281.

Marks, Jonathan:

2010 The Two 20th-Century Crises of Racial Anthropology. *In* Histories of American Physical Anthropology in the Twentieth Century. Michael A. Little and Kenneth A. R. Kennedy, eds. pp. 187–206.

Mills, Charles W.:

1997 The Racial Contract. Ithaca and London: Cornell University Press.

Mukhopadhyay, Carol C., and Yolanda T. Moses:

1997 Reestablishing "Race" in Anthropological Discourse. American Anthropologist 99: 517–533.

Mukhopadhyay, Carol C., Henze, Rosemary, and Yolanda T. Moses:

2007 How Real Is Race: A Sourcebook on Race, Culture, and Biology. Lanham, MD: Rowman and Littlefield Education Press.

Mullings, Leith:

2005 Interrogating Racism: Toward an Antiracist Anthropology. Annual Review of Anthropology 34: 667–693.

Painter, Nell Irvin:

2010 The History of White People. New York: W. W. Norton and Company.

Roediger, David R.:

1999 The Wages of Whiteness: Race in the Making of the American Working Class. Rev. edition. London: Verso.

Roediger, David R.:

2008 How Race Survived U.S. History: From Settlement and Slavery to the Obama Phenomenon. London: Verso.

Smedley, Audrey:

2007 Race in North America: Origin and Evolution of a Worldview. 3rd edition. Boulder: Westview Press.

Snowden, Frank M., Jr.:

1983 Before Color Prejudice: The Ancient View of Blacks. Cambridge, MA: Harvard University Press.

الفصل الثالث

اختراعُ العرق

لم يكن العرق موجودًا في الطبيعة، وإنما اخترعه الأشخاص ذوو السلطة.

معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

يقرُّ معظم الباحثين حاليًّا بأن العرق فكرة، أو مجموعة فِكَر، تتعلَّق بالاختلاف البشري. وغالبًا ما تكون هذه الفِكَر غير دقيقة وغير كافية على نحوٍ مُؤسِف لفهم أو تفسير طبيعة التنوع البشري وآلياته المختلفة. ومع ذلك، فإنها تلعب دورًا رئيسًا في صياغة تفسيراتنا للاختلافات بين الأفراد والجماعات، بالإضافة إلى شبكاتنا الاجتماعية وعلاقاتنا المادية. بعبارةٍ أخرى، نحن لا نُدرك وجود الأعراق البشرية — على الأقل، ليس من خلال أي وسائلَ موضوعيةٍ — وإنما نخترعها. فالأعراقُ البشرية لم تنشأ في الطبيعة، وإنما هي نِتاج المعتقدات الشعبية المنبثقة عن ممارساتٍ ثقافية واجتماعية.

كيف بدأت فكرةُ العرق؟ تكمن الإجابة في العلاقة المُعقَّدة المتبادلة التأثير بين العِلم، والحكومة، والثقافة، في تاريخ التوسُّع الاستعماري الإسباني في الأمريكتَين. عندما وصل المُستعمرون الأوروبيون إلى شواطئ أمريكا الشمالية للمرة الأولى في أوائل القرن السادس عشر، كان الأمريكيون الأصليون يقطنون هذه الأراضي، وكان الإسبان والفرنسيون والإنجليز كثيرًا ما يَشتبكون مع سكان البلاد الأصليِّين بينما كانوا يُقيمون المستعمرات في فلوريدا، والمنطقة الشمالية الشرقية المُتاخِمة لكندا، ومُستعمرة فرجينيا، والجنوب الغربي. في بادئ الأمر، اعتبر الأوروبيون القبائلَ الأصلية المتنوِّعة «أممًا» مُنفصلة، لا «أعراقًا»، ولم يصف المُستعمِرون الإنجليز الأوائلُ السودَ بكلماتٍ ذات صبغةٍ عِرقية عندما

وضعوا نظام عملٍ قائمًا على العبودية المرتبطة بعقودٍ طويلة الأجل، وهو نظامٌ شملَ كلًّا من الأوروبيين والأفارقة. إلا أن وضع الأفارقة بدأ يتغيَّر على نحوٍ بالغ بحلول منتصف القرن السابع عشر؛ فلم يعودوا خَدمًا مع توقُّع حصولهم على الحرية بعد فترة من العبودية، مثل نظرائهم الأوروبيين. وبدلًا من ذلك، أحالَ زعماءُ المستعمراتِ الأفارقةَ إلى مرتبةٍ أدنى تمثَّلت في العبودية الدائمة. وعلى مدى فترة معيَّنة، كان العبيدُ الأفارقة والأمريكيون الأصليون يعملون جنبًا إلى جنب (مع العُمَّال الأوروبيين المرتبطين بعقودٍ طويلة الأجل) في إنتاج الأرز، والقطن، والنِّيلة، وغيرها من المحاصيل النقدية، إلا أن العبودية في النهاية كانت حِكرًا على السود. شرعَ المستعمرون الإنجليز في وضع هَرَمية عِرقية من خلال اعتمادهم المُتزايد على العبودية وطموحاتهم في الاستيلاء على الأراضي الأمريكية من سكانها الأصليين. لم تبدأ العبودية وانتزاع ملكية الأراضي من الأمريكيِّين الأصليين مشروعاتٍ عِرقيةً أو قائمة على العرق، لكنها أصبحت كذلك.

حتى الآن، ربما تتساءل لماذا استلزمت العبودية والحملات العسكرية ضد سكان البلاد الأصليين تبريراتٍ في المقام الأول. من المؤكَّد أننا نرى العبودية الآن وصمةً أخلاقية، «الخطيئة الأصلية» لأمتنا، ومع ذلك فإن المجتمعات والتصرفات الأخلاقية التي نشهدها اليوم تختلف اختلافًا ملحوظًا عن مجتمعات وتصرفات الأمس. ألم يتماشَ الاستعمار والعبودية مع قيم الأغلبية في ذلك العصر؟ ألم تُمارَس العبودية في كل أنحاء العالم — بما في ذلك في أفريقيا والأمريكتَين — قبل عصر الاستعمار؟ لماذا إذن اضطرَّ المستعمرون الإنجليز إلى تبرير هذه الممارسات التي مضى عليها ألف عام سواءٌ من خلال العرق أو أي وسائلَ أخرى؟

على الرغم من أن المرءَ قد يميل للنظر إلى العبودية على أنها نفس النظام سواءٌ مُورسَت في روما القديمة، أو في جولد كوست (غانا) القرن السابع عشر، أو في فرجينيا القرن التاسع عشر، فلم يكن هذا ما عليه الوضعُ في نهاية الأمر؛ فقد كانت العبودية القائمة على العِرق في الأمريكتين هي — دون أي سابقةٍ تاريخيةٍ أخرى — أساس اقتصاد «بلدان المحيط الأطلنطي» الممتد السريع التوسُّع. على سبيل المثال، كان من بين الاختلافات الجوهرية بين «مجتمعات الرقيق» الأمريكية وغيرها من «المجتمعات التي تتضمَّن عبيدًا» مدى الاغتراب الاجتماعي بين العبيد و«سادتهم» (برلين ٢٠٠٣، مياسُّو ١٩٩١). في النمط الأول من المجتمعات، كان العبيدُ عادةً ما يجدون أنفسهم مُندمجين في النسيج الاجتماعي بوصفهم يشغلون المرتبة السُّفلى في سُلَّم قرابةٍ بيولوجية وتخيُّلية زائفة. ومهما بدت فكرة

المساواة بين البشر مُستبعَدة وبعيدة الاحتمال في نظر النُّخبة في هذه المجتمعات، فإنهم عادةً لم يَعتبروا أن من الضروري التشكيك في الطبيعة الإنسانية الجوهرية لأولئك الذين استعبَدوهم، سواءٌ من خلال الغزو أو الدَّين أو غير ذلك. كما أن العبودية لم تكن تُورَّث بالضرورة، ولم تكن لعنة تتوارثها الأجيال الهدفُ منها ضمانُ توفير عُمَّال من العبيد، حسب ما آلَ إليه الوضعُ في المستعمرات الأمريكية في نهاية الأمر؛ ومن ثمَّ كان توقُّع الحرية أكثرَ ترجيحًا في «المجتمعات التي تتضمَّن عبيدًا»، إنْ لم يكن للعبيد أنفسهم، فلأبنائهم.

ظهر العرق على وجه التحديد من أجل تبرير هذا الشكل الجديد الذي يُجرِّد العبودية من الصفات الإنسانية، وهذه النظرة التي تصوِّر الأمريكيين الأصليين على أنهم همجيون («نُبلاء» أحيانًا) لا يستحقون أراضيهم. خلال سبعينيات القرن الثامن عشر، عندما شنَّ المستعمرون الإنجليز في الولايات المتحدة حربًا للاستقلال عن مملكة بريطانيا العظمى، كانوا على درايةٍ تامة بتناقُضاتهم الأخلاقية. وفي الواقع، بمرور الوقت، كان خوفهم الدائم أن المجتمعات المُستعبَدة ربما تُصبح مصدر إلهام لتمرُّدٍ أوسع نطاقًا ينبثق عن حركات النضال الناجحة من أجل الحرية على جانبي المحيط الأطلنطي، لا سيَّما الثورة الهايتية (جيمس ١٩٨٩). ومع ذلك، استمر المستعمرون الإنجليز في رفضِهم منح الأفارقة حريتهم وحبس الحقوق عن الأمريكيِّين الأصليِّين. ومن دواعي المفارقة أنْ كان من أوائل ضحايا الحرب الثورية كريسبوس أتوكس، وهو أحدُ العبيد الفارِّين الذي ينحدر من أصول أفريقية وهندية.

ربما لا توجد شخصيةٌ تاريخية بارزة تُجسِّد التناقضات السياسية والشخصية المتأصِّلة فيما يتعلَّق بالعرق والعنصرية مثل توماس جفرسون، ثالثُ رئيس للولايات المتحدة. على الرغم من أن جفرسون كان مالِك عبيدٍ في فرجينيا ساعدَ في وضع مسوَّدة إعلان الاستقلال، فقد كتبَ في واقع الأمر بيان إدانة مُطوَّلًا عن العبودية استُبعِدَ من النسخة النهائية للوثيقة. ومن المعروف حاليًّا أن جفرسون، على أفضل تقدير، كان له أبناءٌ من فتاةٍ ضمن عبيده تُدعى سارة «سالي» همينجز، وهو ادعاءٌ يرجع تاريخه في حقيقة الأمر إلى فترة رئاسته الأولى (جوردون-ريد ٢٠٠٨). وبالإضافة إلى عمله السياسي، كان جفرسون من العلماء البارزين في مجال التاريخ الطبيعي، وهو دورٌ شجَّع من خلاله على الاستكشاف العلمي للأصول العرقية ودُونيَّة السود على وجه التحديد. في كتابه «ملاحظاتٌ حول ولاية فرجينيا»، يرى جفرسون أن السُّودَ يمتلكون «هباتٍ جسديةً

وعقلية أقل شأنًا» بالمقارنة بالبِيض، وبدرجةٍ أقلَّ، بالأمريكيِّين الأصليين. ويتساءل عمَّا إذا كان هذا الوضع — المطروح «على سبيل الظن فحسب» — يعكس أصولًا طبيعية منفصلة للعِرق، أم أنه بدلًا من ذلك نتيجة التشعُّب العرقي عن أصلٍ مشترك (سواءٌ كان ذلك في شكل نوعٍ أو نُوَيْعٍ منفصل) بسبب «الزمن والظروف»، كما سنُناقش في الفصل التالي. تناوَل العلماءُ هذا التحدِّي بحماسٍ كبير؛ فقد سعى بعضهم بالفعل، مثل عالِم الطبيعة السويدي كارولوس لينيوس — الذي قدَّم في الطبعة العاشرة من كتابه «نظام الطبيعة» (١٧٥٨) نظام التسمية الثنائية المعروف (اسم الجنس، والنوع) في تصنيف الكائنات الحية (على سبيل المثال، الإنسان العاقل) — بحث «الأعراق البشرية» وتصنيفها.

المخطط الزمني لاختراع العرق (١٤٠٠–١٨٠٠)

لم يكن العرق أبدًا مسألةً تتعلَّق بالفئات التصنيفية، وإنما كان مسألة تتعلق بإنشاء التدرجات الهَرَمية.

المؤرِّخ روبن دافيز جِبران كيلي جامعة جنوب كاليفورنيا:
معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

الفترة السابقة على ظهور العرق: قبل ظهور العبودية العرقية في المستعمرات الأمريكية، لم يكن لمفهوم العرق — بوصفه طريقة لتقسيم شعوب العالم وتصنيفها — وجودٌ في أوروبا. كان معيارُ الاختلاف الأساسي هو الدِّين؛ فكانت ثمة شعوبٌ مسيحية، وأخرى كافِرة تتضمَّن اليهود والمسلمين والوثنيِّين. وكانت العبودية موجودة، بيد أن تصنيف المرء على أنه عبدٌ كان يستند إلى انتمائه الديني بوصفه غير مسيحي، لا إلى لون بشرته أو «عِرقه».

ميَّز التوسُّع، والغزو، والاستغلال، والاسترقاق، جانبًا كبيرًا من التاريخ البشري على مدى الخمسة آلاف عام الماضية أو نحو ذلك، لكن لم يؤدِّ أيٌّ من هذه الأحداث السابقة على العصر الحديث إلى نشأة أيديولوجيات أو نُظمٍ اجتماعيةٍ قائمة على العرق.

سميدلي ١٩٩٩

١٤٩٢ وصول كولومبوس: في نفس العام الذي شَهد وصول كولومبوس إلى الأمريكتين، طُرِدَ اليهودُ من إسبانيا.

أوائل القرن السادس عشر سلسلة الوجود العظمى: في أوائل القرن السادس عشر، كان الأوروبيون ينظرون إلى العالم على أنه مُنظَّم في هَرَميةٍ صارمة فرضها الله أو في «سلسلة وجودٍ عظمى» تبدأ بالله وتنتهي بأدنى المخلوقات، مرورًا بالملائكة والبشر. وعندما شرعوا في تصنيف شعوب العالَم إلى أعراق، في أوائل القرن السابع عشر، استمرَّت هذه الفكرة وساهمت في المفهوم القائل بأن الأعراق أيضًا ربما يمكن ترتيبها شأنها شأن جميع الكائنات الأخرى.



شكل ٣-١: «سلسلة الوجود العظمى» من كتاب «ريتوريكا كريستيانا» (١٥٧٩) لمؤلِّفه دييجو فالاديز (بتصريح من مكتبة جيمس فورد بيل، جامعة مينيسوتا).

١٥٢١ سقوط الآزتك: الغزو الإسباني لإمبراطورية الآزتك، المكسيك حاليًّا.

١٥٢٥ وحوشٌ من مكانٍ بعيد: الألماني لورينتس فريس نَقَشَ الصورة المُوضَّحة في شكل ٣-٢ لأحد الأطالس، التي صوَّر فيها الشعبَ الكاريبي الأصلي على أنهم آكلو لحوم بشرٍ، لهم رءوسُ كلاب، يعيشون في بيوتٍ على الطراز الأوروبي ويمتطون حيوان اللامَا. في القرن السادس عشر، كان

الأوروبيون يُقابلون أشخاصًا مُختلفين أثناء غزوهم واحتلالهم أمريكا الشمالية والجنوبية، وكانت الصور المشابهة لصورة فريس مُنتشرة في السنوات الأولى من قدوم الأوروبيين إلى العالم الجديد.

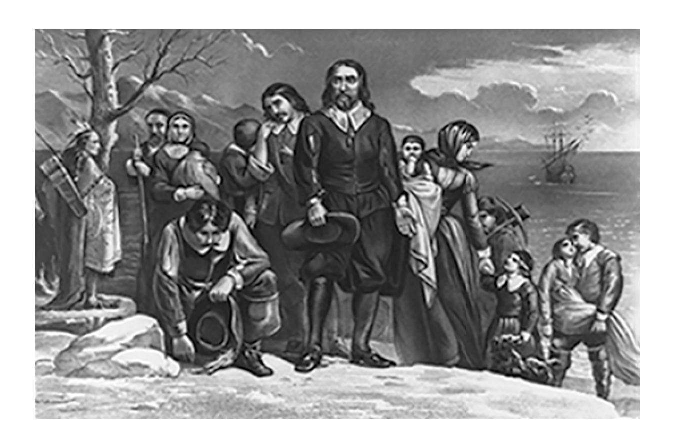
في أوائل القرن الخامس عشر، حينما كان السفر سيرًا على الأقدام أو على ظهور البعير، لم يحدث قط — حتى للمسافرين الأكثر حنكةً حول العالم — أن صنَّفوا البشر؛ لأن ما رأوه كان تغيُّرًا تدريجيًّا. بالنسبة إلى الأوروبيين، تغيَّر ذلك الوضع في القرن السادس العشر والقرن السابع عشر، عندما تسنَّى لهم ركوب قارب، والإبحار لشهور، والوصول إلى قارةٍ مختلفة. وعندما نزلوا فيها، أدهشهم مدى الاختلاف الذي بدا عليه الجميعُ هناك. إنَّ فئاتنا العرقية التقليدية هي ببساطة نقاط النهاية في شبكات التجارة القديمة الواقعة وراء المحيط.

عالِم الأنثروبولوجيا تشارلز لورينج بريس،
جامعة ميشيجان: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ٣-٢: لوحة آكلي لحوم البشر الكاريبيِّين للفنان لورينتس فريس. من خريطة «كارتا مارينا» (١٥٢٥) لواضِعها لورينتس فريس (بتصريحٍ من مكتبة ليلي، جامعة أنديانا).

١٥١٣–١٦٠٤ المستعمرات الإسبانية والفرنسية الأولى: الإسبان والفرنسيون يقومون برحلاتهم الاستكشافية، ويقيمون المستعمرات في أمريكا الشمالية. تأسَّست مُستعمَرة سانت أوغسطين عام ١٥٦٥، وتحت لواء إمبراطورية إسبانيا، وفَّرت الملاذ والحرية لأفراد العبيد الذين اعتنَقوا الكاثوليكية. أقام الفرنسيون مُستعمَرة أكاديا عام ١٦٠٤، والتي ضمَّت أجزاءً من مقاطعة كيبيك الشرقية، والمقاطعات البحرية الكندية، وما يُعرَف حاليًّا بإقليم نيو إنجلاند. عمل المستعمرون الإسبان والفرنسيون على إقناع الهنود الأمريكيين باعتناق الكاثوليكية.



شكل ٣-٣: رُسُوُّ الرَّحالة في بليموث (بتصريحٍ من مكتبة الكونجرس).

١٦٠٧ بداية الاستعمار الإنجليزي: إقامة أول مستعمرةٍ إنجليزيةٍ ناجحة في أمريكا بمدينة جيمستاون.

١٦١٧ بوكاهانتس تزور ملك بريطانيا: بوكاهانتس، ابنة زعيم قبيلة من الأمريكان القدماء وزوجة جون رولف أحد مستوطِني جيمستاون الأوائل، تزور إنجلترا وتَمثُل في بلاط الملك جيمس الأول.

في أوائل القرن السابع عشر، لم يكن الإنجليز يفكِّرون بأسلوبٍ عِرقي. كانت المكانة الاجتماعية والدِّين هما الأمران اللذان يحظيان بأهمية أكبر. استُقبِلَت بوكاهانتس استقبالًا حسنًا في لندن لأنها كانت من الأميرات.

المؤرِّخة كارين كوبرمان، جامعة نيويورك،
معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ٣-٤: بوكاهانتس (بتصريحٍ من مكتبة الكونجرس).

١٦١٩ الأفارقة الأوائل في فرجينيا: وصل الأفارقة الأوائل إلى المستعمرات الإنجليزية في جيمستاون. وكان الأفارقة مملوكين كعبيد في المستعمرات البرتغالية والإسبانية بأمريكا الجنوبية ومنطقة البحر الكاريبي، إلا أن وضعهم في الفترة الأولى من تاريخ مُستعمَرة فرجينيا كان أقل وضوحًا.

لم يكن يُنظَر في البداية إلى الأفارقة الأوائل الذين وصلوا إلى جيمستاون عام ١٦١٩ على أنهم عبيد؛ إذ استلزم الأمر إدخال العبودية وإقرارها كعُرفٍ جديد في هذه المستعمَرات.

عالِمة الأنثروبولوجيا أودري سميدلي،
جامعة فرجينيا كومونولث، معرض العرق،
متحف مينيسوتا للعلوم

أوائل القرن السابع عشر العبودية المرتبطة بعقودٍ طويلة الأجل: إنَّ الكثير ممَّن وفدوا إلى المستعمرات، سواءٌ من الأفارقة أو الأوروبيين، وصلوا كعُمَّال بنظام التعاقد الطويل الأجل، والتزموا بالعمل لفترةٍ زمنيةٍ معينة — تتراوح عادةً ما بين أربع وسبع سنوات — مقابل المأكل والمسكن. فَرَضَ الإنجليزُ على الفقراء والمُعدِمين، والمُجرمين، وأسرى الحرب الأيرلنديين؛ نظامَ العمل القسري. وعاشوا حياةً من العمل الشاق، وقلة الغذاء، وندرة الحقوق. والكثيرُ منهم ماتوا قبل إكمال مُدَّتهم. في مستعمرة فرجينيا، حتى أواخر القرن السابع عشر، كانت العبودية المرتبطة بعقودٍ طويلة الأجل

— وليس العبودية الصريحة — هي الشكل السائد للقُوى العاملة. وفي المستعمرات، كان الخَدَمُ البِيض والسود يعملون جنبًا إلى جنب.



شكل ٣-٥: وصول الأفارقة الأوائل إلى جيمستاون (بتصريح من مكتبة فرجينيا).

لاذَ [الخَدَمُ البِيض والسود] بالفرار معًا، ولعبوا معًا، وثاروا معًا.

تصاحَبوا وتزاوَجوا، وأنجبوا أعدادًا ضخمة من السكان المختلطين. وفي خضمِّ هذا، أنشأ الخَدَمُ السود والبِيض — الذين يُمثِّلون غالبية سكان المستعمرة — منطقةً عِرقيةً عجيبة ... كان حاجزُ التقسيم الرئيسي ... بين الخَدَم والأحرار، وكان ثمة بِيضٌ وسود على كلا جانبَي هذا الحاجز.

بنيت ١٩٨٧

١٦٢١ مالِك رقيق أفريقي: وصلَ أنتوني جونسون في فرجينيا، إما كعبدٍ أو كخادم يعمل بنظام التعاقد الطويل الأجل. وبعد فترة من الوقت، نالَ حريته وسرعان ما أصبح فردًا مرموقًا في المجتمع،

يَمتلك مزرعةً كبيرة وماشية وعبيدًا. وعام ١٦٥٥، قدَّم طعنًا قضائيًّا ضد مُزارِع أبيض استولى بدون وجهٍ قانوني على أحد العبيد العاملين لديه، ورَبحَ القضية أمام محاكم المستعمرة.

١٦٤٠ عقوبة غير متساوية: كعقابٍ على الفرار، صدر حُكم على خادمٍ أسودَ يعمل بنظام التعاقد الطويل الأجل، يُدعى جون بانش، بالعبودية مدى الحياة. إلا أنه فُرِضَ على رفيقَيه البِيض، المرتبطَيْن أيضًا بعقودٍ طويلة الأجل، بالعمل لعامٍ إضافيٍّ واحد.

[هذه هي] أول إشارةٍ واضحة للعبودية الصريحة ... لم يصدر حُكم كهذا ضد أجير من البِيض في أيِّ مُستعمَرةٍ إنجليزيةٍ معروفة حتى ذلك الحين.

جوردان ١٩٦٨



شكل ٣-٦: ميتاكوم، أو الملك فيليب (بتصريح من مكتبة جامعة براون).

١٦٧٥–١٦٧٦ حرب الملك فيليب: أُصيبَ ميتاكوم، زعيمُ قبيلة وامبانواج الهندية (الذي أطلق عليه المستعمرون الإنجليز الملك فيليب)، بالإحباط بسبب التنافس المُتزايد على الأراضي والمعاملة المُهينة

من قِبَل المُستعمِرين؛ فأعلنَ الحرب. هُزِمَ الملك فيليب، ودُمِّرت القبائل في كل أنحاء المنطقة، وألقى المُستعمِرون القبضَ على الكثير من الهنود المُحايدين من معتنقي المسيحية الجُدد.

عندما أصبح الاستيطان الدائم هو الاهتمام الأساسي لدى الإنجليز ... والأرض هي الغاية، سيطرت صورة الهنود كهمجيِّين مُعادين على أذهان الإنجليز ... كان الهدفُ من ترسيخ صورةٍ نمطية للهنود على أنهم برابرة همجيُّون هو حلَّ معضلةٍ أخلاقية قائمة. لو كان الهنود ودودين وكُرماء ومتحمِّسين للتجارة حقًّا، فما التبرير الذي يُمكن تقديمه إذن للاستيلاء على أراضيهم؟ أما إذا كانوا همجيِّين، لا دينَ لهم أو ثقافة، فربما أمكن الدفاع عن أفعال المستعمرين.

ناش ١٩٧٠

في فرجينيا، اتحدَ البِيض والسودُ — خدمًا وعبيدًا وأحرارًا — ممَّن سُلبت أراضيهم، فأعلنوا التمرُّد على الظروف الاقتصادية الجائرة وإساءة استعمال السلطة في المُستعمَرة. تمكَّنت القوات البريطانية من قمع التمرُّد، إلا أنه كَشَفَ لأصحاب المزارع من البِيض الأثرياء عن خطر تحالُف البِيض الفقراء مع نظرائهم السود.

كان حلُّ هذه المشكلة هو العنصرية، أي فَصْل العناصر الَخطِرة من البِيض الأحرار عن العناصر الخطِرة من السود العبيد عن طريق حاجز الازدراء العرقي. ومن خلال مجموعة من القوانين، بذلت الجمعية العمومية [لولاية فرجينيا] كلَّ ما في وسعها لتعزيز ازدراء البِيض للسود والهنود.

مورجان ١٩٧٥

١٧٥٨ كتابُ لينيوس عن العرق: نشر عالِمُ الطبيعة السويدي كارولوس لينيوس الطبعة العاشرة من كتابه «نظام الطبيعة»، ذلك النظامُ الشامل الذي وضعه في تصنيف العالَم الطبيعي. حدَّد لينيوس أربعة أعراق رئيسية للبشر، فضلًا عن نوعَيْن إضافيَّين — الوحوش والإنسان البري (إنسان الأدغال). كما حدَّد السمات السلوكية للأعراق الأربعة. يسري تأثيرُ لينيوس ببطءٍ في الفئات العرقية التي لا تزال قيد الاستخدام حاليًّا.

كان القرن الثامن عشر يمثِّل العصر الذهبي للتصنيف. غمرت الرحلات الاستكشافية أوروبا بأعدادٍ هائلة من نماذج النباتات، والحيوانات، والبشر، الجديدة والغريبة. وسعى مؤرِّخو الطبيعة — في محاولةٍ لإعمال العقل في شئون الطبيعة الصعبة التناوُل — إلى تطبيق مبادئَ جديدةٍ وبسيطة يُلتزَم بها عالميًّا.

شيبينجير ١٩٩٣

لينيوس والأعراق الأربعة

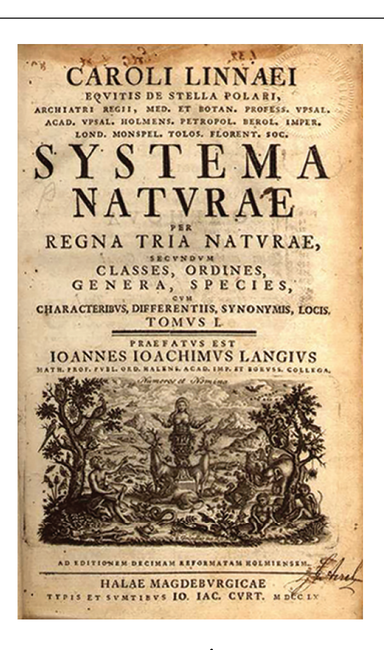
- العرق الأمريكي: العرق الأحمر، سريعُ الغضب، مُنتصِبُ القامة،
صعبُ المِراس، مُبتهِجٌ، حُرٌّ، يطلي نفسه بخطوطٍ حمراء، يحتكم إلى العادات والتقاليد.
- العرق الأوروبي: العِرق الأبيض، مُتفائل، مفتولُ العضلات،
دمث الخلق، ذكي، مبدِع، يرتدي ملابس متحفظة.
- العرق الآسيوي: شاحب، سوداوي، قوي،
صارم، متغطرس، متكالِب، يرتدي ملابس فضفاضة، يحكمه الرأي والاعتقاد.
- العرق الأفريقي: العرق الأسود، بارد الطباع، مُسترخٍ،
ماهر، كسول، متقاعس، يدهن نفسه بالزيت، يحكمه الهوى.



شكل ٣-٧: كارولوس لينيوس (بتصريح من المتحف الوطني في ستوكهولم).

١٧٧٦ إعلان الاستقلال: توماس جفرسون يضع مسوَّدة إعلان الاستقلال، متضمِّنةً جملته الشهيرة «جميع البشر خُلقوا متساوين.»

١٧٨١-١٧٨٢ حقوقٌ لا يُمكن سلبها … للبعض: توماس جفرسون، الذي صار فيما بعد رئيسًا للولايات المتحدة ومن المُرجَّح أنه كان أبًا لواحدٍ على الأقل من العبيد الذين يَمتلكهم، ينشرُ لأول مرة «ملاحظات حول ولاية فرجينيا»، وهي دراسةٌ حول التاريخ الطبيعي لولاية فرجينيا، وكذلك الحياة الاجتماعية والسياسية فيها.



CAROLI LINNAEI
EQVITIS DE STELLA POLARI,
ARCHIATRI REGII, MED. ET BOTAN. PROFESS. VPSAL.
ACAD. VPSAL. HOLMENS. PETROPOL. BEROL. IMPER.
LOND. MONSPEL. TOLOS. FLORENT. SOC.

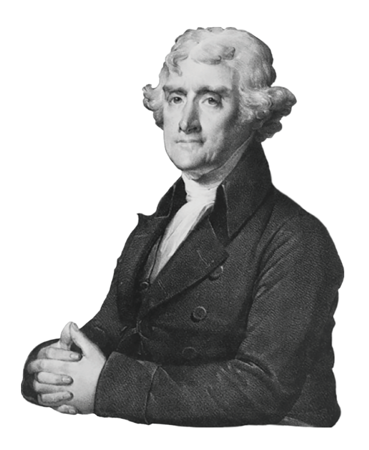
SYSTEMA
NATVRÆ
PER
REGNA TRIA NATVRAE,
SECVNDVM
CLASSES, ORDINES,
GENERA, SPECIES,
CVM
CHARACTERIBVS, DIFFERENTIIS, SYNONYMIS, LOCIS.
TOMVS I.

PRAEFATVS EST
IOANNES IOACHIMVS LANGIVS
MATH. PROF. PVBL. ORD. HALENS. ACAD. IMP. ET BORVSS. COLLEGA.

AD EDITIONEM DECIMAM REFORMATAM HOLMIENSEM.

HALAE MAGDEBVRGICAE
TYPIS ET SVMTIBVS IO. IAC. CVRT. MDCCLX

شكل ٣-٨: كتاب «النظام الطبيعي» (نسخةٌ ممسوحة ضوئيًّا من غلاف الكتاب، مقدَّمة من متحف مينيسوتا للعلوم).



شكل ٣-٩: توماس جفرسون (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

ومن ثمَّ، ارتأيتُ على سبيل الشك فحسب أنَّ السود — سواءٌ أكانوا في الأصل عِرقًا مختلفًا، أو صاروا عِرقًا مختلفًا بمقتضى الوقت والظروف — أدنى شأنًا من البِيض فيما يتعلق بالهبات الجسدية والعقلية لكلٍّ منهما ... ويُمثِّل هذا الاختلافُ المُؤسِف في اللون، وربما في المَلَكات العقلية، عائقًا قويًّا أمام تحرير هؤلاء الأشخاص.

جفرسون ١٩٥٥

(١) أودري سميدلي: نشأة أيديولوجية العرق



أودري سميدلي: هي أستاذٌ مُتقاعِد لمادة الأنثروبولوجيا بجامعة فرجينيا كومونولث وجامعة بينجامتون، ومؤلِّفة كتاب «العرق في أمريكا الشمالية: نشأته وتطوُّره كنظرة عالمية». لا شك أن استخدام مصطلح «العرق» مع البشر يرجع إلى تاريخٍ سابق على التجربة الأمريكية الاستعمارية. ومع ذلك، لم نشهدْ بدايات نظامٍ أيديولوجي تامٍّ النضج يستند إلى فكرة الاختلافات العرقية التي لا يُمكن التوفيقُ بينها، ومكرَّس لإعادة إنتاجها، حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر. في هذا المقال، تصف سميدلي القُوى والأحداث الاجتماعية والاقتصادية — القرارات — الحاسمة التي أدَّت إلى نشأة فكرة العرق في أمريكا خلال عصر الاستعمار (الصورة الفوتوغرافية بتصريح من جوزيف جونز).

* * *

أوضحت الدراسات التاريخية المعاصرة أنَّ «العرق» كان اختراعًا حديثًا نسبيًّا في التاريخ البشري (ألين ١٩٩٤، ١٩٩٧، فريدريكسون ٢٠٠٢، هانافورد ١٩٩٦، سميدلي ٢٠٠٧). يشير المؤرِّخون إلى أن معتقداتنا الشائعة عن الأعراق البشرية لم تكن موجودة قبل أواخر القرن السابع عشر. يتَّفق هؤلاء المؤلفون على أن العرق كان في الأساس اختراعًا ثقافيًّا عن الاختلافات البشرية التي كان أساسها في الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وعلى الرغم من أن معظم الأمريكيِّين لا يزالون يعتقدون أن الاختلافات الجسدية المنعكسة في لون البشرة هي أساس التصنيفات العرقية، فإن تلك الاختلافات لا تُخبرنا شيئًا عن طبيعة التنوع الجسدي بين البشر ولا عن حقائق النشوء الحيوي الغامضة. يرى العِلمُ الحديث الآن أنه لا أساسَ في العِلم لتصنيفات البشر التي نطلق عليها أعراقًا (الجزء الثاني).

نشأ العرق كأيديولوجيةٍ شعبية عن الاختلافات بين البشر وشكَّلته المعتقداتُ والمواقف المُتعلِّقة بهذه الاختلافات. ظهرت هذه المواقف والمعتقدات على مدى فترة بدأت تقريبًا في تسعينيات القرن السابع عشر واستمرَّت خلال القرن الثامن عشر، وهي فترةٌ تتزامن أيضًا مع القوانين العديدة التي أقامت نظام العبودية في أمريكا. ومن أواخر القرن الثامن عشر فصاعدًا، دعَّم هذه المعتقدات الشائعة ظهورُ حُججٍ علميةٍ موضوعة بهدف تأكيدها.

(١-١) أهمية التاريخ

شرع الإنجليزُ عام ١٦٠٧ في إنشاء المستعمرات في أمريكا الشمالية، على غرار الإسبان والبرتغاليين، بهدف كسب الثروة. حاول عبثًا المستعمرون الأوائل، الذين استولوا على معظم الأراضي، إجبارَ الهنود المُحتَلين على العمل قسرًا. بيد أن الهنود لم يَقبلوا العمل القسري برحابة صدر؛ إذ لقي الكثيرُ منهم حتفهم جراء الأمراض الأوروبية، بينما لاذ آخرون بالفرار إلى أراضٍ غير معروفة. اتجه الإنجليز بعد ذلك إلى استجلاب أفرادٍ من الجزر البريطانية للعمل كخدم بموجب عقودٍ طويلة الأجل، والعديد منهم كانوا من الأيرلنديين الذين أُسِروا خلال الحرب. وكان هؤلاء من الرجال الفقراء، وبعضهم كانوا نساءً، سُمِحَ لهم بالعمل لسداد ديون نَقلِهم؛ ومن ثمَّ نيل حريتهم فيما بعد. كانت الحاجة إلى العمل ماسَّةً وشديدةً؛ بالكاد ما استطاع المستعمرون الأوائل العيشَ على ما استطاعوا إنتاجه بأنفسهم، وارتفع معدلُ الوفيات كما نعلم. وسرعان ما أدركوا أن التبغ

هو المحصول الوحيد الذي من شأنه أن يُدرَّ عليهم ثروةً طائلة، وهو من المحاصيل التي تتطلب عمالةً كثيفة للغاية.

لم يُعتبَر الأفارقةُ الأوائل، الذين وَطِئت أقدامهم مُستعمَرة فرجينيا عام ١٦١٩، عبيدًا في بادئ الأمر. كانوا يحملون أسماءً إسبانية أو برتغالية، وكانوا على دراية بالثقافة الأوروبية. وكانوا يُعامَلون، شأن غيرهم من العُمَّال الفقراء، على أنهم خدم بعقودٍ طويلة الأجل يستطيعون أيضًا نَيل حريتهم بعد سداد ديونهم. بعضُ هؤلاء الأفارقة عملوا بجدٍّ واجتهاد، وحازوا أراضي وبيوتًا وماشية ومعداتٍ خاصةً بهم. يتَّفق المؤرخون الآن على أن العبودية بمعناها الصريح لم يكن لها وجودٌ في العقود الأولى من المُستعمَرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية (راجِع ألين ١٩٩٧، فريدريكسون ٢٠٠٢، إدموند مورجان ١٩٧٥، بي مورجان ١٩٩٨، بيرانت الابن ٢٠٠٣). بالإضافة إلى ذلك، تندر — أو تنعدم — الأدلة التي تُشير إلى أن الأفارقة كانوا يُعامَلون على نحوٍ مُختلف عن غيرهم مِمَّن ينتمون إلى الفئة نفسها. وأُدمِج الأفارقة في مجتمع المُستعمَرة شأنهم شأن غيرهم. وعندما حازوا الأراضي، شاركوا في الجمعية العمومية، وهي الهيئة الحاكِمة للمستعمرة، وأدلوا بأصواتهم، وعَمِلوا في هيئات المحلَّفين، وكوَّنوا علاقاتٍ اجتماعيةً مع أصحاب المزارع البِيض.

كتبَ المؤرخ إدموند مورجان:

> ثمَّة أدلةٌ كثيرة على أن سكان فرجينيا خلال هذه السنوات كانوا على استعدادٍ للتفكير في الزنوج الأفارقة على أنهم أعضاءٌ فعليون أو مُحتمَلون في المجتمع وفقًا للشروط نفسها المُطبَّقة على غيرهم من الأشخاص، وكانوا على استعدادٍ أيضًا لإلزامهم بمعايير السلوك نفسها. كان الرجالُ السود والبِيض الذين يخدمون نفس السيد يعملون ويأكلون وينامون معًا، واشتركوا معًا في الهروب والفرار والعقاب (١٩٧٥: ٣٢٧).

ويكتب مضيفًا: «كان من الشائع أن يهرب الخدم والعبيد معًا، ويَسرقون الخنازير معًا، ويحتسون الخمر معًا. ولم يكن من المُستغرَب ممارسة الجنس معًا» (٣٢٧) في واقع الأمر، لم يكن ثمَّة وصمة عارٍ تَرتبط بما نُطلق عليه اليوم الزواج «بين الأعراق».

حتى بداية القرن الثامن عشر، كانت صورة الأفارقة بين معظم الأوروبيين إيجابية بوجهٍ عام. كانوا من المزارعين ومربي الماشية؛ كانت لديهم صناعاتٌ ومهارات وحِرف وحكومات وتجارة. علاوةً على ذلك، كانوا يتمتَّعون بمناعة تُحصِّنهم من أمراض العالَم

القديم، وكانوا العُمَّال الأفضل أداءً في الأحوال المناخية الاستوائية للمُستوطَنات الجنوبية، ولم يكن لديهم ملاذٌ يفرُّون إليه ويَختبئون فيه عندما نُقِلوا للعيش في العالَم الجديد (إدموند مورجان ١٩٧٥، سميدلي ٢٠٠٧).

كانت ثمة أسبابٌ قوية لتفضيل الأفارقة. في وقتٍ مبكِّر يعود إلى ثلاثينيات القرن السابع عشر، عبَّر أصحابُ المزارع عن رغبتهم في الحصول على عُمَّالٍ أفارقة (إذ كتبوا يتمنَّون: «لو أنَّ لدينا فقط بعض الأفارقة!») توضِّح سجلات أصحاب المزارع في منطقة البحر الكاريبي وفي مستعمرات فرجينيا وماريلاند أن الأفارقة كانوا يُعتَبَرون في البداية أناسًا مُتحضِّرين وسهلي الانقياد، لديهم دراية وخبرة بالزراعة الاستوائية. وكانوا يألفون النظام والانضباط، وهذه من السمات المُميِّزة للسلوك المتحضِّر، فضلًا عن العمل في مجموعاتٍ على نحو مُتضافر. كانوا على دراية بزراعة الذرة، والتبغ، وقصب السكر، والقطن في أراضي بلادهم، ولم تكن تلك المحاصيل معروفة في أوروبا. وكان الكثيرُ من الأفارقة على دراية بصنع الأدوات المعدنية، والنِّجارة، وتربية الماشية، وصنع الطوب، والنسيج، وصنع الحِبال، ودِباغة الجلود، وغيرها من مهاراتٍ أخرى عديدة. وسرعان ما أدرك المُستعمِرون أن مشروعاتهم، دون وجود الأفارقة، ستبوء بالفشل؛ فأعلنوا: «لا يمكننا العيش دون الأفارقة!»

بحلول مُنتصف القرن، واجهت المستعمرات أزمة؛ استولى بعضُ الرجال من بين المستوطنين الأوائل على الأراضي الخصبة، فأقاموا المزارع الضخمة وجَنوا الثروات الطائلة من زراعة التبغ عندما كان لديهم عددٌ كافٍ من العاملين. وجَد الخدم الفقراء ممَّن نالوا حريتهم أنَّ من الصعب الحصول على أراضٍ، وصار الفقراءُ والخدم الذين نالوا حريتهم، والذين كان من بينهم آنذاك الأوروبيون والأفارقة والمولاتو وبعض الهنود، غير راضين عن نصيبهم، ولا سيَّما في وجود الفساد واستغلال السُّلطة من جانب الرجال الأثرياء الذين كانوا يحكمون المستعمرة. هدَّدوا بالتمرُّد، ونَهبوا جيرانهم، وأظهروا احتقارهم وازدراءهم لزعماء المستعمرة، وأثاروا الاضطرابَ والشغب في كلِّ أنحاء المستوطنة.

وقع التمرُّد الأشهر عام ١٦٧٦. كانت هذه الثورة — بقيادة ناثانييل بيكون — التي شارك فيها آلافُ العُمَّال الفقراء في فرجينيا أولَ تهديدٍ رئيسي للاستقرار الاجتماعي. انقشع غبارُ التمرُّد بعد وفاة بيكون، بيْد أن المُفوَّضين المَلَكيين البريطانيين الذين أُرسِلوا لقمع الثورة أدركوا أن كلَّ السكان عن بكرة أبيهم قد ساندوا التمرُّد وكان «الغضب والعناد» يسيطر عليهم. إذ التقوا ذات مرة مع «حشدٍ» مكوَّن من «٤٠٠ أفريقي و٦٠٠

أو ٧٠٠ من العُمَّال الأوروبيين المرتبطين بعقودٍ طويلة الأجل، من الأيرلنديين في الأغلب» (ألين ١٩٩٤: ٢١٨). سرعان ما أدرك زعماء المستعمرات الحاجة إلى استراتيجية للحيلولة دون وقوع تلك الأحداث في المُستقبَل، ولضمان توفير عددٍ كافٍ من العُمَّال السهلي الانقياد لأصحاب المزارع.

(١-٢) ترسيخ العبودية

أسفرت القراراتُ التي اتخذها زعماء المستعمرة خلال العقود الأخيرة من القرن السابع عشر والربع الأول من القرن الثامن عشر؛ عن ترسيخ العبودية العِرقية. بدأ هؤلاء الزعماء في تمرير مجموعة من القوانين التي من شأنها عزل الأفارقة وذُريَّتهم، وتقييد حقوقهم وحركتهم، وفرضُ حالة من العبودية الدائمة عليهم. صار الأفارقة في ذلك الوقت يُجلَبون من أفريقيا مباشرةً، لا من المجتمعات الأفريقية المقامة في أوروبا أو المستعمرات الأوروبية الأخرى. وكانوا مختلفين عن الأفارقة الأوائل من حيث إنهم كانوا كفَّارًا مُلحدين؛ أي ليسوا مسيحيِّين، ولم تكن لديهم درايةٌ باللغات والعادات والتقاليد الأوروبية، كانوا غير حصينين ضد أي قيود تُوضَع عليهم. بدأ بعضُ زعماء المُستعمَرة يزعمون أنه لا حقوقَ للأفارقة بموجب القوانين الأوروبية؛ ومن ثمَّ يمكن إخضاعهم للعمل القسري والدائم دون خشية العقوبة.

بدأت عناصر الخدم الإنجليز في التراجع في الجزء الأخير من القرن السابع عشر؛ حيث أصبحت الوظائف متوافرة في الوطن. وزادت تجارة الرقيق مع أفريقيا حيث وفَّرت الحروب والصراعات الداخلية في أفريقيا المزيد والمزيد من الأشخاص لتجارة الرقيق. كان لزعماء المُستعمَرات، الذين كان جميعهم من أصحاب المزارع الكبار، هدفان: فرض ضوابطَ اجتماعيةٍ فعَّالة على السكان ومنع التمرُّد، وتزويد أنفسهم بالعمالة الرخيصة والسهلة الانقياد. وسرعان ما أدركوا أنَّ في مقدورهم عَزْلُ السكان العاملين — بالنظر إلى صفاتهم الجسدية المختلفة — وفرضُ العبودية الدائمة على بعضهم. يرى أنتوني بيرانت (٢٠٠٣) أن طبقة أصحاب المزارع القوية، التي عملت على تعزيز مصالحها الاقتصادية، جلبت عن قصدٍ شكلًا جديدًا من العبودية، وهو العبودية العرقية، إلى فرجينيا خلال الفترة من ١٦٩٠ إلى ١٧٢٥. في هذه الفترة، وُضِعَت الكثيرُ من القوانين التي تُقيِّد حقوق الأفارقة وذُريَّتهم، وتفرض عليهم العبودية الدائمة، وتمنع سادتهم من إعتاقهم. وبحلول عام ١٧٢٥، مُنِعَ الزنوج، حتى الأحرار منهم، من التصويت.

في الوقت نفسه، كان زعماءُ المستعمَرات بصدد القيام بشيءٍ آخر؛ كانوا يؤسِّسون لاختراع فكرة العرق والهُويَّات العِرقية؛ فقد شرعوا في تصنيف كل الأوروبيين، بصرف النظر عن الانتماء الإثني أو المكانة أو الطبقة الاجتماعية، في فئةٍ جديدة. كانت المرة الأولى التي ظهرت فيها كلمة «أبيض»، بدلًا من كلمة «مسيحي» أو أي اسم يتعلَّق بالانتماء الإثني (إنجليزي، أيرلندي، اسكتلندي، برتغالي، ألماني، إسباني، سويدي)، في قانون صدر عام ١٦٩١ يحظر زواج الأوروبيين «البيض» من الزنوج، والهنود، والمولاتو (سميدلي ٢٠٠٧: ١١٨). أتاحت فئة الزنوج، التي مُورِست ضد أفرادها سياسة فَصْلٍ عنصري واضحة بوصفهم عبيدًا، للخدم الأوروبيين الذين نالوا حريتهم حديثًا فُرصًا لتحقيق طموحاتهم وتوحيد مصالحهم العامة مع الأثرياء وذوي السلطة. كما قدَّمت القوانين الجديدة مزايا ماديةً وامتيازاتٍ اجتماعيةً للبِيض الفقراء. وبهذه الطريقة، اخترع زعماءُ المستعمرات بوعي وإدراك آلية ضبطٍ اجتماعي للحيلولة دون اتحاد العُمَّال الفقراء (ألين ١٩٩٧). وصارت الملامح الجسدية علاماتٍ دالةً على المكانة (الاجتماعية) العِرقية. وحسبما أكَّد حاكِمُ فرجينيا ويليام جوتش، سعت الجمعية العمومية إلى «وضع وَسْمٍ دائم على الزنوج والمولاتو الأحرار» (ألين ١٩٩٧: ٢٤٢).

(١-٣) تسويغ العبودية وتبريرها

إنَّ الأساسَ المنطقي الأول للعبودية العرقية لا يستحضر الاختلافات المتعلقة بالملامح الجسدية، وإنما يُعرِّف الأفارقة على أنهم ملحدون غير متحضِّرين. كان «الهمجيون» الأوائل الذين اختلقهم الإنجليزُ في أذهانهم هم «الأيرلنديون البدائيون». في أواخر القرن السادس عشر، بعد قرونٍ من الصراع والحروب الغاشمة مع الأيرلنديين، أعلنت الملكة إليزابيث أن الأيرلنديين «همجيون» بطبيعتهم، عاجزين عن قبول الحضارة والتمدُّن. وفي الواقع، أوشك الإنجليزُ في العصر الإليزابيثي على تصنيف الأيرلنديين كعِرقٍ مختلف. وبالفعل، في القرن الثامن عشر، نعتَهم الكثيرُ من كُتَّاب التاريخ بكلمة «عرق» وخلَعوا عليهم أوجُهًا من أيديولوجية العرق.

اعتُبِرَ الأمريكيون الأصليون «همجيين» عندما قاوموا احتلال الإنجليز لأراضيهم واستيلاءهم عليها، بيد أن هذه الصورة تغيَّرت في أواخر القرن الثامن عشر إلى شكل أكثر اعتدالًا؛ فوصفوهم بأنهم «همجيون نُبلاء». حتى ذلك الوقت، كان معظم الأمريكيين الأصليين في طريقهم إلى الفناء أو كانوا يُساقون بالقوة إلى محميات، وهي عملية بدأت في

القرن العشرين في المستعمرات الشمالية الشرقية. في تلك الأثناء، اخترع الإنجليزُ همجيين جُددًا عن طريق إحالة الأفارقة إلى العبودية الدائمة، ومنْع مالكي العبيد من إعتاق العبيد وتحريرهم، والحيلولة دون تعليمهم وتدريبهم. ومن القرن الثامن عشر فصاعدًا، شكَّلت التوصيفات السلبية التي خُلِعت على الأفارقة جزءًا من تسويغٍ جديد للعبودية والاسترقاق. وأصبحت هذه التوصيفات صورًا نمَطية للعِرق والاختلافات العرقية التي توارثناها في القرنين التاسع عشر والعشرين. في تلك الأثناء، كان زعماءُ المستعمرات بصدد تأسيس جماعاتٍ غير متكافئة، أُطلِق عليها الأعراق، وإسباغ معانٍ اجتماعيةٍ مختلفة عليها. وبينما هم يُنشئون الجوانب المؤسسية والسلوكية للعبودية، كان المستعمرون بصدد هيكلة العناصر الأيديولوجية للعِرق. بَالغَ مناصرو العبودية في الاختلافات القائمة بين الجماعات البشرية ووضعوا أيديولوجية عن هذه الاختلافات جرَّدت «الزنوج» من الصفات الإنسانية، وجعلتهم دون البشر، وحَطَّت من قَدرهم في أعين العامة إلى مرتبةٍ أقرب إلى القِرَدة، واضعين عبءَ العبودية ومسئوليتها على عاتق ضحاياها.

انتهت العبودية رسميًّا في الجنوب عام ١٨٦٥ عقب الحرب الأهلية، إلا أن «العرق» ظلَّ موجودًا بوصفه منزلةً اجتماعية وأساسَ الهوية البشرية. ترسَّخت أيديولوجية العرق في الاعتقاد بوجود جماعاتٍ منفصلة، ومميَّزة، ومقصورة على نفسها، خلقها الله غير متساوية، أو هكذا صارت بحُكم الطبيعة. كان الأمريكيون الأفارقة، وهم الأدنى منزلةً، يأتون في نهاية التدرُّج الهرمي، بينما يأتي «بعضُ» البِيض الأوروبيين في مقدمته، وكان يُعتقَد أن لكل عِرق صفاتٍ جسديةً وسلوكيةً مختلفة؛ ومن ثَمَّ تشكَّلت الصورة النمطية المستمرَّة للأمريكيين الأفارقة التي تُصوِّرهم على أنهم أناسٌ يفتقرون إلى الذكاء، ويتَّسمون بالكسل والرغبات الجنسية الجامحة، والاندفاع، واللاعقلانية، مُولَعون بالموسيقى، وعاطفيون، ويؤمنون بالخرافات. وأخيرًا، اعتُقِدَ أن هذه الاختلافات العرقية موروثة وغير قابلة للتغيير؛ ومن ثمَّ لم يكن من المُمكن تغييرها أو تجاوزها (راجِع سميدلي ٢٠٠٧).

بعد الحرب الأهلية، تأقلم الأمريكيون البِيض كثيرًا مع الاعتقادات القائلة بدُونية الأعراق الأدنى منزلةً (السود والهنود) التي لم يستطيعوا أن يَقبلوا أصحابها كمواطنين مساوين لهم. وبذلوا جهودًا ضخمة لإبقائهم مُنعزلين وأقل شأنًا، ونجحوا في ذلك إلى حدٍّ كبير حسبما توضِّح الإحصاءات التي أُعِدَّت حتى في وقتنا الحاضر حول رفاهية السود والهنود ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية (جونز ٢٠٠٩، ماكارتني ٢٠١١). على الجانب الآخر، بانتخاب باراك أوباما رئيسًا للولايات المتحدة، ومع حدوث كثير من التغييرات

الاجتماعية، يرى الكثيرُ أن قوة أيديولوجية العرق في سبيلها إلى التراجع والانحسار داخل الولايات المتحدة، ويتوقع البعضُ زوالها تمامًا في كل مكان.

(٢) حوارٌ حول اختراع العرق

نختتم كلَّ فصل في هذا الجزء بحواراتٍ صاغها مُفكِّرون بارزون عن العرق. هذه «الحوارات» عبارة عن نصوصٍ مُحرَّرة لفيديوهاتٍ مأخوذة من المعرض المتحفي المتنقِّل «الأعراق البشرية: هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟» مُقدَّمة من كاليفورنيا نيوزريل (www.newsreel.org). لإنهاء مناقشتنا حول جذور العرق ونشأته، اتجهنا إلى مجموعة من المؤرِّخين المميَّزين الذين ناقشوا التكوين المتعدِّد الإثنيات للمستعمرات الأمريكية المبكِّرة والتحوُّل من هُوياتٍ إثنية إلى هوياتٍ عرقية. «ميا باي» هي أستاذ التاريخ والمدير المشارِك لمركز العرق والإثنية بجامعة روتجرز. «إيرا برلين» هو أستاذٌ جامعيٌّ بارز في جامعة ماريلاند، كوليدج بارك. «جيمس النزوع إلى السلوك الإجرامي هورتون» حاصلٌ على أستاذية بنجامين بانيكر في الدراسات الأمريكية والتاريخ الأمريكي بجامعة جورج واشنطن ومؤرِّخٌ متقاعد بالمتحف الوطني للتاريخ الأمريكي التابع لمؤسسة سميثسونيان. «روبن كيلي» هو أستاذ الدراسات الأمريكية والإثنية بجامعة كاليفورنيا الجنوبية. «ثيدا بيردو» حاصلة على أستاذية أتلانتا في ثقافة الجنوب بجامعة كارولاينا الشمالية في تشابل هيل.

* * *

ميا باي: في الواقع، لم تظهر كلمة «عِرق» حتى القرن الخامس عشر ولم تكن تعني ما نظنُّ اليوم أنها تعنيه، أو حتى ما كانت تعنيه في القرن التاسع عشر، آنذاك. بل بدأت كمفهوم عن النَّسب؛ عِرق المرء هو مَن يَنتسبُ إليهم، فأسرة المرء هي عِرقه، وعائلته الممتدَّة هي عِرقه.

ثيدا بيردو: من الأمور التي حدثت مع حلول عصر الاستكشاف أنَّ الأوروبيين اضُطروا إلى التصدي لوجود بشر في العالم لم يكونوا يعلمون عنهم شيئًا من قبلُ. وبذلك، كانت النتيجة أنهم تعيَّن عليهم تفسير وجودهم. لا يتضمَّن سِفرُ التكوين معلوماتٍ واضحة في هذا الشأن. بمعنى أن المرءُ يتعيَّن عليه التوسُّع قليلًا في تفسيره ليجد تفسيرًا للأشخاص الذين يبدون مختلفين تمامًا عن الأوروبيين؛ ومن ثمَّ شرَع الأوروبيون في البحث عن

أسبابٍ لتفسير السبب، ليس فقط وراء اختلاف هؤلاء الأشخاص عن الأوروبيِّين، وإنما أيضًا وراء اختلاف أساليب حياتهم ومعتقداتهم.

لم يُفكِّر الناسُ في القرن السابع عشر في الاختلافات بين البشر بالطريقة التي يُفكرون بها في تلك الاختلافات في الوقت الحاضر؛ فقد كانوا على الأرجح يَميلون إلى التمييز بين المسيحيين والمُلحِدين أكثر من التمييز بين البشر البِيض البشرة وغيرهم ممَّن يختلفون عنهم في لون البشرة. بعبارةٍ أخرى، كانوا ينظرون إلى مكانة الشخص [الدينية] في الحياة على أنها أهم وأكثر محوريةً من لون الشخص أو من خلفيته المحدَّدة. وبذلك، أصبح مفهومُ الاختلاف موجودًا بالتأكيد لدى الأوروبيين في القرن السابع عشر، بيد أنه لم يكن مفهومًا مُناظِرًا للمفاهيم الحديثة عن العرق.

جيمس هورتون: فَكِّر في الأمر لبُرهة من الوقت. إذا أجريت مقابلة مع أول عبدٍ يترجَّل من أول سفينة للرقيق في جيمستاون، لم يكن من سبيلٍ لأن يقول لك هذا الشخص: «إنني من أفريقيا.» بل كان سيُحدِّد أُمَّة، أو جماعةً إثنية أو عائلية أو سياسية. كان سيجد لديه شيئًا أكثر تحديدًا ليقوله بشأن هُويته.

إيرا برلين: في القرن السابع عشر، يمكننا القول إن منطقة تشيسابيك كانت في الواقع مجتمعًا متعدِّد الأعراق؛ بمعنى أنها كانت مجتمعًا يعيش فيه الأمريكيون الأصليون مع الأفارقة والأشخاص ذوي الأصول الأوروبية. واختلطوا معًا بطُرقٍ شتى، وفعلوا أمورًا من قبيل ما يفعله الناسُ عندما يختلطون معًا؛ فكانوا يعملون معًا، ويلهون معًا، ويتخاصمون ويتشاجرون، ويتزاوجون.

روبن كيلي: بمرور الوقت، انكسَرت تلك الروابط والتحالفات، ومع انكسارها، بات واضحًا أنَّ الكثير من البِيض الفقراء الذين يَنحدرون من أصولٍ أوروبية شَرَعوا في تمييز أنفسهم، إنْ لم يكن على أنهم من البِيض الأثرياء على نحوٍ مباشر، فبالتأكيد على أنهم بِيض البشرة … كوسيلة لتمييز أنفسهم عن الأشخاص ذوي البشرة الداكنة الذين ربطوهم في أذهانهم بالعبودية الدائمة.

ميا باي: ثمة تقسيمٌ عِرقي يتبدَّى للعيان بدأ الناس يرونه أمرًا طبيعيًّا، ويُمثِّل جزءًا من الأساس الذي انبثقت عنه فكرة العرق. إنه مجرد استعداد لدى الناس لأنْ يروا علاقات السلطة القائمة على أنها تَخلَع عليهم ميزةً طبيعية من نوعٍ ما.

روبن كيلي: والمشكلة التي كان يتعيَّن عليهم أن يحلُّوها هي كيف يُمكننا تعزيز التحرُّر، والحرية، والديمقراطية على جانب، ومنظومة استعباد البشر من غير البِيض واستغلالهم على الجانب الآخر.

جيمس هورتون: والطريقة التي يتسنى بها لهم فعل ذلك هي أن يقولوا: «حسنًا، بيد أنك تعلم، ثمة شيءٌ مختلف بخصوص هؤلاء البشر. هذا الشأن برمَّته المتعلق بالحقوق غير القابلة للمُصادَرة ... أمرٌ جيد لكنه لا يَنطبِق إلا على بعض البشر بأعينهم.»

إيرا برلين: يتراءى لي أن الأمر الأكثر إيلامًا في هذه العملية أنَّ هؤلاء يُمثلون وجهَيْن لعُملة واحدة؛ أنَّ عملية تحديد مَن ينتمون إلى جانبٍ ما؛ هي أيضًا عملية تحديد مَن يُقصَون بعيدًا إلى الجانب الآخر.

جيمس هورتون: يقدِّم توماس جفرسون بطرقٍ عديدة تجسيدًا لأمريكا؛ فهو شخصٌ صاحبُ فِكَرٍ جليلة، وقد دوَّن فِكَره تلك في وثيقة المجتمع الأمريكي المقدَّسة، وهي إعلانُ الاستقلال. وتلك هي الكلمات السِّحرية للمجتمع الأمريكي ... فِكَرٌ جليلة وأهدافٌ سامية على نحوٍ رائع ... لكن لم يكن جفرسون — شأنه شأن أمريكا — يعيش وفقًا لمبادئه. كان يَعلمها، وكان يَضيق ذرعًا بها. كان يعيش في نوعٍ من التشوُّش والبلبلة، في واقع الأمر، بين ما يقوله وما يفعله. إنه شخصٌ تعهَّد بالدفاع عن حرية الإنسان وفي الوقت نفسه احتفَظ بمائتي إنسانٍ كعبيد عنده. وكان يعلم أن ذلك تناقضٌ هائل.

أمريكا مثله تمامًا؛ وأعني بذلك أننا مجتمعٌ قائم على المبادئ وعلى استعدادٍ للموت حرفيًّا في سبيلها، وهي مبادئُ رائعةٌ لدرجة تجعل عينَيك تغرورقان بالدموع. بيد أننا مجتمعٌ يسمح لنفسه، في أغلب الأحيان، ألا يعيش وفقًا لتلك المبادئ.

(نُسخت بتصريح من كاليفورنيا نيوزريل.)

المراجع

Berlin, Ira:

2003 Generations of Captivity: A History of African-American Slaves. Cambridge, MA: The Belknap Press of Harvard University Press.

Gordon-Reed, Annette:

2008 The Hemingses of Monticello: An American Family. New York: W.W. Norton and Company.

James, C. L. R.:

1989 The Black Jacobins: Toussaint L'Ouvrture and the San Domingo Revolution. Rev. 2nd edition. New York: Vintage Books.

Meillasoux, Claude:

1991 [1986] The Anthropology of Slavery: The Womb of Iron and Gold. A. Dasnois, trans. Chicago: The University of Chicago Press.

أودري سميدلي: نشأة أيديولوجية العرق

Allen, Theodore W.:

1994 The Invention of the White Race, vol. 1: Racial Oppression and Social Control. London: Verso.

Allen, Theodore W.:

1997 The Invention of the White Race, vol. 2: The Origin of Racial Oppression in Anglo America. New York: Verso.

Fredrickson, George M.:

2002 Racism: A Short History. Princeton: Princeton University Press.

Hannaford, Ivan:

1996 Race: The History of an Idea in the West. Washington, D.C.: Woodrow Wilson Center Press; Baltimore: The Johns Hopkins University Press.

Jones, Stephanie J., ed.:

2009 The State of Black America: Message to the President. New York: National Urban League.

Macartney, Suzanne:

2011 Child Poverty in the United States 2009 and 2010: Selected Race Groups and Hispanic Origin. American Community Survey Briefs. United States Department of Commerce. http://www.census.gov/prod/2011pubs/acsbr10-05.pdf, accessed January 4, 2012.

Morgan, Edmund:

1975 American Slavery, American Freedom: The Ordeal of Colonial Virginia. New York: W. W. Norton.

Morgan, Philip D.:

1998 Slave Counterpoint: Black Culture in the Eighteenth-Century Chesapeake and Lowcountry. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Parent, Anthony S., Jr.:

2003 Foul Means: The Formation of Slave Society in Virginia, 1660–1740. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Smedley, Audrey:

2007 [1993] Race in North America: Origin and Evolution of a World-view. 3rd edition. Boulder: Westview Press.

اختراع العرق (١٤٠٠–١٨٠٠)

Bennett, Jr., Lerone:

1987 Before the Mayflower: A History of Black America. 6th edition. Chicago: Johnson Publishing Company.

Jefferson, Thomas:

1955 [1787] Notes on the State of Virginia. 2nd edition. William Peden, ed. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Jordan, Winthrop D.:

1968 White over Black: American Attitudes toward the Negro, 1550–1812. Baltimore: Penguin Books Incorporated.

Nash, Gary:

1970 Red, White, and Black: Origins of Racism in Colonial America. *In* The Great Fear: Race in the Mind of America. Gary Nash and Richard Weiss, eds. New York: Holt, Rinehart and Winston.

Schiebinger, Londa:

1993 Nature's Body: Gender in the Making of Modern Science. Boston: Beacon Press.

Smedley, Audrey:

1999 [1993] Race in North America: Origin and Evolution of a Worldview. 2nd edition.

الفصل الرابع

إهانة البشر

يتضمن تاريخ العلوم كثيرًا من المُحاولات الرامية لتسويغ العرق والتدرجات العرقية وتبريرهما.

معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

من الناحية التاريخية، كان اهتمام علوم العرق بفهم التنوع البيولوجي كوليدٍ للبيئة، أو فيما بعدُ، للتطوُّر، أقلَّ من اهتمامها بتحليل ذلك التنوع لأغراضٍ سياسية. قد يبدو هذا زعمًا رائعًا؛ إذ إنه يرد على الافتراض الشائع بوجود أساسٍ تجريبي قائم منذ فترةٍ طويلة للتصنيفات العرقية في العلوم الطبيعية. ومع ذلك، كما يُذكِّرنا عالِمُ الوراثة ريتشارد ليونتين، فقد أُدخِلَ العرق إلى العِلم من خلال ممارسةٍ اجتماعية وليس العكس. لم يلجأ علماءُ الطبيعة المُتأثِّرون بنماذج العقلانية والتجريبية في عصر التنوير الأوروبي إلى استخدام العِلم لتبرير التصنيف الشعبي للعِرق حتى أواخر القرن الثامن عشر. وكان أملُهم أن يتمكَّن العِلمُ من تبرير هذه التناقضات المتمثِّلة في الحرية، والعبودية، والإبادة الجماعية، عن طريق إثبات وجود أساسٍ في الطبيعة للنظام الاجتماعي القائم.

في البداية، كانت المهمَّة المحدَّدة لعِلم الأعراق مزدوجة؛ إذ كان على العلماء أن يحدِّدوا بموضوعية (١) ما إذا كانت كلُّ الأعراق بشرية بالكامل. و(٢) ما إذا كانت كلُّ الأعراق البشرية متساوية. بحلول القرن التاسع عشر، تمحوَر النقاشُ حول نظريتين للأصول العرقية؛ تعدُّد الأصول، والأصل الواحد. رأى المنادون بتعدُّد الأصول أمثال جوسايا نوت، وجورج جليدون، ولوي أجاسيز، الأعراقَ البشرية على أنها أنواعٌ منفصلة. وفي الوقت نفسه، اقترح المُنادون بالأصل الواحد أمثال تشارلز داروين أنَّ الأعراق تُمثِّل اختلافًا وتنوُّعًا في

النوع البشري الواحد. وكان تشكيل الأساس لهذه المحاولات الأولية في التاريخ الطبيعي من خلال مسألة طبيعة الاختلافات العرقية. هل الاختلافات الظاهرة هي اختلافاتٌ فطرية ولا يمكن تغييرها أم أنها اختلافاتٌ يمكن تقليلها، أو محوها، من خلال إنهاء الممارسات الاجتماعية التمييزية؟ ظهرت التحدياتُ الصريحة لفكرة الأعراق البشرية في وقتٍ لاحق.

على الرغم من أن المنادين بتعدُّد الأصول قد دعَّموا حُججهم في البداية بالإشارات الواردة في الكتاب المقدَّس إلى الناس الذين لا ينتمون إلى ذرية آدم في أرض نُود أو الخرافة الحاميَّة (التي تَفترض أنَّ الشعوب انحدرت من حام ابن نوح)، كان الكثيرُ من العلماء الأمريكيين من المسيحيين الذين وجدوا أن الرأي المنادي بوجود أصلٍ واحد للنوع البشري أكثر توافقًا مع قصة الخَلق الواردة في الإنجيل (فريدركسون ١٩٨٧)؛ ومن ثمَّ كان الدينُ عائقًا أساسيًّا منذ وقتٍ مُبكِّر أمام القبول الواسع الانتشار لنظرية تعدُّد الأصول على وجه الخصوص، وكذلك أمام الحُجَج العلمية للأصول البشرية المُقدَّمة من كلا الجانبَين.

بدأ هذا النموذج يتغيَّر عام ١٨٥٩؛ ففي ذلك العام، نشر داروين كتابه «أصل الأنواع»، الذي تحدَّث فيه بوضوح عن نظرية الانتخاب الطبيعي. كان شرحُ داروين للآلية الفعلية التي يجري من خلالها انتخابُ العوامل البيئية للتنوُّع البيولوجي ضمن النوع الواحد خطوةً حاسمة في تقديم التطوُّر كبديلٍ معقول لقصة الخَلْق في المجتمع العلمي وفي المجتمع العام بمفهومٍ أشمل.

تمحورت النقاشاتُ العلمية المَعنيَّة بالإنسانية والمساواة بالأساس حول الذكاء؛ حيث أكَّد المنادون بتعدُّد الأصول على وجه التحديد أن القُدرة الإدراكية موزَّعة على نحوٍ غير متساوٍ بين الأعراق. وكانت الوسيلة الأساسية لتحديد هذه الاختلافات هي قياسُ القِحْف؛ أي قياس حجم الجمجمة. وعلى نحوٍ مُتوقَّع، ذكر المنادون بتعدُّد الأصول أن الأوروبيين والبِيض الأمريكيين كانوا يتَّسمون بحجم جمجمة أكبر وقدرة قِحْفية/إدراكية أكبر بالمقارنة بالأمريكيين الأصليين والأمريكيين الأفارقة. في منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا، اعتُمِدَت الحُجج التي ساقها المنادون بتعدُّد الأصول في المجتمع العلمي وخارجه؛ مما دَفَعَ فريدريك دوجلاس، المؤيِّد لإبطال الاسترقاق الذي كان عبدًا في السابق، إلى تقديم تفنيدٍ للعنصرية العلمية ربما يكون التفنيدَ المنهجي الأول من نوعه. في خطابٍ أُلقي بإحدى حفلات التخرُّج في كلية ويسترن ريزيرف عام ١٨٥٤، رفَضَ دوجلاس المزاعم المُستندة إلى علم قياس الجماجم بوصفها «دعاية ضد الزنوج»، مشيرًا إلى أن البيئة

الاجتماعية قدَّمَت شرحًا أفضل للأحوال البائسة التي يعيشها السود والشعوب الفقيرة في كل أنحاء العالم.

على الرغم من استحواذ القِحْف (أي الجمجمة) على القدر الأكبر من اهتمام علماء العرق «الموضوعيِّين»، فقد درسوا فعليًّا كلَّ سمةٍ تشريحية وفسيولوجية في الإنسان، بالإضافة إلى الأمراض الحقيقية والمُتخيَّلة (هاموندس وهِرتسيش ٢٠٠٨). ابتكر الطبيبُ الشهير ساموِيل كارترايت، على سبيل المثال، مصطلحَ «هَوس الهروب» لتفسير ميل العبيد الأفارقة إلى محاولة الهروب، ووصَف الجلدَ بالسوط كطريقة للعلاج. بل ومن الأمور الأكثر إرباكًا وتشويشًا تصرفاتُ جيمس ماريون سيمز «الأب المؤسِّس لطب النساء»، الذي استغلَّ نساءَ البِيض الفقراء والسودِ العبيد لوضع أساليب وإجراءاتٍ جراحية متعلِّقة بطب النساء. اشترى سميز نساءَ العبيد بغرض إجراء التجارب الجراحية عليهنَّ، واصفًا إياهن بأنهن أكثر مُقاوَمةً للألم مقارنةً بنساء البِيض، وأجرى عملياتٍ جراحية عليهنَّ دون تخدير (بيرد وكلايتون ٢٠٠٠). لم تكن الإهانة العرقية لأجسام البشر وعقولهم مقصورة على السود العبيد والأمريكيين الأصليين فقط. خلال النصف الثاني من القرن، مع التزايد السريع في أعداد العُمَّال الصينيين الوافدين إلى كاليفورنيا وغيرها من الولايات الغربية، وصفت الهيئاتُ الطبية هؤلاء الصينيين بأنهم ناقلون لأمراضٍ مُعدية مثل الدفتيريا والتيفود وحالة الاختلال العقلي الأكثر غموضًا» (هاموندس وهِرتسيش ٢٠٠٨).

في أوائل القرن العشرين، ظهرت الأنثروبولوجيا الثقافية كمجالٍ يُعنى في الأغلب بدراسة الأنواع العرقية والاختلافات العرقية (بليكي ١٩٨٧، أرملاجوس وجودمان ١٩٩٨، ماركس ٢٠١٠). ومع هذا، تصدَّى بعضُ روَّاد هذا المجال لِفكَرٍ سائدة عن العرق، وردُّوا عليها. وكان من بينهم فرانز بواس، الذي يعتبره الكثيرون مؤسِّس علم الأنثروبولوجيا الأمريكية الحديثة. أشار بواس عام ١٩١٢ إلى تغيُّراتٍ كبيرة في شكل الجمجمة وحجمها بين المهاجرين اليهود والصقليِّين وبين أبنائهم المولودين في الولايات المتحدة. أوضحت نتائج بواس أن تطوُّر الجمجمة حدث نتيجة الظروف البيئية، مما شكَّك في فكرة «الأنواع» العرقية الثابتة التي تُحدِّدها صفاتٌ عِرقية قابلة للتوريث. ومع الهجوم الذي تعرَّضت له الدراسات المَعنيَّة بقياس الجمجمة، شَرَعَ علماءُ النفس وعلماء غيرهم في تأسيس حُججهم فيما يخصُّ الذكاءَ المستنِد إلى العرق على نتائج اختبارات نسبة الذكاء. في الولايات المتحدة، اتَّسمت اختبارات نسبة الذكاء بتحيُّزٍ ثقافي هائل واستُخدِمَت في تبرير التمييز

ضد الأشخاص الوافدين من شرق وجنوب أوروبا في سياسة الهجرة، فضلًا عن الفَصْل العنصري في قطاع التعليم العام.

خلال فترة الكساد الكبير، سعى أيضًا علماءُ الأعراق إلى تبرير التفاوت الاقتصادي والاجتماعي عن طريق وضع أساسٍ وراثي لانتقال الذكاء، وغيره من الصفات الأخرى مثل السلوك الإجرامي وأخلاق العمل، وراثيًّا. وأشاروا إلى أن هذه الصفات السلبية موجودة «في الجينات»؛ ومن ثمَّ فهي محتومة وموروثة، وتشير إلى تدني الطبقة الاجتماعية. هذه النظرية الوراثية كانت الأساسَ الذي ارتكزت عليه حركةُ «تحسين النَّسْل» التي استُوحيَت منها مبادئ الصحة العرقية في ألمانيا النازية. يبدو أن الأمر في الواقع كان يقتضي وقوعَ مأساة الهولوكوست، التي تضمَّنت قتلَ ما يَقرُب من ستة ملايين يهودي بمباركة الحكومة، وغير ذلك من «الأفعال الشائنة» للحُكم النازي وحلفائه، لإجبار العنصرية العلمية على التراجُع (باركان ١٩٩٢).

في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فَقَدَ مبدأُ توريث الصفات شعبيته إلى حدٍّ كبير كأساسٍ للسياسة العامة في الولايات المتحدة؛ وذلك بفضل الجهود المشتركة لعلماء الأنثروبولوجيا أمثال بواس، وويليام مونتاجيو كوب (١٩٣٦)، وروث بنديكت (١٩٤٥)، وآشلي مونتاجيو (١٩٦٤). وزادت أعداد علماء التطوُّر الذين رفضوا العرق كمُكوِّن بيولوجي، متَّفقين على أن الفئات العرقية تفتقر إلى صحة التصنيف العلمي. رأوا أن هذه الفئات تصنيفاتٍ اعتباطيةً (بالنسبة للطبيعة، وليس من الناحية الاجتماعية) وغير دقيقة (تفتقر إلى الثبات عبر الثقافات)، ووضَعوا مفاهيمَ بديلة أنسبَ لدراسة الاختلاف البيولوجي بين البشر. أحلَّ بعضُ علماء الوراثة السكانية وعلماء الأنثروبولوجيا، على سبيل المثال، مفاهيمَ السكان والانحدارات، التي خطَّطت التوزيع المستمر (كنقيضٍ للتوزيع المنفصل أو المتعلق بالعرق) للصفات الجسدية وتواتُرات الصِّفات محل العرق (ليفينجستون ١٩٦٢، بريس ٢٠٠٥، انظر الفصل السابع من هذا الكتاب). في الفترة من خمسينيات القرن العشرين إلى أوائل ستينيات القرن العشرين، تزامنت هذه الأحداث مع حركة حقوق الإنسان، التي ساعَدت في نهاية الأمر في تعزيز بيئةٍ سياسيةٍ أقلَّ عداءً للعنصرية العلمية.

على الرغم من أن فكرة العرق كمُكوِّن بيولوجي لم تختفِ أبدًا في واقع الأمر؛ فإنه بحلول ثمانينيات القرن العشرين كان المفهوم خامدًا نسبيًّا، ومُهمَلًا تقريبًا من جانب العلماء كأحد العوامل التي تُبرِّر الاختلافات البشرية (أرميلاجوس وجودمان ١٩٩٨). ومع

ذلك، أُثير النقاشُ العامُ من جديد عام ١٩٩٤ بشأن العرق والذكاء مع نشر «مُنحنى الجرس»، وهو كتابٌ مثير للجدل يَعرضُ فيه عالِمُ النفس ريتشارد جاي هيرنشتاين واختصاصيُّ العلوم السياسية تشارلز موراي ظهور «نُخبَةٍ معرفية» في الولايات المتحدة، تتألَّف في معظمها من أفرادٍ ينحدرون من أصولٍ أوروبية وآسيوية؛ وذلك وفقًا للتسلسل الزمني للأحداث. يشير العنوان إلى رسمٍ بيانيٍّ على شكل جَرس لنتائج اختبارات نسبة الذكاء، ومرةً أخرى، كان العلماءُ منشغلين بمناقشة مدى الدور الذي تلعبه فروق الذكاء العرقي المزعومة في تفسير عدم المساواة الاجتماعية أو توضيحها. في المجتمع العلمي وأجهزة الإعلام السائدة، احتشدَ الناسُ ما بين مؤيِّد لهيرنشتاين وموراي وناقدٍ لهما. اختلف البعضُ، أمثال عالِم الأحياء التطورية ستيفن جاي جولد، مع الفرضية التي ترى الذكاء بوصفه كيانًا «قابلًا للقياس، وثابتًا من الناحية الوراثية، ومتفرِّدًا»؛ «شيئًا» راسخًا لا يُمكن اختزاله في رقمٍ واحد يفيد في تصنيف الأفراد، والأعراق، والفئات. في النسخة المُنقَّحة من «التقليل من شأن الإنسان» (١٩٩٦)، وصَف جولد جهود تصنيف الذكاء البشري بأنها جزءٌ من المنهج القديم الأوسع نطاقًا «للحتمية البيولوجية»، وهي أيديولوجية تُعزي اختلافات السلوك والقدرات بين البشر — وبالتبعية التنظيم الاجتماعي والطَّبَقية الاجتماعية — إلى الصفات الفطرية المتعلِّقة بالنشوء الحيوي في المقام الأول.

من المؤسف أن الانتشار الثقافي للحتمية البيولوجية يكفل قدرة علم الأعراق وغيره من أشكال الداروينية الاجتماعية الأخرى على البقاء، ويضمن وجود حالة من الإعجاب والانجذاب العام إليهما. في الواقع، أشار الجدل المتجدِّد حول العرق والذكاء في تسعينيات القرن العشرين إلى إحياءٍ أوسع نطاقًا لمفهوم العرق المتعلق بالنشوء الحيوي والذي قَويَ في عصر الجينوم (كونيش وآخرون ٢٠٠٨، مجلس بحوث العلوم الاجتماعية ٢٠٠٥، كيتا وآخرون ٢٠٠٤). ومن دواعي المفارقة أن التصريح الشهير للرئيس بيل كلينتون عام ٢٠٠٠ حول أن فكَّ شفرة الجينوم البشري قد أوضحَ أن المتواليات الوراثية للبشر مُتطابقة بنسبة ٩٩٫٩ في المائة — وهو ما آذَن بالتأكيد بزوال مفهوم العرق القائم على علم الأحياء — لم يكن له تأثيرٌ يُذكَر فيما يبدو سوى أنه حفَّز مؤيدي علم الوراثة العرقي.

في الوقت الحالي، تتجلَّى جهود «اختزال العرق في الأسباب الوراثية» بأوضح صورها في الطب الحيوي وغيره من المجالات المتعلِّقة بالصحة. ونادرًا ما تأخذ الدراسات القائمة على العرق المعنية بالاستجابة الدوائية وقابلية التأثُّر بالأمراض في اعتبارها النتائج العلمية الاجتماعية المتعلِّقة بالعواقب الصحية للعنصرية أو العرقنة، أو الأحداث التاريخية

الحاسمة في عِلم الأعراق (هاردينج ١٩٩٣، داستر ٢٠٠٥، مونتويا ٢٠٠٧، كريجر ٢٠٠٣). بدلًا من ذلك، غالبًا ما تُعيد هذه الدراسات استخدام مفاهيم العرق الطوبولوجية والجغرافية القديمة وتخلط بينها (فيلدمان وليونتين ٢٠٠٨، گان ٢٠٠٤)، وكذلك تفعل محاولات إرجاع السبب في النزوع إلى السلوك الإجرامي أو العنيف «إلى الجينات» (أوسوريو وداستر ٢٠٠٥). يبدو أننا عاجِزون عن التحرُّر من قيود الخيال العِرقي؛ وَصَفَ عالِمُ الأنثروبولوجيا البيولوجية ألان سويدلاند العجزَ عن فصل احتمالات علم الجينوم عن مفاهيم العرق غير المؤكَّدة بأنه من قبيل «تطبيق تكنولوجيا القرن الحادي والعشرين على أحياء القرن التاسع عشر» (ذُكِرتْ في أرميلاجوس وفان خيرفن ٢٠٠٣). ومع ذلك، فإن بعض علماء الأنثروبولوجيا وغيرهم من العلماء الآخرين بصدد صياغة مفاهيمَ جديدةٍ توضِّح مدى اتصال العرق بالنماذج المُعقَّدة للاختلاف الثقافي والوراثي والبيئي الحقيقي بين البشر، من عدمه (تمبلتون ٢٠٠٣، جاكسون ٢٠٠٤، جرافلي وآخرون ٢٠٠٩، كوزاوا وسويت ٢٠٠٩، لونج وآخرون ٢٠٠٩).

المخطط الزمني لإهانة البشر (١٧٠٠–٢٠٠٠)



شكل ٤-١: في منتصف القرن التاسع عشر، اعتقد نوت وجليدون أن كلًّا من «أنواع البشر» التي قدَّموها هو نوعٌ منفصل (الصورة بتصريح من معهد علم الأحياء التاريخي، كلية ويليام وماري).

١٧٣٥ النظام الطبيعي للعالِم لينيوس: عالِم الطبيعة السويدي كارولوس لينيوس (راجِع شكل ٣-٧) يضع نظامًا لتصنيف جميع الكائنات الحية، مصنِّفًا البشر إلى أربعة أعراق رئيسية. لا يزال لهذا العمل تأثيره في حياتنا حتى اليوم.

١٧٩٢ الزاوية العرقية: عالِم التشريح الهولندي بيتروس كامبر يقدم «الزاوية الوَجْهية»، وهي زاوية تشريحية لقياس الاستواء النسبي للوجه. استخدم الطبيب تشارلز وايت عام ١٧٩٩ الزاوية الوَجْهية لتصنيف الحيوانات والبشر في نظامٍ هرمي، يأتي الأوروبيون في مقدمته.

عند إمالة الخط الوَجْهي للأمام، حصلتُ على رأس تشبه رءوس القدماء، إلا أنني عندما أملتُ ذلك الخط للخلف، تكوَّنتْ لديَّ ملامح وجه الزنوج، وتحديدًا الصورة الجانبية لقرد، أو لشخص صيني، أو معتوه؛ وذلك بالتناسُب مع مدى إمالتي لهذا الخط نفسه بدرجة أكثر أو أقل إلى الخلف.

كامبر ١٧٩٢

١٧٩٥ أربعة إلى خمسة أعراق: الطبيب الألماني يوهان بلومينباخ يستخدم قياسات الجمجمة المُقارنة وألوان البشرة في تقسيم شعوب العالم إلى خمسة «أنواع رئيسية»: «القوقازي»، و«المنغولي»، و«الملايي»، و«الزنجي»، و«الأمريكي». على الرغم من إيمان بلومينباخ بالمساواة بين جميع البشر من الناحيتَيْن العقلية والأخلاقية، فإنَّ عمله استُخدِم فيما بعدُ للمساعدة في تبرير العكس.



شكل ٤-٢: رسمٌ توضيحي لجماجمَ تمثل الأعراق الخمسة التي أشار إليها بلومينباخ، مقتبَسٌ من كتاب «حول الأنواع الطبيعية للبشر» (بتصريحٍ من قسم المجموعات الخاصة والمخطوطات والكتب النادرة، نظام المكتبات التابع لجامعة مينيسوتا).

هذا التغيُّر غير المُدرَك لم ينتج عنه أيُّ اختلاف مُميِّز بين البشر، سواءٌ كان هذا الاختلاف من ناحية اللون أو الهيئة أو البنية الجسدية، يجعلنا لا نُدرجهم مع غيرهم ممَّنْ ينتمون إلى نفس النوع

حتى إنه يتَّضح لنا بجلاءٍ أن ثمة قرابة بينهم جميعًا، أو أن أحدهم لا يختلف عن الآخر إلا بدرجةٍ طفيفة.

بلومينباخ ١٧٩٥: ٢٧

١٨٣٩ العرق وحجم الجمجمة: الطبيب الفيلادلفي ساموِيل مورتون يُصنِّف الذكاء عن طريق قياس القدرة الاستيعابية للجماجم التي جمعها. ملأ مورتون الجماجم ببذور الخردل وخردق الرصاص، مصنِّفًا إياها على النحو التالي:

الجماجم «القوقازية» تتَّسم بأعلى قدرةٍ استيعابية، يليها الجماجم «المنغولية»، و«الملايية»، و«الأمريكية»، و«الإثيوبية». يشير بعض الأوروبيين إلى هذه النظرية باسم «المدرسة الأمريكية» لعلم الأحياء البشري. وفي مراجعة أُجريَت لعمل مورتون عام ١٩٨١، اتضح أنه تلاعب في النتائج باستبعاد الجماجم التي لم تتَّفق مع توقُّعاته. يشير العِلم المعاصر إلى انعدام الصلة بين حجم الجمجمة والذكاء.



شكل ٤-٣: ساموِيل مورتون (بتصريح من الجمعية الأمريكية للفلسفة).

ينبغي لنا — نحن أبناء الجنوب — أن نعتبره [مورتون] صاحب الفضل علينا؛ نظرًا لما قدَّمه من مساعدةٍ ملموسة للغاية في وضع الزنوج في وضعهم الحقيقي كعِرقٍ وضيع.

جيبس ١٨٥١: ١٠١

١٨٤٢ العرق وشكل الجمجمة: عالِم التشريح السويدي أندرش ريتزيوس يُقدِّم «مَنْسبَ الرَّأس»، الذي فيه يُقسَم عرض الجمجمة على طولها لتحديد ما إذا كانت مستديرة أو عريضة أو طويلة نسبيًّا. وسرعان ما طُبِّق مَنسَبُ الرَّأس من قِبَل الكثير من العلماء، ممَّن اعتقدوا أنه صفةٌ ثابتة يمكن استخدامها لقياس كلٍّ من الذكاء والعرق.

١٨٥٤ أعراق مختلفة، أصول مختلفة: كتاب «أنواع البشر» لمؤلِّفَيه جوسايا نوت وجورج جليدون، المقروء على نطاقٍ واسع، يروِّج لفكرة «تعدُّد الأصول»، التي ترى أن الأعراق البشرية أنواعٌ منفصلة خُلِق كلٌّ منها على حدة. يعرض نوت وجليدون آراءهما على أنها تستند إلى علمٍ حديث. كما يشارك اختصاصيُّ عِلم الحيوان المُوقَّر بجامعة هارفرد لوي أجاسيز في الكتاب، الذي يُقدِّم تبريراتٍ «علمية» للمفاهيم المتعلِّقة بالدُّونية العِرقية والعبودية على نطاقٍ عامٍّ وأشمل.

إنَّ الاختلافات الموجودة بين أعراق البشر هي نفسها الاختلافات المُلاحظة بين عائلات القرود أو غيرها من الحيوانات وأجناسها وأنواعها المختلفة، و… غالبًا ما تكون الاختلافات بين الأعراق المختلفة أكبر من تلك الاختلافات التي تُميِّز أنواع الحيوانات أحدها عن الآخر.

أجاسيز ١٨٥٤: ٧٤–٧٥

١٨٧٧ العرق والثقافة والتقدم: المحامي وعالِم الأنثروبولوجيا الأمريكي لويس هنري مورجان يطرح نظرية أن الثقافات تتطوَّر من خلال ثلاث مراحل تدريجية، أطلق عليها «الوحشية»، و«الهمجية»، و«التمدُّن». ومن وجهة نظره، تُمثِّل الثقافة الأوروبية معيار التمدُّن، بينما تحتل الثقافات الأخرى المراتب الدنيا للتطوُّر.

ومن ثمَّ، فإنه على الرغم من أن أفريقيا كانت ولا تزال مزيجًا إثنيًّا مضطربًا من الهمجية والوحشية، فإن أستراليا وبولينيزيا ظلتا في الهمجية، نقيَّتان وبسيطتان، بفضل الفنون والمؤسسات المتعلِّقة بهذه الحالة. وعلى نحوٍ مماثل، أوضحت العائلة الهندية لأمريكا … حين اكتشافها، كلَّ حالة من هاتين الحالتين [الهمجية والوحشية]، ولا سيَّما ما يتعلق منها بالمرحلة الدنيا والمرحلة المتوسطة من الوحشية، على نحوٍ أوضح وأشمل من أي جزءٍ آخر من تاريخ تطوُّر البشرية.

مورجان ١٨٧٧: ١٦

فريدريك دوجلاس، من أوائل مَن انتقدوا «عِلم الأعراق»

عام ١٨٥٤، نشر فريدريك دوجلاس، الذي هَرَبَ من أَسر العبودية ليُصبح مُفكِّرًا مشهورًا وأحد مؤيدي إبطال الاسترقاق؛ «مطالب الزنوج، من وجهة النظر العرقية»، وهو دراسةٌ نقدية عن عِلم الأعراق أجراها نوت، وجليدون، ومورتون، وأجاسيز، وآخرون. في هذا العمل، يتحدَّث دوجلاس بوضوح عن قضية «التنشئة» في صميم مناقشةٍ أمريكية حول «الطَّبْع مقابل التنشئة».

أعتقدُ أنه سيتبيَّن دائمًا أن صحة أي جانب من الجنس البشري أو اعتلاله سيترك أثره على الجانب الجسدي، وكذلك على الجانب الفكري للإنسان. ثمة مئات الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها، لعائلاتٍ كاملة تراجعت هيئتها الشخصية، وأخرى تحسَّنت، نظرًا لتغيُّر الظروف؛ فالإنسان يؤثر فيما حوله ويتأثَّر به. وربما يصيغ المرءُ ظروفه، لكن ظروفه أيضًا تصوغه.

دوجلاس ١٨٥٤: ٢٩٤



شكل ٤-٤: فريدريك دوجلاس (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

جورج هورس كابتشر

ليس ثمة مجموعة تتَّسم بالوطنية والولاء مثلنا؛ عندما تكون لدينا رقصة للمُحاربين القدامى، فإن كلَّ [ذَكَرٍ] بالغ ينهضُ من مكانه ويرقص؛ لأننا جميعًا خَدمنا بلدنا كمُتطوِّعين، فهذا جزءٌ من هويتنا. ونظرًا للأسلوب الذي نُعامَل به في هذا البلد، غالبًا ما يستعصي على الناس فهم منطقنا وراء هذا الإخلاص الشديد ... نحن مُكرَّسون لخدمة بلدنا — الأرض الحقيقية — ونتفانى في سبيل ذلك ... ولا يؤثر اسم مَن الموجود على الوثيقة؛ فنحن أصحابُ الأرض ومالكوها.

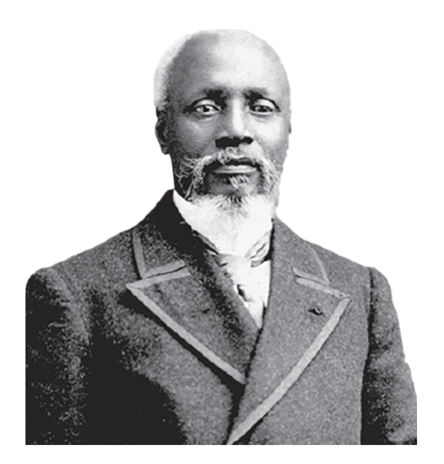
جورج هورس كابتشر في بوهرت ١٩٧٥



شكل ٤-٥: عرضٌ لأساليب حياة الأمريكيين الأصليين في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، حوالي عام ١٩٠٢ (حقوق الطبع والنشر محفوظة لصالح المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي).

١٨٧٩ الأنثروبولوجيا تتبنى «المشكلة الهندية»: سعت الحكومة الأمريكية، أثناء توسُّعها في نظام المحميات الهندية، إلى تكوين فهمٍ أفضل للقبائل الواقعة تحت سيطرتها. وفي عام ١٨٧٩، أنشأت مكتب عِلم الأعراق البشرية لتوثيق التاريخ الهندي الأمريكي ودراسته، فضلًا عن العادات واللغة الهندية الأمريكية.

١٨٨٥ المساواة بين الأعراق البشرية: ينتقد السياسيُّ والمُفكِّرُ الهايتي أنتينور فيرمين، في كتابه «المساواة بين الأعراق البشرية»، العلماءَ الأوروبيين والأمريكيين؛ لأنهم سمحوا لِفكَر التفاوت العرقي وعدم المساواة بين الأعراق بأن تُشكِّل أعمالهم، فنَّدَ فيرمين نظرياتهم بعناية، واقترحَ نظرياتٍ بديلةً عن تطوُّر الاختلاف بين البشر.



شكل ٤-٦: أنتينور فيرمين (بتصريح من مجموعة المركز الدولي للتوثيق والإعلام الخاص بالكنديين ذوي الأصول الأفريقية ومنطقة البحر الكاريبي في هايتي CIDIHCA).

في يوم من الأيام، سوف يُنظَر إلى فكرة وجود تدرُّج هَرَمي للأعراق البشرية، وهو أحد المستجدَّات العقائدية في العصور الحديثة ... على أنها أحدَ أبلغ الأدلة على فساد العقل البشري وفساد العرق المتغطرس الذي حوَّلها إلى عقيدةٍ علمية.

فيرمين ٢٠٠٢

١٨٩٧ المجموعات الحية: مُستكشِف القطب الشمالي الشهير روبرت بيري يجلب الطفلَ مينيك ابن الأعوام السبعة، ووالِده كيسوك، وأربعة غيره من سكان جرينلاند الأصليِّين المعروفين باسم «إينويت» إلى المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك بهدف دراستهم. ويتعهَّد بيري بإعادتهم إلى جرينلاند، بيد أن أربعة منهم — بمَنْ فيهم والِد مينيك — اعتلَّت صحتهم بمجرَّد أن وطئت أقدامهم نيويورك، ووافتهم المَنيَّة. تبنَّى مديرُ المتحف الطفلَ مينيك، و«أُزيل اللَّحم» من على عِظام والِده وأُضيفَت عِظامه إلى مجموعة المعروضات الخاصة بالمتحف. بعد قرنٍ تقريبًا، نجح كين هاربر — الذي تولى كتابة سيرة مينيك الذاتية — في كفاحه لإعادة الهيكل العظمي لوالِد كين إلى جرينلاند.



شكل ٤-٧: جُلِبَ مينيك، وكثيرٌ من أقاربه، إلى مدينة نيويورك عام ١٨٩٧، قادمين من جرينلاند، ليتولى علماءُ الأنثروبولوجيا دراستهم (بتصريح من متحف بيبودي لعلم الآثار وعلم الأعراق البشرية، جامعة هارفرد).

إنقاذ عِلم الأعراق البشرية (الإثنولوجيا)

قُبيل نهاية القرن العشرين وبداية هذا القرن، اعتقد كثيرٌ من علماء الأنثروبولوجيا أن ثقافات الأمريكيين الأصليين أوشكت على الانقراض. وفي خضمٍّ يأسهم من إنقاذ المعرفة المتعلقة بهذه المجموعات البشرية، عَكَفَ علماءُ الأنثروبولوجيا وجامعون خصوصيون على جمع الأواني والأغراض الدينية والملابس، بل وبقايا الهياكل العظمية، بهدف عرضها في المتاحف أو المجموعات الشخصية.

إلا أن الهنود الأمريكيين لم يَنقرضوا، وأُعيدَت في السنوات الأخيرة الكثيرُ من الأغراض والرُّفات البشري الذي جُمِعَ خلال هذه الفترة إلى القبائل التي تنتمي إليها.

إما أن نجمع الآن من السكان الأصليين كلَّ ما لا يزال متوافرًا للدراسة، أو لن يتأتى لنا ذلك على الإطلاق. فما نفقده الآن يستحيل علينا استرداده مُجدَّدًا.

سابير ١٩١١

١٨٩٩ أعراق أوروبا: في هذا الكتاب المعروف، يُصنِّف عالِمُ الاقتصاد ويليام زيبينا ريبلي الأوروبيين إلى ثلاثة أعراق مختلفة: «العرق التيوتوني»، و«العرق الألبي»، و«العرق المتوسطي». اعتمد ريبلي على معيار قياس مَنْسب الرأس الذي وضعه أندرش ريتزيوس وحاز القبول لفترةٍ طويلة، واتخذه أساسًا لعمله. حصل ريبلي على جائزةٍ رفيعة المستوى من المعهد المَلَكي للأنثروبولوجيا في بريطانيا العظمى نظير عمله، ومهَّدت أفكاره الطريقَ أمام الجهود اللاحقة لعلماءَ وكُتَّابٍ من أمثال تشارلز دافنبورت، وماديسون جرانت، وكارلتون كون.

١٩١١ تفنيد حُجة «مَنْسَب الرأس» تدريجيًّا: تدريجيًّا فرانز بواس، عالِمُ الأنثروبولوجيا بجامعة كولومبيا، يكتشف أثناء دراسته لشكل الجمجمة لدى المهاجرين وأطفالهم المولودين في أمريكا أنَّ هذه السمة يمكن أن تختلف من جيلٍ إلى الجيل الذي يليه. ويؤدِّي عمله إلى تفنيد حُجة مَنْسَب الرأس وتراجُع استخدامها الواسع النطاق كمؤشِّر ثابت على العرق. يوضِّح بواس أن الشكل البشري يتأثر بالعوامل البيئية على نحوٍ يفوق ما كان يعتقده معظمُ الناس في ذلك الوقت.



شكل ٤-٨: فنَّدت دراسة فرانز بواس للمهاجرين الأمريكيين الفِكَر السائدة حول العرق في أوائل القرن العشرين (بتصريح من الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا).

باتَ من الواضح ضرورة التخلِّي عن الفكرة القديمة التي تنصُّ على الثبات المُطلَق للأنواع البشرية، وما يُصاحبها من تخلٍّ عن الاعتقاد في الأفضلية الموروثة لبعض الأنواع على غيرها.

بواس ١٩١١: ٨٨

١٩١٦ اندثار العرق العظيم: أدولف هتلر يبعث بخطاب إعجابٍ إلى المحامي ماديسون جرانت من نيويورك، بعد قراءة الكتاب الذي ألَّفه عام ١٩١٦ عن اضمحلال الشعب الأمريكي بسبب الهجرة، كاتِبًا إليه أنَّ «اندثار العرق العظيم هو «هدفه المقدَّس».» ويُحذِّر جرانت من خلاله من الخلط بين «أبناء الشمال» وغيرهم من الأوروبيين، ويروِّج لبرنامج «تحسين النَّسْل»، الذي يهدف إلى تحسين الجنس البشري من خلال التناسُل الانتقائي.

علينا أن نُدرك نحن الأمريكيين أن … النزعة الجيَّاشة إلى التأثر بالعاطفة دون العقل التي جعلت من أمريكا «ملاذًا للمضطهدين» تجرف الأمة نحو هاويةٍ عِرقيةٍ سحيقة. وإذا تُرِكَت بوتقة المَزْج تُعمِل أثرها دون إخضاعها للسيطرة، وظلَلنا نتبع شعارنا القومي ونغضُّ الطرفَ عَمدًا عن كلِّ «تمييز على أساس العرق، أو العقيدة، أو اللون»، فسوف ينقرض الأمريكيون الأصليون المُنحدرون من سكان المستعمرات الأمريكية الأوائل كما انقرض الشعبُ الأثيني من عصر بريكليس، وشعبُ الفايكنج من عهد رولو.

جرانت ١٩١٦: ٢٢٨

١٩١٦ الأنثروبولوجيا وملكية الأراضي: أليش هردليشكا، عالِمُ الأنثروبولوجيا الطبيعية الرائد في مؤسسة سميثسونيان، يُصنِّف الهنودَ في محمية الأراضي البيضاء في مينيسوتا إلى «مختلطي الدماء» أو «خالصي الدماء» بناءً على اختبار يتضمَّن «غرس ظُفْر السَّبابة بشيءٍ من القوة في الصدر». ويزعم أن بشرة الهنود المختلطي الدماء تُخضَّب بالحُمرة على نحوٍ أعمق من بشرة خالصي الدماء. جمع هردليشكا بين نتائجه وملاحظاته الخاصة بلون البشرة، وشكل الشعر، وغيرها من الملامح الجسدية، متجاهلًا فِكَر الأشخاص موضع البحث بشأن الدم والهُوية الذاتية. استُخدِمَت بياناته في العديد من قضايا المحاكم التي يكون فيها «وضع الدم ونقاؤه» محل نظرٍ في الدفاع عن بيع الأراضي الهندية إلى البِيض، بما في ذلك معظم أجزاء محمية الأراضي البيضاء.

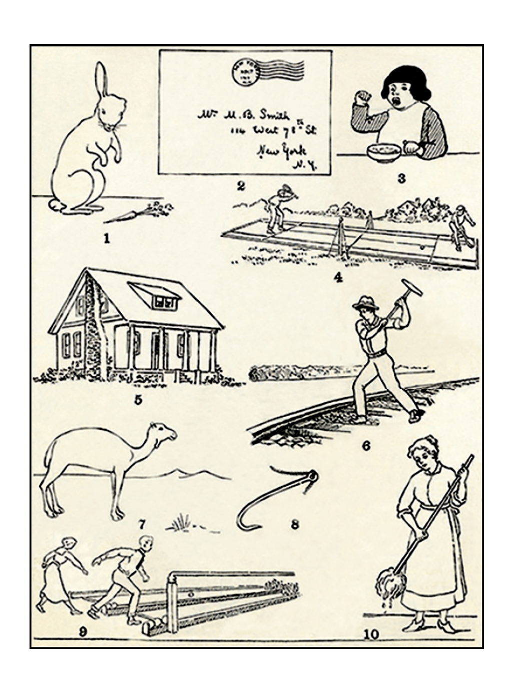
لا شك أنَّ ثمة شعوبًا وأعراقًا مُتخلِّفة بالفعل حاليًّا، وأنَّ ثمة أعراقًا متقدِّمة وأكثر تقدُّمًا، وأنَّ الاختلافات بينهم تميلُ إلى التزايد لا إلى النقصان.

هردليشكا ١٩٢١: ٢٧٢

١٩١٧ اختبارات الذكاء: خلال الحرب العالمية الأولى، الجيشُ الأمريكي يستبدل قياسات الجمجمة باختباراتٍ تحريرية لترتيب الجنود الأمريكيين من حيث الذكاء. استُخدِمَ اختبار ألفا الخاص بالجيش لِمَنْ يستطيعون القراءة، بينما استُخدِمَ اختبار بيتا للأُميين الذين يجهلون القراءة والكتابة أو لا يعرفون الإنجليزية. في مستهلِّ العشرينيات من القرن العشرين، استخدم الكونجرس نتائجَ هذه الاختبارات لإجازة قانونٍ جديد يُقيِّد بدرجةٍ كبيرة الهجرة الوافدة من جنوب أوروبا وشمالها.

إنَّ البيانات التي توصَّلنا إليها من اختبارات الجيش تشير بوضوح إلى التفوُّق الفكري لفريق العرق الشمالي، وفيما يبدو، يأتي العرق الألبي، وفقًا لأرقامنا في مرتبةٍ أدنى كثيرًا من الناحية الفكرية عن النوع الشمالي.

بريجام ١٩٢٣: ٢٠٧



شكل ٤-٩: طُلِبَ من مؤدِّي الاختبارات رسم العنصر المفقود في كل صورة في هذا الاختبار من اختبارات بيتا الخاصة بالجيش، والذي أُجري عام ١٩١٧ حول «الذكاء الفطري». من كتاب «الفحص السيكولوجي في الجيش الأمريكي» لمؤلِّفه روبرت يركيس، طبعة (١٩٢١)، «مذكرات الأكاديمية الوطنية للعلوم» ١٥.

١٩٢٤ اختبارات نسبة الذكاء والدعاية: الطالبُ الجامعي هوراس مان بوند، البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، ينتقدُ المنطق وراء فكرة أنَّ العرق يُفسِّر الاختلافات الموجودة في نتائج اختبارات الذكاء. وفي فترةٍ لاحقة من حياته، يصير مُعلِّمًا بارزًا، ليشغل في نهاية الأمر منصبَ رئيس جامعة لنكولن، الجامعة الأم التي درسَ فيها.

إنَّ قراءةً مُتأنية للجنسيات التي صنَّفها [بريجام] على أنها أقل شأنًا ستوضِّح أنَّ ثمة ترابطًا وثيقًا بين المبالغ المالية التي أُنفِقَت على التعليم وانخفاض مستوى الذكاء [لتلك الجنسيات] نسبيًّا.

بوند ١٩٢٤

عندما نقرأ أنَّ أعظم الشخصيات وأكثرها براعةً كانت ذات شعرٍ أشقرَ وعيونٍ زرقاء، يُمكننا أن نفطن بذكاءٍ إلى ملامح مؤلِّف الكتاب.

هكسلي وهادون ١٩٣٥: ١٣٣

١٩٣٦ العرق والألعاب الأولمبية: العدَّاءُ الأمريكي ذو الأصول الأفريقية، ولاعبُ القفز الطويل، جيسي أوينز، يفوزان بأربع ميدالياتٍ ذهبية في دورة الألعاب الأولمبية الصيفية في برلين عام ١٩٣٦، مُحطِّمًا التوقُّعات النازية بفوز لاعبي شمال أوروبا البِيض. اعتقدَ كثيرون أنَّ هذه السيادة تُبرهن على أنَّ القدرة الرياضية ترتبط بالعرق، وربما تربطها علاقةٌ عكسية بالذكاء.

للتصدِّي لهذه المعتقدات والردِّ عليها، قارَنَ ويليام مونتاجيو كوب — عالِمُ الأنثروبولوجيا الطبيعية بجامعة هوارد — القياسات الجسدية لأوينز بقياسات غيره من اللاعبين. واستنتج أنَّ أوينز يتَّسم ببعض الصفات التي يُعتقَد أنها ترتبط بالأمريكيين الأفارقة، مثل قِصَر عضلة رَبْلَة الساق نسبيًّا. كما أوضح أن القياسات الخاصة بالصفات الجسدية للأمريكيين الأفارقة والبِيض متشابهة بالدرجة التي تسمح بعقد أي مقارنات ذات معنًى فيما يخصُّ الأداء الرياضي. وَجَدَ كوب أن الاختلافات من حيث التدريب والخبرة، وليس العرق، هي على الأرجح التي تُفسِّر تفاوت الأداء الرياضي.

١٩٣٩ هل يوجد عِرقٌ يهودي؟ أدولف هتلر يُهدِّد بـ «إبادة العرق اليهودي في أوروبا». في الأول من سبتمبر، يشنُّ هتلر غارةً جوية على بولندا، مُفجِّرًا الحرب العالمية الثانية. لم يكن التعامل العنصري مع اليهود على أنهم عِرقٌ منفصل يقتصر على ألمانيا؛ ففي هذا العام نفسه، أشار اثنان من أساتذة الأنثروبولوجيا بجامعة هارفرد إلى صفاتٍ ربما تعزل اليهود عن غيرهم.

تبدو هيئة اليهود من أكثر الهيئات الموجودة في عائلةٍ عِرقية تتألَّف من أناسٍ بِيض البشرة لفتًا للنظر، كما أنها أسهل الهيئات تمييزًا على الإطلاق؛ حيث يمكن تمييزها من خلال تعبيرات الوجه المميِّزة.

كون ١٩٣٩: ٤٤٢

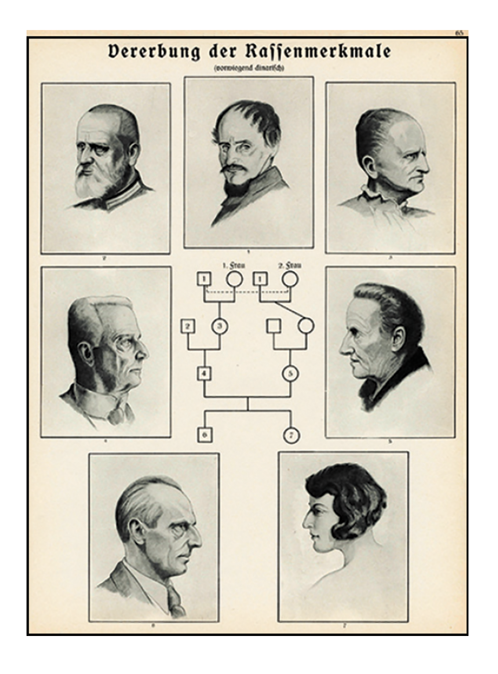


شكل ٤-١٠: جيسي أوينز في بداية سباق المائتي متر الذي حطَّم فيه الرقمَ القياسي في دورة الألعاب الأولمبية الصيفية لعام ١٩٣٦. من كتاب «دورة الألعاب الأولمبية ١٩٣٦ في برلين وجارميش بارتنكيرشن»، لمؤلِّفيه ألتونا-بارنفيلد وسيجارتن-بيلدردينست (١٩٣٦)، صفحة ٢٧ (بتصريحٍ من مكتبة الكونجرس).

ستُعاود الثورات المُعادية للسامية الاندلاع من جديد متى دخلَت المُجتمعات في حالاتٍ من الفوضى الاقتصادية، وبينما يبحث الساسة عن أكباش فداءٍ يُضحُّون بها، وطالما تُقيم بيننا أقلياتٌ يهودية ذات سماتٍ جسدية مُميِّزة تفوَّقت، بحُكم ذكائها، على منافسيها من غير اليهود، وازدهرت في ظل المصائب والمِحَن التي حطَّمت الغالبية العظمى ممَّن يحظَون بهباتٍ طبيعيةٍ أقلَّ.

هوتون ١٩٣٩

١٩١٠–١٩٤٥ نشأة علم تحسين النَّسل: في أوائل العشرينيات من القرن العشرين، أيَّد كثيرٌ من العلماء في كل أنحاء العالم علم تحسين النَّسل بوصفه أداةً مساعدة في زيادة سرعة التقدم البشري. يرى اختصاصيُّو تحسين النَّسل أنَّ من المُمكن التحكُّم في عملية التناسل لتحسين الأصول الوراثية للسكان، وهو ما نُسميه حاليًّا المخزون الجيني للبشر. ومع ذلك، فإن بعض اختصاصيي تحسين النَّسل في الولايات المتحدة يساورهم القلق من أن يؤدي تمازج الأجناس، أو اختلاطها، إلى الانتقاص من قيمة السكان الأمريكيين ومكانتهم.



شكل ٤-١١: «تَوارُث الملامح العرقية» من مجموعة المُلصَقات الإعلانية الواردة بعنوان «نظرية الوراثة والصحة العرقية»، ألمانيا، عام ١٩٣٥ تقريبًا (نُسخت بموجب إذن من جامعة هوفسترا، مجموعة كرول).

في ألمانيا النازية، أدَّت العنصرية ومبادئ تحسين النَّسْل إلى إشعال كارثة الهولوكوست. وفي الفترة ما بين عامَي ١٩٣٣ و١٩٤٥، قتل النازيون ما يزيد عن ستة ملايين يهودي وعددًا غير معلوم من طائفة الروما (الغجر) في إطار برامج تهدف إلى إبادة مَن يرونهم أقل شأنًا منهم من الناحية

العرقية. استهدفَت سياساتُ الإبادة النازية أيضًا البولنديين، والروس، والأوكرانيين، وذوي الإعاقات الذهنية والبدنية، والمثليين، والمختلفين عنهم سياسيًّا ودينيًّا.

١٩٥٢ بيان اليونسكو حول العرق: كردٍّ فعلٍ على جرائم الإبادة الجماعية التي وقعت على يد النظام النازي في أربعينيات القرن العشرين، شكَّلت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) فريقًا دوليًّا من العلماء لوضع تعريفٍ «علمي» للعِرق، تعريف أمَّلوا ألا يُمكن استخدامه لأغراضٍ ضارة. ناقَش العلماءُ هذا البيان في اجتماعَين منفصلَين وسط خلافاتٍ حول كيفية تعريف العرق.

إنَّ المهم هو وحدة البشر من وجهتي النظر البيولوجية والاجتماعية. وإدراك هذا الأمر والعمل وفقًا له هو المطلب الأول الذي ينبغي للإنسان الحديث الاضطلاع به.

اليونسكو ١٩٥٢: ٧٨

١٩٦٩ اختبار نسبة الذكاء: مجددًا في مقال بمجلة هارفرد التعليمية، زعم عالِمُ النفس آرثر جينسن أن الاختلافات الوراثية، وليس التمييز السياسي والاجتماعي الاقتصادي، هي التي تؤدِّي إلى ظهور اختلافاتٍ عِرقية في نتائج اختبارات الذكاء. أثارت مزاعم جينسن انتقاداتٍ شديدة لدى كثيرٍ من أعضاء المجتمع الأكاديمي وعموم الناس بوجه عام، إلا أن المُشرِّعين وواضعي القوانين استخدموا عمل جينسن لتبرير خفض تمويل البرامج التعليمية.

١٩٧٢ علم الوراثة والعرق: في تحليلٍ رائد للبيانات الوراثية للعديد من فصائل الدم المختلفة تحت عنوان «تقسيم الاختلافات بين البشر»، اكتشفَ عالِمُ الوراثة وعالِمُ الأحياء التطوري ريتشارد ليونتين أن الاختلافات الوراثية بين «الأعراق» بسيطة بالمقارنة مع التنوُّع الوراثي بين أبناء «العرق» الواحد. وأكدَّت دراساتٌ لاحقة هذه النتائج.

تعارَض استنتاج ليونتين مع أيديولوجية العرق المعروفة؛ ومن ثمَّ كانت أهميته القصوى، ومضمون هذا [التحليل الوراثي الجديد] … أن الاختلافَ العرقي المُزمَع ليس بالموضوع المهم الذي يلتفتُ إليه شخصٌ مهتمٌّ بدراسة الاختلافات العامة بين البشر.

ماركس ٢٠٠٢: ٨١–٨٢

١٩٩٤ حروب المنحنى الجَرسي: عالِمُ النفس ريتشارد هيرنشتاين، واختصاصيُّ العلوم السياسية تشارلز موراي، يزعمان في كتابهما «المنحنى الجَرسي»، وجود اختلافاتٍ في الذكاء تَستنِد إلى أسبابٍ عِرقية موروثة، في تكرارٍ واضح لمزاعم آرثر جينسن عام ١٩٦٩. أثار الكتابُ جدلًا واسع النطاق.

ويشير عالِمُ الأحياء التطوري ستيفن جاي جولد إلى العيوب التي تضمَّنها منطق المؤلِّفَين ومفهومهما عن الذكاء.

لا يتضمَّن «المنحنى الجَرسي» حُججًا جديدة ولا يُقدِّم بياناتٍ جذَّابة لدعم نظرته الداروينية الاجتماعية المُنطوية على مفارَقة تاريخية ... يُعزى فشل الحُجة الأساسية في «المنحنى الجَرسي» إلى أنَّ مُعظم الفرضيات التي قدَّمها كانت مغلوطة.

جولد ١٩٩٤

١٩٩٦ إنسان كينويك: العثور على الهيكل العظمي لإنسانٍ يعود إلى ٩٢٠٠ سنة قُرب كينويك بولاية واشنطن. وعند فحص الجُمجمة، استخدم عالِمُ الآثار جيمس تشاترس مُصطلَح «قوقازي» Caucasoid القديم لوصفه، مما يُثير حفيظة بعض الأمريكيِّين الأصليين، الذين زعموا أن العِظام تخصُّ أحد الهنود الأمريكيين.



شكل ٤-١٢: أثارَ هذا النموذج لرأس إنسان كينويك، الذي أعادَ بناءه عالِمُ الأنثروبولوجيا جيمس تشاترس والنحَّات توماس ماككليلاند، الجدل حول الهُوية العرقية للهيكل العظمي (مصدر الصورة: ايه بي فوتو، برفيكت إيمدج، جيمس تشاترس، المكتب الرئيسي).

خاضَ العلماءُ، الذين كانوا يرغبون في مواصلة دراسة الرُّفات، نزاعًا قانونيًّا دام لفترةٍ طويلة مع قبائل الأمريكيين الأصليين الذين أرادوا أن يُوارى الهيكل العظمي الثرى من جديد بوصفه هيكل جَدِّهم. أوضحت دراسةٌ أخرى أن إنسان كينويك يتشابه في ملامحه التشريحية مع بعض الآسيويين القدماء، واستند بعضُ علماء الأنثروبولوجيا إلى هذه الاختلافات العرقية بهدف معارضة حق الأمريكيين الأصليين في إعادة الدَّفْن، ثم قَضَت محكمةُ استئنافٍ فيدرالية عام ٢٠٠٤ بالسماح للعلماء بمواصلة دراستهم والمضي قُدمًا.

مارسَ العلماءُ أعمالَ الحفر والتنقيب وعَكَفوا على دراسة الأمريكيين الأصليين على مدى عقودٍ من الزمان. ومن وجهة نظرنا، فإن هذه المُمارسات تمثِّل استباحةً لحُرمة الجسد وانتهاكًا لمُعتقَداتنا الدينية الأكثر رسوخًا. توجد حاليًّا آلاف الرُّفات العظمية التي تخصُّ السكان الأصليِّين على أرفف المتاحف والمؤسَّسات، بانتظار اليوم الذي يمكنها فيه العودة إلى الأرض، وبانتظار اليوم الذي ينظر فيه العلماءُ إلى هذا الرُّفات وغيره بعين الاحترام التي يستحقُّها.

أرماند مينثورن، زعيم القبائل الكونفيدرالية
في محمية أوماتيلا الهندية، مينثورن ١٩٩٦

٢٠٠٦ بحوث الوراثة والسكان الأصليون: الهنود الأمريكيُّون، وغيرهم من الشعوب الأصلية، يناقشون بحوث الوراثة وما إذا كانوا ينوون المشاركة في المشروع الجينوجرافي للجمعية الجغرافية الوطنية. تَضمَّن المشروع الجينوجرافي، الذي كان يهدف إلى دراسة تاريخ الهجرات البشرية من خلال الدراسات الوراثية، إرشاداتٍ أخلاقيةً تهدف إلى ضمان احترام حقوق الشعوب الأصلية و«صندوق تمويل» تستفيد منه المجموعات الأصلية والتقليدية. وعلى الرغم من أن البعض، مثل قبائل سيكونك وامبانواغ وقرية جورج تاون الأصلية، كانوا يُؤيدون البحث، كان ثمة آخرون مثل مجلس الشعوب الأصلية المعني بالاستعمار البيولوجي، يُعارضون البحث بسبب الأضرار الملموسة التي ربما تنجم عنه.

ربما يصبُّ هذا [البحث] في مصلحة العِلم، بيد أنني غير مُقتنع أنه يصبُّ في مصلحة القبائل.

مايك لاروك، رئيسٌ مشارك في لجنة المراجعة المؤسسية
بمنطقة ألاسكا، هيئة الصحة الهندية،
استُشهِد به في هارمون ٢٠٠٦

(١) جو واتكينز: الكَفُّ عن عَرْقَنة الماضي

علاقات الأمريكيين الأصليين وعلماء الآثار في عصر العَرْقَنة



جو واتكينز: هو مدير برنامج دراسات الأمريكيين الأصليين بجامعة أوكلاهوما. وهو هنديٌّ من قبائل تشوكتاو، واهتمَّ بعلم الآثار لما يزيد على أربعين عامًا. نشرَ واتكينز مقالاتٍ عديدة حول الممارسة الأخلاقية للأنثروبولوجيا وعلاقات هذا المجال المعرفي بالمجتمعات المُتحدِّرة من أصل معيَّن والسكان الأصليين. ويناقش هنا العلاقة بين الأمريكيين الأصليين وممارسة علم الآثار في الولايات المتحدة، مستندًا إلى قضايا معاصرة مثل قانون حماية مقابر الأمريكيين الأصليين وإعادة الرُّفات إلى الوطن، والجدل الدائر حول إنسان كينويك، ونشأة علم آثار الشعوب الأصلية (الصورة الفوتوغرافية بتصريح من جوزيف واتكينز، التقطتها له جاكلين دي سليتر).

* * *

(١-١) العرق مقابل الإثنية

إنَّ العرق، كما سيُؤكِّد علماء الأنثروبولوجيا، هو بناءٌ اجتماعي وليس بناءً فسيولوجيًّا، بيد أن إساءة الفهم العام لهذا الفارق لا تزال تُولِّد مشكلاتٍ بين الجماعات الإثنية المختلفة والمجتمعات المُتحدِّرة من أصل معيَّن. في الوقت الحالي، يمثل «الهنود الأمريكيون» إثنيةً مبنية على أُسسٍ سياسية وليست عرقية؛ فالهنود الأمريكيون يُعرَّفون من خلال علاقتهم بتنظيمٍ سياسي — وهو «القبيلة» — وليس من خلال أي علاقةٍ وراثية. وحتى الجماعات القَبَلية التي تستند عضويتها إلى «كمية الدم» (النِّسب المئوية المُعمَّمة للدم «القَبَلي» مقابل الدم «غير القَبَلي») لا تستخدم المقاييس الوراثية لتحديد هوية أبنائها.

(١-٢) علم الأنثروبولوجيا والهنود الأمريكيون

يَتمحوَر التاريخ السلبي بين علماء الأنثروبولوجيا والهنود الأمريكيين — في جانبٍ كبير منه — حول التنقيب عن رُفاتٍ بشرية لهنودٍ أمريكيين تعود إلى العصور القديمة والتاريخية والحديثة والاحتفاظ بها. ولقد قدَّمتُ مقتطفاتٍ تاريخية موجزة عن العلاقات التي تربط بين علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين والهنود الأمريكيين في مواضعَ أخرى (واتكينز ٢٠٠٠، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤، ٢٠٠٥أ، ٢٠٠٥ب). كتبَ أيضًا مؤلِّفون من الهنود الأمريكيين أمثال ديلوريا (١٩٦٩)، وإيكو-هوك (١٩٩٧، ٢٠٠٠)، وميهيجوا (١٩٩٦)، ورايدينج إن (١٩٩٢)، وتروب وإيكو-هوك (١٩٩٢)، وآخرون غيرهم، عن هذه العلاقات، إلا أن الضوء سُلِّطَ بتركيزٍ قوي على تأثير تنقيب علماء الأنثروبولوجيا عن الرُّفات البشري وإخراجه من خلال المقارنة التي عقدتها ديفون ميهيجوا بين سارقي المقابر وعلماء الآثار؛ حيث كتَبت أنَّ «الاختلاف الوحيد بين التنقيب غير الشرعي بمقبرةٍ ما والتنقيب العلمي يتمثَّل في عامل الوقت، وكِريم الوقاية من الشمس، والمكانس الصغيرة، ونظافة المنطقة وترتيبها عند انتهاء العمل» (١٩٩٦: ٢٣٣). في مقدور المرء عند العمل انطلاقًا من هذا المنظور أن يرى كيف أصبح من السهل لمخاوف الهنود الأمريكيين تجاه علم الآثار أن تتَّخذ طابعًا شخصيًّا يفوق منظور المجتمعات المتحدِّرة من أصولٍ أخرى.

كوسيلة لُمحاولة إصلاح بعض المشكلات المتعلِّقة بالاحتفاظ بالرُّفات البشري للهنود الأمريكيين ضمن مجموعة المعروضات الخاصة بالمتاحف المُدارة تحت إشراف الحكومة،

أصدر الكونجرس عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠ قانونًا يهدف إلى منْح قبائل الهنود الأمريكيين الفرصة لاستعادة رُفات أسلافهم. اعتبر بعضُ علماء الأنثروبولوجيا أنَّ هذا القانون — قانون حماية مقابر الأمريكيين الأصليين وإعادة الرُّفات إلى الوطن — فرصةً لتوسيع مجال دراستهم، مُشيرين إلى أن «قانون حماية مقابر الأمريكيين الأصليين وإعادة الرُّفات إلى الوطن سوف يسمح لعلم الآثار الحيوي أن يظهر بوصفه مهنةً مسئولة ونشيطة وربما أكثر علانيةً» (روز وآخرون ١٩٩٦: ٨٢). في حين أن آخرين من أمثال روبسون بونيشسين اعتَبَروه يمثل تهديدًا لعلم الآثار، مُشيرين إلى أن «إعادة الرُّفات البشري إلى الوطن خرَجت عن نطاق السيطرة وتوشِك أن توقِف نشاطنا كمهنة» (حسبما استشهد به في جونسون ١٩٩٦). يرى كثيرٌ من علماء الأنثروبولوجيا أن إعادة الرُّفات البشري إلى الوطن، التي يُمكن إثباتها بسهولة لجماعات الهنود الأمريكيين القديمة أو القريبة منها زمنيًّا كان أمرًا مفهومًا ومبرَّرًا، إلا أن تبرير إعادة ذلك الرُّفات صار أكثر صعوبةً عندما بدأ الأمر يتعلَّق بالمواد التي تَرجع إلى «الماضي السحيق». وتعدُّ قضية كينويك أبلغ مثال على ذلك.

تضمَّنت قضية كينويك مجموعة من الرُّفات البشري البالغ عمره من ٨٠٠٠ إلى ٨٥٠٠ عام، وهي من أقدم مجموعات الرُّفات البشري التي تعود إلى نصف الكرة الغربي. أوعزَ عُمر الرُّفات إلى بعض علماء الآثار أن إعادة الرُّفات البشري إلى الوطن كانت أمرًا جائزًا في ظل قانون حماية مقابر الأمريكيين الأصليين وإعادة الرُّفات إلى الوطن؛ بينما يرى آخرون أن المعلومات العلمية التي من المحتمَل أن يحتفظ بها الرُّفات قد جعلت إعادة الرُّفات إلى الوطن أمرًا يصعب تبريره من الناحية العلمية. اتسمت الرُّفات البشري التي جرى استردادها من نهر كولومبيا في واشنطن بصفاتٍ جسدية حَدَتْ بدكتور جيمس تشاترس، وهو عالِم آثار في المنطقة كُلِّف بمهمة استرداد الرُّفات، إلى تصنيف الرُّفات على أنه «قوقازي»، وهو أحد «الأنواع العرقية» الثلاثة القديمة. ومع ذلك، عندما استُشهِد في الصحف المحلية بما ذَهَبَ إليه د. تشاترس في كون الرُّفات فيما يبدو «قوقازيًّا»، وهو مصطلحٌ يشيع استخدامه في الولايات المتحدة لوصف «الأمريكيين البِيض»؛ اتخذت القضية والرُّفات طابعًا عِرقيًّا.

صنَّفَ علماءُ الأنثروبولوجيا الطبيعية الرُّفاتَ البشري استنادًا إلى مجموعة من القياسات التي أُجريَت على مكونات الهيكل العظمي البشري. وعند ربط هذه القياسات

معًا، تكوَّنت «نماذج» إحصائية استُخدِمت في تحديد خصائص السكان. يَستخدمُ علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية وعلماء التشريح هذه «النماذج» لوضع الأفراد ضمن «خلفياتٍ إثنية» محتمَلة كوسيلة نقاش في المقام الأول، بدلًا من إسنادها إلى أيِّ حقائقَ عنصريةٍ.

بمجرد أن صُنِّفَ الهيكل العظمي لإنسان كينويك على أنه «أبيض»، حدثت العَرْقنة. أشار الكاتِبُ السياسي اليميني لويل بونتي إلى أن إنسان كينويك ربما أثبت أن «بعض «الأمريكيين الأصليين» الأوائل كانوا بيض البشرة ويَنحدرون من أصول أوروبية» (بونتي ١٩٩٩). بالإضافة إلى ذلك، اقترح أن «الأمريكيين ذوي البشرة البيضاء ربما قُضيَ عليهم على يد أجداد الهنود الحاليِّين الذين شنوا هجماتٍ عليهم.» وأنه لولا وقوع الإبادة الجماعية، «فلربما كان في استقبال كولومبوس السكانُ الأصليون الذين يفوقونه في بياض البشرة.»

ثمة الكثير من الآثار السياسية المُترتِّبة على عَرْقنة الماضي على هذا النحو تتمثَّل في الجوانب السياسية لسيادة الأمريكيين الأصليين وبِنيتهم الاجتماعية. إذا كان السكان «الفعليون» لأمريكا من البِيض، وسُلِبت أراضيهم على أيدي «الأمريكيين الأصليين» المعتدين، فإن «إعادة اكتشاف» أمريكا على أيدي الأوروبيين ما هو إلا إعادة غزو واغتصاب للأراضي التي كانت ملكًا لهم من قبلُ، وبذلك يُمكن اعتبار المُعاهَدات التي أُبرمَت مع الهنود غير ضرورية وملغاة.

عندما تقدَّمت قبائل الهنود الأمريكيين المحلية بطلبٍ لإعادة الرُّفات البشري إلى الوطن، أقام ثمانية علماء دعوى قضائية لتمكينهم من استخدام الرُّفات البشري لأغراض الدراسة. ويُعدُّ الرُّفات مهمًّا نظرًا لما قد يتضمَّنه من معلوماتٍ بحُكم قِدَمه عن السكان الأوائل لهذا النصف من الكرة الأرضية. ودعمًا لهذه القضية، أقامت منظمة «أصدقاء ماضي أمريكا» — وهي منظمة غير هادفة للربح — حملةً كي تؤكِّد من خلالها للرأي العام أن «الماضي» شأنٌ يخصُّ الجميع ويجب ألَّا «تخضع لسيطرة» طائفة بعينها. هذه الفكرة عن الإرث المشترك تسود في الثقافة الغربية، ويستفيد علماء «حوار حول إهانة البشر» الآثار من هذا المفهوم. ومع ذلك، للإيجاز، فإن حقوق الجماعات الأصلية في ملكية تُراثهم الأثري والثقافي والتحكُّم فيه قلَّما تتساوى مع حقوق الأمم التي يعيشون في كنفها.

يشير لاري زيمرمان (٢٠٠١: ١٦٩) إلى نقطةٍ مهمة عن الوضع داخل الولايات المتحدة: «يصعب النظر إلى العلاقة التاريخية بين علماء الآثار والأمريكيين الأصليين على

أنها أي شيءٍ خلاف الاستعمار العلمي.» حيث تُكتسَب المعرفة بشأن البشر ثم «تُصدَّر» خارج «بلد المنشأ» لاستخدامها بهدف معالجتها في شكل مادةٍ فكرية.

(١-٣) علم آثار الشعوب الأصلية

ناقشَت مؤخرًا حركةٌ في علم الآثار تُسمَّى «علم آثار الشعوب الأصلية» فائدة علم الآثار بالنسبة إلى الجماعات الأصلية دون الاكتفاء بمُناقشة أساسياته فقط كعلم. وفي أحدث هذه المناقشات وأكثرها إيجازًا، أوضح نيكولاس أن الفكرة نشأت «عن جهود الشعوب المُهمَّشة في كل أنحاء العالم من أجل التصدي لهيمنة علم الآثار على حياتهم وتراثهم» (٢٠٠٨: ١٦٦٨). إلا أن المعارضين لعلم آثار الشعوب الأصلية (قارن ماكجي ٢٠٠٨) يرون أن الحجة التي تطرحها هذه الفكرة بشأن أهمية علم الآثار تستند إلى «حقيقةٍ جوهرية» تُميِّز الشعوب «الأصلية» عن الباحثين غير المحليين، وهو امتيازٌ يستند بطريقةٍ ما إلى «أصالة» السكان الأصليين.

تضمَّنت طبعةٌ حديثة من «السجل الأثري» الصادر عن الجمعية الأمريكية لعلم الآثار مجموعة أبحاث حول مسألة «العمل معًا على العرق والعنصرية في علم الآثار الأمريكية» (دونجوسكي وزيمرمان ٢٠١٠: ٣–٢٥)، والتي درست فكرة علم آثار الشعوب الأصلية بوصفها مفهومًا ذا صِبغة عِرقية. أشعل جذوة النقاش روجر إيكو-هوك، وهو أحد أفراد قبيلة باوني في أوكلاهوما لكنه يَعترف أنه كان «هنديًّا في السابق»؛ حيث أشار إلى أنه «في السنوات الأخيرة، ظهرت في علم الآثار أعدادٌ مُتزايدة من الأشخاص الذين ما يزالون يحملون راية الهنود الحُمر، ويعرِّفون أنفسهم على أنهم مُتمسِّكون بعِرقهم الهندي، مُستخدمين ببراعةٍ رسائلَ الدكتوراه وكلَّ ما لديهم من أدواتٍ أثناء تناولهم للمسيرة التاريخية لعلم الآثار» (٢٠١٠: ٢١). يرى إيكو-هوك أنَّ هذا «التعصُّب للعِرق الهندي» يجعل «الهنود» عُنصريِّين شأنهم شأن الأكاديمية الغربية التي يُحاربونها فيما يبدو. ربما تكون وجهة نظره الجوهرية تلك التي يرى فيها مُمارسي علم آثار الشعوب الأصلية على أنهم علماء آثار عنصريُّون مصدر قلق وإزعاج في بعض الأحيان، إلا أن الآمال معقودة على أن تؤدي إلى مناقشة أكثر شمولًا للفِكَر الأساسية المتعلقة بمبادئ هذا المجال المعرفي الفرعي.

(٤-١) إعادة الرُّفات إلى الوطن والتحكُّم في الماضي

ليس المقصود من هذا المقال الموجز استكشافُ كل جوانب العلاقة بين الهنود الأمريكيين وعلماء الآثار، وإنما ببساطة لفتُ الانتباه إلى بعض الأسباب الأساسية وراء الخلاف. فهذه الموضوعات المتعلِّقة بإعادة الرُّفات البشري للهنود الأمريكيين إلى الوطن والتحكُّم في الماضي من قِبل مجموعاتٍ أكاديمية — وليس من قِبل أحفاد مَن صنعوا ذلك الماضي — مشحونة بالعواطف ومُثيرة للخلاف والجدل. ترى بعضُ المجموعات أن الرُّفات البشري للهنود الأمريكيين مواردَ علمية تحتوي على معلوماتٍ عن السكان الأوائل لهذا البلد، بينما ترى مجموعاتٌ أخرى أن العدد غير المُتناسب من الرُّفات البشري للهنود الأمريكيين الموجود ضمن المعروضات العلمية ومعروضات المتاحف يُمثل إرثًا مُخزيًا من المواقف العنصرية التي تعود إلى القرن الثامن عشر.

بصرف النظر عن فكرة إعادة الرُّفات إلى الوطن وتأثيرها على علم الآثار أو النتائج المترتِّبة على التعاون بين علماء الآثار والهنود الأمريكيين، ستكون دائمًا ثمَّة هدنةٌ مُضطربة بين العلماء الذين يدرسون «الماضي» وأحفاد مَن صنعوا هذا الماضي. لا يزال قانون حماية مقابر الأمريكيين الأصليين وإعادة الرُّفات إلى الوطن موجودًا، ومن المُرجَّح أن يُثير مزيدًا من المشكلات في الوقت الذي يستمر فيه تفسيره عبر المحاكم وتظهر فيه إجراءاتٌ تشريعية أخرى تُوسِّع نطاقه. على الرغم من أنه ليس العرق في حدِّ ذاته هو ما يُشكِّل الأساس في وجهات النظر المختلفة هذه؛ فإن السهولة التي غالبًا ما تُطرَح بها فكرة العرق الراسخة لا تزال تنطوي على مشكلاتٍ معقَّدة ويجب تغييرها.

(٢) حوارٌ حول إهانة البشر

في ختام هذا الفصل، نستمعُ إلى بعض المؤرخين، واختصاصيٍّ في علم الوراثة، وحقوقيٍّ مُتخصِّص في الضرورة الاستعمارية لتجنيس النظام الاجتماعي من خلال علم الأعراق. «ميا باي» هي أستاذ التاريخ والمدير المشارِك لمركز العرق والإثنية بجامعة روتجرز. «إيفيلن هاموندز» هي عميد كلية هارفرد، وحاصلة على أستاذية باربرا جوتمان روزنكراتس في تاريخ العلوم وأستاذ الدراسات الأفريقية والأمريكية الأفريقية بجامعة هارفرد. «جيمس هورتون» حاصلٌ على أستاذية بنجامين بانيكر في الدراسات الأمريكية والتاريخ الأمريكي بجامعة جورج واشنطن ومؤرِّخ مُتقاعد

بالمتحف الوطني للتاريخ الأمريكي التابع لمؤسسة سميثسونيان. «ريتشارد ليونتين» هو أستاذٌ متقاعِد لمادة علم الأحياء وحاصل على أستاذية ألكسندر أجاسي الفخرية في علم الحيوان في متحف علم الحيوان المُقارَن بجامعة هارفرد. «بيلار أوساريو» هي أستاذٌ مشارِك في القانون والأخلاقيات البيولوجية بجامعة ويسكونسن في ماديسون.

* * *

ميا باي: خلال القرن التاسع عشر، كان ثمة الكثير من المحاضرات العامة حول الأعراق البشرية. وكان [عِلم الأعراق] يحظى باهتمامٍ كبير لدى الناس بوصفه مجالًا جديدًا. وكان من المتوقَّع أن يكشف العلم في القرن التاسع عشر عن كل الجوانب الغامضة للكون وأن يحلَّ كل ألغازه.

ريتشارد ليونتين: كان الجميع مهتمًّا بشرح أوجه التفاوت الاجتماعي الهائلة، على الرغم من حقيقة أنهم كانوا يعيشون في هذه المجتمعات التي اندلعت فيها الثورات تحقيقًا للمُساواة الاجتماعية.

جيمس هورتون: رأى بعض العلماء أنَّ ثمة خصائصَ جسديةً وطبيةً معينة يتَّسم بها السود جعلتهم مناسبين للعبودية دون غيرهم. في الواقع، ثمة عالِمٌ واحد، سأضعُ هذه العبارة بين علامتَي اقتباس، ثمة «عالِمٌ» واحد افترضَ أن ثمة مرضًا يمكن أن يُفسِّر هروب العبيد. وأطلق عليه «مرض الهروب». يُصاب المرءُ بهذا المرض؛ مما يجعله يرغب في الهروب من العبودية؛ ومن ثمَّ فإن المرءَ لم يكن ليهرب من العبودية إلا إذا أُصيبَ بهذا المرض.

إيفلين هاموندز: وبنهاية القرن التاسع عشر، إذا أخذنا الأمريكيين الأفارقة فقط كمثال، لم يكن ثمة جزءٌ واحد من أجزاء الجسم لم يخضع لهذا النوع من التحليل؛ لذا، ستجد مقالاتٍ في الأدبيات الطبية تتحدَّث عن أُذن الزنجي، وأنفه، وساقه، وقلبه، وعينه، وقدمه، وعن كل جزء من أجزاء جسمه، إلى آخر هذه القائمة اللانهائية من الاختلافات.

جيمس هورتون: لربما كان من الأفضل أحيانًا لو أن أمريكا واجهت العالم بجرأة وقالت: «حسنًا، نحن نستعبدُ هؤلاء الأشخاص لأننا نحتاج إلى عملهم، ولدينا القدرة على أن نقوم بذلك.» ولكان الأمرُ الآن أفضل بكثير؛ لأن المشكلة كانت ستنتهي بزوال القدرة وانتهاء العبودية. لكن ما قلناه — نحن الأمريكيين — كان كالتالي: «ثمة شيءٌ

مختلف بشأن هؤلاء الأشخاص.» ومن خلال القيام بذلك، فإن العبودية عندما تنتهي، يظل تبرير وجودها قائمًا.

إيفلين هاموندز: إنَّ الذين أبصروا الاختلافات كانوا يُريدون تأكيدَ رؤيتهم في أن أنسبَ مكان لَمَن يُنعَتون بـ «الزنوج» هو قاع المجتمع الأمريكي. ودعَّموا موقفهم هذا بالبحث عن هذه الاختلافات الجسدية والبيولوجية الجوهرية التي جعَلت الأمر يبدو طبيعيًّا. والفكرة في البحث عن الاختلافات أنك تجدُها بمجرَّد النظر؛ ومن ثمَّ فإنهم يجدون اختلافات في حجم الصدر وعَرْضه، وطول الأطراف، وسعة الرئتَين، وغيرها من تلك الأمور. وبالطبع، فإنهم يُفسِّرون تلك الاختلافات بمنظور العرق.

بيلار أوساريو: من بين الأمور التي قام بها علماء الأنثروبولوجيا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أنهم تجوَّلوا هنا وهناك وجرَّبوا وصنَّفوا الناس حسب أعراقهم، محاوِلين أخذ كل أنواع القياسات الجسدية. وفي النهاية، توصَّلوا في أوائل القرن العشرين إلى فهم أنه لم يكن من المُمكن تحديد مجموعة بعينها من المقاييس والمعايير التي يُمكننا من خلالها أن نُصنِّف بوضوح كل الأشخاص الذين نعتقد أنهم يَنتمون إلى عِرقٍ واحد ونفصلهم عن كل الأشخاص الذين نَعتقد أنهم ينتمون إلى عِرقٍ آخر؛ ومن ثمَّ حتى في أوائل القرن العشرين، كان علماء الأنثروبولوجيا على وشك أن يَستنتِجوا فعليًّا أنه ليس ثمة أعراقٌ مختلفة. ودراساتُنا في علم الوراثة تدعم ذلك.

(نُسخت بتصريح من كاليفورنيا نيوزريل.)

المراجع

Armelagos, George J., and Alan H. Goodman:

1998 Race, Racism and Anthropology. *In* Building a New Biocultural Synthesis: Political–Economic Perspectives on Human Biology. Alan H. Goodman and Thomas L. Leatherman, eds. pp. 359–377. Ann Arbor: The University of Michigan Press.

Armelagos, George J., and Dennis P. Van Gerven:

2003 A Century of Skeletal Biology and Paleopathology: Contrasts, Contradictions, and Conflicts. American Anthropologist 105: 53–64.

Barkan, E.:

1992 The Retreat of Scientific Racism: Changing Concepts of Race in Britain and the United States between the World Wars. New York: Cambridge University Press.

Benedict, Ruth:

1945 Race: Science and Politics. Rev. edition. New York: Viking Press.

Blakey Michael L.:

1987 Skull Doctors: Intrinsic Social and Political Bias in the History of American Physical Anthropology. With special reference to the work of Aleš Hrdlička. Critique of Anthropology 7: 7–35.

Brace, C. Loring:

2005 "Race" Is a Four-Letter Word: The Genesis of the Concept. New York: Oxford University Press.

Byrd, W. Michael, and Linda A. Clayton:

2000 An American Health Dilemma, vol. 1: A Medical History of African Americans and the Problem of Race: Beginnings to 1900. New York: Routledge.

Cigaretten-Bilderdienst, and Altona-Bahrenfeld:

1936 Die Olympischen Spiele 1936 in Berlin und Garmisch-Partenkirchen. p. 27: Cigaretten-Bilderdienst and Altona-Bahrenfeld.

Cobb, William Montague:

1936 Race and Runners. The Journal of Health and Physical Education 7: 3–7, 52–56.

Duster, Troy:

2005 Race and Reification in Science. Science 307: 1050-1051.

Ossorio, Pilar, and Troy Duster:

2005 Race and Genetics: Controversies in Biomedical, Behavioral and Forensic Sciences. American Psychologist 60: 115–128.

Feldman, Marcus W., and Richard C. Lewontin:

2008 Race, Ancestry, and Medicine. *In* Revisiting Race in a Genomic Age. Barbara A. Koenig, Sandra Soo-Jin Lee, and Sarah S. Richardson, eds. pp. 89–101. New Brunswick: Rutgers University Press.

Fredrickson, George M.:

1987 The Black Image in the White Mind: The Debate on Afro-American Character and Destiny, 1817–1914. Wesleyan edition. Hanover, NH: Wesleyan University Press.

Gould, Stephen Jay:

1996 The Mismeasure of Man. Rev. and expanded edition. New York: W.W. Norton and Company.

Gravlee, Clarence C., Amy Non, and Connie Mulligan:

2009 Genetic Ancestry, Social Classification, and Racial Inequalities in Blood Pressure in Southeastern Puerto Rico. PLoS ONE 4: e6821.

Hammonds, Evelyn M., and Rebecca M. Herzig, eds.:

2008 The Nature of Difference: Sciences of Race in the United States from Jefferson to Genomics. Cambridge, MA: The MIT Press.

Harding, Sandra, ed.:

1993 The Political Economy of Science: Toward a Democratic Future. Bloomington: Indiana University Press.

Jackson, Fatimah L. C.:

2004 Human Genetic Variation and Health: New Assessment Approaches Based on Ethnogenetic Layering. British Medical Journal 69: 215–235.

Kahn, Jonathan:

2004 How a Drug Becomes “Ethnic”: Law, Commerce, and the Production of Racial Categories in Medicine. Yale Journal of Health Policy, Law, and Ethics 4: 1–46.

Keita, Shomarka, R. A. Kittles, C. D. M. Royal, G. E. Bonney, P. Furbert-Harris, G. M. Dunston, and C. M. Rotimi:

2004 Conceptualizing Human Variation. Nature Genetics 36: S17–S20.

Koenig, Barbara A., Sandra Soo-Jin Lee, and Sarah S. Richardson, eds.:

2008 Revisiting Race in a Genomic Age. New Brunswick: Rutgers University Press.

Krieger, Nancy:

2003 Does Racism Harm Health? Did Child Abuse Exist Before 1962? On Explicit Questions, Critical Science, and Current Controversies: An Ecosocial Perspective. American Journal of Public Health 93(2): 194–199.

Kuzawa, Christopher, and E. Sweet:

2009 Epigenetics and the Embodiment of Race: Developmental Origins of U.S. Racial Disparities in Cardiovascular Health. American Journal of Human Biology 21: 2–15.

Livingstone, Frank:

1962 On the Nonexistence of Races. Current Anthropology 3: 279–281.

Long, Jeff C., J. Li, and M. E. Healy:

2009 Human DNA Sequences: More Variation and Less Race. American Journal of Physical Anthropology 139: 23–34.

Marks, Jonathan:

2010 The Two 20th-Century Crises of Racial Anthropology. *In* Histories of American Physical Anthropology in the Twentieth Century. Michael A. Little and Kenneth A. R. Kennedy, eds. pp. 187–206.

Montagu, Ashley, ed.:

1964 The Concept of Race. New York: Collier Books.

Montoya, Michael:

2007 Bioethnic Conscription: Genes, Race, and Mexicana/o Ethnicity in Diabetes Research. Cultural Anthropology 22: 94–128.

Social Science Research Council:

2005 Is Race Real?: A Web Forum Organized by the Social Science Research Council. http://raceandgenomics.ssrc.org/, accessed November 17, 2011.

Templeton, Alan R.:

2003 Human Races in Context of Recent Human Evolution: A Molecular Genetic Perspective. *In* Genetic Nature/Culture: Anthropology and Science beyond the Two-Culture Divide. Alan H. Goodman, Deborah Heath, and M. Susan Lindee, eds. pp. 258–277. Berkeley: University of California Press.

جو واتكينز، الكَفُّ عن عَرْقنة الماضي

Deloria, Vine, Jr.:

1969 Custer died for your sins: An Indian Manifesto. London: The Macmillan Company.

Dongoske, Kurt, and Larry Zimmerman:

2010 Working Together on Race and Racialism in American Archaeology. The SAA Archaeological Record 10(3): 3-4.

Echo-Hawk Roger:

1997 Forging a New Ancient History for Native America. *In* Native Americans and Archaeologists: Stepping Stones to Common Ground. N. Swidler, K. Dongoske, R. Anyon, and A. Downer, eds. pp. 88–102. Walnut Creek, CA: AltaMira Press.

Echo-Hawk Roger:

2000 Exploring Ancient Worlds. *In* Working Together: Native Americans and Archaeologists. Kurt E. Dongoske, Mark Aldenderfer & Karen

Doehner, eds. pp. 3–7. Washington, D.C.: Society for American Archaeology.

Echo-Hawk, Roger:

2010 Merciless Greetings, Wicked Servants of the Age of Archaeoracialism. The SAA Archaeological Record 10(3): 21–25.

Johnson, George:

1996 Indian Tribes' Creationists Thwart Archeologists. New York Times October 22.

McGhee, Robert:

2008 Aboriginalism and the Problems of Indigenous Archaeology. American Antiquity 73(4): 579–597.

Mihesuah, Devon A.:

1996 American Indians, Anthropologists, Pothunters, and Repatriation: Ethical, Religious, and Political Differences. Special issue, "Repatriation: An Interdisciplinary Dialogue," American Indian Quarterly 20(2): 229–250.

Nicholas George P.:

2008 Encyclopedia of Archaeology, vol. 3: Native Peoples and Archaeology. Deborah M. Pearsall, ed. pp. 1660–1669. New York: Academic Press.

Ponte, Lowell:

1999 Politically Incorrect Genocide, Part 2. FrontPageMagazine.com, October 5. On line edition at http://archive.frontpagemag.com/read Article.aspx? ARTID=22976, accessed November 17, 2011.

Riding In, James:

1992 Without Ethics and Morality: A Historical Overview of Imperial Archaeology and American Indians. Arizona State Law Journal 24(1): 11–34.

Rose, Jerome C., Thomas J. Green, and Victoria D. Green:

1996 NAGPRA is Forever: The Future of Osteology and the Repatriation of Skeletons. Annual Review of Anthropology 25: 81–103.

Trope, Jack F., and Walter Echo-Hawk:

1992 The Native American Graves Protection and Repatriation Act: Background and Legislative History. Arizona State Law Journal 24(1): 35–77.

Watkins, Joe:

2000 Indigenous Archaeology: American Indian Values and Scientific Practice. Walnut Creek, CA; AltaMira Press.

Watkins, Joe:

2003 Beyond the Margin: American Indians, First Nations, and Archaeology in North America. American Antiquity 68(2): 273–285.

Watkins, Joe:

2004 Representing and Repatriating the Past. *In* North American Archaeology. Timothy Pauketat and Diana Loren, eds. Malden, MA: Blackwell Press.

Watkins, Joe:

2005a Sacred Sites and Repatriation. Contemporary Native American Issue. Philadelphia: Chelsea House Publishers.

Watkins, Joe:

2005b The Politics of American Archaeology: Cultural Resources, Cultural Affiliation and Kennewick. *In* Indigenous Peoples and Archaeology: Decolonizing Theory and Practice. Claire Smith and Martin Wobst, eds. pp. 189–203, Routledge Press, London.

Yerkes, Robert ed.:

1921 Psychological Examining in the United States Army. Memoirs of the National Academy of Sciences 15. Washington, DC: Government Printing Office.

Zimmerman, Larry J.:

2001 Usurping Native American Voice. *In* The Future of the Past: Archaeologists, Native Americans, and Repatriation, Tamara Bray, ed. pp. 169–184. New York: Garland Publishing, Inc.

إهانة البشر (١٧٠٠–٢٠٠٠)

Agassiz, Louis:

1854 Sketch—of the natural provinces of the animal world and their relation to the different types of man *In* Types of Mankind: or, Ethnological researches based upon the ancient monuments, paintings, sculptures, and crania of races, and upon their natural, geographical, philological and Biblical history: illustrated by selections from the inedited papers of Samuel George Morton and by additional contributions from L. Agassiz, W. Usher, and H.S. Patterson. 2nd Edition. Josiah Nott and George Gliddon. Philadelphia: J.B. Lippincott, Grambo and Company.

Blumenbach, Johann:

1795 [2000] On the natural varieties of mankind. *Cited in* The Idea of Race Robert Bernasconi and Tommy Lee Lott, eds. Indianapolis: Hackett Publishing Company, Inc.

Franz Boas:

1911 [2000] The Instability of Human Types. *In* The Idea of Race. Robert Bernasconi and Tommy Lee Lott, eds. Indianapolis: Hackett Publishing Company, Inc.

Bond, Horace Mann:

1924 Intelligence Tests and Propaganda. The Crisis 25(2): 61–64.

Brigham, Carl C.:

1923 A Study of American Intelligence. Princeton: Princeton University Press.

Camper, Petrus:

1792 [1974] Dissertation sur les variétés naturelles qui caracterisent la physionomie des divers climates et es differens ages. Henri J. Jansen, trans. (Paris). *Cited in* Coleridge's speculations on race. Studies in Romanticism. J. H. Haeger. 13(4): 339.

Coon, Carleton:

1939 The Races of Europe. New York: The Macmillan Company.

Douglass, Frederick:

1854 [1999] The claims of the negro, ethnologically considered. *In* Frederick Douglass: Selected Speeches and Writings. Philip S. Foner, ed. Adapted by Yuval Taylor. Chicago: Lawrence Hill Books.

Firmin, Anténor:

2002 [1885] The Equality of Human Races. Asselin Charles, trans. Champaign, IL: University of Illinois Press.

Gibbs, R. W.:

1851 [1996] Death of Samuel George Morton, M.D. Charleston Medical Journal. *Cited in* The Mismeasure of Man. Rev. and exp. edition. Stephen Jay Gould. New York: W.W. Norton and Company.

Gould, Stephen Jay:

1994 Curveball. New Yorker, November 28.

Grant, Madison:

1916 [1994] The Passing of the Great Race or The Racial Basis of European History. New York: Charles Scribner's Sons.

Harmon Amy:

2006 DNA Gatherers Hit a Snag: The Tribes Don't Trust Them. New York Times. December 10: A1, A38.

Hooton, Earnest A.:

1939 Why the Jew Grows Stronger. Collier's Weekly, May 4.

Hrdlička, Aleš:

1921 [1994] American university lecture 27. Cited in Race. Steven Gregory and Roger Sanjek, eds. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.

Huxley, Julian and A. C. Haddon:

1935 [1985] We Europeans. *Cited in* In the Name of Eugenics: Genetics and the Uses of Human Heredity. Daniel J. Kevles. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Marks, Jonathan:

2002 What it means to be 98% chimpanzee. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Minthorn, Armand:

1996 Human remains should be reburied. http://www.umatilla.nsn.us/kman1.html, accessed January 25, 2012.

Morgan, Lewis Henry:

1877 Ancient Society, or Researches in the Lines of Phenomen Human Progress from Savagery through Barbarism to Civilization. New York: Henry Holt and Company.

Pohrt, Richard A.:

1975 The American Indian, the American Flag. Flint, MI: Flint Institute of Art.

Sapir, Edward:

1911 An Anthropological Survey of Canada. Science, December 8.

UNESCO:

1952 What Is Race? Paris: UNESCO Department of Mass Communication. http://unesdoc.unesco.org/images/0006/000678/067867eb.pdf, accessed January 25, 2012.

الفصل الخامس

اختراع العرق الأبيض

> على غرار الفئات العرقية الأخرى، اختُرِعَ «العرق الأبيض» على أيدي الأشخاص ذوي السلطة وطَعنَ في صحته أولئك الموجودون خارجها.
>
> معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

لماذا نُكرِّس فصلًا بأكمله للحديث عن اختراع العرق الأبيض؟ إن الإجابة بسيطة هذه المرة. في الولايات المتحدة، «العرق الأبيض» هو ما يُشير إليه علماءُ الأنثروبولوجيا اللغوية على أنه فئة عِرقية «غير موسومة». وتمثِّل الفئات غير الموسومة المعيار «الطبيعي» الذي يُقاس الآخرون على أساسه، على الرغم من أن أفرادها نادرًا ما يَعترفون — على نحوٍ صريح أو رسمي — بذلك. هذه الفئات غير الموسومة تكون بمنزلة «نجم قطبي» يُوجِّهُنا جميعًا إلى التعامل مع الفئات الأخرى على أنها استثناءات (راجِع موكوباداي في هذا الفصل، أورتشولي في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب). وعليه، لا يزال البعضُ حاليًّا يُساوون الهُوية العرقية البيضاء بالهوية «الأمريكية» الحقيقية أو الأصلية. ومع ذلك، فإن تاريخ أولئك الذين نعتبرهم الآن من البِيض الأمريكيين لا يُفهَم من دون الروايات المجيدة للتاريخ الأمريكي التي تُدرَّس في المدارس الابتدائية. إنه لأمرٌ مؤسِف لكنه غير مُستغرَب؛ لأن العرق الأبيض غالبًا ما لا يخضع للتدقيق الأكاديمي والتدقيق العام السائد الممنوحَين غالبًا للهويات العرقية الأخرى. وتاريخ العرق في أمريكا يكون ناقصًا على نحوٍ فادح في حال عدم التطرق إلى الروايات التي تحكي كيف جاء مجتمعُ البِيض إلى الوجود.

ظهر أولُ استخدامٍ قانوني لكلمة «أبيض» في قانون خاصٍّ بمُستعمَرة فرجينيا عام ١٦٩١، أدَّى — ضمن أمورٍ أخرى — إلى توسيع نطاق العقوبات الخاصة بزواج الأعراق المختلفة والعلاقات الجنسية، وزيادة صرامة هذه العقوبات وشدَّتها. يُقدِّم هذا القانون مثالًا مُبكِّرًا يوضِّح كيف حاول زعماءُ المستعمرات أن يُحافظوا على حدود العرق الأبيض حسب فهمهم لها. وكثيرٌ من الأفراد يعتبرون أن كلمة «أبيض» اليوم لم تكن كذلك عام ١٦٩١. وكما أوضَحنا في فصولٍ سابقة، أثَّرت الانتماءاتُ الدينية والوطنية بشدة في الهوية البيضاء في وقتٍ مُبكِّر من تاريخها؛ حيث كانت تقتصر بصفةٍ أساسية على الأنجلوأمريكيين البروتستانت في تلك الفترة. بينما لم يكن آخرون، مثل المهاجرين الألمان والأيرلنديين وأبنائهم، يُصنَّفون ضمن البِيض، ولم يَنْعَم بمزايا المواطنة الكاملة سوى طبقة مُلَّاك الأراضي. بيد أن تطوُّر العرق الأبيض — شأنه شأن كل التكوينات العرقية الأخرى — هو عمليةٌ مستمرة أو «مشروعٌ» مستمر (وينانت ٢٠٠١)؛ ومن ثمَّ فقد تغيَّرت تعريفاتُ العرق الأبيض وحدوده على مدار التاريخ الأمريكي، مع توسيع نطاقه عادةً على نحو استراتيجي من حين لآخر أثناء محاولة العلماء والزعماء السياسيِّين وغيرهم تحقيق التوازن بين مظاهر التحيُّز ضد المهاجرين والانحياز لأهالي البلاد الأصليِّين من جانب واحتياجات العمل في أمةٍ ناشئة من جانبٍ آخر.

لفهم العرق الأبيض المعاصِر، بدأنا مثل كثير غيرنا بويليام إدوارد بورجاردت دو بويز، وهو مصدر كثير من الآراء الحاسمة حول حقائق العرق وأكاذيبه في أمريكا. في كتابه «إعادة الإعمار الأسود» (١٩٧٠)، يوضح دو بويز أن العرق الأبيض لم يكن مفهومًا طبيعيًّا (يستند إلى النمط الظاهري الموروث) أو نتيجةً ثقافية محتومة في الولايات المتحدة، حتى في إطار العبودية العرقية. بدلًا من ذلك، كان العرق الأبيض الذي ابتكره الأسلافُ الأوروبيون حلًّا عِرقيًّا محسوبًا وضعه زعماءُ المستعمَرات لمواجهة التهديد الاقتصادي والمادي الذي تَفرضه وحدة الطبقة العاملة. وعندما صاغ المُشرِّعون النظام القانوني للعبودية العرقية وفرضوه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم يكن من الغريب أن يتَّحد العُمَّال الأوروبيون مع السودِ (عبيدًا وأحرارًا)، ومع الأمريكيين الأصليين، فيتآمرون معهم ويثورون معًا ضد الاستغلال المُشترك الذي يُمارَس ضدهم على أيدي مُلَّاك الأراضي البِيض. يوضح تمرُّد بيكون الذي اندلع عام ١٦٧٦ في فرجينيا (انظر الفصل الثالث) و«مؤامرة» عام ١٧٤١ لتدمير نيويورك فداحة ما يُمثله هذا التهديد بالنسبة إلى الطبقة المالِكة. ردًّا على ذلك، قرَّرت النُّخبة البيضاء تقويض وحدة الطبقة

العامِلة المختلفة الأعراق. ونجحَت في ذلك من خلال منح كل الرجال الأوروبيين فعليًّا كامل الصلاحيات السياسية أو القانونية المكفولة للبِيض. خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ألغى المشرِّعون في المستعمرات الضرائبَ، والملكية الخاصة، والعمل، وغيرها من الشروط التي قَصرَت حقَّ الاقتراع سابقًا على مُلَّاك الأراضي الذكور. وكما يشير مؤرِّخ الطبقة العاملة ديفيد روديجر (١٩٩٩، ٢٠٠٨)، لم يكن هذا التوسُّع في الصلاحيات القانونية للبِيض تعبيرًا عن وحدةٍ قائمة بالفعل للبِيض تستند إلى أسلافهم الأوروبيين، وإنما كان محاولةً ناجحة من جانب النُّخب الاستعمارية لإقامة هذه الوحدة.

من وجهة نظر دو بويز، كان التحالُفُ العرقي مع النُّخب وفقًا لهذه الشروط مشئومًا وذا عواقبَ وخيمةٍ؛ لأن الانتماء الحديث للطبقة العاملة بالعرق الأبيض كان مستندًا إلى خيانة المصالح الطَّبَقية المشتركة وقمعها لأغراضٍ تتعلق بهيمنة البِيض والحصول على مميزاتهم. وساعَد اعتراف العُمَّال الأوروبيِّين بالانتماء الشخصي للعرق الأبيض باعتباره «أمرًا يمكن امتلاكه كمصدر قوة وكهُويَّة» (روديجر ٢٠٠٨) في ضمان استمرار الهيمنة السياسية والاقتصادية من قِبل الطبقة المالِكة. في المقابل، حصل العمال البيض على مزايا ماديةٍ مرتبطة بالمواطنة الكاملة بالإضافة إلى «المكافأة العامة والنفسية» (دو بويز ١٩٧٠) المتمثِّلة في فصلهم اجتماعيًّا وتمييزهم عن حلفائهم السابقين. ووقف الاستقلال السياسي الذي حظيَ به العُمَّال البِيض على النقيض من انعدام الاستقلال السياسي لدى العُمَّال السود. ومن خلال موافقتهم على اقتصار الطبقة الاجتماعية الدنيا حصريًّا على غير البِيض (والسود في المقام الأول)، والمساعدة في ضمان ذلك؛ فقد أسَّسوا حافزًا اقتصاديًّا قويًّا وراسخًا للعنصرية المنهجية تجاه الطبقة العاملة. رأى دو بويز أن العرق الأبيض بما له من تميُّزٍ شخصي وصلاحيات سياسية هو النقيض الصريح للعِرق الأسود، وما تزال رؤيته تلك تفيد التحليلاتِ النقدية للتبعات القانونية والاقتصادية للتكوينات العرقية البيضاء على الفصائل الاجتماعية من غير البِيض (مثال، هاريس ١٩٩٣، ليبسيتز ٢٠٠٦).

في دراسةٍ رائعة بعنوان «تاريخ الشعب الأبيض»، تُشير المؤرِّخة نيل بينتر (٢٠١٠، المُستشهَد بها في هذا الفصل) إلى ما قامت به نُخب القرن التاسع عشر من توسيعٍ لنطاق حق الاقتراع بحيث يشمل (معظم) الذكور الأوروبيين — هذا التميُّز الطبقي بدعوى العرق — باعتباره فقط أول «توسُّع لمجتمع البِيض الأمريكي». شهدت هذه الفترات في تاريخ الولايات المتحدة توسُّعًا بالأساس في تعريفات العرق الأبيض استجابةً للتحوُّلات الديموغرافية والضغوط الثقافية الواسعة النطاق. ثم حدث توسُّعٌ ثانٍ خلال أواخر

القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما حاز الأيرلنديون والألمان وغيرهم من شعوب «العرق الشمالي» اعترافًا أكبر بهم كأمريكيين «حقيقيين» (على الرغم من أنهم لا يزالون بالتأكيد أقل أصالةً من الأنجلوأمريكيين). وبحصولهم من قبلُ على الامتيازات القانونية والسياسية الممنوحة للذكور البِيض، كان الهدفُ من وضعهم العرقي المُحسَّن هو إعادة تأكيد حدود العرق الأبيض وإعادة تعزيزها — بأجسامهم مع كل ما تحمله الكلمة من معنًى — في مواجهة موجة الهجرة القادمة من جنوب أوروبا وشرقها.

جلبَ هؤلاء المهاجرون الجُدد، أمثال اليهود والبولنديين والروس والإيطاليين، معهم عاداتٍ وتقاليدَ مختلفةً عن المهاجرين القدماء القادمين من شمال شرق أوروبا. ونظرًا لأنهم غالبًا ما كانوا يُصنَّفون على أنهم أقلياتٌ عِرقية في أوروبا (على سبيل المثال، ريبلي ١٨٩٩)، فقد وقَعوا ضحايا في الولايات المتحدة لسياسات الهجرة التمييزية المُقيِّدة الموضوعة لتقييد أعدادهم من خلال حصصهم النسبية. ولمرةٍ واحدة في الدولة، استعادوا أدوارهم كأقلياتٍ عِرقية، بجانب الشعوب الأصلية والأمريكيِّين ذوي الأصول الإسبانية والآسيويين والأمريكيين الأفارقة. ولنتأمل، على سبيل المثال، هذه الأوصاف التي يعرضها ويليام كوك (١٩٢٩) في كتابه «المؤسسات الأمريكية وحمايتها» عن «الأعراق» المختلفة للمهاجرين الأوروبيين:

> **الإيطاليون**
>
> حادُّو المزاج، سريعُو الاستياء، سريعون في ردِّ الإهانة حقيقية كانت أو مُتوهَّمة، لا يتردَّدون مطلقًا في الأسلحة المُختارة لمهاجمة عدوٍّ ما ... في أمريكا، هم الأشخاص الذين يتعيَّن عليهم أداءُ الأعمال البدنية الشاقة والمُقزِّزة في المناجم، وخطوط السكك الحديدية، والمصارف، والشوارع، وغيرها. يؤدون هذه الأعمال، بيد أنهم بالكاد ما يُشار إليهم بأنهم مواطنون مرغوبٌ فيهم ... ويظلون جَمْعًا ميئوسًا منه وغير مؤهَّل من حيث علاقاتهم بالمؤسسات الأمريكية (ص٢٠٢، ٢٠٣-٢٠٤).
>
> **اليهود**
>
> عِرقٌ غريب ... تدنَّوا بمعايير المسرح والسينما ... يَفتقرون إلى الجسارة ولا يُظهِرون أبدًا أيَّ قدر من التحيُّز المُفعَم بالحماس تجاه المؤسسات الأمريكية. وبوصفهم من قاطني المُدن، وبوصفهم مُعادين للزراعة والعمل

الشاق، وبوصفهم يتَّسمون بقدرٍ ضئيل من الشجاعة البدنية، وبوصفهم مُعارضون للصراع والجدل، فإنهم من غير ريب لن يدخلوا أبدًا مُعترك الحياة الأمريكية (ص١٦٠، ١٧٣، ١٨٤).

الروس

لا يمكن أن يوجد أي دمجٍ فعلي للعِرقَين [العِرق الأبيض والعرق الروسي]؛ فالاختلافات كبيرةٌ للغاية ... لا يحظون — ولن يحظوا أبدًا — بأي أهمية في أمريكا، باستثناء كونهم من العُمَّال الذين يؤدُّون أعمالًا وضيعة (ص٢٠٥–٢٠٦).

البولنديون

لا يرتقون إلى الأعمال القيادية والمراتب الفكرية العليا، وهم من العناصر المشكوك في أهميتها بدرجةٍ كبيرة، اللهم إلا من الناحية الصناعية، إذا أثار أمرٌ استياءَهم، فإن الخطأ يقع على عاتق الدولة، لا على عاتقهم هم، أخلاقياتهم لا تمتُّ للأخلاق بصلة، ويحتاجون إلى قبضة من حديد (ص٢٠٨–٢٠٩).

بالكاد كانت تقييماتُ كوك الساخرة لقدرات المهاجرين الجُدد وتطلعاتهم كأمريكيين مستقبليِّين هامشية أو غير ذات صلة بالموضوع. نشر كوك «المؤسسات الأمريكية» في البداية بصفةٍ شخصية عام ١٩٢٧ عندما كان الباحث الرائد في قانون الشركات على مستوى البلاد. وقبل ذلك بعشر سنوات، أوضحَ ماديسون جرانت القضية الشهيرة التي رفَعها المُعادي للمهاجرين ضد الاعتراف بالمهاجرين القادمين من جنوب شرق أوروبا كأمريكيِّين بِيض في كتابه المؤثر «اندثار العرق العظيم» (١٩١٦). وكانت الحُجة الأساسية بالكتاب مألوفة. رأى جرانت أنَّ المهاجرين القدماء كانوا يتَّسمون بالمهارة، وحُسن التدبير، والاجتهاد في العمل، مثلهم مثل الأمريكيين (على سبيل المثال، الأنجلوأمريكيين) المولودين في أمريكا (على الرغم من أن الأيرلنديين على وجه الخصوص لا يزالون يتلقَّون رسائل تذكير مُستمرة بوضعهم الذي يأتي في المرتبة الثانية في التدرُّج الهَرَمي للبِيض). في الوقت نفسه، كان المهاجرون الجُدد يفتقرون إلى العنصر المهاري، ويتَّسمون بالجهل، وغير لائقين ثقافيًّا للاندماج في المجتمع الأمريكي. كان جرانت وغيره من مختصي علم تحسين النَّسْل بمنزلة مستشارين مُحَنَّكين خلال المناقشات التي عقدها الكونجرس حول قانون

تقييد الهجرة (أو قانون جونسون–ريد) لعام ١٩٢٤، الذي صدر بهدف الحَدِّ من التهديد الوطني للأوروبيين أصحاب «العرق الأدنى» عن طريق الحصص النسبية المُقيِّدة للغاية.

على الرغم من هذه العقبات، أفسحت المواصفات العرقية لجماعات المهاجرين الجُدد، المتأصلة في تجاربهم وخبراتهم الأوروبية؛ المجالَ في النهاية لتمييزاتٍ إثنية جديدة ضمن هُويةٍ عِرقيةٍ مشتركة لمجتمع البِيض. وبالطبع، فإن الاعتراف القانوني والسياسي بهم كبِيض، وكذلك نجاحهم الاقتصادي، لم يُترجَم فورًا إلى اعترافٍ اجتماعي أو ثقافي. وكما حدث في الماضي، فإن هذا الاعتراف حينما جاء لم يكن بقدرٍ متساوٍ، وكانت وتيرته أبطأ بالنسبة إلى بعض الجماعات عن غيرها؛ فمع نهاية القرن، على سبيل المثال، وجد كثيرٌ من الأنجلوأمريكيين أن من الأسهل عليهم الترحيب بالألمان والإسكندنافيين، وغيرهم من المهاجرين القدماء في المزيج العرقي للبِيض عن ترحيبهم بالأيرلنديين وتقبُّلهم لهم. عكست تحيُّزاتهم هذه تاريخًا من الإخضاع السياسي للأيرلنديين على أيدي البريطانيين في أوروبا، كما عكست مخاوفَ بشأن الكاثوليكية وعقيدتها المؤمنة بالسيادة البابوية، التي تتعارَض مع المبادئ الأمريكية المُعلَنة عن الحرية السياسية والدينية (فرانكلين ١٩٨٨). وفي الوقت الحالي، ما يزال اليهود والأمريكيون ذوو الأصول الإيطالية في حالة تذبذبٍ دائم بعض الشيء بين الهُويات العرقية غير البيضاء والبيضاء. حتى الحرب العالمية الثانية، اعتُبِرَت هذه الجماعات، وهي الأهداف الأساسية لحصص الهجرة المحدَّدة عام ١٩٢٤، أقلَّ انتماءً إلى العرق الأبيض عن غيرها من الجماعات المُتحدِّرة من أصول أوروبية.

مع ذلك، بحلول مُنتصف القرن العشرين، نظر جميع المُهاجرين القادمين من جنوب وشرق أوروبا، وأبناؤهم، إلى أنفسهم — واعتُرِف بهم على نطاقٍ واسع سياسيًّا وثقافيًّا — كشعوب بيضاء، ليكون ذلك ثالثَ «توسُّع» لنطاق العرق الأبيض. خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، استفادت هذه الجماعات من سياسات الإسكان الفيدرالي التمييزية التي ساعدت في تكوين ضواحٍ للبِيض من سكان الطبقة المتوسطة على عكس المدن الداخلية «المُلوَّنة» الآخذة في التزايد. كما خُلِعَت عليهم أيضًا أوصافٌ شائعة لاقت استحسانًا على نحوٍ مُتزايد بوصفهم من البِيض «العاديين»، حتى لو أن الثقافة الشعبية قد ساهمت أيضًا في تذكيرهم بأنهم لا يرقون إلى الجماليات المثالية للأنجلوأمريكيين (برودكين ١٩٩٨). كانت هذه فترةً حاسمة في تاريخ الولايات المتحدة، عندما صار لفظ «البِيض» مرادفًا لجميع الأسلاف الأوروبية، وصار المهاجرون الجُدد «إثنيِّين». من هذه اللحظة، أصبح الأمريكيون هم ذوو الأصول الإسبانية، والآسيويون، والأمريكيون الأفارقة فقط هم الموسومون، واعتُبِروا مختلفين عرقيًّا عن البيض.

في هذا الفصل، أوضحنا أن التقسيم العرقي المُؤلَّف من البِيض وغير البِيض، الذي يستند إلى الأسلاف الأوروبية، أحدثُ وأقلُ عقلانيةً مما قد يظنُّ المرءُ. وحسبما يتَّضح، فإن الانتماء إلى العرق الأبيض هو انتماءٌ ثقافي وسياسي بالأساس، ولا يُمكن فهمه من خلال رده إلى أسبابٍ بيولوجية خالصة أو خيالاتٍ وأكاذيبَ أخرى. كما فسَّرنا لماذا ثبتَ أن الهوية العرقية البيضاء أمرٌ محبَّب إلى النفس ومُمكن تحقيقه بالنسبة إلى البعض دون غيرهم. فالانتماءُ إلى العرق الأبيض يعود بمنافع على البِيض ... بكل ما تعنيه الكلمة من معنًى، وبطرُقٍ لا تتأتَّى للتكوينات العرقية الأخرى. تقع هذه الملاحظات في صميم الحقل الأكاديمي لدراسات البِيض حسبما طوَّرها المؤرِّخون، وعلماءُ الأنثروبولوجيا، والمُنظِّرون القانونيون، وغيرهم، على مدى العقود القليلة الماضية. من خلال دراسة التكوينات العرقية البيضاء — التاريخية والمُتطوِّرة — على نحوٍ انتقادي وبالاشتراك مع التكوينات العرقية غير البيضاء، يُواصل الباحثون تقليدًا يمتد إلى المقالات النقدية الأولى عن التفاوت العرقي في الولايات المتحدة (راجِع، على سبيل المثال، روديجر ١٩٩٨).

يتيح التحليلُ الثقافي لعلماء الأنثروبولوجيا وغيرهم البناءَ على معرفة الجذور التاريخية للعِرق الأبيض بالكشف عن الاعتبارات العرقية المتضمَّنة، والمُشفَّرة أحيانًا، في الأنشطة الروتينية (توماس وجاكسون ٢٠٠٩، هارجروف ٢٠٠٩). بالإضافة إلى معرفة مَن أصبحوا «رسميًّا» من البِيض ومتى أصبحوا كذلك، يهتم هؤلاء الباحثون بفهم العديد من القنوات والآليات المحدَّدة التي يتمُّ من خلالها الحفاظ على التكوينات العرقية، ومجابهتها، وإعادة صياغتها. يدرس علماءُ الأنثروبولوجيا، على سبيل المثال، المظاهر الأيديولوجية والمادية للعِرق الأبيض عبر نطاقٍ واسع من المواقع والأنشطة. وتتراوح هذه المواقع والأنشطة من مزارع المستعمرات وغيرها من المواقع التاريخية محلِّ النزاع (إيبرسون ١٩٩٧، بينتر ٢٠٠١) إلى الخطاب المُعاصِر والسياسات المعاصرة المتعلِّقة بقضايا متنوعة من بينها التعليم (لي ٢٠٠٤)، وسلوك الإقامة «اللائق» (لو ٢٢٠٩)، والتنمية الحضرية (هارجروف ٢٠٠٩)، وحقوق الإنجاب (دافيس ٢٠٠٩). هذه المُقاربات الثقافية لتكوين العرق الأبيض تُمكِّننا وتدفعنا إلى ربط تحليلات العرق والطبقة الاجتماعية والنوع الاجتماعي على نحوٍ نقديٍّ ومنطقي، والبحث عن معانٍ جديدة لمفهوم الانتماء إلى العرق الأبيض وتفسيرها في نطاقٍ — وعلى نحوٍ مثالي، خارج نطاق — تواريخنا وخبراتنا المشتركة بشأن التفاوت العرقي.

المخطَّط الزمني لاختراع العرق الأبيض (١٦٥٠–٢٠٠٠)

١٦٩١: أول استخدام قانوني لكلمة «أبيض»: مُستعمرة فرجينيا تسنُّ قانونًا يحظر الزواج بين البِيض والسود.

ولمنع ذلك الاختلاط البغيض وتلك القضية غير الشرعية التي ربما تستشري فيما بعدُ ... أيُّما رجل أو امرأة من الإنجليز أو غيرهم من الشعوب البيضاء، نالا حريتهما، يتزوَّجان من رجل أو امرأة من الزنوج أو الملاتو أو الهنود ... فإنهما يُنفيان ويُطردان من هذه المستعمرة للأبد.

قوانين فرجينيا، أبريل ١٦٩١ (٣: ٨٦–٨٨)

١٧٩٠: قانون منح الجنسية: هذا القانون يُجيز «للبِيض الأحرار» وحدهم أن يصيروا مواطنين أمريكيِّين. وقد سُنَّ في وقتٍ كان فيه خُمس السكان إما أفارقة أو مُتحدِّرين من أصولٍ أفريقية، وهي أعلى نسبة في تاريخ البلاد.

١٧٩٢: قانون الميليشيات: الكونجرس يُطالب بوجود ميليشيا مُسلَّحة، تتكوَّن من المواطنين «الذكور البِيض الأحرار والأقوياء البنية» الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٤٥ عامًا، ليتم استدعاؤها للخدمة عندما تستدعي حاجة الوطن ذلك.

أصبحت فكرة المُواطنة متداخلة تمامًا مع فكرة «الانتماء للعِرق الأبيض» ... لأن المواطن كان في الأساس شخصًا يمكنه المساعدة في قمع تمرُّدٍ للعبيد أو المشاركة في الحروب الهندية.

جاكوبسون ١٩٩٨: ٢٥

١٧٩٥: العرق القوقازي: عالِم التشريح الألماني يوهان بلومينباخ يستخدم جمجمة من مجموعته لإعطاء مثال على العرق «الأبيض». تعود الجمجمة لامرأةٍ عاشت في جبال القوقاز، بين البحر الأسود وبحر قزوين؛ الموطن الأصلي لأجمل شعوب العالم حسبما أشار بلومينباخ. وبذلك، يبدأ استخدام مصطلح «قوقازي» غير العلمي كبديل لكلمة «أبيض».

إنَّ «خرافة العرق القوقازي» التي اخترعها بلومينباخ دون أن يُضمر أي قدر من السوء هي الأغرب بين كل الخرافات الغريبة التي ظهرت في العالم العلمي ... أصبحت مثاله النموذجي على الجماجم البشرية، التي ربما يُنظَر إلى كل ما عداها على أنه شذوذ عنها.

هكسلي ١٨٦٥: ٢٤٤–٢٤٥

منتصف–أواخر القرن التاسع عشر الهجرة الأيرلندية: أعدادٌ هائلة من الأيرلنديين، الفقراء في الأغلب، تُهاجر إلى الولايات المتحدة، وتقيم في المناطق الحضرية المزدحمة. في الكتابة واللغة المجازية، تُصوِّرهم الصحافة على أنهم وحشيون ويُشبِهون القردة في هيئتهم، مُكرِّرين الكلمات المستخدَمة مع الأمريكيين الأفارقة خلال الفترة نفسها.



شكل ٥-١: كان الأيرلنديون يُرَوْن على أنهم عنصر غير قابل للاندماج في المجتمع الأمريكي. من أسطورة «باكي»، ٢٦ يونيو ١٨٨٩ (بتصريح من مشروع التاريخ، جامعة كاليفورنيا في ديفيس).

على الرغم من أن القوانين الأمريكية المتعلقة بمَن يُمكنهم الهجرة، ومَن يُمكنهم الحصول على الجنسية، ومن يَتحوَّلون إلى عبيد، أقرَّت لون البشرة الشاحِب والجذور الأوروبية للشعب الأيرلندي كدليلٍ على أصلهم العرقي الأبيض؛ فإن التمييز الذي وجده المهاجرون الأيرلنديون في الوظائف، والرسوم الكاريكاتورية التي طالعوها في الصحف والتي تُصوِّرهم على أنهم قِرَدة، يشير إلى أنهم كانوا في مرتبةٍ أدنى «عِرقيًّا» من الأنجلوأمريكيين البِيض؛ ومن ثمَّ يُصنَّفون بطريقةٍ ما على أنهم من غير البِيض، وربما حتى من «السود».

إيجان ٢٠٠١: ٦٦

١٨٣٨: هروب فريدريك دوجلاس: من العبودية سوف يصير دوجلاس، الذي وُلِد عبدًا عام ١٨١٨، مُفكِّرًا مشهورًا ومن مؤيدي إبطال العبودية البارزين. تتصدَّى كتاباته وخُطبه البليغة للعبودية وتردُّ على الافتراضات المتعلِّقة بالتدرُّجات الهَرَمية العرقية، ولا يزال صداها يتردَّد في وقتنا الحالي.

تكفي قطرةٌ واحدة من الدم التيوتوني لتبرير كل الصفات الجيدة والرائعة التي أحيانًا ما تقترن بالبشرة الملوَّنة. وعلى الجانب الآخر، تكفي قطرةٌ واحدة من الدم الزنجي، ولو حتى في أوردة رجل من العرق الأبيض التيوتوني، لكي تُعزى إليها كلُّ الصفات المُهينة والوضيعة.

دوجلاس ١٨٨١: ٦٥٠

١٨٦٦: تأسيس منظمة كو كلوكس كلان: استخدمت منظمة كلان (منظمة هيمنة الأشخاص الراديكاليين ذوي البشرة البيضاء في الولايات المتحدة) طقوسًا وأقنعةً مُتقنة لترهيب السود ومؤيديهم خلال عصر إعادة الإعمار في فترة ما بعد الحرب الأهلية في الجنوب. وجنَّدت المنظَّمة البِيض الفقراء مستغلةً فكرة أنَّ السبب وراء مشكلاتهم الاقتصادية هم السود الذين نالوا حريتهم مؤخرًا.



شكل ٥-٢: زيارة كو كلوكس (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

كان أهم شيءٍ عن الأعراق هو الحدود القائمة بينها. لو أنَّ شخصًا كان ينتمي إلى عِرقٍ أسمى، فمن الضروري إذًا أن يحافظ هذا الشخص على الحدود التي تؤكِّد تفوُّق عِرقه وتميُّزه، حتى لا يتسنى للأشخاص في الطبقات الدُّنيا التسلل خِلسةً إلى الطبقات العليا.

سبيكارد ١٩٩٢: ١٥

١٨٧٩: أول مدرسةٍ داخلية للأمريكيين الأصليين: افتُتِحَت مدرسة كارلايل للتدريب الصناعي في بنسلفانيا؛ ونظرًا لأن المدرسة كانت تسعى إلى «أمركة» الأطفال الأمريكيين الأصليين، فقد أبعدتهم عن منازلهم وحَلَقت شعرهم وألبستهم ثيابًا تُحاكي ثياب البِيض. وحُظِرَ عليهم التحدُّث بلغتهم أو ممارسة عاداتهم الثقافية.



شكل ٥-٣: أُلحِقَ أبناءُ السكان الأصليين بالمدارس الداخلية قسرًا (بتصريح من الجمعية التاريخية بمقاطعة كمبرلاند، معهد التاريخ العسكري للجيش الأمريكي، ثكنة كارلايل العسكرية، بولاية بنسلفانيا الأمريكية).

كانت صديقتي جوديوين تَعرف القليل من الكلمات الإنجليزية، وسمعت مصادفةً امرأة من البِيض تتحدَّث عن حلق شعرنا الطويل والكثيف … ناقشنا مصيرنا لبضع لحظات، وعندما قالت جوديوين: «علينا أن نرضخ؛ لأنهم أقوياء.» عارضتُها ورددتُ عليها قائلة: «لا، لن أرضخ! سأُكافح أولًا.»

زيتكالا-سا (داكوتا) ١٩٠٠: ٣١٤

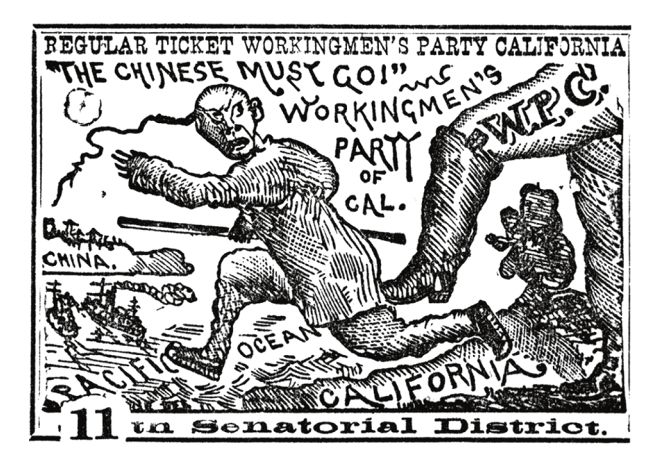
انقل الرضيع المولود همجيًّا إلى محيط الحضارة، وسوف يشبُّ على اللغة والعادات المتحضِّرة.

ريتشارد هنري برات، مؤسس مدرسة كارلايل،
١٨٩٢: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

ثمانينيات القرن التاسع عشر–ثلاثينيات القرن العشرين مخاوف الهجرة: أثارت الهجرةُ الهائلة من أيرلندا وجنوب وشرق أوروبا القلقَ بين الكثير من الأمريكيين البِيض، الذين رأوا أن هؤلاء الوافدين الجُدد غير مرغوب فيهم.

سرعان ما سيُصبح سكان الولايات المتحدة، بسبب التدفُّق الهائل لدم جنوب شرق أوروبا، أغمق لونًا، وأقصر قامةً ... أكثر ميلًا إلى جرائم السرقة، والخطف، والاعتداء، والقتل، والاغتصاب، والفجور الجنسي ... وسرعان ما ستزيد نسبة الاختلال العقلي في السكان.

دافنبورت ١٩١١: ٢١٩



شكل ٥-٤: كانت المشاعر المُعادية للصينيين منتشرة في كاليفورنيا في أواخر القرن التاسع عشر، كما هو واضح في هذا المُلصق الذي يحمل عنوان «حزب العُمَّال» (بتصريح من جمعية كاليفورنيا التاريخية).

١٨٨٢: قانون إقصاء الصينيين: من أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر وحتى ستينيات القرن التاسع عشر، توافد كثيرٌ من الصينيين على ساحل المحيط الهادئ بحثًا عن الذهب، وللمساعدة

في بناء خط السكك الحديدية العابر للقارات. أدَّت المشاعر المُعادية للصينيين، النابعة جزئيًّا من التنافس على الوظائف، إلى إصدار هذا القانون، الذي يحظر على الصينيين دخول الولايات المتحدة ويحول دون حصولهم على الجنسية الأمريكية. وظلَّ هذا القانون ساريًا حتى عام ١٩٤٣.

أنا رجلٌ صيني، جمهوريٌّ، محبٌّ للمؤسسات الحُرَّة، ومتمسكٌ كثيرًا بمبادئ حكومة الولايات المتحدة. إنك ترى أن هذه الجمهورية لها عِرقٌ معين، وأن دستور الولايات المتحدة لا يقرُّ حقَّ اللجوء السياسي لأي شخص إلا إذا كان من ذوي البشرة البيضاء. وهذا طرح خاطئ لأقصى حدٍّ، وأنت تعلم ذلك. ويُعارضك في ذلك إعلانُ الاستقلال، وكلُّ أفعال حكومتك، وشعبُك، وتاريخُك.

أسينج ١٨٥٢

تسعينيات القرن التاسع عشر–العقد الثاني من القرن العشرين المعارض العالمية: أُقيمت معارضُ كبرى، مثل المعرض العالمي الكولومبي في شيكاغو (١٨٩٣) ومعرض المشتريات في لويزيانا (١٩٠٤) المعروف أيضًا بمعرض سانت لويس الدولي، بوصفها خبراتٍ تعليميةً مهمَّة، وجذبت ملايين الأشخاص من مختلف أرجاء الولايات المتحدة.

في معرض سانت لويس، يُمثِّل العرق والتطوُّر البشري موضوعاتٍ بارزة، وتتضمَّن المعروضات «قرًى حية» بأكملها. يرى ويليام جون ماكجي، عالِمُ الأنثروبولوجيا الذي نظَّم ما أسماه «مُلتقى الأعراق»، أن هذه المعارض إنما يُهدَف منها إلى إعادة التأكيد على التدرُّج الهَرمي للأعراق.

سيكون هدف قسم الأنثروبولوجيا في المعرض العالمي هو استعراض التطوُّر البشري من مطلع العصور المُظلمة إلى مطلع عصر التنوير، من الهمجية إلى التنظيم المدني، من الأنانية وحب الذات إلى الإيثار والغيرية.

ماكجي ١٩٠٣

عندما يجيء رجلٌ أبيض إلى بلدنا، فإننا نعطيه هدايا، من الغنم والماعز والطيور أحيانًا، ونقتسم معه لحوم الفيَلة خاصتنا. أما الأمريكيون على الجانب الآخر، فيُعاملوننا كما يُعاملون القِرَدة الأليفة؛ إنهم يسخرون منا ويفتحون مظلاتهم في وجوهنا غير عابئين بنا.

لاتونا، من السكان القصيري القامة المقيمين في القرية، ورَد على سبيل الاقتباس في جريدة «سانت لويس ربابليك»، عدد ٦ أغسطس ١٩٠٤: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ٥-٥: قرية كليف دويلرز في المعرض العالمي لعام ١٩٠٤ (بتصريح من مكتبة سانت لويس العامة).

١٨٩٦ قضية بليسي ضد فرجسون: أُلقي القبضُ على هومر أدولف بليسي عام ١٨٩٢ عندما كان يستقلُّ إحدى عربات السكك الحديدية المخصَّصة للبِيض وحدهم. وبعد مرور أربعِ سنوات، وصلت قضيته إلى المحكمة العليا للولايات المتحدة، التي أصدرت حكمًا ضده؛ حيث قضَت بأن الولايات يجوز لها أن تُوفِّر للسود مرافقَ «منفصلة لكنها مكافئة» فيما يخصُّ النقل، والتعليم، والمرافق العامة مثل الفنادق والمسارح.

١٩٠٤ طرد الأيتام البِيض: أرسلت مستشفى اللقطاء في نيويورك، وهي دار أيتام بإدارة كاثوليكية، ٤٠ يتيمًا أيرلنديًّا يافعًا إلى بلدتَين لتعدين النحاس بولاية أريزونا حتى تتبناهم أُسرٌ كاثوليكية من المهاجرين المكسيك. ثارت ثائرة البِيض في كلتا البلدتين، فهَبُّوا لأخذ الأطفال من أُسرهم الجديدة عنوةً. أقامت الكنيسة الكاثوليكية دعوى قضائية لاستعادة الأطفال، إلا أن المحكمة العليا للولايات المتحدة أصدرت حكمًا عام ١٩٠٦ بأن التبنِّي كان قانونيًّا. ومما يُثير الانتباه أن الأطفال لم «يُصبحوا» من البِيض إلا بعد أن تبنَّتهم الأُسر المكسيكية في أريزونا. وعلى غرار اليهود والإيطاليين وغيرهما من «الإثنيات البيضاء» و«المهاجرين الجُدد»، لم يكن يُنظَر إلى الأيرلنديين عادةً في مُستهل القرن العشرين على أنهم يَنتمون انتماءً حقيقيًّا أو كاملًا إلى البِيض في نيويورك.

ينتمي الطفلُ الذي نحن بصدد الحديث عنه هنا إلى العرق القوقازي الأبيض … تنازل عنه [مقدِّم الدعوى] إلى عناية شخصٍ هنديٍّ مكسيكي، [والذي] بمقتضى عِرقه وأسلوب معيشته وعاداته وتعليمه، ليس كفؤًا لأنْ يحصل على وصاية الطفل ويتولى رعايته وتعليمه.

القاضي ويليام روفوس داي، رأي الأغلبية، ١٩٠٦

أثَّر الدينُ في مفاهيم العرق وشكَّلها. يوضح هذا الحدث كيف يتداخل العرق والدين.

ماري مارجريت أوفربي، عالِمة أنثروبولوجيا،
الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا: معرض
العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ٥-٦: بوكر تاليافيرو واشنطن (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

مطلع القرن العشرين «قاعدة القطرة الواحدة»: وفقًا لهذا الاعتقاد، فإن الشخص الذي يُعتقَد أنه يجري في عروقه أي كمية من الدم الأفريقي — ولو حتى «قطرةٌ واحدة» — يُصنَّف على أنه أَسود. ترجع هذه الفكرة، التي تَفتقر إلى أي أساسٍ علمي، إلى فترات الاستعمار الأمريكي، عندما كان يُنظَر تلقائيًّا إلى أي طفل يُولَد في أسر العبودية على أنه عبد، حتى لو كان أحد والدَيه من البِيض.

خلال فترة الفَصْل العنصري، أصبحت «قاعدة القطرة الواحدة» مُثبَتة في القانون والعُرف؛ حيث ظهرت في الوثائق القانونية التي تراوحت من سجلات الميلاد وتراخيص الزواج إلى نماذج التعداد.

إذا ثبت أن شخصًا يحمل واحدًا في المائة من الدم الأفريقي، فإنه يُصبح زنجيًّا كل مرة؛ إذ لا يُعتَد بنسبة ٩٩ في المائة المتبقية من الدماء الأنجلوساكسونية، ودائمًا ما يُصنَّف الشخص ضمن عِرقنا. يجب أن يكون الشخص حاملًا لنسبة ١٠٠ في المائة من الدم الأبيض ليُصنَّف ضمن البِيض، بينما ١ في المائة من الدم الأفريقي كفيلة أن تجعل الشخص زنجيًّا كل مرة؛ لذا، نحن عرقٌ أقوى من العرق الأبيض كما ترون.

واشنطن ١٩٠٠: ١١٥

١٩٠٩ حظر زواج اليابانيين من البِيض: كاليفورنيا تُصدر قانونًا يُضاف اليابانيون بموجبه إلى قائمة الأشخاص المَحظور عليهم الزواج من البِيض.



شكل ٥-٧: ميلاد أُمَّة (بتصريح من فوتوفست).

١٩١٥ «ميلاد أُمَّة»: فيلم ديفيد وورك جريفيث يقدِّم وصفًا متعاطفًا لُمنظَّمة كو كلوكس كلان في الجنوب في فترة ما بعد الحرب الأهلية. صُوِّر البِيض في الجنوب على أنهم مُدافعون شرفاء عن القيم الأمريكية، بينما عُرِضَت شخصيات السود على أنها إما كسولة أو خطيرة.

بعد الحرب الأهلية، كان ثمة مخاوفُ عميقةٌ في صفوف البِيض بالجنوب حيال التوقُّعات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة للسود المُحرَّرين مؤخرًا. وحَّدت النُّخَب البيضاء، التي كانت تخشى فقدان الامتيازات المعدودة التي خلَّفتها في أعقاب الحرب، والبِيض الفقراء، الذين يُساورهم القلق بشأن ضرورة مشاركة مواردهم الاقتصادية الضئيلة؛ قواهم لتشويه سُمعة السود.

يولاندا موزس، عالِمة أنثروبولوجيا، جامعة كاليفورنيا،
ريفرسايد: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ٥-٨: زيت «لاكي براون» لفرد الشعر (بتصريح من متحف جيم كرو للآثار التذكارية العرقية، جامعة ولاية فيريس، بيج رابيدز، ميشيجان).

١٩٢٢ قضية أوزاوا ضد الولايات المتحدة: قدَّم رجل الأعمال تاكاو أوزاوا، الذي وُلِدَ في اليابان وتربَّى ونشأ في الولايات المتحدة، طلبًا للحصول على الجنسية الأمريكية، استنادًا إلى قانون منح الجنسية لعام ١٩٠٦، الذي يُتيح للبِيض وأولئك الذين يَنحدرون من أصولٍ أفريقية أن يُصبحوا مواطنين أمريكيين. عندما رُفِضَ طلبه، لجأ إلى القضاء. وصلَت القضية إلى المحكمة العليا للولايات

المتحدة، التي قضت بإجماع الآراء أن بوصفه شخصًا يَنحدر من أصولٍ يابانية، فإنه لا ينتمي إلى البِيض ومن ثمَّ لا يستحق الحصول على الجنسية.

١٩٢٣ قضية الولايات المتحدة ضد ثيند المحكمة العليا: الولايات المتحدة تقضي بأن بهاجات سينغ ثيند، وهو باحثٌ ديني من الهند خدم في الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الأولى، لا يُمكنه الحصول على الجنسية الأمريكية لأن القانون الأمريكي لا يسمح بمنح الجنسية إلا «للأشخاص البِيض الأحرار». وعلى الرغم من أن المحكمة أقرَّت بأن ثيند «قوقازي» لأن علماء الأنثروبولوجيا يَعتبِرون أن الهنود ينتمون إلى نفس العرق الذي ينتمي إليه الأمريكيون البِيض، فإنها ترى أن ثيند لا يرقى للمفهوم الشائع لكلمة «أبيض».

قد يكون صحيحًا أن الإسكندنافيين ذوي البشرة الشقراء والهنود ذوي البشرة السمراء كان لهم سلفٌ مُشترك في الفترات السحيقة من العصور القديمة، بيد أن الشخص العادي يَعرف تمام المعرفة أنَّ ثمة اختلافاتٍ عميقةً وواضحة بينهم حاليًّا.

القاضي جورج ساذرلاند، رأي الأغلبية، ١٩٢٣

١٩٢٤ قانون النقاء العرقي في فرجينيا: يحظر هذا القانون التزاوج بين البِيض وغير البِيض. ظلَّ القانون ساريًا حتى عام ١٩٦٧ حينما أبطلت المحكمة العليا للولايات المتحدة فعاليته. كان القانون جزءًا من حركةٍ ناشئة لتحسين النَّسل، تُؤكِّد على إمكانية تحسين الجنس البشري من خلال التحكُّم في النَّسْل.

فيما يتعلَّق بأغراض هذا القانون، لا ينطبق لفظ «أبيض» إلا على الشخص الذي لا يحتوي على أيِّ مقدارٍ مهما كان من أي دمٍ آخر بخلاف الدم القوقازي، لكن أولئك الذين يعود جزء من كل ستة عشر جزءًا من دمائهم أو أقل إلى الهنود ذوي الأصول الأمريكية ولا تحتوي أجسامهم على أي دماء غير قوقازيةٍ أخرى، فإنهم يُعتبرون من البِيض.

قانون النقاء العرقي لعام ١٩٢٤

ثلاثينيات القرن العشرين منتجات لزيادة التشبُّه بأبناء «العرق الأبيض»: يُحدِّد «بياضُ البشرة» مستوى الجمال ويُتخَذ معيارًا له. استخدم الأمريكيون ذوو الأصول الأفريقية زيت «لاكي براون»، ومنتجاتٍ أخرى مُماثلة، للمساعدة في فرد شعرهم باستخدام مشطٍ ساخن.

١٩٤٨ دمج القوات المُسلَّحة: الرئيس هاري ترومان يُوقِّع أمرًا تنفيذيًّا لإجراء دمجٍ عِرقي للقوات المُسلَّحة الأمريكية. ينصُّ الأمر التنفيذي على ضرورة أن تكون «ثمة مساواة في المعاملة والفرص لجميع الأشخاص في الخدمات المُسلَّحة دون النظر إلى العرق أو اللون أو الدين أو الأصل القومي.»



شكل ٥-٩: فريق العمل في المسلسل التليفزيوني «دَعِ الأمر لبيفر» (بتصريح من جيمس برمان).

خمسينيات–سبعينيات القرن العشرين التليفزيون الأبيض: قَدَّمت مسلسلاتٌ تليفزيونية شهيرة مثل «دَع الأمر لبيفر» (ليف إت تو بيفر) و«الأب يعرف أكثر» (فازر نووز بست)، وفيما بعد «رابطة برادي» (ذا برادي بانش) صورًا مثالية للعائلات الأمريكية المنتمية إلى الطبقة المتوسطة، جميعها كانت من البِيض.

لا يسع الأشخاصَ ذوي البشرة البيضاء أن يفكروا في أنفسهم إلا ك «أمريكيين»، أما مَنْ هم سواهم فيجب أن يُوسَموا بأنهم «أمريكيُّون ذوو أصول أفريقية» أو «أمريكيون ذوو أصول مكسيكية» إلى آخر ذلك.

إليزابيث برومفيل، عالِمة الأنثروبولوجيا بجامعة
نورث وسترن: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

١٩٦٧ قضية لافينج ضد فرجينيا: غادر كلٌّ من ريتشارد لافينج (أبيض البشرة) وميلريد جيتر (أمريكية ذات أصولٍ أفريقية)، وهما من قاطني ولاية فرجينيا؛ الولاية ليتزوَّجا في واشنطن العاصمة. وعند عودتهما إلى موطنهما، وُجِّهت إليهما تُهمة خرق قانون النقاء العرقي لعام ١٩٢٤ الخاص

بولاية فرجينيا، وثبتَت إدانتهما، إلا أن الحُكم أُرجئ تنفيذه شريطة مُغادرة الولاية والانتقال إلى مكانٍ آخر. أقام الزوجان في واشنطن وشرَعا في تقديم التماسٍ لإلغاء قانون فرجينيا. وفي عام ١٩٦٧، أصدرت المحكمة العليا للولايات المتحدة حُكمًا بالإجماع بإبطال سريان قانون فرجينيا، وهو القرار الذي امتدَّ أيضًا إلى قوانينَ مُماثلةٍ في ١٥ ولايةً أخرى.

سبعينيات القرن العشرين–العقد الأول من القرن الحادي والعشرين الهِجرة في الولايات المتحدة: غيَّرت الهجرة الوافدة إلى الولايات المتحدة من كل أنحاء العالم من أنماط الزواج، والإسكان، والتعليم، والتوظيف، وأعادت صياغة الفِكَر المتعلِّقة بالعرق ومفهوم العرق الأبيض.

بوصفي من ذوي البشرة البيضاء، أدركتُ مما تعلَّمته عن العنصرية أنها شيءٌ يُجرِّد الآخرين من امتيازات، بيد أنني تعلَّمتُ عدم النظر إلى أحد الجوانب المُترتِّبة عليها كنتيجةٍ طبيعية، وهو امتياز البِيض، الذي يختصُّني بامتيازاتٍ دون غيري.

ماكنتوش ١٩٨٨: ١٠

خطوات البِيض الاثنتا عشرة

الخطوة الأولى: اعترِف أنَّ لك عرقًا. انتماءُ المرءِ إلى العرق الأبيض يعود عليه بامتيازاتٍ، كما تعلم. ما المانع إذًا في الاعتراف بالأمر؟ إذا كان لديك وعاءٌ مملوء بالفطائر المُحلَّاة، ففي وسعك أن تقضيَ حياتك كلَّها وأنت تُنكر وجود هذه الفطائر لديك ... أو يُمكنك مشاركتها مع الآخرين. الفكرة أن الجميع يعلم بوجود تلك الفطائر معك. يُمكننا أن نشمَّ رائحة السكر ونرى فُتَات الفطائر على ذقنك. نعم، لم يعد الأمر سرًّا. لذا، ربما حان الوقت كي تُقدم إلى الآخرين بعضًا من هذه الحلوى اللذيذة (دامالي آيو، «خطوات البِيض الاثنتا عشرة» (٢٠٠٥)).



شكل ٥-١٠: «بطاقة العرق» (بتصريح من دامالي آيو).

(١) نيل إيرفين بينتر: دراسة الشعوب الأولى من البِيض الأمريكيين



نيل إيرفين بينتر: حاصلة على أستاذية إدواردز الفخرية في التاريخ الأمريكي بجامعة برينستون، وهي الرئيسُ السابق لمنظمة المؤرِّخين الأمريكيين وجمعية تاريخ الجنوب، وزميلُ الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم. في هذه المُقتطَفات من كتابها الأخير «تاريخ البِيض» (٢٠١٠)، تشرح بينتر الأبعاد المتداخلة للعِرق والنوع في الإحصاءات السكانية الأولى للولايات المتحدة، وتُقارن بين آراء توماس جفرسون والدبلوماسي العسكري الفرنسي ميشل جيوم جين دي كريفكير حول تكوين الهُوية الأمريكية (البيضاء). ففي حين أن جفرسون يُعرِّف «الأمريكي الأصلي» من منظورٍ ضيق ينحصر في خرافة النقاء الأنجلوساكسوني، يُعلِّق دي كريفكير على التقسيم الطبَقي الصارخ ويشير إلى وجود أشخاصٍ من الأمريكيين ذوي البشرة البيضاء ينتمون إلى خلفياتٍ أوروبية مختلفة (الصورة الفوتوغرافية بتصريحٍ من نيل إيرفين بينتر، التقطَها لها روبين هولاند).

* * *

يستهوي المزيجُ الفريد لشعوب أمريكا الشمالية المُفكِّرين الغربيين بوصفه حالةً تجريبية للبشرية جمعاء؛ مَن هم الأمريكيون؟ ما شكلهم؟ هل يُمكن للولايات المتَّحدة، الواقعة على مسافة شاسعة عبر المحيط الأطلنطي، أن تكشف عن مُستقبَل البشرية؟ أو على الأقل عن مستقبل الأوروبيين؟ رأى بعضُ الباحثين أن الأمريكيين أشخاصٌ بِيض البشرة ويَدعون للمساواة بين البشر، بينما فَطنَ آخرون إلى مجموعةٍ متعدِّدة الأعراق من الطُّغاة

والمظلومين. في الوقت نفسه، باشرت حكومة هذه الجمهورية الجديدة عملها اليومي في الإجابة عن تساؤلاتها الخاصة بإحصاء شعبها وفقًا لأدواتها الخاصة.

في المادة الأولى من الدستور الأمريكي، وتحديدًا الفقرتين الثانية والتاسعة، ابتكرت الولايات المتحدة أسلوبًا جديدًا لتوزيع عدد النواب والضرائب المباشرة؛ وذلك بإجراء إحصاءٍ قومي للسكان كلَّ عشر سنوات. أقرَّ الإحصاء الأمريكي الأول، الذي جرى تنفيذه عام ١٧٩٠، بوجود ستِّ فئاتٍ ضمن السكان: (١) رَبُّ كل أسرة. (٢) الذكور البِيض الأحرار فوق ستة عشر عامًا. (٣) الذكور البِيض الأحرار دون ستة عشر عامًا. (٤) الإناث البِيض الأحرار. (٥) كل ما عدا هؤلاء من الأشخاص الأحرار حسب جنسهم ولونهم. و(٦) العبيد.[1] تولى المارشالات الأمريكيون إجراءَ هذا الإحصاء السكاني الأول، مسجِّلين النتائج على أي قصاصاتٍ ورقية تصادَف وجودها معهم. استغرقت هذه الجهود ثمانية عشر شهرًا وأحصت ٣٫٩ ملايين نسمة، وهو ما رآه جورج واشنطن بالتبعية عددًا قليلًا للغاية. وكان هذا هو أول إحصاءٍ يُسجِّل عددًا أقلَّ من الموجود فعليًّا.

حلَّلت ثلاثة بنودٍ العرق الوحيد المذكور في هذا التعداد، وهو العرق الأبيض، وحُدِّدت فئتان: العبيد والأحرار، بموجب القانون. يبدو أن إحصاء عام ١٧٩٠ قد أغفل الأشخاصَ البِيض غير الأحرار، الذين كانوا موجودين بكثرة في الاتحاد الجديد على الرغم من أن ذِكْرَ صفة «أحرار» الوارد أربع مراتٍ في الإحصاء يُستدَل منه ضمنًا على وجود بِيض غير أحرار، من العبيد. فلو كان كلُّ البِيض أحرارًا وكان الانتماءُ إلى العرق الأبيض يعني التمتُّع بالحرية، كما يُزعَم غالبًا اليوم، لما وُجِدَ ما يستدعي إضافة كلمة «أحرار» إلى «البِيض». عالجَ إحصاءُ عام ١٨٠٠ هذه المشكلة من خلال إحصاء «كل ما عدا هؤلاء، باستثناء الهنود الذين لا يدفعون ضرائب.»[2] وهكذا، شكَّل مصطلح «الأحرار» في هذه الإحصاءات الأولى تصنيفًا ذا معنًى، وليس مجرد مُطابِقٍ حرفيٍّ لمصطلح «البِيض».

كان السببُ وراء إحصاء الذكور البِيض الأحرار حسب فئتهم العُمرية هو الحاجة إلى تحديد الذكور المؤهَّلين للالتحاق بخدمة الميليشيات، وهي الخدمة المُسلَّحة الوحيدة في ذلك الوقت. ولإحصاء نسبة التمثيل داخل الكونجرس لكل ولاية، أحصى الكونجرس كل الأشخاص الأحرار (والنساء أيضًا، على الرغم من أنهن لا يتمتَّعن بحق التصويت) وثلاثة أخماس عدد الأشخاص «الآخرين»؛ أي العُمَّال المرتبطين بعقودٍ طويلة الأجل والعبيد. فيما بعدُ، تغيَّرت الحقائق الكامنة وراء الإقصاء المَدروس للعبودية والعرق، مما استدعى

تضمين فئاتٍ جديدة. وبما أن السياسة نعتَت كلَّ الأشخاص ذوي البشرة البيضاء بالأحرار وجعلت النظريةُ الأيديولوجيةُ الحريةَ حِكرًا على العرق الأبيض دون غيره، بدت عبارة «الذكور البِيض الأحرار» تكرارًا عقيمًا لا طائل منه.[3]

ظلت فئات الإحصاء تشهد تغييرًا كلَّ عشر سنوات؛ نظرًا لتغيُّر الاحتياجات الحكومية وتعديل الفئات التصنيفية، بما في ذلك تصنيفات العرق. على مدى تاريخ الإحصاء والتعداد الأمريكي، يُحصى غيرَ الأوروبيين وأنصافَ الأوروبيين باعتبارهم جزءًا من السكان الأمريكيين، الذين يُصنَّفون معًا في فئةٍ واحدة على أنهم من «غير البِيض»، إلا أنهم يُقسَّمون أحيانًا إلى «سود» و«مولاتو»، كما جاء في إحصاء عامي ١٨٥٠ و١٨٦٠.

في مستهلِّ القرن التاسع عشر، عندما تراجعت فائدة عبارة «الذكور البِيض الأحرار» بسبب تضاؤل أعداد البِيض غير الأحرار، استُخدِمت عبارةٌ أخرى، استمرت لفترةٍ أطول بكثير، وهي: «حق الاقتراع العام». كانت الولايات المتحدة هي أول دولة تعمد إلى إلغاء الحواجز الاقتصادية على التصويت بدرجةٍ كبيرة. وما بين عام ١٧٩٠ ومنتصف الخمسينيات من القرن التاسع عشر، حازت أيديولوجية الديمقراطية قبولًا واسع النطاق؛ مما أدى إلى فتح باب المواطَنة النَّشِطة فعليًّا أمام كل الرجال البِيض البالغين، بمَن فيهم غالبية المهاجرين المقيمين في البلاد. وبذلك، أغنت فئة الذكور البِيض الأحرار عن مُتطلبات القرن الثامن عشر التي تشترط أن يكون للمرء نصيبٌ في المجتمع (الملكية الخاصة، دفع الضرائب)، والاستقلال السياسي (دخلٌ ثابت للفرد)، قبل أن يتسنَّى له الإدلاء بصوته. وبتضمين الصوت في الحياة العامة، شهدت فترة ما قبل الحرب الأهلية التي ارتبطت بظهور صورة المواطن العادي الذي دعا الرئيس أندرو جاكسون إلى مناصرته أولَ توسيع لدلالة ما يَعنيه كون المرء أمريكيًّا.[4]

استمر إقصاءُ كل النساء، والأشخاص غير المؤهَّلين للحصول على الجنسية الأمريكية (الهنود الأمريكيين الأصليين والآسيويين)، والعبيد، والأشخاص الأحرار الذين ينحدرون من أصولٍ أفريقية خارج نيو إنجلاند، وكذلك الفقراء المُعدَمون، والمُذنبون، والعابرون مثل عُمَّال القنوات والبحَّارة. (حتى في الوقت الحالي، لا يمكن للأطفال وغير المواطنين ومعظم المُذنبين المُدانين الإدلاء بأصواتهم. كما يُحرَم من حق التصويت أيضًا الأشخاص الذين لا يستوفون شروط الإقامة ولا يُمكنهم التسجيل قبل التصويت.) في هذه الحالة،

يعني «حق الاقتراع العام» حق اقتراع الذكور البِيض الأحرار، وإنْ كانت تساؤلات تُثار بين الحين والآخر عن تعريف مصطلح «البِيض». هل يُصنَّف ضمن «البِيض» الأشخاصُ الذين يكون أحد أبويهم أسود والآخر أبيض، أو الذين لهم ثلاثة أجداد من البِيض وجَدٌّ واحد من السود؟ هل يعني مصطلح «البِيض» الأنجلوساكسونيين فقط، أم كل الأشخاص الذين يُعتبَرون من العرق القوقازي، بمَن فيهم أولئك الذين يُصنَّفون على أنهم من الكلتيون؟[5]

إنَّ إلغاء الحواجز الاقتصادية على التصويت من جانب الرجال البِيض قد جعل من الولايات المتحدة، وفقًا للتعبير الدارج في المحادثات العامة آنذاك، «دولة للبِيض»، حكومةً معرَّفة عِرقيًّا ومقصورة على البِيض. بمجرد أن انحصرت متطلبات الجنسية النشطة في الذكور والبِيض، أصبح الرجال الفقراء مُرحَّبًا بهم ضمن تعريفٍ «أمريكي»، ما دام من المُمكن تعريفهم على أنهم من البِيض، أول توسيع لدلالة ما يعنيه الانتماء إلى «البِيض الأمريكيين».

يمكننا إرجاع تاريخ دمج «الأمريكيين» مع المُنحدِرين من أصولٍ أوروبية إلى «رسائل من مُزارِع أمريكي» التي كتَبها عام ١٧٨٢ المؤلِّف والدبلوماسي العسكري الفرنسي ميشل جيوم جين دي كريفكير (١٧٣٥–١٨١٣)، والتي تُرجِمت ترجمةً سريعة، وقُرئت على نطاق واسع، واستُشهِد بها في عددٍ لا نهائي من المواضع. ابتدع كريفكير نهجًا جريئًا، وهو المقارنة بين أوروبا المُمزَّقة طبقيًّا، بلاد الأرستقراطيِّين الأغنياء والفلاحين الفقراء، والولايات المتحدة القائمة على التكافؤ والمساواة، موطن الديمقراطية والحِراك الاجتماعي والسياسي.

اتخذ طريق كريفكير إلى الشُّهرة مناحيَ بعيدةً ومتشعِّبة. بعد نزوحه إلى كندا ومحاربته على الجانب الفرنسي خلال حرب السنوات السبع/الحرب الفرنسية الهندية التي امتدَّت بين عامي ١٧٥٤ و١٧٦٣، انتقل كريفكير إلى نيويورك وغيَّر اسمه إلى جون هيكتور سانت جون. ساهمت الصورة المُبهِجة التي رسمها كريفكير في «رسائل من مُزارِعٍ أمريكي» ونجاحه اللاحق كدبلوماسي فرنسي في الولايات المتحدة في رفع شأنه كثيرًا؛ مما منَحه حق الترشح لانتخابات الجمعية الأمريكية للفلسفة حصريًّا، بالإضافة إلى حصوله على الكثير من المُميزات المحلية. كرَّم المجلس التشريعي لولاية فيرمونت كريفكير بأن أطلق

اسمه على بلدة سانت جونسبري؛ التي أصبحت أكبر مدينة في المنطقة الشمالية الشرقية الفقيرة والمُحافِظة للغاية من ولاية فيرمونت.

تطرح الرسالة الثالثة من رسائل كريفكير التساؤل التالي: «ما المقصود إذًا بمصطلح الأمريكي، هذا الإنسان الجديد؟» ويجيب قائلًا:

> إنه شخصٌ أوروبي أو يَنحدِر من أصولٍ أوروبية، ومن هنا يأتي هذا المزيج الرائع من الدماء، الأمر الذي لن تجده في أي دولةٍ أخرى. ويمكنني أن أذكر لكم أسرة كان جَدُّها إنجليزيًّا، وزوجته ألمانية، تزوَّج ابنُها من امرأةٍ فرنسية، وأنجبا أربعة أبناءٍ تزوَّج كلٌّ منهم من امرأةٍ ذات جنسيةٍ مختلفة. الأمريكيٌّ هو مَن يتجاوز كلَّ تحيُّزاته وسلوكياته القديمة، ويكتسب سلوكياتٍ جديدةً من نمط الحياة الجديد الذي اتبعه، والحكومة الجديدة التي يُذعن لها، والمنصب الجديد الذي يشغله ... هنا، ينصهر الأفرادُ من كل الجنسيات في بوتقة عِرقٍ واحد، والذين ستؤدي يومًا جهودهم وأجيالهم القادمة إلى إحداث تغييراتٍ هائلةً في العالم. ... انتقل من البطالة الجبرية، والتبعية الخَدَمية، والعمالة العديمة النفع [في أوروبا]، إلى عملٍ ذي طبيعةٍ مختلفة للغاية، وكُوفئَ بوفرة العيش وسعته. هذا هو الأمريكي.[6]

بالإضافة إلى ما يتحلَّى به الأمريكي من رغبة في الابتكار وقدرة على طرح فِكَرٍ جديدة، فإنه يَتميَّز بأنه ينحدر من سلالة غير متجانسة العناصر، لكنها ذات أصولٍ أوروبية خالصة.

فرَّ هذا «الإنسانُ الجديد» من اضطهاد أوروبا القديمة، واغتنم الفرصة الجديدة، ومجَّد حرية الفِكر والحِراك الاقتصادي. الآن كوصفٍ كلاسيكي للأمريكي، تعاود فقرة كريفكير الظهور باستمرار بوصفها تُقدِّم وصفًا موضوعيًّا من شاهد عيانٍ للهوية الأمريكية. بيد أن الرسالة الثالثة ما هي إلا جزءٌ من القصة. عندما دخل الجنوب وفئاتٌ وأعراقٌ وأجناسٌ أخرى صورة كريفكير، أضحى من الضروري إجراء كل أنواع المراجَعة والتنقيح المُمكنة. على سبيل المثال، يشغل الأشخاص البِيض من الفقراء وغير المُروَّضين، لا سيَّما سكان الجنوب، فئةً مُنفصلة أدنى من الأمريكيِّين. وفي حين قد يُنظَر إلى الأمريكيين والفقراء البِيض على أنهم من البِيض وفقًا للقانون الأمريكي، فإن نعتَهم

بالفقر، والوحشية الظاهرة، كان سببًا في إقصائهم الدائم من الفئة صاحبة الحقوق والامتيازات. ضَمنَ هذا التعقيد أن يظلَّ السؤالُ عن هوية الأمريكي بلا إجابة واضحة، بيد أن المُراقبين الأوروبيين والأمريكيين لم يتوقَّفوا أبدًا عن تقفِّي الإجابة.

أقرَّ كريفكير بوجود أمريكيين آخرين — من البِيض أيضًا — ممن «لا يقدمون صورة مُرضية للغاية.» وعبَّر عن أمله في أن مسيرة التقدم الأمريكي ستُزيح قريبًا هؤلاء العاطلين الثملين أو تُمدِّنهم، وفي الوقت نفسه، سوف تكشف العائلات البيضاء التي تعيش بمنأًى عن القانون والنظام عن «أكثر أجزاء مجتمعنا تواريًا وتخفيًا». لا يستطيع كريفكير أن يُقرِّر ما إذا كانت العائلات الحدودية غير المُروَّضة تُمثِّل مرحلةً مؤقتة أم أنها انحطاط يستعصي إصلاحه: «وما إن اشتغلوا بالصيد حتى ودَّعوا الزراعة.» ظهر الهنود بمظهرٍ مُحترم على نحوٍ إيجابي بجانب العائلات البيضاء، المختلطة الأعراق، شبه الهمَجية، الكسولة، والثَّمِلة، المشتغلة بالصيد.

وفيما يتعلق بالعبودية، فقد فُطِرَ قلب كريفكير كثيرًا جراء المَشاهد القبيحة التي طالعها في مدينة تشارلستون بولاية كارولاينا الجنوبية، بيد أن تشاؤمه نجَم في معظمه من الصدمة التي اعترته لقسوة مُضيفيه وصلابتهم. كان مالكو العبيد الأثرياء الذين نزل كريفكير في استضافتهم «أسعدَ» الناس في أمريكا، إلا أن سعادتهم تلك جاءت على حساب إنسانيتهم؛ «إنهم لا يرون، ولا يسمعون، بل ولا يشعرون، بنوائب» عبيدهم أو وطأة الظروف الاجتماعية وقسوتها المُروِّعة. لم يسع كريفكير إلا أن يندهش من حالة اللامبالاة وعدم الاكتراث تلك. وعن موقفهم، يقول:

> لم أستطع أبدًا أن أهنأ بالراحة؛ فدائمًا ما كان يؤرقني تذكُّر الاحتيالات التي ارتُكِبَت في أفريقيا بهدف محاصرتهم والإيقاع بهم، احتيالاتٌ تفوق في بشاعتها كل ما يُمكن للعقل البشري أن يَتصوَّره. ... هل من الممكن أن تجعلني قوة العادة لا ألتفتُ إلى كل هذه الفِكَر، وأُصبح عديم الإحساس تجاه إجحاف تلك التجارة [تجارة الرقيق]، وتجاه معاناة [العبيد] وبؤسهم، تمامًا مثل ما يبدو عليه سكان هذه البلدة الأثرياء؟[7]

بعد هذه المواجَهة المباشرة مع حقائق العبودية في الجنوب، أصبح كريفكير أول مَن يتنبَّأ بتمرُّد العبيد المسلَّح كنتيجة حتمية لحالة «الاستياء المُستحكِم» و«رغبة الانتقام الدائم». هذا شخص أوروبي يُفكِّر من مُنطلق الفقر المُدقع والغِنَى الفاحش، ويرى العبيد

على أنهم مساكين، وليس على أنهم يُمثِّلون ببساطة سلالة من البشر. وبذلك، كانت أمريكا في عهد كريفكير مُقسَّمة طبقيًّا بقدر ما هي مُقسَّمة عِرقيًّا؛ مجتمعًا يتناقض مع الصورة الديمقراطية المُشرِقة التي قدَّمها في تصريحه الأكثر شيوعًا.

أغفل توماس جفرسون (١٧٤٣–١٨٢٦)، في كتاباته التي جاءت عقب كريفكير ببضع سنواتٍ، البُعد الطَّبَقي الذي كثيرًا ما كان مصدر إزعاجٍ لكريفكير. لم يُشكِّك جفرسون، الذي وُلِدَ ونشأ في فرجينيا، في أن المجتمع الأمريكي كان مُنظَّمًا وفقًا للعِرق وليس الطبقة الاجتماعية؛ فمن وجهة نظره، كان الفقراء القائمون بالخدمة، بمَنْ فيهم بوضوحٍ أكبر العبيد الذين يملكهم، ينتمون إلى عِرق يميل للعبودية بطبعه. وفيما يتعلق بالسود، فإنه لم يفرغ عليهم المكانة الاجتماعية كأمريكيين، الذين يمثلون «شعبنا».

وعلى غرار الكثير من المفكِّرين الآخرين، أقرَّ جفرسون بأن العبودية تضرُّ البِيض أكثر مما تضرُّ السود. في «السؤال الثامن عشر: العادات» من كتاب «ملاحظاتٌ حول ولاية فرجينيا» (١٧٨٧)، يستقصي جفرسون تأثير العبودية «البغيض» على طبقة مالكي العبيد، دون التطرُّق إلا فيما ندر إلى معاناة العبيد. وتناول بإسهاب نوعًا ما الثمنَ الذي تكبَّده مالكو العبيد البِيض في الجنوب. يُحاكي أبناءُ مالكي العبيد سوءَ تعامل آبائهم مع الأشخاص الذين يَملكونهم، مُضفِين غلظةً على شخصياتهم؛ ومن ثَمَّ على مجتمعاتهم. وهكذا، فإن الطفل الأبيض «الذي ينشأ ويتربى ويتدرَّب يوميًّا على الظلم» — حسبما يُحذِّر جفرسون — «لا بد أن يُوسَم به فضلًا عن اكتسابه خصالًا أخرى مشينة؛ ومن ثمَّ يجب أن يكون المرءُ استثنائيًّا كي يتأتَّى له الحفاظ على عاداته وأخلاقه الحميدة دون أن تفسد بفِعل هذه الظروف.»[8]

يتفق جفرسون وكريفكير في الأغلب فيما يخصُّ توزيع أضرار العبودية وخسائرها، في حين تتعارض نظرياتهما عن الأصل الأمريكي؛ فقد رفض جفرسون المُفوَّه أي فكرة عن الأمريكي ذي النسب المختلط، على الرغم من أنه كان أبًا لسبعة من الأطفال الأمريكيين المُختلطي النسب الذين أنجبهم من سالي همينجز، وهي امرأةٌ كان يملكها ضمن عبيده. كذلك، رفض جفرسون وجهة نظر كريفكير عن ضرورة إضافة الإنسان «الهولندي» — الذي من المُرجَّح أنه كان يعني «الألماني» أو «الجرماني» — إلى شجرة العائلة الأمريكية. كانت شجرة عائلة جفرسون تتَّسم بالنقاء والقوة؛ حيث إنه ينحدر من شعب الساكسون الذين شكَّلوا أول مملكة لحكم إنجلترا.

كان توماس جفرسون يؤمن، على مدى حياته، بأسطورة شعب الساكسون، وهي قصة الأمريكيين الذين انحدروا من شعب الساكسون عن طريق إنجلترا. فقد فُتِنَ بهذه القصة منذ أن كان طالبًا في كلية ويليام آند ماري عام ١٧٦٢ ولم يشكَّ فيها قط. استطاع جفرسون أن يقتني أكبر مجموعة من الوثائق الأنجلوساكسونية والإنجليزية القديمة على مستوى البلاد، وذلك على مدى ما يزيد على خمسين عامًا قضاها في جمع الكتب، حيث شكَّلت مكتبته الخاصة أساس مكتبة الكونجرس.[9]

بوصفه أحد الآباء المؤسِّسين، قدَّم جفرسون تفسيرًا نظريًّا لحق الأمريكيين في الاستقلال استنادًا إلى الأصل الساكسوني. ومن خلال طرحه لهذا الزعم في يوليو ١٧٧٤، جعل الإنجليز «أسلافنا»، وجعَل واضعي الميثاق العظيم (الماجنا كارتا) «أسلافنا الساكسونيين». ومع أن تاريخ الماجنا كارتا يرجع إلى عام ١٢١٥، وتاريخ غزو النورمان لإنجلترا يرجع إلى عام ١٠٦٦، يؤكِّد جفرسون أن منظومة حقوق «أسلافنا» كانت جاهزةً بالفعل عندما تواطَأ «المحامون النورمان» لإثقال عاتق الساكسونيين بالأعباء المُجحِفة.[10] واستمر في ربط الساكسونيين بحزب اليمين الليبرالي والنورمان بحزب المحافظين، كما لو أن الأحزاب الليبرالية والرجعيَّة كانت موجودة منذ القِدَم، بحُكم النسب ورباط الدم غالبًا.[11] لم تكن الحرية الساكسونية ذات الطراز الإنجليزي، من وجهة نظر جفرسون، من الصفات الموجودة لدى الجرمانيين.

تجاهل جفرسون بحُكم أصله الساكسوني عددًا من الحقائق المُزعجة. كان الملك الإنجليزي الغاشم جورج الثالث ساكسونيًّا، وكذلك كان دُوق برونزفيك لوينبورج وناخِب هانوفر في ولاية ساكسونيا السُّفلى. علاوةً على ذلك، وُلِد والِد جورج الثالث وجَدُّه، اللذان اعتليا عرش إنجلترا قبله كمُلوكٍ من هانوفر، في ألمانيا وتحدَّثا اللغة الألمانية كلغةٍ أولى. وبالكاد ما تهم هذه المسألة. من وجهة نظر جفرسون، مهما كانت نزعة الحرية التي أورثها ساكسونيو العصور المظلمة للإنجليز، فقد تغذَّت نوعًا ما على التربة الإنجليزية بيد أنها خبَت وماتت في ألمانيا.[12]

في الكونجرس القاري في فيلادلفيا عام ١٧٧٦، وصل جفرسون إلى حدِّ اقتراح استخدام صور أسلافه الساكسونيين الأبطال على ختم الولايات المتحدة العظيم. كان من المُقترَح أن صور «هنجيست وهورسا، الزعيمين الساكسونيين اللذين نفتخر بشرف الانحدار من سلالتهما»،[13] سوف تحيي بجدارة ذكرى المبادئ السياسية للأمة الجديدة

وحكومتها وأصلها الطبيعي.[14] لم يحظَ هذا الاقتراح بالموافقة، إلا أن جفرسون ثابَر عليه. كتب جفرسون عام ١٧٩٨ «مقالٌ حول اللغة الأنجلوساكسونية»، الذي ساوى فيه اللغة بالأصل البيولوجي، وهو ما كان موضع التباسٍ شائعًا بين علماء اللغة في ذلك الحين. في هذا المقال، يَمزج جفرسون بين اللغة الإنجليزية القديمة واللغة الإنجليزية المتوسطة، خالقًا حقبةً طويلة من العَظَمة الأنجلوساكسونية تمتد من القرن السادس وحتى القرن الثالث عشر.

إنَّ تأكيد جفرسون الدائم على نقاء الدم تفوح منه رائحةُ الحديثِ عن العرق، وإنْ لم يَنطِق به صراحةً. فمن وجهة نظره أن الساكسونيين لم يُحافظوا على نقائهم العرقي خلال فترة الاحتلال الروماني فحسب (كان ثمة «قدرٌ ضئيل من الاختلاط مع البريطانيين الأصليين».) وإنما ظلت لغتهم أيضًا مُحتفظة بأصالتها على نحوٍ مذهل، على مدى قرنين من غزو النورمان كانت اللغة الأنجلوساكسونية هي «لغة إنجلترا بأسرها، حسبما يُزعَم حقًّا، منذ استحواذ الساكسونيِّين على تلك البلاد في القرن السادس وحتى عهد هنري الثالث في القرن الثالث عشر، وكان يُتحدَّث بها وحدها ودون خلطها مع أي لغةٍ أخرى.»[15] ومن ثمَّ، استحقَّ الأمرُ تدريس اللغة الأنجلوساكسونية/الإنجليزية القديمة بوصفها تمثِّل أساسَ الفِكْرِ الأمريكي.

من آخر إنجازات جفرسون العظيمة تأسيسُه جامعة فرجينيا عام ١٨١٨، التي بلورت اهتمامه باللغة الأنجلوساكسونية بوصفها لغة الثقافة والقانون والسياسة الأمريكية. عندما افتُتِحت تلك الجامعة عام ١٨٢٥، كانت الكلية الوحيدة في الولايات المتَّحدة التي تُقدِّم تعليمًا باللغة الأنجلوساكسونية، وكانت الأنجلوساكسونية هي المقرَّر التعليمي الوحيد الذي يُدرَّس لطلاب اللغة الإنجليزية. وأصبحت ملحمة «بيولف»، بطبيعة الحال، من الموضوعات الأكثر تناولًا بالدراسة. ومن دواعي المفارَقة أن المُعلِّم جيورج بلايترمان الذي كان يُدرِّس هذه الملحمة كان من مواليد مدينة لايبتسيج بولاية ساكسونيا شرقي ألمانيا. كان بلايترمان شخصًا صارمًا للغاية لا يحظى بشعبيةٍ كبيرة، وكان يُدرِّس أيضًا اللغة الفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والدنماركية والسويدية والهولندية والبرتغالية. وبعد أن قضى سنواتٍ صامدًا أمام المشاغبات والاحتجاجات الطلابية، أُقيلَ بلايترمان من وظيفته عام ١٨٤٠ لضربه زوجته بالسوط على رءوس الأشهاد.[16]

(٢) كارول شابنيك موكوباداي: «العرق القوقازي»



كارول شابنيك موكوباداي: هي أستاذ علم الأنثروبولوجيا في جامعة سان خوسيه الحكومية، وعضو لجنة الاستشارات البحثية لمشروع العِرق. تتضمَّن اهتماماتها البحثية، بحُكم تخصُّصها في علم الأنثروبولوجيا الثقافية، الأنشطة القائمة على أساسٍ جنسيٍّ على مستوى الأُسر، والسياسة، وفي مجالَي العِلم والهندسة على وجه الخصوص. تتمتَّع بخبرة ٤٠ عامًا في مجال التدريس والأبحاث والاستشارات والنشر في مجال الثقافة والتعليم القائمين على العرق والجنس. تتحدَّث موكوباداي هنا عن أصول كلمة «قوقازي» وفقًا للقرن الثامن عشر كإشارة إلى الأمريكيين البِيض أو الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية. وتوضِّح كيف أن الاستخدام المستمر للمُصطلح، الذي ينبع غالبًا من الاعتقاد الخاطئ بأنه يتَّسم بالدقة العلمية، يُخلِّد الاعتقاد بأن البِيض هم الأمريكيون الأصليُّون (الصورة الفوتوغرافية بتصريحٍ من كارول موكوباداي).

* * *

تعكس اللغةُ الكيفيةَ التي ندرك بها العالَم من حولنا ونخبره، وتساهم في تشكيلها. ويقدِّم مفهوم «العرق» مثالًا بارزًا على ذلك؛ حيث يُشير إلى «وجهة نظر» أمريكية مُفصَّلة إلى العالم ترجع جذورها إلى فترة الاستعمار والعبودية ومنظومة عدم المساواة القائمة على

أساسٍ «عِرقي». في طريقنا إلى تحليل هذه الأيديولوجية وتفكيكها — لا سيَّما العنصرية العلمية والفكرة المغلوطة بأن الأعراق عبارة عن تقسيماتٍ فرعية للنوع البشري مصنَّفة، وذات جذور بيولوجية، وتنشأ على نحو طبيعي — يتعيَّن علينا أيضًا أن نَدرس بعناية اللغة التي ارتبطت ارتباطًا تاريخيًّا بهذه النُّظم القديمة البالية من التصنيف العرقي، تلك المُسمَّيات التي نستخدمها للإشارة إلى «الأعراق».

من أكثر آثار هذه الأيديولوجية القديمة ضررًا، وأكثرها استمراريةً على نحوٍ مُثير للدهشة، مصطلح «قوقازي».[17] على مدى العقود الماضية، أُوقِفت الكثيرُ من المسمَّيات المرتبطة بالعلوم العرقية. واختفت بالأساس مصطلحات مثل «منغولي الشكل» و«زنجي الملامح»، بالإضافة إلى «الإنسان الأحمر» و«العرق الأصفر» من مفرداتنا. وفي الوقت الحالي، يُوسَم المرءُ فورًا بأنه فَقدَ صلته على نحوٍ خطير بمفاهيم العرق الحديثة في حال توظيفه لتلك المُفردات المتحجِّرة. ومع ذلك، لا تزال كلمة «قوقازي» موجودة ومُستخدَمة على الصعيدَين العلمي والعام على نحوٍ يُثير الدهشة.

ألم يَحِن الوقت كي نطرح كلمة «قوقازي» جانبًا؟ قد يذهب البعضُ إلى أنها «مجرد تسمية»، وأننا يجب ألا نعترض على مجرَّد الدلالات اللفظية للكلمة.

إنَّ اللغة واحدةٌ من أكثر الآليات دلالةً وبراعةً وأهميةً في نقل المعرفة الثقافية، بما في ذلك الأيديولوجية العرقية. تلخِّص كلمة «قوقازي» العلوم العرقية القديمة، وتشي بـ «ذاكرةٍ» علمية ودقةٍ علمية في غير محلها، وتستدعي مجموعةً مختلفة ومعقَّدة من الصور الذهنية على نحوٍ يفوق المُسمَّيات العرقية الأخرى. تعمل أيضًا كلمة «قوقازي» على إيصال رسائل أوسع نطاقًا عمَّن لديهم «ثقافة» و«إثنية»، والمعنى الحقيقي لأن يكون المرءُ أمريكيًّا. وفي رأيي أننا في كل مرة نستخدم كلمة «قوقازي»، إنما نُرسِّخ وجهة النظر العرقية الأمريكية القديمة تجاه العالم، بدلًا من أن نُخضِعها للبحث والتحليل.

(٢-١) القوقازيون والعلوم العرقية من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين

ظهَر مصطلح «قوقازي» لأول مرة في القرن الثامن عشر كجزءٍ من علم التصنيف العرقي الأوروبي الناشئ (موكوباداي وآخرون ٢٠٠٧، مع إشارةٍ خاصة إلى الجزء الثاني). بعد زيارة عالِم التشريح الألماني يوهان بلومينباخ لمنطقة جبال القوقاز، الواقعة بين بحر قزوين

والبحر الأسود، صرَّح بأن سكان المنطقة هم أجمل مخلوقات الله من البشر على مستوى العالم، واعتقَد أن هذه المنطقة هي الموقع المُرجَّح لأصل الإنسان (وهو اعتقادٌ خاطئ؛ لأن الموقع المُرجَّح لذلك هو أفريقيا). وقرَّر أن جميع الشعوب ذات البشرة الفاتحة من هذه المنطقة، بالإضافة إلى الأوروبيين، ينتمون إلى نفس العرق، الذي أسماه العرق القوقازي.

اقترح بلومينباخ أربعة أعراقٍ أخرى، والتي يَعتبر جميعها أشكالًا «أدنى» خِلقةً وخُلقًا من «خلق الله الأصلي». وصنَّف الأفريقيين (باستثناء شعوب شمال أفريقيا ذوي البشرة الأفتح) على أنهم «إثيوبيون» (سود). كما قسَّم الآسيويين من خارج جبال القوقاز إلى عِرقَين منفصلَين؛ العرق «المنغولي» أو «الأصفر» في الصين واليابان، والعرق «الملايي» أو «البُني» الذي يشمل الأستراليين الأصليين وسكان جزر المحيط الهادئ. أما الأمريكيون الأصليون، فكانوا يُمثلون العرق «الأحمر» أو الخامس.

طُبِّقَ نظامُ التصنيف العرقي الذي وضَعه بلومينباخ في الولايات المتحدة. ويوضح قسم العنصرية العلمية بمتحف العرق كيف قاس العلماء الأمريكيون حجم الجمجمة في محاولة لإثبات أن القوقازيين كانت أدمغتهم أكبر وكانوا أذكى من الأعراق الأخرى (انظر الفصل الرابع). ارتبطت العلوم العرقية بالنظريات الثورية في القرن التاسع عشر، التي صنَّفت الأعراق بدءًا من «البدائي» (الهمجي) إلى الأكثر «تقدُّمًا» (تمدنًا)، مع وضع القوقازيين على رأس القائمة. واستُخدِمت الهَرَميات العرقية لتبرير العبودية وغيرها من أشكال التمييز العنصري الأخرى.

استند النظامُ القانوني للولايات المتحدة إلى تعريفات بلومينباخ لتحديد الأشخاص المؤهَّلين لأن يُصبحوا مواطنين حاملين للجنسية، وهو امتياز قَصَرَه قانونُ منح الجنسية لعام ١٧٩٠ على «البِيض». وأحدث هذا مشكلاتٍ عويصة. كانت المحاكم الأمريكية وغيرها من النُّخب الأمريكية الفعَّالة تأمُل أن تتمكَّن العلوم العرقية من تقديم أساسٍ «علمي» للعنصرية، بما في ذلك سياسة المواطنة المقيَّدة على أساسٍ عِرقي. إلا أن القوقازيين — حسب وجهة نظر بلومينباخ — كانت تَندرج ضمنهم مجموعاتٌ مثل الأرمن، والفُرس، وسكان شمال الهند، وبعض سكان شمال أفريقيا. ومن الواضح أن هؤلاء لم يكونوا يُمثِّلون «البِيض» الذين كان المشرِّعون يضعونهم في تصوُّرهم حين وضعوا قانون عام ١٧٩٠، بل كانوا يقصدون الأوروبيين، لا سيَّما المسيحيين الذين يقطنون شمال وشرق أوروبا؛ ومن ثمَّ كان لا بد من إعادة تفسير مصطلحَي «أبيض» و«قوقازي». في عام ١٩٢٣، رفضت المحكمة طلبَ منح الجنسية الذي تقدَّم به أحد المهاجرين النازحين من شمال

الهند بدعوى أنه كان قوقازيًّا وليس أبيض، مُستشهدةً — ضمن أمورٍ أخرى — بلون بشرته وديانته غير المسيحية.[18]

استمرَّت هذه المُحاولات المستمرة لإعادة اختراع ما كان يُقصَد بمصطلحي «أبيض» و«قوقازي» لأهدافٍ سياسية في القرن العشرين؛ حيث شكَّل ملايين المهاجرين الجُدد تهديدًا يُنذر بتغيير وجه الولايات المتحدة (وديانتها). كيف كان سيتأتى للوافدين الجُدد الاندماج في نظامٍ اجتماعي يقوم على العنصرية وعدم المساواة؟ مرةً أخرى، تدخَّلت العلوم العرقية لإنقاذ الموقف. بحلول فترة العشرينيات من القرن العشرين، قسَّم المُختصون بعلم تحسين النَّسل بالولايات المتحدة القوقازيين إلى أربعة أعراق فرعية مصنَّفة بالترتيب؛ الشمالي، والألبي، والبحر متوسطي، واليهودي (السامي)، مع وضع أصحاب العرق الشمالي في أعلى مرتبة من الناحية الفكرية والأخلاقية.[19] استُخدِمَت هذه التقسيمات الفرعية المزعوم أنها علمية (والتي ما زالت تجعل «العرق القوقازي» عِرقًا متفوقًا على الأعراق الأربعة الأخرى) لتبرير قوانين الهجرة التمييزية التي حافظت على السيادة العرقية الأمريكية لأصحاب العرق الشمالي (والمسيحيين البروتستانت).

لم يفقد أيٌّ من العلوم العرقية وعلم تحسين النَّسل مكانته إلا بعد الحرب العالمية الثانية وويلات العنصرية النازية. تلاشَت تدريجيًّا أشكال التمييز فيما بين الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية، على الأقل من الناحية القانونية، فيما يخص الإسكان والتعليم والتوظيف، بل وأصبح اليهود يُصنَّفون ضمن «الشعوب البيضاء». وبدلًا من أن يَختفي مصطلح «قوقازي»، حلَّ محل تسمية العرق «الآري» المرتبط بالنازية والموصوم تمامًا بالفساد؛ بحيث أصبح مكافئًا للعِرق «الأبيض»؛ أي الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية.

يواصل نظام التصنيف العرقي الأمريكي تغيُّره استجابةً للأحداث التاريخية والاقتصادية والسياسية. ومن المثير للدهشة أن الإطار الفكري الذي وضعه بلومينباخ للفئات العرقية الخمس الكبرى لا يزال موجودًا في الوقت الحالي (قارِن التعداد الأمريكي). ومع ذلك، فإن المسمَّيات والتعريفات والخطاب الشامل الذي يدور حول معظم الفئات العرقية المعاصِرة قد تغيَّر ليَعكس المفاهيم الجديدة للعِرق (وحدوده غير الواضحة مع «الإثنية»). فقد استُبدِلَت غالبية المسمَّيات المتعلقة بـ «اللون»، مثل العرق الأصفر، أو الآثار شبه العلمية للعلوم العنصرية، مثل مصطلح «منغولي الشكل»، بمسمَّيات تُشير على نحوٍ أكثر ملاءمة إلى المنطقة الجغرافية، والكيانات السياسية، واللغة، والسمات الثقافية، بدلًا من الصفات البيولوجية (مثل الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية، والأمريكيين ذوي الأصول الآسيوية، وسكان جزر المحيط الهادئ ... إلخ).

ومع ذلك، تبقى كلمة «قوقازي» رغم تضمينها في العلوم العرقية التي فقدت مكانتها. في الواقع، يبدو أن للكلمة أهميةً علمية وموثوقة، لا ترتبط بالمسمَّيات العرقية الأخرى، ولا بمُصطلح «أبيض» المتداوَل على نحوٍ متزايد. أَعَّدت بعض المواقع الإلكترونية الحكومية (وزارة التعليم، ومكتب التعداد، ومعاهد الصحة الوطنية) عددًا مدهشًا من التقارير الرسمية التي استخدَمت مصطلح «قوقازي»، بجانب «أبيض» أحيانًا. وجدتُ تقارير عن الأداء والمساءلة المرتبطَين بالتعليم، وطلباتٍ خاصةً بقانون «عدم إهمال أي طفل»، ووثائقَ خاصةً بالمنطقة التعليمية والولاية ككل، ودراساتٍ بحثية، تَستخدم جميعها مصطلح «قوقازي»، لا سيَّما في السياقات «الرسمية» وملخَّصات البيانات. تضمَّن الموقع الإلكتروني لمكتب التعداد الأمريكي دراسةً رئيسية لإحدى المجموعات المُستهدَفة، استخدمت مصطلح «قوقازي» [و«قوقازي» فقط] على مدى حديثها. وكانت أكثر الأمور اللافتة للنظر النتائج المُنبثِقَة عن المكتبة الوطنية الأمريكية لعلم الطب؛ فقد اشتمل ما يزيد عن ٥٦ ألف مقال علمي على لفظ «قوقازي» في عنوان أو ملخَّص المقال، في إشارةٍ إلى السكان المُنحدِرين من أصولٍ أوروبية، الذين يُقصَد بهم في المقام الأول الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية. نُشرت غالبية هذه المقالات في الفترة ما بين عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠١٠، في دورياتٍ علمية وطبية وصحيةٍ كبرى، وكانت تعرض النتائج البحثية حسب الانتماء الإثني/العرق، وأحيانًا أيضًا باستخدام مصطلح «أبيض».[20] بالإضافة إلى ذلك، تَستخدم أيضًا جامعتي التي تتَّسم بالوعي والتنوع الثقافي كلمة «قوقازي» بانتظام، في صحيفة الجامعة، والأطروحات البحثية للطلاب، والتقارير المهمة للإدارة/الأقسام (على سبيل المثال، تقرير الرابطة الغربية للمدارس والكليات لعام ٢٠٠٤، ووثيقة تخطيط الأقسام لعام ٢٠٠٨، والعروض التقديمية للمركز الاستشاري)، لا سيَّما في الإحصائيات المتعلقة بالأعراق/الإثنية (على سبيل المثال، القوقازي/الأبيض ٧٤٪).

(٢-٢) فئة شاغرة

بالإضافة إلى ارتباط مصطلح «قوقازي» بالعلوم العرقية، فإنه يشي — ككلمة وكمفهوم — بدقة ومصداقيةٍ علمية زائفتَين؛ إنه مقصورٌ على فئةٍ معيَّنة، وهو كلمة مركَّبة مكوَّنة من ثلاثة مقاطع معناها غير واضح أو لا يمكن استنتاجه بسهولة. تصف المسمَّيات العرقية المعاصرة الأخرى، مثل الأمريكيين ذوي الأصول الآسيوية، المنطقة الجغرافية التي شهدت مولد الأشخاص المتحدَّث عنهم. إلا أن مُصطلح «قوقازي»، حسب استخدامه في

الولايات المتحدة، لا يحمل فعليًّا أي تشابُه مع الأسلاف أو الأصول الوطنية لأولئك الذين يُحدَّدون على أنهم قوقازيون. يوجد بالطبع قوقازيون «حقيقيون» … شعب القوقاز، على الرغم من أنه يتضمَّن مجموعةً مختلطة من اللغات والثقافات والتواريخ المختلفة. إلا أن قليلًا من الأمريكيين فقط مَن كان يسعه تحديد موقع منطقة القوقاز على الخريطة، أو تحديد بلدانها أو مناطقها، أو مجموعاتها اللغوية (على سبيل المثال، جورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان، وأجزاء من شمال إيران، وجنوب ووسط روسيا، بما في ذلك جمهورية الشيشان).

إذن، ما هي التداعيات التي يستدعيها مصطلح «قوقازي» في الأذهان؟ في الواقع، لا شيءَ من ذلك؛ فهو لا يَستدعي الأصول الوطنية ولا الموطن الأصلي المتعلق بالأسلاف، ولا اللغة. في الواقع، إنه لا يُشير إلى أي شيء ثقافي أو إلى شيءٍ تعلَّمه البشر أو شاركوه أو اخترعوه. لا يتحدَّث القوقازيون في الولايات المتحدة القوقازية، فلا يوجد (في الولايات المتحدة) موسيقى قوقازية أو رقص قوقازي. يُمثِّل القوقازيون فئةً شاغرة لحدٍّ ما، على الأقل من الناحية الثقافية؛ ونتيجةً لذلك، من السهل استنتاج أنه «حقيقي» من الناحية البيولوجية وليس اختراعًا ثقافيًّا. وهكذا تأكَّدت المغالطة القديمة بشأن الفئات العرقية بوصفها «طبيعية» ومتأصِّلة من الناحية البيولوجية.

لا توجد بالطبع لغةٌ واحدة، أو طعام أو دينٌ واحد، أو ثقافة موحَّدة لـ «الآسيويين» أو «الأفارقة» أو «سكان جزر المحيط الهادئ» أو «الأمريكيين الأصليين»؛ فكلُّ الفئات العرقية الأمريكية الكبرى، حتى لو ارتبطت بمناطق متجاورة جغرافيًّا أو سياسيًّا وتاريخيًّا، ما هي إلا تصنيفاتٌ ظاهرية من صُنع الإنسان، تفتقر إلى الحدود الواضحة، وتنطوي على قدرٍ هائل من التنوع. ولنأخذ مثالًا على ذلك كُتل اليابس التي تُشكِّل «آسيا» أو «أوروبا» أو حتى «أفريقيا»، التي تتسم بأنها غير محدَّدة بوضوح وغامضة. أين يقع الحد الغربي لآسيا أو الحد الشرقي أو الجنوبي لأفريقيا؟

بالمثل، تنطوي الفئات العرقية الكبرى على قدرٍ هائل من التعقيد الثقافي والتاريخي. ولنأخذ مثالًا على ذلك الفئة العرقية المتمثلة في «الآسيويين» أو «الأمريكيين ذوي الأصول الآسيوية» أو «سكان جزر المحيط الهادئ»، التي تتضمَّن مئات اللغات، والجماعات العرقية، والأمم، والثقافات، ولحُسن الحظ أن هذا التنوع أصبح معترفًا به على نحوٍ متزايد. قدَّم السؤالُ الذي طرحه تعداد عام ٢٠١٠ عن العرق العديدَ من الخيارات لفئة «الآسيويين»: «الهنود الآسيويون، والصينيون، والفلبينيون، واليابانيون، والكوريون،

والفيتناميون، بجانب غيرهم من الآسيويين»، وهو قسمٌ أضيفَ لتضمين التايلانديين والباكستانيين وغيرهم. وقد يكون سكان جزر المحيط الهادئ من قاطني جزر هاواي، أو ساموا، أو غوام، أو تشامورو، أو «غير ذلك»، مع ترك مساحةٍ شاغرة لإضافة أيٍّ من سكان جزر المحيط الهادئ الأخرى. وطُلِبَ من الهنود الأمريكيين أو سكان ألاسكا الأصليين تحديد قبيلتهم. وكان ثمة فئتان فقط من الفئات العرقية الكبرى تَفتقر إلى المجموعات الفرعية: «السود، أو الأمريكيون ذوي الأصول الأفريقية، أو الزنوج» و«البِيض». وعلى نحوٍ ضمني، فإن هذه المجموعات الفرعية تُمثِّل هوياتٍ/جماعاتٍ عِرْقيةً مُتجانسة (باستثناء «اللاتينيين» الذين يُمثلون «إثنيةً» منفصلة) على الرغم من أن الأيرلنديين والنرويجيين والنيجيريين والأمريكيين المُنحدِرين من أصل هايتي قد يشعرون بخلاف ذلك.

من المُلاحَظ أن البِيض وحدهم لهم تسميةٌ واحدةٌ قائمة على اللون لا تتضمَّن أي مرجعية جغرافية (على عكس «الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية»). تستدعي كلُّ التسميات الأخرى للمَجموعات العرقية الأمريكية الكبرى نقطةً مرجعية ذات صلة بالناحية الجغرافية والثقافية والسياسية، وكذلك مجموعة من الكيانات التي تُجسِّد ثقافاتٍ متنوعةً داخل آسيا أو أفريقيا أو جزر المحيط الهادئ.

لا يستدعي مصطلحُ «قوقازي»، مثله مثل مصطلح «البِيض»، أيَّ مرجعيةٍ جغرافية أو ثقافية أو تاريخية؛ فهو يُخفي داخله تاريخ هذه الفئة العرقية الاعتباطي والمُختلَق ثقافيًّا. ولا يكشف عن الجماعات العرقية واللغوية والدينية والسياسية المتنوِّعة التي تتألَّف منها أوروبا. ومن المُرجَّح أن هذه التقسيمات الفرعية قد شكَّلت الهويات المهمة لمعظم الأمريكيين المُنحدِرين من أصولٍ أوروبية حتى نصف القرن العشرين. يُشير مصطلح «قوقازي» ضمنًا إلى أن السكان المُنحدِرين من أصولٍ أوروبية يمثلون كيانًا مترابطًا ومستقرًّا وراسخًا ومتجانسًا وذا معالمَ بيولوجيةٍ واضحة؛ مما يُعزِّز المفاهيم البيولوجية القديمة عن «العرق».

(٣-٢) الأمريكيون «الحقيقيون» والأمريكيون ذوو الأصول الأجنبية

يشير أيضًا مصطلح «قوقازي» (في مقابل الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية) إلى علاقةٍ مختلفة وفريدة بـ «أمريكا» و«الجنسية الأمريكية»؛ فالأمريكيون ذوو الأصول الأوروبية،

شأنهم شأن الأمريكيين الآخرين، جاءوا من مكانٍ آخر. ولا يزيدون مطلقًا في انتمائهم إلى الهوية «الأمريكية» عن أي مجموعةٍ عِرْقية/إثنية أخرى. وبالمقارنة مع الأمريكيين الأصليين، فإن جميع الأمريكيِّين ذوي الأصول الأوروبية هم مهاجرون جُدد؛ فقد نزل معظم أسلاف الأمريكيين الأفريقيين بالشواطئ الأمريكية قبل وصول أسلاف مُعظم الأمريكيين الأوروبيين إليها. في الواقع، من المحتمل أن غالبية «القوقازيِّين» الموجودين في الولايات المتحدة حاليًّا لم يكن لهم أي أسلاف في أمريكا قبل القرن العشرين. ومع ذلك، يُخفي مصطلح «قوقازي» في ثناياه ببراعةٍ كبيرة الأصل الأجنبي لهذه المجموعة بينما تبرز التسميات الأخرى — مثل: الأمريكيُّون الآسيويون أو الأمريكيون الأفريقيون — الجذور الأجنبية لهذه المجموعات.

تزيد كلمة «قوقازي» من مَيل الولايات المتحدة إلى مساواة «الأمريكي» بالأشخاص المُنحدِرين من أصولٍ أوروبية (كالحال — مثلًا — عندما نقول الطعام «الأمريكي»). وبوصفها تسميةً مكوَّنة من كلمةٍ واحدة، فإنها تُعزِّز الوضع الهامشي أو «غير المُكتمِل» للمجموعات الأمريكية الأخرى. من الناحية اللغوية، يُستدَلُّ من إضافة مُحدِّدٍ لفظي إلى كلمةٍ عامة (على سبيل المثال، إضافة «آسيوي» أو «أفريقي» إلى أمريكي) على أن الصيغة المُعدَّلة أقل تعبيرًا عن «الوضع الطبيعي» وأكثر هامشيةً. أما الصيغة الأكثر تعبيرًا عن الوضع «الطبيعي» الجوهري والنموذجي، فتُترك دون تمييز. (الأمر أشبه — على سبيل المثال — بما يحدث في اللغة الإنجليزية عند إضافة مُحدِّد النوع male إلى كلمة nurse لتمييز فئة الممرضين الذكور، وهي فئةٌ استثنائية غير طبيعية مقارنةً بالفئة النموذجية الطبيعية المُسلَّم بها جدلًا التي تشير إلى المُمرضات الإناث.)

تضيف حاليًّا مُعظم التسميات الخاصة بالفئات العرقية الأمريكية القياسية بخلاف «قوقازي» (أو «أبيض») مُحدِّدًا لفظيًّا، مثل «آسيوي» أو «أفريقي» أو «أصلي»، إلى كلمة «أمريكي». فعلامَ هذه الازدواجية؟ لماذا تُخفَى الأصول التي انحدر منها القوقازيون (أو البِيض) بينما تُجلَّى أصول المجموعات الأخرى؟ إنَّ هذه المُحدِّدات اللفظية، إذا لم تُستخدَم مع كل المجموعات العرقية والإثنية، من شأنها أن تُهمِّش ببراعة المجموعات «المميَّزة»، مما يشير ضمنًا إلى أنها لا تنتمي إلى الأمريكيين بالمعنى الكامل للكلمة. ولا تزال بعضُ المجموعات تُوضَع في إطارٍ معيَّن، من خلال اللغة، على أنها من المهاجرين الدائمين، بصرف النظر عن عدد الأجيال التي مرَّت على وجودها في الولايات المتحدة.

(٤-٢) مَن الذين لهم «إثنية» و«ثقافة» و«هوية إثنية»؟

وختامًا، فإنَّ مصطلح «قوقازي» يُجرِّد أولئك الذين يُصنَّفون على أنهم قوقازيون من إثنيتهم وأصلهم وعاداتهم الثقافية. ومن دواعي المفارقة أننا استهللنا حديثنا كما لو أن «الإثنية» و«الثقافة» صفاتٌ تختص بها بعضُ المجموعات العرقية-الإثنية دون غيرها، وعادةً ما تكون هذه المجموعات مُهمَّشة ضمن الأعراف والتقاليد المُتَّبَعة. للكثير من الجامعات منظمات «ثقافية» داخل الحرم الجامعي، أو فعاليات للاحتفاء بالتنوع «الثقافي». إلا أن هذه الفعاليات لا تشمل عادةً المجموعات الإثنية الثقافية من الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية. ما هي إذن الثقافة «القوقازية»؟ إنها فئةٌ شاغرة دون توصيفٍ واضح.

أين هو موقع القوقازيين في عالمٍ تُمثِّل فيه الهويات الإثنية بُعدًا مهمًّا، وإيجابيًّا غالبًا، من الهوية الشخصية؟ لا تزال بالتأكيد الثقافة المؤسسية السائدة في الولايات المتحدة ذات أصولٍ أوروبية (شمال غربية، مسيحية) بالأساس. إلا أننا لا نطلق على هذه التقاليد الثقافية أنها «قوقازية»؟ ولا معنى للقيام بذلك، بل ينبغي أن تُسمَّى بوضوح بالأوروبية، أو يُفضَّل ربطها بمناطقَ ثقافيةٍ أو لغويةٍ معينة، مثل إنجليزية أو ألمانية أو إيطالية، وهكذا. وهذا يضعها كواحدة ضمن العديد من التقاليد الثقافية التي أدخلها المهاجرون إلى الولايات المتحدة. وفي الوقت نفسه، فإن تحديد الأصول على نحوٍ أوضح يُتيح للأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية استكشاف هوياتهم وأصولهم الإثنية.

كيف نمحو مصطلح «قوقازي»، ذاك الأثر الخبيث من آثار الماضي؟ لحُسن الحظ، فإن شيوع المصطلح واستخدامه آخذٌ في الانحسار والتراجع، على الرغم من أن البديل المُعتاد، وهو لفظ «أبيض»، له مشكلاته الخاصة به أيضًا. تؤكِّد مسمَّيات مثل «أبيض» و«أسود» و«أشخاص ملوَّنين» من الناحية اللغوية (ومن ثمَّ الناحية الإدراكية) على العرق كحقيقة بيولوجية وعلى المفاهيم المغلوطة عن المجموعات المتجانسة والمحدَّدة على نحوٍ مميَّز. كما تحافظ أيضًا على الإطار العرقي للبِيض/غير البِيض (الملوَّنين) الموجود منذ زمنٍ طويل.

يُمثل مصطلحُ الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية بديلًا أكثر دقة لمصطلح القوقازيين من مصطلح «البِيض»؛ فهو يضاهي اللغة المستخدمة مع بقية المجموعات الأمريكية العرقية الكبرى الأخرى، موضِّحًا الأصول القومية لهذه المجموعات بدلًا من الأسس البيولوجية؛ مما يسمح بإبراز الخبرات المتنوِّعة دون إغفال الامتيازات الممنوحة تاريخيًّا

لأولئك المنحدرين من أصولٍ أوروبية. قد يبدو مسمَّى الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية فضفاضًا أو رسميًّا بدرجةٍ كبيرة في البداية (في مقابل «أبيض» أو «أسود» على سبيل المثال)، لكننا استطعنا أن نتكيَّف مع مسمَّيات الأمريكيِّين ذوي الأصول الأفريقية، والأمريكيين ذوي الأصول الآسيوية، والأمريكيين ذوي الأصول المكسيكية، وسكان جزر المحيط الهادئ، وغيرها من التسميات المُتعدِّدة المقاطع. وفي مقدورنا أن نصيغ صيغًا أكثر إيجازًا، مثل «أورو». ففي إمكاننا نحن البشر أن نتكيَّف مع المصطلحات الجديدة بسرعة إلى حدٍّ ما، لا سيَّما إذا كنا نبذل جهدًا واعيًا في سبيل ذلك أو كنا نعيش وسط آخرين يستخدمونها.

(٣) حوارٌ حول العرق الأبيض

في هذا الجزء، تناقش لجنة الخبراء النتائج التنظيمية والشخصية المترتبة على تصنيف المرء «عِرقيًّا» إلى أبيض أو غير أبيض. «إدواردو بونيلا-سيلفا» هو أستاذ علم الاجتماع بجامعة ديوك. «دالتون كونلي» هو عميد كلية العلوم الاجتماعية، وأستاذ جامعي ورئيس قسم علم الاجتماع بجامعة نيويورك. «آلان جودمان» هو نائب رئيس الشئون الأكاديمية وعميد كلية هامبشير وأستاذ الأنثروبولوجيا البيولوجية بها. «إيفلين هاموندز» هي عميد كلية هارفرد وحاصلة على أستاذية باربرا جوتمان روزنكرانتس في تاريخ العلوم وفي الدراسات الأفريقية والأمريكية الأفريقية بجامعة هارفرد. «بيلار أوسوريو» هي أستاذٌ مشارِك في القانون والأخلاقيات البيولوجية بجامعة ويسكونسن في ماديسون. «جون ايه باول» هو المدير التنفيذي لمعهد كيروان لدراسة العرق والإثنية بجامعة ولاية أوهايو.

* * *

جون ايه باول: إنَّ أمريكا دولةٌ مؤلَّفة من المهاجرين. وكان جزءٌ من تكوين هويتها القومية يتمثل في تحديد هوية الوافدين إليها في المقام الأول، بل [وكذلك] تحديد الكيفية التي سيُدمَج بها هؤلاء المهاجرون معًا في نسيج مجتمعٍ واحد. وبالفعل، اتَّحدت أمريكا واندمجت معًا حول مفهوم العرق الأبيض الذي يرجع أصل نشأته إلى الأنجلوساكسونيين.

روبن كيلي: ولهذا السبب، فإنَّ ما حدث في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، مع اختراع العرق الأبيض، أن كلَّ هذه الشعوب التي كان يُنظَر إليها على أنها شعوبٌ هجينة ومختلطة — البرتغاليين، والإسبان، والألمانيين، والإيطاليين، وشعوب شرق أوروبا — اندمجت معًا في هذه الفئة التصنيفية التي نُطلق عليها «البِيض».

إدواردو بونيلا-سيلفا: في الواقع، امتدَّت فكرة البوتقة لتشمل حصريًّا المهاجرين البِيض، سواءٌ أكانوا من البولنديين أو الأيرلنديين أو الإيطاليين ذوي البشرة البيضاء، وغيرهم. بيد أن هذه البوتقة لم تكن لتشمل أبدًا الأشخاص الملوَّنين. فلا يُمكن للسود، والصينيين، والبورتوريكيين، وغيرهم، الانصهار في تلك البوتقة. قد يُستخدَمون كحَطبٍ لإنتاج النيران اللازمة لها، لكن لا يُمكن أن يُستخدَموا كمادة يتمُّ صهرها وإذابتها داخل البوتقة.

جون ايه باول: لذا، أعتقدُ أن الإجابة عن سؤال: كيف يرى البِيض العرق؟ وما هي نظرتهم إليه؟ بادئ ذي بدء، هم لا يُفكِّرون في العرق في شخصهم، وإنما يفكرون فيه باعتباره شيئًا يتعلق بأناسٍ آخرين. فللسُّود عِرْق، وربما يكون للاتينيين، وكذلك للآسيويين، عِرْق. أما هم، فبيضٌ وحسب، بشرٌ وحسب.

دالتون كونلي: وهذا جزءٌ مما يعنيه العرق الأبيض. إنه لا يعني ضرورة أن يُفكِّر المرء في كونه ضمن المجموعة القياسية أو المُهيمنة. وفوق ذلك، هو أيضًا إحساسٌ بالتميُّز، إحساسٌ بأن هذا المجتمع مُكرَّس برمَّته لخدمته، وأنه مخوَّلٌ له أن يفعل أي شيءٍ لأن المجتمع الأمريكي، الاقتصاد الأمريكي، أشبه بالمأدبة، ويُمكنه أن يمضي في طلب المزيد من الطعام. هذه هي منظومته، وهي تخصُّه وحده؛ ومن ثمَّ ثمة إحساسٌ بالأهلية والاستحقاق أيضًا يُصاحب العرق الأبيض وفكرة الانتماء إليه.

آلان جودمان: وعن شخصي أودُّ أن أقول إنني لستُ مُنتبهًا بشدة للون بشرتي، وأعتقدُ أن هذه في أغلب الظن هي الحالة النمطية بالنسبة إلى كثير من الأشخاص ذوي البشرة البيضاء الذين نشئوا وسط أناسٍ بِيض البشرة؛ حتى إن الأمر بات غير ملحوظٍ لهم بدرجةٍ كبيرة.

إيفلين هاموندز: عندما كنتُ طفلة، وبالتأكيد على مدى نشأتي في أتلانتا في المجتمع الأسود، كان يُضفَى بالتأكيد قدرٌ ما من القيمة على الأشخاص ذوي البشرة الأفتح

في مقابل الأشخاص ذوي البشرة الأكثر دكانةً في مجتمع الأمريكيين الأفارقة. ورأيتُ، كطفلة، كيف يَشعر بعضُ الأشخاص ببالغ الضرر جرَّاء تلك التقييمات التي ترى أن الأشخاص السود ذوي البشرة الأفتح أفضل إلى حدٍّ ما من الأشخاص السود ذوي البشرة الأكثر دكانةً. تربَّيتُ على قراءة مجلة «إبوني»، ومشاهدة الإعلانات الترويجية لمستحضرات تفتيح البشرة. تربَّيتُ كذلك على مراقبة أفعال الناس، ولا سيَّما نساء عائلتي، مرورًا بكل ما كنَّ يقمْن به من محاولاتٍ غريبة على طبيعتهنَّ حتى يتأكدن من فرد شعرهن وظهوره دائمًا بالمظهر اللائق. لعلَّكم لاحظتم بالطبع أنني تمرَّدتُ كثيرًا على هذه الفكرة. لكنني أعتقد أن فكرة أن الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية كانوا يتعرَّضون لنوعٍ من الضغط على هذا المستوى الاجتماعي والثقافي كي يظهروا بمظهر أقرب إلى البِيض، وأن البِيض كانوا موضع تقدير إلى حدٍّ ما، تبدو فكرة مفهومة تمامًا في مجتمعٍ مُتمحوِر حول العرق على النحو الذي عليه مجتمعنا.

آلان جودمان: هذا الأمر ليس فرديًّا بقدر ما هو ببساطة تعبيرٌ عن أننا نعيش وسط نوع من الدخان الضبابي العرقي. إنه عالَم الدخان العرقي. ولا يسعنا أن نفعل شيئًا حيال ذلك، لا يسعنا إلا أن نَستنشِق هذا الدخان. الجميعُ يستنشق هذا الدخان، لكن من الجميل أن يعرف المرءُ أنه يستنشقه؛ حتى يتسنى له إدراكه وتمييزه، وتلك هي بداية الطريق.

إيفلين هاموندز: أرى أن الجميع ربما لديه قصةٌ أشبه بقصة أقلام التلوين من «كاريولا»، بيد أنني عندما كنتُ طفلة، كنت أنزعج فعلًا من وجود قلم تلوين أبيض، وقلم بدرجة لون البشرة، وتدرُّجات مختلفة من اللون البُني. ولم يكن لون البشرة يحاكي لون الأشخاص الموجودين في حياتي. كنت أنزعج كثيرًا عندما أهمُّ برسم صورة، وأجدني أقول: «لكن أتدرين يا أمي، إنها أنتِ.» كان عليَّ بالطبع أن أُلوِّن الصورة بالقلم الذي بدرجة لون البشرة، ثم بعد ذلك أغير القلم وألوِّنها باللون البُني. ولم يكن يناسب الصورة أبدًا أيٌّ من تدرُّجات اللون البُني. وكنت أنزعج كثيرًا لأن لون البشرة في علبة الألوان لم يكن يحاكي أيًّا من ألوان الأشخاص الذين أحبهم.

بيلار أوساريو: إذا لم يستطع الناسُ تحديد عِرْقك، فإنهم يشعرون بحالةٍ شديدة من عدم الارتياح. وهذا أمرٌ أعلمه جيدًا؛ لأنني أصادفه طوال الوقت؛ فالناسُ دائمًا ما يسألونني عن عِرْقي؛ لأن عِرْقي غامضٌ إلى حدٍّ ما. وأسألُ الناسَ أحيانًا «لماذا تريدون

معرفة عِرْقي؟» وفي ظني أنهم يريدون معرفة ذلك لأنهم يشعرون بعدم الارتياح، ولا يُدركون أن الطريقة التي يعاملون بها غيرهم من الناس تقوم في جزءٍ منها على العرق.

إيفلين هاموندز: أذكرُ عندما كنت أشاهد في طفولتي مسلسلًا تليفزيونيًّا مثل «الأبُ يعرف أكثر» أو «دَعِ الأمر لبيفر»، وأفكِّر في كونهم بشرًا مثلي، وأنني أعيش في جوار أناسٍ كهؤلاء، كان والداي يعملان، بيد أن أمي كانت تذهب إلى العمل يوميًّا. لكن تلك هي الأمور التي كنت أراها مختلفةً.

لكنني لم أُدرك أن حقيقة أنني بُنية البشرة ولستُ وردية البشرة — اعتدتُ أنا وأختي إقامة أحاديث مطوَّلة حول أن الأشخاص البِيض ليسوا بِيض البشرة في حقيقة الأمر، وإنما هم ورديُّو البشرة — هي أن الأمر كان ملتبَسًا علينا، لكنه كان واقعًا، وما زلنا لا نفهمه حقًّا. لكنني أعتقدُ أنني كنتُ أرى نفسي كما هي حقًّا. كنتُ أرى فعلًا أن لون البشرة ما هو إلا السطح الذي يراه الناس؛ فهو مجرد لون ولا شيءَ أكثر من ذلك.

(نُسخت بتصريح من كاليفورنيا نيوزريل.)

المراجع

Asing, Norman:

1852 letter to the editor. Daily Alta California, May 15.

Brodkin, Karen:

1998 How Jews Became White Folks And What That Says about Race in America. New Brunswick: Rutgers University Press.

Cook, William W.:

1929 American Institutions and Their Preservation. 2nd edition. Norwood, MA: Norwood Press.

Davis, Dana-Ain:

2009 The Politics of Reproduction: The Troubling Case of Nadya Suleman and Assisted Reproductive Technology. Theme issue, “Whiteness: The Series,” Transforming Anthropology 17: 105–116.

Du Bois, W. E. B.:

1970 [1935] Black Reconstruction: An Essay Toward a History of the Part which Black Folk Played in the Attempt to Reconstruct Democracy in America, 1860–1880. New York: Atheneum.

Epperson, Terrence:

1997 Whiteness in Early Virginia. Race Traitor 7: 9–20.

Franklin, John Hope:

1988 Ethnicity in American Life: The Historical Perspective. *In* Race and History: Selected Essays, 1938–1988, pp. 321–331. Baton Rouge: Louisiana State University Press.

Hargrove, Melissa D.:

2009 Mapping the "Social Field of Whiteness": White Racism as Habitus in the City Where History Lives. Theme Issue, "Whiteness: The Series," Transforming Anthropology 17: 93–104.

Harris, Cheryl I.:

1993 Whiteness as Property. Harvard Law Review 106: 1707–1791.

Lee, Stacey J.:

2004 Up against Whiteness: Students of Color in Our Schools. Anthropology & Education Quarterly 35: 121–125.

Lipsitz, George:

2006 The Possessive Investment in Whiteness: How White People Profit from Identity Politics. Rev. and expanded edition. Philadelphia: Temple University Press.

Low, Setha:

2009 Maintaining Whiteness: The Fear of Others and Niceness. Theme Issue, "Whiteness: The Series," Transforming Anthropology 17: 79–92.

Painter, Nell Irvin:

2010 The History of White People. New York: W. W. Norton and Company.

Paynter, Robert:

2001 The Cult of Whiteness in Western New England. *In* Race and the Archaeology of Identity. Charles E. Orser, Jr., ed. pp. 125–142. Salt Lake City: University of Utah Press.

Ripley, William Z.:

1899 The Races of Europe: A Sociological Study. New York: D. Appleton and Company.

Roediger, David R., ed.:

1998 Black on White: Black Writers on What It Means to Be White. New York: Shocken Books.

Roediger, David R.:

1999 The Wages of Whiteness: Race in the Making of the American Working Class. Rev. edition. London and New York: Verso.

Roediger, David R.:

2008 How Race Survived U.S. History: From Settlement and Slavery to the Obama Phenomenon. London: Verso.

Thomas, Deborah A., and John L. Jackson:

2009 Racialized Publics. Theme Issue, "Whiteness: The Series," Transforming Anthropology 17: 77–78.

Winant, Howard:

2001 White Racial Projects. *In* The Making and Unmaking of Whiteness. Birgit Rasmussen, Eric Klineberg, Irene Nexica, and Matt Wray, eds. pp. 97–112. Durham, NC: Duke University Press.

كارول شابنيك موكوباداي، العرق القوقازي

Mukhopadhyay, Carol C.:

2008 Getting Rid of the Word "Caucasian." *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. Mica Pollock, ed. pp. 12–16. New York: The New Press.

Mukhopadhyay, Carol C., Rosemary Henze, and Yolanda T. Moses:
2007 *How Real Is Race? A Sourcebook on Race, Culture, and Biology*. Lanham, MD: Rowman and Littlefield Education Press.

اختراع العرق الأبيض (١٦٥٠–٢٠٠٠)

Asing, Norman:
1852 Letter to the editor. Daily Alta California, May 15.
Davenport, Charles:
1911 Heredity in Relation to Eugenics. New York: Henry Holt and Company.
Douglass, Frederick:
1881 [1999] The Color Line. *Cited in* Frederick Douglass: Selected Speeches and Writings. Philip S. Foner, ed. Adapted by Yuval Taylor. Chicago: Lawrence Hill Books.
Eagan, Catherine M.:
2001 "White," if "Not Quite": Irish Whiteness in the Nineteenth-Century Irish-American Novel. Eire-Ireland: Journal of Irish Studies, 36 (Spring/Summer): 66–81.
Huxley, Thomas Henry:
1865 On the Methods and Results of Ethnology. *In* Collected Essays, vol. 7. London: Macmillan and Company.
Jacobson, Matthew Frye:
1998 Whiteness of a Different Color: European Immigrants and the Alchemy of Race. Cambridge, MA: Harvard University Press.
McGee, W. J.:
1903 *Cited in* Prof. WJ. M' Gee. Appointed Chief of the Department of Anthropology. Anonymous. World's Fair Bulletin 4(10): 29.

McIntosh, Peggy:

1989 White Privilege: Unpacking the Invisible Knapsack. Peace and Freedom Magazine (July/August): 10–12. Women's International League for Peace and Freedom, Philadelphia.

Spickard, Paul R.:

1992 The Illogic of American Racial Categories. *In* Racially Mixed People in America. Maria P. P. Root, ed. pp. 12–23. Newbury Park, CA: Sage Publications.

Washington, Booker T.:

1900 The Problem of the South. Journal of Proceedings and Addresses of the Thirty-ninth Annual Meeting of the National Educational Association. Chicago: The University of Chicago Press for the National Educational Association.

Zitkala-Sa (Dakota):

1900 [2000] The School Days of an Indian Girl *In* Native American Women's Writing: An Anthology c. 1800–1924. Karen L. Kilcup, ed. Oxford: Blackwell.

هوامش

(1) Margo J. Anderson, *The American Census: A Social History*. New Haven: Yale University Press, 1988: 9, 12–14; and Bureau of the Census, U.S. Department of Commerce [Frederick G. Boheme], *200 Years of U.S. Census Taking: Population and Housing Questions, 1790-1990*. Washington, D.C., 1989: 1.

(2) Indians appeared in the census of 1800, and colored people gained their own category in 1820; thereafter, the races broke down into white, black, and mulatto in 1850. Chinese people appeared in 1870.

(3) The census of 1840 asked for the number of “free white males and females” and “free colored males and females.” By 1850 the question addressed simply “each free person in a household.” The three-fifths clause remains in article 1, section 2, paragraph 3 of the U.S. Constitution, however, in which people bound to a term of servitude—presumably white—are counted as whole persons.

(4) Alexander Keyssar, *The Right to Vote: The Contested History of Democracy in the United States* (New York: Basic, 2000), xxii-xxiii, 20–34, 52–76, 102, and Sean Wilentz, *The Rise of American Democracy: Jefferson to Lincoln* (New York: W. W. Norton, 2005), 27-28, 82-83, 17, 485. Keyssar and Wilentz both note historians’ long neglect of the basic history of the right to vote, especially with regard to class. See also Wilentz, “On Class and Politics and Jacksonian America,” *Reviews in American History* 10, no. 4 (Dec. 1982), 45–48, 59.

(5) Rhode Island delayed ratification of the Fifteenth Amendment to the Constitution until 1870 because legislators feared it might enfranchise members of the Celtic race. Black men had been able to vote there since 1840.

(6) J. Hector St. John de Crèvecoeur, Letters from an American Farmer and Sketches of Eighteenth-Century America (originally published 1782) AS@UVA Hypertexts, Letter 3, 54, http://xroads.virginia.edu/~HYPER/CREV/letter03.html. Post-industrial St. Johnsbury now figures as Vermont’s capital of heroin addiction.

(7) J. Hector St. John de Crèvecoeur, Letters from an American Farmer and Sketches of Eighteenth-Century America (originally published 1782) AS@UVA Hypertexts, 170. Letter 9, 223–25, 229, http://xroads.virginia.edu/~HYPER/CREV/letter09.html.

(8) Thomas Jefferson, Notes on the State of Virginia (originally published 1787), AS@UVA Hypertexts, Query 18, http://xroads.virginia.edu/~HYPER/JEFFERSON/ch18.html.

(9) Stanley R. Hauer, "Thomas Jefferson and the Anglo-Saxon Language," *PMLA* 98, No. 5 (October 1983): 879, 881.

(10) Thomas Jefferson, "A Summary View of the Rights of British America," July 1774 *The Papers of Thomas Jefferson*. Edited by Julian P. Boyd et al. Princeton: Princeton University Press, 1950—.1: 121—35. http://press-pubs.uchicago.edu/founders/documents/v1ch14s10.html.

(11) Dumas Malone, *The Sage of Monticello. Jefferson and His Time, Vol. 6.* Boston: Little, Brown: 1981: 202-203.

(12) [The tangled history of the two Saxon regions in Germany would have put Jefferson off, had he sought to trace a the relationship between Hengist and Horsa—who, according to Bede (ca.730) were Jutes—and the English and Americans of his own time. Until German unification under the Prussians, provincial borders changed with the marriages, wars, and alliances of practically every new generation of rulers.]

(13) Hengist ("Stallion") and Horsa ("Horse"), legendary founders of Saxon England, were said to have come from Jutland (now part of Denmark). According to Bede in his *Ecclesiastical History* (731), King Vortigern invited them from Jutland to England in 449 to help repulse attacks by the Picts and Scots. Vortigern gave them the Isle of Thanet in gratitude. The *Anglo-Saxon Chronicle* makes Hengist and Horsa joint kings of Kent.

(14) John Adams to Abigail Adams, Philadelphia 14 August 1776, in Charles Francis Adams, *Familiar Letters of John Adams and His Wife Abigail Adams, During the Revolution, with a Memoir of Mrs. Adams*. Boston: Houghton Mifflin, 1875: 210-211. See also Malone, *Sage of Monticello,* vol. 6: 202. For the other side of the seal, Jefferson suggested the children of Israel in the wilderness.

(15) Thomas Jefferson, *Essay on the Anglo-Saxon Language,* in Andrew A. Lipscomb, ed. Thomas Jefferson, *The Writings of Thomas Jefferson*. Washington, DC: Thomas Jefferson Memorial Association of the United States, 1903-1904. Vol. 18, 1904: 365-366.

(16) Hauer, "Thomas Jefferson and the Anglo-Saxon Language": 883–886, 891.

(17) This is a significantly revised version of an earlier article, see Mukhopadhyay 2008.

[There are many others, including the persistence of "color" linked terminology, such as *white* and *black*; the collapse of multiple, complex world of U.S. ethnicity/race/communities into the familiar dualistic, oppositional frame (white-others) even if it takes new forms (People of Color-White); the continuation of a race/ethnicity distinction, despite the tortuous and confusing definitions that result ; and the persistence of language inconsistent with what we know to be continuous, gradations of biological traits like skin color "darker" v. "dark," "lighter" v. "light" (aka "fair"!) skin.]

(18) See also Race Exhibit section, "The Invention of Whiteness."

(19) Eugenics sought to "improve" the human species, including through race-related breeding practices such as sterilizing women from "inferior" races and preventing "superior" race women from gaining access to contraception and other methods of birth reduction.

(20) Compare Methotrexate (MTX) Pathway Gene Polymorphisms and Their Effects on MTX Toxicity in Caucasian and African American Patients with Rheumatoid Arthritis. (J Rheumatol. 2008); Changes in Caucasian Eyes after Laser Peripheral Iridotomy: An Anterior Segment Optical Coherence Tomography. Clin Experiment Ophthalmol. 2010 Jun 21. (Epub ahead of print).

الفصل السادس

الفَصْل وعدم المساواة

ساهمت القوانين التي تنحاز إلى البِيض دون غيرهم في إيجاد مظاهر عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية التي نراها في الولايات المتحدة اليوم.

معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

في الفصل السابق، رأينا كيف استخدم المُشرِّعون وواضعو القوانين نفوذهم الهائل في إظهار الاختلاف العرقي؛ ذلك النفوذ الذي استُخدِم على مدى التاريخ في تعزيز الوحدة العرقية بين البِيض من خلال منحهم قدرةً أعلى على الوصول إلى الموارد السياسية والاقتصادية. وفي هذا الفصل الأخير من الجزء التاريخي، ندرس جوانبَ أخرى من هذه القصة، وهي العمليات العكسية التي استطاعت من خلالها القوانين الفيدرالية والقوانين الداخلية للولايات والمستعمرات حظر أو تقييد الوصول إلى موارد مُتساوية أمام الأشخاص ذوي الأصول غير الأوروبية. سوف نستعرض التفسيرات القانونية للعِرْق، ولا سيَّما العنصرية، فيما يتعلق بقضايا المواطَنة والحقوق المَدنية، ومِلكية الأراضي وحيازتها، وتنظيم التنوُّع البيولوجي والثقافي لدى البشر.

في هذا الفصل، لسنا بصدد التأكيد على الحركات الاجتماعية أو السياسية المُناهِضة للعنصرية، ولا بصدد مناقشة الهُويات العرقية التي جعلت العرق أكثر من مجرد محاولةٍ فاشلة لتصنيف الاختلاف بين البشر. هذا الإغفال المُتعمَّد لتلك الجوانب يُمثل حالةً مؤقتة، اعترافًا بأن «الأشخاص المُستهدَفين بالعنصرية لا «يصنعونها»، ولا تُكفَل لهم حرية «التفاوض» بشأنها، على الرغم من أنهم ربما يتصدَّون لها ولمُقترفيها ويُحاولون اجتياز العقبات التي تضعها في طريقهم. ... ليس ثمة جانبٌ اختياري وإيجابي للعنصرية بالنسبة لضحاياها، وهي لا تُولي أي اعتبار للسيمترية على الإطلاق» (فيلدز ٢٠٠١: ٤٨).

في الأجزاء التالية، وعلى مدار الكتاب ككلٍّ، سنتطرق إلى آراء مهمة من الآراء المخالِفة المناهِضة للعنصرية التي تكوِّن صورةً أكثر اكتمالًا للتكوينات العرقية وغيرها من التكوينات العنصرية الأخرى. أما الآن، فإننا نريد إلقاءَ الضوء على قوة العنصرية التي تقرُّها الدولة ونتائجها التاريخية. وينصبُّ تركيزنا الأول في هذا الصدد على التجارب الأساسية التي استطاعت بنجاحٍ وعلى وجوهٍ شتى تحديد الأشخاص الملوَّنين على أنهم عرضةٌ بموجب القانون للهجوم والانتقاد على أسسٍ عِرْقية. وتُواصل هذه التجارب — المتمثِّلة في العبودية، والحروب، والهجرة، وغيرها — تحديد العقبات المشتركة أمام تحقيق المساواة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في هذه المجتمعات والمسارات المختلفة نحو تحقيقها.

خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت فرجينيا هي أكثر المستعمرات الإنجليزية تأثيرًا في تحديد الملامح الاجتماعية والثقافية للمُستعمَرات البريطانية في أمريكا الشمالية. فبدءًا من ستينيات القرن السابع عشر، تضمَّن الدور القيادي لمستعمرة فرجينيا أنها كانت أول مستعمرة تضع نظامًا قانونيًّا للتحكم في العُمَّال المستعبَدين والسيطرة عليهم. وحتى ذلك الحين، لم يكن الوضع القانوني للأفريقيين الموجودين داخل المستعمرة واضحًا. يُقدِّم ألويسيس ليون هيجينبوثام (١٩٧٨) في كتابه «في مسألة اللون» وصفًا مُفصَّلًا لهذه العملية، التي بدأت بقوانينَ فرديةٍ غالبًا ما تُعالج قضايا محدَّدة مثل الفَصْل فيما إذا كان العبيد الأفراد يُصبحون أحرارًا عند تحوُّلهم إلى الديانة المسيحية (لم يُصبحوا كذلك وفقًا لقانون عام ١٦٦٧). وفي الفترة ما بين عامي ١٦٨٠ و١٦٨٢، وضع المُشرِّعون في فرجينيا أولى القوانين المهمة المختصة بشئون العبيد. إنَّ هذه القوانين الأكثر شموليةً:

> لم تُقرَّ فقط كلَّ أشكال التجريد التدريجي والتشريعي من الحقوق على مدى العشرين عامًا الماضية، لكنها قدَّمت أيضًا أشكالًا أخرى تضمَّنت عددًا من أكثر العادات والتقاليد صرامةً وحزمًا التي وُضِعت للسيطرة على العُمَّال المرتبطين بعقودٍ طويلة الأجل في المستعمَرة. وفي الوقت نفسه، كانت هذه القوانين حاسمة في تجريد العبيد من أي امتيازاتٍ أو حقوق مُستحَقَّة للعُمَّال البِيض المرتبطين بعقودٍ طويلة الأجل خلال الفترة نفسها.
>
> هيجينبوثام ١٩٧٨: ٣٨

اشترعَ قانونٌ وُضِعَ عام ١٧٠٥ بحزمٍ أن السود ليس لهم الحق في أيٍّ حماية بموجب القانون، كما عُنيت القوانين التالية التي وُضِعت حتى عام ١٧٩٢ بتحديد وضع العبيد وتوضيحه في مقابل وضع الخدم البِيض.

بالإضافة إلى ذلك، قيَّدت قوانينُ الرقيق فرصَ العمل، والانتقال، وغيرها من الحقوق أمام السود الأحرار، ودعت إلى توقيع مزيدٍ من العقوبات الصارمة على الأزواج المُنتمين إلى أعراقٍ مختلفة، لا سيَّما الذين يسعون إلى شرعنة زواجهم وجعله قانونيًّا. أقرَّت مُستعمَراتٌ وولاياتُ عبيدٍ أخرى قوانين الرقيق الخاصة بفرجينيا وعدَّلتها؛ الأمر الذي أضفى وحدةً قانونيةً ضمنية على أنظمة العبودية التي تختلف من منطقة لأخرى. بعد إقرار التعديل الثالث عشر للدستور الأمريكي عام ١٨٦٥، تغيَّر شكلُ العبودية القانونية إلى نظام المُزارَعة، وعبودية الديون، وتأجير السجناء، وغيرها من الاستراتيجيات التي تهدف إلى إحكام السيطرة على العُمَّال السود (جينز ١٩٨٦). واستمرت بعضُ هذه الممارسات حتى القرن العشرين، حيث تداخَلت مع فترة الفَصْل العنصري الذي أقرَّته قوانين جيم كرو والذي نناقشه على مدى هذا الفصل (بلاكمون ٢٠٠٨).

كشفت القوانين المتعلقة بالعبودية أحيانًا عن أوجه تشابُهٍ واختلاف في وضع الهنود الأمريكيين والأمريكيين الأفارقة. على سبيل المثال، كان قانونُ عام ١٦٦٧ المذكور آنفًا الذي صرَّح أن التعميد ليس بالطريق الملائم الذي يحصل من خلاله السودُ على حريتهم؛ يضم أيضًا الهنود الواقعين في أسر العبودية، وانتقصَ قانونان آخران وُضِعَا عام ١٦٨٢ من شأن كلتا المجموعتين بتصنيفهما ضمن «الزنوج والعبيد الآخرين». وبطبيعة الحال، عكست تصوُّراتُ البِيض المُستعمِرين للهنود «مشكلة» السيادة القَبَلية ومقاوَمة الهنود لاستعمار البيض واستيطانهم لأراضيهم. ومن هنا جاء الاستثناءُ الوحيد لقانونٍ وُضِعَ عام ١٦٣٩، يحظر على العبيد الأفارقة حملَ أسلحة إلا في حال الدفاع عن المُستعمَرة في مواجهة غارات الهنود وهجماتهم. في الواقع، جاء تمرُّدُ بيكون عام ١٦٧٦، الذي جَمَعَ العُمَّال معًا عبر التصنيف العنصري الناشئ الذي يضم السود والبِيض، مناهِضًا للهنود على نحوٍ صارم في مطالباته بتطبيق سياساتٍ أكثر عدوانية لتوطين هؤلاء العُمَّال وتخويلهم صلاحياتٍ أكبر للحصول على أراضي السكان الأصليين (هيجينبوثام ١٩٧٨، روديجر ٢٠٠٨).

بدءًا من القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر، تدهورت العلاقات بين المستعمَرات/الولايات المتحدة والشعوب الهندية المختلفة بمعدَّلٍ ثابت حيث حقَّق الجيش الأمريكي «المصير الحتمي» للمواطنين البِيض من خلال سلسلة من الحروب ونقض

المعاهدات (بوردن ١٩٧٠، ثورنتون ١٩٨٧). خلال هذه الفترة، انتشرت التوصيفات التي تُصوِّر الهنود على أنهم همجيُّون، وذاعت الرواياتُ التي تحكي عن أَسْر الهنود، كتبريرٍ لما قام به البيض من نزع ملكية أراضيهم وإجبارهم على استيطان محمياتٍ مُمتدة من الشمال الشرقي إلى فلوريدا، ومن أدنى الغرب إلى أقصاه. أثارت هذه التوصيفاتُ التساؤلات حول ما إذا كان سيتأتى لكلا العرقَين التعايشُ معًا في سلامٍ أم لا. اتسمَ الأمريكيون البِيض بالتردُّد في تقييماتهم، وهو ما يعدُّ انعكاسًا لِفكَرهم المختلطة غالبًا بشأن الدُّونية العنصرية في مقابل الدُّونية الثقافية للهنود. كما يشير روديجر قائلًا:

> «ملحدون»، و«بربريون»، و«همجيون» — كلماتٌ استُخدِمَت بأساليب ودرجاتٍ مختلفة للإشارة إلى ضحايا الاستعمار الحديث في حقول التجارب الأيرلندية وفي أمريكا الشمالية — لا تتضمَّن أيَّ إشارة مباشرة إلى علم الأحياء، السمة المميِّزة لُمعتقَد تفوُّق العرق الأبيض خلال القرن التاسع عشر، ولا تتضمن أيضًا أي إشارة إلى لون البشرة. بدلًا من ذلك، انبثقت هذه الآراء التعميمية الشاملة عن مناقشات المستعمِرين بشأن عدم اعتناق السكان الأصليين للمسيحية وغياب ما أسماه المُستعمِرون مُمارسة الإنتاج الزراعي المستقر (٢٠٠٨: ١٨).

بعبارةٍ أخرى، كانت الثقافة — وليس العرق — هي المتَّهم الأساسي في إظهار الهنود الأمريكيين بمظهر غير المُستحقِّين أساسًا لأراضيهم أو لتقرير مصيرهم. ومن وجهة نظر بعض المفكرين الرومانسيين الذين يعود تاريخهم إلى القرن السادس عشر، فإن الممارسات الثقافية «التقليدية» أو «البدائية» لهؤلاء «الهمجيِّين النبلاء» قد أعادت إلى الأذهان فترةً سابقة من العلاقات الإنسانية اتَّسمت بقدرٍ أكبر من الانفتاح والصدق، بل وكانت مضاهيةً على نحوٍ إيجابي في كثير من النواحي للمُمارسات الثقافية لُمجتمعات البيض «المُتحضِّرة» (باترسون ١٩٩٧). ومع ذلك، منذ القرن الثامن عشر، خالفَ كثيرٌ من الأمريكيين البِيض هذا المنطق؛ إذ اعتقدوا في إمكانية «الارتقاء» بالهنود من خلال التثقيف (الأنجلوأمريكي) الملائم، وهي إمكانيةٌ رحَّب بها توماس جفرسون على عكس فِكَره بشأن دُونية السود المتأصِّلة فيهم بالفطرة والتي لا يُمكن إصلاحها. في الواقع، رأى البعضُ أن إنقاذ الهنود من الثقافة الهندية كان بمنزلة التزام وواجبٍ مسيحي؛ ومن ثَمَّ كان الوضعُ — رغم سوْداويَّته — يُمكن الخلاص منه. ويَكمن الحل في قدرة الهنود على

الاقتداء بالنماذج الثقافية الموضوعة من قِبَل البِيض فيما يخصُّ قضايا الدين، والمعيشة، واللغة، وغيرها. والأمران سيَّان إن كانوا يَرغبون في القيام بذلك أم لا.

ومن غير المُستغرَب أن فكرة الارتقاء بالهنود لاقت تأييدًا ورواجًا أكبر خلال القرن التاسع عشر؛ حيث حقَّقت الولايات المتحدة الهيمنة العسكرية والسياسية على أراضي الأمريكيِّين الأصليين. وانتهت ممارسة الاعتراف بالقبائل الهندية على أنها أممٌ مُستقلة ذات سيادة عام ١٨٧١ عندما وافق الكونجرس على قانون الاستيلاء على مخصَّصات الهنود وأموالهم. على المستوى المحلي، حكمت الولاياتُ المتحدة الشعوبَ الهندية من خلال وكلاء مكتب الشئون الهندية، الذي تأسَّس عام ١٨٢٤ ليكون أقدم مكتب تابع لوزارة الداخلية الأمريكية. لخَّصَ عالِم الأنثروبولوجيا ومؤسِّس جمعية أودوبون الوطنية، جورج بيرد جرينيل، الموقف عام ١٨٩٩عندما كتبَ أنَّ «للوكيل الهندي السلطة المطلقة في تنظيم الشئون في محميته ... وهذه السلطة تفوق في حدودها المطلقة أي شيءٍ آخر نعرفه في هذه الدولة. المحاكم منوطة بحماية المُواطنين، بيد أن الهنود ليسوا مواطنين، وليس ثمة ما يَحميهم. وللكونجرس وحده سلطة تنظيم الآلية التي يعيشون بها ومكان ذلك.» ما الذي كان يعنيه ذلك بالضبط للهنود الأمريكيِّين؟

لسوء الحظ، تُرجِمَ إيمانُ الأمريكيين القوي بإمكاناتهم الكامنة فيما يخصُّ «الحضارة والتمدُّن» إلى برنامجٍ تشريعي للإبادة الثقافية للهنود الأمريكيين الذين صمدوا أمام عمليات القتل التي استهدفت شعوبهم خلال الحروب (ثورنتون ١٩٨٧). وبدءًا من أواخر القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، طبَّق مكتبُ الشئون الهندية سلسلةً من السياسات الموضوعة بهدف إجبار الهنود على الاندماج في «الثقافة الأنجلوأمريكية»، وذلك على سبيل المثال، من خلال نقل الأطفال الهنود من محمياتهم إلى مدارسَ داخلية حيث يتلقَّون تعليمهم على أيدي مدرِّسين بِيض. وكان الهدفُ الأساسي من هذه السياسات — وهي إجراءاتٌ كانت تهدف ظاهريًّا إلى تعزيز رفاهية الهنود — هو الطمسُ الشامل للمُمارسات الهندية الثقافية. وبدءًا من ثلاثينيات القرن العشرين، غيَّر المُشرِّعون هذا النهج رأسًا على عقب ووضعوا سياساتٍ فيدراليةً جديدة تهدف إلى الحفاظ على الثقافات الهندية. عكَسَ هذا التغيير تحوُّل علماء الأنثروبولوجيا عن نموذج «التطوُّر الثقافي» والتصنيف الثقافي. وفقًا لعالِم الأنثروبولوجيا لي بيكر (٢٠١٠)، فإن المفاهيم الجوهرية لعلماء الأعراق البشرية عن الثقافة — والتي تمَّ صقلها بصفةٍ أساسية من خلال بناء «الشخصية الهندية» — كان من شأنها أن تُشكِّل الأساسَ لمفهوم عِرْقٍ ناشئ طُبِّقَ فيما بعدُ في الدراسات الأنثروبولوجية للأمريكيِّين ذوي الأصول الأفريقية.

على مدار القرن التاسع عشر، أدى التوسُّع العدواني صوب الغرب من خلال الحروب والاستيلاء على الأراضي، والهجرة المُتزايدة لغير الأوروبيين، إلى زيادة حجم الدولة وسكانها بدرجةٍ كبيرة؛ حيث ازداد العدد بمعدل ستة أضعافٍ من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٦٠ فقط. وحسب ما أقرَّه واضعو القوانين الأمريكية وغيرهم، من زعماء العصر، فقد تمخَّضت عن هذا النمو نطاقاتٌ وتحدِّياتٌ عِرْقيةٌ جديدة تجاوزت، وإنِ ارتبطت أيضًا بالمشكلات التي أحدثها الشعبان «الأسود» و«الأحمر». ولنأخذْ مثالًا على ذلك حالة تكساس، التي كانت تحت حُكم المكسيك ملاذًا للهاربين. لم تكن حقيقة أن تكساس ومعظم الأراضي المكسيكية الأخرى آهلةً بالسكان أمرًا ذا أهميةٍ بالنسبة إلى المُستوطنين الأمريكيين الذين ظنوا أنهم أقدر من الهنود الأمريكيين أو المكسيكيين الكاثوليك المتحدِّثين بالإسبانية على حُكم هذه الأراضي. اصطدم المستوطنون مع الحكومة المكسيكية بشأن محاولات الولايات المتحدة في الضم العسكري للأراضي، والتعريفات الجمركية، والعبودية (التي حظرتها المكسيك قانونًا عام ١٨٢٩ لكنها مُورِسَت بموجب قانونٍ إقليمي يجيز «العمالة الدائمة بعقود طويلة الأجل») (مشروع التاريخ الاجتماعي الأمريكي ١٩٨٩). أسفرت سنواتُ الصراع والعدوان عن اندلاع حالة من التمرُّد عام ١٨٣٥، وفي العام التالي لذلك أسَّس المستوطنون المنتصِرون جمهورية تكساس المستقلة المالِكة للرقيق. وضمَّت الولاياتُ المتحدة تكساسَ كدولة رقيق تُجيز العبودية عام ١٨٤٥.

تصاعدت حدَّة التوتُّرات بين الولايات المتحدة والمكسيك خلال ما يقرب من عشر سنوات، وهي الفترة التي استغرقتها تكساس حتى تحصل على حقِّ دخول الاتحاد (بسبب المقاومة التي لاقتها في الشمال نظير ما قامت به من توسيعٍ لنطاق «سُلطة العبيد» في الجنوب داخل مجلس الشيوخ). وبعد محاولتَين فاشلتين لشراء نيو مكسيكو وكاليفورنيا من الحكومة المكسيكية، بدأت الولايات المتحدة الحرب المكسيكية الأمريكية (١٨٤٦–١٨٤٨)، التي انتهت بمعاهدة سلام تم بمقتضاها نقل ملكية أراضي كلٍّ من نيو مكسيكو وكاليفورنيا إلى الولايات المتحدة وتوسيع حدود تكساس ناحية الجنوب. وإجمالًا، طالبت الولايات المتَّحدة بنصف الأراضي الوطنية بالمكسيك — حوالي ١٫٢ مليون ميل مربع من الأراضي — وما يقرب من ٨٠ ألف نسمة من السكان الناطقين بالإسبانية، وكان معظمهم من أصولٍ إسبانية ومن الهنود الأمريكيِّين الذين اضطلعوا بالأعمال الشاقة المُنخفِضة الأجور اللازمة لتحقيق أرباحٍ من الزراعة، وتربية المواشي، والتعدين، والصناعة (مشروع التاريخ الاجتماعي الأمريكي ١٩٨٩). بعد مرور نصف قرن، لعبَ مجددًا الاشتباكُ

العسكري الأمريكي دورًا مهمًّا في زيادة الوجود اللاتيني بالدولة. وفي عام ١٨٩٨، أضافت الولايات المتحدة إلى جُملة سكانها السكانَ الأصليين لإقليم بورتوريكو وجزر الكاريبي الأخرى (مثل سكان كوبا وجمهورية الدومينيكان) نتيجةً للحرب الإسبانية الأمريكية.

كانت هذه الفترة نفسها فترةَ صراعٍ وعنف عُنصريَّين قويَّين في كاليفورنيا، ارتبطا باكتشاف الذهب على يد النجَّار جيمس مارشال عام ١٨٤٨ في مصنع للأخشاب على النهر الأمريكي. أدَّى اكتشافُ مارشال إلى اندلاع حمَّى الذهب في كاليفورنيا، التي ساعدت في دعم الاقتصاد الوطني، وجَلبت مئات الآلاف من مُنقِّبي الذهب إلى الولاية، وكان من بينهم مُهاجرون من كل أنحاء العالم. أدَّى هذا النمو السكاني الهائل في نهاية الأمر إلى تجريد الأرض من مصادر الغذاء الطبيعي التي يعتمد عليها هنودُ كاليفورنيا. عندما شرع الهنودُ في شنِّ غاراتٍ وهجماتٍ على مدن التعدين ومُستوطَنات البِيض بغرض الحصول على الغذاء، ردَّ المجلس التشريعي لكاليفورنيا بسَنِّ قانون التعاقد الطويل الأجل لعام ١٨٥٠، وهي تسميةٌ مُضلِّلة لا تعبر عن فحوى القانون. في الواقع، أجاز هذا القانون الاستعباد الفعلي للشعوب الهندية على أيدي المُستوطِنين البِيض، وهي ممارسةٌ باتت شائعة وتضمَّنت خطفَ الأطفال الهنود وبيعهم. وفي عام ١٨٥٣، شرع المستوطنون في احتجاز السكان الهنود المتبقِّين في مراكز احتجازٍ عسكرية. بلغ عدد الهنود الذين عاشوا في كاليفورنيا قبل عام ١٨٤٩ نحو ١٥٠ ألف نسمة، وبحلول عام ١٨٧٠، لم يبقَ منهم سوى أقل من ٣٠ ألف نسمة.

كان من بين مُنقِّبي الذهب الكثيرين عشراتُ الآلاف من العُمَّال المهاجرين الصينيين الذين قُوبِلوا بإجحافٍ شديد وواسعِ النطاق في سان فرانسيسكو ومناطق أخرى. بعضُ عُمَّال المناجم الصينيين لم يُسمَح لهم، على سبيل المثال، بسوى العمل في المواقع التي هجَرها عُمَّال المناجم البِيض وانصرفوا عنها. نما شعورٌ عدائي تجاه الصينيين على مدى العقود التالية لذلك، أشعل فتيلَه الاعتقادُ بأن العُمَّال الصينيين ينتزعون الوظائف من البِيض؛ مما أدى إلى محاولات تجمهُر عنيفة لإخلاء المدن الغربية من أي وجودٍ صيني. كما أشرنا في الفصل الرابع، استُوحيَت توصيفاتُ التهديد السياسي الآسيوي أو «الخطر الأصفر» من التصريحات العلمية والطبية عن «الأمراض الصينية المُعدِية»، ومن تهديدِ الصحة البدنية والعقلية للأمريكيين الذي يفرضه مجرد وجود العُمَّال الصينيين. في النهاية، أصدر الكونجرس قانون إقصاء الصينيين لعام ١٨٨٢، الذي يحظر هجرة المزيد من العُمَّال الصينيين، ويَحظر كذلك منحَ الجنسية للمُهاجرين الصينيين المقيمين

في الولايات المتحدة، لمدة عشر سنوات. وبعد ذلك بعامَين، وسَّع الكونجرس نطاق القانون ليشمل الحظرُ كلَّ المهاجرين الصينيين. استمرت موجة العنف الواسعة النطاق ضد الصينيين حتى أوائل القرن العشرين، بما في ذلك عملياتُ الإعدام من غير محاكمة التي نفَّذتها جماعاتٌ أهلية على غرار تلك العمليات التي ارتُكِبَت أساسًا ضد السود في الجنوب (وكذلك ضد الأمريكيِّين ذوي الأصول الإيطالية واليهود).

ومن ثمَّ، على الرغم من أن الجدل والنقاش الجاري يتمركز عمومًا حول السكان ذوي الأصول اللاتينية، لاقى المهاجرون الآسيويون منذ قرنٍ مضى قدرًا كبيرًا من الاهتمام المُتزايد من جانب المُشرِّعين الأمريكيين. يستخدم المؤرِّخون وخبراء القانون بانتظام القضيتَين التاليتَين من قضايا المحكمة العليا للولايات المتحدة لبيان عدم الجدوى والخطورة المتأصلتَين في مُطالبات الآسيويين للحصول على الجنسية. في أكتوبر ١٩٢٢، تقدَّم رجلُ الأعمال الياباني تاكاو أوزاوا بطلبٍ للحصول على الجنسية الأمريكية بموجب قانون منح الجنسية الصادر عام ١٩٠٦، الذي قَصَرَ أحقية الحصول على الجنسية على الأشخاص البِيض والأشخاص أفريقيِّي المولد أو ذوي الأصول الأفريقية. لم يتحدَّ أوزاوا الشروط العرقية للقانون، لكنه فنَّد حدود الفئة العرقية البيضاء. رأى أن الأشخاص المُنحدِرين من أصولٍ يابانية ينبغي أن يُصنَّفوا على أنهم من البِيض؛ ومن ثمَّ يكونون مؤهَّلين لأن يُصبحوا مواطنين حاصلين على الجنسية ومتمتِّعين بكل حقوق المواطن الطبيعية. لم تُتوَّج قضيته بالنجاح، بدلًا من ذلك، أصدر القاضي المشارِك جورج سادرلاند قرارًا قضائيًّا بإجماع الآراء بأن اليابانيين لا يُنظَر إليهم عمومًا على أنهم «قوقازيون»؛ ومن ثمَّ فإنهم ليسوا من البِيض. وبالأحرى، فإن اليابانيين بوصفهم يُمثلون «عِرقًا غير قابل للاندماج» لا يشملهم أيُّ قانون متعلِّق بمنح الجنسية أو التجنُّس. بعد مرور عقدَين، خلال الحرب العالمية الثانية، أُجبِرَ ١٢٠ ألف شخص يَنحدرون من أصولٍ يابانية على دخول «مراكز الترحيل الحربية» أو معسكرات الاعتقال بموجب الأمر التنفيذي رقم ٩٠٦٦ الصادر عن الرئيس فرانكلين روزفلت، وكان معظمهم مواطنين أمريكيين.

بعد مرور ثلاثة أشهر على قضية أوزاوا ضد الولايات المتحدة، أصدر القاضي المشارِك سادرلاند حُكمًا في قضية الولايات المتحدة ضد بهجت سينغ ثيند. في هذه القضية، سعى ثيند — وهو مواطنٌ هندي مولودٌ في الهند — إلى الحصول على الجنسية الأمريكية استنادًا إلى التصنيف الأنثروبولوجي المعاصر للهنود المُنحدِرين من جنوب آسيا على أنهم «قوقازيون». لكنه لم يَربح القضية أيضًا؛ حيث رفضت المحكمة حُجته على أساس أن هذا

التضمين في العرق القوقازي كان بمنزلة «تلاعب بالحقائق العلمية» ولا يتفق مع «فهم الإنسان العادي» (هاني لوبيز ١٩٩٦). وهكذا، صنَّف قرارُ ثيند الهنودَ المنحدرين من جنوب آسيا على أنهم «آسيويون» لأول مرة. ولم يكن هذا ضربة موجَّهة ضد المهاجرين الساعين إلى الحصول على الجنسية فحسب، وإنما أيضًا ضد الهنود الآسيويين الذين حصلوا على الجنسية من قبلُ، والذين وَجدَ الكثيرُ منهم أن وضعهم كمُواطنين قد أُسقِطَ وصار مُلغًى. بمجرد تجريد الهنود الآسيويين من حقوق المواطنة، صاروا خاضعين لقانون تملُّك الأجانب لأراضي كاليفورنيا، الذي يحظر على الأجانب غير المستحقِّين للمواطنة تملُّك الأراضي الزراعية، وغيره من الإجراءات القانونية التي استهدفت تجريد المهاجرين من حقوقهم. وبإنشاء «المنطقة المحظورة للآسيويين» عام ١٩١٧ التي حالت دون وصول أيِّ هجرةٍ إضافية من آسيا لدعم مجتمعاتها، غادر معظمُ الهنود الآسيويين البلاد حتى إن عدد السكان الهنود الآسيويين انخفضَ بحلول عام ١٩٤٠ بمعدل النصف، ليُصبح ٢٤٠٥ نسمة. قَصَرَ الكونجرس — منذ مباحثاته الأولى لموضوع المواطنة عام ١٧٩٠ وحتى عام ١٩٥٢ — منحَ الجنسية على «الأشخاص البِيض»، ولم يهتم بإزالة القيود العرقية على الهجرة بدرجةٍ كبيرة حتى عام ١٩٦٥ (هاني لوبيز ١٩٩٦). تمثِّل بنودُ الإقصاء على أسسٍ عِرْقية سمةً مميَّزة في قوانين الهجرة الفيدرالية، ولا تتغيَّر سوى الفئات المستهدفة (ناي ٢٠٠٤).

يُحيلنا هذا إلى مُنتصف القرن العشرين وإلى التحدي الخاص بتفسير مفهوم العدالة العرقية منذ أن أصدرت المحكمة العليا للولايات المتحدة حُكمها في قضية براون ضد مجلس التعليم في توبيكا عام ١٩٥٤. من المعروف أن القرار الصادر في قضية براون أسقط المبدأ القائل بتوفير مرافق للسود «مُنفصلة لكنها متكافئة»، والذي أرست دعائمه قضيةُ بليسي ضد فرجسون عام ١٨٩٦ (راجِع المخطط الزمني في هذا الفصل)، وأجازَ قانونيًّا الدمج العنصري في كل المدارس العامة في الولايات المتحدة. ولا شك أننا شهدنا منذ ذلك الحين كثيرًا من التطوُّرات السياسية والاجتماعية والثقافية الهائلة التي تُشير إلى أن المجتمع الأمريكي يتحوَّل إلى مجتمع شامل على نحوٍ مُتزايد.

يرى كثيرون أن أفرادًا مثل باراك أوباما وسونيا سوتومايور يتبادَرون إلى الذهن على الفور عند التطرُّق إلى هذا الأمر، ولديهم كلُّ الحق في ذلك. يُمثِّل كلٌّ من باراك أوباما بوصفه أول رئيس أمريكي من أصولٍ أفريقية، وسوتومايور بوصفها أول قاضية من أصلٍ لاتيني تُعيَّن في المحكمة العُليا؛ تغييرًا اجتماعيًّا لم تكن لتتصوَّره غالبًا الأجيالُ

السابقة. فإنجازاتهما تتَّسم بأنها ذات أهمية وتعكس التغيُّرات الثقافية والديموغرافية الأساسية التي تعكس تصوُّراتنا ومفاهيمنا العرقية بشأن التنوع، بل وتُوسِّع نطاقها. وعلى نحوٍ مماثل، تجدر الإشارة إلى الزيادة التي حدثت في أعداد الأمريكيين المنتمين إلى أعراقٍ متعدِّدة، والتي تُمثِّل الاتجاهَ المتصاعد لحالات الزواج بين الأعراق المصحوب بتغيُّراتٍ في طرق جمع بيانات التعداد الأمريكي (انظر الفصل الثالث عشر). لا شك أنَّ تكوُّن أمريكا من أعراقٍ متعددة ليس بالأمر الجديد. وكما يشير بينتر (٢٠١٠: ٣٨٥)، «لطالما طغت عاداتُ الأمريكيين الجنسية المُخالِفة للقانون على الخطوط الدقيقة الفاصلة بين الأعراق، ودفعت بالمفكِّرين المهتمين بالعرق إلى حافة الجنون.» ومع ذلك، فإنَّ الهيمنة الحالية للأمريكيين تُضعِف على نحوٍ سافر مكانة التصنيفات البيولوجية العرقية وتهدم أساطير النقاء العرقي، مهما كانت محدَّدة، وتدفعنا دفعًا إلى إعادة التقييم النقدي للحقائق الاجتماعية المختلفة بشأن العرق والعنصرية (انظر الفصل الثالث عشر).

إذن، في ضوء هذا التطوُّر المؤكَّد، أين نحن كدولة من قضايا المساواة الاجتماعية العرقية؟

- تُقرُّ الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة من الناحية النظرية بالسيادة القَبَلية للهنود الأمريكيِّين. بيد أنَّه من الناحية العملية يتعيَّن على كثير من القبائل أن تكون بمنزلة كياناتِ ضغط ذات مصالحَ خاصة؛ إذ يتعيَّن عليها توفير المخصَّصات الفيدرالية السنوية اللازمة للخدمات التعليمية والصحية وغيرها، بمجرد فحصها من قِبل مكتب الشئون الهندية. ماذا عسانا أن نفعل بنموذج السيادة القائم على وجود «أمم داخل أمة» من منظور العدالة العرقية؟ ما البدائل الموجودة؟
- كما أشرنا أعلاه، يتمركز الجدل الراهن فيما يتعلَّق بسياسة الهجرة ومنح الجنسية حول السكان ذوي الأصول اللاتينية بصفةٍ عامة. ولسوء الحظ، كثيرًا ما يتضمَّن الخطابُ المتعلِّق بهذه المسألة افتراءاتٍ في حق المواطنين غير الأمريكيين ويُشوِّش الوضعَ القانوني لمواطنة المهاجرين وأطفالهم، وكذلك للوافدين من أراضٍ أمريكية مثل بورتوريكو. ألم يكن من المُمكن لهذا الجدل أن يكون بنَّاءً على نحوٍ أكبر لولا استخدام التعبير المجازي «الأجانب غير الشرعيين» الذي يميل إلى أن يجعل السكان ذوي الأصول اللاتينية عِرْقًا متجانسًا وينتقص قدرهم من الناحية العرقية على غرار ما يحدث من حيث اللغة واللون؟

- مع احتدام المنافسة الاقتصادية العالمية بين الولايات المتحدة ودول مثل الصين والهند، هل يجدر بنا أن نخشى عودة «الخطر الأصفر» أو غيره من التعبيرات البلاغية المُعادية للمهاجرين أو الدالة على كراهية الأجانب، على غرار التعبيرات البلاغية التي تستهدف الأمريكيين ذوي الأصول العربية خلال «الحرب على الإرهاب»؟
- يرى بعضُ الباحثين أن العرقَين الأبيض والأسود لا يزالان يمثِّلان للبعض طرفَي نقيض في طيف الاحتمالات العنصرية والعرقية المتعدِّدة. وبذلك، فإن محاباة البِيض والانتقاص من شأن السود (أو الاستيلاء الاستراتيجي على مخصَّصاتهم) يُحدَّان من الآفاق المستقبلية التي تأمل في وجود مجتمعٍ أمريكيٍّ متكامل تمامًا. فهل هم محقُّون في ذلك، وإن كانوا كذلك، فكيف لنا أن ننقض الالتزامَ الأيديولوجي بهذا النهج الشديد الرسوخ بشأن العنصرية؟

من الواضح أننا حقَّقنا إنجازاتٍ هائلةً على صعيد العدالة العرقية. بيد أننا نحذِّر من الاعتقاد بأن الولايات المتَّحدة مُجتمعٌ تسود فيه المساواة العرقية أو أنه سيصير يومًا كذلك دون اليقظة والعمل المُستمرَّين. وكما رأينا، فإنَّ المساواة الاجتماعية العرقية عمليةٌ ديناميكية وهدفٌ مراوغ. ودون وجود خارطة طريق واضحة، لن تسير الجهودُ الساعية نحو تحقيق المساواة في مسارٍ خطِّي، ولن تَمضي قدمًا دون عوائق. في الواقع، إن التقدُّم الذي نلاحظه ونحتفي به حاليًّا جاءَ مُتقطِّعًا، وعلى الرغم من التخلي عن العدالة أكثر من مرة، فإنه يُمثل تضحيةً كبرى ونضالًا سياسيًّا من جانب الشعوب الملوَّنة وحلفائهم البِيض. ونعلمُ أن التحدياتَ الكبرى لا تزال موجودة في شكل المعتقدات السائدة المخالِفة للمنطق بشأن الاختلاف العرقي ومظاهر عدم المساواة المنهجية في الصحة، والثروة، والفرصة التعليمية. سندرس هذه التحديات في الجزء الثالث.

المخطط الزمني للفَصْل وعدم المساواة (١٦٥٠–٢٠٠٠)

أوائل القرن السابع عشر تقنين العبودية: على مدى عقودٍ قليلة، سنَّت المستعمَرات الأمريكية لإنجلترا مجموعةً متنوعة من القوانين التي تُجيز استعباد الأفارقة. وبحلول أوائل القرن الثامن عشر، أصبحت العبودية مؤسسةً قائمة.

١٧٧٦ إعلانُ الاستقلال: دافعَ إعلانُ الاستقلال — بيان القيم الرئيسي الصادر عن الثورة الأمريكية — عن الحرية والمساواة، لكنه لم يُنادِ بإنهاء العبودية.



TO BE SOLD, on board the Ship *Bance-Yland*, on tuesday the 6th of *May* next, at *Ashley-Ferry*; a choice cargo of about 250 fine healthy

NEGROES,

just arrived from the Windward & Rice Coast. —The utmost care has already been taken, and shall be continued, to keep them free from the least danger of being infected with the SMALL-POX, no boat having been on board, and all other communication with people from *Charles-Town* prevented.

Austin, Laurens, & Appleby.

N. B. Full one Half of the above Negroes have had the SMALL-POX in their own Country.

شكل ٦-١: إعلانٌ عن مزادٍ علني لبيع الرقيق (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

أواخر القرن الثامن عشر–منتصف القرن التاسع عشر أنفاق السكك الحديدية: ساعدت شبكةٌ من السود والبِيض الطُّلقاء العبيدَ الهاربين في الوصول إلى كندا ومناطق آمنة في ولايات الأحرار. وكان أشهرُ «مُنفِّذي» أنفاق السكك الحديدية هي هارييت توبمان، التي كانت هي نفسها ضمن العبيد سابقًا.

١٧٩٠ قانون منح الجنسية: أصدر الكونجرس قانونًا ينصُّ على أن «البِيض الأحرار» وحدهم هم مَن يجوز لهم أن يُصبحوا مواطنين أمريكيين.



شكل ٦-٢: هارييت توبمان (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

استطاع المهاجرون من الذكور البِيض التصويتَ غالبًا منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها أقدامهم أراضي أمريكا، بينما لم يتسنَّ ذلك للسود الذين عاشَ أسلافهم في هذه البلاد لقرونٍ طويلة.

المؤرِّخ إريك فونر، جامعة كولومبيا، معرض العرق،
متحف مينيسوتا للعلوم

١٨٠٣ شراء لويزيانا: تضاعفَ حجم الولايات المتحدة؛ حيث توسَّعت حدودها الغربية لتشمل جبال روكي. وفي النهاية، أثبتَ طوفان المستوطنات البيضاء باتجاه الغرب أنه كان ذا أثرٍ مدمِّر على القبائل الهندية؛ حيث خَسِرَ الهنودُ الأراضي التي كانوا يقطنون فيها على مدى أجيالٍ متعاقبة.

١٨٣٠ قانون إجلاء الهنود: الكونجرس يجبر قبائل تشرنوكي، وكريك، وتشوكتو، وتشيكاسو، وسيمينول على مغادرة أراضيهم شرقي نهر الميسيسيبي والانتقال إلى منطقة السهول العظمى. احتلَّ المستوطنون البِيض هذه الأراضي بعد إجلاء الهنود عنها.

منتصف القرن التاسع عشر قوانين الإقصاء: سلسلةٌ من القوانين تمنع السود الأحرار من دخول الولايات التي تعتبر فيها العبودية إجراءً غير مشروع. على عكس البِيض، لم يستطع السود الأحرار الاستفادة من الفرص الاقتصادية الموجودة في هذه المناطق.

١٨٤٨ غنائم الحرب الأمريكية المكسيكية: طالبت معاهدةُ جوادالوبي هيدالجو، التي أنهت الحربَ الأمريكية المكسيكية، المكسيكَ بالتخلي عمَّا يَقرب من نصف أراضيها، بما في ذلك المنطقة المعروفة حاليًّا باسم كاليفورنيا، ونيفادا، وأريزونا، ويوتا، ونيو مكسيكو، وتكساس، وأجزاءٌ من كولورادو. وفي المقابل، دفعت الولايات المتحدة إلى المكسيك مبلغ ١٥ مليون دولار أمريكي للتعويض عن هذه الأراضي التي خسرتها.

لو كان بوسع هؤلاء المكسيكيِّين أن يطَّلعوا على ما يعتمل في صدري في هذه اللحظة، لعَرَفوا مدى الخزي الذي أشعرُ به كأمريكي ... وعلى الرغم من أنه لم يكن في استطاعتي البوح بذلك وقتها، فقد كان هذا أمرًا يستوجب الشعور بالخزي بالنسبة لكل أمريكي ذي آراءٍ ومبادئَ قويمة، وقد شعرت بخجلٍ شديد منه في أعماق قلبي.

تريست إن دي



شكل ٦-٣: دريد سكوت (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

١٨٥٤ «قضية سكان كاليفورنيا ضد هول»: قضت المحكمة العليا لولاية كاليفورنيا بأن شهادة رجلٍ صيني بوصفه شاهِد عيان على جريمة قتل اقترفها رجلٌ أبيض غير جائزة قانونًا وغير جديرة بالقَبول في المحكمة.

إنَّ الحُكم الذي سيَسمح لهم بالإدلاء بشهادتهم هو نفسه الذي سيكون من شأنه السماح لهم بكلِّ حقوق المواطنة المتساوية، وربما نراهم قريبًا عند صناديق الاقتراع، وفي مقصورة المحلفين، وفي منصة القضاة، وفي مجالسنا التشريعية.

رئيس المحكمة العليا لولاية كاليفورنيا القاضي
هيو كامبل موراي، رأي الأغلبية، ١٨٥٤؛
معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

١٨٥٧ قضية سكوت ضد ساندفورد: أقام دريد سكوت، وهو عَبدٌ هارب، دعوى للمطالبة بنَيل حريته بحُجة أنه كان يعيش في منطقة لم تكن العبودية فيها مشروعة. إلا أن المحكمة العليا للولايات المتحدة أصدرت حُكمًا ضده، مؤكِّدةً على أنَّ السود ليست لهم أيُّ حقوق كمواطنين أمريكيين؛ ومن ثمَّ لا شأنَ ولا صفة لهم أمام المحكمة.

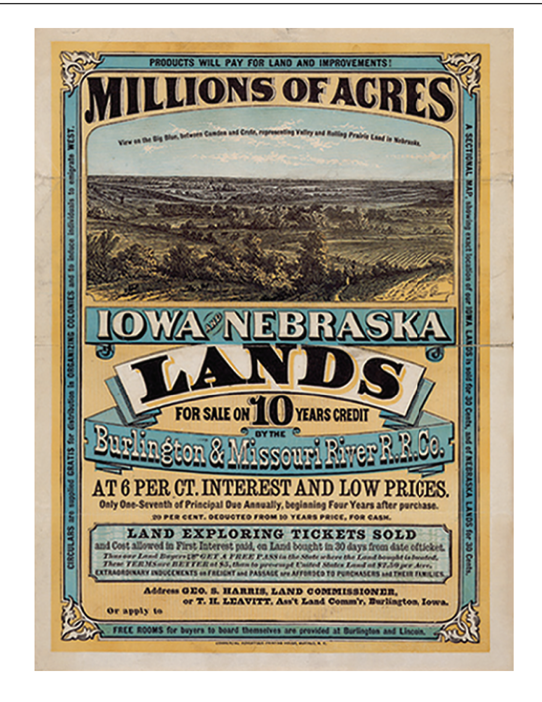
نعتقد أنهم [السود] لا يدخلون تحت مظلة كلمة «مواطنون» الواردة في الدستور، ولم يكن مرادًا لهم أن يدخلوا يومًا تحت مظلَّتها، وبالتالي فإنهم لا يحق لهم أن يُطالبوا بأيِّ حقوق أو مميزات تُمنح بموجب تلك الوثيقة.

رئيس المحكمة العليا روجر بي تاني،
رأي الأغلبية، ١٨٥٧؛ معرض العرق،
متحف مينيسوتا للعلوم

١٨٦١–١٨٦٥ الحرب الأهلية: كان من بين أسباب اندلاع الحرب الأهلية اعتقادٌ في الجنوب بأن الولايات — وليس الحكومة الفيدرالية — لها الحقُّ في وضع القوانين الخاصة بها بشأن أمورٍ مثل العبودية.

١٨٦٢ قانون إتاحة الأراضي العامة للاستخدام الزراعي: دفع قانونُ إتاحة الأراضي العامة للاستخدام الزراعي، الذي منح المستوطنين قِطَعًا من الأراضي العامة بمساحة ١٦٠ فدانًا، آلافَ الأمريكيين البِيض إلى الاستيلاء على أراضي الهنود في منطقة الغرب الأوسط.

١٨٦٥ إنهاء العبودية: تمَّ التصديقُ رسميًّا على التعديل الثالث عشر للدستور الأمريكي، الذي حرَّمَ العبودية والتسخير الجبري (العمل بالسُّخرة) «إلا إذا كان عقوبة للمرء جراء جريمة أُدينَ بها رسميًّا وحسب الأصول القانونية.»



شكل ٦-٤: خلال منتصف القرن التاسع عشر، شجَّعت إعلاناتٌ كهذا الإعلان الهجرة ناحية الغرب (بتصريحٍ من مكتبة الكونجرس، إحدى مجموعات أمريكان تايم كابسول: ثلاثة قرونٍ من الإعلانات الواسعة النطاق ومطبوعاتٍ عابِرة أخرى، مختاراتٌ من مشروع «الذاكرة الأمريكية»).

١٨٦٦ قانون الحقوق المدنية: تمَّ منحُ الجنسية إلى كل الأشخاص المولودين في الولايات المتحدة، دون النظر إلى العرق، أو اللون، أو الوضع السابق. ونظرًا لأن القانون كان يستهدف أساسًا الأمريكيين الأفارقة، فقد تضمَّن الحقَّ في إبرام العقود، والحقَّ في شراء أراضٍ وبيعها، والحقَّ في الإدلاء بشهادة في المحكمة، والحقَّ في المثول أمام المحكمة سواءٌ كمُدَّعٍ أو مُدَّعًى عليه، ولكنه لم يتضمَّن الحق في التصويت.

لم تُلغَ العبودية حتى نالَ السودُ حقَّ الاقتراع.

دوجلاس ١٨٦٥: ٥٧٨

١٨٦٨ التعديل الرابع عشر: طالبَ التعديلُ الرابع عشر للدستور الأمريكي بأن الولايات يجب ألا تُجرِّد «أيَّ شخص من حياته، أو حريته، أو ملكيته الخاصة، دون مراعاةٍ للأصول القانونية، وأنها يجب ألا تحرم أيَّ شخص من التمتُّع بالحماية القانونية المتكافئة ضمن دائرة الاختصاص القانوني التابع لها.»

١٨٧٠ التعديل الخامس عشر: حصلَ الرجالُ الأمريكيون ذوو الأصول الأفريقية على حق التصويت. بيد أن ضرائب الرأس، واختبارات القراءة والكتابة، والتهديدات بالعنف، بما في ذلك الإعدام بدون محاكمة، قد حالت دون وصول الكثير منهم إلى صناديق الاقتراع حتى منتصف القرن العشرين.

١٨٧٥ قانون الحقوق المَدنية: منحَ هذا القانون الأمريكيِّين ذوي الأصول الأفريقية حقوقًا متساوية في الأماكن العامة ومَنَعَ إقصاءهم من هيئات المحلَّفين. وبعدها بثماني سنواتٍ فقط، قضت المحكمة العليا للولايات المتحدة بعدم مشروعية هذا القانون.

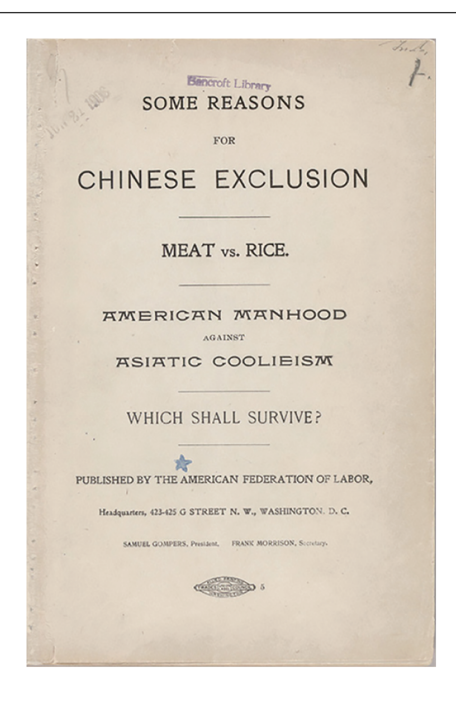
ثمانينيات القرن التاسع عشر–ستينيات القرن العشرين قوانين جيم كرو: فرضت الكثيرُ من الولايات والمدن الفَصلَ العنصري من خلال ما يُعرَف بقوانين جيم كرو. كان جيم كرو شخصيةً سوداء البشرة في عروض الأغاني الشعبية؛ إذ كان المؤدُّون البِيض يُلوِّنون وجوههم باللون الأسود مُستخدِمين في ذلك قلمًا فحميًّا أو فِلِّينًا محروقًا، ثم يُغنُّون ويرقصون بطريقةٍ تمثيليةٍ ساخرة تقليدًا للسود.

١٨٨٢ قانون إقصاء الصينيين: مُنِعَ العُمَّالُ الصينيون من دخول الولايات المتحدة، واستُبعِدوا من المواطَنة والجنسية. لم يُلغَ هذا القانون حتى عام ١٩٤٣.

إنكم تعترضون باستمرار على أخلاق [الصِّيني]. يقول مُسافروكم إنه فاسد الأخلاق؛ ومبعوثوكم الدينيون يُسمُّونه شقيًّا، ومفوضوكم ينعتونه بالقذارة. ... ومع ذلك، تسمح له زوجاتكم بأن يقوم على خدمتهن عند تناول الطعام، ويسمحن له بالدخول إلى مخادعهن، ويأتمنَّه على ثيابهن وحُليِّهن، بل ويأتمنَّه أيضًا على حياتهن من خلال منحه التحكُّم الكامل في مطابخهن وإعداد طعامهن. ثمة تناقضٌ صارخ هنا.

كوانج تشانج لينج ١٨٧٨

١٨٨٣ حقوق الولايات: قضت المحكمةُ العليا للولايات المتحدة بعدم دستورية قانون الحقوق المَدنية لعام ١٨٧٥ بدعوى أن الكونجرس قد تجاوَزَ سلطته في جانبٍ يحقُّ فيه للولايات وحدها وضع القوانين. فتحَ هذا القرارُ البابَ أمام جواز الفَصْل العنصري قانونًا.



شكل ٦-٥: «بعضُ الأسباب وراء إقصاء الصينيين»، منشورٌ صادر عن اتحاد العمل الأمريكي عام ١٩٠٢ يُحذِّر من اجتياح العُمَّال الصينيين لصناعةٍ [أمريكية] تلو الأخرى …» (بتصريح من مكتبة بانكروفت، جامعة كاليفورنيا، بيركلي F870.C5.C51 v 1:1).

لم يشهد العالَمُ مثل هذه القوانين الهمجية التي تُفرَض على شعبٍ حُر؛ فقد أجاز هذا القرار وحده، وها هو الآن يدعم، كلَّ ممارَسات التمييز الجائرة، والحرمان من حماية القانون، والسرقات التي يَرتكبها العامة في حق الملايين من أكثر مناصري الدولة ولاءً وإخلاصًا.

تيرنر، ١٨٨٣: ٢٢٨

١٨٨٤ قضية إلك ضد ويلكينز: أقام جون إلك، وهو أحد السكان الأمريكيين الأصليين، دعوى ضد تشارلز ويلكينز لرفض الأخير السماحَ له بالتسجيل للتصويت في أوماها. رأى إلك أن مَولده في الولايات المتحدة وعلاقاته المقطوعة بقبيلته يجعلانه مواطنًا أمريكيًّا ويُخوِّلان له الحماية بموجب التعديل الرابع عشر للدستور الأمريكي.

أصدرت المحكمة العليا للولايات المتحدة حُكمًا ضده، مشيرةً إلى أن الأمريكيِّين الأصليين ليسوا مواطنين؛ لأنهم يدخلون ضمن الولاية القضائية لقبائلهم ويدينون بالولاء لها.



شكل ٦-٦: نسخةٌ من صورة فوتوغرافية مُركَّبة لرؤساء القضاء من سنواتٍ مختلفة، مع استخدام صورةٍ فوتوغرافية للمحكمة العليا للولايات المتحدة عام ١٨٩٨ كخلفية، رَسمَ كليشيهات الصورة ونقوشها كلٌّ من ماكس وألبرت روزنتال (لم يحدث أبدًا في الواقع أن جلست هذه المجموعة من القُضاة معًا.) الصفُّ الأمامي، من اليسار إلى اليمين: القاضي ليفي وودبيري، والقاضي فيليب باربور، ورئيس المحكمة العليا روجر بروك تاني، والقاضي بيتر فيفيان دانيال، والقاضي ساموِيل نيلسون. الصف الخلفي، من اليسار إلى اليمين: القاضي روبرت كوبر جرير، والقاضي بنجامين كورتيس، والقاضي جون كامبل، والقاضي جون ماكينلي (بتصريح من مجموعة المحكمة العليا للولايات المتحدة).

فشلَ التعديلُ الرابع عشر فشلًا ذريعًا في إنجاز ما نرى أنه الهدف المرجوُّ منه فيما يخصُّ العرق الهندي، ولا تزال توجد في هذه الدولة طبقةٌ من الشعب مُحتقَرة ومنبوذة [والتي] لم يُعدَّ أفرادها

حتى الآن أعضاءً في أي مجتمعٍ سياسي، وليسوا مُخوَّلين للحصول على أيٍّ من الحقوق أو الامتيازات أو الحصانات المكفولة لمواطني الولايات المتحدة.

القاضي جون مارشال هارلان، رأيٌ مُعارِض، ١٨٨٤،
معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

١٨٨٧ قانون دوز للملكية الفردية: بموجب هذا القانون، قُسِّمَت الأراضي الهندية إلى أجزاءٍ (سُميَّت «حصصًا»)، وفُرِضَ على القبائل نظامُ تمليك لأراضيهم الخاصة. رأى مؤيدو هذا القانون أنَّ من شأنه تشجيع الهنود على أن يُصبحوا مزارعين مُستقلِّين. إلا أن نظام التخصيص خلقَ فرصًا للمُستوطنين البِيض والحكومة الأمريكية لشراء أراضي الهنود، بطرُقٍ تقوم على الاحتيال غالبًا. وفي النهاية، عندما انتهى العملُ بقانون التخصيص عام ١٩٣٤، خُفِّضَت ملكياتهم من الأراضي من ١٣٨ مليون فدان إلى ٤٨ مليون فدان.

١٨٩٦ قضية بليسي ضد فرجسون: أُلقي القبضُ على هومر أدولف بليسي عندما كان يستقلُّ إحدى عربات السكك الحديدية المخصَّصة «للبِيض فقط» في محاولةٍ منه لتحدي قوانين الفَصْل العنصري. أصدرت المحكمة العليا للولايات المتحدة حُكمًا ضد بليسي؛ حيث قضت بأن الولايات يجوز لها أن توفِّر للسود مرافقَ «منفصلة لكنها متكافئة» فيما يخصُّ وسائل النقل، والتعليم، والمرافق العامة.

١٨٩٨ قضية الولايات المتحدة ضد وونج كيم آرك: قضت الحكومة الفيدرالية أنه على الرغم من أن وونج كيم آرك وُلِدَ في كاليفورنيا وقضى حياته هناك، فإنه ليس مواطنًا أمريكيًّا ولا يمكنه العودة إلى كاليفورنيا بعد زيارةٍ له إلى الصين. أما المحكمة العليا للولايات المتحدة، فحكمت بخلاف ذلك؛ حيث ذكرت أن التعديل الرابع عشر يَمنح حقَّ المواطنة لجميع الأشخاص المولودين في الولايات المتحدة، وليس ببساطة لأولئك الذين ينتمون إلى أعراقٍ معينة.

إذا [استَطاع الصينيون الحصول على الجنسية الأمريكية]، فسيكون في ذلك يقينًا انحرافٌ شديدُ الانحطاط عن المُثُل الوطنية لأجدادنا، وفي هذه الحالة سيُصبح نَيلُ الجنسية الأمريكية أمرًا غير ذي أهمية بالتأكيد.

المحامي العام هولمز كونراد، مستشار الحكومة الأمريكية، ١٨٩٨،
معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

١٩٠٨ مولد ثيرجود مارشال: شغلَ مارشال منصب رئيس المحامين لدى الجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين في القضية الشهيرة لعام ١٩٥٤، قضية براون ضد مجلس التعليم، التي أعلنت فيها المحكمة

العليا للولايات المتحدة أن المدارس التي تُمارس الفَصْل العنصري بين الطلاب غير مُتكافئة أساسًا. وفي عام ١٩٦٧، أصبح مارشال أولَ أمريكي من أصولٍ أفريقية يُعيَّن في تلك المحكمة.



شكل ٦-٧: وونج كيم آرك (بتصريح من إدارة الأرشيف والوثائق الوطنية، الموقع الرسمي للإدارة آركايفال ريسيرش كتالوج رقم ٢٩٦٤٧٩).

١٩١٣ قانون تملُّك الأجانب للأراضي: حَظَرَتْ كاليفورنيا على «الأجانب غير المستحقين لنَيْل الجنسية» (أي الآسيويين) أن تكون لهم ملكيةٌ خاصة في الولاية. وطُبِّقَت قوانين مماثلة في ولاياتٍ أخرى.

١٩٢٤ قانون جونسون-ريد لتقييد الهجرة: حدَّد الكونجرس حصصًا للهجرة تُميِّز الوافدين من شمال وغرب أوروبا عن الوافدين من شرق وجنوب أوروبا. كما أنها تَستثني اليابانيين تمامًا، لكن دون أن تضع قيودًا على الهجرة الوافدة من كندا أو أمريكا اللاتينية.

١٩٢٤ قانون منح الجنسية للهنود: مُنِحَ الأمريكيون الأصليون الجنسية الأمريكية.

١٩٢٦ قضية كوريجان ضد باكلي: أقام جون جاي باكلي دعوى ضد جارته إيرين كوريجان، مدعيًا أن ثمة اتفاقًا مقيِّدًا يَمنعها من بيع منزلها إلى امرأةٍ سوداء، والتي كانت تُدعى في هذه القضية هيلين كورتيس. وافقت المحكمة العليا للولايات المتحدة على الدعوى، وحُظِرَت عملية البيع.

لا يجوز بيعُ، أو منح، أو نقل ملكية، أو تأجير، أي جزءٍ من المبنى المذكور إلى أيِّ زنجي — رجلًا كان أو امرأة — ولا يجوز منحُ إذْن أو ترخيص باستخدام أو شغل أي جزءٍ من هذا المبنى لأيِّ

زنجيٍّ باستثناء الخَدَم العاملين في المنزل، أو البوَّابين، أو السائقين، المُوظَّفين لتلك الأغراض كما هو مذكورٌ آنفًا.

الصيغة القياسية من الاتفاق المُقيِّد حسبما
كُتِبَ لمجلس شيكاغو العقاري، ١٩٢٧



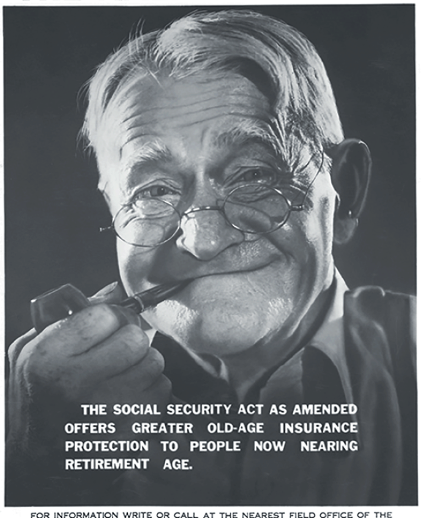
شكل ٦-٨: ثيرجود مارشال (بتصريح من مجموعة المحكمة العليا للولايات المتحدة).

١٩٢٩ مولد مارتن لوثر كينج الابن: التحقَ كينج في طفولته بمدارسَ في جورجيا تمارس الفَصل العنصري بين طلابها، ثم أصبح فيما بعدُ من رائدي حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة. واستحقَّ الفوز بجائزة نوبل للسلام عن جهوده التي تميَّزت باحتجاجاتٍ سلمية طلبًا للعدالة والمساواة، والتي جعلت منه أيضًا بطلًا قوميًّا.

أؤكِّدُ أن الشخص الذي يخرق قانونًا يرى بضميره أنه قانونٌ ظالم ومُجحِف، وعلى استعدادٍ لقبول عقوبة السجن من أجل أن يُوقِظ ضمير المجتمع كي يرى ما هو عليه من ظلم وحيْف، إنَّما يُعبر في الواقع عن أعلى درجات احترام القانون.

كينج ١٩٦٣: ٨٦

١٩٣٥ قانون الضمان الاجتماعي: وضَعَ القانونُ نظامَ دَخْلٍ شهري، فضلًا عن مِنَح عَجز، وبطالة، ومِنَح للناجين من الكوارث أو الأمراض، وذلك لمعظم الأمريكيين البالغين من العمر ٦٥ عامًا أو أكثر. إلا أنه استثنى تحديدًا مهنتَيْن، وهما العُمَّال الزراعيون والخَدَم العاملون في المنازل، وهاتان هما الوظيفتان اللتان كان يشغلهما بالأساس في ذلك الوقت الأمريكيون الأفارقة، والمكسيكيون، والآسيويون.



شكل ٦-٩: المُلصَق الإعلاني لقانون الضمان الاجتماعي (بتصريح من إدارة المحفوظات الرقمية بمكتبة فرانكلين ديلانو روزفلت).

١٩٤٢ اعتقال اليابانيين: في أعقاب الهجوم الذي شَنَّته اليابان يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١ على قاعدة بيرل هاربر البحرية الأمريكية، صرَّحت الحكومة الفيدرالية بأن لا أحدَ من أصلٍ ياباني يجوز له العيش على الساحل الغربي؛ ومن ثمَّ أُجبِرَ نحو ١٢٠ ألف شخصٍ على ترك منازلهم، ونُقِلوا إلى معسكرات اعتقال. وفقدت الكثيرُ من الأُسر منازلها وأعمالها. وفي عام ١٩٨٨، وجَّهت الحكومة الأمريكية اعتذارًا رسميًّا عن هذه الأعمال، كما دفعت ٢٠ ألف دولار أمريكي لكل مُعتقَل على سبيل التعويض.

١٩٤٤ قضية كوريماتسو ضد الولايات المتحدة: صدرت أوامر بترحيل فريد كوريماتسو، مثل جميع مَن يَنحدرون من أصولٍ يابانية على الساحل الغربي عام ١٩٤٢، إلى أحد مُعسكرات الاعتقال. هربَ كوريماتسو من الاعتقال، وأُلقيَ القبض عليه، وأُدينَ، ثم أقام دعوى مدَّعيًا انتهاك حقوقه الدستورية. نُظِرَت القضية أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة، والتي أصدرت حُكمًا ضده.



شكل ٦-١٠: أمريكيون من أصولٍ يابانية في مدينة لون باين بولاية كاليفورنيا، في طريقهم إلى «مركز هيئة الترحيل الحربي» (معسكر الاعتقال) في مانزانار، أبريل ١٩٤٢ (التقطَ الصورة الفوتوغرافية كليم ألبيرس، وهي بتصريح من مكتبة الكونجرس).

إذا كان ثمة أيُّ افتراضٍ جوهري يُشكِّل الأساس لنظامنا، فهو أن الإثم شخصيٌّ وليس أمرًا يُمكن نقله وراثيًّا.

القاضي روبرت إتش جاكسون، رأيٌ مُعارض،
قضية كوريماتسو ضد الولايات المتحدة، ١٩٤٤

١٩٤٤ ميثاق الحقوق للمُحاربين القدماء: وَضَعَ هذا الميثاقُ برنامجًا لتقديم مساعداتٍ فيدرالية للمُحاربين القدماء الأمريكيين الذين يرغبون في شراء منازل وشركاتٍ والالتحاق بالجامعة. فيما بعدُ، أصبح هذا الدعم الاقتصادي عاملًا أساسيًّا في ظهور الطبقة المتوسِّطة البيضاء في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من أن البرنامج لم يَستثنِ رسميًّا الأقليات العرقية، فإن ممارسات الحفاظ

على الفَصل العنصري في الأحياء والمدارس، والتمييز المنهجي في كثير من السياسات الحكومية، قد زادت من صعوبة انتفاع هذه الأقليات العرقية من البرنامج.

١٩٤٦ قضية ميندز ضد ويستمينستر: حاول جونزالو ميندز عام ١٩٤٤ أن يُلحق أبناءه بمدرسةٍ ابتدائية بمدينة ويستمينستر في ولاية كاليفورنيا، إلا أنهم رفضوا طلبه وأخبروه بضرورة إلحاق أبنائه بإحدى المدارس «المكسيكية» القريبة. أقام ميندز، بالاشتراك مع الجمعية الوطنية للنهوض بالمُلوَّنين وأُسرٍ أمريكية مكسيكية أخرى، دعوى ضد هيئات التعليم في كاليفورنيا بالنيابة عن ٥ آلاف طفلٍ أمريكيٍّ مكسيكي ملتحقين بمَدارس تمارس الفَصل العنصري. أصدرت المحكمة المحلية الأمريكية حُكمًا لصالح ميندز. أدَّى هذا القرار فيما بعدُ إلى إلغاء كل قوانين الفَصل العنصري في المدارس، ومهَّد الطريق أمام الحُكم الصادر عام ١٩٥٤ في قضية براون ضد مجلس التعليم، الذي قضى بعدم دستورية الفَصل العنصري في المدارس في كلِّ أنحاء الولايات المتحدة.



شكل ٦-١١: كان يُطلَب من جورج ماكلورين أن يجلس بمنأى عن الطلاب البِيض (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

١٩٥٠ قضية ماكلورين ضد أعضاء مجلس جامعة أوكلاهوما: سُمِحَ لجورج ماكلورين، وهو طالبٌ أسود البشرة، بالالتحاق بجامعة أوكلاهوما بعد أن أثبتَ أنه ليس ثمَّة مدرسة «منفصلة ومكافِئة» أمامه كي يلتحق بها. وعلى الرغم من ذلك، كان يتعيَّن عليه الجلوس إلى مكتبٍ مُنفصل في المكتبة، وإلى منضدةٍ منفصلة في الكافتيريا، وفي صفٍّ خاص به في حجرات الدراسة. قضت

المحكمة العليا للولايات المتَّحدة ببطلان هذا الإجراء؛ حيث رأت أنه يتعارض مع «قدرته على الدراسة، والمشاركة في المناقشات، وتبادل الآراء مع غيره من الطلاب، وتعلُّم أصول مهنته بوجهٍ عام.»

١٩٥٤ قضية براون ضد مجلس التعليم: اضطرت ليندا براون ابنة الثمانية أعوام، التي مُنِعَت من الالتحاق بإحدى مدارس البِيض القريبة من منزلها في توبيكا بولاية كنساس، أن تلتحق بمدرسةٍ للسود على بُعد بضعة أميال منها. رفعَ والدها، بالاشتراك مع الجمعية الوطنية للنهوض بالمُلوَّنين والمُدَّعين في قضايا مماثلة على مستوى الدولة، دعوى قضائية في محاولةٍ لاختبار قوانين الفَصل العنصري وتمحيصها. نُظِرَت القضية أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة، التي أصدرت حُكمًا بإجماع الآراء بأن الفَصل العنصري في المدارس يُمثِّل انتهاكًا لفقرة الحماية المُتساوية التي نصَّ عليها التعديل الرابع عشر، وأنه يَنبغي إنهاؤه «بكل سرعةٍ مدروسة». أدَّى هذا الحُكم إلى إبطال قرار توفير مرافق «مُنفصلة لكنها متكافئة» الصادر في قضية بليسي ضد فرجسون والمعمول به منذ عام ١٨٩٦.



شكل ٦-١٢: أُلقيَ القبضُ على روزا باركس لانتهاكها قانونَ الفَصل العنصري (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

١٩٥٥ مقاطعة الحافلات في مونتجومري: أُلقيَ القبضُ على روزا باركس عقب انتهاكها قانونًا محليًّا للفَصل العنصري في مدينة مونتجومري بولاية ألاباما، وذلك عندما رفضت التخلِّي عن مقعدها في الحافلة لأحد الرجال البِيض. نظَّم الزعماءُ السود، بمَن فيهم مارتن لوثر كينج الابن، حملةً

لمقاطعة شركة الحافلات. انتهت المقاطعة بعد عام تقريبًا من الواقعة عندما أيَّدت المحكمة العليا للولايات المتحدة القرارَ الصادر عن محكمة أدنى درجةً، معلنةً عدم دستورية الفَصل في مقاعد الحافلات في مونتجومري على أساسٍ عِرْقي.

١٩٦٤ قانون الحقوق المَدنية: وقَّع الرئيسُ ليندون جونسون هذا القانون الشامل الذي يَحظر التمييز العنصري في المرافق العامة (بما في ذلك الفنادق، والمطاعم، والمسارح)، والمدارس، والوظائف.



شكل ٦-١٣: الرئيس جونسون أثناء توقيعه على مشروع قانون الحقوق المَدنية ليصير بذلك قانونًا رسميًّا في ٢ يوليو ١٩٦٤ (صورة فوتوغرافية من مكتبة ليندون بي جونسون، تصوير مُصوِّر البيت الأبيض آنذاك سيسيل ستوتن).

١٩٦٥ قانون الهجرة: ألغى هذا القانون نظام الحصص الذي وضعته قوانينُ سابقةٌ بهدف تقييد هجرة مجموعاتٍ مختلفة، لا سيَّما الآسيويون. وبموجبه، سُمِحَ للمهاجرين بالدخول وفقًا لمهاراتهم وليس جنسيتهم.

٢٠٠٦ تجديد العمل بقانون حقوق التصويت: وُضِعَ قانونُ حقوق التصويت لعام ١٩٦٥ بهدف معالجة التمييز المُستنِد إلى أساسٍ عِرقي في الانتخابات. حافظَ تجديدُ العمل بهذا القانون على استمرار العمل به، الذي يمنع المجتمعات من تبني تغييراتٍ في الممارسات الانتخابية من شأنها إضعاف القوة التصويتية للناخبين من الأقليات.

٢٠١٠



شكل ٦-١٤: الرؤساء الأمريكيون (بتصريحٍ من مكتبة الكونجرس، باستثناء الصورة الفوتوغرافية للرئيس جورج دابليو بوش؛ فهي بتصريح من المكتبة الرئاسية للرئيس جورج دابليو بوش).

رجَّحَت القوانينُ الأمريكية، التي عزَّزتها القيمُ والعاداتُ الثقافية، الموازينَ لصالح فريقٍ على حساب كل الفِرق الأخرى. كلُّ ما يحتاج له المرءُ هو النظر في وجوه السلطة في أمريكا ليرى كيف تطوَّر ذلك الأمر عبر الزمن.

عالِمة الأنثروبولوجيا يولاندا موزس، جامعة كاليفورنيا، ريفرسايد؛ معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

قوانين جيم كرو

تُوضِّح هذه العينة البسيطة من تلك القوانين كيف أنها أثرت في كل منحًى من مناحي الحياة تقريبًا.

لا يجوز قانونًا لشخصٍ زنجي وشخصٍ أبيض البشرة أن يلعبا معًا أو برفقة أحدهما الآخر في أيٍّ من ألعاب الورق، أو النَّرْد، أو الدومينو، أو الداما.

برمنجهام، ألاباما، ١٩٣٠

يكون الزواج باطلًا عندما يكون أحد الزوجين أبيضَ البشرة والآخر حاملًا لواحد على ثمانية، أو أكثر، من الدم الزنجي، أو الياباني، أو الصيني.

نبراسكا، ١٩١١

تُقام مدارسُ مجانيةٌ منفصلة لتعليم الأطفال المُنحدِرين من أصولٍ أفريقية، ولا يجوز قانونًا لأي طفلٍ مُلوَّن الالتحاقُ بأيٍّ من مدارس البِيض، كما لا يجوز قانونًا لأي طفلٍ أبيض الالتحاقُ بمدارس المُلوَّنين.

ميسوري، ١٩٢٩

توفر كلُّ خطوط السكك الحديدية التي تُقلُّ رُكَّابًا في الولاية (بخلاف خطوط السكك الحديدية التي تجوب الشوارع العامة) مرافقَ متكافئة، وإن تكن منفصلة، للأعراق البيضاء والمُلوَّنة؛ وذلك من خلال توفيرها عربتَي رُكَّابٍ أو أكثر في كل قطار من قطارات الركَّاب، أو من خلال تقسيم العربات بحاجزٍ فاصِل، حتى يتسنَّى توفير مرافقَ منفصلةٍ.

تينيسي، ١٨٩١

لا يجوز قانونًا تقييدُ أي سجينٍ أبيض البشرة، أو شدُّ وثاقه أو ربطه بسجينٍ زنجي.

أركانساس، ١٩٠٣

لا يجوز لحلَّاقٍ مُلوَّن أن يعمل حلَّاقًا لدى سيداتٍ أو فتياتٍ بِيض البشرة.

أتلانتا، جورجيا، ١٩٢٦

أيُّ شخصٍ يُتهم بطباعة، أو نشر، أو توزيع مادةٍ مطبوعة، أو مكتوبة بالآلة الكاتبة، أو مكتوبة بخط اليد، تُحرِّض على، أو تسعى إلى، موافقةٍ عامة، أو معلوماتٍ عامة، أو حُججٍ أو اقتراحاتٍ، لتأييد المساواة الاجتماعية أو الزواج العرقي بين البِيض والزنوج، يُتهَم بارتكاب جُنحة، ويُعاقَب بدفع غرامة لا تزيد عن خمسمائة دولار، أو بالسجن لمدة لا تزيد عن ستة أشهر، أو يُعاقَب بالغرامة والسجن معًا وفقًا لتقدير المحكمة.

مسيسيبي، ١٩٢٠

أيُّما امرأةٍ بيضاء تحمَلُ بإرادتها أو دون إرادتها من شخصٍ زنجي أو مولاتو ... يُحكَم عليها بالسجن لمدة لا تقل عن ثمانية عشر شهرًا.

ماريلاند، ١٩٢٤

بموجب هذا، استقرَّ رأيُّ اللجنة المَعنيَّة بالشركات في ضوء ما لها من ولايةٍ وسلطة إلى مطالبة شركات الهاتف في ولاية أوكلاهوما بتوفير أكشاكٍ منفصلة للعملاء البِيض والمُلوَّنين عندما يوجد ما يستدعي وجود تلك الأكشاك المنفصلة.

أوكلاهوما، ١٩١٥

(١) جوناثان أوديل: تعلُّم ثقافة جيم كرو



جوناثان أوديل: هو مؤلِّف الرواية المشهورة «المشهد من دلفي»، وحديثًا رواية «العلاج»، التي حصلت على تقييمٍ مُرتفع من مجلة لايبراري. تُشكِّل رواياته ومقالاته الأساسَ الذي يستند إليه «الحوارُ الموثوق» عبر الفصائل العرقية في كل أنحاء الولايات المتحدة. في الفقرات التالية، يسترجع أوديل ذكرى راسخةً في ذهنه منذ فترةٍ طويلة تعود إلى بداية شبابه تتعلَّق بتربيته على ثقافة جيم كرو التي تعود إلى خمسينيات القرن العشرين (الصورة الفوتوغرافية بتصريح من جوناثان أوديل).

* * *

نشأتُ في الجنوب؛ إذ وُلِدتُ عام ١٩٥١ في ولاية مسيسيبي المُطبِّقة لقوانين جيم كرو، في بلدةٍ صغيرة تُسمَّى لوريل.

كنتُ أجلس في الفناء الخلفي عندما كنتُ في السادسة من عمري، وكانت لي جارة تُدعى «الآنسة هيلين»، هكذا كنا نُناديها، كانت سيدةً عجوزًا من الجنوب من الطراز النموذجي، وكانت لديها كلُّ الصلاحيات التي تُتيح لها تدريبَ أي طفلٍ أبيض على كيفية التصرُّف كشابٍّ مهذَّب. أعني أن ما كنتَ تحتاجه كي تعيش في الجنوب هو أن تكون شابًّا مُهذَّبًا، يحترم الكبار ويُبجِّلهم؛ ومن ثمَّ كانت تُعلِّمني دائمًا متى أقول «السيد فلان»، ومتى أقول «السيدة فلانة»، ومتى أستخدم الصيغ المختصرة في حديثي، وكيف أنه يتعيَّن عليَّ التحدُّث دون فتح فمي عن آخره، وكيف أنه يتعيَّن عليَّ إبعاد مِرفقيَّ عن المنضدة، وكنت أحبُّ هذه السيدة حبًّا جمًّا.

لذا، كنت أجلسُ في الفناء الخلفي لمنزلي أراقبُ ذلك الرجلَ الأسود الذي يعمل في الفناء الخلفي لمنزلها وهو يَجمع القَشَّ. ذلك الرجل الأسود العجوز، كان عمره يناهز ٧٠ عامًا تقريبًا، لستُ متأكدًا. وبينما كنتُ أرقبه، شعرتُ بفضولٍ يدفعني إليه. كان اليومُ يومًا شديدَ الحرارة في صيف مسيسيبي؛ إذ كانت درجة الحرارة تقارب ٨٠ أو ٩٠ أو ١٠٠ درجة! لا أدري! وكان الرجل يرتدي قميصًا ذا أكمامٍ طويلة. وكنتُ أتساءل بفضولٍ: لماذا يرتدي شيئًا كهذا في يوم حارٍّ كذلك اليوم؟ لذا، قررتُ أن أذهبَ إليه وأسأله. سألته قائلًا: «لماذا ترتدي قميصًا كهذا؟ ألا تتعرَّق؟» فأجابني بقوله: «حسنًا، إنني أرتديه لأنه يجعلني أتعرَّق، وعندما أتعرَّق على هذا النحو، ثم تهبُّ نسمةٌ عليلة، فإنني أشعر كما لو أني أجلس في مكيِّف هواءٍ. إنه يحافظ على برودة جسمي.»

رأيتُ أنَّ هذه هي الحكمة التي يكتسبها المرءُ بالتقدم في العُمر. وبينما كنا نتحدث، عادت الآنسة هيلين؛ هذه السيدة البيضاء الرائعة المُوقَّرة المُثقفة، وسألتنا: «عمَّ تتحدثان؟» استعدتُ في ذهني قواعد السلوك التي تعلَّمتُها؛ إذ كانت ثمَّة طريقةٌ معينة في الجنوب على الأقل لمخاطبة الناس، لا سيما الأكبر سنًّا. إذا كان الأشخاصُ في عُمر والديَّ، فيجب أن أدعوهم «السيد جونسون» أو «السيدة سميث». وإذا كانوا أكبر سنًّا بقليل، فيجب أن أدعوهم «السيد فلان» أو «السيدة فلانة» لكن مع استخدام الاسم الأول لكلٍّ منهما. إنه شكلٌ من أشكال الاحترام. كنتُ قد علمتُ أن اسمه جو، وعندما سألتني الآنسة هيلين: «إلى مَنْ تتحدث، وماذا تفعل؟» أجبتها قائلًا: «أتحدثُ إلى السيد جو» في محاولة مني لإبهار الآنسة هيلين بإجابتي المُحترَمة. لكنها نظرت إليَّ وقد اعتلتْ وجهَها نظرةٌ مرتبكة، ثم قالت: «لا، يا عزيزي! جو ليس «السيد»، جو»، ثم استخدمت كلمة «زنجي».

كانت لحظةً مُهمة للغاية في حياتي، ولم أتذكر هذه اللحظة حتى بلغت نحو ٣٠ أو ٤٠ عامًا، وهو ما يَنطبق على معظم هذه اللحظات والظروف الفارقة التي تُساهم في تكوين المرء وتشكيله؛ فلا بد أن تسقط كلُّ الجدران قبل أن يتسنَّى للمرء تأمُّل ماضيه وإعادة تفسيره.

لكنني عندما أذكرُ تلك اللحظة الآن وأتفكر فيها، أعلم أن شيئًا مهمًّا قد حدث، ونظرتُ إلى وجه الآنسة هيلين وكان هو نفسه ذلك الوجه المسيحي المُحب الذي كنت دائمًا ما أذكره. كانت امرأةً رقيقة، وقد نظرتْ إلى جو نظرةً عطوفة وحانية. ثم نظرتُ إلى جو لأرى إن كان الأمر قد ترك أيَّ أثر في نفسه، إلا أن جو كان يومئ برأسه فحسب، ويبتسم؛ لذا، قلتُ في نفسي، وسطَ عالمي كطفل أبلُغ من العمر ستة أعوام: «حسنًا، إنه أمرٌ مألوف، العرق الأبيض وتميُّزه أمرٌ مألوف، ويجب ألَّا أتعامل مع هذا الرجل على أنه إنسانٌ مثلي.» في هذه اللحظة، لم يعدْ جو إنسانًا، صار مجرد عامِل فناءٍ يعمل لدى الآنسة هيلين.

منحتني لحظةُ صمته إحساسًا بالتفوق. وعندئذٍ، شعرتُ أنَّ ما كان يتعيَّن عليَّ أن أفهمه بشأن عِرْقي الأبيض، وما كان عليَّ أن أدركه، هو أنني أحببتُه. إنه لم يكن بالأمر الذي يُشعرني بالارتباك والحيرة، بل إنه أشعرني بالارتياح؛ لأنني فهمتُ العالمَ في هذه اللحظة، فهمتُ لماذا أشربُ من منابع مياهٍ مُنفصلة، فهمتُ في تلك اللحظة لماذا أرتادُ

مدرسةً مُنفصلة، ولماذا كانت مدارس السود مُهمَلة وضعيفة. فهمتُ لماذا أستقلُّ حافلةً مدرسية جيدة، بينما أمرُّ في طريقي بالسود وهم يذهبون إلى مدارسهم سيرًا على الأقدام. كلُّ الأمور اتضحت وصارت مفهومة. كان الأمرُ بالنسبة إليَّ مثل لحظة الكَشْف التي يقول فيها لسانُ حالي: «حسنًا، إنه مختلف!» وكان أفضل شيءٍ على الإطلاق أن هذا الأمر كان طبيعيًّا ومألوفًا للجميع.

حققتُ نجاحًا منقطع النظير. أنشأتُ شركتي الخاصة عام ١٩٨٦. وما حدث في ذاك الوقت نفسه أنني بلغتُ قمة النجاح الذي يُمكن لرجلٍ أبيضَ أن يبلغه؛ أصبحتُ أملك المال، والمكانة الاجتماعية الرفيعة، والسلطة، ومنزلًا جميلًا، صارت لديَّ سياراتٌ كبيرةٌ خاصة بالشركة، لكنني كنت أشعر وكأني أموت داخلها؛ ثمة شيءٌ ما تحطَّم، ولم أكن أدري ما هو.

ما حدث هو أنني عام ١٩٨٨ كنتُ جالسًا أمام شاشة التليفزيون، وكان اليوم يوافق الذكرى العشرين لاغتيال د. مارتن لوثر كينج. وكعهدي بالمحطات التليفزيونية والصحف؛ فإنها دائمًا ما تعود بالأحداث إلى الوراء وتقدِّم نوعًا من العرض الاسترجاعي لكلِّ المادة الفيلمية التي شاهدتها في سنوات تَنشئتي للدكتور كينج وهو يسير عبر هذه المدن الصغيرة والمُغبرة بولاية مسيسيبي.

شاهدتُ، وللمرة الأولى نظرتُ وتفحَّصتُ الناسَ، ليس الخارجين في مسيراتٍ، وإنما الناس على جانب الطريق، الذين يُلقون الأحجار ويلوِّحون بأعلام ولاياتهم الكونفدرالية، ويَصيحون بلهجاتٍ مُهينة «الأمريكيون الحُمر»، ثم صدمتني حقيقة الأمر وقلت صائحًا: «يا إلهي! هؤلاء أهلي، هذا أبي، وهذه أمي، وهذا أنا». هذا ليس تاريخًا أسود، إنه تاريخي؛ هذا هو ما شكَّل هويتي وكينونتي.

علمتُ أنَّه ينبغي لي فعل شيءٍ، عليَّ أن أكتشف حقيقة ما كنتُ عليه. لم أكن أدري بالضبط كيفية القيام بذلك، بيد أنني أدركتُ أن التجربة التي تبادَرت إلى ذهني فورًا كانت تجربة الفناء في الجنوب مع جو. وأدركتُ أن العالمَ كلَّه قد تشكَّل في تلك اللحظة، لكنني أخطأتُ فهمه ولم أنتبه. كان ثمة أمرٌ ينبغي أن أفهمه بشأن صمته، إنه أمرٌ يتعلق بصمت السود وانعدام رؤيتهم في أمريكا اليوم، وكيف أن ذلك يَمنحنا — نحن البِيض — الامتيازَ الذي نحظى به. إنه الصمت.

(٢) إيان إف هاني لوبيز: عمى الألوان



إيان إف هاني لوبيز: هو أستاذ القانون الحاصل على أستاذية جون هنري بولت، بجامعة كاليفورنيا في بيركلي؛ حيث يُدرِّس في مجالَي العرق والقانون الدستوري. نَشَرَ كتبًا رائدة حول البنية الاجتماعية، ولا سيَّما القانونية، للعِرق والهُويات العرقية. نُشِرَت مقالاته في عدة مجلاتٍ من بينها ستانفورد لو ريفيو، وييل لو جورنال، وكاليفورنيا لو ريفيو، وبنسلفانيا لو ريفيو، كما نشر مُقتطَفاتٍ من آرائه في جريدتي نيويورك تايمز ولوس أنجلوس تايمز. في هذا المقال، يشرح لوبيز بداية ظهور مبدأ «عمى الألوان» في القانون الدستوري الأمريكي وتفعيله ليكون بذلك مُبشِّرًا بأيديولوجيةٍ عِرقيةٍ جديدة تهدف إلى تسويغ الوضع العنصري الراهن واستبقائه (الصورة الفوتوغرافية بتصريحٍ من إيان هاني لوبيز).

* * *

على الرغم من هزيمة الجنوب في الحرب الأهلية، فقد بحثوا عن سُبل لمواصلة نهجهم ونظامهم الاقتصادي الذي يقوم على استغلال الأمريكيين الأفارقة. وفي محاولة من الدولة لإنهاء عمليات السلب والنهب المُستمرة، وضعت التعديل الرابع للدستور الأمريكي الذي ينصُّ رسميًّا على وجوب «الحماية القانونية المتساوية». وعكفنا منذ ذلك الحين على

مناقشة ما تعنيه هذه المصطلحات الهُلامية غير المُتبلوِرة. وفي أغلب الظن أن التفسير الراجح حاليًّا هو أن فقرة الحماية المتساوية ترفض بشدة أيَّ استخدام للعِرق من جانب الحكومة. وغالبًا ما يُشار إلى هذا الموقف اختصارًا ب «عمى الألوان»، وهو مُصطلحٌ يعود في الأساس إلى الرأي المُعارِض الذي طرحه القاضي جون مارشال هارلان في قضية بليسي ضد فرجسون.[1] في هذه القضية، صدر حُكم عام ١٨٩٦ بإجماع الآراء معلنًا مبدأ «الفَصْل مع المساواة» والذي مهَّد لعقودٍ من الاضطهاد العرقي القائم على قوانين جيم كرو. صرَّح هارلان — ما بدا أنه أمنيةٌ وليس وصفًا — أن «دستورنا أعمى الألوان، ولا يعرف ولا يجيز وجود فئات بين المواطنين.»[2] بالنظر إلى التاريخ الطويل والمُؤسِف للدُّونية العرقية في الولايات المتحدة، يتَّضح أن ثمَّة مبالغةً هائلة في هذه النظرة اليوتوبية نحو مجتمعٍ مستقبلي لا يرتبط فيه العرق بامتياز أو نقيصة. ومع ذلك، لا بد من إيضاح الفرق تمامًا بين عمى الألوان كمبدأٍ مثالي وكمُمارسةٍ راهنة. ولكي نرى ذلك، علينا أن نفكِّر في عمى الألوان من منظورٍ تاريخي، وفي ضوء النظرية الديمقراطية، وكظاهرةٍ ثقافية.

(٢-١) من المفهوم التحرُّري إلى المفهوم الرَّجعي

خلال القرن العشرين، تغيَّر عمى الألوان من كونه مطلبًا تقدُّميًّا إلى كونه مطلبًا رجعيًّا. يظهر هذا التحوُّل في النقاشات التي أجراها ثيرجود مارشال كمحامٍ ثم كقاضٍ في المحكمة العليا. بوصفه استشاريًّا للجمعية الوطنية للنهوض بالمُلوَّنين في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين، شجَّع مارشال زملاءَه مرارًا وتكرارًا على الاستشهاد بالإيعاز الشهير الذي قدَّمه هارلان في المحكمة للإشارة، حسب ما صاغه مارشال في مذكِّرة رفعها إلى المحكمة العليا عام ١٩٤٧، إلى أن «التصنيفات والفروق القائمة على العرق أو اللون ليست لها مصداقيةٌ أخلاقية أو قانونية في مجتمعنا. بل إنها تتعارَض مع دستورنا وقوانيننا.»[3] سعى مارشال من وراء ذلك إلى استخدام مبدأ عمى الألوان لمهاجمة الامتهان العرقي على ضوء العقوبة الدستورية المقرَّرة في قضية بليسي. فَعَلَ مارشال ذلك معترفًا أن الدُّونية العرقية تعتمد على الفروق والاختلافات العرقية، ورأى أن استخدامَ العرق يفتقر تمامًا إلى السلامة الأخلاقية والصحة القانونية عند استخدامه بغرض الاضطهاد.

بدلًا من أن تتبنى المحكمة قاعدة تستند إلى مبدأ عمى الألوان، فتحظر أيَّ استخدام للعِرق، اختارت المحكمة إبطال قوانين جيم كرو «بكلِّ سرعةٍ ممكنة ومدروسة».[4] في

البداية، عَكسَ هذا الموقف قرارًا بالمُماطَلة؛ فقد خشيت المحكمة من اتخاذ قرارٍ مُتسرِّع على نحوٍ مُبالَغ فيه، وسعت تحديدًا إلى تجنُّب التصريح فجأةً بعدم دستورية — وضمنيًّا بفساد — الجوهر العاطفي لتفوُّق العرق الأبيض، وحظر الزواج بين الأعراق. لكن، بمرور الوقت، بدا أن القرار بعدم الحظر القاطع لسياسة التمييز على أساس العرق التي تُمارسها الحكومة قرارٌ حكيم. وبحلول منتصف الستينيات من القرن العشرين، أخذت حقيقةٌ بسيطة تتبدَّى شيئًا فشيئًا لمؤيدي التحرُّر من العرق ومعارضيه على حدٍّ سواء؛ استمرَّ الفَصلُ العنصري بسهولة في وجود الحياد العرقي الرسمي. في وقتٍ لاحق يعود إلى عام ١٩٦٥، كان أقلُّ من واحد في المائة من الأطفال السود في الجنوب يرتادون مدارسَ يرتادها البِيض، وكان عددُ البِيض في المدارس المخصَّصة للسود بالدرجة الأولى ضئيلًا للغاية. تخلَّى محامو الحقوق المَدنية عن طلباتهم بشأن عمى الألوان، وشرعوا في التأكيد على ضرورة الإصلاحات الواعية بالعرق لتحقيق الاندماج والمساواة الحقيقية، حائزين على دعم المحكمة وتأييدها في سلسلة من القرارات التي امتدَّت عبر الفترة من أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين.

في الوقت نفسه، أصبح معارضو الاندماج هم المؤيِّدين الجُدد لسياسة عمى الألوان؛ فقد أقرَّ ثيرجود مارشال نفسه أنه على الرغم من أن عمى الألوان قد طُرح مطلبًا عِرْقيًّا على أنه حقٌّ للتحرُّر فورًا من كل مظاهر الاضطهاد المرتبطة بقوانين جيم كرو، فقد قدَّم عمى الألوان كعلاجٍ وعدًا بحدوث تغيُّرٍ طفيف وفاتر؛ لأنه استوجبَ فقط إنهاء القوانين التي تتبنى صراحةً الفَصل العنصري، وليس علاجًا فعليًّا للأضرار التي خلَّفها الاضطهاد العرقي (شميدت ٢٠٠٨). نادرًا ما كان هذا الرأي يحظى باستحسانٍ لدى معارضي الاندماج؛ فقد أعربت محكمة مقاطعة كارولاينا الجنوبية عن الرأي المُعارِض للاندماج، والذي يَستند إلى سياسة عمى الألوان، في مستهلِّ عام ١٩٥٥: «إنَّ الدستور لا يقضي بالاندماج، إنه يحظر التمييز فحسب، وهو لا يحظر الفَصل العنصري الذي يحدث نتيجة سلوكٍ طوعي، وإنما يحظر فقط استخدام السلطة الحكومية لفرض الفَصل العنصري بالقوة.»[5] انطلاقًا من هنا، لم تبقَ سوى خطوةٍ بسيطة نحو التذرُّع بأن عمى الألوان قد مَنَعَ على نحوٍ قاطع إجراءات الاندماج القائمة على العرق. استوعبت كارولاينا الشمالية هذا الأمر عام ١٩٦٩؛ حيث مرَّرت قانونًا ينصُّ على أنه «لا يجوز تحويلُ أي طالب إلى مدرسة، أو إجباره على ارتيادها، استنادًا إلى العرق، أو العقيدة، أو اللون، أو الأصل القومي.»[6]

قضت المحكمة العليا عام ١٩٧١ بإجماع الآراء ببطلان هذا القانون، معلنةً على نحوٍ واضح لا لبسَ فيه أن القيود الصارمة على جهود الحكومة نحو استخدام العرق على نحوٍ علاجي لا وجودَ لها بموجب التعديل الرابع عشر. وبتأمُّل هذه الحيلة التي قامت بها كارولاينا الشمالية للتوصُّل بما هو مشروع لما هو غير مشروع، أقرَّت المحكمة أن «القانون يستغلُّ صيغةً مُحايدة في ظاهرها للتحكم في خطط الالتحاق بالمدارس من خلال إعطاء تعليماتٍ بأن تُطبق سياسة «عمى الألوان»، وكان من شأن هذا الشرط — على خلفية الفَصل العنصري — أن يجعل الوعد المطروح في قضية براون ضد مجلس التعليم وهميًّا.» واصلت المحكمة رأيها قائلة:

> كما يتوجَّب النظرُ بعين الاعتبار إلى عِرق الطلاب عند الفصل في حدوث انتهاكٍ دستوري من عدمه، فإنه يتوجَّب أيضًا النظرُ بعين الاعتبار إلى العرق عند وضع علاج. إنَّ حظر كل التحويلات القائمة على أساس العرق، في هذه المرحلة، من شأنه أن يُجرِّد كلَّ الهيئات المدرسية من الأداة الضرورية تمامًا للوفاء بالتزامها الدستوري في القضاء على الأنظمة المدرسية المزدوجة القائمة بالفعل.[7]

وبينما شارفَ عصرُ الحقوق المَدنية على الانتهاء، حدث تحوُّلٌ في مبدأ عمى الألوان، ليتحوَّل من مفهومٍ تحرُّري إلى مفهوم رَجعي.

على الرغم من أن المحكمة العليا رفضَت عمى الألوان في البداية، فقد تغيَّر موقفها تجاه عمى الألوان بتغيُّر تكوينه إلى المفهوم الرَّجعي. بحلول نهاية السبعينيات من القرن العشرين، استُخدِم مصطلح عمى الألوان كهجومٍ على التمييز الإيجابي. عام ١٩٧٨، وجد القاضي مارشال نفسه يستحثُّ المحكمة في أول قضية لها تتعلق بالتمييز الإيجابي الكامل على رفض مبدأ عمى الألوان: «إنه بسبب تاريخ المعاملة غير المتساوية المتوارَث علينا أن نسمَح الآن لمؤسَّسات هذا المجتمع بوضع العرق في الاعتبار عند اتخاذ قراراتٍ تتعلق بمَن سيَتقلَّدون مناصب النفوذ، والثروة، والحظوة الاجتماعية في أمريكا.»[8] لم ينجح مارشال في إقناع المحكمة بمبدأ عمى الألوان، سواءٌ عندما كان مؤيدًا له كمحامٍ أو حينما عارضه كقاضٍ. واليوم، يُنسَب تفسير عمى الألوان بوصفه اعتراضًا افتراضيًّا على سياسة التمييز الإيجابي إلى الدستور (كلارمان ٢٠١٠).

(٢-٢) عمى الألوان والمحاكم في مجتمعٍ ديمقراطي

بعد أن تقاعد رائدا الحقوق المَدنية ويليام برينان وثيرجود مارشال من عملهما في المحكمة العليا في أوائل التسعينيات من القرن العشرين، وُضِعَت قضايا العرق في المحكمة العليا ضمن اختصاص مجموعةٍ راسخة من خمسة قضاة محافظين. قضت هذه المجموعة بعدم دستورية كل المساعي الإصلاحية القائمة على العرق تقريبًا، مع وجود استثناءاتٍ ضئيلة للغاية. بالاستناد إلى منطق عمى الألوان، قضت المحكمة ببطلان كلٍّ من المساعي الحكومية والفيدرالية التي تهدف إلى زيادة تمثيل الشركات المملوكة لأقلياتٍ بين تلك الشركات التي تحصل على عقودٍ حكومية، مما أدى إلى تضييق الخناق بدرجةٍ كبيرة على إجراءات الاندماج في ممارسات التوظيف الحكومي، وإعاقة الجهود الرامية إلى إنشاء دوائر تصويتٍ انتخابية يشكِّل فيها البِيض الأغلبية. وفي استثناءٍ نادر لهذا التوجه، أيدت المحكمة العليا عام ٢٠٠٣ شكلًا مقيَّدًا من التمييز الإيجابي في مجال التعليم العالي في قضية جروتر. إلا أن هذا القرار عَكَسَ تراجعًا عن نهج مجموعة القضاة المحافظين الذين تقاعدوا منذ ذلك الحين من المحكمة. وتحت قيادة رئيس المحكمة وقتها، القاضي جون روبرتس، أضحى هجوم المحكمة العليا على الإصلاحات العرقية أكثر ضراوةً وعدائيةً. وفي عام ٢٠٠٧، استخدمت المحكمة عمى الألوان لعرقلة جهود المناطق التعليمية الرامية نحو الحفاظ على هيئة طُلَّابية موحَّدة ومتكاملة. استُخدِم العرق في كلٍّ من سياتل ولويفيل كنقطة تميز بسيطة تُتاح من خلالها تحويلات الطلاب من أجل الحفاظ على المكاسب المُحرَزة بصعوبة في دمج مناطقها التعليمية وتوحيدها. وصفَ رأي روبرتس هذا الأمر بأنه ضربٌ من «التمييز»، وقضى ببطلانه. من شأن هذه اللغة الاستعراضية التي صيغ بها هذا القرار أن تفرض تحدياتٍ جديدة في قضية جروتر. في الواقع، يبدو على الأرجح أنها تشجِّع على رفع دعاوى قضائية من أجل مراعاة العرق في وضع السياسات الحكومية العامة، كالحال في القرارات المتعلِّقة باختيار أماكن المدارس أو في جمع بيانات التعداد، وهي مجالاتٌ لم يُعتقَد أبدًا من قبلُ أن تتعرَّض لهجومٍ على أساس مبدأ عمى الألوان.

اشتهر عمى الألوان بمعارضته المتعنِّتة للتمييز الإيجابي، بيد أن ثمَّة جانبًا آخر لعمى الألوان ربما حقَّق الكثير في سبيل تقييد التقدم العرقي. إنَّ عمى الألوان، من خلال تحديده لأي استخدام للعِرْق على أنه «عنصرية»، إنما يُحدد في الوقت نفسه الأمور التي تندرج ضمن «اللاعنصرية»؛ كل الإجراءات الحكومية التي لا تستند صراحةً إلى العرق، بصرف النظر عن مدى وثاقة صلتها بالتدرُّج العرقي أو مدى تفاوت الضرر الواقع على

غير البِيض. لخَّص قرارٌ صَدَرَ عن المحكمة العليا عام ١٩٨٧ في قضية مكليسكي ضد كيمب هذا الجانب الآخر لعمى الألوان.[9] لم تَلتفِت المحكمة، حسب ما شاعَ وقتها، إلى الدراسة المعقَّدة والشاملة التي أُجريَت بشأن حُكم الإعدام الذي أصدرته بناءً على ذلك عندما رفضت الزعم القائل بأنَّ ثمَّة مسحة من العنصرية قد شابت آلية عقوبة الإعدام في جورجيا. على الرغم من أن المحكمة أقرَّت بأن أحكام الإعدام التي أصدرتها جورجيا على سودٍ قتَلوا بِيضًا تزيد بمعدل اثنتين وعشرين مرة عن أحكام الإعدام التي أصدرتها على سودٍ قتلوا سودًا؛ فقد ارتأت المحكمة أن هذه الإحصائيات إنما تُبرهِن «في الأغلب ... على تفاوتٍ يتعلق فيما يبدو بالعرق.» استند رفضُ الأدلة في قضية مكليسكي إلى تصوُّرٍ معيَّن للعنصرية باعتبارها تعبيرًا عَرَضيًّا عن الضغائن والمُشاحَنات الفردية. فلم يكن تاريخ التمييز في تنفيذ القانون الجنائي في جورجيا الذي تمتد جذوره إلى العبودية، ولا الارتباط الأكيد الذي لا مجال لنكرانه بين العقاب المُبالَغ فيه للسُّود واستمرار وجود تراتبيةٍ هَرَمية مكوَّنة من البِيض والسود؛ أمرًا له أهميته بالنسبة إلى الأغلبية أو محل اكتراثٍ من جانبهم. ساقت المحكمة حُجتها، متواريةً خلف مبدأ عمى الألوان، كما لو أن التمييز العنصري لم يكن موجودًا ما لم تتضمَّن السجلات نعتًا عنصريًّا أو اعترافًا بتعمُّد الأذى ووجود نيَّةٍ مسبقة. يُركِّز معظم منتقدي عمى الألوان على دوره كسلاحٍ يُستخدَم في محاربة التمييز الإيجابي. لكن، فيما يتعلق بالممارسات الحكومية التي تتحيَّز ضد غير البِيض، فإن مبدأ عمى الألوان يكون أيضًا بمنزلة درعٍ ووقاء.

يرى مؤيدو عمى الألوان وجوبَ منع التمييز الإيجابي؛ لأنه يُشجِّع على الانقسامات العرقية، ويدعو إلى الاعتماد على الصور النمطية، ويُلحق الوصمة بالمُستفيدين المزعومين منه. أما المعارضون، فيقولون إن المصدر الحقيقي للانقسامات، والصور النمطية، والوصمة في المجتمع هو الفَصل المستمر، بل والمتزايد، ويقولون إن المناهج المُوجَّهة على أساس العرق تُقدِّم الحلَّ الوحيد الملائم في هذا الشأن. وفيما يتعلق بالتعريف الضيِّق للتمييز الذي طرحته المحكمة، فإن المدافعين عنه يرون أن إصلاح أي شيءٍ بخلاف التعصب الأعمى المباشر من شأنه أن يجعل المحاكم تنتقد أفعال المسئولين الحكوميين والرد على الظلم المترسِّخ في الأذهان. يقول النقَّاد إن المسئولين الحكوميين، شأنهم شأن غيرهم من المتعصِّبين لدينٍ أو حزب أو رأي، لم يتعلَّموا التصريح بدوافعهم التمييزية؛ ومن ثمَّ فإن الحماية الفعلية من التمييز تستوجب النظر فيما وراء كلمات المُمثِّلين الحكوميين لإدراك أثر أفعالهم، والنماذج التاريخية، والسياق الأشمل. بالإضافة إلى ذلك، يشير النقَّاد

إلى أن كثيرًا من الضرر الواقع حاليًّا على غير البِيض يرجع إلى الظلم المترسِّخ في الأذهان، أو بعبارةٍ أخرى، إلى عدم التفاعُل مع الأضرار وأوجه الظلم السابقة، وعلى الحكومة أن تعمل على عدم تفاقُم الأمور على الأقل.

إنَّ عمى الألوان، من مُنطلَق صياغته على هذا النحو، أشبه فيما يبدو بحوارٍ سياسي له حُجج تؤيِّده وأخرى تعارضه. إلا أن هذه الحجج السياسية لا تهتم بمراعاة دور المحاكم المميَّز في إرساء الديمقراطية الدستورية. للمحاكم القدرة على التأثير في إرادة جمهور الناخبين وتحويلها، وعندما تقضي المحكمة بعدم دستورية قانونٍ ما، فإنها تجزم بأن القانون الأساسي للدولة يحظر ما تُريده الأغلبية. من جانب، يعدُّ هذا إجراءً مناهضًا للديمقراطية؛ لأنه ينطوي على تأثير هيئةٍ صغيرة غير مُنتخَبة في إرادة الناخبين وتحويلها. ومن جانبٍ آخر، فإنه يعني التطبيق الكامل للديمقراطية؛ حيث إنه يُعبِّر عن أعمق القيم الديمقراطية للدولة في اللحظات التي يسعى فيها الناخبون إلى استخدام قوة الأرقام ضد المجموعات المُستضعَفة أو الفِكَر المُستهجَنة. وبصيغةٍ ساخرة، فإن المحاكم تحمي الديمقراطية من خلال التصدِّي لاستبداد الأغلبية وتلافيه. ونظرًا لأن عمى الألوان تفسير للدستور، فإنه يجب أن يُقيَّم من هذا المُنطلَق، وليس بوصفِه مجرد حُجةٍ سياسيةٍ معارضة لاستخدام العِرق.

كيف ينجح عمى الألوان عند تقييمه على أنه تفسيرٌ للدستور؟ دعنا نتذكر قضية المدرسة لعام ٢٠٠٧، والتي فيها منعت المحكمة مدينة لويفيل من مواصلة جهودها في الحفاظ على مدارسَ متكاملةٍ وموحَّدة. أثارت سياسة لويفيل جدلًا كبيرًا على المستوى المحلي، وتقدَّمت مجموعة من المرشَّحين للترشُّح لمجلس التعليم واعدين بإنهاء استخدام العرق؛ لكنهم خسروا الانتخابات، ثم رفعوا دعوى قضائية، وكسبوها في نهاية الأمر في المحكمة العليا. أو دعنا نُراجع قضية مكليسكي، وهي القضية المتعلِّقة بعقوبة الإعدام في جورجيا. كان المجلس التشريعي بولاية جورجيا يعلم يقينًا أن نظام عقوبة الإعدام الخاص بالولاية قد أصدر حُكمًا بالإعدام شنقًا لأعدادٍ غير متكافئة على نحوٍ كبير للغاية من الأمريكيين الأفارقة، ورفضَ اتخاذ أي موقف حيال ذلك. ومع هذا، عندما الْتمس السودُ المساعدة القانونية، رفَضت المحكمة الْتماسهم تاركةً إياهم تحت رحمة النظام السياسي. أخفق عمى الألوان عندما أسقط إجراء التمييز الإيجابي في الوقت الذي لم يُحرِّك فيه ساكنًا فيما يتعلق بسوء المعاملة المستمر؛ ومن ثمَّ فإن إخفاقه كمبدأٍ دستوري هو إخفاقٌ

مزدوَج. عندما تتصدى الأغلبياتُ المحلية للمشكلات الصعبة المحيطة بالفَصل العنصري ويختارون اتخاذَ إجراءٍ بسيط حيال ذلك، تُعطِّل المحكمة الديمقراطية وتُحظَر جهودهم. لكن عندما ترفض الأغلبيات المحلية تصحيح الممارسات التي تُضحِّي، بل وتقتل، مجموعةً مُستضعَفة تاريخيًّا — وهي المجموعة التي كان التعديل الرابع عشر للدستور قد أقرَّ فعليًّا بحمايتها — فإن المحكمة لا تَكترث وتمضي في طريقها دون أن تُبالي.

(٢-٣) السياسة الثقافية لعمى الألوان

يتغلغل الآن مبدأُ عمى الألوان في المجتمع الأمريكي، وربما يكون الطريقة السائدة لتكوين تصوُّر عن العرق والعنصرية. وتوجد أمثلة على التفكير القائم على عمى الألوان في كل مناحي السياسة والثقافة. في هذا السياق، دعنا نُعِد النظر في عمى الألوان بوصفه إطارًا ثقافيًّا يسعى إلى الإجابة عن الأسئلة التالية: (١) ما الأمور التي تندرج ضمن العرق، وتلك التي لا تندرج ضمنه؟ (٢) ما الأمور التي تندرج ضمن العنصرية، وتلك التي لا تندرج ضمنها؟ (٣) ما العلاقة بين العرق، والعنصرية، وعدم المساواة؟ وما المطلوب ضمنيًّا من المجتمع؟

بادئ ذي بدء، يَفهم عمى الألوان العرق على أنه أمرٌ يزيد قليلًا عن مجرد لون البشرة. وهذا المفهوم الذي يَختزل العرق في لون الجلد أو البشرة فقط له تاريخٌ طويل وتدرُّجي في الواقع، وربما يُمكن إيجازه على أفضل نحو من خلال العبارة التي تقول إن «الكلَّ واحدٌ تحت بشرته». لم تكن هذه الوصية، التي شاعت خلال حقبة الحقوق المَدنية، مطلَبًا اجتماعيًّا بل كانت مطلبًا أخلاقيًّا؛ وربما كان من الأدقِّ التعبير عنه على النحو التالي: «الكَفُّ عن معاملة الأشخاص على نحوٍ أفضل أو أسوأ بناءً على عِرْقهم، ومعاملة الجميع بدلًا من ذلك كما لو كانوا جميعًا واحدًا تحت بشرتهم.» مع هذا، يعدُّ مفهوم العرق الحالي (الذي يتلخَّص في كونه مجرد لون البشرة) وصفًا ظاهريًّا للديناميات الاجتماعية. في ضوء هذه الرؤية، يَنحصِر وجود الجماعات العرقية في كونهم أفرادًا يتكتَّلون معًا على نحوٍ لا عقلاني على أساس الاختلافات الاعتباطية فيما يخصُّ المظهر الخارجي للجسم. فهي ليست بمجموعاتٍ تكوَّنت عبر تاريخٍ من الدُّونية والاستغلال؛ ومن ثم فإنها لا تزال تشغل منازلَ مختلفةً حتى في الوقت الحالي. وبما أن العرق يتعلَّق باللون فحسب، فإنه بالأحرى لا يمتُّ بصلة على الإطلاق إلى وضع الفرد أو الجماعة داخل المجتمع.

إنَّ هذا التعريف السطحي للعِرْق، المجرَّد من السياق والحقائق التاريخية، يُشكِّل بدوره أساسًا لمفهوم العنصرية المُستنِد إلى مبدأ عمى الألوان باعتبارها تمثل كلَّ اهتمام بالعرق. ونظرًا لأن العرق بحُكم تعريفه يفتقر إلى المعنى الاجتماعي، فإن عمى الألوان قادرٌ أيضًا على تقديم كل استخدام للعِرق على أنه يفتقر إلى التبرير لاستيعاب العرق، سواءٌ من حيث كونه أداةً للفَصل أو للاندماج، فإنه يعني ظاهريًّا معاملة الأشخاص على نحوٍ مختلف على أساس صفةٍ اعتباطية تفتقر إلى الأهمية الاجتماعية، وليس للأفراد سيطرة عليها. لاحِظ أن هذه الرؤية تفهم العنصرية بلغةٍ فردية ومتماثلة؛ فردية في أنها ترى العنصرية على أنها تضر بالشخص الذي يُصنَّف عرقيًّا، ومُتماثلة في أنها ترى عدم وجود ما يُميِّز أوضاع الجماعات من البِيض وغير البِيض؛ وبالتالي، يُصبح الإجراء الإيجابي تمييزًا عكسيًّا: لا يختلف إقصاءُ غير البِيض بموجب تفوق البِيض إطلاقًا عن التفضيل الممنوح لهم تأييدًا للإصلاح الاجتماعي. وحسب ما قاله كلارنس توماس، فإن «التمييز العنصري برعاية الحكومة بناءً على التعصُّب الحميد يتساوى في ضرره مع التمييز الناشئ عن التعصُّب الخبيث؛ ففي كلتا الحالتَين، يُمثل تمييزًا عنصريًّا بالمعنى الخالص والبسيط.»[10] مَن هو العنصري بموجب هذا المفهوم؟ إنه أول شخصٍ في الغرفة يستخدم فعليًّا كلمة «العرق». وغالبًا، سيكون هذا هو الشخص الذي ينتقد بحدة استمرار التمييز أو يؤيد الإصلاح العرقي. شاهِد اتهامات العنصرية اللاذعة التي تصدر مرارًا وتكرارًا ضد الرئيس أوباما في كل مرة يشير فيها، وإن كان بطريقة غير مباشرة، إلى الوجود المستمر للعِرق في مجتمعنا.

ماذا إذن عن العلاقة بين العرق والعنصرية وعدم المساواة؟ بعد تجريد العرق والعنصرية من كل مضمون تقريبًا، يصير عمى الألوان عاجزًا فيما يبدو عن تفسير الصلة المستمرة بين العرق وعدم المساواة في الولايات المتحدة. بيد أن هذه الصلة أكيدة ولا مجال لنكرانها ويمكن للجميع ملاحظتها بسهولة. دعنا نستشهد ولو بمثالٍ واحد فقط. يقلُّ متوسط ثروة السود على نحوٍ بالغ عن متوسِّط ثروة البِيض، في الوقت نفسه الذي عانى فيه الأمريكيون الأفارقة على نحوٍ غير متكافئ خلال الركود الاقتصادي الحالي. وفقًا لجريدة نيويورك تايمز «اعتبارًا من ديسمبر ٢٠٠٩، انخفض متوسط ثروة البِيض بنسبة ٣٤ في المائة ليُصبح ٩٤٦٠٠ دولار أمريكي، بينما انخفض متوسط ثروة السود بنسبة ٧٧ في المائة ليُصبح ٢١٠٠ دولار أمريكي.» (باول ٢٠١٠) كيف يمكن تفسير ذلك من منظور عمى الألوان؟

تذكر أنَّ عمى الألوان يُعرِّف العنصرية على أنها مجرَّد الإتيان على ذِكر العرق. والجانب الآخر لذلك هو أن أيَّ إشارة إلى ثقافة المجموعة تُعامَل على أنها «لا تندرج ضمن العنصرية». يشير إدواردو بونيلا-سيلفا (٢٠٠٣: ٢٨) إلى «العنصرية الثقافية» على أنها سمةٌ أساسية مما يُصطلَح على تسميته بـ «العنصرية القائمة على عمى الألوان»: «العنصرية الثقافية عبارة عن هيكل يقوم على حُججٍ ذات أسسٍ ثقافية من قبيل «المكسيكيون لا يُركِّزون كثيرًا على التعليم» أو «السود لديهم الكثير من الأطفال» لتفسير وضع الأقليات في المجتمع.» وفي ضوء الدلالات المرتبطة بعمى الألوان، فإن الإشارات الصريحة إلى لون البشرة أو استخدام الألقاب والنعوت العنصرية المنطوية على ازدراءٍ صريح هي فقط ما تُعتبَر من قبيل العنصرية. وعلى النقيض من ذلك، فليس ثمَّة أي علاقة ظاهريًّا بين التهويل بشأن النقائص الثقافية أو السلوكية لدى غير البِيض، وبين العنصرية، ورُهاب الأجانب وكرههم. تَذكَّر المُفردات المتغيرة لحقبتي الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين؛ المفترسون الأقوياء، عصابات الشوارع، ملكات الرخاء، أو تأمَّل الجماعات العرقية الحالية التي تُثير الرُّعب في مجتمعنا؛ المهاجرون المكسيكيون غير الشرعيِّين، والإرهابيون المسلمون. بصرف النظر عن هستيرية التعليق، أو الإجراءات العقابية المُتعسِّفة التي تلجأ إليها الحكومة، يؤكِّد عمى الألوان على أن العرق غير متورِّط ما دام أن التركيز ينصبُّ على الثقافات الفاشلة أو السلوك السيِّئ، حتى عندما يُنسَب إلى جماعاتٍ كاملة بطرقٍ تحمل أوجهًا شبه غريبة بالصور النمطية العنصرية التي سادت في الماضي؛ ومن ثمَّ فإن عمى الألوان يردُّ على مسألة عدم المساواة المستمرة للجماعات العرقية بأن تلك الجماعات إنما اكتسبَت أفضليتها النسبية، أو استحقَّت حرمانها النسبي من الأفضلية، بسبب الاختيارات والقيم والقدرات المتأصلة في تلك الجماعات نفسها. وبناءً عليه، فإن السعي إلى تعديل سوء توزيع الامتيازات والصعاب يعني الانخراط في «هيكلة اجتماعية» غير مشروعة، آخذًا من أولئك الذين يُقدِّرون قيمة العمل الجاد لمكافأة أولئك الذين يتَّسمون بعقلية الاستحقاق. وإزاء عدم المساواة المسوَّغة على أنها مشروعة، ومكفولة، ومُكتسبَة، ومُستحقَّة، يُخبرنا عمى الألوان أن المجتمع محظورٌ عليه أخلاقيًّا فعلُ أي شيء.

بصراحةٍ شديدة، يبدو التجسيدُ الحالي لعمى الألوان مسخَّرًا للحفاظ على الوضع العنصري الراهن. ويكمن النجاح الهائل لعصر الحقوق المَدنية في هزيمة تفوُّق البِيض، ليس فقط كمجموعة من الفِكَر وإنما أيضًا في مُمارساته الأكثر قبحًا. ويستمر هذا الأسلوب في مكافحة غياب العدالة العرقية، في الوقت نفسه الذي تطوَّر فيه التمييز وظلَّ مترسِّخًا

بقوة، بل وأحيانًا منشودًا بهِمَّة. طالبَ عمى الألوان بجرأة بإسقاط قوانين جيم كرو في الأساس. ومؤيِّدو عمى الألوان المعاصرون يتخفَّون في الشرعية الأخلاقية لهذا التاريخ، مُعلنين بصوتٍ عالٍ اعتراضهم على المُمارسات المُلغاة بالفعل وساعين إلى نَسبِ أبطال عصر الحقوق المَدنية وشعاراته إليهم. لكن من الناحية العملية، فإنهم يُدافعون عن عدم المساواة المستمرة. وباستخدام المبالَغة البلاغية لعمى الألوان، فإنهم يعترضون على التمييز الإيجابي، ويرفضون إمعان النظر على نحوٍ انتقادي في المُمارسات التمييزية، ويتَّهمون كلَّ مَن يتحدَّثون بصراحة عن استمرار المشكلات العرقية بالعنصرية، ويُجيزون — بل ويُعزِّزون — الصورَ النمطية التصنيفية ما دامت تتَّخذ من المفردات الثقافية والسلوكية قناعًا لها.

(٣) حوارٌ بشأن الفَصل وعدم المساواة

والآن، نستمع مجدَّدًا إلى فريق من الخبراء وهو يُلخِّص لنا الموضوعات والفِكَر الرئيسية التي تمَّ تناولها في هذا الفصل وهذا الجزء من الكتاب. «ميا باي» هي أستاذ التاريخ والمدير المشارِك لمركز العرق والإثنية بجامعة روتجرز. «جوزيف جريفز» هو عميد الدراسات الجامعية وأستاذ الدراسات البيولوجية بجامعة ولاية كارولاينا الشمالية للعلوم الزراعية والفنية «جيمس هورتون» حاصلٌ على أستاذية بنجامين بانيكر في الدراسات الأمريكية والتاريخ الأمريكي بجامعة جورج واشنطن ومؤرِّخ متقاعد بالمتحف الوطني للتاريخ الأمريكي التابع لمؤسسة سميثسونيان. «روبن كيلي» هو أستاذ الدراسات الأمريكية والإثنية بجامعة كاليفورنيا الجنوبية. «مي نغاي» حاصلة على أستاذية لونج فاميلي في الدراسات الآسيوية الأمريكية وأستاذ التاريخ بجامعة كولومبيا. «بيلار أوساريو» هي أستاذٌ مشارِك في القانون والأخلاقيات البيولوجية بجامعة ويسكونسن في ماديسون. «جون ايه باول» هو المدير التنفيذي لمعهد كيروان لدراسة العرق والإثنية بجامعة ولاية أوهايو.

* * *

روبن كيلي: العنصرية عبارة عن نظامٍ معرفي مُعقَّد إلى حدٍّ ما، يُستخدَم فيه العلم والدين والفلسفة لتبرير عدم المساواة والتراتُبية الهَرَمية. وهذا أمرٌ جوهري.

العنصرية، ببساطة، ليست ضربًا من الشعور العميق الذي يعتريك عندما ترى شخصًا مختلفًا عنك. وفي الواقع أنك إذا نظرت إلى تاريخ العالم، فستجد أن ثمة الكثير من الأشخاص الذين يبدون مختلفين ويُنظَر إليهم على أنهم جذَّابون وغير جذَّابين. أتدري، إنَّ الأمر لا يتعلق حتى بالشكل الذي تبدو عليه، وإنما يتعلق بالمعنى الذي يسبغه الناسُ على مظهرك وشكلك. وهذا أمرٌ نتعلَّمه ونكتسبه. إنه سلوكٌ مكتسَب ومتعلَّم، كما ترى.

جوزيف جريفز: خلقت أمريكا الأعراق المحدَّدة اجتماعيًّا بالاشتراك مع تاريخها الاستعماري إزاء الهنود الأمريكيين واستعبادها للأمريكيين الأفارقة. وفي نظامٍ اجتماعي يُحدَّد فيه الحقُّ في انتزاع أراضي الغير أو حياتهم عن طريق صفاتك العرقية، كان من المهم وضع قواعد لتحديد هُوية كل شخص.

جيمس هورتون: لكنَّ الشيء الذي يجعل العبودية الأمريكية مُميَّزة للغاية أنها تعتمد على العرق؛ فالعبودية في أمريكا هي نوعٌ من العبودية، مبرَّر بأسلوبٍ مختلف مثلًا عن أسلوب تبرير عبودية غرب أفريقيا؛ بمعنى أن الأشخاص كانوا يُؤسَرون في المعارك، ومن ثمَّ فإنهم يقعون في نوع من الأسر. فَكِّر في الأمر لبُرهة. كان من المُمكن أن يخسر أيٌّ منا تلك المعركة. كان من الممكن أن يقع أيٌّ منا في الأسر. كان من الممكن أن يصبح أيٌّ منا عبدًا. لكن عندما تؤسِّس العبودية على مسألة العرق، فالأمر مختلف؛ لأنه لو كان أحدُنا أسود البشرة، والآخر أبيض البشرة، والعبودية مرتبطة بسواد البشرة، فلا مجال أبدًا لأن يُصبِح الأبيض عبدًا.

ميا باي: حسنًا، لا يُحبِّذ كثيرٌ من الناس الاعتقادَ في وجود صلةٍ طبيعية بين الديمقراطية والعبودية، لكن لا يُمكنك التحايل على حقيقة أنهما نشآ معًا في هذه الدولة. والجنوب، الذي أنتج لنا مفكِّرينا الديمقراطيين العِظام أمثالَ جفرسون، والروَّاد الثوريين، كان مجتمع رقيقٍ كما تعلم.

جون ايه باول: وكثيرٌ من البِيض يقولون: «حسنًا، كما تعلم، لا نريد أن نسمع شيئًا عن العبودية. فلا شأن لي بذلك، وقد جاء والداي بعد تلك الفترة بكثير.» إنهم لا يُدركون أنَّ حتى قدرتهم على المجيء كانت جزءًا من النظام العنصري، أنَّ حقيقة أنهم استطاعوا المجيء إلى الولايات المتحدة كانت بالفعل إحدى الفوائد المرتبطة بكونهم من البِيض؛ لأنك إذا كنت صينيًّا أو أسود البشرة، لما استطعت المجيء.

روبن كيلي: لم يكن العرق أبدًا مسألة تتعلق بالفئات والطبقات، وإنما كان مسألة تتعلق بإنشاء التراتبيَّات الهَرَمية؛ فالعرق كان يتعلَّق بالتفوق العرقي، وكان نظامًا عنصريًّا يقوم على الاستعلاء حيث تُهيمن مجموعة على الأخرى.

جيمس هورتون: وهنا حقًّا مربط الفرس؛ فثمَّة بعضُ الأماكن، على سبيل المثال، مثل فرجينيا، عرَّفَ قانون فرجينيا الشخصَ الأسود البشرة بأنه شخصٌ يحمل أصولًا أفريقية بنسبة واحد على ستة عشرة. وعرَّفت فلوريدا الآن الشخصَ الأسود البشرة بأنه شخصٌ يحمل أصولًا أفريقية بنسبة واحد على ثمانية. وقالت ألاباما: «يكون المرءُ أسود البشرة إذا كان يَحمل أيَّ أصولٍ سوداء؛ أيَّ أصولًا أفريقية في المُطلق.» لكن، أتدري ما يعنيه ذلك؟ يُمكنك السير عبر حدود إحدى الولايات وتتغيَّر حرفيًّا الدلالة القانونية للعِرق. والآن، ما الذي يعنيه العرق في ضوء هذه الظروف؟ إذا منحتَني السلطة، فيمكنني أن أجعلك أيَّ عِرق تُريد أن تكونه؛ لأنه بنية سياسية اجتماعية، وليس مسألة تتعلق بعلم الأحياء.

بيلار أوساريو: في الواقع، إذا قرأتَ القوانين المتعلقة بالعرق الآن، فسوف تجد أن ثمة تاريخًا كاملًا كان على المرء فيه كمُهاجر، كي يصبح مواطنًا حاصلًا على الجنسية في هذه الدولة، أن يُصنَّف على أنه أبيض البشرة أو أسود البشرة. وكلُّ مَن كانوا يُحاولون الحصولَ على الجنسية تقريبًا، كلُّ القضايا التي رُفعت إلى المحكمة العليا، باستثناء قضيةٍ واحدة حسب ما أعتقد، كلُّها كانت لأشخاصٍ يحاولون أن يُصنَّفوا على أنهم من البِيض؛ لذا، كان على المحكمة أن تصدر قراراتٍ تتعلق بتحديد مَن يَندرجون ضمن البِيض ومَن لا يندرجون ضمنهم، وهل يُصنَّف الأرمن ضمن البِيض؟ أو هل ثمة عددٌ من القضايا التي تتعامل مع الآسيويين وما إذا كانوا من البِيض أو من غير البِيض؟ ومن ثمَّ فإن أحد الأمور التي كان من شأنها أن تَحدُث أن يتقدَّم شخصٌ إلى المحكمة ويقول: «حسنًا، إن لون بشرتي أبيض كلَون بشرة أي شخصٍ آخر موجود هنا ويُصنَّف على أنه من البِيض.»

ومن المثير، كما تعلم، أن تقرأ هذه القرارات والآراء وتسمع المحكمة وهي تقول: «حسنًا، إن الأمر … لكن العرق لا يتعلق فقط بلون البشرة. إنه يتعلق أيضًا بأمورٍ أخرى، مثل مواقفك تجاه الأسرة، ومواقفك تجاه السياسة.» أليس كذلك؟ وأيًّا كان الأمر، فإن المحكمة غالبًا هي التي تُقرر مَن ينتسب إلى البِيض ومَن لا ينتسب إليهم

بناءً على ما إذا كان يتراءى لها أن الشخص سيندمج سياسيًّا في هذا النوع من المجتمع الذي نحاول بناءه. وكان من الواضح جدًّا في بعض الأحيان أن هذا ما كانت تفعله المحكمة، أليس كذلك؟

مي نغاي: من هنا تأتي هذه الفكرة التي ترى أن الآسيويين ليسوا فقط مختلفين بالدرجة التي يستحيل معها أن يُصبحوا مثل الأمريكيين الآخرين، بل توجد أيضًا فكرة تقضي بأنه نظرًا لوجود الكثير من الناس في آسيا، فإن هذا الخطر الأصفر يُرى على أنه حشدٌ من ملايين ملايين الأشخاص ذوي البشرة الصفراء الذين سيَجتاحون الدولة.

بيلار أوساريو: يتعلق العرق في كثير من النواحي، حسب فهمنا له كبنيةٍ اجتماعية، بالمكان الذي سيعيش فيه المرء، وبالمدرسة التي سيَرتادها، وبالوظائف التي سيَتقلَّدها، وبحصوله على تأمينٍ صحي من عدمه؛ لذا، فإن العرق يَلعب دورًا مهمًّا للغاية في حياتنا.

(نُسخت بتصريح من كاليفورنيا نيوزريل.)

المراجع

American Social History Project:

1989 Who Built America? Working People and the Nation's Economics, Politics, Culture, and Society, vol. 1: From Conquest and Colonization through Reconstruction and the Great Uprising of 1877. New York: Pantheon Books.

Baker, Lee D.:

2010 Anthropology and the Racial Politics of Culture. Durham, NC: Duke University Press.

Blackmon, Douglas A.:

2008 Slavery by Another Name: The Re-enslavement of Black Americans from the Civil War to World War II. New York: Doubleday.

Borden, Philip:

1970 Found Cumbering the Soil: Manifest Destiny and the Indian in the Nineteenth Century. *In* The Great Fear: Race in the Mind of America.

Gary Nash and Richard Weiss, eds. pp. 71–97. New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.

Fields, Barbara J.:

2001 Whiteness, Racism, and Identity. International Labor and Working-Class History 60: 48–56.

Haney López, Ian F.:

1996 White by Law: The Legal Construction of Race. New York: New York University Press.

Higginbotham, A. Leon, Jr.:

1978 In the Matter of Color: Race and the American Legal Process: The Colonial Period. New York: Oxford University Press.

Jaynes, Gerald D.:

1986 Branches without Roots: Genesis of the Black Working Class in the American South, 1862–1882. New York: Oxford University Press.

Ngai, Mae M.:

2004 Impossible Subjects: Illegal Aliens and the Making of Modern America. Princeton: Princeton University Press.

Painter, Nell Irvin:

2010 The History of White People. New York: W. W. Norton and Company.

Patterson, Thomas C.:

1997 Inventing Western Civilization. New York: Monthly Review Press.

Roediger, David R.:

2008 How Race Survived U.S. History: From Settlement and Slavery to the Obama Phenomenon. London: Verso.

Thornton, Russell:

1987 American Indian Holocaust and Survival: A Population History since 1492. Norman: University of Oklahoma Press.

إيان إف هاني لوبيز، عمى الألوان

Bonilla-Silva, Eduardo:

2003 Racism without Racists: Color-Blind Racism and the Persistence of Racial Inequality in the United States. Lanham, MD: Rowman and Littlefield.

Haney López, Ian:

2007 A Nation of Minorities: Race, Ethnicity, and Reactionary Color-blindness, Stanford Law Review 59: 985.

Klarman, Michael J.:

2010 Has the Supreme Court Been Mainly a Friend or a Foe to African Americans? SCOTUS Blog, February 1. http://www.scotusblog.com/2010/02/has-the-supreme-courtbeen-mainly-a-friend-or-a-foe-to-african-americans, accessed November 23, 2011.

Powell, Michael:

2010 Blacks in Memphis Lose Decades of Economic Gains. New York Times, May 30.

Schmidt, Christopher W.:

2008 Brown and the Colorblind Constitution, Cornell Law Review 94: 203, 234.

الفَصْل وعدم المساواة، ١٦٥٠–٢٠٠٠

Douglass, Frederick:

1865 [1999] The Need for Continuing Anti-Slavery Work, speech at Thirty-second Annual Meeting of the American Anti-Slavery Society (May 10, 1865). *Cited in* Frederick Douglass: Selected Speeches and Writings. Philip S. Foner, ed. Adapted by Yuval Taylor. Chicago: Lawrence Hill Books.

King, Martin Luther, Jr.:

1963 [1964] Letter from Birmingham Jail. *Cited in* Why We Can't Wait. Martin Luther King, Jr. New York: Harper and Row Publishers.

Kwang Chang Ling [pseud.]:

1878 Why Should the Chinese Go? A Pertinent Inquiry from A Mandarin High in Authority. *In* Alexander Del Mar, Letters of Kwang Chang Ling: The Chinese Side of the Chinese Question, By a Chinese Literate of the First Class, Communicated to the San Francisco Argonaut. p. 8. See http://content.cdlib.org/ark:/13030/hb3m3n99bq/?order=1&brand=calisphere], accessed January 29, 2012.

Trist, Nicholas P.:

N.d. U.S. negotiator of the Treaty of Guadalupe Hidalgo, 1848, as reported by his wife, Virginia Trist. Trist Papers, University of North Carolina.

Turner, Henry McNeal:

1883 [1967] *Cited in* The Burden of Race: A Documentary History of Negro–White Relations in America. Gilbert Ofosky. New York: Harper and Row.

هوامش

(1) This discussion draws on Haney López (2007).

(2) *Plessy v. Ferguson,* 163 U.S. 537, 559 [1896] (Harlan, J., dissenting).

(3) Brief for Petitioner, *Sipuel v. Bd. of Regents of the Univ. of Okla.,* 332 U.S. 631 [1948] (No. 369), at 27.

(4) *Brown v. Bd. of Educ. (Brown II),* 349 U.S. 294, 301 [1955].

(5) *Briggs v. Elliott,* 132 F. Supp. 776, 777 [E.D.S.C. 1955].

(6) N.C.Gen.Stat. §115–176.1 (Supp.1969), quoted in *N.C. State Bd. of Educ. v. Swann,* 402 U.S. 43, 44 n.1 [1971].

(7) *Swann,* at 45–46.

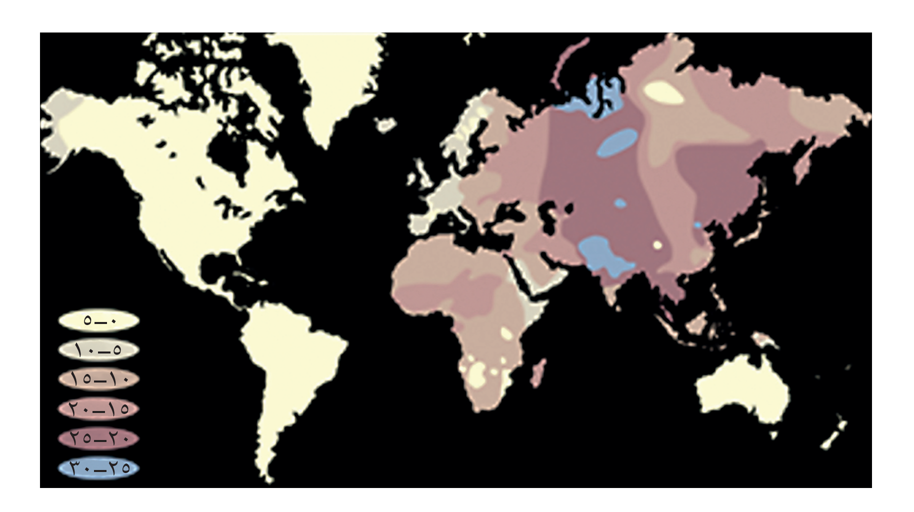
(8) *Regents of the Univ. of Cal. v. Bakke,* 438 U.S. 265, 402 (Marshall, J., concurring in part, dissenting in part).

(9) *McCleskey v. Kem*p, 481 U.S. 279 [1987].

(10) *Adarand v. Pena,* 515 U.S. 200, 240–41 n.1 [1995].

الجزء الثاني

لماذا لا يُعدُّ التباين البشري عرقًا؟



العرق ليس شيئًا «في الدم». توضِّح هذه الخريطة النِّسَب المئوية للأفراد الذين يحملون أليل فصيلة الدم B بين الشعوب البشرية الأصلية. كان العلماء يعتقدون فيما سبق أن نظام فصائل الدم ABO يوزَّع وفقًا للعرق. غير أن توزيع فصيلة الدم ما بين الشرق والغرب الملاحظ هنا — الذي يتَّسم بتركيزاتٍ مرتفعة في آسيا الوسطى وتركيزاتٍ منخفضة عبر أستراليا والأمريكتين — لا ينطبق على ألائل فصيلة الدم A أو O. إن توزيعات فصائل الدم A، و B، وO مُستمرة أو توزَّع على نحوٍ تدريجي (بتصريحٍ من دينيس أونيل، ومُقتبَس من إيه إي موران وآخرين (١٩٧٦)، «توزيع فئات الدم البشرية وتعددات الأشكال الأخرى»، الطبعة الثانية، ١٩٧٦ من مطبعة جامعة أكسفورد).

الفصل السابع

مقدمة

العرق ليس مرادفًا للتباين البيولوجي البشري

(١) أليس العرق واضحًا من الناحية البيولوجية؟

لعلك سمعت ما يُقال عن أن العرق شيءٌ وراثي، أو بيولوجي، أو جسماني. فغالبية الأمريكيين يعتقدون أن هناك واقعًا ملموسًا لا يقبل الشك فيما يتعلَّق بالعرق، وأن العرق له أساسٌ خلقيٌ واضح؛ فالعرق في جيناتنا الوراثية، العرق أمر يبدو بديهيًّا؛ أمرٌ مؤكَّد وعلمي، العرق شيء مُتعارَف عليه عالميًّا، العرق حقيقةٌ واقعة. ولعلَّك قد تقبَّلت، دون كثير من التفكير، حقيقة أن العرق واقعٌ حقيقي بيولوجيًّا وقاعدةٌ علميةٌ عالمية بوصفها حقيقةً صحيحة لا تقبل الشك. إنه حقيقة! فالعرق موجود فحسب، شأنه شأن الهواء الذي نتنفسه.

ولكن الحقائق تختلف عما تُخبرنا به أعيننا.

إن الأشخاص، ببساطة، مختلفون. ونحن نرى هذا الاختلاف بأعيننا أولًا، ثم بواسطة القياس وأجهزة الميكروسكوب.

غير أن هذا لا يعني أن الأعراق حقيقية. إن التباين البشري أمر حقيقي، والعرق يعدُّ تفسيرًا لذلك التباين، ولكن لدينا تفسيراتٍ أفضل؛ فالتطور تفسير أكثر ديناميكية وملاءمة بكثير. ولكن لا تزال ثقافتنا تحافظ على فكرة أن العرق يفسر التباين كأثر من زمنٍ ما، ليس بعيدًا جدًّا، حين كنا نظن أن ما هو قائم اليوم كان قائمًا على الدوام. العالم

لا يتغير، ولكنه يتطور، وتلك العملية التطورية تُفسِّر أوجه الاختلاف والتشابه فيما بيننا. أما العرق، على الجانب الآخر، فلا يحقِّق ذلك.

في الجزء الثاني، نستكشف التباين البشري، ونستكشف أنماطًا من الاختلافات والتشابهات من شخص إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى. ونقوم بوصف الأنماط التي نلاحظها عبر المكان والزمان إلى جانب طرقٍ أخرى للنظر إلى الاختلاف. والسؤال الذي نطرحه هو: كيف نشأت تركيبة التبايُن البشري، أو تلك الأنماط التي نراها؟ في بعض الحالات، لا سيما فيما يتعلق بلون البشرة والخلية المنجلية، نستعين بوسائل التقصِّي العلمي لتوضيح كيف تؤدِّي التفاصيل الخاصة بالتطور والتاريخ إلى هذه الاختلافات المعروفة. بعد ذلك نستكشف أسباب كون العرق تفسيرًا معيبًا، بل ضارًّا.

ربما تَندهِش من كم الاختلافات الجسمانية، أو ما يُطلِق عليه البيولوجيون اختلافات النمط الظاهري الخارجية، فيما بيننا. إن البشر يأتون في مختلف الأحجام والأشكال؛ فتتباين ألوان البشرة، وكذا ألوان العين، ويَختلف الشعر في اللون والملمس. إن أعيننا ترى الكثير والكثير من الاختلافات، وخلف هذه الاختلافات الظاهرية تكمن اختلافاتٌ أكثر تتنوَّع بين الحجم والشكل ووظائف الأعضاء الداخلية، وحتى التغيرات الفردية في التركيبات الكيميائية للجزيئات، مثل البروتينات والدنا.

«ولكن هذه الاختلافات لا تندرج تحت العرق.»

ربما يتذكر البعض إعلانًا واسع التداول لشركة أمريكان إكسبريس، يظهر فيه ويلت تشامبرلين، لاعب كرة السلة السابق، والفارس السابق ويلي شوميكر. كان الاثنان متشابهَين في الملبس؛ إذ كانا يرتديان ثيابًا رسمية باللون الأبيض تحت السماء الزرقاء. وكان من بين الاختلافات العديدة بينهما لون البشرة والطول؛ فتجد ويلي قصيرًا وذا بشرة فاتحة، بينما ويلت طويل القامة وذا بشرة داكنة. يبرز شكل ٧-١ أيضًا شخصيتين من مشاهير عالم السلة؛ المُدرِّب جيف فان جاندي، مرتديًا حلته، وياو مينج، لاعب كرة السلة بزيه الرياضي ذي اللونين الأحمر والأبيض.

أمهل نفسك برهة لتتأمَّلهم وفكر بشأن جميع جوانب الاختلاف والتشابه بينهم. يُطلق جون بارلو ريد، وهو جيولوجي وأستاذ سابق بكلية هامبشير، على هذا التمرين «الصفحة ١». في الصفحة رقم واحد، يسعى الطلاب لوصف ما يرونه بأفضل ما يُمكنهم دون تنظير للتفسير الخاص بالحقائق التي يَصفونها. وغالبًا ما لا يكون من السهل «النظر» دون السعي إلى «التفسير».



شكل ٧-١: جيف فان جاندي وياو مينج (بتصريح من مجلة سبورتس إلاستريتد).

يوجد العديد من التشابُهات، مثل التشابه في الملبَس، وعدد الأذرع والأرجل، وأشياء من ذلك القبيل مما نعتبرها من المسلَّمات. ولعلَّ أكثر الاختلافات وضوحًا هو الحجم، ولا سيما القامة. فتجد جيف قصير القامة، بينما ياو طويلٌ للغاية؛ إذ يزيد طوله على سبعة أقدام. كذلك يَختلف جيف وياو في ملمَس الشعر ولون الشعر والبشرة. وهذه الاختلافات الأخيرة، في منظومة التصنيف العرقي الأمريكية، تُعدُّ علامات على العرق. وكما أشرنا فيما سبق، فقد اكتسبت هذه العلامات البيولوجية معنًى أعمق؛ نظرًا لترسُّخها داخل دائرة من التفكير العرقي، وهي دائرة معيبة. ونظرًا لهذه الاختلافات، يُصنَّف جيف وياو عرقَين مختلفَين في الولايات المتحدة.

ولكن العرق لا يُفسِّر جميع الاختلافات المذهلة فيما بينهما. لا شك أن العرق لم يكن ليُفسِّر السبب وراء إجادة أحدهما للتدريب وإجادة الآخر للعب كرة السلة. يفسر الحجمُ بعضًا من ذلك ولكن ليس كله. وتلك السمات العرقية المزعومة، مثل لون البشرة

وملمس الشعر، هي أيضًا مجرد أجزاء من نطاق التباين البشري الرائع. ولا توجد صلة تربط بين كيفية حدوثها — من خلال قصص التطور والتاريخ الرائعة — وبين ابتكار الإنسان للأنماط العرقية. وفي الفصول القادمة نروي قصة اثنتين من هذه السمات، هما لون البشرة والخلية المنجلية، اللتَين لا تُعدَّان من دلالات العرق، بل من معجزات التطور.

ما الذي نقصده — «وما لا نَقصده» — بتلك الجملة التقريرية القصيرة من أنَّ العِرق لا يُفسِّر التباين البشري؟ في هذا الجزء سوف نتناول بالبحث الافتراضات التالية:

- فكرة العِرق فكرة حقيقية. ومثل جميع الفِكَر، فهي «حقيقية» من حيث إنها تؤثِّر على الفِكَر والأفعال. فنحن لا نرى كل شيء دون الشروع في التصنيف والسعي إلى الفهم وإيجاد معنًى. وقد كان العرق فئة ذات معنًى يومًا ما. إن الفِكَر من قبيل «الديمقراطية» و«التفوق» فِكَر قوية ذات تأثير، والعِرق مِن بين أقوى الفِكَر وأكثرها تأثيرًا.
- يختلف البشر على المستوى البيولوجي، مثلما تُبيِّن أعيننا وأجهزتنا العلمية؛ فالتباين حقيقي أيضًا. وسوف نَستكشف هذا التباين على المستوى المرئي (النمط الظاهري) وكذلك على المستوى الجيني، وبنتائجَ مذهلةٍ.
- التباين البشري شيءٌ حقيقي، ولكن فكرة العرق، كوسيلة لتفسير ودراسة التباين البيولوجي، تَفتقِر إلى الدقة واقعيًّا ونظريًّا وعَفَّى عليها الزمن. وكما يُصرِّح عنوان هذا الجزء، «العرق ≠ التباين البيولوجي البشري». والغرض الأساسي لهذا الجزء هو توضيح هذه «الحقيقة».
- بالإضافة إلى ذلك، ما كنا لنصبح أفضل حالًا علميًّا واجتماعيًّا لو توقَّفنا عن استخدام العرق كمسئول عن التباين البشري البيولوجي واستخدمناه فقط كمُسمًّى اجتماعيٍّ ثقافي. إن فصل حقيقة التباين البشري عن فكرة العرق صحيح علميًّا ويُعدُّ في الوقت نفسه مسألة عدالة اجتماعية.

بعبارةٍ أخرى، العرق والتباين البشري البيولوجي كلاهما حقيقي، ولكن مِن نواحٍ مختلفة. فلا يُمكن لأحدهما أن يُختزَل في الآخر. لقد كان هناك ارتباط بين البيولوجي والاجتماعي، غير أن دراساتنا تُوضِّح لنا أن طريقة ارتباطهما — والتي تتمثَّل أساسًا في كون البيولوجي تفسيرًا للاجتماعي — خاطئة. وكما سنرى لاحقًا، فقد كان لفكرة العرق الاجتماعية خسائرُ بيولوجية فيما يتعلق بالصحة. ولكن الآن يمكننا أن ندفع بأن التباين البيولوجي البشري وفِكَر العرق الاجتماعية في حال أفضل في ظل الانفصال الكامل بينهما.

في الجزء الأول من هذا الكتاب رَوينا قصة كيفية اختراع فكرة العرق وكيف أصبحت حقيقية (انظر النقطة الأولى في قائمة التعداد النقطي الواردة بهذا الفصل). وفي هذا الجزء نصبُّ تركيزنا على النقطتين التاليتَين، اللتين تُوضِّحان أن التباين البيولوجي البشري حقيقي، ولكنه ليس مساويًا للعرق. وفي هذا الإطار نعمل على إيقاع الطلاق بينهما نظرًا لوجود اختلافات لا يُمكن تجاوزها بين فكرة العرق وحقيقة التباين البيولوجي البشري. لقد كان ولَعُ أحدهما بالآخر بمنزلة علاقةٍ غراميةٍ مُراهِقة لا أكثر، وعندما عاشا معًا، صارت حياتاهما متشابكة ومُتداخِلة. ولكن حين صارا يافعَين، صار كلٌّ منهما بعيدًا عن الآخر على نحو يتعذَّر معه إحداث أي توافق. لقد حان الوقت لقطع الحبل الأيديولوجي الرابط بينهما.

إذن، لماذا نَعتبِر هذا اختلافًا خطيرًا؟ لم هذا الطلاق البارد؟

من الدروس الأساسية المستقاة من دراسة كلٍّ من العلم (الذي يُعد نوعًا من الثقافة) والمجتمع؛ أن الفِكَر ذات قوةٍ مؤثرة. والعرق، بالطبع، من بين أقوى الفِكَر تأثيرًا على مر العصور. والاعتقاد هنا بأن العرق والتباين البيولوجي البشري مُتشابهان إلى حدٍّ كبير هو جزء من التاريخ العميق والمؤلم دائمًا للعرق والعرقية.

إن هذا الربط بين العرق والتباين البيولوجي البشري ليس سوى السلاح الأساسي للعُنصريِّين. ولا شك أن تحقيق هذا الربط مُتعمَّد في جزء منه وتصادفيٌّ في أجزاءٍ أخرى. وبمجرد أن ترسَّخ هذا الربط، أمكن استغلاله من قِبَل علماء عنصريِّين وآخرين كانت لديهم نية عميقة لاستغلاله لدعم العبودية والمؤسَّسات الأخرى القائمة على العرق. ولكن يظلُّ الأهم أن سحابة الضباب العرقية قد دفعَت كثيرين لاعتبار المؤسسات العرقية طبيعية، وبدلًا من مناهضة العنصرية، ساعدنا العنصرية وشجَّعناها. وقد حان الوقت لتعطيلها وتجريدها من سلاحها.

لسنا من السذاجة لكي نعتقد أننا سنقضي على العنصرية تمامًا بفصل فكرة العرق عن التنوع البيولوجي البشري، لكن الفِكَر ذات قوةٍ مؤثرة، ومن خلال توضيح أن العرق ليس كالتبايُن البيولوجي البشري، فإننا بذلك نُقوِّض واحدة من العقائد الأيديولوجية الأساسية للعنصرية.

فكِّر في الأيديولوجية كأنها سلاحٌ مملوء بالطلقات. لقد حان الوقت لإخراج تلك الطلقات واحدة تلو الأخرى.

في هذه المقدمة للجزء الثاني سوف نعرض نقطتين أساسيتين هما: (١) أن البشر متباينون بيولوجيًّا بالفعل، و(٢) أن تفسير هذا التباين هو التطور (وليس العرق). بعد

ذلك، في الفصول الثلاثة المؤلِّفة للجزء الثاني، سوف نستوفي التفاصيل من أجل فهمٍ أكثر استيفاءً للاختلافات الأساسية بين العرق «كفكرة»، وبين التباين البيولوجي البشري كمجموعة من السمات القابلة للقياس والقابلة للخضوع للبحث والتقصي العلمي.



شكل ٧-٢: العرق أشبَه بسلاح. يُمكن القول بأنه ليس بالسلاح الذي يصيب ويقتل، ولكن السلاح أداةٌ أيديولوجيةٌ قوية؛ إنه بمنزلة تهديدٍ بالعنف والسيطرة. ومثل سلاح في يدي شخصٍ غاضب، فإن العرق في يدَي شخص عنصري ضارٌّ حقًّا. من كتاب «اكتشاف نات ترنر» تأليف ويليام هنري شيلتون (بتصريح من موسوعة فرجينيا).

(٢) البشر مختلفون بيولوجيًّا بالفعل

تأمَّل هذه التجربة الفكرية. أنت جالسٌ بارتياح في غرفة، إنها غرفةٌ كبيرة مثل صالة للألعاب الرياضية. يَدخل مائتان من أعضاء نوعك (الإنسان العاقل الحديث)، واحدًا تلو الآخر، مائة منهم قادمون من نيروبي، كينيا، والمائة الآخرون يَنحدِرون من أوسلو، بالنرويج؛ أي يفصل بينهم حوالي ٧١٠٩ كيلومترات. فور دخولهم الغرفة، يَصطفُّون

بمحاذاة الجدران ويُمكنك أن تُحرِّكهم وتُنظِّم ترتيبهم عبر الغرفة بأيِّ طريقة شئت. ومهمَّتك بسيطة: أن تضع تخمينًا مدروسًا لتحديد مَن هو قادم من نيروبي ومن هو قادم من أوسلو.

سرعان ما تُلاحظ أن الأفراد مختلفون في لَون البشرة، وكذا لون العين ولون الشعر. بل إنك تشعر بأن ثمَّة مجموعتين من الأفراد، إحداهما ببشرةٍ فاتحةٍ شاحبة وشعرٍ فاتحٍ منسدل، والأخرى ذات بشرةٍ داكنةٍ مائلة إلى اللون البنِّي وشعرٍ داكن ومجعَّد. وتلاحظ أيضًا مجموعةً مُتنوِّعة من الأحجام والأشكال؛ الطويل والقصير، النحيف والممتلئ. ولكن لا يبدو أن هذه الاختلافات في الحجم مرتبطة باختلافات اللون، فتكفَّ عن التركيز عليها. وبالطبع تُخمِّن أن ذوي البشرة والشعر الفاتحَين مِن أوسلو، وأن أولئك ذوي البشرة والشعر الأكثر دُكنةً مِن نيروبي. وتكون شبه واثق من أنك على صواب. وتُوضِّح الصور اختلافاتٍ جلية، في النوع الاجتماعي، والملبس، والشكل الجسماني. في الواقع ربما تكون مُصيبًا تمامًا، فقد وُضع الجميع في خانةٍ تصنيفيةٍ معينة، وتم تصنيفهم على نحوٍ صحيح.



شكل ٧-٣: أطفال كينيون (نُشرت الصورة بتصريحٍ من جيرمي ويلبرن).

ما الذي أثبَتَه هذا؟ إن الإثبات يتأتَّى فقط مع التأكيد المُتكرِّر للنتائج؛ لذا فإن هذا لا يُثبِت الكثير من الناحية الفنية، فيما عدا أنك قد أدَّيتَ عملًا رائعًا في هذا اليوم في فصل أفراد من موقعَين مختلفَين تُباعد بينهما آلافُ الأميال. على الرغم من ذلك، سوف تتَّفق



شكل ٧-٤: فتيات من أوسلو (نُشرت الصورة بتصريح من إيلان كيلمان (http://www.ilankelman.org) التباين العرق).

الأغلبية على أنه يُبيِّن أن الأنماط الظاهرية البشرية تتباين جغرافيًّا على ما يبدو. فالأنماط الظاهرية، والتي تُعرَّف بأنها النتيجة القابلة للقياس للتفاعل بين الجينات والبيئة، تميل للاختلاف حسب الموقع. بل إن الأنماط الجينية، والاختلافات في الألائل، والاختلافات على مستوى المجموع الجيني أو الجينوم، كما سنرى لاحقًا، تختلف أيضًا حسب الموقع، ولكن الأمر المُثير هنا أنَّ بعض جوانب النمط الظاهري، لا سيما لون البشرة، التي نَستطيع نحن البشر أن نراها جميعًا، تتغَّير على نحوٍ خاصٍّ حسب الجغرافيا على ما يبدو.

إذا كان قد سبق لك شراء منزل، فلا شك أنك قد لاحظتَ أن بعض المنازل أكثر تَكلفة من الأخرى؛ فمساحة المنزل أمرٌ مهم شأنها شأن الجودة. ولكن العاملين في مجال العقارات لهم رأيٌ آخر؛ فحين يتعلَّق الأمر بالسِّعر، تجد الوكلاء العقاريين مولَعين بقول: «الموقع، ثم الموقع، ثم الموقع.» فأهم ثلاثة عواملَ فاصلةٍ في تحديد تكاليف السكن هي الموقع «والموقع والموقع».

الشيء نفسه يَسري على التنوع البيولوجي البشري؛ فالموقع يحدد الاختلاف. وسوف نُركِّز في الفصلين العاشر والحادي عشر على كيفية اختلاف القوى التطورية وفقًا للجغرافيا، وأنها القوة المحرِّكة التي تقف خلف الاختلاف الجغرافي الذي نراه.

(٣) التباين ≠ العرق

لو أنك عشتَ خلال القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، لم يكن ليَتوافر لديك أيُّ بديلٍ معرفي، أو إطارٍ مفاهيمي سوى الاعتقاد بأن التباين البيولوجي الذي تلاحظه في الشارع، أو في عيادتك الطبية، أو حتى درسته في معملك لا يختلف إطلاقًا عن العرق. لقد كان التبايُن البشري يندرج تحت العرق؛ فقد كان العرق هو وسيلتك الوحيدة لوصف التباين وتفسيره؛ لذا بطبيعة الحال، وبالعودة مرةً أخرى لاستخدام استعارة الأداة، يستخدم المرء مطرقةَ العِرق للطَّرق على مسمار الاختلاف وتثبيته. وقد بذلتَ أقصى ما لديك بهذه الأداة. وأينما تتعطَّل المطرقة عن العمل، مؤدية إلى ثنْي المسمار في الغالب، كنت تكتفي بتجاوُز الموقف وتتجاهل أنها لم تعمل، وتلتقط مسمارًا آخر. إن هذه النزعة الطبيعية لا تختلف عن تجاهل التباين في الحجم لأنه لا يُساعد في تحديد مَن كان مِن أوسلو؛ فقد أصبحَت فكرة العرق ذات وجودٍ مادي وتحوَّلت إلى وحدةٍ واحدة مع حقيقة التبايُن البيولوجي. نحن لا نرغب في الإيعاز بأن القيام بهذا كان مُؤامرةً مدبَّرة، ولكن من الواضح أن القيام بهذا ساعد على تبرير أنظمة الظلم واللامساواة، مثل العبودية، بل وحتى الفروق المُعاصرة في الثروة. وقد ساعَدَ بناء مثل هذه الاختلافات على إيمانٍ مغلوط بمواضع النقص والتفوق البيولوجية؛ على جعلها تبدو أقل غبنًا.

لا يزال العديد من العلماء والغالبية العظمى من غير العلماء (من الساسة، والمعلمين، وجامعي القمامة ... وهكذا) يُفكِّرون بهذا الأسلوب. فقد صرَّحت اختصاصية الأنثروبولوجيا البيولوجية أليس بروز لصحيفة نيوزويك بأن: «إذا هبطتُ بمنطاد في نيروبي، أعلم أنني لست في أوسلو.» وثمَّة مُتخصصٌ آخر في الأنثروبولوجيا البيولوجية، وهو فينسنت سريتش، كان يقول إن التجربة التي فُصِل فيها النرويجيُّون عن الكينيين تُثبت أن العرق أمرٌ حقيقي.

غير أن التبايُن الذي لاحظتُه للتو — الذي منحنا انطباعًا قويًّا بأنه بديهي وواضح — «ليس» عرقًا. لماذا لا يُعدُّ كذلك؟ الإجابة المختصرة هي أن فكرة العرق تصفُ التباين البيولوجي البشري وتُفسِّره على نحوٍ غير وافٍ. وفيما يلي خمسة أسباب رئيسة تُفسِّر لماذا لا يتشابه العرق مع التباين البشري:

(١) «التطور، وليس العرق، يفسر التباين البيولوجي البشري.» تقوم فكرة تشابُه العرق مع البيولوجيا على الفكرة الخاطئة بوجود أنماطٍ راسخة، ومثالية، وثابتة. لقد

كانت الفئات العرقية في البداية فكرةً شعبيةً أوروبيةً قادمة من عصرٍ كان يُنظر فيه إلى العالم بوصفه عالمًا ثابتًا ولا يتغير. وكما هو موضَّح في الفصل الرابع، كان العلماء الأوروبيُّون يعتقدون يومًا ما أن العالم ثابت وجامد. وقد تغيَّر كل ذلك بفضل نظرية التطور؛ فقد كان وَهمُ الأنماط العرقية الثابتة متناقضًا تمامًا مع نظرية التطور.

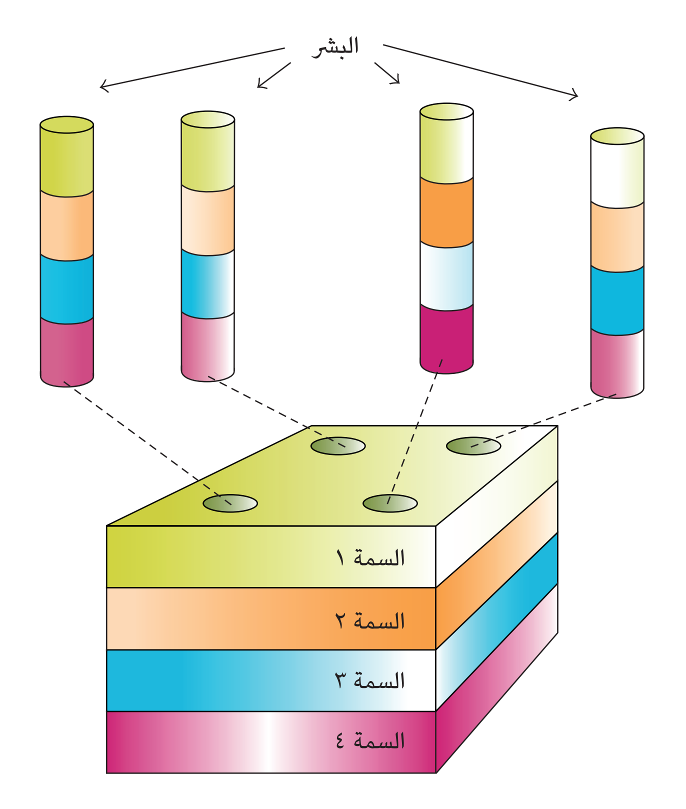
(٢) «التباين البشري مُستمر.» تميل تواتُرات الألائل، أو التباينات في الدنا، إلى الاختلاف تدريجيًّا؛ لذلك «لا يوجد مكانٌ واضح لتحديد مكان بدء عرق ومكان انتهاء آخَر.» فلون البشرة، على سبيل المثال، الذي يُعدُّ أكثر السمات الجسمانية التي نستخدمها لتمييز «الأعراق»، يتغيَّر ببُطء من مكان إلى مكان، ومن شخص إلى شخص.

إذا تأتَّى لشخصٍ ما أن يسير من النرويج إلى نيجيريا، فسوف يُصادف تغيُّراتٍ بطيئةً وتدريجية في لون البشرة. ولا مجال لتحديد مَوضِع انتهاء البشرة السوداء وموضع بدء درجات البشرة الفاتحة على نحوٍ واضح. فالتبايُن مُتواصِل.

ونفس ما يسري بشأن التبايُن المُعتدِل بين الجماعات يسري أيضًا على التباين داخل الجماعات. نَظِّم مجموعةً من الأفراد في صفٍّ حسب الطول وسترى أن التبايُن في الأطوال مُتواصِل. مزيد من التوضيح للتباين المُتواصِل في الطول في النص داخل المربع.

(٣) «التباين البيولوجي البشري يتضمن العديد من السمات التي عادةً ما تتغير على نحوٍ مستقل.» لا يرتبط لون البشرة، على سبيل المثال، إلا ببعض السمات القليلة الأخرى، مثل لون الشعر والعين، تاركًا عددًا ضخمًا من السمات الأخرى خارج نطاق التوقُّعات. فبينما قد تكون لدينا القدرة على التنبؤ بأن الشخص ذا البشرة الفاتحة أكثر ميلًا لأن يكون ذا شعرٍ فاتح، فإننا لا نستطيع التنبُّؤ بأيِّ سماتٍ أخرى تقريبًا. وهكذا يُصبح من الحقائق البديهية أن «العرق مجرد شيءٍ سطحي.»

يقدم شكل ٧-٥ تمثيلًا مرئيًّا لظاهرة استقلال السمات تلك، وقام بوضعه في الأساس باول إرليش وريتشارد هولم (١٩٦٤). تخيَّل أن هناك أربع سمات ممثَّلة بأربع طبقات. افترض في هذه الحالة أن لون البشرة يأتي في الطبقة العليا، يليه لون العين والشعر وشكل الشعر. غير أنه مِن المُمكن اختيار أيِّ سماتٍ أخرى، وبالطبع يوجد آلاف السمات للاختيار من بينها، تتراوَح من البسيط إلى المعقَّد. اعتبر «الأعمدة» الأربعة إما أفرادًا أو مجموعات. يتميَّز الاثنان إلى اليمين بلون بشرة فاتح، ولكنهما يَختلفان في السمات الأخرى. ويُعزى هذا إلى أن الطبقة العليا، أو لون البشرة، لا تتنبَّأ بالتباين في السمات/الطبقات الأخرى؛ فلون البشرة مستقلٌّ بذاته عن معظم السمات الأخرى.



شكل ٧-٥: مكعب التبايُن. يوضِّح المكعَّب فكرة استقلال السمات على نحوٍ مرئي. وضع الرسم آر بويم (أُعيد رسمُه نقلًا عن إرليش، ١٩٦٤) (مُقتبَس من مايكل آلان بارك، كتاب الأنثروبولوجيا البيولوجية، الطبعة الثانية، مجموعة شركات ماكجرو-هيل).

(٤) «التباين الجيني «داخل» ما يُسمَّى بالأعراق أكبر بكثير من التبايُن فيما «بينها».» قد يَعتقد المرء أن التباين الجيني بين الأعراق كبير؛ غير أنه في الواقع لا يوجد سوى اختلاف جيني محدود بين الجماعات التي صرنا نُطلق عليها أعراقًا. على سبيل المثال، قد يكون هناك اختلافٌ على المستوى الجيني بين فردَين قد يُصنَّفان ﮐ «بيض» أكبر بكثير من التباين بينهما وبين شخص مصنَّف من «السود». علاوةً على ذلك، بدلًا من اعتبار الأوروبيين والآسيويين «أعراقًا»، قد يكون من الأدقِّ أن ننظر إليهم كمجموعاتٍ متفرعة

من الأفارقة مختلفة في الشكل؛ إذ إنَّ بني البشر مُنحدِرُون من بشرٍ يَعيشون على أرض تلك القارة. وفي ضوء هذه الحقائق الوراثية، يَعجز العرق ببساطة عن تبرير التباين الجيني فيما بيننا. وهذه الظاهرة موضَّحة تفصيليًّا في الفصول اللاحقة.

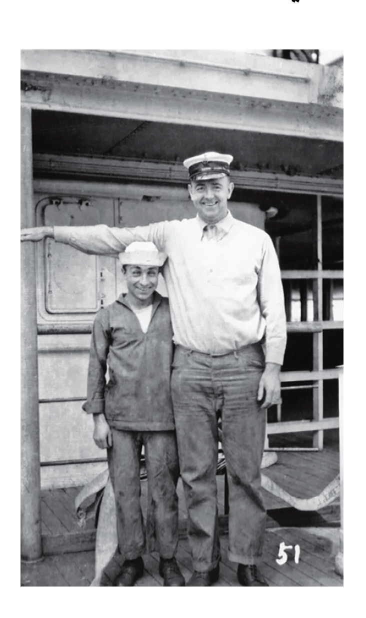
(٥) «لا يُمكن تصنيف البشر دومًا وفقًا للعرق.» من المستحيل إيجاد تعريفٍ ثابت وشامل للجماعات العرقية، وإذا لم يكن بالإمكان تعريفُ الجماعات، فلا يُمكن وضع تعميماتٍ علمية بشأنها؛ فالجماعات العرقية غير مستقرة في المقام الأول؛ نظرًا لتغيُّر الخط اللوني المحدَّد اجتماعيًّا عبر الزمان والمكان. فالشخص الذي يُعتبَر «أبيض» في البرازيل يُمكن اعتباره «أسود» في الولايات المتحدة؛ والشخص الذي يعيش بوصفه «أبيض» في الولايات المتحدة اليوم ربما كان يُعتبر «مكسيكيًّا» قبل جيلٍ مضى. ويُصنَّف أطفال طائفة الروما والرضَّع الآخرون «ذوو البشرة الداكنة» في رومانيا كمُواطنين أدنى درجة، بل وحتى «سود» وغالبًا ما كانوا يُعرضون للتبنِّي في زمن سقوط النظام الشيوعي. وفي الولايات المتحدة؛ حيث كان الأزواج البيض يُطالبون بتبنِّيهم بشدة، كان هؤلاء الأطفال يُعتبَرون «بيضًا». فقد كان تصنيفهم العرقي خاضعًا تمامًا للدولة. ولما كان لا يوجد وسيلة ثابتة ودائمة لتصنيف التنوُّع البيولوجي البشري باستخدام الفئات العرقية، فلا يُمكننا الاستعانة بهذه الفئات لقول أيِّ شيءٍ علمي بشأن التنوع البيولوجي البشري.

ملخص

ثمَّة عدد من الأسباب المترابطة تدفَع بنا إلى حثِّ القارئ بقوة على إعادة التفكير بشأن العلاقة بين فكرة العرق وبنية التباين البشري. فلأسبابٍ نظرية، ولأسبابٍ عملية، وأخرى علمية، يَعجز العرق عن تفسير أو وصف التباين البشري. والنتيجة المترتِّبة على استخدام العرق على نحوٍ غامض هي أن الأفراد غالبًا ما يتَّجهون نحو اتخاذ موقفٍ اعتيادي بتقبُّل فكرة أن العرق له صلة بالوراثة والتطور؛ ومن ثم يُمكن تفسير التفاوت في الصحة وجوانب الحياة الأخرى بناءً على علم الوراثة العرقي. ولكن هذا غير صحيح على المستوى النظري والواقعي. فيبدو الآن أنَّ ارتفاع ضغط الدم لدى جماعات الشتات الأفريقي، على سبيل المثال، (انظر الفصل السادس عشر) يَرتبط بطرُق فهم الاختلاف والديناميات الاجتماعية للون البشرة أكثر مما يَرتبط بالبيولوجيا الكامنة وراءه. وبالطبع لا يُعبِّر لون البشرة عن العرق. علاوةً على ذلك، فقد أعاق التركيز على العرق كشيءٍ وراثي إجراء استكشافٍ وافٍ لعَواقِب التفكير العرقي والعرقية.

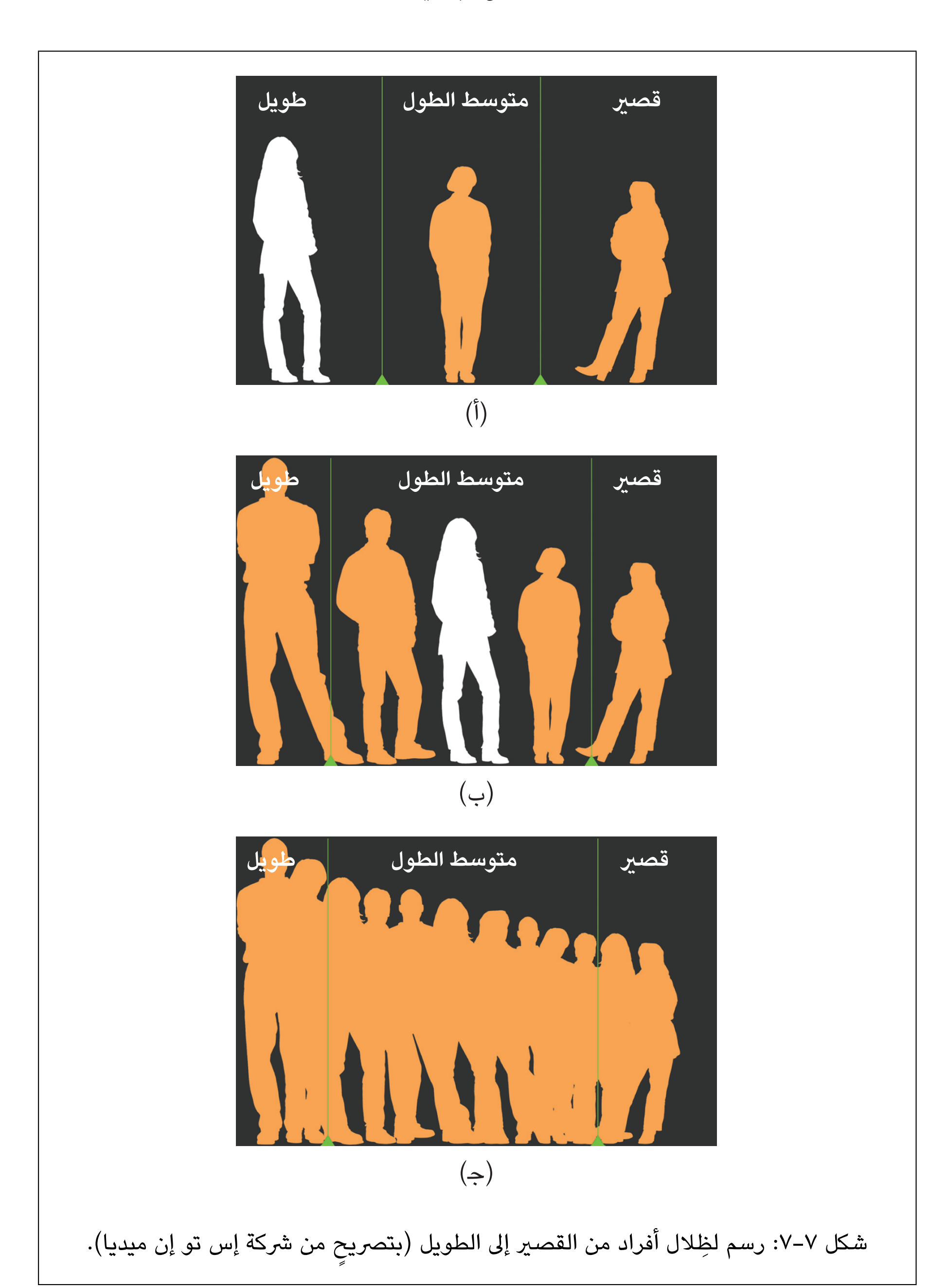
في فصول الجزء الثاني نَستكشِف التفاصيل الخاصة بكيفية حدوث التباين في الخلية المنجلية ولون البشرة، وما الذي تَعنيه التوزيعات الجغرافية العالمية لهذه السِّمات. بعدها سوف نَستكشِف تفصيلًا البِنية الأساسية للتبايُن الوراثي البشري، ذاكرين بعض النتائج المُدهِشة.

الطول، والتاريخ، والتباين البشري



شكل ٧-٦: «الطوال والقصار في البحرية.» صورة NH 45759 # (بتصريحٍ من فرع قيادة البحرية الأمريكية المعنية بالتراث والتاريخ البحري).

ليس كل الاختلاف مرتبطًا بالعرق؛ فبعض التبايُن، مثل الطول، يختلف حسب المجموعة؛ غير أن الشيء اللافت هو درجة التبايُن في الطول والمُتغيِّرات الأخرى الخاصة بالحجم داخل الجماعات. كذلك وجَد علماء الآثار والمؤرِّخون أن الطول يتباين أيضًا عبر العقود، والقرون، والألفيات. ولا غرابة في أنهم قد وجدوا أن الأطوال تتغيَّر مع ازدهارِ وتدهورِ التغذية، والصحة، والظروف المعيشية الأخرى. فهي بمنزلة مقياسٍ بيولوجي لنوعية الحياة. ويُعدُّ الطول مثالًا لسِمَةٍ معقَّدة لها العديد من المسبِّبات الجينية والبيئية.



شكل ٧-٧: رسم لظِلال أفراد من القصير إلى الطويل (بتصريحٍ من شركة إس تو إن ميديا).

يأتي البشر في جميع الأحجام. وقد تغيرت أطوالنا، تاريخيًّا، بناءً على الظروف المعيشية. ومن الواضح أيضًا أن هناك قدرًا كبيرًا من التبايُن داخل أيِّ مجموعة بشرية.

يعدُّ الطول أحد جوانب التغيير التي تُظهِر بوضوح فكرة أن التباين مُتواصِل ومستمر. ويبين شكل ٧-٧ ثلاث طرُق للنظر إلى اختلاف الطول. في شكل ٧-٧أ يَظهر ثلاثة أفراد من الجانب. بإمكانك أن تميِّز بوضوحٍ الشخص القصير القامة عن الشخص المتوسِّط والطويل. ولكن مع إضافة أفرادٍ آخرين، في شكل ٧-٧ب، وشكل ٧-٧ج، يُصبح تحديد موضع الخط الفاصل بين الأفراد أكثر صعوبة؛ فالطول يتحوَّل من سمةٍ متفردة ذات اختلافاتٍ واضحة بين المجموعات إلى سمةٍ متواصلة. وفي الحالة الأخيرة يُصبح من الصعب تحديد مكان وضع الحد الفاصل بين الطويل والقصير على نحوٍ قاطع.

ملاحظات ختامية

التباين أمرٌ رائع. غير أنه لا يَنطبِق على فكرة العرق؛ فالتباين، كما أشرنا من قبلُ، مُتواصِل دون فترات انقطاعٍ واضحة. ونمط التباين في سمةٍ ما يُعدُّ مؤشِّرًا ضعيفًا للتباين في سمةٍ أخرى؛ ومن ثم فنحن حقًّا مخلوقات معقَّدة. فلا يُمكنك أن تحدِّد الكثير من أيِّ سمة بمُفردها.

المراجع

Ehrlich, Paul, and Richard Holm:

1964 A Biological View of Race. *In* The Concept of Race. Ashley Montagu, ed. pp. 153–179. New York: Free Press of Glencoe.

مصادر أخرى

American Anthropological Association:

1998 AAA statement on race. Anthropology Newsletter, September. p. 3. (www.aaanet.org/stmts/racepp.htm.).

AAPA (American Association of Physical Anthropologists):

1996 AAPA Statement on Biological Aspects of Race. American Journal of Physical Anthropology 101: 569–570.

Brace, C. Loring:

1964 A Nonracial Approach Towards the Understanding of Human Diversity. *In* The Concept of Race. Ashley Montagu, ed. pp. 103–152. New York: Free Press of Glencoe.

Diamond, Jared:

1994 Race Without Color. Discover 15(11): 82–89.

Goodman, Alan:

1997 Bred in the Bone? Sciences 37(2): 20–25.

Loveyoy, A. O.:

1936 The Great Chain of Being. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Marks, Jonathan:

1995 Human Biodiversity: Genes, Race, and History. New York: Aldine de Gruyter.

Montagu, A.:

1963 Race, Science and Humanity. New York: Van Nostrand.

Montagu, A.:

1964 Man's Most Dangerous Myth: The Fallacy of Race. Meridian Books: New York.

الفصل الثامن

شيء سطحي؟

(١) الحياة تحت الشمس: توازنٌ تطوريٌّ



شكل ٨-١: يتباين الأفراد وكذلك المَجموعات في لون البشرة «قوس قزح ألوان البشرة لدى البشر» (بتصريحٍ من سارة لين، أرشيف ناشيونال جيوجرافيك).

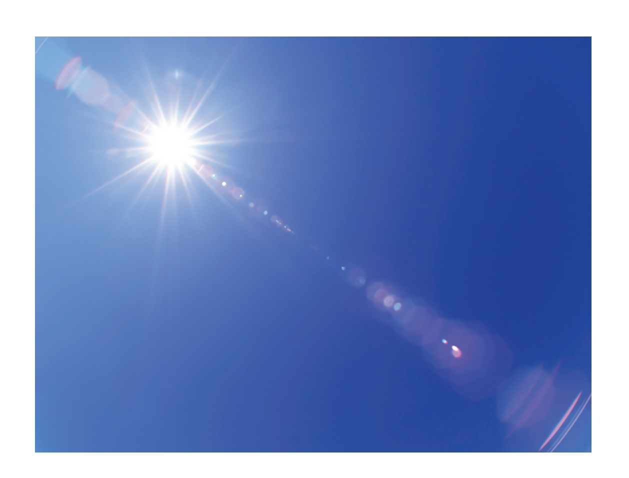
تنشأ التبايُنات في ألوان البشرة من الفاتح إلى الداكن بين الجماعات السُّكانية المُتجاوِرة وكذا الأفراد، على ما يبدو، مِن اختيار الحياة تحت الشمس. إنه انتصار للتطور الإنساني وقصة تتكشَّف خيوطها …

مقتبس من معرض «العرق»،
متحف مينيسوتا للعلوم

(٢) الشمس: العامل المحفِّز

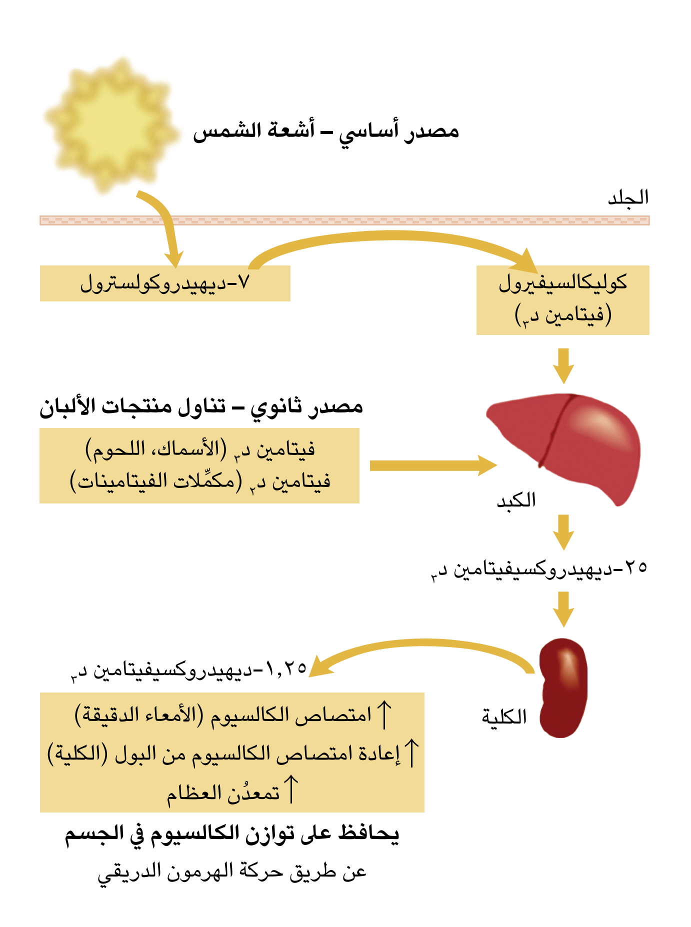
يندر وجود فيتامين د — المركَّب العضوي اللازم لصحَّة الهيكل العظمي — لدى البشر؛ لأنَّ بجانب ضرورة امتصاصه مباشرة من موادَّ غذائيةٍ معينة (وهي الضرورة التي يستمد

منها تصنيفه كفيتامين)، فإنه مُركَّب أشبه بهرمون تُنتجه أجسامنا تلقائيًّا. ويكون في هذا الشكل الأخير غير نَشِط إلى حدٍّ كبير؛ ولكن من خلال التعرُّض للأشعة فوق البنفسجية الموجودة في ضوء الشمس، تقوم أجسامنا بتصنيعه في صورة فيتامين د٣ ونستخدمه إلى جانب فيتامين د٢ الذي نستمدُّه من بعض الأطعمة لتنظيم امتصاصنا للكالسيوم وترسيبه في العظام؛ ومن ثم تكون أشعة الشمس، في هذا الإطار، مفيدة. غير أن التعرُّض لقدرٍ مُفرط من الأشعة فوق البنفسجية يُمكن أيضًا أن يؤدِّي إلى تكسيرِ فيتامينٍ آخَر، يُسمى الفولات (أو حمض الفوليك)، وهو أحد أنواع فيتامينات ب الذي يُشكِّل أهميةً خاصة للنمو الصحي للأجنَّة. ومثل جميع الأشياء، من الممكن أن تحصل على قدرٍ كبير للغاية أو محدود للغاية من شيءٍ مفيد. غير أن التوازن الصحيح، في هذا الشأن، يَعتمد على لون البشرة.



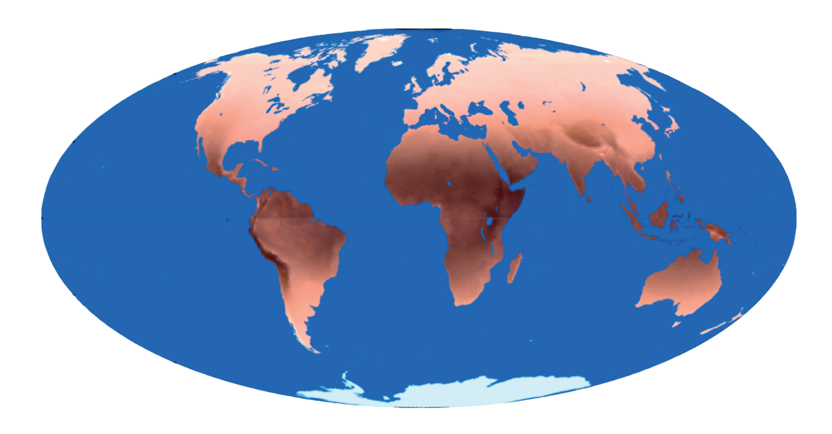
شكل ٨-٢: الحياة تحت الشمس iStockphoto.com/Michieldb ©.

تُنظِّر أخصائية الأنثروبولوجيا التطورية نينا يابلونسكي وآخرون (طالع مقالها الوارد بهذا الفصل) لأنَّ ألوان البشرة المختلفة قد تطورت من أجل تعويض الحاجة إلى الفولات وفيتامين د. يتفاوت كم أشعة الشمس التي يتعرَّض لها الأشخاص حسب المناطق التي يَقطنون بها. فالبشرة الأكثر دُكنة تُثبِّط امتصاص المزيد من الأشعة فوق البنفسجية المدمِّرة للفولات. أما البشرة الأفتح لونًا، فتسمح بامتصاص المزيد من الأشعة فوق البنفسجية، وتُتيح لك تصنيع المزيد من فيتامين د. ووفقًا لنظرية يابلونسكي الرائعة،



شكل ٨-٣: التمثيل الأيضي لفيتامين د. يمكن أن يأتي فيتامين د من الشمس، محوِّلًا مادة غير نَشِطة إلى فيتامين د٣، أو من بعض. الأطعمة المُنتقاة مثل زيوت السمك (بتصريحٍ من هاريت جرينفيلد).

يعدُّ لون البشرة لدى أي مجموعة من السكان مصدر توازن بين الحاجة إلى حماية الفولات والحاجة إلى إنتاج ما يكفي من فيتامين د من أجل النمو والحفاظ على هيكلٍ عظميٍّ صحي. تكيَّفت فصيلة الأناسيات (البشر الأوائل) مع ضغوطٍ انتقائية جديدة عندما انتقلوا من بيئات السافانا الشجرية إلى بيئات السافانا الأكثر دفئًا. على سبيل المثال، أدى ازدياد



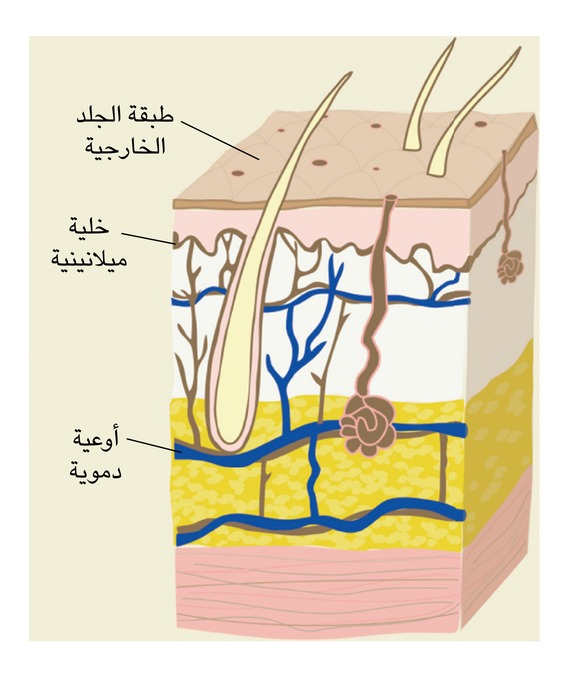
شكل ٨-٤: تقوم هذه الخريطة للألوان المتوقَّعة لجلد الإنسان على نسبة التعرُّض السنوي للأشعة فوق البنفسجية وغيره من العوامل البيئية الأخرى. وهي تُقدِّم تقديرًا تقريبيًّا جيدًا للاختلاف الفعلي في لون البشرة بين مجموعات السكان الأصليين (جورج شابلن، أعيد إنتاجها بتصريح من نينا يابلونسكي).

درجة الحرارة إلى فقدانهم الكثير من شَعر رءوسهم (عدا مناطقَ معينة مثل أعلى الرأس)، واكتساب القدرة على إفراز العرق. بعدها بفترةٍ وجيزة ربما يكونون قد اكتسبوا بشرة أكثر دُكنة أيضًا.

وتشير الأدلة الحفرية والجينية إلى أن البشر الأوائل عاشوا في أفريقيا منذ ما يتراوح بين ١٥٠ ألف و٢٠٠ ألف عام. وأغلب الظن أن بشرتهم قد اكتسبَت صبغةً داكنة من أجل حمايتهم من التعرُّض بمعدَّلٍ مرتفع إلى الأشعة فوق البنفسجية. أما السكان الذين هاجروا من خط الاستواء واستقروا عند خطوط عرض أعلى حيث يقلُّ التعرُّض إلى الأشعة فوق البنفسجية، فقد اكتسبوا بشرةً أفتح على مدار عشرات الآلاف من السنين. وتُعدُّ الطبيعة التدرجية للتغير في لون البشرة عبر المناطق الجغرافية المتجاورة مثالًا لتبايُن مُتواصِل في سِمةٍ ما.

(٣) لون البشرة

يأتي جلد الإنسان في مجموعة من الألوان، وإن كانت تلك المجموعة تُغفل العديد من الألوان المثيرة. فلدينا الكثير من درجات البنِّي والبُرونزي، ولكن لا توجد درجات من الأزرق



شكل ٨-٥: جزء من طبقة مِن الجلد وموقع الخلايا الميلانينية المنتجة للميلانين في الطبقات الداخلية مِن البشرة الخارجية (بتصريحٍ من متحف مينيسوتا للعلوم، سي. جونسون).

والأخضر. ولا توجد مخلوقات كثيرة تَحمل ألوان بشرة بدرجاتها الأساسية مثل الأزرق أو الأحمر. ويَحوي النطاق الكثير من درجات الأبيض، والكريمي، والأسود، والبني؛ ولكن ذلك لا يعوق أعينَنا عن ملاحظته أو يعوق ثقافتنا وأدمغتنا عن إيلاء اهتمامٍ كبير به.

ثمَّة سببٌ بيولوجيٌّ بسيط لتبايُن لون البشرة؛ ألا وهو أنه يرتبط بالأساس بكم «الميلانين» في الطبقات الأعمق من الجلد. فعبر مسار التطور، ربما يكون إنتاج البشر من الميلانين قد زادَ للوفاء بالحاجة البيئية الجديدة للتعرُّض على نحوٍ أكبر للأشعة فوق البنفسجية. ولعلَّ هذا قد ارتبط بفقدان الشَّعر من أجل توزيعٍ أفضل لفقدان الحرارة في المنطقة الاستوائية. يتمُّ إنتاج الميلانين عن طريق خلايا تسمى «الخلايا الميلانينية» توجد أسفل الطبقات الخمس للبشرة (الجلد الخارجي)، والمعروفة بالطبقة القاعدية. يوجد الميلانين أيضًا في العينين (في الحدقة)، وبصيلات الشعر. والشكل الأكثر شيوعًا



شكل ٨-٦: أطفال الإسكيمو. لون بشرتهم (نتيجة زيادة الميلانين) داكن نسبيًّا على الرغم من أنهم يَقطنون في واحدة من أبعد المناطق الشمالية وأبعد ما يكون عن خطِّ الاستواء. قد يكون جزءٌ من تكيُّفهم على هذه الأوضاع بين أيديهم؛ إذ قد تُوفِّر الأسماك مصدرًا لفيتامين د (بتصريح من إريك لورينج).

(الميلانين السوي)، ولونُه بنيٌّ داكن، مسئول بالأساس عن الكثير من التبايُن الذي نراه في لون البشرة ما بين الداكن والفاتح.

(٤) لون البشرة والشمس والتطور

> تُعزى جميع ألوان البشرة، سواء كانت داكنةً أو فاتحة، ليس إلى المفهوم الجامد للعرق، بل إلى تكيُّف الإنسان المُتواصِل مع الحياة تحت الشمس.
>
> معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

لمَ كلُّ هذه الأهمية التي تحظى بها أشعة الشمس؟ مثلما توضِّح يابلونسكي (طالع مقالها في هذا الفصل)، كان العلماء في وقتٍ ما يَفترضون أن اختلاف لون البشرة هو نتاج التعرُّض إلى حرارة وبرودة مُفرطتَين.



شكل ٨-٧: نموذج لكساح الأطفال. لاحظ هنا تقوُّس عظام الساق السفلية (بتصريحٍ من المراكز الأمريكية لمكافحة الأمراض والوقاية منها، التابعة لوزارة الصحة والخدمات البشرية الأمريكية).

عُرف عن البشرة الداكنة منذ وقتٍ طويل ارتباطها بتزايُد التعرُّض لِلَسعة الصقيع، وبقدر ما قد يبدو هذا خطيرًا، فإنه مِن غير المُحتمَل أن يُشكِّل ضغطًا حقيقيًّا على التطور. فرغم كل شيء، لدينا قفازات وأحذيةٌ طويلة، وسُكان الإسكيمو، الذين لا يَحظون ببشرة فاتحة على نحوٍ خاص، يعيشون في بعضٍ من أكثر البيئات برودة. والواقع أن الإسكيمو يُشكِّلون لغزًا تطوريًّا مثيرًا فيما يتعلق بلون البشرة؛ فهم يقطنون واحدًا من الأماكن الواقعة في أقاصي الشمال، إلا أن لون بشرتهم ليس فاتحًا كما كان للمرء أن يتوقَّع لو كانت درجة الحرارة أو دائرة العرض هي السبب الأساسي وراء التباين في لون البشرة. دعنا نُرجئ الإجابة عن هذا اللغز لبرهة. إن البشرة الفاتحة، مثلما قد يكون طبيب الأمراض الجلدية أو والدتُك قد حذَّراك، عُرضة لحروق الشمس وسرطان الجلد، أو الميلانوما. ومهما بلغت حدة هذا النوع من السرطان، فإن من المُستبعَد أن يَقتلك في سنٍّ مبكرة، والسن المبكرة هي السن التي يعمل فيها التطور بأقصى درجة.

ويقودنا ذلك إلى مشكلات التغذية في مرحلة الطفولة. إنَّ نقص الفولات واحد من المسبِّبات الأساسية للعيوب الخلقية لدى الأطفال اليوم؛ فالفولات، وكذلك فيتامينات ب الأخرى، ذو أهميةٍ بالغة للتكوين الصحيح للجهاز العصبي المركزي؛ ولذلك فمِن غير المُستبعَد أن يكون نقص الفولات قوةً انتقائيةً شديدة.



شكل ٨-٨: صورة بالأشعة لطفل مصاب بالكساح، وهي حالة تُعزى إلى نقص فيتامين د. إن العظام الطويلة للسيقان لا تمتصُّ قدرًا كافيًا من الكالسيوم و[الفوسفات]. ونتيجةً لذلك لا تستطيع دعم وزن الجسم بالكامل وتُصبِح مقوَّسة مع الوقت. ويشار إلى الحالة المشابهة لدى الكبار باسم لين العظام (بتصريح من مستشفى شراينرز للأطفال — مينيابوليس — سانت بول (المدينتين التوءمين)).

بالمثل، نحن نعلم أن نقص فيتامين د يُسبِّب مرض الكساح لدى الأطفال، وهو أحد أمراض التغذية (انظر شكل ٨-٧ وشكل ٨-٨). يؤدِّي الكساح إلى تقوُّسٍ ملحوظٍ للساقين، وفي شكله الحاد يُمكن أن يؤدِّي إلى تكوين مشوَّه للحوض؛ مما يُسبب صعوبةً حادة لدى النساء المُصابات بهذه الحالة في الولادة، ما يعني أن المشكلات التناسُلية واضحة. علاوة على ذلك، يعدُّ كساح الأطفال من الأمراض المعروفة التي توجد، على سبيل المثال، بين أبناء الفقراء في إنجلترا في العصر الفيكتوري، الذين كانوا يعملون في المحالِّ والمصانع طوال النهار ولا يتعرَّضون لضوء الشمس إلا قليلًا.

لماذا إذن يتَّسم الإسكيمو ببشرةٍ داكنة نسبيًّا؟ في اعتقادنا أن الإجابة هي أنهم يتعرَّضون تعرُّضًا كافيًا للإشعاع الشمسي المنعكس من الجليد لحمايتهم من الكُساح. وربما أيضًا يحظون بميزةٍ إضافية من تناول الأسماك بما تحتويه من الزيوت؛ حيث تحتوي على فيتامين د. وفيما يلي نص ما قالته نينا يابلونسكي في هذا الشأن:

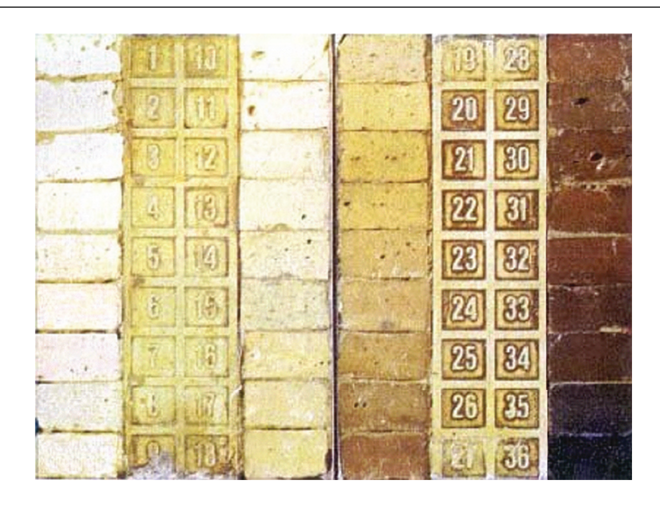
> يتَّسم السكان الأصليون لألاسكا وكندا ببشرة أكثر دُكنة مما قد نتوقَّع. ويُعزى هذا إلى سببَين؛ الأول أنهم يتعرَّضون لمعدلاتٍ مرتفعة من الأشعة فوق البنفسجية خلال فصل الصيف، والتي تنعكس من سطح الثلج والجليد، وبشرتهم الداكنة تُمثِّل حماية لهم من هذا الضوء المنعكس. أما السبب الثاني، فيتمثل في أنه على الرغم من أن بشرتهم الداكنة تبطئ عملية إنتاج فيتامين د في الجلد، فإن هذه المشكلة يُعوِّضها نظامهم الغذائي التقليدي، الذي يتألَّف بالأساس من أطعمة غنية بفيتامين د، مثل الفقمة، والفظ، والسمك.
>
> معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

قياس لون البشرة

من السهل ملاحظة لون البشرة. غير أن قياسه على نحوٍ قابل للقياس والتكرار ليس بهذه السهولة. فالبشر يتبايَنون في لون البشرة على نحوٍ موسمي. فالرضَّع يتميَّزون ببشرةٍ فاتحة تزداد دُكنة مع التقدم في العمر. وثمة أجزاء معينة بالجسم، مثل راحة اليد، تتميز ببشرة أفتح من أجزاء الجسم الأخرى.

حتى أواسط القرن العشرين، لم يكن هناك وسيلة عليها إجماع واسع لقياس لون البشرة، وكان مُعظم علماء الأنثروبولوجيا يُصنِّفون الجماعات ببساطة في فئاتٍ عرقيةٍ تقريبية: فاتح، بني، أسود … إلخ. وفي مرحلةٍ ما تمَّ الاستقرار على استخدام الجزء الداخلي من الذراع كموضعٍ موحَّد لتقييم لون البشرة.

كان من بين المحاوَلات التي بُذلت لتوفير مقارنةٍ أكثر موضوعية تلك التي قام بها عالم الأنثروبولوجيا النمساوي فليكس ريتر فون لوشان. وضع فليكس فون لوشان مجموعة من ٣٦. مربعًا لونيًّا لا تَختلِف عن تلك التي يستخدمها مُصمِّمو الديكور وعمال الطلاء اليوم. حينئذٍ أمكَنَ مُقارنة لون بشرة الفرد بالمربَّعات اللونية الـ ٣٦ (انظر شكل ٨-٩). تقدَّمْ وجرِّب. لسوء الحظ، ومثلما قد تكتشف، تبدو معظم الألوان الفاتحة متشابهة إلى حدٍّ كبير، ومن الصعب الحصول على نفس القياس في كل مرة تستخدم فيها مقياس فون لوشان اللوني.



شكل ٨-٩: مربعات فون لوشان اللونية. استُخدمت هذه المربعات لمضاهاة ألوان البشرة (بتصريحٍ من مجلة ساينتيفيك أمريكان).



شكل ٨-١٠: مثال لاستخدام مقياس الطيف الضوئي للانعكاس (بتصريحٍ من شركة كورتيكس تكنولوجي).

أما اليوم، فيستطيع الباحثون قياس لون البشرة بمزيد من الدقة من خلال قياس النسبة المِئَوية للضوء المنعكس من الجلد. ويُطلَق على هذه التقنية اسم قياس الطيف الضوئي لانعكاس الضوء، وتُنفَّذ بالاستعانة بجهاز قياس الطَّيف الضوئي للانعكاس (شكل ٨-١٠). تعكس البشرة الأفتح مزيدًا من الضوء. ولعلَّ من الأمثلة الرائعة لاستخدام هذا الجهاز دراسة أجراها كلارينس جرافلي، عالم الأنثروبولوجيا بجامعة فلوريدا. قام جرافلي بقياس لون البشرة مُستعينًا بهذه الطريقة في بورتريكو، ثم قارن المقياس «الموضوعي» للون البشرة بكيفية تصنيف الأفراد أحدهم للآخر وفق المصطلح الإسباني «لون». بالطبع كان هناك ترابط بين المقياسَين، ولكن ليس على نحوٍ تامٍّ. المُثير في الأمر أن التصنيف الاجتماعي يرتبط، فيما يبدو، بالتبايُن في ضغط الدم أكثر من ارتباطه بالتصنيف الموضوعي (انظر الفصل السادس عشر).

(٥) نينا جي يابلونسكي: تطور التباين في لون البشرة لدى البشر ومعناه



نينا جي يابلونسكي: أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بجامعة ولاية بنسلفانيا. الصورة بعدسة دونج لين (بتصريحٍ من نينا يابلونسكي).

* * *

يخلو الجلد البشري في الأغلب من الشَّعر، ويأتي في مجموعة من الألوان. بعض الأشخاص لهم بشرةٌ داكنة للغاية شبه سوداء، وآخرون لهم بشرةٌ شاحبة للغاية شبه بيضاء. أما

مُعظم الأشخاص الآخرين، فيتميَّزون ببشرةٍ ذات لونٍ يقع بينَ بينَ. يتباين لون البشرة على نحوٍ ملحوظ لدى الأشخاص من مكانٍ إلى مكان، وبدأت التباينات في لون البشرة تُلاحَظ منذ آلاف السنين حين شرع الناس في السفر والترحال على نحوٍ واسع، والمشاركة في التبادل التجاري عبر مسافاتٍ طويلة. وقد لاحَظ المُراقِبون أن الناس الذين عاشوا تحت أشعة الشمس الشديدة بالقرب من خط الاستواء اكتسبوا بشرةً داكنة، فيما اكتسَب أولئك الذين عاشوا تحت أشعةٍ أقلَّ شدة بعيدًا عن خط الاستواء بشرةً فاتحة. ولكن لماذا؟

منذ قرونٍ عدة، خمَّن بعض الفلاسفة اليونانيين والرومان الأوائل وجود ارتباط بين لون البشرة وبعض السمات الأخرى وبين المناخ؛ فدرجات البشرة الداكنة، وفقًا لهم، نتجت عن الحرارة المُفرطة، بينما نتجت درجات البشرة الفاتحة عن البرودة المفرطة. بحلول مُنتصف القرن الثامن عشر، لاحَظ الفلاسفة الطبيعيون، وكان مِن بينهم الفيلسوف الأمريكي صمويل ستانهوب سميث، أن صبغة لون البشرة تختلف درجتها بوضوح وفقًا لدائرة العرض، من الداكن بالقُرب من خط الاستواء إلى الفاتح في اتجاه القطبين. وقد ربَط هذا على نحوٍ أساسي بالاختلافات في مقدار أشعة الشمس التي يتعرَّض لها الأشخاص عند مختلف دوائر العرض. فكتَب سميث يقول: «إن هذا الاتساق العام في التأثير إنما يُشير إلى وجود تأثير للمناخ، والذي سوف يعمل، تحت نفس الظروف، على نفس الشاكلة.» ولكن هل كانت الحرارة المُنبعثة من الشمس أم شيءٌ آخر في أشعة الشمس هو العاملَ الذي استجابت له البشرة؟

بحلول منتصف القرن العشرين، قرَّر علماء مثل فريدريك لوميس أن لون البشرة اقترن على أقوى نحو بالأشعة فوق البنفسجية المُنبعثة من الشمس. بل إن بحثي يُبيِّن أن الأشعة فوق البنفسجية مسئولة عن أكثر من ٨٧٪ من التبايُن في لون البشرة لدى البشر. إذن كيف يُمكن إثبات أن صبغة بشرة الإنسان هي تكيُّفٌ تطوُّريٌّ فعليٌّ مع الأشعة فوق البنفسجية؟ التكيُّف، في لغة التطور، هو سمة لكائن تُتيح له التناسل بنجاحٍ أكبر تحت ظروفٍ بيئية معيَّنة أكثر من الكائنات التي لا تحظى بهذه السمة. ونحن نحتاج أولًا إلى أن نفهم ما هي الأشعة فوق البنفسجية تحديدًا وماذا تفعل.

الأشعة فوق البنفسجية هي شكلٌ نَشِط للغاية وغير مرئي من الإشعاع الشمسي، قادر على إيقاع الكثير من الضرر بالكائنات الحية. والحياة على الأرض، في العموم، في مأمن مِن الأشعة فوق البنفسجية الضارَّة بفعل الغلاف الجوي؛ ولكن لا يزال قدرٌ من الأشعة فوق البنفسجية يتوغَّل ويخلف آثارًا بيولوجيةً قوية. فالأشعة فوق البنفسجية

تُدمِّر الدنا، وهذا النشاط يُمكن أن يتسبب في النهاية في الإصابة بسرطان الجلد. وسرطان الجلد مرضٌ خبيث، إلا أنه قلَّما يكون مُميتًا ويصيب الأشخاص في العموم بعد سنوات الإنجاب. وثمة آثارٌ ضارة أُخرى للأشعة فوق البنفسجية يُمكن أن يكون لها آثارٌ أفدح بكثير على النجاح التناسُلي. فبعض الأطوال المَوْجية للأشعة فوق البنفسجية تقوم بتكسير جزيئاتٍ بيولوجيةٍ مهمَّة أخرى، مثل بعض أشكال الفولات في الجسم. والفولات هو أحد فيتامينات ب اللازمة لإنتاج الدنا ودعم أيض الخلايا. وعادةً ما نحصل على الفولات من الخضراوات الورقية الخضراء، والفواكه الحمضية، والحبوب الكاملة في نظامنا الغذائي. وبدون الحصول على ما يَكفي من الفولات، لا نستطيع إنتاج كمياتٍ كافيةً من الدنا للحفاظ على المستويات الطبيعية لانقسام الخلايا في أجسامنا. وانقسام الخلايا ضروري من أجل الحفاظ على وظائف الأعضاء والأنسجة في أجسامنا، وذو أهمية خاصة في الأنسجة ذات التدوير المُرتفِع، مثل بطانة الأمعاء وبطانة الفم. يحدث انقسام الخلايا أيضًا على نحوٍ سريع في المراحل الأولى لتكوين الجنين وفي مرحلة إنتاج الحيوانات المنوية. فخلال الأسابيع القليلة الأولى من نموِّ الجنين، يؤدي الانقسام السريع والدقيق للخلايا إلى إنشاء الخطة الجسمانية الأولى للجسم، ونمو الجهاز العصبي والدورة الدموية الأوليَين. وإذا تباطأ انقسام الخلايا أو أُعيق في هذه الفترة الحاسمة، يُمكن أن تحدث عيوبٌ خلقيةٌ خطيرة أو حتى مميتة؛ ومن ثم تُصبح حماية إمدادات الجسم من الفولات أمرًا مهمًّا من أجل تناسُلٍ ناجح. والتناسل الناجح هو محور التطور. إذن كيف أمكن ضمان ذلك؟

فيما يتعلق بالوقاية من الأشعة فوق البنفسجية الضارة، طوَّرت العديد من الأجهزة البيولوجية مُستحضراتٍ طبيعية للوقاية ضد الشمس. إن معظم مستحضرات الوقاية ضد الشمس الطبيعية هي عبارة عن جزيئاتٍ خاصة تحد من ضرر الأشعة فوق البنفسجية من خلال امتصاص أو تشتيت الأشعة فوق البنفسجية. وتُعدُّ الصبغة التي يطلق عليها الميلانين — وخاصة ذلك النوع الشائع في الجلد البشري المسمى الميلانين السوي — واحدةً من أكثر الوسائل الواقية فاعليةً ضد الشمس. فيتميَّز الميلانين السوي بدُكنة شديدة وقدرته على امتصاص الأشعة فوق البنفسجية التي قد يحتمل أن تكون ضارة إلى جانب تحييد النواتج الثانوية الكيميائية الضارة الناتجة عن التعرُّض إلى الأشعة فوق البنفسجية. وغالبًا ما يعمل التطور عن طريق تعديل المسارات أو البنيات البيوكيميائية القائمة بالفعل. وقد كان لدى أسلاف السلالة البشرية القدرة على إنتاج الميلانين السوي في الجلد المكشوف على وجوههم وأيديهم عند التعرُّض إلى الأشعة فوق البنفسجية. وحين

فقد أجدادنا معظم شَعر الجسم، تولَّد ضغطٌ تطوُّري لحماية الجلد المكشوف من الآثار الضارة للأشعة فوق البنفسجية. وكان الحل لهذه المشكلة هو جعل الاصطباغ الداكن دائمًا. وتحقَّق هذا من خلال عملية الانتخاب الطبيعي. وقد تَرك الأفراد الذين حملوا التغيرات أو الطفرات الجينية المؤدِّية إلى إنتاج المزيد من صبغة الميلانين السوي الواقية سلالة أكبر من أولئك الذين لم يحملوا هذه التغيرات. وقد أظهرت الدراسات الجينية أن بعضًا من أهمِّ التغيرات حدثت في جينٍ يُسمى MC1R. يعمل هذا الجين على تنظيم إنتاج بروتين يُسمى مستقبل الميلانوكورتين-١، والذي يؤدي دورًا مهمًّا في عملية الاصطباغ الطبيعي. وجميع أفراد البشرية المعاصرين نشئوا من نسل أجدادٍ ذوي بشرةٍ داكنة والذين طوَّروا تصبُّغًا دائمًا بالميلانين السوي في جلودهم لوقايتهم من أشعة الشمس الغنية بالأشعة فوق البنفسجية التي تُميِّز أفريقيا الاستوائية.

حين هاجر بعضٌ من أسلاف الإنسان الحديث من أشد المناطق المشمسة في أفريقيا إلى جنوب أفريقيا، وآسيا، وأوروبا، وجدوا مستوياتٍ أقل من الأشعة فوق البنفسجية. وكان هذا يعني مواجهة ضررٍ مُحتمَل أقل لأجسامهم جراء الإشعاع الضار، ولكن كان هناك جانبٌ سلبي أيضًا؛ فالأشعة فوق البنفسجية ليست بالشيء السيئ في مجملها؛ والشيء الجيد المهم الوحيد الذي تقوم به هو بدء عملية تصنيع فيتامين د في الجلد. ويساعدنا فيتامين د على بناء هيكلٍ عظميٍّ قوي والحفاظ عليه عن طريق تنظيم امتصاص الكالسيوم من الأطعمة التي نتناولها. وبدون وجود ما يكفي من فيتامين د، لا تنمو العظام على نحوٍ صحيح وتُصاب بالضعف. كذلك يساعد فيتامين د في الحفاظ على صحة الجهاز المناعي. فإذا لم نحصل على قدرٍ كافٍ من فيتامين د، يُمكن أن تُصبِح أجسامنا ضعيفة وعرضة للأمراض. ثمَّة أطوالٌ مَوْجيةٌ معيَّنة من الأشعة فوق البنفسجية هي وحدها القادرة على بدء عملية إنتاج فيتامين د في الجلد، وهي توجد في نطاق الموجة المتوسطة من الأشعة فوق البنفسجية. ويَستقبِل خط الاستواء الكثير من الأشعة فوق البنفسجية ذات الموجات المتوسطة على مدار العام، ولكن تقلُّ هذه الموجات كثيرًا شمال وجنوب المنطقة الاستوائية (٢٣٫٥° شمالًا و٢٣٫٥° جنوبًا)، وتظهر موسميًّا إلى حدٍّ كبير. والبشرة الداكنة التي تحوي الكثير من الميلانين الواقي من الشمس تُبطئ من عملية إنتاج فيتامين د في الجلد؛ ومن ثم فرَضت هذه الظروف تحدِّيًا جديدًا على أسلافنا. فكيف أمكن الحفاظ على إنتاج فيتامين د لدى الأشخاص الذين كانوا يعيشون تحت ظروف انخفاض الأشعة فوق البنفسجية المتوسِّطة الموجات؟ الإجابة هي: بالبشرة الفاتحة.

البشرة الفاتحة هي في الواقع بشرةٌ منزوعة الصبغة. حين شرَع الناس في الهجرة من الأماكن المشمسة للغاية التي تتميَّز بمستويات أعلى من الأشعة فوق البنفسجية ذات الموجات المتوسِّطة، استطاع الأفراد ذوو البشرة الفاتحة البقاء في حالةٍ صحية أفضل وتركوا وراءهم نسلًا أكبر، فيما يُمثِّل عودة التطور إلى العمل من جديد. لقد مرَّ الأفراد ذوو البشرة الفاتحة بطفراتٍ جينيةٍ معيَّنة أدَّت إلى خفض إنتاج الميلانين؛ ومن ثم انخفاض الواقي الطبيعي من الشمس في جلودهم. وكانت هذه الأنماط الجديدة من التباين الجيني ناجحة للغاية. ونرى الدليل على ذلك، في الواقع، في كون «عمليات المسح الانتقائي» — وهي فترات من التطوُّر مسرَّعة إلى حدٍّ كبير بفعل عملية الانتخاب الطبيعي — أدت إلى اتساع نطاق جينات البشرة الفاتحة في غضون فترة لم تتجاوز بضع آلاف من الأعوام.

لعلَّ من أهمِّ الأشياء وأكثرها إثارة بشأن عملية نزْع الصباغ أنها لم تَحدث مرةً واحدة فقط. فالأدلة الجينية تُظهِر أن أسلاف الأوروبيين الغربيين المعاصرين وأسلاف الآسيويين الشرقيِّين المُعاصرين قد مرُّوا بتغيرات جينية مستقلَّة أدت إلى تطور بشرةٍ أفتح. وقد تخلَّل هذه التغيرات طفراتٌ جينيةٌ مختلفة، دُعمت بعد ذلك بفعل عملية الانتخاب الطبيعي. بعبارةٍ أخرى، لقد تطوَّرت عملية نزع الصباغ على نحوٍ مُستقلٍّ لدى كلتا سلالتَي البشر المعاصرين الذين بدءوا في استيطان دوائر العرض الأعلى من نصف الكرة الشمالي. كذلك نعرف من فحص الدنا أن فقدان صبغة الجلد نتيجة للانتخاب الطبيعي حدَث لدى أبناء عمومتنا البعيدين المُنقرضين، النياندرتال، الذين استوطنوا جزءًا كبيرًا من أوروبا الشرقية والمنطقة حول البحر المتوسط في أثناء العصر الجليدي الأخير.

مع تنقل البشر المعاصرين حول العالم بأعدادٍ أكبر وعبر مسافاتٍ أطول منذ فترة تراوَحَت ما بين ٥٠ ألف و١٠ آلاف عام، حدَث الكثير من التكيُّف في تطور اصطباغ الجلد. ومع انتقال السكان إلى أجزاء من العالم مختلفة من حيث مستويات الأشعة فوق البنفسجية، مرُّوا بتغيرات جينية عدلت تصبغ الجلد لديهم. فمع انتقال الناس من آسيا إلى الأمريكتين، على سبيل المثال، نرى أدلة على أن بعض الجماعات السكانية الذين دخلوا بيئاتٍ ذات مستوياتٍ مرتفعة من الأشعة فوق البنفسجية مرُّوا بتغيراتٍ جينية أتاحت لهم اكتساب سمرة بسهولة. والاسمرار هو القدرة على اكتساب تصبُّغ مؤقَّت بالميلانين في الجلد استجابة إلى الأشعة فوق البنفسجية، وقد تطوَّر مراتٍ عدة لدى الشعوب التي تعيش تحت أنماطٍ موسمية لأشعة الشمس إلى حدٍّ كبير.

خلال الـ ١٠ آلاف عام الأخيرة، أصبحنا أفضل وأفضل في حماية أنفسنا ضد الكميات المفرطة من الأشعة فوق البنفسجية بوسائلَ حضارية؛ فالثياب المخيطة والمساكن المبنية

تحمينا الآن من أشعة الشمس القوية، وتُعزِّز الحماية التي تُوفِّرها صبغة الميلانين الطبيعية. وفي بيئات أقصى الشمال، تعمل الأنظمة الغذائية المكوَّنة من أطعمةٍ غنية بفيتامين د مثل الأسماك الزيتية والثدييات البحرية كمُكمِّل لفيتامين د الذي نستطيع إنتاجه في جلودنا، في ظل ظروف انخفاض الأشعة فوق البنفسجية. المشكلة الكبرى التي نواجهها اليوم هي أننا نستطيع السفر لمسافاتٍ بعيدة بأقصى سرعة. والكثير من الناس اليوم يعيشون أو يقضون العطلات بعيدًا عن أرض أسلافهم. وهذا يعني أن لون بشرتنا غالبًا ما لا يَتوافق مع مُستويات الأشعة فوق البنفسجية التي نتعرض لها. والأشخاص ذوو الصبغة الداكنة الذين يعيشون في بيئات يقلُّ فيها مستوى الأشعة فوق البنفسجية، والأشخاص الذين يعملون داخل المكاتب طوال الوقت يواجهون خطورةً كبيرة من الإصابة بنقص فيتامين د. أما الأشخاص الذين يعيشون في بيئاتٍ ذات مستوياتٍ عالية من الأشعة فوق البنفسجية، فيُواجِهون خطورةً كبيرة من الإصابة بسرطانات الجلد. ولا بدَّ من إدراك هذه المشكلات من أجل تجنُّب المشكلات الصحية الخطيرة.

يُوفر تصبُّغ الجلد واحدًا من أفضل نماذج التطور من خلال تأثير الانتخاب الطبيعي على جسم الإنسان. إن حقيقة أن لون البشرة كان في غاية الاستجابة للقُوى التطورية حقيقةٌ مُبهرة وتُشكِّل أهمية للمجتمعات البشرية الحديثة. لقد تطورت ألوان مشابهة للبشرة — داكنة وفاتحة على حدٍّ سواء — على نحوٍ مُستقلٍّ عدة مرات في التاريخ الإنساني. وحين نُفكِّر كيف كانت الأعراق تُعرَّف في الماضي باستخدام لون البشرة، يمكننا أن نرى المشكلة في الحال. فإذا كان لون البشرة نفسه يتطوَّر عدة مرات على نحوٍ مُستقلٍّ في أماكنَ مختلفة، فإن قيمته كعلامةٍ فريدة على الهوية تزولُ ويصير العرق الذي يُعرَّف على هذا النحو بلا معنًى. فقط استمتع بكونك «إنسانًا ذا لون متفرِّد!»

(٦) لون البشرة لا يُفسِّر السمات الأعمق

تُخبرنا الصور والكاميرات التلفزيونية أن الناس في أوسلو بالنرويج، والقاهرة بمصر، ونيروبي بكينيا يَبدُون مختلفين للغاية من حيث الشكل. وحين نلتقي فعليًّا أناسًا من هذه المناطق المتفرِّقة، يُمكننا أن نرى صورًا لتلك الاختلافات على نحوٍ مباشر. ولكن إذا سار أحدهم عبر نهر النيل من القاهرة إلى الخرطوم في السودان ومنها إلى نيروبي، فلن يكون هناك حدٌّ واضح يفصل بين كل شعب والشعب الذي يليه. نفس الأمر يسري إذا توجَّه أحدهم شمالًا من القاهرة



شكل ٨-١١: المسار من نيروبي إلى أوسلو (بتصريحٍ من متحف مينيسوتا للعلوم، روجر بويم).

> متَّجهًا إلى روسيا، ليَعرج في النهاية غربًا إلى اسكندينافيا. فتجد الناس في أيِّ محطاتٍ مُجاورة عبر الطريق يشبه أحدهم الآخر أكثر مما يُشبهون أي شخصٍ آخر؛ إذ إنهم في النهاية تربطهم صلات قرابة. وكقاعدةٍ عامة، يتزوَّج الفتى من الفتاة التي تَسكن في جواره في كل أنحاء العالم، ولكن الفتى الذي في المنزل المُجاور يَتنقَّل بلا توقُّف من منطقة إلى أخرى.
>
> سي لورينج بريس، أستاذ الأنثروبولوجيا،
> جامعة ميشيجان: معرض العرق،
> متحف مينيسوتا للعلوم

بالطبع غالبًا ما يكون لون البشرة بمنزلة «العلامة» العِرقية الأساسية في الولايات المتحدة وأماكنَ أخرى. ولكنه في الواقع واحد من أنفع سمات «النمَط الظاهري» لإظهار القيود التفسيرية للعرق البيولوجي. ويُعزى هذا إلى أن الافتراضات الكامنة خلف التصنيفات التقليدية القائمة على العِرق تُناقض المفهومَين المرتبطَين بالتبايُن البيولوجي البشري.

إن لون البشرة لا صِلة له، علميًّا، بالعرق. وكما أوضَحنا أعلاه، فإن للون البشرة تفسيرًا مختلفًا؛ ألا وهو التطوُّر؛ فلون البشرة، بالذات، يتباين نتيجة اختيار القدرة على معالجة فيتامين د في مقابل الوقاية من تدهور الفولات. علاوة على ذلك، يتبايَن العديد من الأفراد ذوي البشرة الداكنة؛ من جنوب الهند وسريلانكا، ومن أفريقيا الوسطى ومن جُزر المُحيط الهادئ على نحوٍ كبير في سماتٍ أخرى، وتطوَّروا على نحوٍ مُنفصِل. بلغةٍ شعبية، سوف نُصنِّفهم بوصفهم من أعراقٍ مختلفة، على الرغم من التشابه الكبير في ألوان بشرتهم.

المفهوم الأول الموضَّح بالأمثلة في توزيع لون البشرة هو «التبايُن المُتواصِل». ومرةً أخرى، ستجد التوزيع الجغرافي للون البشرة موضَّحًا في شكل ٨-٤. يجدر بك ملاحظة أن الامتزاج التدريجي لألوان البشرة أحدها داخل الآخر عبر التغيُّرات المتدرِّجة والجماعات السكانية هو دالة للمساحة الجغرافية ولا يتوافَق إطلاقًا مع أي فصلٍ واضح بين هذه الجماعات السكانية. ونتيجة لذلك يُعتبَر التمييز العرقي القائم على لون البشرة (والسمات المُتواصلة الأخرى) مُجحفًا؛ أو على الأقل غير مُبرهن.

الدرس المُهم الأخير هو أن لون البشرة لا يُفسِّر العديد من التبايُنات الأخرى. تذكَّر المُكعَّب ذا الطبقات الأربع (انظر شكل ٧-٥، مكعَّب التبايُن)؛ حيث تُمثِّل كل طبقة توزيعًا

لِسِمةٍ مختلفة. في هذا المثال، تكون الطبقة العليا هي لون البشرة، يليها لون العين، ثم لون الشعر، ثم شكل الشعر. يُمكننا أن نتخيَّل سماتٍ أخرى، مثل الطول والوزن أو سماتٍ جينية. الآن أقمنا أربعة أعمدة لكشف الطبقات الأربع. من المُمكن أن يُمثِّل كلُّ عمود فردًا أو جماعة، مع ملاحظة أن العمودَين إلى اليمين لهما نفس لون البشرة. ولكن لاحظ الآن الاختلاف في الطبقات الأعمق. بعبارةٍ أخرى، لم تتنبَّأ الطبقة العليا بالطبقات الأعمق.

يُعزى هذا إلى ضعف ارتباط لون البشرة بمُعظم السمات البشرية الأخرى. فلا يُمكن للون البشرة أن يتنبأ بالسمات الأخرى. المُثير في الأمر أن الشيء نفسه يسري بالنسبة إلى جميع السمات الأخرى. فالسِّمات ذات الصِّلة باللون تتلازَم بشكلٍ محدود إحداها مع الأخرى، شأنها شأن السمات المرتبطة بالحجم. ولكن السمات الخاصة بالحجم لا ترتبط بأي شكلٍ بالسِّمات الخاصة باللون، كذلك فإن كلًّا مِن السمات الخاصة بالحجم وتلك الخاصة باللون لا تَرتبِط على أيِّ نحوٍ قوي وذي معنًى بالسمات الجينية الأخرى أو بالسمات المعقَّدة. وهذا ما يُطلَق عليه عدم التوافُق أو استقلال السمات. ومعناه أن التطوُّر يَميل إلى انتخاب بعض السمات معًا، ولكن ليس مجموعاتٍ كبيرةً منها. ويَعني أيضًا أنه إذا كان العرق هو لون البشرة، فهو مجرد شيءٍ سطحي.

ملاحظات ختامية

إلى أيِّ مدًى سيَستمر تبايُن لون البشرة، والعرق، والعنصرية في التطوُّر المُشترك معًا في الولايات المتحدة؟ ليس هذا بالأمر الذي يسهُل التنبؤ به. إن تبايُن لون البشرة جانبٌ مهم وشائق من تاريخ الإنسان وصحته. في الواقع، إن اكتساب فهمٍ إيكولوجي للون البشرة أمرٌ حيوي لحِماية الدنا والحفاظ على معدَّلاتٍ صحية من فيتامين د والفولات، اللذَين يُشكِّلان أهميةً بالغة لنمو وتطوُّر الهيكل العُظمى والصحة الإنجابية.

يُشير البعض إلى أننا عندما نُصبِح أكثر مرونة إزاء تراث أمتنا المتعدِّد الأعراق، سوف تُصبِح التصنيفات والهويات العرقية أكثر سلاسة. ولكن حتى في المناطق من العالم حيث الهويات العرقية أكثر تعقيدًا بالفعل من تلك المُعتمدة تقليديًّا في الولايات المتَّحدة، يظلُّ التمييز على أساس لون البشرة مستمرًّا. وفي هذا تأكيد على الحاجة إلى التنازُل عن فكرة الأعراق البيولوجية البشرية من الأساس. وبقدر ما نتمنَّى أن يكون هذا الأمر واضحًا، فإن هذا لا يَعني معارضة وجود الاختلافات البيولوجية بين الشعوب البشرية. بل إنه خطوةٌ

مُهمة نحو فهم أيٌّ من هذه الاختلافات مُهم؟ ولماذا يجب أن نَستكشفها ونحتفي بها في النهاية؟

إن التبايُن، حسبما يوضِّح عالم الأنثروبولوجيا البارز سي لورينج بريس، رهن التقييم المتواصل. وذاك واحد من الدروس الواضحة المستفادة من لون البشرة. ثمة درسٌ آخر أعمق هو أن التطور، وليس العرق، يُفسِّر التباين الملحوظ؛ فالحياة، كما سنوضح في الفصل التاسع، ميزانٌ رائع.

مصادر أخرى

Blum, H. F.:

1961 Does the Melanin Pigment of Human Skin Have Adaptive Value? Quarterly Review of Biology 3: 50–63.

Brace, C. Loring:

2005 "Race" Is a Four Letter Word: The Genesis of the Concept. Oxford University Press, New York.

http://www.understandingRACE.org/humvar/index.html.

Jablonski, Nina G.:

2006 Skin: A Natural History. Berkeley: University of California Press.

Jablonski, Nina G., and George Chaplin:

2000 The Evolution of Human Skin Coloration. Journal of Human Evolution 39(1): 57–106.

Loomis, W. F.:

1967 Skin-Pigment Regulation of Vitamin-D Biosynthesis in Man. Science 157: 501–506.

Relethford, J. H.:

2000 Human Skin Color Diversity is Highest in Sub-Saharan African Populations. Human Biology; An International Record of Research 72(5): 773–780. PMID 11126724.

Roberts, D. F.:

1977 Human Pigmentation: Its Geographical and Racial Distribution And Biological Significance. Journal of the Society of Cosmetic Chemists 28: 329–342.

الفصل التاسع

داء الأنيميا المنجلية

ليس للسود وحدهم

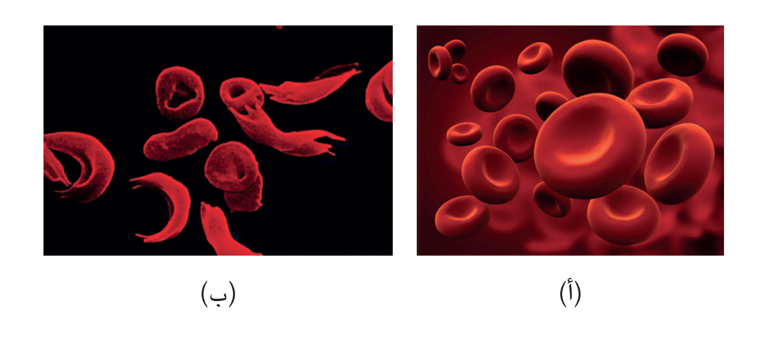
على الرغم من أن داء الأنيميا المنجلية يُنظر إليه على أنه مرضٌ مقصور على «السود» في الولايات المتحدة، يَشيع الجين المسبِّب له في أجزاء من أفريقيا، والشرق الأوسط، وأوروبا الجنوبية، وجنوب آسيا. وثمَّة اعتقادٌ واسع بأنَّ تمنجُل خلايا الدم الحمراء قد نشأ في الأصل عن طريق الانتخاب الطبيعي كاستجابةٍ وقائية للملاريا. والأشخاص المصابون بالأنيميا المنجلية أقل عرضة للوفاة بسبب الملاريا.

كاثي جيه تاشيرو، أستاذ التمريض
بجامعة واشنطن؛ معرض العرق،
متحف مينيسوتا للعلوم

يُقدم المتغير الجيني المسمى بالخلية المنجلية مثالًا مثيرًا لكيفية تشكيل التطور البشري للتبايُن. يُعدُّ مرض الخلايا المنجلية، والمتغير الجيني البشري المسمى بسمة الخلايا المنجلية (نسخة من أليل الخلية المنجلية مقارنة بنسختين في داء الخلايا المنجلية)، شأنه شأن لون البشرة، نتائج للعمليات البيوثقافية للتطور والتاريخ الإنساني. في هذه الحالة، يكون عامل الضغط التطوري وحيدًا وواضحًا ألا وهو: الملاريا. فمنذ مواجهة البشر طفيل الملاريا، الذي يَحمله البعوض، عانى البشر وحدثت وفَيات بالملايين. لطالما كانت الملاريا

تُقاوم جهود المكافحة ولا تزال تَقتل آلافَ وملايين الأفراد كل عام. غير أن سِمة الخلية المنجلية، وهي عبارة عن وجود نسخةٍ واحدة من التباين الجيني، تبدو وسيطًا جينيًّا فعَّالًا بين الملاريا وداء الخلايا المنجلية. فسِمة الخلية المنجلية تمنح مقاومة للملاريا دون جلب أضرار داء الخلايا المنجلية.

غير أن من الجوانب المُثيرة الأخرى لداء الخلية المنجلية؛ الكيفية التي ترسَّخت بها سِمةٌ ما في ثقافتنا كمرضٍ مقصور على السود أو الأفارقة، في حين أن هذا الارتباط بأفريقيا ارتباطٌ غير سببي.



(أ) (ب)

شكل ٩-١: خلايا دم حمراء طبيعية (شكل أ) وخلايا دم حمراء مُتمنجلة (شكل ب). خلايا الدم الحمراء السليمة، الغنية بالهيموجلوبين الحامل للأكسجين، هي عبارة عن أقراصٍ مُستديرة مَرِنة تتحرَّك بسلاسة عبر الأوعية الدموية الصغيرة. أما خلايا الدم الحمراء الهلالية الشكل، على الجانب الآخر، فيُمكِن أن تتجلَّط وتعلق في الأوعية الدموية الصغيرة، مُسبِّبةً نوبة أنيميا (بتصريح من (أ) شركة أوميكرون، فوتو ريسيرشرز؛ و(ب) iStockphoto.com/adventtr ©).

(١) التاريخ الطبي: اكتشاف خلايا دم حمراء غريبة الشكل

اكتُشف «تمنجل» خلايا الدم الحمراء لأول مرة على يد أطباء في الولايات المتحدة وأوروبا. وجاء اكتشافه لدى أفرادٍ من أصولٍ أفريقية. ونُشر أول اكتشاف للخلايا المنجلية الشكل منذ حوالي قرن. وكان هذا في وقت كان غالبًا ما يُنظر فيه إلى الأمراض كأمراض «عرقية» ووقَع داء الخلايا المنجلية ضمن هذا النظام التصنيفي كمرض من أمراض «دم الزنوج». وسرعان ما تمَّ تأطير التمنجل بقوة في الأدبيات الطبية كحالة مميَّزة لما يُسمى بالزنوج. في هذا الوقت وُضِعت مجموعةٌ كبيرة من الأمراض، من أمراض القلب إلى تكيُّسات

المبيض، في هذا الإطار العرقي. وبالتأمل في الماضي، نجد أن التصنيفات غالبًا لم يكن لها مُبرِّراتٌ طبية أو بيولوجيةٌ معقولة. غير أن خلال هذه الفترة كان من الاعتقادات الطبية السائدة أن الأوروبيين (البيض) أكثر عُرضة بالفعل إلى ما يُسمى بأمراض الحضارة (وهو تصنيفٌ غريبٌ آخر)، بينما لم يكن السود كذلك. بالطبع نحن نعلم اليوم أن «أمراض الحضارة» هذه، مثل السرطان وأمراض القلب، مميتة للأمريكيين الأفارقة أكثر من الأمريكيين البيض.

فور ربط داء الخلايا المنجلية لأول مرة بالأصول الأفريقية، بات من الصعب كسر هذا الارتباط؛ فالمعرفة الطبية المُفترَض أنها صحيحة يتمُّ تداولها بسهولة من المعلم إلى الطلاب ومن طبعة كتابٍ مدرسي إلى أخرى. والواقع أن هذه الارتباط لداء الخلايا المنجلية بالأصول الأفريقية باقٍ حتى اليوم، على الأقل في الثقافة الشعبية. صحيح، بالطبع، أنه إذا كان الشخص من أصلٍ أفريقي، خاصة من غرب أفريقيا؛ حيث يكون تواتُر السمة في أعلى معدلاته، يكون أكثر عرضة للإصابة بالخلايا المنجلية، ولكنه، كما سنرى، ليس «ملازمًا» للدم الأسود حسب تفسير العرق له.

مع التطوُّر وتزايُد استخدام الميكروسكوب في الطب ومولِّد تخصُّص الدمويات كتخصُّص طبِّي، والذي يُعنى بدراسة الدم وأمراضِه، لم يَستغرق الأمر طويلًا حتى تمَّ اكتشاف أن ليس جميع خلايا الدم الحمراء تتَّخذ نفس الشكل التام؛ ففي معرض كتابته عن رابع حالة من حالات الخلايا المنجلية التي نُشرت في عام ١٩٢٢، كتَب فيرنون ماسون يقول: «من الأهمية بمكانٍ الإشارةُ إلى أن المرض حتى الآن قد شوهد لدى السود فقط» (١٩٢٢: ١٣٢٠). وبعد بضع سنوات، اتَّفق معه مختص الدمويات توماس بي كولي في أن «أنيميا الخلايا المنجلية عرقية بوضوح» (١٩٢٨: ١٢٥٨).

حالَ تصنيف المرض كمرضٍ عرقي دون تشخيص أنيميا الخلايا المُنجلية لدى أي شخص أوروبي. في البداية مضى الأطباء الذين اكتشفوا الخلايا المنجلية لدى مريضٍ أوروبي، حسبما يفُترض، يبحثون عن أدلة على وجود اختلاط بدمٍ أفريقي بدلًا من تحدي التمييز العرقي للمتغيِّر الجيني (تابر ١٩٩٥). على سبيل المثال، يتحدَّث تي إس لورانس، وهو طبيبٌ أمريكي، عن احتمال وجود حالة خلايا منجلية لدى شخص أوروبي فيقول: «أوليتُ انتباهًا خاصًّا إلى مسألة الامتزاج العرقي بدمٍ زنجي في العائلة، ولكن تعذَّر الحصول على دليلٍ على ذلك — لا بد مِن توخِّي بعض الحذر في تسمية هذا المرض بأنيميا الخلايا المنجلية؛ إذ تعذَّر العثور على دليل على وجود دمٍ زنجي» (لورانس ١٩٢٧: ٤٤).

أعمى ربْطُ الأعراق كفئاتٍ مختلفة بأمراض مختلفة الأطباءَ عن احتمالية أن تكون الخلية المنجلية مرضًا لا يقتصر على السود على نحوٍ بحت. ولا يزال ارتباط داء الخلية المنجلية بطريقةٍ ما باللون الأسود أمرًا مسلَّمًا به على نطاقٍ واسع حتى اليوم. وسوف نبدأ هنا بتوضيح المقصود بالخلية المنجلية، وكيف تطوَّرت، ولِم تُعدُّ الخلية المنجلية مثالًا للانتخاب، والتطور، والتاريخ وليس العرق؟

(٢) ما المقصود بالخلية المنجلية؟ الوراثة والعواقب الفسيولوجية

الخلية المنجلية هي متغيِّر لخلية الدم الحمراء (انظر شكل ٩-١). وهي متغيرٌ نمَطي ظاهري يُمكن مشاهدته من خلال فحص خلايا الدم تحت ميكروسكوب. وقد اكتُشف هذا المُتغير النمطي الظاهري قبل حوالي قرن. والمسألة الخاصة بمسبِّباتها ولماذا تحدث مسألة ذات أهمية من الناحية الطبية.

تتَّسم معظم التبايُنات الظاهرية، مثل لون البشرة أو خطر الإصابة بأمراض القلب، بتعقيدٍ ملحوظ؛ فهي ليست نتاج امتزاج جيناتٍ متعدِّدة وظروفٍ بيئية فحسب، بل إن هذا المزيج يتغيَّر من شخصٍ إلى آخَر وعلى مدار عُمرِ الشخص؛ ولذلك لا يمكن بسهولة تحديد أسبابٍ فردية أو القول، في بعض الأحيان، بأن «س» هو سبب «ص» بالمائة من الحالة. ولو أننا استَطعنا القيامَ بذلك، لكان أداؤنا أفضل كثيرًا في الوقاية من الأمراض ومعالجتها، وفي حلِّ الكثير من المشكلات.

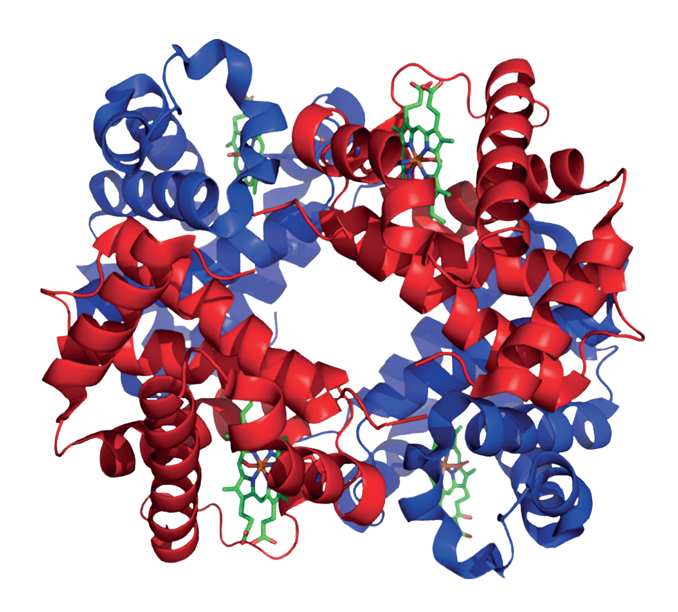
كما هو الحال في الحياة، تميل التبايُنات إلى التعقيد؛ فثمَّة شقيقان يَنشآن في نفس المنزل، ولديهما نفس الألائل إلى حدٍّ كبير، ويشتركان في قدرٍ كبير من البيئة والوراثيات، ولكن يُمكن أن يكون بينهما اختلافٌ لافت في نواحٍ مهمة؛ فمُعظم الأنماط الظاهرية بمنزلة ألغازٍ معقَّدة.

ولحُسنِ الحظ أن الخلية المنجلية بسيطة كفَهمِك لها تقريبًا. فهي تُصنَّف كحالةٍ جينيةٍ بسيطة (يُمكن أن نُسمِّيها مرَضًا أو اضطرابًا، ولكن هذه التوصيفات تبدو تقييمية حتى لو لم يكن ذلك هو المقصود منها.) والحالة الجينية البسيطة هي حالةٌ ناتجة عن تغيير في جينٍ فرديٍّ ويُعبَّر عنها بوضوح في إطار النمط الظاهري. فيُمكن رُؤية نتاج ذلك التغيير ولا يوجد الكثير من التدرُّجات في المنتصف. بمعنى أنَّ التباين في الناتج النمَطي الظاهري محدود. ويكون الأليل شفافًا، وهو ما يُسمى بالانتفاذ.

وباستثناء الجينات الموجودة على كروموسومات X وY لدى الذكور، يستقبل الفرد نسختَين من كل جين؛ ومن ثم يحظى بفرصتَين لتفعيل الجين وتكوين الناتج الجيني. وفي الحالة المعروفة الخاصة بالخلية المنجلية، يَحمل الجين شفرة جزء من جزيء الهيموجلوبين. وخلاصة كل هذا هو أن الجين يوجد على كروموسوم ١١. وهو يُنتج ما يُسمى بسلسلة بيتا أو جزيء بيتا جلوبين، وهو عبارة عن سلسلة من ١٤٦ حمضًا أمينيًّا أساسية لتكوين جزيء الهيموجلوبين. وعند المَوضع السادس حدثت طفرةٌ نقطيةٌ بسيطة وبدَّلت الحرف A إلى G، ما أدى إلى تحويل الحامض الأميني من جوانين (guanine) إلى فالين (valine). على نفس النسق، تَلتفُّ سلسلة بيتا على نحوٍ مُختلف. فاكتساب واحد أو اثنين مِن ألائل الخلية المنجلية يُحدث اختلافًا كبيرًا. فنسخة واحدة = اكتساب سِمة الخلية المنجلية؛ نسختان = إصابة بداء الخلايا المنجلية.

ويعدُّ الهيموجلوبين جزيئًا استثنائيًّا؛ فهو عبارة عن بروتين له أربع أذرع (أو سلاسل) للحمض الأميني يتَّصل بها جزيءُ حديد (انظر شكل ٩-٢). وللتصميم الاستثنائي للهيموجلوبين نتائجه فيما يتعلَّق بشكل خلايا الدم الحمراء. غير أن وظيفته الأساسية في الحياة هي السماح لخلايا الدم الحمراء بنقل الأكسجين من الرئتين إلى الخلايا؛ حيث يتمُّ استخدامه. ويرجع اللون الأحمر للدم إلى تغيرٍ يطرأ على جزيء الهيموجلوبين حين يَلتصق الأكسجين بجزيء الحديد. وكلما ازداد الدم حمرة، كان ذلك أفضل.

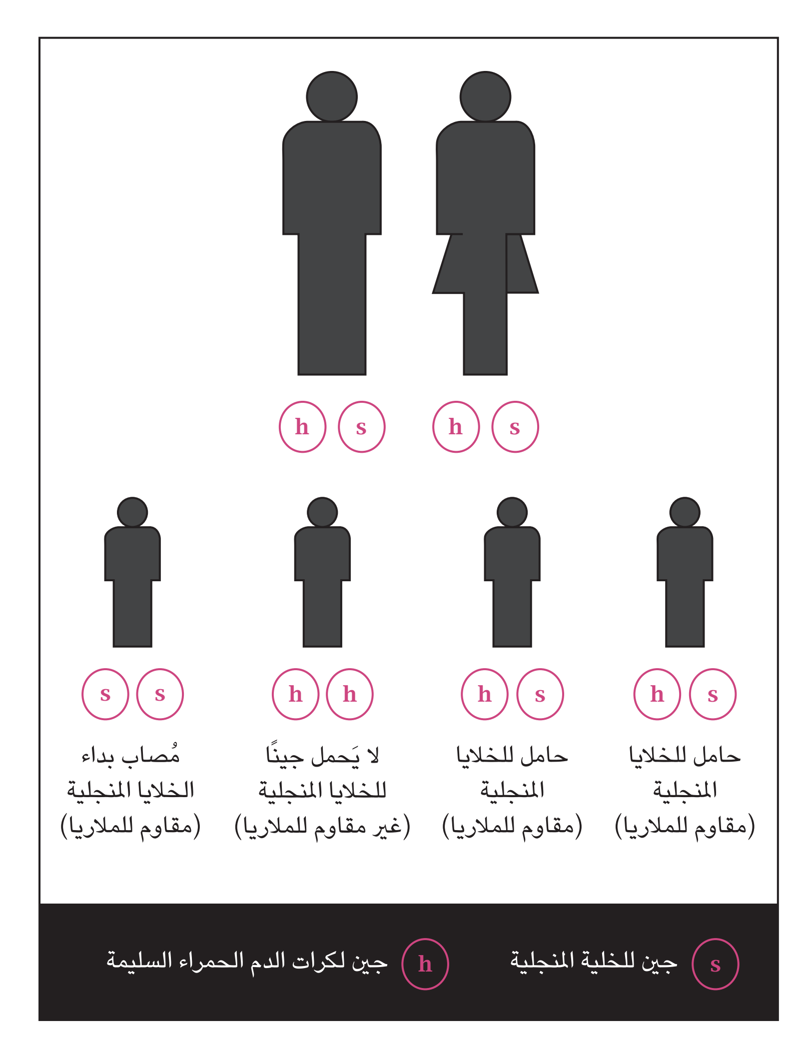
لمزيد من التعمُّق، لقد عرفنا منذ زمن أن الجين يَحمل شفرات لمُتوالية الحمض الأميني الخاص بسلاسل جزيء الهيموجلوبين. ويوجد عدد مِن التبايُنات المعروفة في الجين الخاص بالهيموجلوبين يُسفر عنها متوالياتٌ مختلفة للحمض الأميني. ويأتي تباين الخلية المنجلية نتيجةً لاستبدالٍ فردي للحمض الأميني بآخر. ويُسفر عن الناتج تغيُّر شكلِ الجُزيء؛ ما يؤدِّي بالتالي إلى تصلُّب والتصاق خلايا الدم الحمراء، واتخاذها شكل الهلال، أو شكل المنجل. وخلايا الدم الحمراء، في وضعها الطبيعي، تتَّخذ شكل أقراصٍ دائرية. ولا تحمل الخلايا المتمنجلة الأكسجين بنفسِ الفاعلية، وقد تعلقُ في الأوعية الدموية الصغيرة؛ ما يعوق تدفُّق الدم، وهو ما يسبب الأنيميا، وآلامَ المفاصل، وتلف العظام، والرئتَين، والكُليتَين، والعينَين، والأعضاء الأخرى. يَستقبِل كلُّ واحدٍ منا نسختين من كل جين، بواقع جينٍ من كلا الأبوين. فإذا كان لدى كلا الأبوين نسخةٌ واحدة من جين الخلية المنجلية، تكون فرصة الإصابة بداء الخلايا المنجلية لكل طفل من أطفالهما



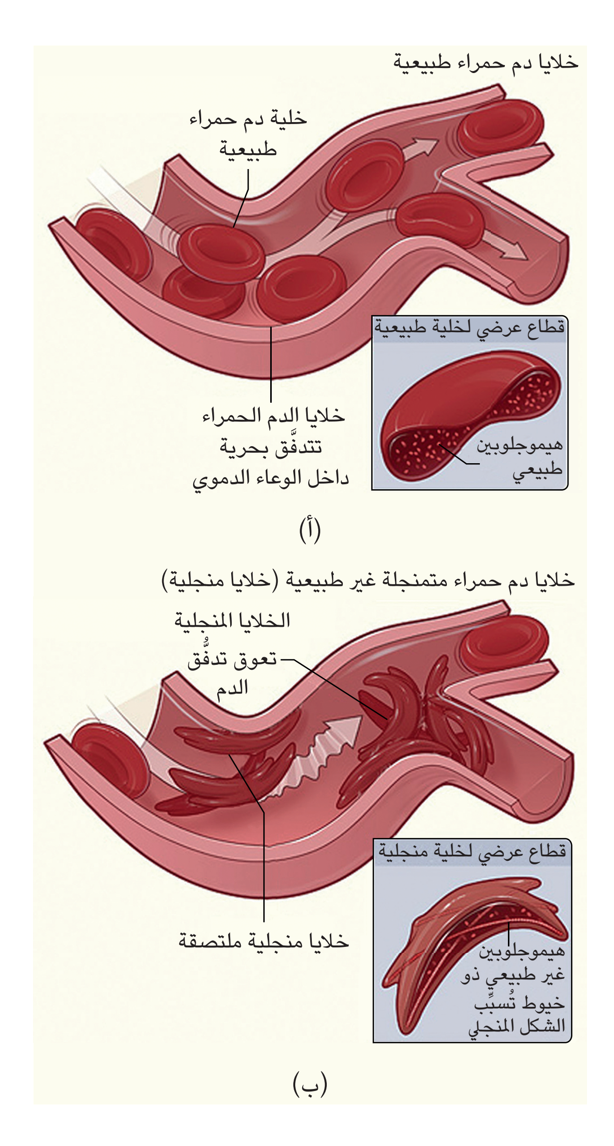
شكل ٩-٢: تركيب الهيموجلوبين. تتألَّف جزيئات الهيموجلوبين لدى الإنسان البالغ من أربع سلاسل من الأحماض الأمينية (أو سلاسل متعدِّدة الببتيدات) وأربع مجموعات من الهيم أو الصباغ. في هذا «النموذج الشريطي» تتَّخذ سلاسل ألفا α اللون الأحمر وسلاسل بيتا β اللون الأزرق. تَحمل كل سلسلة مجموعةً من الهيم، وهو عبارة عن جزيء يحتوي على ذرة من الحديد يُمكن بدورها أن تحمل جزيئًا من الأكسجين. ومجموعاتُ الهيم محدَّدة هنا باللون الأخضر. هذه الصورة مِن تصميم مركز الأبحاث التعاونية لبنك بيانات البروتينات التابع لمركز البحوث التعاونية للمعلوماتية الحيوية الهيكلية ID 1GZX باستخدام برنامج باي مول (بتصريحٍ من ريتشارد ويلر).

واحدًا إلى أربعة. ولكن الأطفال الذين يَرِثون نسخةً واحدة فقط من جين الخلية المنجلية لا يُصابون بداء الخلايا المنجلية، ولديهم أيضًا مُقاوَمةٌ إضافية للملاريا.

والسؤال الذي يَعتقد علماء الأنثروبولوجيا التطورية أنهم قد أجابوا عليه هو: لماذا يُمكن أن يُصبح متغيِّرٌ مثل هذا يُمكن أن يؤدي إلى مرض، وهو مرض الخلايا المنجلية، شائعًا إلى هذه الدرجة. والإجابة على هذا اللغز تكمن في هذه المُقاوَمة للملاريا. والتفاصيل مدهشة.



شكل ٩-٣: كيف يُمكن أن يرث الأفراد داء الخلايا المنجلية وسمة الخلية المنجلية. في هذا المثال، نجد فردَين كلاهما يَحمل سمة الخلية المنجلية ولديهما أطفال (بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم، سي جونسون).



شكل ٩-٤: قطاع مُستعرِض لوعاءٍ دموي يحمل خلايا دم حمراء ذات شكل طبيعي (أ) وخلايا دم حمراء متمنجلة (ب). يُمكن للخلايا المتمنجلة أن تتجلَّط وتواجه صعوبةً أكبر بكثير في حمل الأكسجين (بتصريح من المعهد الوطني للقلب والرئة والدم، المراكز الأمريكية لمكافحة الأمراض والوقاية منها، التابعة لوزارة الصحة والخدمات البشرية الأمريكية).

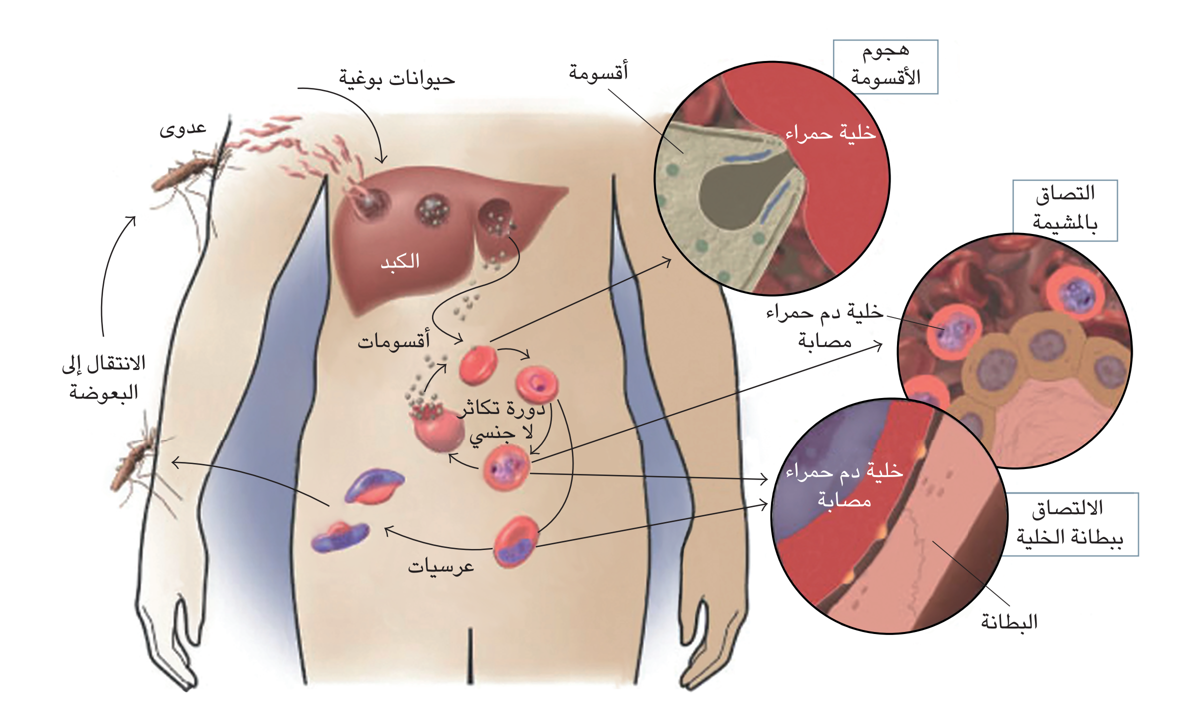
(٣) قصة الخلايا المنجلية: التاريخ غير الطبيعي للبعوض والبشر والملاريا



شكل ٩-٥: الزراعة في المناخات الرطبة والتي تؤدِّي إلى بِرَك من المياه الراكدة تُعدُّ سببًا من أسباب الملاريا. ونفس الطفرة الجينية التي تُسبِّب داء الخلايا المنجلية تُوفِّر وقايةً أيضًا من الملاريا. والأشخاص الذين يَنتمي أسلافهم لمناطق شاعت فيها الملاريا أكثر عُرضة لحمل تبايُن جين الخلايا المنجلية. التاريخ والتطور يُفسِّران وجود الخلية المنجلية .© iStockphoto.com/dannyzhan



شكل ٩-٦: «الأنوفيلة الصغيرة» لكي تحدُث الإصابة بالملاريا، لا بد أن يُلامس البشر البعوض (بتصريحٍ من المراكز الأمريكية لُكافحة الأمراض والوقاية منها، التابعة لوزارة الصحة والخدمات البشرية الأمريكية).



شكل ٩-٧: مسار إصابة الأفراد بالملاريا. تُصاب بعوضةٌ من جنس الأنوفيلة بالحيوان البوغي للملاريا في أحشائها. تقوم البعوضة بلدغ إنسانٍ ويَنتقل الحيوان البوغي إلى الإنسان، ويتحوَّل، ويَتكاثر، ويهاجم خلايا الدم الحمراء (أعيد طبع الصورة بإذنٍ من شركة ماكميلان بابليشرز المحدودة. من كتاب: الطبيعة، الأساس المرضي للملاريا، تأليف لويس ميلر، ودرور باروخ، وكيفين مارش، وأوجوبارا دومبو، حقوق الطبع محفوظة لمجموعة نيتشر للنشر ٢٠٠٢، مجموعة نيتشر للنشر).

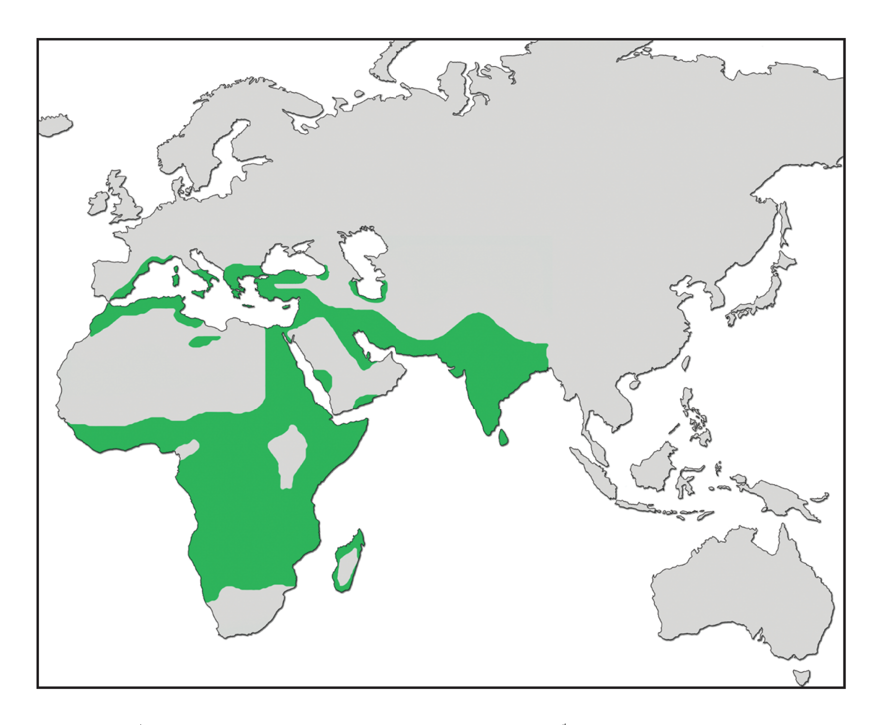
الملاريا مرضٌ طُفيليٌّ موهن، يَنتقل إلى البشر عن طريق لدغة بعوضةٍ حاملة لطُفيل الملاريا. بمجرد نقل الطُّفيل، يُمكن أن يَتكاثر داخل خلايا الدم الحمراء، والتي تتمزَّق بدورها وتَنقُل العدوى إلى خلايا الدم الحمراء الأخرى. وعادةً ما تبدأ أعراض الملاريا بعد مرور ما بين عشرة أيام وبضعة أسابيع على اللدغة الأولى. ومن تبعات العدوى الأنيميا، والتي تنتج عن تدمير خلايا الدم الحمراء.

تُشكل الملاريا تهديدًا خطيرًا للصحة. فقد قدَّر مركز مكافحة الأمراض أن هناك ما يُقدَّر بـ ٥٠٠ مليون حالة ملاريا كل عام، إلى جانب وفاة أكثر من مليون شخص سنويًّا. وتظلُّ الملاريا هي السبب الرئيس للوفاة في أفريقيا للأطفال دون الخمس سنوات. ويُعزى استمرار الملاريا جزئيًّا إلى استمرار الظروف — المياه الراكدة في المناخات الحارة الرطبة — التي دائمًا ما كانت تؤدِّي إلى ملامسة البعوض حامل العدوى للبشر. علاوة على ذلك، يُطوِّر البعوض الذي يحمل الملاريا، وخاصة بعوض «الأنوفيلة»، مقاوَمة لمبيدات الحشرات، كما يُمكن للطُّفيل نفسه تطوير مقاومة للمضادات الحيوية.

ولعلَّ من أفضل الوسائل لمُقاومة الملاريا؛ واحدة من أقدمها، ألا وهي التكيُّف الوراثي. تمَّ الكشف عن قصة الخلية المنجلية عن طريق بعض الجهد الاستقصائي العلمي الجاد لعالم الأنثروبولوجيا فرانك ليفينجستون وآخرين كانوا يَعملون في نفس التوقيت تقريبًا. وتضمُّ المجموعةُ التي عكفَت في نفس التوقيت على تفسير التطوُّر الغامض للخلية المنجلية أيضًا العالمَ الحائز على جائزة نوبل لاينوس بولينج. ساعَد بولينج في اكتشاف أن الأنيميا المنجلية يُسبِّبها تغيُّر في البنية الجزيئية لبروتين الهيموجلوبين. وقد نشرت ورقته البحثية حول هذا الاكتشاف، وكانت بعنوان «الأنيميا المنجلية، مرضٌ جزيئي» في دورية «ساينس» في عام ١٩٤٩، وقادت علماء الوراثة والأنثروبولوجيا فيما بعدُ إلى حلِّ لُغز تطور الخلية المنجلية.

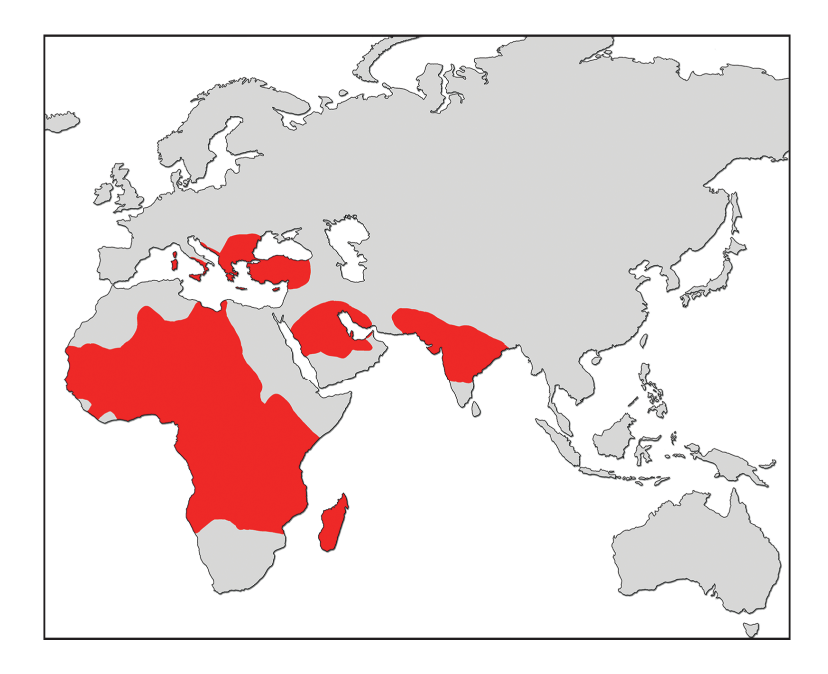
منذ حوالي ٥ إلى ٨ آلاف عام بدأت الزراعة في الانتشار في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية بما فيها منطقة غرب أفريقيا، والبحر المتوسط، وجنوب الهند، وشبه الجزيرة العربية؛ وهي المناطق التي كانت مأهولةً بالبعوض أيضًا. صاحب الزراعة نمو في عدد السكان؛ مما زاد احتمال احتكاك الإنسان بالبعوض الحامل للملاريا. من المحتمل أيضًا أن تكون بِرَك البعوض ذات المياه البطيئة الحركة قد زادت بفعل تسوية الأرض؛ ما يعني أن كثافة البشر والبعوض قد زادت في نفس الوقت وفي نفس المكان.

تُصنَّف الملاريا، كما هو واضح، ضمن أكثر الأمراض الفتاكة والموهنة؛ ومن ثم فإذا كان هناك مرضٌ استحَقَّ التكيُّف الوراثي له التكلفة المدفوعة من أجله، فهو الملاريا.



شكل ٩-٨: توزيع الملاريا. تُمثِّل هذه الخريطة توزيع انتشار الملاريا قبل اتِّساع نطاق استخدام المبيدات الحشرية التي قلَّلت من أسراب البعوض الحامل للمرض (بتصريحٍ من متحف مينيسوتا للعلوم، بول مورين).

في الواقع، توجد مجموعةٌ مُتنوِّعة من المتواليات المختلفة لجزيء الهيموجلوبين، يُصعِّب بعضها على طفيل الملاريا، فيما يبدو، أن يُحدِث التدمير. والخلية المنجلية واحدة من تلك المتواليات. يبدو الأمر أنه حالة من تعدُّد مُتوازن للأشكال، وهي حالةٌ وراثية يُنتخب فيها النمط الجيني المُتغايرَ الزيجوت على حساب الحالة المُتماثِلة الزيجوت. والتوازن هنا هو توازنٌ معقَّد بين مساوئ امتلاك جرعةٍ مضاعفة من الخلية المنجلية أو انخفاض المقاوَمة للملاريا. ووجود نسخةٍ واحدة يوفر الميزة المثالية بين الملاريا من جانب ومرض الخلايا المنجلية على الجانب الآخر.



شكل ٩-٩: توزيع التباين الجيني الذي يُسبِّب مرض الخلايا المنجلية. وُجدت السمة لدى أولئك ذوي الأصل الشرق أوسطي، والهندي، والمتوسطي، والأفريقي. ويُعاني الملايين حول العالم من مضاعَفات مرض الخلايا المنجلية. وتوجد الخلية المنجلية بتواتُراتٍ عالية في المناطق التي شهدت الملاريا المُتوطِّنة؛ بسبب إزالة الغابات من أجل الأراضي الزراعية (بتصريحٍ من متحف مينيسوتا للعلوم، بول مورين).

كل هذا يدخل في عداد التنظير. ومع ذلك، فإذا كان هناك دليلٌ قاطع لا يَقبل الشك في هذه القصة الشبيهة بالقصص البوليسية، فهو خريطة توزيع تواتر أليل الخلية المنجلية مقارنةً بخريطةٍ للمناطق التي ترتفع بها نسبة السكان من البشر، والزراعة، وبصفةٍ خاصة المناطق التي يوجد بها بَعوض الأنوفيلة. فتصل سمة الخلية المنجلية إلى أعلى معدلاتها على نحوٍ واضح في أماكن مثل غرب أفريقيا؛ حيث تتوافر جميع الشروط لوجودها. بل يبدو أن هناك أربعة أماكن تبلُغ فيها سمة الخلية المنجلية ذروتها، ومن الممكن جدًّا أن يكون الانتخاب قد رجَّح كفة هذه السمة وانتشرت في أربع مناطق على نحوٍ مُستقل.

(٤) العرق والخلية المنجلية

ختامًا، يبدو أن الخلية المنجلية هي نتاج التاريخ والتطور البشري، وليس للعرق أيُّ صلة بالتكيُّف الوراثي. وهذا صحيحٌ على مستوًى نظري. فالتفسير السابق لم يُورد ذكرًا للعِرق، ولا حاجة لذكر العرق في أيٍّ من أجزائه. وهكذا يكون الربط الأوَّلي لمرض الخلايا المنجلية بوصفه «مرضًا لذوي الدم الأسود»؛ خاطئًا بشدة. يمكن أيضًا أن نرى من واقع خرائط توزيع الخلية المنجلية شيوع سمة الخلية المنجلية لدى الأفراد غير «السود» والعكس صحيح أيضًا. فالكثير من «السود»، كأولئك القادمين من أفريقيا الشمالية والجنوبية، لا يُحتمَل أن يكون لديهم الخلية المنجلية.

المعايير والعرق: نقص الحديد

توجد طريقتان على الأقل يتداخل بهما العرق مع الطب. يقف على أحد الطرفين المعرفة غير الرسمية والمكتسبة فرديًّا. فقد يَنظر أعضاء الوسط الطبي إلى المرضى كأفراد عرق بعينه. وحينئذٍ يَتفاعلون ويتصرَّفون بناءً على ما يعتقدون أنهم يعرفونه بشأن أفراد ذلك العرق. هل يشتكون من أدنى قدرٍ من الألم؟ إذا ما طُلب منهم تناول دواءٍ ما، فهل سيتناولونه؟ هل سيَستوعِبون التعليمات؟ هل هم عرضة للإصابة بمرضٍ معيَّن؟ وأمام وجود معلوماتٍ رسميةٍ محدودة عن الاختلافات العرقية، تُسهم هذه الانطباعات والأنماط الفردية بقدرٍ كبير في الأمر.

ولكن العلم يحب وضع فئاتٍ تصنيفية وإضفاء طابع أكثر رسمية على الأمور. هل نحتاج إلى معادلاتٍ مختلفة لتقدير طول قامة شخصٍ مكسيكي (انظر «الطول، والتاريخ، والتباين البشري» في الفصل السابع)؟ هل نُعطي جرعةً مُختلفة من عقارٍ ما للنساء الصينيات. هل نُبدِّل الأماكن على جهازٍ للأشعة مع المرضى السود؟ هل نُشخِّص سوء التغذية على نحوٍ مختلف لدى الأطفال السود والبيض؟

تُقدِّم الأبحاث التي أجريت على العرق والأنيميا مثالًا مفيدًا للتداعيات البالغة على الصحة العامة؛ لافتراض أن الاختلافات داخل الجماعات حقيقية وشاملة للأعراق. في سبعينيات القرن العشرين، قام ستانلي جارن وزملاؤه بعرض بياناتٍ عن توزيع معدَّلات الهيموجلوبين لدى السود والبيض. كان جارن خريج برنامج جامعة هارفرد للأنثروبولوجيا. وشارَكَ في تأليف كتاب «الأعراق» مع كون في عام ١٩٥٠، ومضى يؤسِّس مسارًا مهنيًّا حافلًا بالأرقام القياسية في مجال الأنثروبولوجيا الطبيعية بجامعة ميشيجان (كون وآخرون، ١٩٥٠).

سجَّل جارن وزملاؤه متوسِّط فرق تقريبيٍّ قدره ١٫٠ جرام/ديسيلتر في حجم الهيموجلوبين (أقل في السود عن البيض؛ جارن وآخرون ١٩٧٤، ١٩٧٥؛ جارن ١٩٧٦). عقب هذا العمل طرح اقتراح

بأخذ عيناتٍ منفصلة لتشخيص الأنيميا لدى السود والبيض، وهو اقتراح لا يزال يحظى بتأييدٍ واسع (بان وهابيكت ١٩٩١).

أعاد روبرت جاكسون (١٩٩٠، ١٩٩٢، ١٩٩٣؛ آر جاكسون وإف إل سي جاكسون، ١٩٩١) فحص بعض من نفس هذه البيانات وقدَّم بياناتٍ جديدة. وقد سعى إلى التحكم، قدر الإمكان، في العوامل البيئية الواضحة، مثل المقدار المأخوذ من الحديد، وأزال من التحليل قيَم الهيموجلوبين المُنخفِضة التي قد تَرتبِط بأنواع الأنيميا الوراثية. ويرى جاكسون وجاكسون أن مُتوسِّط فرق الهيموجلوبين بين السود والبيض قد انخفض إلى نطاقٍ يتراوح بين ٠٫٢–٠٫٣ جرام/الديسيلتر عند التحكم في هذه العوامل البيئية الواضحة ومتغيرات الهيموجلوبين. علاوةً على ذلك، لا يُشير التباين المُتضارب بين الرضَّع السود والبيض، على سبيل المثال، حيث كانت قيم الهيموجلوبين لدى الرضَّع السود أعلى قبل سنِّ ستة أشهر، وأعلى لدى الرضع البيض بعد سن ستة أشهر؛ إلى وجود أسبابٍ وراثية (جاكسون ١٩٩٣).

على الرغم من هذه البيانات، لا يزال حتى أوسع الباحثين اطلاعًا مثل، بان وهابيكت (١٩٩١)، يُطالبون بعيِّنات هيموجلوبين منفصلة من أجل تصنيف الأنيميا لدى السود والبيض. ما هي التداعيات السياسية لأخذ عيِّناتٍ مُنفصلة من السود والبيض؟ إذا انخفضَت العيِّنة الخاصة بالسود بمقدار ٠٫٥ جرام/ديسيلتر فقط، من ١٢٫٠ جرام/ديسيلتر إلى ١١٫٥ جرام/ديسيلتر؛ أي نصف الفرق الذي اقترحه جارن وآخرون (١٩٧٤)، فإن انتشار الأنيميا لدى النساء السُّود غير الحوامل وغير المرضعات (١٨–٤٤ عامًا) يُقدَّر بأنه قد انخفض «على الورق» من ٢٠ إلى ١٠ بالمائة (بان وهابيكت ١٩٩١)، مما يترتب عليه آلاف بل ملايين من حالات الأنيميا التي لا تلقى العلاج الكافي.

غير أن العيِّنات المنفصلة لا تزال تَحظى بتأييدٍ على الرغم من حقيقة أن الفارق المزعوم بين الأعراق في التمثيل الغذائي للحديد ليس له أساسٌ وراثيٌّ معروف، لا سيما ذلك الفارق الذي يُشير إلى أن السود أكثر كفاءةً دائمًا من البيض في تمثيلهم الغذائي للحديد، أو أنهم بشكلٍ ما لا يتأثَّرون عندما يقلُّ معدَّل الهيموجلوبين بمقدار ٠٫٥ جرام/ديسيلتر. ولم يَثبت أيضًا أن الفارق يشمل كل الأعراق. بالإضافة إلى ذلك، فإن المسألة أكثر من مجرد مسألةٍ نظرية؛ فالعيِّنات المُنفصلة تؤدِّي إلى تداعياتٍ صحيةٍ شديدة الوطأة عند تأمُّل بعضٍ من العواقب الوظيفية (في التعلم، والعمل، والقدرة المناعية) لانخفاض قيم الهيموجلوبين في نطاقاتٍ قريبة من قيم عينات الأنيميا (سكريمشو ١٩٩١).

أنا مصاب بالخلية المنجلية

حين ولدتُ في عام ١٩٧٦، راح الأطباء يأخذون عينةً تلو الأخرى من الدم من قدمي، دون أن يُخبروا أمي بالسبب مطلقًا. كان واضحًا أن هناك شيئًا مختلفًا بشأني، ولكنهم لم يَستطيعوا تحديده.

وتبيَّن أن لديَّ الخلية المنجلية، ولكنهم لم يُجروا لي اختبارات لذلك لأنني أبيض؛ فأمي مهاجرة من إيطاليا حاصلة على الجنسية الأمريكية، وأبي مولود في صقلية. بل إنني كنت أعاني من بعض الأعراض الجانبية للمرض، مثل تضخُّم الطحال. ولكنهم ظلوا لا يُفكِّرون في إجراء اختبارات لي في هذا الإطار.



شكل ٩-١٠: فرانك جياكوماتسا وابنته أنجلينا (بتصريح من فيكي جياكوماتسا).

في عام ١٩٨٦، وبعد ١٠ سنوات من المعاناة من ألمٍ شديد في المفاصل، إلى جانب الإحباط، والارتباك، شُخِّصتْ حالتي بإصابتي بنوع من مرض الخلايا المنجلية. وأخيرًا صار لألمي اسمٌ وطريقة لعلاجه! غير أن معظم الناس ظلوا لا يُصدقونني، وحتى الأطباء الجدد واجهوا صعوبة في تجاوُز لوني للمُساعدة في علاجي. ونظرًا للقيود المفروضة عليَّ، أُضطَر لشرح مرَضي للأطباء، وأطباء الأسنان، وأصحاب الأعمال، والأقران.

في عام ٢٠٠٤ أنجبت زوجتي ابنتنا أنجلينا، وجاءت فحوصات التقصِّي لوليدتها غير طبيعية وأنها تَحمل الخلية المنجلية. حين أجرت لها عائلتي فحوصات لتحديد ما تَحمله بالضبط، اعتقد جميع

الأطباء أن ثمة خطأً ما. ودُهشوا للغاية من أن طفلتنا الصغيرة الشقراء ذات العينين الخضراوين تحمل سِمَة الخلية المنجلية بالفعل!

نحن محظوظون أننا نحيا حياةً طبيعية، وتعلَّمتُ كيف أُحجِّم نوبات الأنيميا المنجلية التي تصيبني وأسيطر عليها. ومع ذلك، لا يزال الناس يَعتقدون أن الخلايا المنجلية مرض لا يصيب سوى الأشخاص المُنحدِرين من أصولٍ أفريقية (فرانك جياكوماتسا).

(٥) العرق والأداء الرياضي

حوار مع جوزيف جريفز

جوزيف إل جريفز، الابن: هو مُساعد العميد للأبحاث وأستاذ الدراسات البيولوجية بالكلية المشتركة لعلوم النانو وهندسة النانو، التي تتولى إدارتها جامعة ولاية كارولاينا الشمالية للعلوم الزراعية والتقنية وجامعة جرينسبورو بكارولاينا الشمالية بإدارةٍ مشتركة. بالاستعانة بخلفيته في علم الأحياء التطوُّري، استفاض أيضًا في الكتابة عن خرافات ونظريات العرق في المجتمع الأمريكي، وبخاصة عن العرق والأداء الرياضي.

هل ثمة أيُّ صلة بين العرق والجينات والرياضة؟

سوف أبدأ بفكرة أن الكثير من الناس يعتقدون أن الأشخاص ذوي الأصول الأفريقية في أمريكا يَملكون براعةً رياضيةً خاصة. يعتقد معظم الناس على نحوٍ ما أن الأمريكيين الأفارقة لديهم استعدادٌ وراثي لأن يكونوا عدَّائين أسرع، أو لاعبي كرة سلة أفضل، أو لأن يكونوا ظهيرًا خلفيًّا أفضل في الدوري الوطني لكرة القدم. ويوجد أيضًا الآن بعض الدراسات العلمية التي تسعى لتناول الاختلافات القائمة على السكان في الجينات والتي تَرتبِط بالعديد من جوانب الأداء الفسيولوجي فيما يتعلق بالمهارة الرياضية.

الآن حين نَنظر، على مستوًى ما، إلى التباين الجسماني البشري، نجد بعض الاختلافات بين الجماعات السكانية التي ربما ترتبط بالأداء الرياضي. على سبيل المثال، إذا نظرنا إلى الأشخاص القادمين من المناخات الشمالية، الذين كانوا سكانًا أصليين للمناخات الشمالية؛ نجدهم يَميلون إلى القامة القصيرة والجسد المُمتلئ، بدلًا من القامة

الطويلة والنحافة. وثمة أسبابٌ فيزيائية وجيهة لذلك. إذا كنتَ قد نشأتَ في المناخات الشمالية، مثل سكان الإسكيمو أو الأليوت، فإن قصر القامة والجسد المُمتلئ يُيسِّران عملية الاحتفاظ بالحرارة. أما إذا نشأتَ في المناطق الاستوائية، حيث البيئة شديدة الحرارة، فإن طول القامة والنحافة يُيسِّران عملية فقدان الحرارة؛ ومن ثم سوف ترى فوارق في تناسُبات الجسم على هذا النطاق.

الآن، إذا سألت نفسك: «هل من المحتمل أن يُصبح شخص من الإسكيمو المنتمين إلى ألاسكا لاعب وسط في الدوري الوطني لكرة القدم؟» حسنًا، ربما لا؛ لأن الطول له صلة بأدائك في ذلك الموقع في الدوري الوطني لكرة القدم. إذن، يُمكن أن نرى أنه من المحتمل، على النطاق العام، أن يكون للفروق البدنية علاقة بالأشكال المُتعددة للأداء الرياضي.

ولكن عند الحديث عن أشياءَ دقيقة، مثل أن تكون جماعةٌ معينة من السكان هي الأسرع في العَدْو، لا يصبح الأمر بهذه البساطة. الحقيقة هي أن غالبية أصحاب الأرقام القياسية العالمية في سباق ١٠٠ متر عَدوٍ من أصولٍ غرب أفريقية، ولكنهم يَميلون أيضًا لأن يكونوا أمريكيِّين من أصلٍ أفريقي اختلطوا مع الأوروبيين والهنود الأمريكيين. لذا فليس من السهل علينا أن نحدِّد ما إذا كان الانتماء إلى أصلٍ أفريقي يَرتبط بسرعتهم الفائقة، أو ما إذا كانت حقيقة أن لديهم أصولًا أوروبية وهندية أمريكية ربما تكون قد ساعدَتْهم على أن يكونوا بهذه السرعة الفائقة.

وكل هذه العوامل الوراثية يَنبغي ضبطها في إطار البيئة التي يتدرَّب فيها الأفراد. على سبيل المثال، إذا نظرت إلى العدَّائين ذوي الأصول الغرب أفريقية، تجدهم جميعًا قد حصدوا أرقامهم القياسية؛ لأنهم تلقَّوا تدريبهم في الولايات المتحدة، أو كندا، أو بريطانيا العُظمى، أو حتى في جزر الكاريبي. وإذا نظرتَ إلى دول غرب أفريقيا التي يُفترض أن أسلاف أولئك العدَّائين قد جاءوا منها، تجد أن أيًّا من تلك الدول لم تُخرج أيًّا من حائزي الأرقام القياسية العالمية في مسابقات العَدْو.

إذن لو كان من الأمور الفريدة بشأن كونك أفريقيًّا أنه يجعلك عدَّاءً سريعًا، لتوقعتَ أن دول غرب أفريقيا كانت تحوز كل هذه الأرقام القياسية أيضًا، ولكنها في الواقع لا تحوز أيًّا منها؛ فالأمر يرتبط بالاستعداد الوراثي، ويرتبط بالبيئة، ويرتبط بنظم التدريب، لا سيما على مستوى الأداء الرياضي العالمي.

من العوامل التي تُبيِّن كيفية تأثير موقع الجماعات السكانية في مختلف المناطق الجغرافية على الاستعداد لمُمارسة الرياضة: الارتفاع. فربما يَرتبِط نجاح الكينيِّين في العدْو

لمسافات طويلة بحقيقة أن الكينيِّين المنتمين لعرق الكالينجين قادمون من منطقةٍ مرتفعة في كينيا. ولكن الكينيِّين القادمين من ارتفاعاتٍ منخفضة لا يَبرعون في العَدْو لمسافاتٍ طويلة؛ ومن ثم فهو شيء لا يتعلق بكونك كينيًّا، بل يتعلق بالعيش عند تلك الارتفاعات العالية.

الآن، في ماراثون بوسطن الأخير، الذي تنبَّأ أحدهم بأن الفائز به سيكون كينيًّا من مجموعة كالينجين العرقية، كان الفائز به في الواقع من كوريا الجنوبية؛ فكوريا أيضًا دولةٌ جبلية، ومن الوارد تمامًا أن يكون هذا الشخص قد تدرَّب على الأقل على ارتفاعٍ عالٍ. أما المركز الثاني، فقد فاز به إكوادوري، والإكوادور تُعدُّ أيضًا دولةً جبلية، ومن المحتمل أن يكون هو أيضًا قد تدرَّب على ارتفاعٍ عالٍ.

إذن لدينا تكيُّفٌ وراثي قصير المدى يَحدث عن طريق التدرُّب على ارتفاعٍ عالٍ، ولدينا أيضًا تكيُّفاتٌ وراثية طويلة المدى على العيش على ارتفاعٍ عالٍ قد تَنبُع من الجماعات السكانية التي تَعيش في تلك المناطق. ومرة أخرى، لا يَتوافق أيٌّ من هذه الأشياء مع مفاهيمنا عن العِرق التي تَرجع إلى القرن التاسع عشر؛ لأن في نفس الدولة لا يؤدي الكينيُّون الذين يعيشون على ارتفاعٍ مُنخفِض على نحوٍ جيد في عَدوِ المسافات الطويلة، فيما يؤدِّي الكينيون الذين يعيشون على ارتفاعاتٍ عالية أداءً جيدًا.

إذن لا يُمكننا التوصُّل إلى أيِّ قاعدةٍ صارمة بشأن كيفية تأثير الأصل الوراثي على قُدرة الفرد على الأداء في حدَثٍ رياضيٍّ ما. أعتقد أن أبسط شيء يُمكن فعله هو النظر إلى تاريخ الفرد، ومدى قوة تدريبه، وأين تلقَّى تدريبه، وأي أنواعٍ من الموارد استُثمرت لجعله قادرًا على المشاركة في الألعاب الرياضية العالمية، وأن الأمر عبارة عن مزيجٍ من كل هذه الأشياء، وأننا لن نحصل مطلقًا على إجابةٍ جينيةٍ بسيطة مفادها: «لأنك جئتَ من هذه المنطقة من العالم، فسوف تكون لك الغلبة في السباحة أو عَدوِ المسافات الطويلة.» لا أظن أننا سوف نحصل على تلك الإجابة إطلاقًا.

هل المناقشات الخاصة بالمهارة الرياضية الفائقة دائمًا ما تدلُّ ضمنيًّا على النقص والقصور في مجالاتٍ أخرى، مثل التفكير؟

لقد صنَع المجتمع الأمريكي أساطير بشأن الذَّكر الأمريكي الأفريقي على وجه الخصوص. فإذا كان رجلٌ أمريكيٌّ أفريقي يَسير في حرم إحدى الجامعات الكبرى، يميل الآخرون

إلى الاعتقاد بأنه رياضي أو مُدرِّب لإحدى الفرق الرياضية أكثر من الاعتقاد بأنه عضوٌ بهيئة التدريس. في حرم جامعتي، حين أتوجَّه لإلقاء محاضراتي، غالبًا ما يأتيني الطلاب ويسألونني إن كنتُ مدرِّب فريق كرة القدم الأمريكية أو مدرِّب فريق كرة السلة. وأخبرهم قائلًا: «كلا، أنا أستاذ بقسم علوم الحياة.» وحين أدخل لتدريس علم الوراثة في الخريف، يكون ٩٩٪ من الطلاب الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية في فصلي لم يَسبق لهم أن رأوا أستاذًا جامعيًّا أمريكيًّا من أصلٍ أفريقي يُدرِّس منهج علوم في الوقت الذي سجَّلوا فيه أسماءهم في دورات العلوم.

إذن لدينا تاريخٌ اجتماعي من الاعتقاد بأن الأمريكيِّين الأفارقة لا يستطيعون الأداء على المستوى الفكري. فمُعظم الأمريكيين حين يرون الأمريكيين الأفارقة، يكون ذلك في سياق الرياضة والترفيه. إذا نظرت إلى البرامج التليفزيونية والتغطية التليفزيونية للأمريكيين الأفارقة، تجد ما يراه غالبية الأمريكيين في نشرات الأخبار ليلًا هو أخبار الأمريكيين الأفارقة في الرياضة — وللأسف صار رموزُ الرياضة من الأمريكيين الأفارقة مؤخرًا يتورَّطون في مشكلاتٍ قانونية — والأمريكيين الأفارقة في مجال الترفيه، أو الأمريكيين الأفارقة في مجال الكوميديا. إذن ها نحن نعود نوعًا ما إلى تاريخ عروض الأغاني الشعبية الكوميدية، من ناحية الطريقة التي يُعامَل بها الأمريكيون الأفارقة في الحياة الاجتماعية الأمريكية.

كيف تغيَّرت الجماعات المهيمنة على رياضات بعينها على مر الزمن؟

من الأشياء الطريفة بشأن القوة البدنية والرياضة كيفية تَغيُّر التوقُّعات الخاصة بالأداء الرياضي على مدى السنين. على سبيل المثال، كان الجميع خلال حقبة الستينيات يَعتقدون أن الأفارقة يتميَّزون بالسرعة؛ ومن ثم كانوا يتوقَّعون فوز الأمريكيين الأفارقة بسباقات العَدو لمسافاتٍ قصيرة، ولكن سباقات المسافات الطويلة سوف يكون الفوز فيها جميعًا من نصيب الأوروبيين أو الشرق أوسطيِّين. بعدها جاء الكينيون وشرعوا في الهيمنة على سباقات المضمار للمسافات الطويلة.

حين انطلَقت كرة السلة للمُحترفين لأول مرة، كانت واحدةٌ من أفضل الفرق تتألَّف بالأساس من يهود شرق أوروبا، وقيل إن السبب في براعتهم الفائقة في كرة السلة أن صفة «المُراوغ الماكر» المأخوذة من الثقافة اليهودية قد جعلتهم بارعين في هذه الرياضة.

كذلك كان يوجد، في المُلاكَمة، في مطلع القرن، الكثير من جماعات الأوروبيين المهاجرين، خاصة الأيرلنديين، الذين كانت لهم مكانتهم في الملاكمة [وكذلك اليهود]. وقد تغيَّر ذلك كله؛ ففي سباقات المسافات القصيرة، وسباقات المضمار والميدان، كان يُقال إن الأفارقة والأمريكيين الأفارقة يتميَّزون بالسرعة؛ ومن ثم يمكنهم العَدوُ لمسافاتٍ قصيرة، ولكن المسافات الطويلة كانت ملكًا للأوروبيين. ولكن مرةً أخرى، جاء الكينيون وأثبتوا خطأ هذه النظرية ودحضوها تمامًا.

وحتى نحن نرى اليوم رياضات كانت السيطرة فيها تقتصر تقليديًّا على أشخاص من الطبقات العليا والوسطى، مثل التنس والجولف — كظهور الشقيقتَين ويليامز في التنس وتايجر وودز في الجولف — مما دفَع بعض الناس إلى الاعتقاد بأن هناك شيئًا عامًّا بشأن الانتماء لأصلٍ أفريقي أو لأصلٍ أمريكيٍّ أفريقي يجعلك متفوقًا في الألعاب الرياضية.

ولكن في اعتقادي أن التاريخ يُبيِّن لنا أنه مع تبدُّل الفرص في المجتمع، تُستدرج جماعاتٌ مختلفة إلى الساحات الرياضية، وحسب الفرصة والتدريب المتاحَين، مرةً أخرى، إلى جانب الحافز لدى الفرد، يكون من شأن ذلك أن يحدد من يصير البطل. ولا أظن أن الأمر يعتمد كثيرًا على الاستعداد الوراثي من منطقة بعينها من العالم، وبالتأكيد لا يعتمد على العرق؛ لأنه حسبما أشرنا في هذا البرنامج من أنه [منقول بلا تعديل] لا يوجد أعراقٌ بيولوجية في الجنس البشري.

لذا فقد شهدنا، لا سيما في الألعاب الرياضية الاحترافية على مدار العقدَين الماضيَين، تغيُّرًا في بنيتها. ففي خمسينيات القرن العشرين، كان التمييز العنصري يمنع الرياضيين الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية من العمل في مجال البيسبول، أو في كرة القدم الأمريكية، أو في كرة السلة. والآن زال هذا التمييز وصار للأشخاص ممَّن يملكون مهارةً رياضية من العرقيات كافة فرصة لدخول عالم الرياضة، وفي تلك الفترة الزمنية تفوَّق الأمريكيُّون الأفارقة. ويذهب بعض الناس إلى أن هذا بالضرورة نتاج التفوق الوراثي للرياضي الأمريكي ذي الأصول الأفريقية.

أما أنا، فأذهب إلى أننا ليس لدينا دراية بهذا، بل سيكون من الصعب أن نزعم هذا بناء على جميع الأشياء المطلوبة للتفوق في رياضةٍ ما. علاوة على أن كرة القدم الأمريكية، وكرة السلة، والبيسبول ليست الرياضات الوحيدة في أمريكا. فإذا نظرنا إلى الرياضات الأخرى، مثل كرة القدم، أو اللكروس، أو الكرة الطائرة، لا نرى هيمنة للأمريكيين

الأفارقة على تلك الرياضات. والأداء الجيد في تلك الرياضات يتطلب نفس القدر من المهارة الرياضية التي يتطلبها البيسبول، وكرة السلة، وكرة القدم الأمريكية.

إذن يوجد جوانبُ ثقافيةٌ قوية لنوعية الألعاب الرياضية التي يختار الأفراد ممارستها، إلى جانب إمكانية ممارستها والتدريب عليها، ترتبط بأداء الفرد؛ ومن ثم لا أعتقد أننا سنستطيع أبدًا عزل جين الأداء الرياضي لدى الأمريكي الأفريقي. ولا أعتقد أن مثل هذا الجين له وجود؛ ففي ضوء ما نعرفه بشأن تشابُك الجماعات السكانية والتركيب الجيني، أعتقد أنه من غير المحتمل إلى حدٍّ كبير أن هذا الجين وحده كان [ليُفسِّر] الاختلافات في المقدرة الرياضية.

إن الأمر يَرتبط بتفاعل الخلفية الوراثية للفرد، والفرصة، والتدريب، وأعتقد أننا ينبغي أن نعتاد فكرة أن ذلك هو ما سيتسنَّى لنا معرفته، وأننا يجب ألَّا نقلق بشأن حقيقة أننا لا نستطيع تحديد موضع الجين الرياضي.

(نُسخت بتصريح من كاليفورنيا نيوزريل.)

ملاحظاتٌ ختامية

توضِّح لنا الخلية المنجلية مدى رغبتنا في وضع سماتنا في صناديق. بعدها نرغب، فيما يبدو، في ضربها بنفس المطرقة ذات الرأس الجلدي إلى أن تُفسِّر لنا شيئًا. ولكنها غالبًا ما تتحطَّم بدلًا من أن تبوح لنا بشيءٍ مفيد وصحيح. والأسوأ هو أننا قد أمضينا الكثير من الوقت نَستخدم المفهوم الخاطئ، أو الأداة الخاطئة، إلى حدِّ أننا قد نسينا السؤال الأصلي. كيف ينشأ التبايُن؟ ولماذا؟ والآن امضِ في شرح الخلية المنجلية لصديق أو أحد أفراد العائلة. جرِّب.

المراجع

Ashley-Koch, A. Q. Yang, and R. S. Olney:

1998 Hemoglobin S Allele and Sickle Cell Disease. American Journal of Epidemiology 151(9): 839–45. http://www.cdc.gov/genomics/hugenet/reviews/sickle.htm, accessed September 2003.

Cooley, Thomas B.:

1928 Likenesses and Contrasts in the Hemolytic Anemias of Childhood. American Journal of Diseases of Childhood 36(6): 1257–1262.

Garn, S. M., N. J. Smith, and D. C. Clark:

1974 Race Differences in Hemoglobin Levels. Ecology of Food & Nutrition 3: 299–301.

Garn, S. M., A. S. Ryan, G. M. Owen et al.:

1975 Income Matched Blackwhite Differences in Hemoglobin Levels after Correction for Low Transferrin Saturations. American Journal of Clinical Nutrition 28: 563–568.

Garn, S. M.:

1976 Problems in the Nutritional Assessment of Black Individuals. American Journal of Public Health 66: 262–267.

Jackson, R. T.:

1992 Hemoglobin Comparisons between African American and European American Males with Hemoglobin Values in the Normal Range. Journal of Human Biology 4: 313–318.

Jackson, R. T., and F. L. C. Jackson:

1991 Reassessing hereditary interethnic differences in anemia status. Ethnicity and Disease 1: 27–41.

Johns Hopkins University, Baltimore, MD:

N.d. Mendelian Inheritance in Man, Online Mendelian Inheritance in Man (TM). MIM No.141900. http://www.ncbi.nlm.nih.gov/entrez/query.fcgi?db=OMIM, accessed September 2003.

Joint Center for Sickle Cell and Thalassemic Disorders:

N.d. How Does Sickle Cell Cause Disease? http://sickle.bwh.harvard.edu/scd_background.html, accessed September 2003.

Lawrence, J. S.:

1927 Elliptical and Sickle-Shaped Erythrocytes in the Circulating Blood of White Persons. Journal of Clinical Investigations 5(1): 31–49.

Mason, V. R.:

1922 Sickle Cell Anemia. Journal of the American Medical Association 79(16): 1318–1320.

Pan, W. H., and J. P. Habicht:

1991 The Non-iron-deficiency-related Differences in Hemoglobin Concentration Distribution between Blacks and Whites and between Men and Women. American Journal of Epidemiology 134: 1410–16.

Scrimshaw, Nevin:

1991 Iron Deficiency. Scientific American (October), 46–62.

Tapper, Melbourne:

1995 Interrogating Bodies: Medico-Racial Knowledge, Politics, and the Study of a Disease. Comparative Studies of Society and History 37: 76–93.

مصادر أخرى

- CDC resources on Sickle Cell Disease: http://www.cdc.gov/ncbddd/sicklecell/resources.htm.
- http://raceproject.org.
- Sickle cell foundation of Oregon. http://dev.yellowsolutions.ro/sicklecell/about_sickle_cell.html.

الفصل العاشر

توزيع التباين، أو ...

لماذا نحن جميعًا أفارقة من الداخل

مقدمة

يتعلَّق السؤال الأساسي الذي نُكافح من أجل الإجابة عنه في هذا الفصل ببنية التبايُن الجيني والتباين النمَطي الظاهري لدى البشر. لقد كان من بين ما قمنا بشرحه وتوضيحه في المقدمة والفصول السابقة أن التبايُن يميل إلى الاستمرارية والتواصل، وأن التباين الجغرافي في سمةٍ ما يتَّخذ تركيبًا أو نمطًا مختلفًا عن نظيره في سمةٍ أخرى. وكما رأينا، تَسري القاعدة السابقة على لون البشرة والأنيميا المنجلية.

وهنا نغوص في قلب الموضوع؛ إذ نُناقش ما إذا كان التباين الجيني موزَّعًا وفقًا للمجموعات العرقية. بعبارةٍ أخرى، هل يُفسِّر العرق بنية التباين البشري؟ في الأثناء، سوف تتعرَّف على تاريخ دراسة توزيع التباين البشري، ثم قُوى التطور التي شكَّلت التوزيع الحالي، وأخيرًا ستتعرَّف على اكتشافٍ مُدهِش حديث بشأن شيوع وتفوُّق التباين في أفريقيا.

(١) آشلي مونتاجيو وخرافة العرق

في أربعينيات القرن العشرين، ألَّف عالم الأنثروبولوجيا المتمرد آشلي مونتاجيو، الذي ولد في بريطانيا وتلقَّى تدريبه بالولايات المتحدة، كتابًا رائعًا بعنوان «خرافة العرق». اتبع مونتاجيو، الذي نجا من ويلات الحرب العالمية الثانية والعرقية والتمييز العنصري

المتواصلَين في الولايات المتحدة، الخطى الفكرية لويليام إدوارد دو بويز ومعلمه في كولومبيا، فرانز بواس، في توضيح فكرة أن الأعراق البشرية كانت، على أفضل تقدير، تصنيفًا بيوثقافيًّا. وبوصفها تصنيفًا، فقد كانت قائمةً على الثقافة وليست قائمة على حقائقَ عالمية. فلم يكن لها أساسٌ تطوري، واستندت إلى رؤيةٍ جامدة للتنوع. وكان يَعتبر الأفراد الذين استخدموا هذا النموذج معادين لنظرية التطور، وعتيقي التفكير. وذهب مونتاجيو إلى أن العرق قد فشَل، بالتأكيد، في تفسير الاختلاف.

كذلك لم يدَع النمط المثالي سوى مساحةٍ محدودة للاختلافات التي كانت نتاجًا للبيئة. فقد بيَّن بواس، وهو يهوديٌّ ألماني، في النصف الأول من القرن أن شكل الرأس، الذي كان آنذاك علامةً على الأنماط العرقية الأوروبية، يُمكن أن يتباين على نحوٍ واسع للغاية اعتمادًا على التغذية، والهجرة، وغيرهما من العوامل البيئية الأخرى.

كان مونتاجيو، في تأليفه كتابًا كاملًا عن خُرافة العرق، يقصد طيَّ صفحة قرونٍ من الاعتقاد بأن الأعراق حقيقة على المستوى البيولوجي. والواقع أن العديد من الكتب والمقالات التي صدرت قبله وبعده قد سلَّطت الضوء على هذه الفكرة. وفي أمريكا في أربعينيات القرن العشرين، كان التفكير على نحوٍ آخر يبدو حتمًا من الجنون. لقد كان العرق حقيقيًّا في زمن التمييز العنصري؛ فكان يُعتقد أن اليهود والأيرلنديين أنواعٌ عرقيةٌ متميزة. وبالإضافة إلى مهاجمة فكرة الأنماط العرقية ورسوخ هذه الأنماط، أوضح مونتاجيو أن التباين في سمة ما لا يُقابله تباينٌ في أخرى، كما أوضحنا من قبلُ، وأن السمات ذات طابع مُتواصِل ولا تتبع التقسيمات العرقية. ولم يكن لدى مونتاجيو بعدُ علم الوراثة السكانية لتدعيم مزاعمه، إلى جانب ارتكابه خطأ الاستمرار في خلط العرق كمفهومٍ ثقافي بالعرق كمفهومٍ بيولوجي؛ ومن ثم أيَّد التخلُّص من العرق كمفهومٍ ثقافي مع العرق كمفهومٍ بيولوجي. واختلف الباحثون الاجتماعيون اللاحقون مع هذا الجانب من حُجَّته مثلما نفعل نحن.

أثَّر مونتاجيو في جيلٍ كامل من علماء الأنثروبولوجيا. على سبيل المثال، سي لورينج بريس، الذي اضطلَع آنذاك بمُعارضة العرق كمفهومٍ بيولوجي، على الرغم من أن تفسيراته البيولوجية لم تكن واضحة أيضًا. وعلى الرغم من جهودهما الرائدة، يبدو أنه لا العلماء ولا معظم أعضاء الثقافة السائدة الآخرين كانوا على استعدادٍ لتغيير النموذج الفكري السائد.

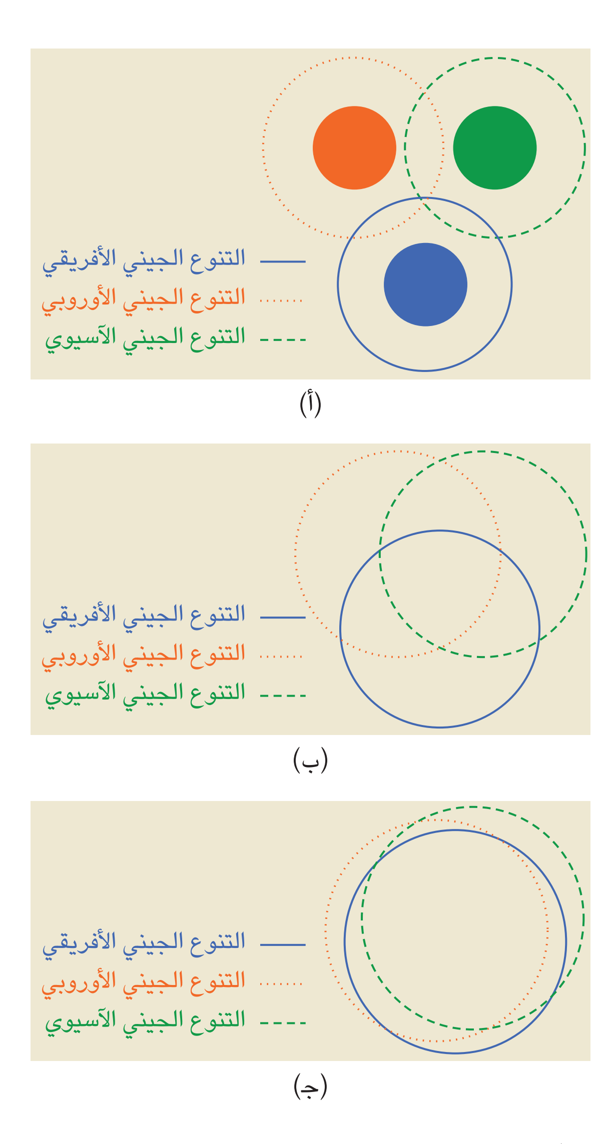
(٢) ريتشارد ليونتين وتوزيع التباين

والآن نبدأ رحلتنا مع عالم الوراثة السكانية الشاب ريتشارد ليونتين. في خمسينيات القرن العشرين، بدأ العالم في جمع بيانات عن التوزيع العالَمي للسِّمات المندلية البسيطة مثل الخلية المنجلية. ومع تجميع هذه البيانات، قادت إلى بعض الاكتشافات المُثيرة، مثل أن الأشكال المُتعدِّدة للدم، مثل الخلية المنجلية، لم تتجمَّع بالضرورة في أفريقيا. كان ليونتين، وهو عالم في الوراثة التطوُّرية، مهتمًّا بالنموذج الكلي للتباين البشري. وأراد على وجه التحديد أن يَختبِر القدر من التباين الذي فُسِّر إحصائيًّا وفقًا للعرق، والقدر الذي فُسِّر على المُستويَين الآخرين — بين الأفراد، وداخل جماعة أو مجموعةٍ سكانية، وبين الجماعات داخل ما يُسمى بالعرق. بإيجاز، قدَّر تحليله الإحصائي، باستخدام تقنية طُوِّرت حديثًا، متوسِّط مقدار التباين على المستويات الثلاثة: داخل الجماعات المحلية، وبين الجماعات داخل الأعراق، وبين الأعراق.

وقد نُشرت النتائج التي توصَّل إليها في ورقةٍ بحثيةٍ معروفة بعنوان «توزيع التباين البشري»، وكانت النتيجة المذهلة أن التباين العادي، فيما يتعلق بأشكال الدم المتعدِّدة التي درسها، كان محليًّا في أغلبه؛ بمعنى أن القدر الأعظم من التبايُن يحدث داخل الجماعة المحلية، ثم يَحدث بعضٌ منه بين الجماعات وإن كان يظلُّ داخل العرق نفسه، ثم تحدث نسبةٌ صغيرة، أقل من ١٠ بالمائة بالتأكيد، وربما أقرب إلى ٦ بالمائة بين الأعراق. وقد تكررت هذه النتائج مرارًا.

يبين شكل ١٠-١ طريقة لتدبر الرؤى العالمية المختلفة للعرق. فيوضح شكل ١٠-١ مدى ثورية نتائج ليونتين. ويمثِّل مخطط فِن الأول (شكل ١٠-١أ)، الذي يضمُّ دوائر أو مدارات تبايُن مُنفصلة ومتداخلة قليلًا؛ رؤيةً نمطية للأنواع العرقية المختلفة. فتجد لكل عرق نقطة مركز يُحيط بها قدرٌ من التباين، يمثله حجم الدائرة، غير أن هناك نقطةَ مركزٍ واضحةً دون تباين مُتداخل؛ فالحدود واضحة وتخلو من أي غموض.

يُظهر المخطط الأوسط، شكل ١٠-١ب، بعض التداخل. وعندما كنا نسأل طبقات وجماعاتٍ أخرى، غالبًا ما كانوا يَعتقدون أن هذا المخطَّط هو الأكثر منطقية؛ بمعنى أنه الأفضل في وصف بِنية التبايُن الجيني البشري. فهو منطقي، على سبيل المثال؛ لأننا نستطيع أن نرى بعض الالتباسات العرقية، كرؤية بعض التداخل في لون البشرة وملمَس الشَّعر على سبيل المثال. ومع ذلك تظلُّ هناك فروق مُتمايزة نوعًا ما في النقاط المركزية. وقد يعتقد المرء من واقع هذا المخطط أن العرق، على الرغم من أنه يحوي بعض الالتباسات في الأطراف، فإنه في جوهره حقيقي ومُفيد.

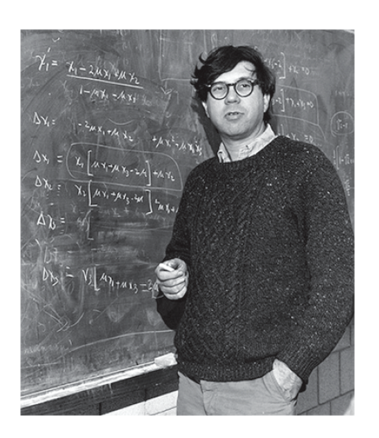


شكل ١٠-١: تمثِّل مخططات فِن هذه ثلاث رؤًى للتباين الجيني البشري؛ (أ) النموذج الجوهري. (ب) نموذج السكان. (ج) نموذج ليونتين ١٩٧٢ (بتصريح من الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا، رسوم مارك بوكر).

أما المُخطط الأخير، شكل ١٠-١ج، فهو تمثيلٌ مرئي لنتائج ليونتين الفعلية التي توصَّل إليها في عام ١٩٧٢، أي منذ حوالي أربعين عامًا. وقد وجد أن القاعدة السائدة هي وجود تداخُلٍ قوي على نحو لا يُصدق بين الأعراق، وأن مركز التبايُن في عرق ما كان قريبًا للغاية من مركز التبايُن في آخر. وقد أظهرت كل مجموعة سكانية بالفعل درجة ملحوظة من التباين.

في ضوء نتائج ليونتين، يُصبح من الصعب الاعتقاد ببساطة بوجود أهميةٍ بالغة للعرق. علاوةً على ذلك، نحن نرى تأكيدًا لهذه النتائج حين النظر إلى توزيع السمات المعقَّدة، مثل العدو. كذلك يُخبرنا مثال الخلية المنجلية أن سمةً ما قد تكون عالية في جزء من إحدى القارات ولكن ليس لها وجود في أخرى، وهو ما يُعدُّ مثالًا للتباين الكبير داخل عرقٍ ما؛ لذا ففيما يُعتبر العرق حقيقيًّا على المستوى الثقافي، فإن جدواه محدودة على المستوى الوراثي.

(٣) حوار مع ريتشارد ليونتين



ريتشارد ليونتين: يَشغل كرسي ألكسندر أجاسيز أستاذ علم الحيوان المتفرِّغ بجامعة هارفرد، وواحد من أبرز المرجعيات في مجال التنوُّع البشري. ألَّف العديد من الكتب المعروفة عن التطور والتباين البشري، منها «التنوع البشري، ليس في جيناتنا»، و«الحلزون الثلاثي» (الصورة بتصريح من ريتشارد ليونتين).

* * *

هل للاختلافات العرقية وجود على المستوى الوراثي؟

تبدو الشعوب التي احتلَّت مناطقَ جغرافيةً كبرى لجزء كبير من التطور الحديث للبشر مختلفة أحدها عن الآخَر. فأفارقة جنوب الصحراء الكبرى لهم بشرةٌ داكنة، ومن يَعيشون في شرق آسيا يَميلون إلى امتلاك بشرةٍ ذات سمرةٍ فاتحة ولون وشكل مُختلفَين للعين وشعرٍ مختلف عن الأوروبيين. إذن ثمَّة وجود لهذا النوع من التميز الوراثي — هو وراثي — لبعض ملامح الجسم بين الأشخاص الذين يعيشون في آسيا الوسطى، وأفريقيا، وأوروبا، وأمريكا الشمالية، وأمريكا الجنوبية.

وقد كانت تلك الملامح، التي تتحدَّد جغرافيًّا، تُستخدم لإنشاء دلالاتٍ أو مفاهيمَ عامةٍ للأعراق المختلفة؛ فهناك العِرق الأفريقي، والعرق الأسود، والعرق الأصفر، والعرق الأحمر، والعرق البني، والعرق الأبيض. وفي أغلب الأحيان تتمثَّل هذه السمات في لون البشرة إلى جانب شكل الشَّعر وشكل العين وما إلى ذلك. وتلك هي الملحوظة اليومية، «أنهم» جميعًا يَبدون مُتشابهين؛ فيما نبدو جميعًا مختلفين.

السؤال الحقيقي ليس عما إذا كانت تلك الاختلافات في لون البشرة وشكل الشعر وراثية؛ لأنها كذلك. ونحن نعلم ذلك؛ لأنَّ أطفال الجواري السوداوات اللاتي جُلِبن إلى أمريكا الشمالية كنَّ بنفس لون آبائهن. السؤال هو: ما الأمور الأخرى التي تُخبرنا عن الاختلافات البيولوجية؟ كم يَبلغ قدر الاختلاف في الجينات — إلى جانب الجينات المُرتبطة بلون البشرة — الموجود بين هذه الجماعات الجغرافية الأساسية؟

إذا أردنا استخدام مفهوم العرق بطريقةٍ بيولوجية معقولة، فلا سبيل لنا للقيام بذلك إلا حال وجود الكثير من الاختلافات الوراثية بين تلك الجماعات خلاف الاختلافات الظاهرية التي نَستطيع رؤيتها. وهذه مسألة مهمة نستوعبها الآن. ويرجع استيعابنا لها إلى جمع الكثير من البيانات على مرِّ السنين بواسطة علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الوراثة الذين يَبحثون في جينات فصائل الدم وجينات البروتينات وغيرهما من أنواع الجينات من جميع أنحاء العالم؛ فقد كان علماء الأنثروبولوجيا يَجولون فقط لجمع عينات دم من الجميع.

لا بد أن أقول إنني لو كنت هنديًّا من أمريكا الجنوبية، لما تركتُهم يأخذون دمي، ولكنهم فعلوا. ومن نتائج ذلك أنه مع مطلع السبعينيات من القرن العشرين صار لدينا كمٌّ ضخم من المعلومات بشأن أشكال الاختلاف الوراثي من جميع أنحاء العالم لعددٍ كبير من الجينات لم يكن لها أيُّ صلة بتلك المظاهر الخارجية مثل لون البشرة، ولكن كان لها صلة بفصيلة الدم والبروتينات.

وحين جُمع كل ذلك معًا، صار واضحًا إلى حدٍّ كبير أنه كان يوجد بالفعل فروق بسيطة في تواتُرات أشكال الجينات المختلفة بين ما يُسمى بالأعراق الجغرافية الرئيسية.

صار معروفًا منذ القرن العشرين أن هناك ما يُسمى بتعدد أشكال فصيلة الدم؛ فهناك الفصيلة A والفصيلة B، والفصيلة O، والعامل الرايسي الإيجابي RH، والعامل الرايسي السلبي RH، وما إلى ذلك لدى كل جماعة في العالم. ولكن كان الافتراض القائم أن الناس في أفريقيا سيكون لديهم تواتُرٌ نسبيٌّ مختلف تمامًا للفصيلة A وB وO عن الناس في أمريكا الشمالية أو في أوروبا وفي آسيا.

وما أظهرته كل هذه الدراسات أن ذلك لم يكن صحيحًا؛ فلا يُمكنك حقًّا أن تميز بين مجموعةٍ سكانيةٍ أفريقية، ومجموعةٍ سكانيةٍ أوروبية، وأخرى آسيوية بالنظر إلى تواتر فصائل الدم المختلفة، أو توزيعها النسبي؛ فقد كان بالأساس واحدًا لدى كل هذه المجموعات.

ولا يسري هذا على كل فصائل الدم؛ فثمة فصائل دم عارضة تميِّز بقوة بين المجموعات السكانية المختلفة. فتوجد فصيلة دم تُسمى الفصيلة الدموية «دافي» وتختلف تمامًا ما بين الآسيويين، والأفارقة، والأوروبيين. ولكن ذلك استثناء وليس القاعدة.

بالنسبة إلى كل جين تقريبًا نعرفه، إما أن يكون لدى جميع الناس في العالم نفس الشكل من الجين، وفي هذه الحالة يكون جميع البشر مُتماثلين، أو إذا كان يوجد تباين، فإن تواترات المُتغيرات المختلفة تكون واحدة نسبيًّا، أو أقرب للتماثل، لدى الأفارقة، والآسيويين، والأمريكيين الشماليين، والآسيويين الأستراليين وهكذا. ويمكن أن نَعزو حوالي ٧٪ فقط، حسب تقديري، من إجمالي التباين البشري إلى الاختلافات بين الجماعات، أو بين الأعراق الرئيسية. وعلى كلٍّ، فإن حوالي ٧٥٪ من إجمالي الجينات الوراثية [يأتي في شكلٍ واحد فقط و] مُتطابقة لدى الجميع؛ ومن ثم لا يوجد سوى تمييز محدود للغاية.

كيف تقيس التباين الجيني البشري؟

تتمثَّل الطريقة التي نقيس بها التباين البشري على المستوى الجيني في النظر وإيجاد كل الأشكال المختلفة لجينٍ بعينه، والأشكال البديلة للجين، ثم نرى نسبة السكان الذين لديهم الشكل واحد، والشكل اثنان، والشكل ثلاثة، والشكل أربعة، والشكل خمسة، وهكذا. فإذا كان ٩٩٪ من السكان لديهم شكل و١٪ فقط لديهم شكل آخر، فلا يوجد إذن تبايُن جينيٌّ كبير لدى السكان لهذا الجين، وإذا كانت المجموعات السكانية المختلفة لديهم جميعًا ٩٩٪

من الشكل واحد و١٪ من الشكل اثنين، فلا يوجد إذن تمايُز بين المجموعات السكانية؛ نظرًا لأنهم جميعًا يحملون نفس النسب.

أما إذا كان لدى مجموعةٍ سكانية ما ٩٩٪ من الشكل واحد و١ بالمائة من الشكل اثنين، ولكن كان لدى مجموعةٍ سكانيةٍ أخرى ٩٩٪ من الشكل اثنين و١٪ فقط من الشكل واحد، فسوف يكون هناك فارقٌ كبير بين المجموعتين، على الرغم من أن جميع الأفراد داخل المجموعة السكانية الواحدة متطابقون.

إذن تلك هي الطريقة لوصف التباين. تنظر إلى النسب المئوية للأشكال المختلفة للجين لدى المجموعات السكانية المختلفة وتتساءل: إذا أخذتَ عينة من مجموعة سكانيةٍ ما، فهل تكون نسب الأشكال المختلفة متشابهة سواء كانت مجموعة من السكان الأفارقة، أو الآسيويين، أو الأوروبيين؟ إذا كان الأمر كذاك، فلا يوجد اختلاف «بين» المجموعات السكانية، وكل الاختلاف يوجد «داخل» المجموعات السكانية ذاتها.

إذن ما الذي اكتشفته بشأن الاختلافات بين السكان؟

حسنًا، كانت المشكلة الدائمة التي تُواجه علماء التطور وعلماء الوراثة السكانية آنذاك هي محاولة تمييز قدرِ التبايُن الجيني القائم بين الأفراد والجماعات وما إلى ذلك. ولم يكن أحد يعرف كيفية القيام بذلك؛ إذ كان عليك ربط الجينات بمظهرٍ خارجي ما يمكنك ملاحظته فعليًّا، وغالبية الجينات ليس لها مظهرٌ خارجي يُعبِّر عن التباين الخاص بها.

لذا لم يكن الناس يعرفون حقًّا ما إذا كان الأفراد يتباينون جينيًّا من فرد إلى آخر بقدرٍ كبير أم بقدرٍ محدود فقط. لقد كان بمقدورهم رؤية التبايُن بين الأفراد، ولكنهم لم يعرفوا القدر الذي يُمثله ذلك التباين من إجمالي الجينات. وعلى مدى فترةٍ طويلة، لم يكن لدى أحد أدنى فكرة عن قدر التباين الجيني من فرد إلى فرد داخل جنسنا البشري.

وقد أمضيتُ وقتًا طويلًا وأنا قَلِق بشأن ذلك مثل كثير من الأشخاص الآخرين في مجالي. بعد ذلك التقيتُ شخصًا كانت لديه وسيلة تجريبية للقيام بذلك ولا يدري ماذا يفعل بها، ولكنَّني كنتُ أعلم ماذا نفعل بها. لقد كنتُ شخصًا لديه مشكلة دون وسيلة للحل، وكان هو شخصًا لديه وسيلة بلا مشكلة والتقينا معًا.

وكانت تلك الوسيلة تعتمد بالأساس على استخلاص البروتينات من الأفراد وتسييرها في مجالٍ كهربي لنرى ما إذا كانت البروتينات قد تحرَّكت بمعدلاتٍ مختلفة داخل مجالٍ كهربي. فلو كانت ثمة أشكالٌ بديلة للجينات الخاصة بذلك البروتين، لتحركت تلك

البروتينات بسرعاتٍ مختلفة في المجال الكهربي، ويُمكنك تحديد البروتينات بصريًّا عن طريق تلوينها.

إذن ما فعلتَه هو أنك سحقتَ ذبابة فاكهة، وأقحمتها داخل شريحة من الهلام، وقمتَ بتشغيل التيار، فتحرَّكت جميع البروتينات داخل الهلام، ثم أغلقت التيار. بعد ذلك قمتَ بتلوينها، ومن المؤكَّد أنك سوف ترى أن الأفراد على اختلافهم يتحرَّك لديهم نفس البروتين لمسافاتٍ مختلفة. وسيعزو ذلك إلى أن لديهم شكلًا مختلفًا من نفس الجين.

وقد استطعنا استخدام تلك الوسيلة، التي تُسمى الرحلان الكهربي الهلامي، على أي كائن على الإطلاق. إذا استطعتَ أن تسحقه، يُمكنك أن تفعل ذلك، وهذا يشمل الأشخاص. ليس بالضرورة أن تسحق الشخص بأكمله، ولكن يُمكنك أن تأخذ قدرًا بسيطًا من نسيج أو من الدم؛ ويُمكنك أن تفعل ذلك على الذباب، على الفئران، على النباتات، على البكتيريا، أي شيء. وكانت النتيجة أنه على مدار ٢٠ عامًا كان الأشخاص المهتمون بمسألة التباين الجيني يَسحقون كائنات ويقومون بقياس التباين الجيني.

وما اكتشفوه هو أن الكائنات داخل نوعٍ ما مختلفة جينيًّا أحدها عن الآخر على نحوٍ هائل. فيما كان العديد من الناس يقولون: «لا، إنهم جميعًا متماثلون؛ لأن أي اختلافاتٍ جينية هي عبارة عن طفرات وسوف تُطرد بفعل الانتخاب الطبيعي. وفيما عدا بضعة اختلافات سطحية، فإن جميع الكائنات داخل نوعٍ ما تكون متماثلة.»

ولكن هذا ليس صحيحًا؛ فقد اتضح أن ما يتراوح بين ٢٥–٣٣٪ من الجينات داخل نوع ما من النوع المُتغير؛ يختلف من فردٍ إلى آخَر. وهذا هو ما اكتشفَتْه تلك الوسيلة التجريبية، أن ما يَقرب من ربع أو ثلث الجينات جميعًا — ليس جيناتك فقط، بل جينات أي كائن — متغيرة بين أفراد النوع الواحد؛ ومن ثم يُقدِّم لنا ذلك رؤيةً مختلفة لإمكانية التطور. وفي اعتقادي أن هذا «يُثير إمكانية أننا نستطيع التساؤل عن قدر التمايُز الجيني القائم بين البشر في الجماعات السكانية المختلفة.»

كان شخص يُدعى هاري هاريس قد أثبت بالفعل أن هناك الكثير من هذا التباين الجيني لدى البشر، من النوع الذي وجدناه لدى ذباب الفاكهة، والذي وجده الناس في النباتات. وقد استخدم نفس التقنية وبيَّن أن البشر متباينون جينيًّا. ولكن ما لم يكن يعرفه هو قدر الاختلاف الموجود بين الأفارقة، والآسيويين، والأوروبيين وهكذا. ولكن بدأ قدرٌ معيَّن من البيانات يَتراكم، وبحلول عام ١٩٧٢ أصبح الكثير من تلك البيانات موجودًا بالفعل.

استطَعنا آنذاك أن نُحدِّد من واقع بياناتٍ قديمة عن فئات الدم البشري، التي كانت معروفة منذ زمن، ومن واقع هذه البيانات الأحدث عن البروتينات التي تحويها والتي استطعنا تصوُّرها في هذه المواد الهلامية؛ قدرَ الاختلاف بين أي فردَين على المستوى الجيني، وبين مجموعة من الأفراد من فرنسا ومجموعة من الأفراد من أفريقيا الاستوائية الفرنسية. وهذه المجموعة من البيانات أصبحت ضخمة الآن، بمعني أننا نَعلم قدرًا هائلًا عن نوعية التبايُن البروتيني لدى البشر. كان ذلك قبل توليف متواليات الدنا؛ حين كنا ننظر فقط إلى بروتينات الأفراد.

ومن ثم قلت في نفسي: «حسنًا، لقد اكتفينا من هذه البيانات، ولنرَ الآن ما تُخبرنا به بشأن الاختلافات بين الجماعات البشرية.» لذا اكتفيتُ بالنظر في المواد المطبوعة، وكانت هذه المواد في الكتب وما إلى ذلك. وذات يوم كنتُ في طريقي لإلقاء محاضرة، أعتقد في كاربونديل، بولاية إلينوي، أو في مكانٍ ما في الجنوب. كنتُ أعمل في شيكاغو في ذلك الوقت؛ لذا اصطحبتُ معي كتابَين من هذه الكتب ودفترًا، وجدول لوغاريتمات كنتُ بحاجة إليه لهذا الغرض، وحاسبةً يدويةً صغيرة، وجلست خلال رحلة الحافلة هذه لثلاث أو أربع ساعات أنظر إلى الكتب، وأتخيَّر البيانات، وأبحث في جدول اللوغاريتمات، وأقوم بعمليةٍ حسابية، وأُدوِّنها في الجداول. وحين عدتُ بعد رحلة الذهاب والعودة كان لديَّ جميع البيانات التي كنت بحاجة إليها لكتابة الورقة البحثية حول قدر التبايُن الجيني، ومن ثم كتبتُها. وتكرر ذلك في السنوات الأخيرة باستخدام الدنا وغيره. ودائمًا ما تحصل على نفس النتيجة. وهذا يُبين لك أن الخوف من الطيران أمرٌ مفيد، بالمناسبة، لأنك بذلك يكون لديك الكثير من الوقت للعمل على متن حافلة.

إذن ما قدر الاختلاف الموجود بين الجماعات البشرية؟

تأتي الأرقام كالتالي:

بالنسبة إلى البشر عمومًا، وبالنسبة إلى حوالي ثلاثة أرباع جيناتنا ككل، يكون لدى جميع الأشخاص في العالم، عدا فردٍ واحدٍ نادر، شكلٌ واحد فقط من الجين؛ لذا يشترك جميع البشر في ذلك الشكل. بالنسبة إلى نسبة الـ ٢٥٪–٣٣٪ أو نحو ذلك من تلك الجينات التي يوجد لها قدر من التباين — أي ٩٩ إلى واحد أو ٥٠ / ٥٠ أو ٧٥ / ٢٥ من الأشكال المختلفة — وبالنسبة إلى جميع تلك الجينات، لا يهم المجموعة السكانية التي تأخذ منها العينة؛ فالنِّسَب واحدة لدى الجميع. وهذا يعني أنه إذا كان لدى الأوروبيين ٧٥٪ من

الشكل واحد و٢٥٪ من الشكل اثنين، يكون لدى الأفارقة ٧٠٪ من الشكل واحد و٣٠٪ من الشكل اثنين، ولدى الآسيويون ٧٣٪ من الشكل واحد و٢٧٪ من الشكل اثنين، وهكذا. ومعظم الجينات تَسير على هذا النحو.

ولكن يوجد عددٌ قليل جدًّا من الجينات، تحديدًا فصيلة الدم دافي، التي يوجد منها لدى جماعات السكان الآسيوية نوعٌ واحد شائع للغاية، وشكلان لدى جماعات السكان الأفريقية، ولكنَّهما ليسا متماثلَين مثل الشكل الشائع لدى الآسيويين، وتوجد نسبةٌ مختلفة أخرى لدى الأوروبيين؛ لذا يوجد اختلافٌ كبير في التواتُرات بالنسبة إلى هذا الجين، ولكن هذا نادر.

وإذا جمعتَ كل هذه الخيوط معًا — وقد فعلنا ذلك الآن فيما يتعلَّق بالبروتينات، وفئات الدم، والآن مع توليف متوالية الدنا، قمنا بتجميع الخيوط فيما يتعلق باختلافات متواليات الدنا — دائمًا ما تأتي النتائج واحدة: ٨٥٪ من إجمالي التباين بين البشر يكون بين أي فردَين «داخل» أي مجموعة من السكان المحليين، أُكرر ٨٥٪ من إجمالي التباين؛ أرجو أن تتذكَّر أن ٧٥٪ من إجمالي الجينات مُتطابِق بالنسبة إلى الجميع. ولكن ٨٥٪ من التباين القائم يكون بين الأفراد داخل السويد أو داخل الدنمارك، أو داخل شعب الإيوي، أو الكيكويو، أو الصينيين، أو شيء من هذا القبيل.

من نسبة الـ ١٥٪ المتبقية من التباين البشري، يقسم التباين بنسبة حوالي ٥٠/٥٠ بين الجنسيات داخل ما اصطُلح على تسميته عرقًا رئيسيًّا، بين السويديين، والإيطاليين، والفرنسيين، وهكذا، أو بين الإيوي والكيكويو والزولو أو شيء من هذا القبيل. أما الـ ٧٪ الأخرى المتبقية أو نحو ذلك، فتكون بين تلك الجماعات الرئيسية: ذوي البشرة السوداء، والبُنية، والصفراء، والحمراء، والبيضاء.

ما الذي يخبرنا به ذلك عن العرق؟

حسنًا، ربما قد يتبيَّن وجود اختلافاتٍ وراثيةٍ كبيرة بين الجماعات، وأن معظم الجينات كانت مُتمايزة إلى حدٍّ كبير بين الأعراق الرئيسية. والآن، لو تبين أن ذلك صحيح، لكان هناك على الأقل إمكانية، وإن لم تكن مُثبَتة، أن يكون ثمة تمايزاتٌ كبيرة، كما يحب أن يحلم البعض، بين الجماعات في قدراتهم الذهنية، أو في طبائعهم، أو أي شيء من هذا القبيل. وعلى الرغم من أنه لا أحد كان على دراية بأي جينات لتلك الأشياء، فقد كانت على الأقل احتماليةً قائمة.

ولكن حين وجدنا أنه لم يكن يوجد أي فروقٍ وراثية فعليًّا بين الجماعات، عدا لون البشرة وشكل الجسم وبعض الأشياء من هذا القبيل، صار الحديث عن الفروق الوراثية بين الجماعات مُستبعَدًا وأقل إثارة إلى حدٍّ كبير. وكان من نتيجة ذلك أنه من المنظور البيولوجي، كانت تلك التي تُسمى بالأعراق الرئيسية — العرق الأسود، والبني، والأصفر، والأبيض، والأحمر — غير مُثيرة للاهتمام بيولوجيًّا.

وكان هذا بدوره يعني أن الاختلافات التي كان الناس دائمًا ما يُؤكِّدون عليها لأغراضٍ اجتماعية كانت عبارة عن مفاهيم واعتقاداتٍ اجتماعية لم يكن لها، على نحوٍ شبه مؤكَّد، أيُّ أساس بيولوجي؛ ولذلك ينبغي أن نتوقف عن الحديث عن الأعراق الرئيسية؛ لأن الحديث عن الأعراق الرئيسية أعطى انطباعًا بوجود فروقٍ واختلافاتٍ كبيرة بين هذه الجماعات في أشياءَ ذات أهمية — أعني أن لون البشرة، في النهاية، غير ذي أهمية عدا في إطارٍ جماليٍّ غامض — ولكن الأشياء التي كانت لها أهمية بحق هي: شخصيات الناس، مُستوى ذكائهم، سلوكهم، وما إذا كانوا سيُنافسون الآخرين أم لا، وما إلى ذلك. وهكذا صار الدليل القائم أنه لم يكن يوجد أي فروقٍ مُثيرة للاهتمام في مثل هذه الأمور، ومِن ثم ينبغي أن نتوقَّف عن الحديث عن العرق.

لماذا لا يزال الناس مُتمسِّكين بالتفسيرات البيولوجية للاختلاف؟

حسنًا، قبل كل شيء، العرق حقيقةٌ اجتماعية. أقصد أنه يوجد أشخاصٌ داكنو البشرة ويُطلَق عليهم أنهم سُودٌ، وتلك حقيقةٌ اجتماعية. لا يمكنك أن تُنكر ذلك. السؤال هو لمَ يتشبَّث الناس بتلك الحقيقة الاجتماعية؟ يوجد سببان؛ أحدهما تفاؤلي، ويتمثل تحديدًا في أن مجرد تغيُّر فكرة ما أو اعتبارها بلا أساس لا يعني تلاشيها في الحال. فالأمر يستغرق وقتًا مع توالي الأجيال البشرية.

ولكن الأكثر من ذلك أن العرق والتصنيفات العرقية تؤدِّي وظيفةً اجتماعية غاية في الأهمية، تتمثَّل تحديدًا في تبرير التفاوت واللامساواة التي توجد في مجتمع يُزعم أنه قائم على المساواة. إذا كان كل الرجال قد خُلقوا سواءً — لاحظ، ليس النساء، بل الرجال — إذا كان جميع الرجال قد خُلقوا سواءً، فلماذا إذن توجد نسبةٌ أكبر بكثير من السود في السجون عن البيض؟

هل من الممكن أن تكون معاملة الناس لهم غير عادلة؟ فيكون ردُّك: «كلا، لا يمكن أن يحدث ذلك؛ لأننا نعيش في مجتمع من المساواة.» ومن ثم تكون الإجابة السهلة

هي: «حسنًا، هم في السجن؛ لأنه ينبغي أن يزجَّ بالمزيد من السود في السجن؛ لأن السود لديهم جينات تجعل منهم مُجرمين.» وجمال تلك الأيديولوجية في تبريرها لما يُعدُّ مصدر العذاب والألم الاجتماعي الأكبر للحياة الأمريكية، بكل تأكيد، والحياة الأوروبية جزئيًّا؛ تحديدًا، التفاوت الاجتماعي الضخم بين الجماعات في مجتمع يزعم أنه مجتمعٌ قائم على المساواة.

ولا بد أن تتأقلم مع ذلك، لا بد أن تُصبح متكيِّفًا معه؛ لأن البديل هو المطالبة بثورةٍ حقيقية في العلاقات الاجتماعية، وهذا ليس بالأمر السهل.

ما العلاقة بين حمضك النووي والشخص الذي تكونه؟

الكلمة التي يستخدمها علماء الوراثة لوصف مظاهرك الخارجية وفسيولوجيتك وتمثيلك الغذائي وتشريحك وما إلى ذلك، بما في ذلك سلوكك، هي النمط الظاهري؛ وتعني حرفيًّا «ما يظهر على السطح»، وهي مشتقة من مفهوم pheno بمعنى يظهر. ويفترض نظريًّا أن يكون ذلك نتيجة الجينات التي تحملها، والتي تُسمى النمط الوراثي.

لقد كان السؤال الذي ظلَّ علماء الوراثة يُكافحون من أجل الإجابة عنه لفترة طويلة جدًّا هو ما العلاقة بين تلك العناصر التي يحملها النمط الوراثي، أو الحمض النووي، وبين ما ينتج في نهاية العملية التطورية، أو النمط الظاهري؟

لا بد أن تتذكَّر أننا نبدأ كبُوَيضة مخصَّبة، وهذه البويضة تمر بانقسامات خلوية وتُصبح كائنًا متكاملًا، وهذا الكائن ينمو ويتطور على مدار حياته. فنحن جميعًا نتطور على نحوٍ مُتواصِل. فنزداد طولًا، ثم نصير أقصر. نزداد ذكاءً، ثم نصير أكثر حمقًا. وهذا يَحدث باستمرار.

إذن السؤال هو: ما العلاقة بين تلك العناصر الداخلية، تلك الجينات، أو النمط الجيني، وبين النمط الظاهري؟ والإجابة هي أننا نعرف من واقع سنوات الدراسة التجريبية والملاحظة العادية أنه لا يوجد علاقة ثنائية بسيطة بين النمط الوراثي والنمط الظاهري. إن الكائن الحي يتأثَّر بلا شك بالجينات بشدة؛ فلا يوجد شمبانزي سوف يُجرى معه حوارٌ تلفزيوني ويقول الأشياء التي أقولها الآن؛ لأن الشمبانزي ليس لديه جينات تُمكِّنه من الحديث، وصياغة هذه الفِكَر النظرية المجرَّدة؛ لأن دماغه لا تتخذ الشكل المناسب لذلك وما إلى ذلك.

إذن فالاختلافات بين الأنواع تكمن بوضوح، بشكلٍ ما، في الجينات. ولكن ليس الأمر في الوقت ذاته أن كل جانب من جوانب النمط الظاهري يتحدَّد وفقًا للجينات؛ لأن البيئة التي تنمو وتتطور فيها، داخل الرحم وبعد الميلاد على حدٍّ سواء، وبيئتك النفسية كاملة، وتعليمك، وما تُشارك فيه، والطعام الذي تأكله، والمجتمع الذي تحيا فيه؛ كل ذلك يشترك في تشكيل النمط الظاهري.

إن ذلك النمط الظاهري لا يُمكن أن يكون شيئًا مؤثرًا في العالم بأي حال. فكما ذكرت، مهما كانت البيئة التي يعيش فيها الشمبانزي، فلن يكون أستاذًا جامعيًّا قط. ومهما كانت البيئة التي نحيا فيها، أعتقد أن من المُستبعَد تمامًا أن يعيش البشر حتى بلوغ ٢٠٠ عام، على سبيل المثال، بسبب جيناتنا.

الشيء المُثير بشأن أنماطنا الظاهرية، أو بشأن تبايُن الأنماط الظاهرية بين الأفراد، هو أنها تتبايَن باستمرار نوعًا ما — مثل الأطوال، أو الأشكال، أو الألوان — فلا يوجد ثلاثة ألوانٍ مختلفة فقط أو أربعة أطوالٍ مختلفة فقط؛ إلا أنَّ الجينات تكون كأجسامٍ منفصلة ذات أشكالٍ مختلفة معيَّنة. فقد يكون لديك الشكل واحد من الجين، أو الشكل اثنان من الجين، أو الشكل ثلاثة؛ ومن ثم يكون لديك تلك الاختلافات غير الملحوظة على مستوى النمط الوراثي، والتي تتحوَّل بطريقةٍ ما إلى تبايُنٍ مُتواصِل بين الأفراد وسلوكهم، وتكوينهم الخارجي، وفسيولوجيتهم، ويكون الأمر أشبه بالرسم بالنقاط، الذي إذا اتُّخذت فيه خطوة إلى الخلف بعيدًا عن الرسم ترى أشكالًا مُستمرَّة، ولكن حين تقترب منها ترى أنها تألَّفت بنقاطٍ قليلة متناهية الصِّغر من الألوان تَلتحم معًا في عينيك وفي دماغك من على بُعد، ولكنها غير ملحوظة وفردية.

والمُراقب الذي يُلاحظ لوحة مرسومة بالنقاط إنما يؤدي عملًا؛ فهو يُشكِّل النمط الظاهري من ذلك النمط الوراثي الكامن، إن جاز التعبير، من خلال تدخُّل عينيه وجهازه العصَبي المركزي. على النحو ذاته، يتحوَّل نمطنا الوراثي إلى نمطٍ ظاهري من خلال العملية التطوُّرية التي تَحدث في بيئةٍ بعينها، وكل بيئة مختلفة، والبيئات في تغير دائم.

إذن توجد علاقة بالِغة التعقيد بين النمط الوراثي والنمط الظاهري. ومن يقولون: «حسنًا، فقط لو كنتُ أعرف كل جيناتك، لعرفتُ كل شيء عنك بالتحديد.» مخطئون. فالواقع أن فكرة أنني إذا استنسختُ شخصًا عن طريق استنساخ جينات ذلك الشخص في فردٍ آخر، فإن الفرد المُستنسَخ سوف يكون متطابقًا مع الأفراد الذين جاءت منهم الجينات، هي فكرة خاطئة. حين كنتُ طفلًا، كان أشهر الأشخاص في العالم هم توائم

ديون الخمسة. كان التوائم الخمسة عبارة عن خمس فتيات وُلدن في المنطقة الريفية بمقاطعة كيبيك، وكنَّ جميعًا مُتطابقات، وكنَّ يرتدين نفس الملابس، وكان شعرُهن مصفَّفًا بنفس الشكل، ومُتشابهات في الشكل، ووُضعنَ فيما يُشبه حديقة حيوان من قِبَل والديهن والطبيب الذي ولَّدهن ومقاطعة أونتاريو. وكان الجميع ينظر إليهن، وكن يُجعلن متشابهات بأقصى قدر مُمكن حتى يكنَّ أعجوبة العصر الحديث. لقد كانت كل منهنَّ نسخة من الأخرى.

ولكن في الواقع، حين تقدَّمن في العمر، حين غادرن هذه البيئة المُصطَنعة، أصبحَت كلٌّ منهنَّ مختلفة عن الأخرى. فصارت اثنتان منهن راهبات، وتزوَّج بعضهن، والبعض لم يتزوَّجْن، وتُوفيت اثنتان منهن فيما لا يزال ثلاث على قيدِ الحياة؛ وأظن أن أختًا ثالثة قد تُوفيت مؤخرًا. وكانت إحداهن مصابة بانفصام الشخصية، فيما لم تُصَب الأخريات. لقد كانت كلٌّ منهنَّ مختلفة عن الأخرى مثل أي خمس فتيات، وإن كنَّ قد ظللن متشابهات في الشكل إلى حدٍّ كبير.

وتلك هي النقطة المهمة: أنه على الرغم من أن قدرًا كبيرًا من شكلنا الخارجي، ومن ملامح وجوهنا، لا تبدو مُتأثِّرة إلى حدٍّ كبير بالتبايُن البيئي، فإن شخصياتنا وقدراتنا تتأثَّر على نحوٍ هائل وواضح به. ولعل في التوائم ديون مثالًا رائعًا لذلك.

هل الجماعات مثل الأيسلنديين متميِّزون وراثيًّا لكونهم أكثر عزلة؟

لقد ظهرت أيسلندا في نشرات الأخبار كثيرًا مؤخرًا، إثر قيام الحكومة الأيسلندية بمنح الجينوم الأيسلندي كاملًا لشركةٍ خاصة لاستغلاله. ادَّعت هذه الشركة أن السبب وراء رغبتها في امتلاك الأنماط الوراثية لجميع الأيسلنديين هو أنَّ الأيسلنديين شعب متجانس على نحوٍ فريد. ولماذا هم شعبٌ مُتجانس على نحوٍ فريد؟ لأن أيسلندا تأسَّست في القرن التاسع على يد أشخاص جاءوا من النرويج؛ وكان عددهم قليلًا جدًّا، ولم يكن هناك سوى هؤلاء المهاجرين فقط. لم يكن ثمة شخص في أيسلندا عند مجيئهم — وهذا صحيح — وجميع الأيسلنديين في العصر الحالي مُنحدِرون من تلك القلة من المهاجرين الموجودين منذ البداية؛ ولذلك يَرتبط جميع الأيسلنديين أحدهم بالآخر بقرابة قوية؛ ولذا إذا استطعنا بطريقةٍ ما دراسة جيناتهم، فقد نجد جينات لمرضٍ ما وأشياءَ أخرى، نظرًا لارتباط الجميع بالجميع، ويُمكننا إجراء تتبُّع شجرة النسب.

وهكذا فالأمر برمَّته قائم على الادِّعاء بأن أيسلندا شعبٌ متجانس جينيًّا على نحوٍ بالغ. والآن يدعم هذا الادعاء بحقيقة أن الأيسلنديين يتحدثون بلغةٍ اندثرت في العالم بأسره منذ ١٥٠٠ عام؛ بمعنى أنهم يتحدَّثون شكلًا من اللغة النوردية القديمة التي ترتبط بالنرويجية والسويدية ولكن تختلف عنهما كثيرًا. كذلك يُزعم أنهم جميعًا مُتشابهون في الشكل — فلهم جميعًا شَعرٌ مائل إلى الحمرة أو أشقر وما إلى ذلك — ومنعزلون، وجميعهم يعرف كلٌّ منهم الآخر؛ فهي دولةٌ صغيرة للغاية، لا يتجاوز تعدادها ٢٠٠ ألف نسمة فقط.

وهكذا تضافرت كل هذه العوامل معًا، من فكرة انعزال أيسلندا جينيًّا، وقدوم أشخاص قليلين إلى هناك، وانعزالهم على المستوى الجيني عن الجميع منذ ذلك الحين؛ ولذلك يتحدَّثون بتلك اللغة الغريبة، وكل شيء في تجانس.

المشكلة الآن أننا نعرف أن هذا ليس صحيحًا، ونعرف ذلك من مصدرٍ يُعتبر بشكلٍ ما مصدر الفخر الوطني الأيسلندي، ألا وهو القصص الملحمية الأيسلندية (الساجا). تروي لنا القصص الملحمية الأيسلندية، والتي كانت تؤلَّف أو تروى شفهيًّا خلال العصور الوسطى من قِبَل مجموعةٍ متنوِّعة من المؤلِّفين الأيسلنديين وتمَّ تدوينها في النهاية، قصة تأسيس أيسلندا، وقصة الحروب التي خاضها الأيسلنديون، أو الفايكنج.

تعطي القصص هذا الانطباع في البداية بأنه مجتمع في غاية التجانُس. ولكن حين تشرع في قراءة القصص الملحمية الأيسلندية، تَكتشف أن أولئك الأيسلنديين الأوائل، أو أولئك الفايكنج، كانوا في حقيقة الأمر يتكسَّبون رزقهم من القيام بنفس الشيء الذي كان اليونانيون القدماء يقومون به تمامًا؛ فكانوا يَقضون نصف الوقت في الزراعة، ثم في النصف الثاني من الوقت يُمارسون القرصنة. فكانوا يستقلُّون قواربهم، ويمضون لُممارسة الاغتصاب، وأعمال السلب والنهب، واتخاذ العبيد، ويُقاتلون في كل مكان، وهذا هو ما كان عليه الفايكنج. لقد كان الفايكنج قراصنة، ولم يُحاولوا إيجاد عذر أو مُبرِّر لذلك؛ ذاك كان أسلوب الحياة الذي وصفَتْه القصص البطولية الأيسلندية.

وفي طور هذا الوجود القرصاني، كانوا يتَّخذون عبيدًا، فكانوا يجلبون أشخاصًا معهم إلى أيسلندا من بلادٍ أخرى. يوجد جزءٌ رائع في ملحمة «إيجيل»، حسبما أعتقد، وهي قصة تدور حول رجل أراد شراء جارية؛ لذا ذهب إلى روسيا وتعامل مع تاجرٍ روسي، فطلب منه التاجر الروسي ثمنًا معينًا لقاء هذه الجارية، وقال إن لديه مجموعة من هؤلاء النساء في كوخِه، فقال الأيسلندي: «انتظر لحظة، لن أدفع ذلك المبلغ. هذا أكبر بكثير من السعر المألوف لجارية.»

إذن كان يوجد سعر مألوف؛ مما كان يعني أن الأيسلنديين كانوا يفعلون هذا طوال الوقت. لقد كانوا يَجلبون النساء معهم إلى أيسلندا. إذا نظرت في اتجاه اسكتلندا الشمالية، ترى الكثير من المدن التي تحمل في أسمائها كلمة «نيس» (ness)، مثل لوخ نيس، وإنفيرنيس، وهكذا. إن كلمة «نيس» كلمة أيسلندية تعني الكاب وهو رداء يُطرح على الكتف. كانت تلك هي كل الأماكن التي كان الأيسلنديون ينزلون بها ويأخذون عبيدهم. وثمَّة إحدى القصص البطولية تدور بأكملها حول القتال في جزر أوركني وكيف نزل الأيسلنديون في جزر أوركني ووطدوا مراكزهم هناك وما إلى ذلك.

إذن فأيسلندا، في واقع الأمر، مكان يتألَّف جزئيًّا من سلالات أسلاف أولئك الفايكنج الأوائل الذين فرُّوا من النرويج للهروب من قبضة الملك، ولكن أيضًا يتألف في جزءٍ كبير منه من العبيد الذين جلبوهم من كل مكان، وصاروا جزءًا من تجميعة الجينات الأيسلندية. وهكذا يتبين أن أيسلندا، بل في الواقع حين تنظر إلى الأيسلنديين، حين تنظر إلى بروتيناتهم، حين تنظر إلى حمضهم النووي، يتبيَّن أنهم لا يزيدون عن السويديين، والألمان، والإنجليز، والفرنسيين، وكل شعوب شرق أوروبا، تجانسًا على المستوى الجيني. فهم أشبه بدولةٍ نمطية من دول شرق أوروبا.

(نُسخت بتصريح من كاليفورنيا نيوزريل.)

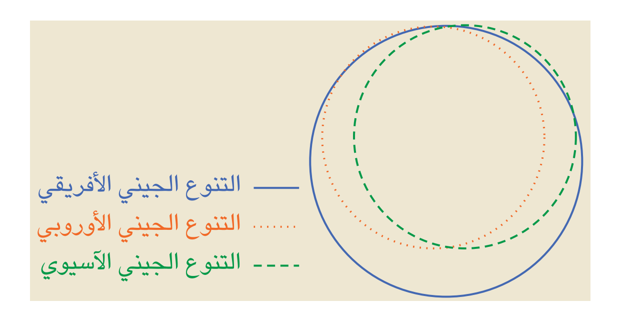
(٤) تحديث لليونتين: بِنْية التباين الجيني اليوم

لقد قارَب ليونتين الصواب في تحليله للأمر. ومع ذلك، إذا كان قد ارتكب خطأً، فهو أنه لم يَستطع أن يضع في اعتباره أن الجماعة الواحدة قد يكون التبايُن فيها فعليًّا أكبر من جماعة أخرى. لا شك أن ليونتين كان يعرف هذا؛ فقد لاحظ الباحثون، على نحوٍ مُتزايد، أن الأفارقة كانوا أكثر تنوعًا بكثير من بقيتنا. غير أن إجراءه الإحصائي لم يأخذ هذه الحقيقة في الحُسبان. إلى جانب أنه كان يَقيس الأشكال المتعددة لفئات الدم ولم يقم بقياس التباين الجيني البشري مباشرة.

لإنهاء هذه القصة، دعونا نتحول إلى عمل يو وزملائه. مع ظهور التقنيات الوراثية الحديثة، صار مُمكنًا قراءة جزءٍ طويل من الشفرة الجينية لأي فرد. وقد قام يو وزملاؤه بهذا ونشروا ما توصَّلوا إليه من نتائج في ورقةٍ بحثية عام ٢٠٠٢، أي بعد ليونتين بثلاثة عقود.

لقد قاموا بمقارنة تتابُع طويل للدنا لأفرادٍ تمَّ تعريفهم بأنهم «أوروبيون»، و«آسيويون»، و«أفارقة». كان الجزء من الدنا الذي أُخذت منه عينات يتألَّف من ٢٥ ألف من متعددات أشكال النيوكليوتايد المفرد. بعد ذلك قاموا بجدولة عدد الاختلافات بين أي فردَين من إجمالي ٣٠ فردًا، بواقع عشرة من كل ما يُسمى عرقًا.

وقد وجدوا أن متوسط الاختلاف بين أي فردَين أوروبيين وأي فردين آسيويين يزيد قليلًا عن ٠٫٦ / ١٠٠٠، أو حوالي ١٥ إجمالًا. وهذه النسبة ليست مُنخفِضة على النحو الذي يُثير الدهشة؛ إذ إنه قد قُدِّر أن ما يَقرب من ٩٩٫٩٪ من مُتعدِّدات أشكال النيوكليوتايد المفرد مُتطابقة بين أي فردَين، كتقديرٍ أوَّلي. بعد ذلك وجدوا اختلافًا محدودًا للغاية بين فردٍ آسيوي وآخرَ أوروبي. وبعد تفكير في هذا الأمر، وجدوه منطقيًّا كون الحد الفاصل بين هاتَين القارَّتين قابل للنفاذ واختياري نوعًا ما. ووجد مزيد من التباين بين فردٍ أفريقي، من جانب، وآخرَ أوروبي أو آسيوي على الجانب الآخر، بواقع حوالي تبايُنٍ واحد لكل ألف. الإثارة فيما هو قادم. غير أن التبايُن الأكبر وجد بين فردَين أفريقيَّين، بواقع حوالي ١٫٢ تباينات لكل ألف. ولنُعبِّر عنها بشكلٍ مختلف قليلًا، التباين بين الأفارقة أكبر من التباين بين الأفارقة وغير الأفارقة.



شكل ١٠-٢: مخطَّط فِن للتنوُّع الجيني البشري قائم على بياناتٍ مأخوذة من يو وآخرين (٢٠٠٢). المخطَّط لجيفري سي لونج والرسوم لمارك بوكر (بتصريحٍ من الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا).

يوضح هذا بشكل ١٠-٢. فمُخطَّط فن الجديد يختلف عن المخططات الموجودة في شكل ١٠-١ من ناحيةٍ واحدةٍ بسيطة ألا وهي: أن «دائرة العرق» مختلفة في الحجم. فدائرة

التنوُّع الجيني الأفريقي هي الأكبر؛ ومن ثَم يُعتبر الأوروبيون والآسيويون، بشكلٍ ما، مجموعة مُتفرِّعة من الأفارقة. وهذا هو ما يجعلنا جميعًا أفارقة من الداخل. وبقدر ما قد يبدو هذا غريبًا، إلا أن الفصل التالي سوف يوضِّح لك كيف حدث هذا على المستوى التطوري.

ملاحظات ختامية

لعل الحقيقة الأبرز التي نَعرفها عن التبايُن البشري هي أنه محلي. فكل التباين تقريبًا يوجد داخل أي جماعةٍ واحدة. أما ثاني أبرز الحقائق، ربما أبرز مِن الأولى من منظورٍ بيوثقافي، فهي أن معظم التبايُن يظهر في أفريقيا وأن غير الأفارقة مجموعة مُتفرِّعة من الأفارقة. وإذا كان لنا توزيع الأعراق على نحوٍ موضوعي، لكان معظمها أفريقية.

في الفصل التالي نرى كيف جاء هذا التبايُن.

المراجع

Lewontin, R.:

1972 The Apportionment of Human Diversity. Evolutionary Biology 6: 381–398.

Long, J. C.:

2004 Human Genetic Variation: The Mechanisms and Results of Microevolution. American Anthropological Association. Published on line at: http://understandingrace.org/resources/pdf/myth_reality/long.pdf.

Montague, A.:

1942 Man's Most Dangerous Myth: The Fallacy of Race. New York: Columbia University Press.

Yu N., F. C. Chen, S. Ota, L. B. Jorde, P. Pamilo et al.:

2002 Larger Genetic Differences within Africans than between Africans and Eurasians. Genetics 161: 269–274.

قراءات أخرى

Brown R. A., and G. J. Armelagos:

2001 *Review of* Apportionment of Racial Diversity. Evolutionary Anthropology 10: 34–40.

Mielke, J. H., L. W. Konigsberg, and J. H. Relethford:

2006 Human Biological Variation. New York: Oxford University Press.

Serre D., and S. Pääbo:

2004 Evidence for Gradients of Human Genetic Diversity within and among Continents. Genome Research 14: 1679–1685.

Templeton, A. R.:

2003 Human Races in the Context of Recent Human Evolution: A Molecular Genetic Perspective. *In* Genetic Nature/Culture: Anthropology and Science beyond the Two-Culture Divide. A. H. Goodman, D. Heath, M. S. Lindee, eds. Berkeley: University of California Press, 234–257.

Tishkoff, S. A., and K. K. Kidd:

2004 Implications of Biogeography of Human Populations for “race” and Medicine. Nature Genetics 36: S21–S27.

Weiss, K. M.:

1998 Coming to Terms with Human Variation. Annual Review of Anthropology 27: 273–300.

الفصل الحادي عشر

تطور التباين



شكل ١١-١: «الحافلة ٢١أ» (جزء من مجموعة صور ليك ستريت بالولايات الأمريكية، ١٩٩٧–٢٠٠٠) (بتصريحٍ من وينج يانج هوي).

إن دراساتنا على التنوع الجيني تُكسبنا فهمًا أكبر لمدى التشابه بيننا جميعًا في تبايُننا المذهل؛ فالتباين الذي يجعل كل واحد منا متفرِّدًا على المستوى الجيني يمثل جزءًا من ١٪ من الأشياء التي تجعلنا جميعًا متشابهين.

كينيث كيد، عالم وراثة، جامعة ييل:
معرض العِرق، متحف مينيسوتا للعلوم

(١) تاريخ من التنقل والامتزاج

> إن التبايُن الجيني البشري هو نتاج تاريخٍ طويل من الهجرة، من التزاوج عبر الحدود، من القرصنة، من اتخاذ العبيد ... من مزج الأشياء معًا، مخلِّفين وراءنا بعض التبايُن.
>
> ريتشارد ليونتين، عالم البيولوجيا التطوُّرية والوراثة،
> جامعة هارفرد: معرض العرق،
> متحف مينيسوتا للعلوم

تتلاشى الفواصل الحادة للاختلاف الجسدي التي يفترضها العرق ضمنًا عند دراستها وفحصها عن كثب. لا شك أن الأشخاص المُنتمين لنقطتَين بعيدتَين على الأرض يَميلون إلى الاختلاف في الشكل. ولكن بالنسبة إلى مُسافرٍ يسير بين هاتين النقطتَين، فإن الأشخاص الذين يُقابلهم عند أيِّ نقطة على طول الطريق سوف يَبدون مُتشابهَين إلى حدٍّ كبير مع أولئك المُجاورين. إن للون بشرة الإنسان مليون درجة — ليس أربعًا أو خمسًا — ولا يوجد حدٌّ جغرافي يفصل ذوي الشَّعر الأملس عن ذوي الشعر المجعَّد. إن السمات التي تجعل الناس في جزء من العالم يَبدون مختلفين عن أولئك في جزءٍ آخر تَمتزج وتختلط بطرق تتحدى التصنيف السهل. والأنماط المعقَّدة للتباين البشري إنما تَعكس تاريخًا من التنقل والامتزاج البشري مُستمر منذ ظهورنا في أفريقيا قبل مئات الآلاف من السنين. واقتصر دور التاريخ الحديث على تسريع، وليس بدء، نمطٍ طويل من التنقُّل والامتزاج، وهو النمط الذي بدأ بجماعات من الصيادين وجامعي الثمار والبدو الرُّحَّل قبل آلاف السنين، وتسارعت وتيرته عبر السفر بالقوارب وحركات التنقل الجماعي الحديثة للأفراد بالطائرة.

(٢) تطور التباين البشري

يَبلغ التباين ذروته حيثما تطول حياة البشر لأقصى مدًى. وقد عاش الناس في أفريقيا فترةً أطول بكثير من أي مكانٍ آخر؛ إذ يُقدِّر علماء الأنثروبولوجيا التطورية مثل كين كيد



شكل ١١-٢: تمثِّل أحجار الدومينو استعارةً بصرية لانتشار التباين الجيني. لا يوجد أي ارتباط بين حجر الدومينو الأول والأخير. ومع ذلك ترتبط حركة الحجر الأول بحركة الحجر الذي يليه وهكذا على امتداد الخط. بنفس الوتيرة، يمكن للألائل الانتشار من خلال التزاوج (بتصريحٍ من شركة سيتيز بست ماركتينج، www.c-b-m.com).

(الوارد ذكرُه في هذا الفصل) أن السلالة البشرية قد نشأت في أفريقيا منذ فترة تتراوَح ما بين ١٥٠ ألف إلى ٢٠٠ ألف عام. وقد أتاحت هذه الفترة للسكان في أفريقيا مراكمة المزيد من الطفرات، أو التغيرات الجينية الصغيرة التي تُعدُّ المصدر لتبايُنِنا الجيني. ونظرًا لأن جزءًا فقط من السكان الأفارقة قد انتقلوا خارج أفريقيا للشروع في استعمار العالم، فلم يَنتقِل معهم سوى جزء من التبايُن الجيني. ولهذا السبب، يُمثِّل مُعظم التباين الجيني لدى الناس الذين يعيشون خارج أفريقيا شعبة لذلك التبايُن الذي يوجد بين الأفارقة، وحتى اليوم يظلُّ جزء أكبر من التباين في أفريقيا.

(٣) كين كيد: الانتشار التطوري للتباين البشري



كينيث كيه كيد: أستاذ علم الوراثة، والبيئة، والبيولوجيا التطورية، وأستاذ الطب النفسي بجامعة ييل. يرُكِّز في أبحاثه الحالية على تنوُّع الجينوم البشري: أنماط التنوع البشري الطبيعي بين السكان من كل أنحاء العالم، والتباين في تلك الأنماط فيما يتعلق بالجينوم، واستنباط العمليات التطورية البشرية الحالية (الصورة بتصريحٍ من كينيث كيد).

* * *

منذ ما يزيد قليلًا على عقد، وغالبية البيانات الجينية حول العلاقات بين المجموعات السكانية البشرية تتألَّف من المجموعات الفردانية للدنا الميتوكوندري (أو المتقدر)، مع البدء بالمجموعات الفردانية لكروموسوم Y (الأجزاء غير المؤتلفة للكروموسوم Y). ونظرًا لظهور طفراتٍ جديدة على تلك الجزيئات غير المؤتلفة مع تمدُّد المجموعات السكانية البشرية، طُوِّرت خرائط أنماط «الهجرة». كان من الصعوبات المتعلقة بتفسير تلك الخرائط بما تحويه من أنماط ومسارات أعرض للتمدد البشري أن كلًّا منها كانت تُمثِّل جينًا واحدًا فقط له نمط وراثة خاصٌّ بنوعٍ اجتماعيٍّ واحد دون الآخر. على سبيل المثال، زوجة لزعيمٍ قوي جاءت من منطقة/مجموعة سكانية أبعد ربما يكون لها تأثير على

تجميعة جينات السكان من خلال أبنائها الذين سيَرِثون السلطة (اللياقة التناسلية) عن أبيهم. غير أن الدنا الميتوكوندري سوف يكون ناقص التمثيل بالمقارنة بالدنا النووي الخاص بها. في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من القرن العشرين، عكفنا وآخرين على تجميع بيانات عن تعدُّد أشكال الصبغي الجسدي في أماكنَ ذاتِ معدَّلات طفراتٍ منخفضة، تعدُّد أشكال النيوكليوتايد المفرد، وكنا بصدد البدء في اكتشاف أن كل تعدُّد أشكالٍ مستقلٍّ قد أظهر نمطًا مختلفًا من تواتر الألائل حول العالم. كانت بعض الأنماط متشابهة للغاية، ولكن البعض الآخر كان غاية في الاختلاف. وأظهرت البيانات الأولية التي تمَّ تجميعها أن معظم تعدُّدات الأشكال (تعددات أشكال النيوكليوتايد المفرد SNPs التي أطلق عليها عمومًا بعد ذلك تعددات أشكال أطوال أجزاء الحصر RELPs) التي رصدت لدى أشخاص من أصل أوروبي قد ظهرت عبر جميع أنحاء العالم. ولكن مع دراسة المزيد من الأفراد ذوي الأصول الأفريقية، صار واضحًا أن تعدُّدات الأشكال ذات التغاير المُرتفع للزيجوت تواجدت لدى السكان الأفارقة، ولكن ليس لدى أيٍّ من المجموعات السكانية غير الأفريقية. في الوقت ذاته، مع دراسة المزيد من الأنماط الفردانية (وهي عبارة عن توليفات من الألائل تقع على تعددات أشكالٍ متجاورة جزيئيًّا)، وُجدت توليفات أكثر لدى السكان الأفارقة مقارنةً بالسكان غير الأفارقة، وأن السكان غير الأفارقة لديهم مجموعةٌ فرعية من تلك التوليفات الموجودة في أفريقيا. وهكذا تَشترك معظم الأنماط الفردانية مع الدنا الميتوكوندري والدنا الخاص بكروموسوم Y؛ مما يؤدي إلى انخفاضٍ كبير للتباين خارج أفريقيا مقارنةً بما تبقى (ولا يزال موجودًا) في أفريقيا. وكل هذه البيانات أسفرت عن قبول جميع الباحثين تقريبًا لنموذج «الخروج الحديث من أفريقيا».

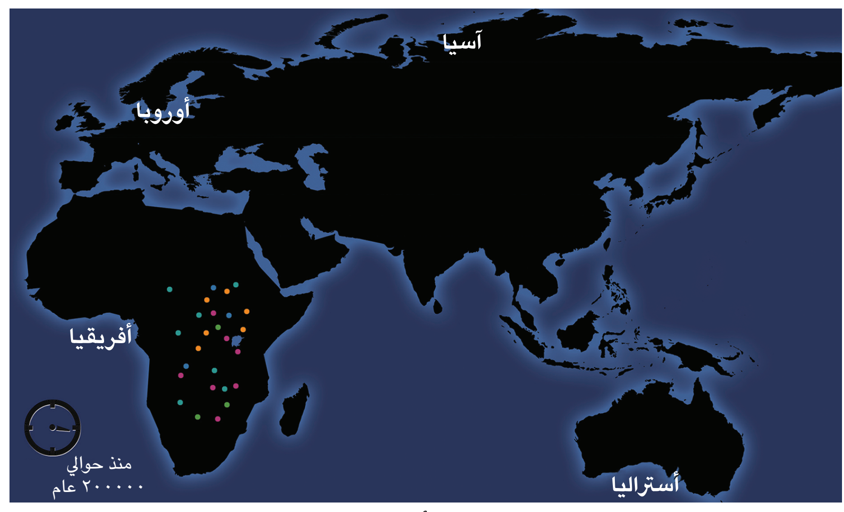
تؤيد البيانات المجمَّعة المتعلقة بجميع الواسمات الوراثية بشدة الفقدان الكبير للتباين المُرتبِط بالتوسع خارج أفريقيا. وهذا هو الجانب الأوضح والذي أنهى نظرية التطور المستقلِّ للإنسان العاقل الحديث في أفريقيا، وأوروبا، وشرق آسيا والتي قامت على أساس بضعة تشابهات مورفولوجية للمجموعات السكانية الحديثة مع البقايا الأثرية لحفريات ما قبل «الإنسان العاقل الحديث» في نفس المنطقة. وقد صار مقبولًا الآن أن السكان الذين انتَشروا خارج أفريقيا صاروا المؤسسين لكل المجموعات السكانية البشرية غير الأفريقية. وبعيدًا عن هذه النقطة، يوجد قدرٌ محدودٌ نسبيًّا من اليقين فيما يتعلق بالمسارات الدقيقة للتوسُّع والزمن الدقيق الذي احتلت فيه مختلف مناطق العالم في البداية. فغالبًا ما يُجسد التمثيل الخاص للهجرة البشرية من أفريقيا والانتشار اللاحق حول العالم كسلسلة من

الأسهم بقدر من الدقة الضمنية قد يزيد أو ينقص، ولكن غالبًا ما يُشار إليها كمسارات للهجرة. والأدق أن نشير إليها في إطار مسارات التوسع، على الأقل فيما يتعلق بالسكان الأصليين للعالم. وقد طُوِّرت نماذج معقَّدة للغاية لتوضيح أن الانحراف الوراثي يتراكم عبر مسارات التوسع، وأن هذا التراكم يتعلق بالمراكز الصبغية الجسدية وكذلك بالدنا الميتوكوندري مع وجود طفراتٍ متراكمة عبر مسار التوسع. وسوف يُسفر الانحراف الوراثي عن فقدان بعض التباين، ولكن سوف يسفر أيضًا عن وصول تبايناتٍ جديدة (مثل طفرةٍ جديدة في الدنا الميتوكوندري، أو الأجزاء غير المؤتلفة للكروموسوم Y، أو الجينات الصبغية الجسدية) إلى مُستوًى مرتفعٍ من التواتُر. وفيما يظهر كلٌّ من الدنا الميتوكوندري والأجزاء غير المؤتلفة للكروموسوم Y، منفردًا، نمطًا فرديًّا كما أشرنا سابقًا، فقد أظهرت كل متعددة أشكال صبغية للنيكليوتيد المفرد نمطًا مختلفًا حول العالم.

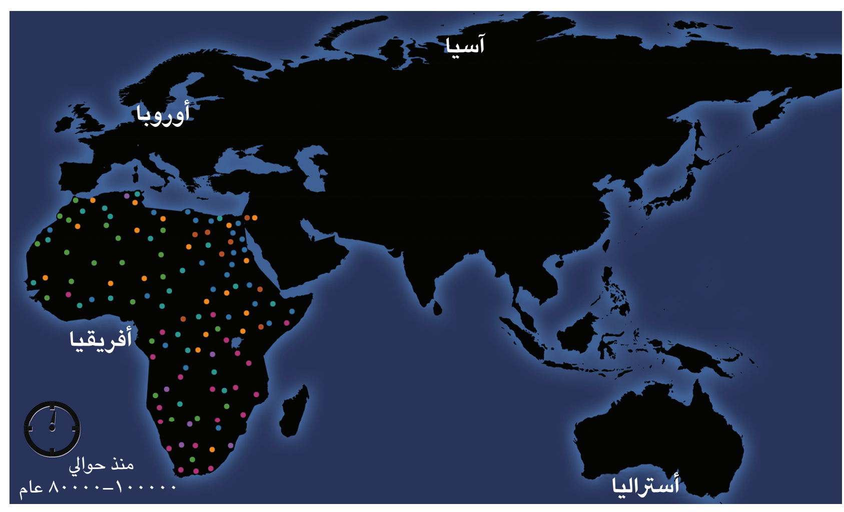
الأمر الواضح هو أن البشر المعاصرين انتشروا خارج أفريقيا خلال المائة ألف عام الأخيرة. وبعض التقديرات الزمنية حدَّدت وقوع هذا الانتشار من جنوب غرب آسيا منذ ٥٠ ألف عام، ويوجد العديد من التقديرات الأخرى تعود إلى ٩٠ ألف عام مضت. وهذه التقديرات المختلفة تقوم على مجموعاتٍ مختلفة من البيانات ونماذج ساعة جزيئية وإجراءات تقدير مختلفة؛ إذ يوجد ندرة في الأدلة الأثرية الدامغة المدعومة بالبيانات الجيدة التي تدعم الزمن.

وقد أظهرت نتائج ذات صلة من مُختبَراتنا أن السكان في شمال شرق أفريقيا كانوا يشتركون في قدرٍ أكبر بكثير من التشابه مع غير الأفارقة أكثر من السكان القادمين من غرب ووسط أفريقيا. ومن تفسيرات ذلك تدفُّق الجينات الحديثة نسبيًّا من السكان غير الأفارقة إلى شمال شرق أفريقيا. وعلى العكس، بدا منطقيًّا الاعتقادُ بأن السكان من شمال شرق أفريقيا هم الذين انتشروا خارج أفريقيا. فلم تكن مجموعةٌ سكانية من غرب أفريقيا أو جنوبها لتُهاجر عبر الأجزاء المتوسطة المأهولة بالفعل من أفريقيا من أجل تأسيس مجموعاتٍ سُكانية غير أفريقية. كذلك كنا نجد أن التغييرات في تواتُرات الألائل تُظهر نمطًا من التغيُّر المستمر عبر المناطق الجغرافية خارج أفريقيا. والتمثيلات النقطية في شكل ١١-٣، هي محاولة للتعبير عن التعقيدات التي كنا نجدها في البيانات الصبغية الجسدية بطريقةٍ واضحة وبسيطة.

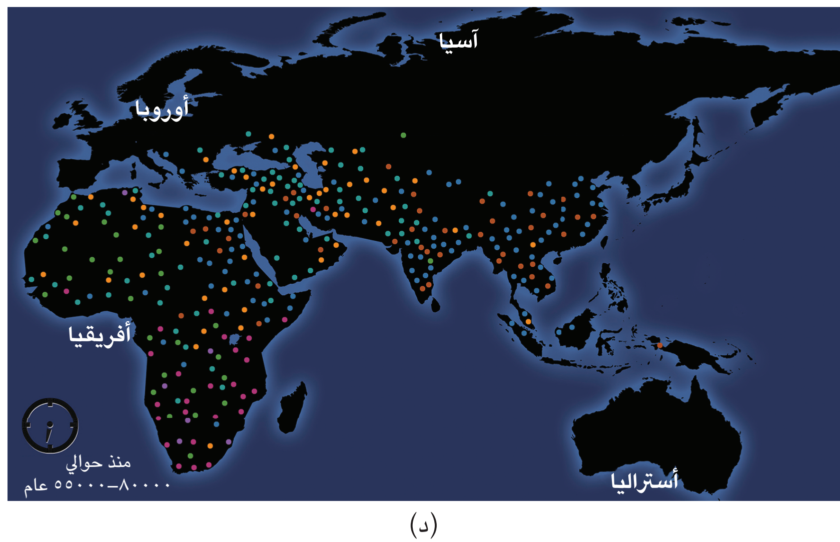
إن أي نوع مُنتشِر على نطاقٍ واسع سوف يكون له بعض التبايُن الجيني عبر نطاقه مع ملاحظة نزوع السكان الأبعد والأكثر تهميشًا إلى مزيد من الاختلافات. وعلى ذلك يتوقَّع


آسيا
أوروبا
أفريقيا
أستراليا
منذ حوالي
٢٠٠٠٠٠ عام

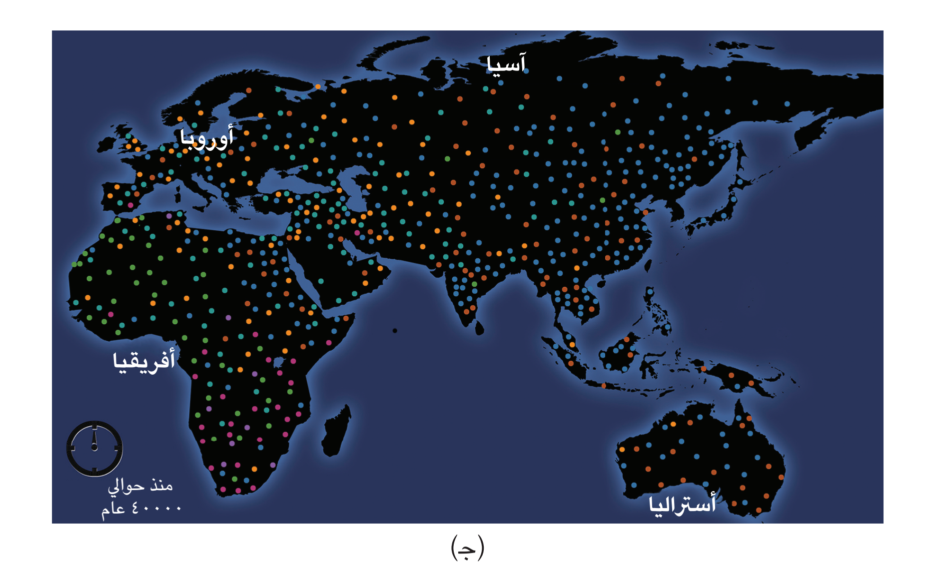
(أ)


آسيا
أوروبا
أفريقيا
أستراليا
منذ حوالي
١٠٠٠٠٠–٨٠٠٠٠ عام

(ب)



(د)



(ج)

شكل ١١-٣: رؤيةٌ نقطية للتطور والتباين البشري قائمة على عمل كينيث كيد (بتصريح من شركة إس تو إن ميديا).

المرء أن يكون لدى السكان على أطراف أفريقيا اختلافات في تواتُر الألائل؛ إذ تكون الألائل في بعض المَواضع في أعلى معدَّلات التواتُر في غرب أفريقيا، فيما ستكون الألائل في مواضعَ أخرى عند أعلى معدَّلات التواتر في جنوب أفريقيا … إلخ. وهكذا فمنذ حوالي ١٠٠ عام كان هناك قدرٌ كبير من التباين الجيني داخل وعبر أفريقيا، والذي يُمثَّل على نحوٍ تجريدي في شكل ١١-٣أ بالنقاط المتعدِّدة. لاحظ أن النقاط الفردية لا تمثل فردًا أو مجموعة من السكان بالذات؛ بل إن تنوع الألوان في منطقةٍ ما يُمثِّل قدر التباين الجيني في تلك المنطقة وطبيعته. والاختلافات البسيطة في عدد الألوان في أيِّ منطقة تُمثِّل هذا التباين الجغرافي.

منذ ما يقرب من ١٠٠ ألف عام، وربما بعد ذلك، غادر بعض الأفارقة أفريقيا متجهين إلى جنوب غرب آسيا، كما هو موضَّح في شكل ١١-٣ب. وحملوا معهم ألائل كانت الأكثر شيوعًا بالفعل في شمال شرق أفريقيا. وتُشير الأدلة إلى أنهم كانوا عددًا قليلًا نوعًا ما من الأفراد و/أو أن المجموعة السكانية الجديدة في جنوب غرب آسيا ظلَّت محدودة العدد لزمنٍ طويل قبل التوسع والانتشار داخل بقية أوراسيا. ونتيجةً لذلك، حدث فقدٌ كبير للتباين الذي لا يزال موجودًا في شرق أفريقيا. ومنذ ما لا يزيد على ٤٠ ألف عام، توسَّعت هذه المجموعة السكانية المؤسسة الوحيدة لتشغل الأجزاء الصالحة للسُّكنى من أوراسيا. ويوضِّح شكل ١١-٣ج أن هذا التوسع قد أسفر عن فقدانٍ بسيط للتباين في أوراسيا الشرقية بالنسبة إلى أوراسيا الغربية. ومنذ حوالي ٢٠ ألف عام، هاجَرت مجموعةٌ سكانية من آسيا الوسطى على جسر بيرنجيا الأرضي ومنه إلى بقية أمريكا الشمالية والجنوبية، صاحبه قدرٌ إضافي من الانحراف الوراثي؛ ما أدى إلى تكوين هويةٍ جينيةٍ فريدة نوعًا ما للأمريكيين الأصليين.

ومن العوامل المُعقِّدة لإعادة الهيكلة الكاملة لإعمار العالم (بما فيه أفريقيا) موجات الهجرة اللاحقة للشعوب والتي تنتج عن ظواهرَ مناخيةٍ وجيولوجية. نحن لا نعرف ما إذا كان البشر قد وصَلوا بالفعل إلى جنوب شرق آسيا منذ ٧٥ ألف عام، ولكن من الواضح تمامًا أن ثوران بركان بحيرة توبا الهائل كان من شأنه أن يُخلِّف أثرًا مهلكًا على الجماعات السكانية من الهند مرورًا بجنوب الصين، والفلبين، وأجزاء مما يُعرَف اليوم بالأرخبيل الإندونيسي. (هل ساعد هذا على إبقاء إنسان فلوريس (أو الإنسان القزم) معزولًا؟) لقد كان من شأن الرماد والكبريت في الغلاف الجوي العلوي، واللذَين نتَجا عن ذلك الثوران، أن يُؤدِّيا إلى حدوثِ تبريدٍ عالَمي لعدة سنوات على الأقل؟ وهذا التبريد لسائر أجزاء الأرض كان من شأنه التأثير على الحياة النباتية والحيوانية في كل مكان؟ وربما كان

ليُحدَّ من إحجام السكان من البشر؛ مما يُعزِّز من آثار الانحراف الوراثي وربما يكون قد أسفر عن تأثير الانتخاب على بعض الألائل في بعض الجينات. كان من الأحداث الكبرى الأخرى تقدُّم وتراجع الأنهار الجليدية خلال المائة ألف عام الماضية. فمع الزيادة في معدَّلات التجلد، انخفضَت مُستويات البحر. فكان الجزء الأكبر من إندونيسيا التي نعرفها اليوم من شأنه أن يكون كتلةً يابسةً واحدة منذ ٢٠ ألف عام. وهكذا أدى انسحاب السكان من الشمال نظرًا لتقدُّم الأنهار الجليدية ثم إعادة التوسع اللاحقة في تلك المناطق في عهدٍ أقربَ كثيرًا، كل ذلك يعمل على تعقيد الصورة الحديثة. على الرغم من ذلك، تُقدِّم الرسومات التوضيحية النقطية التي وُضعت منذ ما يزيد على عقد نظرةً عامةً واضحة للتبايُن البشري الحديث حتى موجات الهجرة الواسعة خلال الحقب التاريخية.

ويُمثِّل شكل ١١-٣أ، بشكلٍ مجرَّدٍ وأسلوبيٍّ للغاية، التباين الجيني الذي تراكم بالفعل لدى البشَر المُعاصرين على المستوى التشريحي في أفريقيا في حوالي ٢٠٠ ألف عام؛ ويُمثَّل هذا التباين الجيني بالنقاط الملوَّنة المختلفة. لاحظ أن الألوان غير موزَّعة بالتساوي عبر القارة كما هو متوقَّع من عزلة وانفصال مفروضَين بموجب نموذج التباعد. فثمة المزيد من اللون «الأحمر» في الجنوب من أفريقيا؛ فيما يوجد المزيد من اللون «الأزرق» و«الأصفر» في شمال شرق أفريقيا.

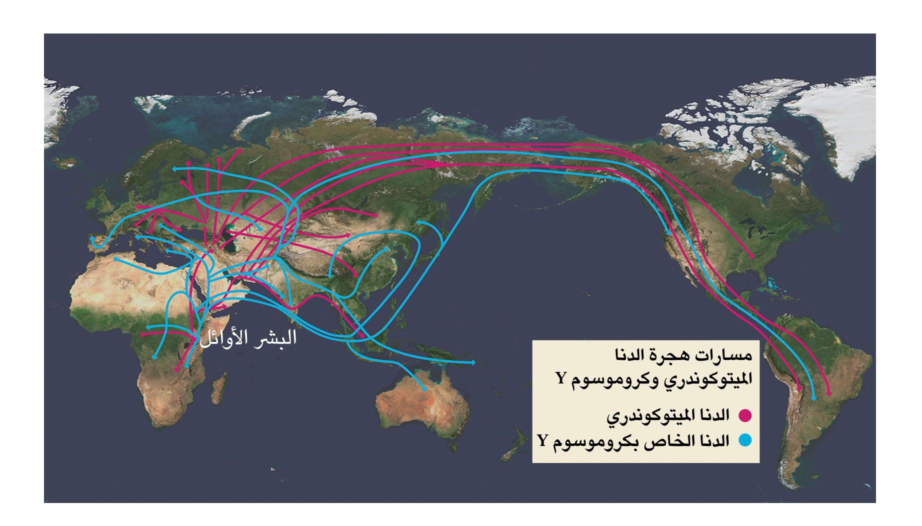
منذ حوالي ١٠٠ ألف عام، هاجرت بعض الشعوب من شمال شرق أفريقيا إلى جنوب غرب آسيا كما هو موضَّح في شكل ١١-٣أ. ولما كان مَن هاجروا نشئوا من الجماعات التي تسكن شمال شرق أفريقيا، فقد كانوا بمنزلة عيِّنة من هذه التجميعة الجينية المنحرفة جزئيًّا بالفعل، وهذا «الخطأ في الاستعيان» أبرز فقدان التبايُن. ولم يُمثَّل سوى جزءٍ بسيط من التبايُن الجيني في أفريقيا ككل في تلك الجماعة السكانية «غير الأفريقية» الأولى. وتلك الجماعة السكانية في جنوب غرب آسيا هي التي تزايَدت في الأعداد بعد ذلك وانتشرت جغرافيًّا لتحتلَّ كامل منطقة أوراسيا وميلانيزيا الأسترالية قبل حوالي ٥٥ ألف عام، كما هو موضَّح في شكل ١١-٣ج. ولم يكن يوجد ما يكفي من الوقت لظهور قَدرٍ كبير من التباين الجيني الجديد داخل الجماعات السكانية التي وصلت في نهاية المطاف إلى شرق آسيا. على الجانب الآخر، فُقد بعضٌ من التبايُن الذي تراكم في جنوب غرب آسيا.

منذ فترة أحدث من ٤٠ ألف عام، هاجرَت بعضُ الجماعات من سيبيريا والساحل الشرقي لآسيا إلى الأمريكتين وتوسعوا ليحتلُّوا كلًّا من أمريكا الشمالية والجنوبية. وفي

أثناء ذلك الاستعمار فُقد قدرٌ إضافي من التبايُن، ولكن كان التأثير أقل من أن يكون مرتبطًا بالهجرة من أفريقيا.

(٤) الامتزاج والتنقُّل

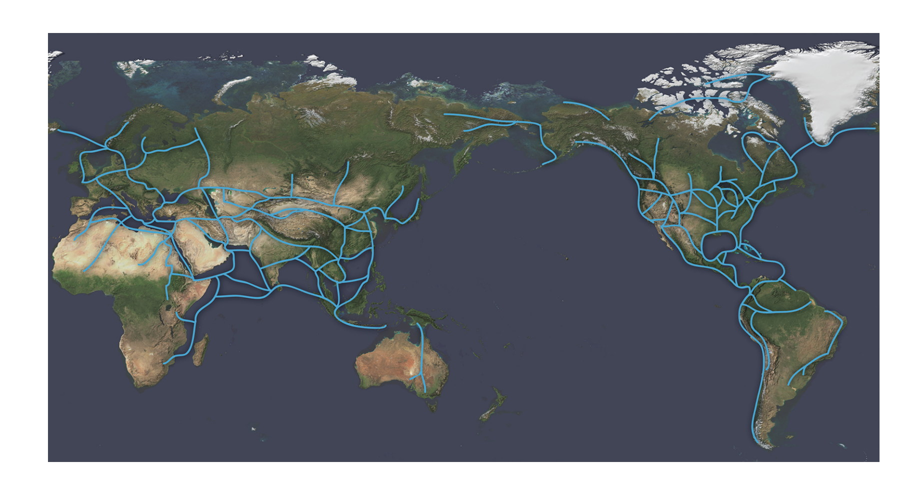
> لقد خرجنا من أفريقيا ولم نتوقَّف قط عن التنقُّل والامتزاج. فلم يكن هناك جبلٌ عالٍ بما يكفي لصدِّنا.
>
> معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ١١-٤: المسار الرئيس للهجرة الجينية (بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم، روجر بوم).

على الرغم من أن كين كيد كان يقول إن مسارات الهجرة البشرية ليست محددة كما هي في شكل ١١-٤، فإن الخريطة تَمنحنا إدراكًا للأنماط الرئيسة المتنوِّعة للهجرة البشرية. ربما يُعاد بناء هذه الأنماط بناءً على التبايُن الجيني وتؤيد بالأدلة الأثرية. ونحن نميل إلى اعتبار أمريكا الشمالية قبل الاحتكاك الأوروبي أرضًا مستقلة نسبيًّا مؤلفة من جماعاتٍ صغيرة ومنعزلة نسبيًّا، مثل هنود الشمال الشرقي، وهنود السهول، وهنود الجنوب الغربي، الذين ربما يكونون قد مارَسوا التبادل التجاري معًا على مستوًى محلي (على الرغم من الأشياء التي وُجدت في ديكسون ماوندز بمنطقة المسيسيبي الوسطى، بولاية

إلينوي، وهي قريةٌ صغيرةٌ فقيرة كانت مأهولة منذ ألف عام، يُمكن تتبع أصلها إلى أطراف أمريكا الشمالية).



شكل ١١-٥: خريطة تُوضِّح كيف تظهر الأشياء التي تُصنع في منطقة ما في منطقةٍ أخرى. تعد هذه الخريطة، بناء على الأدلة الأثرية، تجميعًا لمسارات التجارة التي كانت موجودة منذ ما يتراوَح بين ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ عام تقريبًا. وهي تُمثِّل لقطة للمنظومة الديناميكية للتبادل التجاري التي ربطت الناس عبر مسافاتٍ كبيرة عبر التاريخ. المسارات الأفريقية، والآسيوية، والأوروبية منقولة من مقال أندرو شيرات (٢٠٠٤) «المسارات التجارية: نمو التجارة العالمية»، أرك أطلس، فبراير ٢٠١٠، الطبعة ٤، http://www.archatlas.org/Trade/Trade.php، تاريخ الدخول: ٦ يناير، ٢٠١٢. قام بتجميع المسارات الشمالية والجنوبية الأثري إد فليمنج، متحف مينيسوتا للعلوم (بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم، بول مورين).

شكل ١١-٥، وهو عبارة عن خريطة لمسارات التجارة، وشكل ١١-٦، وشكل ١١-٧، اللذَين يُظهران أشياءَ أثريةً، هي جميعًا أشكالٌ مُذهِلة؛ نظرًا لأنها تكشف الحركة عبر صور الطبيعة. فما يتمُّ صنعه في مكان يُكتَشف في مكانٍ آخر، والذي ربما يكون شيئًا مُتداوَلًا تجاريًّا. الأمر نفسه يسري على الجينات. فإذا عرفنا أن التبادل قد حدث، فمِن المُحتمَل أن يكون التزاوج قد تمَّ أيضًا، وبالتالي حدثَت عمليات نقل للجينات. فالناس يتفاعَلون ومن ثم تجوب فِكَرهم، وأشياؤهم، وجيناتهم العالم. لا وجود تقريبًا لأيِّ عوازل تناسُلية. فنحن جماعةٌ توالديةٌ واحدةٌ كبيرة.



شكل ١١-٦: صُنعت حلية الأذن هذه، من صدفة من ساحل الخليج، فيما بين عامي ١١٥٠ و١٣٥٠م، وتمَّ العثور عليها في مقاطعة بيرس، بولاية ويسكونسن. وقد اكتُشفت حليٌّ بوجوه مشابهة، مصنوعة من النحاس، والعظام، والصدف، عبر أنحاء الجنوب والغرب الأوسط (بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم).



شكل ١١-٧: منذ حوالي ٢٦٠٠ عام، أصبحت الحُلي المصنوعة من اليشب مثل هذه القلادة الكوستاريكية، رموزًا للمكانة عبر أنحاء أمريكا الوسطى. وتعدُّ المناجم في جواتيمالا هي المصدر الوحيد المعروف في المنطقة لهذا الحجر الكريم وربما كان مصدر الإمداد لليشب الذي كان يُتداول تجاريًّا عبر أنحاء أمريكا الوسطى وشرقًا في الهند الغربية (بتصريحٍ من متحف مينيسوتا للعلوم).

وجهات نظر حول علم الأنساب الوراثي

توجهنا بالسؤال إلى أربعة علماء وباحث قانوني بشأن استخدام علم الوراثة من أجل إعادة بناء تسلسل النَّسَب. لم نَسألهم عن العرق، ولكن إجاباتهم ربما كانت تتَّسق مع رسالة هذا الكتاب. غير أن علم الوراثة قد مضى ليشمل مجموعةً مثيرة من القصص عن تاريخ الأفراد والأنساب. فمن

المُمكن أن يكون علم الوراثة فعَّالًا للغاية في تحديد ماهية الفرد على المستوى الوراثي، وربما يُمكن أن نستخلص من علم الوراثة استنتاجات فيما يتعلق بالأصول الثقافية والاجتماعية للأفراد.

علم الوراثة: ما الذي يُمكن أن يُخبرنا به حقًّا؟

يُتيح علم الأنساب الوراثي للأفراد استكشاف أصولهم باستخدام مجموعة أدوات تجارية تَختبر الدنا الخاص بهم. فيُمكن للمُستهلِكين الاختيار من ثلاثة اختبارات مختلفة لتلقِّي تقرير عن الأصل الجغرافي للدنا الخاص بهم. يقوم أحد هذه الاختبارات بفحص الدنا الميتوكوندري الذي يَنتقِل من الأم إلى أبنائها. ويقوم آخر بفحص الدنا الخاص بكروموسوم Y الذي ينتقل من الأب إلى أبنائه من الذكور. وثمة اختبار ثالث يبحث عن «واسمات معلومات النسب» في الدنا الخاص بالشخص. ما الذي تَكشفه نتائج هذه الاختبارات عن النَّسب والهوية الشخصيَّين؟



شكل ١١-٨: هنري جريلي (الصورة بعدسة ستيف جلادفلتر).

فيما يلي خمس وجهات نظر:

«عيوب علم الأنساب الوراثي»

نظرًا لأن علم الوراثة القائم على الدنا الميتوكوندري أو الدنا للكروموسوم Y يتتبع خطًّا واحدًا فقط للنسب؛ فهو يغفل الغالبية العظمى للعدد الإجمالي لأسلاف الشخص. إذا عدنا عشرة أجيال للوراء، أي حوالي ثلاثمائة عام، نجد أن اختبارًا للدنا الميتوكوندري أو للدنا الخاص بالكروموسوم Y يكشف معلومات عن حوالي ١ من ١٠٢٤ من إجمالي الأسلاف في ذلك الجيل، فيما تُغفل الاختبارات بقية

الأسلاف الآخرين. إن اختبارات الدنا مثل هذه يُمكنها أن تخبرك الكثير عن نسبك، ولكن لا بد أن تكون واعيًا بما لا «يُمكنها» أن تخبرك به.

هنري جريلي، أستاذ القانون بجامعة ستانفورد:
معرض العرق، متحف مينيسوتا العلوم



شكل ١١-٩: ريك كيتلز.

«استعادة الماضي»

تتبايَن أهمية الاختبارات الوراثية القائمة على الدنا الميتوكوندري والدنا الخاص بالكروموسوم Y بين الجماعات. ولمثل هذه الاختبارات قيمةٌ كبيرة، بالنِّسبة إلى الأمريكان الأفارقة، خاصة علماء الوراثة النَّهِمين منهم، لما توفره من أدله يمكن استخدامها للمساعدة في استرداد التاريخ والثقافة والمعرفة؛ الذين أُنكروا عليهم لزمنٍ طويل. فقد أدَّت تجارة الرقيق الأفارقة عبر المحيط الأطلنطي على نحوٍ أساسي إلى محو جوانبَ مهمةٍ من قصص الأجداد الأولين؛ ونتيجة لذلك، لا يستطيع الكثير من الأمريكيين الأفارقة نسب تاريخ عائلاتهم إلى أفريقيا. وقد ثبَت أن المعلومات الجينية عن أصل الأب والأم مصدرٌ مثالي لتَكمِلة الوثائق التاريخية وتعزيز استرداد ماضيهم.

ريك كيتلز، أستاذ علم الوراثة، بجامعة إلينوي بشيكاغو،
والمدير العلمي بشركة أفريكان أنستري:
معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ١١-١٠: ألوندرا نيلسون (الصورة بعدسة ليلى أمة الله بارين).

«مسألة تأويل»

إنني أقوم بدراسة كيف ولماذا يَستخدم الأمريكيون الأفارقة اختبارات علم الوراثة الجينية. غالبًا ما يَعتقد مستخدمو علم الوراثة الجيني أنهم يُزوَّدون بأدلةٍ علميةٍ قاطعة على أُصولهم. ولكني أرى أن نفس هؤلاء المُستخدِمين قد يَلعبون دورًا في تأويل هذه البيانات لتُلائم توقُّعاتهم. فقد أجرَت إحدى السيدات في دراستي بحثًا وراثيًّا تقليديًّا قادها إلى الاعتقاد بأن أجدادَها للأم جاءوا من جنوب أفريقيا. ولكن اختبارًا للدنا الميتوكوندري لتسلسُل النَّسَب من ناحية الأم استنتج أن أصولها تعود إلى غرب أفريقيا. وقد وفَّقت السيدة بين هاتين الروايتين المختلفتين الخاصتَين بنسبها بتلفيق قصة عن الهجرة الأفريقية لأسلافها من الغرب إلى الجنوب.

ألوندرا نيلسون، أستاذ علم الاجتماع، بجامعة كولومبيا:
معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ١١-١١: كيمبرلي تولبير (الصورة بعدسة جون كاماتا).

«ادعاء الهوية»

يُروج بعض الناس لتحليل الدنا كوسيلة لتحديد المنتمي «للأمريكيين الأصليين» ومن لا ينتمي لهم جينيًّا. وهذا النهج يقتضي ضمنًا إمكانية ظهور هُوياتٍ أمريكيةٍ أصلية، بل وحتى انتماءات لقبائل بعينها، في الدنا. غير أن القبائل هي عبارة عن كياناتٍ حية أعادت تشكيل تعريفاتها للانتماء للجماعة مرارًا عبر خطوطٍ سياسية وخطوط قرابةٍ معقدة ومتغيرة. إن علم الوراثة وحده لا يجعل شخصًا ما أمريكيًّا أصليًّا؛ فهي مسألة ثقافة وأسلوب حياة. كذلك تُدافع القبائل الأمريكية الأصلية عن حقوق الحكم بناء على سلطتها التاريخية ككياناتٍ ذات سيادة. ومبعث قلقي أن يشجع اختبار الدنا بعض الناس على المطالبة بالسلطة السياسة القبَلية بناءً على شكلٍ ضيِّق من النسب الجيني، ما يترتَّب عليه تحجيم السلطات السيادية السياسية والثقافية القبلية.

كيمبرلي تولبير، قسم العلوم البيئية والسياسة والإدارة،
جامعة كاليفورنيا، بيركلي: معرض العرق،
متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ١١-١٢: ديوانا فولويلي.

«أقل من معلن»

«تبدو» نتائج اختبار واسمات معلومات النسب أكثر وضوحًا بكثيرٍ مما تبدو عليه في الواقع. فعلى مستوى القاعدة، تَعمل مثل هذه الاختبارات على أساس احتمالية أن التبايُنات، التي عادةً ما يُشار إليها بـ «واسمات» في الدنا لشخصٍ ما، توجد بين «الأفارقة»، و«الأوروبيين»، و«الآسيويين»، و«الأمريكيين الأصليين». ولكن هذه المتغيِّرات الجينية ليست مقتصرة على أيِّ مجموعةٍ سكانية بعينها على نحوٍ صارم. على سبيل المثال، توجد الواسمات التي يتمُّ تحديدها بواسطة الاختبار بوصفها «للأمريكيين الأصليين» أيضًا بين الأشخاص المنحدرين من وسط آسيا؛ ومن ثم قد تقول النتائج إن الواسمات لشخص من أصل «أمريكي أصلي»، في حين قد يكون إرث الشخص، في الواقع، أوزبكيًّا. وهذه الأنواع من اختبارات «تحديد الأصل وفقًا للدنا» يُمكن أن تقدم بعض المعلومات عن الواسمات الجينية التي يشترك فيها الشخص مع الناس حول العالم. غير أن هذه المادة المشتركة في الدنا ليست بالضرورة أن تكون من سلفٍ مُشترَك، وهو ما يُعدُّ العنصر المضلل هنا؛ فالكثير من الناس حول العالم، في الواقع، «يشتركون في حيازة» واسماتٍ من شتى الأنواع لكثير من الأسباب الإيكولوجية والتطورية المختلفة. يبدو هذا أقل إثارة من النَّسَب الموروث المباشر من أفريقيا، أو أي مكانٍ آخر، ولكنه غالبًا ما يكون أدق.

ديوانا فولويلي، أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة هارفرد:
معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

ملاحظات ختامية

في هذا القسم تتبَّعنا المعرض المتحفي والموقع الإلكتروني وتناولنا بمزيد من الشرح بالصور والكلمات لماذا لا يُفسِّر العرقُ التبايُنَ البشري. في الوقت ذاته، نأمل أن نكون قد قدمنا بعضًا من التاريخ المثير لدراسة التبايُن البشري. إن الحكمة القائلة بأننا نرى ما يريدنا عقلنا أن نراه تبدو صحيحة. ولعل ما هو أهم أننا قد أوضحنا مدى روعة التبايُن البشري. ولكن كيف نتبايَن؟ إن بِنية التبايُن البشري ليست كما كنا نعتقد على الإطلاق.

قراءاتٌ أخرى

مصادر أخرى

Davis, D. S.:

2004 Genetic Research and Communal Narratives. Hastings Center Report 34(4): 40–49.

Elliott C., and P. Brodwin:

2002 Identity and Genetic Ancestry Tracing. British Medical Journal 325: 1469–1471.

Kittles R. A., and K. M. Weiss:

2003 Race, Ancestry, and Genes: Implications for Defining Disease Risk. Annual Review of Genomics and Human Genetics 4: 33–67.

Lee, S., D. A. Bolnick, T. Duster, P. Ossorio, and K. TallBear:

2009 The Illusive Gold Standard in Genetic Ancestry Testing. Science 325(5936): 38–39.

Rosenberg, N. A., J. K. Pritchard, J. L. Weber, H. M. Cann, K. K. Kidd, L. A. Zhivotovsky, M. W. Feldman:

2002 Genetic Structure of Human Populations. Science 298: 2381–2385.

Templeton, A. R.:

2003 Human Races in the Context of Recent Human Evolution: A Molecular Genetic Perspective. *In* Genetic Nature/Culture: Anthropology and Science beyond the Two-Culture Divide. A. H. Goodman, D. Heath, M. S. Lindee, eds. Berkeley: University of California Press, 234–257.

Tempelton, A. R.:

2007 Genetics and Recent Human Evolution. Evolution 61(7): 1507–1519.

الجزء الثالث

التعايش مع العرق والعنصرية



في عام ٢٠٠٧، قام مجلس أُمناء جامعة إلينوي بأوربانا-تشامبين باستبعاد شعار الجامعة المثير للجدل «الرئيس إلينيويك» (بتصريحٍ من شركة إليني ميديا).

الفصل الثاني عشر

مقدمة

التعايش مع العرق والعنصرية

في هذا الجزء من الكتاب، سوف نبحث في عواقب الاعتقاد بوجود أعراقٍ بيولوجية، وحقيقة أن الولايات المتَّحدة قد نشأت بها منظومةٌ اجتماعية واقتصادية وسياسية قائمة على الاعتقاد بأن الأعراق حقيقية، وأن بعض الأعراق أكثر تميُّزًا من غيرها؛ كذلك سوف نتناول تأثير التعامُل مع الخرافات البيولوجية والتاريخية عن الأعراق بوصفها حقيقية. وفي سبيل هذا، سوف نقوم بدراسة الأعراق من خلال العدسات المؤسسية لجمع الثروة، والتعليم، والصحة، وكيفية احتساب العرق واستخدامه في التعداد السكاني. وأخيرًا سوف نتناول مستقبل العرق في الولايات المتحدة من خلال التركيز على قضايا العصر، من الهوية المتعدِّدة الأعراق، وتقاطعية الهويات، والهجرة، والعولمة.

ولكن قبل ذلك، نَعتقِد أن من الأهمية بمكان استعراض الآراء الحالية بشأن كيفية تجسيد العِرق في الثقافة الشعبية في الولايات المتحدة وقت تأليفِنا للكتاب. ولنبدأ أولًا بفترة رئاسة باراك أوباما. تولى أول رئيس أمريكي من أصل أفريقي (حسب اختياره الشخصي لهُويته) الحكم في ٢٠ يناير عام ٢٠٠٩، ورحَّب كثيرون في الصحافة والإعلام بهذا الإنجاز بوصفه كلمة النهاية للعنصرية في الولايات المتحدة. بعد ذلك بفترةٍ وجيزة، أطلق كثيرون على الولايات المتحدة مجتمعًا لديه عمى ألوان، وكان الحديث حول الشوط الطويل الذي قطعَتْه الولايات المتحدة حتى انتخاب رئيس أسود، ذلك الرجل الذي ولد لأبٍ كيني وأمٍّ أمريكية من أصولٍ أوروبية. ذاك هو جوهر الإنجاز والأحلام لدى الأمريكيِّين. إن قصته هي قصة طفل ولد لأبٍ مهاجر وأمٍّ أمريكيةٍ ناجحة، أليس كذلك؟ إن قصته هي قصة توضِّح

كيف أن الكدَّ، والإخلاص، والإنجاز التعليمي المرموق يؤتي ثماره في أمريكا، أليس كذلك؟ لقد استطاع رئيس أسود، بفضل تفرُّد منصبه، أخيرًا أن يكون تجسيدًا لصوتٍ رسمي ذي سلطة يقود نقاشًا قوميًّا حول العلاقات بين الأعراق. ولعله قد استطاع حتى أن يقود النقاش حول فهم القضايا الاجتماعية الأكبر، مثل المشكلة المستعصية الخاصة بتغيير المؤسسات ذات الطابع العرقي. لننظر عن كثب إلى ما فعلته وسائل الإعلام مع قضية العرق خلال العام الأول من إدارة أوباما. أظهر تحليلٌ عن الأمريكيين الأفارقة في التغطية الإخبارية الأمريكية قام به مركز بيو للأبحاث أن الأمريكيِّين الأفارقة كجماعة، أو بالأحرى القضايا العامة التي تؤثِّر على الأمريكيين الأفارقة، لم تجذب سوى قدرٍ محدودٍ للغاية من الانتباه في وسائل الإعلام الرئيسية الأمريكية (مركز بيو للأبحاث ٢٠١٠: ١). في الواقع، لقد كانت التغطية الموجودة تميلُ إلى التركيز على وقائع بعينها، مثل القبض على الأستاذ الأسود بجامعة هارفرد، د. هنري لويس جيتس، أو وفاة نجم البوب الأسود والأيقونة العالمية مايكل جونسون، وأخيرًا محاوَلة الهجوم على طائرة نورث ويست إيرلاينز التي شنَّها عمر فاروق عبد المطلب، بدلًا من التركيز على القضايا والموضوعات الأشمل التي تمسُّ حياة الأمريكيين الأفارقة والأعراق الأخرى على نحوٍ أعمَّ. لقد شكَّلت تلك الوقائع الثلاث، وفقًا لاستطلاع مؤسسة بيو، أكثر من ٤٦٫٤ بالمائة من إجمالي التغطية التي ورَد بها ذكرٌ حقيقي للأمريكيين الأفارقة (مركز بيو للأبحاث، ٢٠١٠: ١). والرسالة الأساسية من هذا التحقيق هي أن فترة رئاسة باراك أوباما لم تؤدِّ تلقائيًّا إلى حوارٍ أوسع وأشمل حول العرق، أو حول محنة الأمريكيين الأفارقة أو أفراد الأعراق الأخرى من غير البيض؛ فقد أبرز عدد ٣٠ يونيو ٢٠١٠ من دورية كرونيكال أوف هاير إيديوكيشن مقالًا بقلم كيلي ترونج بعنوان «تحقيقٌ عن اعتقال باحث هارفرد يَرصد فشلًا في التواصُل»، ذكر فيه التقرير الذي أعدَّته لجنة تحقيق مستقلة في كامبريدج، بولاية ماساتشوستس، والتي شكلتها الإدارة الشرطية بكامبريدج؛ أن مسئولية الحادث الذي وقَع في يوليو عام ٢٠٠٩ تُعزى إلى «سوء التواصل» بين ضابط الشرطة والباحث. لم توجِّه اللجنة، التي تألَّفت من خبراء في قانون العدالة الجنائية، والعلاقات المجتمعية، وتسوية النزاعات؛ اللومَ إلى الشرطي أو إلى د. جيتس، ولكنها تركت الأمر غايةً في الغموض بشأن ماهية السلوكيات الضمنية للشرطي التي أشير إليها (ترونج ٢٠١٠). فلا يوجد بأيِّ موضع في التقرير، على سبيل المثال، تحليلٌ للكيفية التي لعبت بها العنصرية المنهجية دورًا في الحادث. بمعنى، لماذا اعتقد الشرطي تلقائيًّا أن جيتس لصٌّ حتى بعد أن أخبره بهويته، وأبرز للشرطي

بطاقة الهوية الخاصة به كعضو بهيئة التدريس بهارفرد؟ الفكرة هنا هي أن وجود رجلٍ أسودَ في البيت الأبيض ليس من شأنه أن يُغيِّر الطبيعة المنهجية للعنصرية تلقائيًّا، أو الافتراضات القائمة على أساسٍ عِرقي في هذا المجتمع. ووفقًا لدراسة مركز بيو للأبحاث المذكور أعلاه، كانت تلك النقاشات حول العنصرية المنهجية تدور فعليًّا في نطاق الصحافة السوداء، وليست الصحافة الرئيسية، مثلما كانوا يفعلون في الماضي.

ثمة العديد من الفعاليات الإعلامية الحديثة الأخرى من شأنها توضيح مدى عمق العنصرية المنهجية التي لا يَزال مجتمعنا يُعاني منها. في مجال الرياضة، على سبيل المثال، تُذكِّرنا د. روبين لي هيوز في مقالها الأخير «هل التنس لأي شخص؟ العرق والطبقة الاجتماعية يؤثِّران في الرياضة حتى الآن»، بأن الطلاب الملوَّنين يخضعون لمعاييرَ مزدوجة؛ لأن الاعتقاد السائد في التعليم الجامعي أنهم فقراء و«ملونون». فلا يُمكنهم — على حدِّ قولها — الاحتراف، لِنقُل في كرة السلة وكرة القدم، والحصول على قدرٍ من التعليم. فتقول:

> لقد قرأتُ لتوِّي مقالًا زاخرًا بالألفاظ الطنانة عن كيف ينبغي لخيرة الرياضيين الشباب، أولئك الذين يُمارسون كرة السلة وكرة القدم، الاعتناء بقدرٍ أكبر بتعليمهم؛ على افتراض أنهم لا يفعلون. وما زلت أتساءل: من كان يهتمُّ حين قرَّرت نانسي كيريجان ممارسة التزحلق، أو حين قرَّر مايكل فيلبس ممارسة السباحة ... لا يبدو أن أحدًا قط قد تساءل: لماذا تُتيح لك رياضات مثل الجولف والتنس الاحتراف بينما لا تزال في المدرسة؟ مَن المنوط به اتخاذ هذا القرار؟ لماذا لا يُمكنك أن تفعل الاثنين؟
>
> هيوز ٢٠١٠: ١

وتمضي لتقول إن هذه القرارات أو المعايير المُزدوَجة إنما تتعلَّق في الواقع بتقاطُعات المكانة الاجتماعية الاقتصادية (الطبقة الاجتماعية) والعرق. فلو أن الخبراء الليبراليِّين ذوي النوايا الحسنة معنيُّون إلى هذا الحد بمصير الرياضيِّين كافة، فلنضمَّ إذن من هم في نوادي التنس أيضًا. ففي اعتقادها أن هناك افتراضًا ثابتًا في الأدبيات الرياضية أن الرياضيين المُنتمين للطبقات الاجتماعية العليا والمتوسطة وينتمون إلى البيض؛ يستطيعون القيام بالأمرَين معًا؛ فبمقدورهم الاحتراف في الرياضة «و» الحصول على شهادةٍ جامعية. ولعلاج ذلك، فإنها تحثُّ الكليات والجامعات على خوض النقاش العسير بشأن العنصرية المنهجية التي

يُعاني منها الطلاب الفقراء لا محالة والتي ربما تُمثِّل أساس قراراتهم بالاحتراف: «ربما يكون علينا أن نبدأ النظر إلى المشكلات المنهجية أو الهيكلية التي قد تَدفع طلابًا بأعينهم في اتجاه الرياضة الاحترافية.» وتُتابع حديثها قائلة إن تحذير الطلاب الملوَّنين والطلاب الفقراء بالابتعاد عن الرياضات الاحترافية ليس الحل. فتقول: «في الواقع، لنُلقِ نظرةً على أحرامنا الجامعية القائمة على الرعاية ومبدأ الجدارة. أعتقد أن تحذير الطلاب بالابتعاد عن مجالاتٍ مهنية كالرياضات الاحترافية، خاصة كرة السلة وكرة القدم، إنما هو مجرَّد تناولٍ سطحي لنقاشٍ أكبر تحت عنوان العنصرية المؤسسية والمنهجية.» (هيوز ٢٠١٠: ٣) إن الحوار بشأن العنصرية المنهجية لا يتمُّ في وسائل الإعلام الشعبية، ولا يبدو أنه يتمُّ داخل أحرام الجامعات والكليات، على الأقل فيما يتعلق بقضية الرياضة والاحتراف.

في عالَمنا الذي يُفترض أنه يُطبِّق سياسة «عمى ألوان» وأنه «تجاوَز العنصرية»، يقول بعض الناس، لا سيما المحافظين السياسيين، إنه لم يعد ثمَّة حاجة للبرامج التي على شاكلة برامج التمييز الإيجابي. ويقول البعض إننا لم نعُدْ بحاجة إلى تلك النوعية من البرامج فحسب، بل إن تلك البرامج تُعدُّ في الواقع تمييزًا ضد البيض (أو على الأحرى ضد الذكور البيض). وكان هذا هو الشعار السائد منذ عهد ليندون جونسون، الذي أصدر أمرًا تنفيذيًّا، مستخدمًا سلطته التنفيذية، فُعِّلت بموجبه سياسات التمييز الإيجابي في عام ١٩٧٢. وكانت هذه البرامج محل نزاعٍ مرير عبر السنين، داخل وخارج أروقة المحاكم، وفي كثيرٍ من الحالات البارزة كان الأمر يصل إلى المحكمة العليا، وتلك الحالات هي قضية «باكي ضد جامعة كاليفورنيا»، وقضية «جروتر ضد جامعة ميشيجان»، و«قضية جراتس ضد جامعة ميشيجان».[1] ولكن مؤخرًا اختار المثلون لتيار اليمين المحافظ، أو تبنَّوا، لغة حركات الحقوق المدنية، وقاموا بتعديلها من أجل تحويل الأجندة إلى واحدة تخدم أغراضهم. وفكرة الشعار تُؤكِّد أنك تتعرض لتمييزٍ ضدك. فهم يدَّعون أن القوانين، والسياسات، والأشخاص في تيار اليسار (البيض والملوَّنون على حدٍّ سواء، ولكن الملوَّنين أكثر) عنصريون فعليًّا ويُمارسون التمييز ضد البيض. والقضية الأبرز التي نودُّ ذكرها هي قضية تداولتها وسائل الإعلام مؤخرًا، وهي قضية شيرلي شيرود. لقد أُقيلت شيرلي شيرود، وهي مسئولة بوزارة الزراعة، على نحوٍ غير رسمي من قِبَل إدارة أوباما في عام ٢٠١٠، إثر تصريحها في خطابٍ مسجَّل بأنها مارست التمييز ضد البيض. وقد أعيدت إلى منصبها لاحقًا، ولكن فقط بعد أن تبيَّن أن مدونًا من جناح اليمين، ويُدعى أندرو بريتبارت، اجتزأ تصريحها من سياقه. وعلى الرغم من أن الواقعة برمَّتها قد انتهت بتركيزٍ

إعلامي أكبر على قضية العرق، فإن الحوار في هذا المثال لا يَتطرَّق إلى المشاكل المنهجية العميقة للعنصرية المؤسسية. إن حقيقة أن مدوِّنًا ذكرًا أبيض من جناح اليمين قد استطاع فصل امرأةٍ سوداءَ بهذه السرعة من قِبَل مسئولٍ أبيضَ في حكومة أول رئيسٍ أسود يَنبغي أن تستوقفنا جميعًا. ففي حين أُعيدت السيدة شيرود إلى منصبها، وهو ما يُعزى جزئيًّا إلى إجراء تحقيقاتٍ موسَّعة أظهرت أن تصريحها الذي أطلق في المؤتمر الوطني للجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين قد اقتُطع من سياقه وحدَث به تلاعُب من قِبَل المدوِّن، وإلى احتجاجاتٍ عامةٍ عنيفة من جانب كتلة النواب السود بمجلس الشيوخ الأمريكي، إلا أن هذا لا يُبشِّر بوجود استعدادٍ قومي في إعلام التيار اليميني لخوض نقاشٍ صادق بشأن العنصرية المنهجية في الولايات المتحدة. ولا يُشير أيضًا إلى ارتياح إدارة أوباما في الحديث عن العرق على مستوًى مؤسسي. يقول البعض إن واقعة شيرلي شيرود كانت بمنزلة لحظة تَصلُح لأن تُدرَّس؛ استطاع فيها البيت الأبيض الاضطلاع بدورٍ قيادي، أو استطاعت فيها وسائل الإعلام الرئيسية أن تتولى الضغط على اليمين المحافظ للبدء في توفير أدبياتٍ بديلة من أجل تثقيف أمة بأكملها بشأن الشوط الطويل الذي علينا أن نقطعه حقًّا وصولًا إلى حوارٍ صادق حول الموضوع؛ دعونا لا نأبه بمصطلح «ما بعد العنصرية»، دعونا فقط نبدأ في «حوار صادق حول العرق». وسنظلُّ بالانتظار لنرى إن كان هذا سوف يحدث أثناء وجود الرئيس أوباما في السلطة.

مثالٌ آخر للحركة الارتجاعية للبيض، أو اختيار المحافظين البيض لِلُغة الضحية أو المُضطهَد واستخدامها، وهو قضية السيناتور الأمريكي جيمس ويب الذي طالب بإنهاء برامج التنوع التي تُديرها الحكومة بدعوى أنها تضمُّ «بيضًا مكافحين بحاجة إلى الرعاية وتضرُّ بقضية التناغم العرقي» (لويس ٢٠١٠: ١). وقد كتب ويب عمودًا لجريدة وول ستريت جورنال قال فيه إنه يَعتقد أن برامج التمييز الإيجابي قد فقَدت جدواها، وتُميِّز بالأساس المهاجرين الجدد عن البيض المكافحين وحتى الأمريكيين السود الذين كانوا، على حدِّ زعم ويب، المستفيدين الأصليِّين من مثل هذه البرامج. وقام ويب بتأليف كتابَين هما «وُلدوا محاربين» (٢٠٠٤) و«وقت للقتال» (٢٠٠٨)، نُشر كلاهما من قبل مطبعة برودواي بوكس، طوَّر فيهما هذه الحُجَج على نحوٍ أكثر استيفاءً. وقد تعرَّض للنقد من قبل أشخاص مثل دوجلاس وايلدر، والسيناتور ويب، حاكم فرجينيا الأسبق، في عمود الرأي في جريدة وول ستريت جورنال. فقال دوجلاس، أول حاكم أسوَد مُنتخَب في تاريخ البلاد — والذي تصادف أن يكون من مؤيدي ويب في عام ٢٠٠٦ — وفقًا للويس: «لولا حركة

الحقوق المدنية وبرامج التنوع، لما صار اليوم مواطنًا أمريكيًّا.» كان وايلدر يشير إلى دعم الأقلية القوية الذي ساعد ويب في هزيمة خَصمِه بفارق ٩٠٠٠ صوت انتخابي. (٢٠٢٠: ٢) الشيء المثير في مقال الرأي هذا عندما تقرؤه في مجمله أن ويب يعرض عدة نقاطٍ أساسية؛ من بينها: (١) البيض الفقراء محرومون من حق التصويت. (٢) السود أيضًا لا يتلقَّون خدمةً جيدة؛ لأن البرامج تُفضِّل المهاجرين الجدد، الذين يستفيد منهم الكثير على نحوٍ غير قانوني. إنه، إذن، يستعين بحجةٍ طبقية لتدعيم حجته المؤيدة للبيض (الذكور البيض في المقام الأول) الساخطين، فيما يبدو، على أوباما، والاقتصاد، والدور المتنامي للحكومة الضخمة في حياتهم. في الوقت ذاته، يحاول ويب ألَّا ينأى بنفسه عن الناخبين السود الذين وضعوه على رأس منصبه واستفادوا من برامج التنوع في الماضي. إنه يسعى إلى رسم صورة للمهاجرين الجُدُد عنوانها: «مهاجرون غير شرعيين»، بوصفهم أكثر المستفيدين حاليًّا من هذه البرامج. غير أنه لا يُقدِّم أي بيانات لتعزيز تصريحه. إنها طريقةٌ أخرى لإذكاء لهيب الخوف من الأجانب المتفشي في الولايات المتحدة، فيما يتعلق بالقانون التشريعي ١٠٧٠ إس بي (قانون ولاية أريزونا الخاص بإنفاذ القانون على الهجرة غير الشرعية المُثير للجدل الذي تمَّ سَنُّه في عام ٢٠١٠)، وخلق عدو من المهاجر، يُشكل تهديدًا لكلٍّ من البيض المكافحين المستحقين والسود الذين خذلتهم الحكومة في الماضي.

وبالحديث عن تاريخ الولايات المتحدة، نرى شيئًا مثيرًا في المنظور الذي يُرى، ولا يُرى، منه العرق، من خلال موشور الزمن. ففيما نعلم جميعًا الخلافات والمجادلات المحيطة بالرموز المعروفة، مثل عَلَم الكونفدرالية، وتشغيل أغنية «ديكسي» في الفعاليات الحكومية والجامعية الرسمية في الجنوب، ظهر شكلٌ أحدث وهو ما يحدث حين تضطر إلى سحب تكريمٍ من شخصٍ ما بسبب ماضيه العرقي. في عدد ١٢ يوليو ٢٠١٠ من دورية إنسايد هاير إيديوكيشن، كتب سكوت جاسشيك في مقال «سحب تكريم» عن الخلافات المُثارة حول تغيير اسم بناية سُميت على اسم أحد أعضاء منظمة كلو كلوكس كلان، الذي رحل منذ زمنٍ طويل. ومن الواضح أنه لم يكن غريبًا في الماضي غير البعيد أن يكون المواطنون الشرفاء في المُجتمعات أعضاءً أيضًا في منظمة كلو كلوكس كلان، وهي منظمة كانت تتباهى بالمُواطِنين المناصرين لها وتعتزُّ بهم. وفي ظل خضوع تاريخ العرق في هذه البلاد للتدقيق عبر عدسة العنصرية المنهجية، فقد بدأنا الآن فقط نرى إلى أيِّ مدًى كان قبول السلوكيات التي أسهمت في عزل السود وأفراد الأعراق الملوَّنة الأخرى مترسِّخًا. فلم يكن يُنظر إلى هذا العزل والتمييز كأمرٍ طبيعيٍّ فحسب، بل إن حدود هذه

السلوكيات كانت تُنظَّم من قِبَل المواطنين الشرفاء الذين كانوا لا يَخجلون من أن يُعرَف عنهم أنهم أعضاء في منظمة كلو كلوكس كلان، إحدى أشهر المنظمات العرقية في الولايات المتحدة، والمسئولة عن بعضٍ من أشنع وقائع الإعدام بدون محاكمة في تاريخ البلاد. وخشية أن نعتقد أن أعضاء منظمة كلو كلوكس كلان انحدروا فقط من أقصى الجنوب ومن ولايات مثل تكساس، من الجيد أن نعرف أنه يوجد أيضًا أعضاء من كاليفورنيا. في مجتمع مدينة ريفرسايد بكاليفورنيا الجنوبية، والواقعة في واحدة من أكثر المقاطعات عنصرية في كاليفورنيا، تُظهر الأبحاث التي أُجريَت على منظمة كلو كلوكس كلان أن العرض الأول لفيلم «ميلاد أمة»، للمخرج دي دبليو جريفث كان في مسرح جروف في ريفرسايد في ١٠ أبريل عام ١٩١٣. وقد أشارت الباحثة زيتا وورلي إلى أن عضوية الكلو كلوكس كلان كانت منتشرة على نطاقٍ واسع في المجتمع، حتى إن الصحف كانت تعلن أن مراسم التنصيب سوف تقام في صالة الألعاب الرياضية بمدرسة ريفرسايد الثانوية للفنون (وورلي ٢٠١٠: ٧). والسؤال البادي لنا ليس ما إذا كنا نُقيم حواراتٍ معاصرة حول التناقضات في مجتمع أتاح لمواطنين أن يكونوا أعضاءً بمنظمة بثَّت الرعب في قلوب الملوَّنين، ولكن السؤال هو «كيف» نُقيم ذلك الحوار المعاصر؟

إن المعلومات الواردة في هذا الكتاب، وعلى الأخصِّ في فصول الجزء الثالث، تُعدُّ جزءًا آخر لا يتجزَّأ من مشروعٍ وطنيٍّ كبيرٍ وُضِع من أجل مساعَدة الولايات المتحدة على إقامة تلك الحوارات المُتعمِّقة بشأن العرق والعرقية المنهجية. وقد صُمِّم المشروع الذي يُعدُّ هذا الكتاب جزءًا منه ككلٍّ من قِبَل أعضاء الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا بمنحة مقدَّمة من مؤسسة العلوم الوطنية ومؤسسة فورد. يتألَّف مشروع العرق من المتحف الوطني «الأعراق البشرية: هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟» والذي يتألَّف من ثلاث نسخ تجوب الولايات المتحدة حتى عام ٢٠١٤ (اثنان على مساحة ٥٠٠٠ قدم مربَّعة، وواحد على مساحة ١٥٠٠ قدم مربَّعة)؛ والموقع الإلكتروني www.understandingrace.org؛ ومواد ومصادر يُمكن تحميلها مجانًا من على المَوقِع. رجاء انظر قائمة مصادرنا في نهاية هذا الفصل الاستهلالي التي ترتبط مباشرة بموضوع العنصرية المؤسسية والمنهجية.

ولما كان هدفنا الرئيس هو تزويد الأشخاص بأدواتٍ من أجل فهمٍ وتواصُلٍ أفضلَ حول قضايا العرق، تَكشف بوني أورتشولي في أول مقالات الضيوف في الجزء الخاص بالخبرة المعاصرة من كتابنا هذا عن بعض الطرق المهمة التي نؤطِّر بها قضايا الهوية، عن درايةٍ وبلا قصد، من خلال العرق.

(١) بوني أورتشولي: اللغة والعرق



بوني أورتشولي: أستاذ علم الأنثروبولوجيا بكلية هاميلتون. تضمُّ مجالات اهتماماتها الأنثروبولوجيا اللغوية والثقافية، إلى جانب تخصُّصها في الخِطابات العامة للعرق، والطبقات الاجتماعية، واللغة، والبنية الخطابية «للتنوُّع» في التعليم العالي الأمريكي. نال كتابها «كشف التعصُّب: تجارب من بورتريكو مع اللغة والعرق والطبقة الاجتماعية» جائزة مركز جوستاف مايرز لدراسة حقوق الإنسان في أمريكا الشمالية عام ١٩٩٧ (الصورة بتصريح من بوني أورتشولي).

* * *

العرق ليس شيئًا «يملكه» الناس. إنه منظومة تصنيفٍ اجتماعي، شأنه شأن الجنسية، أو الإثنية، أو الطبقة الاجتماعية، أو النوع الاجتماعي. والأنظمة تتألَّف من فئات توجد معًا بالنسبة لبعضهم البعض، وتَعتمد الفئة التي يُصنف فيها الناس على التفسيرات الخاصة بشكلهم، وسلوكهم، وأسلوب حديثهم، وهكذا. والعرق، كمنظومة، يتألَّف من فئات مثل البِيض، والسود، والآسيويين، وما إلى ذلك، يُفترض فيها أن يكون لون البشرة، وملامح الوجه، والشعر، واللغة ... إلخ علاماتٍ طبيعية تدل على الأصل. ومثل هذه العلامات في ذاتها ليست عرقًا؛ فالعِرق هو فكرة أن تلك العلامات تدلُّ على أصلٍ ما يَرتبط بسماتٍ فطرية معيَّنة، وقد يُصنَّف الناس ضمن الفئات العرقية بناءً على افتراضات بشأن النَّسب والأصل، ومع ذلك يكون لديهم علاماتٌ ملحوظةٌ محدودة أو منعدمة. وغالبًا ما يَصعب

فهم كلمةِ منظومة؛ لأن مِن الأصعب كثيرًا أن نرى منظومةً كاملة من داخلها عن أن نرى أجزاءً من المنظومة وكأنها الواقع. ولكن تغيُّر أو إزالة أيِّ فئة يترتَّب عليه تغيُّر المنظومة بأكملها. ففي العِرق، مثلما في أي أنظمةٍ أخرى للتصنيف الاجتماعي، تميل فئةٌ واحدة إلى السيطرة، فيُسلَّم بها كفئةٍ قياسية، أو نموذجية، أو الفئة الأكثر مرغوبية، أو على حدِّ وصف علماء الرموز، «غير محددة». والفئة غير المحدَّدة في العرق هي فئة البِيض، وباقي منظومة العرق «محدَّدة» على عكس العرق الأبيض.

بدأ تكوين العرق، كما نعرفه اليوم، قبل قرون، وقام على العلاقة بين المُستعمِرين والمُستعمَرين، والأسياد بالعبيد، وعلى مستوًى أعمَّ، علاقة المُسيطِرين على الموارد بأولئك ممَّن كانت قيمتهم مقتصرة على موقعهم في منظومة الموارد، كعمالةٍ مجانية مملوكة أو مُستغَلَّة، أو في حالة السكان الأصليين، في موقعهم في خطط الراغبين في الاستيلاء على أراضيهم. وتُشكِّل العلاقات الاقتصادية أهميةً بالغة لهذه العملية التاريخية، ولكن ما حوَّلها إلى ما نعرفه اليوم كعرق هو تطبيعُ الأصل كسِمَةٍ فطرية وموروثة كانت تُعتبر أنها تجعل ذلك النوع من الأشخاص ملائمًا لموقعٍ اجتماعي معيَّن. وعلى هذا النحو، كان العبيد الأفارقة، وجماعات السكان الأصليِّين المحرومين، والعمال المُستغَلون جميعًا عرضة للعرقنة؛ إذ افتُرِض أنهم نوعٌ طبيعي يُستدل عليه بسمات جسمانية يشترك فيها أشخاص يُعتقد أن بينهم رابطة «دم». هذه هي الأصول التاريخية للفئات المعروفة الآن بالسود، والهنود، والإسبان، والآسيويين. (ثمة فئاتٌ أخرى تعرَّضت في فترةٍ ما للعرقنة مثل الأيرلنديين، أو اليهود، أو الإيطاليين اندمجت الآن داخل فئة البيض.) وتتغيَّر التصنيفات والعلامات العرقية على مدار الزمن. ما لا يتغير هو الموقف المُميز للعرق الأبيض. وتلعب اللغة دورًا في هذه العملية في كل خطوة عبر الطريق. فالتفكير العرقي والمفاهيم العرقية تَنتقل عبر الخطاب، والفئات العرقية تُحدَّد وتصنَّف بالكلمات والعبارات، والمدركات العرقية تُعزَّز في الاستخدامات اليومية للغة، واللغة في حدِّ ذاتها قد تتعرَّض للعرقنة؛ إذ تُعدُّ بديلًا لمفهومٍ أقدم «للدم».

ولجميع اللغات أشكالٌ متنوِّعةٌ متميزة تعكس الظروف الاجتماعية التي تشكَّلت وتكوَّنت فيها. ويُعدُّ هذا انعكاسًا للمبدأ الأعم من أن اللغات لا تأتي في مجموعاتٍ كاملةٍ محدَّدة على نحوٍ صارم، وأنها تتطور تحت ظروفٍ معيَّنة ولا تتوقَّف عن التغيير. وهذا يعني أن أشكال اللغة المُتنوعة يُمكن أن تعكس الظروف التي تولد الفئات العرقية. من

منظورٍ لُغوي، لا يوجد اختلافٌ حادٌّ يميز بين شكلٍ للغة (مثل اللهجة) واللغة؛ فما يُدركه الناس كلغاتٍ منفصلة نشأ من أشكال اللغة المتنوعة. وجميع اللغات وأشكالها المتنوعة، لها قواعدها النحوية وأنماط الصوت المُترابطة الخاصة بها. ويُدرك الناس اللغات المتمايزة أو الأشكال المتنوِّعة المعروفة (الصحيحة) للغةٍ ما؛ لأن الجهد المؤسَّسي الذي بُذل تمَّ بحيث يقدمها على هذا النحو الذي تبدو عليه. وعليه، فإن ما نعرفه الآن كلغةٍ إنجليزية إنما نشأ من خلال الواقعة التاريخية الخاصة باستيطان الشعب الأنجلوساكسوني لبريطانيا منذ ألفٍ وخمسمائة عام، ونشأة إنجلترا في النهاية كقوةٍ استعماريةٍ عالمية. وطالما كانت الإنجليزية مؤلَّفةً من مجموعة كبيرة من الأشكال المتنوعة، وما يعرفه الناس الآن كإنجليزية «صحيحة» هو نتاج أربعة قرون من التنميط من خلال نشر وتدريس المعاجم، والقواعد اللغوية، والعديد من الكتب والمقالات عما يُعتبَر إنجليزيةً جيدة. نفس الشيء انطبق إلى حدٍّ كبير عبر أنحاء أوروبا، وفي عهدٍ أقرب، على بقية أنحاء العالم. وقد كان تنميط وتسمية اللغات مقترنةً بالدول (مثل انجلترا والإنجليزية، فرنسا والفرنسية، إسبانيا والإسبانية ... وهكذا) يعني أن الأشكال غير القياسية لنفس اللغات ارتبطت بأشخاصٍ منبوذين، ومصنَّفين عرقيًّا في الغالب، وتتمُّ تسميتها وتفسيرها في إطار هذا الارتباط «المتدني»؛ ومن ثم فإن أشكال الإنجليزية التي نشأت بين العبيد وسلالاتهم صارت مُرتبِطة في الولايات المتحدة بالأمريكيين الأفارقة. وعلى الرغم مما أوضحه ويليام لابوف وجون بو من أن أشكال اللغة الإنجليزية التي يتحدَّث بها الأمريكيون الأفارقة لها أنماطٌ دائمة ومترابطة لقواعد اللغة والنطق، فإن لغتهم طالما كان ينظر إليها وتوصف باعتبارها غامضة، وتَفتقِد إلى قواعد اللغة، وخاطئة، وعلامة على وجود حدود عرقية. بالمثل، تعرَّض التناوب اللغوي، أي التناوب السريع بين الإنجليزية والإسبانية بين ذوي الأصول اللاتينية ثنائيي اللغة من أبناء الطبقة الوسطى، والتي غالبًا ما تُسمى «الإنجليزية الإسبانية»؛ للنقد الشديد بوصفها غامضة، وثقيلة، وخاطئة، ومُربِكة ... إلخ. غير أن التناوب اللغوي هو شكلٌ مُترابط ومحدِّدٍ للسلوك اللُّغوي، مثلما أوضحَت أنا سيليا زنتيلا في وصفها الشامل والمعقَّد لاستخدام اللغة بين جيلَين من مُواطني بورتريكو المقيمين بنيويورك ثنائيِّي اللغة.

تَعمل عرقنة اللغة أو أشكال اللغة على إنكار شرعية الهوية اللغوية أو التقليل منها، أو التقليل من كون الطريقة التي يتحدث بها الشخص جزءًا مهمًّا من هويته. ويتعرض الأمريكيُّون ذوو الأصول اللاتينية ثُنائيُّو اللغة إلى عرقنةٍ مُزدوَجة؛ وذلك من خلال اللغة، ومن خلال السلوك اللغوي غير القياسي مثل التناوب اللغوي، ومن

خلال ارتباطهم بالإسبانية. ونرى هنا على نحوٍ قويٍّ وواضح ارتباطَ العرق الأبيض الأمريكي باللغة الإنجليزية والعرق غير الأبيض بالإسبانية. ويُعدُّ ارتباط الإنجليزية، والعرق الأبيض، والأمريكانية نمطًا قديمًا في التاريخ الأمريكي. ففي القرن التاسع عشر، تعرَّضت لغات الأمريكيين الأصليين لقمع شديد بين أطفال الأمريكيين الأصليين الذين أُجبروا على الالتحاق بمدارسَ داخليةٍ في محميات الهنود، وربطت شخصياتٌ عامة، مثل تيودور روزفلت، لغات المهاجرين بتهديدٍ إثني ذي طابعٍ عرقي. وفي هذا الإطار اللغوي المنمَّق، يبدو العرق الأبيض، والأمريكانية، والإنجليزية عرضة للخطر وبحاجة إلى حماية. تظهر نفس الافتراضات في خطابٍ بلاغي أحدث يدور حول التعليم الثنائي اللغة واستنكار استخدام اللغة الإسبانية في القنوات الرسمية. وفي ضوء مثل هذه العرقنة اللغوية، تُعتبر اللغة الإسبانية (أو «التهديد» من أيِّ لغة أجنبية) عدوانًا، شكلًا من أشكال التلوث مثلما كان يُنظر إلى الدم «غير الأبيض» لزمن طويل. وثمَّة منطقٌ اجتماعي مُوازٍ بين المعتقَدات بأن «الدم» المُختلط خطير والمُعتقَدات بأن اللغة المختلطة خطيرة؛ ومن هنا تأتي الجاذبية السياسية لوضع تشريعٍ لاستخدام الإنجليزية فقط، أو اعتبار الإنجليزية هي اللغة الرسمية؛ من أجل «حماية» الناس من الإسبانية.

تتولَّد العرقنة أيضًا عبر الإشارات المرجعية؛ فكل لغة تَشتمِل على كلمات وتعبيرات تدلُّ على العرق والتصنيف العرقي، مثل المصطلَحات «الرسمية» المستخدَمة من قِبَل المؤسَّسات، والمصطلحات الرسمية نسبيًّا المستخدمة في المواقع العامة، والمُصطلحات غير الرسمية نسبيًّا التي قد تُستخدم في النطاق الخاص. وتحديد ما إذا كان مصطلح بعينه إشكاليًّا يعتمد على تاريخه الخطابي، مَن الذي استخدمه، ومع من، ولأي غرض؟ فمِن خلال الخطاب، أي عملية الاستخدام المنطوق أو المكتوب للغة، يَنقل الناس المفاهيم ذات الطابع العرقي، وتكتسب المصطلحات تأثيرًا اجتماعيًّا. ويحدث هذا في الخطابات الرسمية، وفي المطبوعات، وفي الحديث اليومي. وقد أصبحت عملية صياغة ونَشر القوانين التي تُعرِّف العرق، أو عملية تشريع الأنشطة على أساس العرق، أو الدراسات الشارحة للعرق؛ جزءًا من خطابٍ عام يُشكِّل مفاهيم العرق ويُمرِّرها. فتصف فرجينيا دومينجيز، على سبيل المثال، أهمية وجود لغة قانونية في لويزيانا (لم يتمَّ إلغاؤها حتى عام ١٩٧٢)، تُعيِّن حدود السود والبيض من حيث كم الدم الأبيض؛ أي عدد الأسلاف البيض الذين لدى الشخص؛ لتوثيقهم من أجل إثبات انتمائه إلى العرق الأبيض.

تدخل الإشارات المرجعية إلى العرق والمُعتقَدات بشأنه حتمًا في كيفية استخدام الناس للغة بأبسط الطرق. وهذا الاعتبار الأخير هو الأهم والأصعب في فهمه بالنسبة إلى معظم الناس؛ لذا دعوني أستفض قليلًا. قلَّما يستخدم الناس اللغة وحدها لنقل المعلومات، وعادةً ما يكون استخدام الناس للغة، الذي يَتساوى في الأهمية مع الإشارة المرجعية، مدفوعًا بمن يَفعل ماذا، وهو ما يجعل الحديث العادي يميل إلى تكوين تحالُفاتٍ اجتماعية، ويجعل الإشارات المرجعية تُنظَّم وفقًا لطبيعة الحديث. ويتَّضح هذا في أفعال النميمة، أو المُمازَحة، أو المُداعَبة. ويسري ذلك أيضًا على تعبيرات التفكير، أو الرأي، أو الشعور، لا سيما حين تكون الاستجابات لمثل هذه التعبيرات ذات أهمية. وتتشكَّل الإشارة المرجعية في الخطاب العام وفقًا لنفس الاعتبارات، بالإضافة إلى ذلك، تتأثَّر الكيفية التي يَنخرِط بها الناس في التواصُل بالظروف العامة التي يَنشَئون فيها، وما يُسلِّمون به بوصفه عاديًّا ومقبولًا، واعتقادهم بشأن الكيفية التي يَسير بها العالم. كلُّ هذه العوامل تُشكِّل الطُّرق التي تَحضر بها مفاهيم العرق في الخطاب، في صورة تعميمات بشأن أنماط الناس، وأشكال من الدعابة، وطُرق تمثيل ما يفعله الناس أو أسلوبهم في الحديث على نحوٍ عرقي، وكذا في صورة معتقدات بشأن اللغة وأشكال اللغة التي يتحدَّث بها الأشخاص المصنَّفون عرقيًّا.

يُدرك معظم الأمريكيين العواقب العنصرية للألقاب، والإهانات، والافتراءات العنصرية، حتى إنهم يَعزون تأثير مثل هذا الاستخدام إلى سوء نوايا المُتكلم. ولكن العرقنة، بصرف النظر عن نية المتكلم، تنشأ من الآثار التراكُمية لمثل هذا الخطاب في تشكيل وتخليد الافتراضات القائمة على التمييز بين الأطراف المعنية. ومثل هذه الآثار قد يتمُّ تجاهلها أو حتى لا تُدرَك من قِبَل المشاركين، خاصَّة حين لا يكونون ضمن أعضاء الجماعة التي تتعرَّض للعرقنة. والنزعة الثقافية الأمريكية نحو اختزال الفعل الاجتماعي في تصرُّفاتٍ ونوايا فردية وتجاهُل الهياكل والمنظومات التي تشكل ذلك الفعل؛ غالبًا ما تدفع الناس إلى الاعتقاد بأنه إذا كان فعلٌ خطابيٌّ ما هو «مجرد دعابة»، أو مجرَّد خطأ، وأنه إذا لم يكن ثمة ضررٌ مقصود، أو إذا اعتذَر المتكلم، إذن فلا يوجد مشكلات أو قضايا عرقية. وتُوضِّح جين هيل هذا في دراستها التفصيلية للغة القائمة على التمييز العرقي. إن أسماء الفِرَق الرياضية والأماكن الأمريكية الأصلية والمبرِّرات المدافعة عن استخدامها؛ وتعليقات الشخصيات العامة بشأن مظهر شخصٍ ما أو تفضيلاته، أو

الإسنادات الأخرى المُرتبطة بالعرق؛ والجهد الإعلامي المبذول في تفسيرها أو تبريرها جميعًا؛ وجميع الاستعارات والدعابات في الحديث العادي التي تَعتمد على افتراضاتٍ مُسبَقة بشأن المجموعات الاجتماعية المميَّزة عرقيًّا؛ وإساءات الاستخدام «الدعابية» المُتعمَّدة لأشكال اللغة أو اللغات التي يتحدث بها الأشخاص المصنَّفون عرقيًّا (مثل الاستخدام الذي أَطلَقت عليه هيل «الإسبانية المقلَّدة»)؛ والمُبرِّرات التي تربط بين اللغة الإسبانية، والهجرة غير الشرعية، والفوضى، والخطر؛ مُعتمِدة في الغالب على الرطانة واللغة المجازية المُتصاعِدة. كل هذه الاستخدامات تَعمل بشكلٍ تراكُمي على نبذ أولئك المشار إليهم أو مَن هم في مرمى السخرية بوصفهم فوضويِّين وتافهين. وللغة القائمة على التمييز عواقب محدودة بالنسبة إلى الفئات غير المميِّزة، التي تستطيع تجاهل المظاهر الأدق لمثل هذا الخطاب ولا تَكترِث لعواقبه الخطيرة بالنسبة إلى الأشخاص المميَّزين عرقيًّا. فالبيض غير المميَّزين عرقيًّا يعملون في إطار منظومة هرمية للقيمة يُفترض فيها أن تكون أفعالهم، وفِكَرهم، وأقوالهم منظَّمة ولا تحوي أيَّ إشكاليات. وتقاس قيمة الأشخاص المصنَّفين عرقيًّا على أساس تلك المنظومة؛ ومن هنا يأتي التأثير المُعرقِن للتعميمات الإيجابية ظاهريًّا مثل «أَسود اللون ولكنه مُجتهد.» كذلك تعمل هذه المنظومة الهرَمية للقيمة على حماية غير المميَّزين من عواقب ما يقوله المميَّزون عنهم. فالأشخاص المصنَّفون عرقيًّا لديهم الكثير لقوله عن البيض، في صور الاستخدام الواردة أعلاه، والدعابات الغامضة المعنى وكل الأشكال الأخرى. ولكن الأثر التراكُمي لمثل هذا الاستخدام على البِيض محدود في سياق العواقب القانونية، أو المؤسسية، أو الاقتصادية.

إن العلاقات بين اللغة والعرق، كما نرى، معقَّدة ومتعدِّدة، ولكن ثمة مبدآن يَبرزان في هذا الإطار. اللغة في حدِّ ذاتها يُمكن أن تُعرقَن؛ فشكل اللغة الخاص بفرد ما يمكن اعتباره علامةً عرقية، ويمكن اعتبار لغة بأكملها تهديدًا أقرب إلى تهديد عرقي. والتوجُّهات القائمة على التمييز العرقي تُمرَّر على نحوٍ روتينيٍّ، وفي أغلب الأحيان تُمرَّر ك «تفكيرٍ فطري» من خلال أشكال الحديث اليومية الروتينية. وهذه الاستخدامات اليومية قلَّما يَفطن المُنخرِطون فيها إلى كونها قائمة على التمييز. ولكن جميع العمليات المذكورة أعلاه تعمل معًا، بطُرق تَعمل على تعزيز إحداها للأخرى على نحوٍ تبادُلي، في جوٍّ اجتماعي يكون فيه أكثر المؤهَّلين لإحداث ضرر ما هم أقل مَن يحتمل أن يدرك آثارها الحقيقية أو يعترف بها. ومهما كان ما قد يَنوي، أو لا يَنوي الأفراد فعله، المُهم هو ما يحدث.

المراجع

Hughes, R.:

2010 Tennis Anyone? Race and Class Still Matter in Sports. Diverse Issues in Higher Education, July 12. http://diverseeducation.com/blogpost/278/, accessed July 19, 2011.

Jaschik, S.:

2010 Removing an Honor. Insider Higher ED, July 12. http://www.insidehighered.com/news/2010/07/12/klan, accessed July 19, 2011.

Lewis, B.:

2010 Sen. Webb decries federal diversity programs. *Associated Press*. July 24.

Pew Research Center:

2010 Media, Race and Obama's First Year: A Study of African Americans in U.S. News Coverage. Washington, DC: Pew Research Center.

Troung, S.:

2010 Review of Harvard Scholar's Arrest Cites Failure to Communicate. The Chronicle of Higher Education, June 30. http://chronicle.com/article/Review-of-Harvard-Scholars/66099/?sid=at&utm_source=at&utm_medium=en, accessed July 19, 2011.

Worley, Z.:

2010 "From Orange Groves to White Hoods: The Origins of the Riverside Ku Klux Klan." Unpublished manuscript. University of California Riverside, Riverside, CA.

بوني أورتشولي: اللغة والعرق

Baugh, John:

1983 Black Street Speech. Austin: University of Texas Press.

Dominguez, Virginia:

1986 White By Definition. Piscataway, NJ: Rutgers University Press.

Hill, Jane:

2008 The Everyday Language of White Racism. Malden, MA: Wiley-Blackwell.

Labov, William:

1972 Language in the Inner City. Philadelphia: University of Pennsylvania.

Zentella, Ana Celia:

1997 Growing Up Bilingual. Oxford: Blackwell.

هوامش

(1) Expert report of Patricia Gurin, *Gratz, et al. v. Bollinger, et al.,* No. 97-75321 (E.D. Mich.) *Grutter, et al. v. Bollinger, et al.,* No. 97-75928 (E.D. Mich.) at www.vpcomm.umich.edu/admissions/legal/expert/gurin, accessed November 15, 2011. Also see *"Regents of the University of California v. Bakke"* at www.infoplease.com/ce6/history/A0841421.html, accessed November 15, 2011.

الفصل الثالث عشر

العرق والتعداد السكاني



شكل ١٣-١: مجموعة من الطلاب مع مستشار هيئة التدريس من كلية مكاليستر بسانت بول، بولاية مينيسوتا يَرتدون قمصانًا قطنية تُبيِّن كيف كانوا سيُصنَّفون عرقيًّا عبر المراحل المختلفة في التاريخ الأمريكي. الصف الأمامي، من اليسار إلى اليمين: سيون وولد-مايكل، سارة جانلي، جاونو شونج، كيم وورتمان. الصف الخلفي، من اليسار إلى اليمين: بيتر راكليف (مستشار هيئة التدريس)، كارمن فيليبس، تينبت إرمياس، كيمي أديمي، جيسيكا ماسترسن، دينيس هولمز، رومينا تاكيموتو (بتصريحٍ من متحف مينيسوتا للعلوم).

سوف يتتبَّع هذا الفصل، بإيجاز، تاريخ التعداد السكاني الأمريكي، وكيف تغير على مدار الزمن، خاصة فيما يتعلَّق بقضايا العرق والهوية. منذ بدئه لأول مرة في عام ١٧٩٠، كان كل تعدادٍ سكانيٍّ عَشري يُستخدم لحصر عدد الأشخاص المقيمين في البلاد. وسوف نَتناول كيف تغيرت تصنيفات العرق في التعداد السكاني على وجه الخصوص في القرن العشرين. كذلك سوف نَعرض معلومات تُبرز حياة المهاجرين الجدد. سوف يُسلَّط الضوء على الاختلافات بين تعداد سنة ٢٠٠٠ وتعداد ٢٠١٠، وسوف يُطلَب من القراء التفكير في الاستخدامات المُستقبلية للعرق في التعداد السكاني في القرن الحادي والعشرين.

(١) تاريخ التعداد السكاني الأمريكي والعرق

كان من ثوابت التعداد السكاني الأمريكي على مدار وجودِه الذي تَجاوز المائتي عام وبضع سنوات؛ ميوعة مفاهيم العرق والإثنية التي يُجسِّدها والتغيرات المناظرة في الأسئلة التي يطرحها. ولعل من أفضل الطرق لرؤية التأثير المرئي للفئات المتغيِّرة مطالعة شكل ١٣-١ المأخوذ من معرض العرق. تُجسِّد هذه الصورة مجموعة من الطلاب من كلية مكاليستر مقيَّدين في برنامج للنجاح الأكاديمي للطلاب الملوَّنين الذين يرغبون في أن يُصبحوا معلِّمين. المدهش في هذه الصورة أنها تُظهر كيف كان كل طالب من هؤلاء الطلاب يُصنَّف في التعدادات السكانية السابقة. لمَ كانوا سيُنسبون إلى فئاتٍ عرقية/إثنية مختلفة من تعدادٍ للذي يليه. استُخدِم التعداد من قِبَل الحكومة على مدار السنين من أجل جمع بيانات من شأنها توثيق السلطة السياسية لكل ولاية، والظروف الاجتماعية والاقتصادية لمواطنيها وغير مواطنيها. وتُقدِّم لنا فكرةُ العرق وكيفية تعريفه واستخدامه في التعداد نظرةً عبر الزمن إلى عمليات التكوين وإعادة التكوين العرقي.

كان التعداد السكاني وليد أفكار الآباء المؤسِّسين للمؤتمر الدستوري بفيلادلفيا في عام ١٧٨٧. وقد وُضعَ بالأساس من أجل تحديد عدد المُمثِّلين الذين ستُرسلهم كل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة إلى الكونجرس. وفيما كان التعداد معدًّا بالأساس لأغراض التمثيل السياسي، أصبح في النهاية يقيس حجم الوعاء الضريبي، وحجم القوات المسلحة، بل وكيفية تصميم برامج السياسة الاجتماعية من ضمن أشياء أخرى. تولى إجراء التعداد السكاني الأول، والذي تمَّ تنفيذه في عام ١٧٩٠، ١٦ مارشالًا أمريكيًّا و٦٥٠ مساعدًا. واستغرق المارشالات ١٨ شهرًا لزيارة البيوت المُقامة في المُستعمَرات وتجميع سجلٍ نهائي يضم ٣٫٩ ملايين نسمة في الدولة الجديدة، من بينهم حوالي ٧٠٠ ألف عبد

الفئات العرقية	سنة التعداد																						
	١٧٩٠	١٨٠٠	١٨١٠	١٨٢٠	١٨٣٠	١٨٤٠	١٨٥٠	١٨٦٠	١٨٧٠	١٨٨٠	١٨٩٠	١٩٠٠	١٩١٠	١٩٢٠	١٩٣٠	١٩٤٠	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٩٠	٢٠٠٠	٢٠١٠
هنود	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■							
عبيد	■	■	■	■	■	■																	
بيض	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■
ملونون أحرار			■	■	■																		
سود							■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■
مولاتو							■	■	■	■	■		■	■									
صينيون									■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■
يابانيون											■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■	■
ثمنيون (ثمن أسلافهم من الزنوج)											■												
ربعيون (ربع أسلافهم من الزنوج)											■												
عرق آخر													■		■	■	■	■	■	■	■	■	■
مكسيكيون															■								
زنوج															■	■	■	■	■	■	■	■	■
هنود أمريكيون																	■	■	■	■	■	■	■
فلبينيون																	■	■	■	■	■	■	■
هاوائيون																			■	■	■	■	■
كوريون																			■	■	■	■	■
أليوت																				■	■		
هنود آسيويون																				■	■	■	■
إسكيمو																				■	■		
جوميون																				■	■	■	■
هسبان*																				■	■	■	■
ساموويون																				■	■	■	■
فيتناميون																				■	■	■	■
آسيويون أو سكان جزر المحيط الهادئ من أصول أخرى																					■		
أمريكيون أفارقة																						■	■
سكان ألاسكا الأصليون																						■	■
شامورو																						■	■
أمريكيون من أصول لاتينية*																						■	■
آسيويون آخرون																						■	■
سكان آخرون من جزر المحيط الهادئ																						■	■

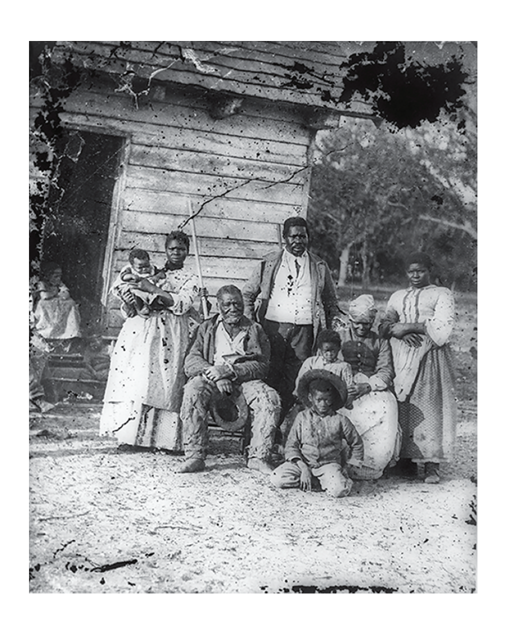
*يَعتبِر مكتب التعداد السكاني الأمريكي ذوي الأصول الهسبانية واللاتينية إثنيِّين وليسوا عرقًا.

شكل ١٣-٢: الفئات العرقية (و«اللونية») في التعداد السكاني الأمريكي، ١٧٩٠–٢٠١٠.

(أندرسون ١٩٨٨: ٨). كان الهدف من هذه الخطة ضمان ألا يَزيد عدد مُمثِّلي الولايات عن مُمثِّلٍ واحد لكل ٣٠ ألف ذكر حر. وقرَّر المؤتمر احتساب كل فرد مُستعبَد بثلاثة أخماس شخصٍ حُر (أندرسون ١٩٨٨: ٧–١٤).

(٢) لماذا يوضع العرق كسؤال في التعداد؟

اشتمل كل تعدادٍ سكانيٍّ أمريكي على سؤال يسأل عن العرق الذي يَنتمي إليه كل مواطنٍ مقيم منذ إجراء أول مسحٍ قومي في عام ١٧٩٠. فلماذا يوضع العرق كسؤال في التعداد؟ تُساعد البيانات الخاصة بالأعراق التي تُجمع بواسطة التعداد في تطبيق قوانين الحقوق المدنية، بعد أن كانت تُستخدم في وقتٍ ما من أجل تعزيز الممارسات التمييزية.



شكل ١٣-٣: أسرة من العبيد الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية (بتصريح من مكتبة الكونجرس، قسم المطبوعات والصور الفوتوغرافية).

١٧٩٠: توافُقًا مع الدستور الأمريكي، وتماشيًا مع سياسة امتلاك الرقيق، الذي كان مشروعًا آنذاك، قام أول تعدادٍ سكاني أمريكي باحتساب كل فرد مُستعبَد بثلاثة

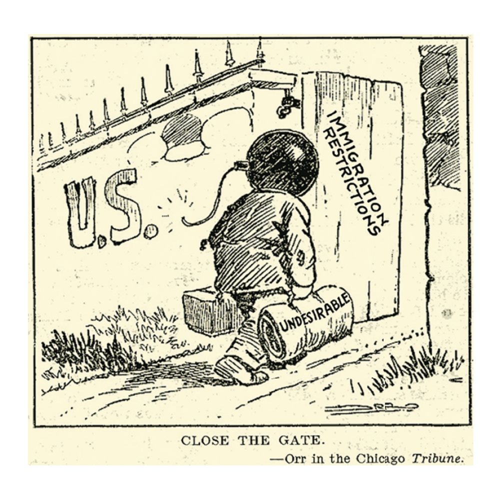
أخماس الفرد الحر عند تحديد سكان الولايات. ولم يكن الأمريكيُّون الأصليون يُحدَّدون على نحوٍ منهجي في التعدادات السكانية من عام ١٧٩٠ حتى عام ١٨٤٠.

ستينيات القرن التاسع عشر: استعان علماء اليوم ببيانات التعداد لتأكيد دونية الأشخاص الذين يُعتبرون عرقًا مختلطًا. واستُخدمت مزاعمهم لتبرير القوانين التي تَمنع الزواج بين الأجناس المختلفة.

عشرينيات القرن العشرين: كانت بيانات التعداد تُستخدم لوضع حصصٍ نسبية كان من شأنها منع الهجرة من أفريقيا وآسيا وتفضيل الهجرة من دول أوروبا الشمالية.

أربعينيات القرن العشرين: من خلال تحديد المناطق التي يَقطن بها أعداد كبيرة من الأمريكيين ذوي الأصول اليابانية، استُخدمت البيانات من التعداد السكاني الأمريكي في أربعينيات القرن العشرين للمساعدة في تبرير الاحتجاز الجبري للأمريكيين اليابانيين إبان الحرب العالمية الثانية.

ستينيات القرن العشرين: جرَّم قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٦٤ التمييز على أساس العرق، أو اللون، أو الدين، أو الأصل القومي؛ في الأماكن العامة. كما نادى بإلغاء التمييز العنصري في المدارس وساعَد في حماية الحقوق الانتخابية.



شكل ١٣-٤: إغلاق الباب أمام المهاجرين الصينيين غير المرغوبين عرقيًّا. رسم كارتوني من مجلة ليتراري دايجست عدد ٥ يوليو، ١٩١٩.



شكل ١٣-٥: ترحيل الأمريكيين اليابانيين إلى معسكرات الاعتقال (الصورة بعدسة كليم ألبرز. بتصريح من إدارة الأرشيف والوثائق الوطنية).

إذا كان الأمريكيون الأفارقة يُمثلون ١٢ بالمائة من السكان، ولكنَّهم يُمثلون ٥ بالمائة فقط من الملتحقِين بالكليات أو ١ بالمائة من قادة الأعمال بالدولة، فإنهم إذن غير ممثَّلين بالعدد الكافي في هذه المناطق؛ مما يشير إلى احتمال وجود تمييزٍ عنصري. ومن أجل تتبُّع أنماط وآليات التمثيل المنخفض بين جماعات الأقليات، تحتاج الدولة إلى مقامٍ للكسر؛ بمعنى النسبة المئوية التي يُمثلها الأمريكيون الأفارقة من إجمالي عدد السكان. والتعداد السكاني يضع هذا المقام.

كينيث برويت، مدير سابق لمكتب
التعداد السكاني الأمريكي،
من تواصُلٍ شخصيٍّ مع سارة إلزي،
متحف مينيسوتا للعلوم، أغسطس ٢٠٠٦

(٣) فصل السُّود عن البيض

«في الماضي، كان تحديد عِرق الأطفال المُنحدِرين من أصلٍ مختلط ما بين الأسود والأبيض مسألة قوانين.»

(٣-١) حسابات العرق الأبيض

في العقد الأول من القرن التاسع عشر، حدَّدت قوانين «نسبة الدم» النسبةَ المئوية القصوى للأصل الأفريقي التي يُمكن أن يحملها شخصٌ ما ويظل في عداد البيض قانونًا. وكانت النسبة الأكثر شيوعًا هي نسبة الثُّمن. وأي شخص يُعتقد أن لديه نسبةً أكبر من تلك النسبة يُعتبر أسود.

التعداد السكاني وعلَم العنصرية

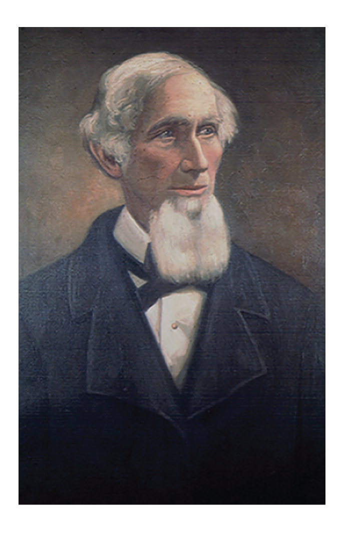
«كان إدراج العرق كفئة من فئات التعداد يبدو أمرًا طبيعيًّا تمامًا بالنسبة إلى كثيرين. بمرور الزمن، أدرك العلماء وآخرون غيرهم أن معلومات التعداد يُمكن استخدامها لتدعيم نظرياتهم حول طبيعة العرق. ومنذ القرن التاسع عشر، كان لهم تأثير على كيفية تصنيف العرق في التعداد السكاني الأمريكي.»

في منتصَف العقد الأول من القرن التاسع عشر، كان الطبيب جوسايا نوت، القادم من ألاباما، ضمن الساعين إلى إثبات أن الأعراق المختلفة تُمثِّل فصائل منفصلة، وأن الأشخاص ذوي الأصل المختلط مُستضعَفين من نواحٍ عدة. حثَّ نوت وآخرون بنجاحٍ على أن يشمل التعداد أسئلة حول درجات الاختلاط بين السود والبيض وأيضًا حول عدد الأطفال، الأحياء والمتوفِّين، الذين يُولَدون لكل امرأة من أجل إيجاد البيانات التي من شانها دعم هذه الفكرة.

من عام ١٨٥٠ حتى عام ١٨٩٠ أُدرجت فئة المولاتو، بمعنى شخص من أصل أبيض وأسود مختلَط، ضمن التعداد. وأُدخلت فئتان إضافيتان، هما الكوادرون (أي ربعه أسود وثلاثة أرباعه أبيض) والأوكتورون (أي ثُمنه أسود) في عام ١٨٩٠.

يجب الحرص، بنحوٍ خاصٍّ، على التمييز بين السود والمولاتو والكوادرون والأوكتورون. فينبغي استخدام كلمة «أَسوَد» لوصف أولئك الأشخاص الذين يَحملون ثلاثة أرباع أو أكثر من الدم الأسود؛ و«المولاتو»، وهم الأشخاص الذين يَحملون من ثلاثة أثمان إلى خمسة أثمان من الدم الأسود؛ و«الكوادرون»، هم أولئك الذين لديهم ربعٌ من الدم الأسود؛ و«الأوكتورون»، وهم أولئك الأشخاص

الذين يحملون ثُمنًا من الدم الأسود أو أي أثر له (تعليمات موظَّفي التعداد السكاني، ١٨٩٠، استُشهد بها في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).



شكل ١٣-٦: الطبيب جوسايا نوت من ألاباما (بتصريحٍ من قسم المجموعات التاريخية، في جامعة ألاباما ببرمنجهام).

إضافة الآسيويين

«إن إضافة جنسياتٍ آسيوية متنوِّعة إلى التعداد السكاني تعكس تاريخ الهجرة الآسيوية إلى الولايات المتحدة.»

مهاجرون جدد، فئاتٌ جديدة

أضيفت الفئات الآسيوية إلى التعداد السكاني استجابةً إلى تزايد الهجرة من دول بعينها.

«١٨٧٠: الصينيون»

كان الصينيون في مقدمة الآسيويين الذين هبَطوا بأعدادٍ كبيرة في الولايات المتحدة، في بداية القرن التاسع عشر. وساهمت حمى الذهب في كاليفورنيا والعمل في السكك الحديدية العابرة للقارات في

جلب آلاف آخرين في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر. فقد وصل حوالي ٣٧٠٠٠ مهاجر آسيوي في عام ١٨٦٠ وحدها، أغلبهم صينيون.

«١٨٩٠: اليابانيون»

أقامت اليابان والولايات المتحدة علاقات دبلوماسية في عام ١٨٥٤، وفي الأعوام التالية وصل الكثير من المهاجرين اليابانيِّين.

«١٩٥٠: الفلبينيون»

وقَعت الفلبين تحت سيطرة الولايات المتحدة في عام ١٨٩٩ عقب الحرب الإسبانية الأمريكية؛ ما ترتَّب عليه زيادة الهجرة من الفلبين.

«١٩٧٠: الكوريون»

وصلت موجة من المهاجرين الكوريين بعد الحرب الكورية التي استمرت من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٥٣.



شكل ١٣-٧: وصول مهاجرين آسيويين إلى جزيرة أنجيل، حوالي عام ١٩١٠ (بتصريحٍ من مؤسسة كاليفورنيا ستيت باركس، ٢٠٠٦).

«١٩٨٠: الفيتناميون»

عَقِب حرب فيتنام، فرَّ لاجئون هاربون من الحكومات الشيوعية في فيتنام، وكمبوديا، ولاوس إلى الولايات المتحدة.

إحصاء جميع الآسيويين

منذ عام ١٩٧٧ تمَّ دمج جميع الجماعات الآسيوية المتنوعة داخل فئةٍ واحدة لأغراض خاصة بتقديم الإحصاءات التي تمَّ جمعها بواسطة مكتب التعداد والوكالات الفيدرالية الأخرى.



شكل ١٣-٨: رومينا تاكيموتو (بتصريحٍ من متحف مينيسوتا للعلوم، كرايج ثيزن).

هاجر أبواي إلى الولايات المتحدة في مرحلة الشباب واستقرَّا في هاواي. كانت والدتي قادمة من سول، بكوريا، فيما جاء والدي من يوكوهاما، باليابان. كانت نشأتي في هاواي، ولم أشعُر قطُّ بأي تمييز ضدي بسببٍ عرقي؛ لأن جميع مَن كنتُ أعرفهم كانوا يابانيين، أو صينيين، أو كوريين، أو فلبينيين، أو فيتناميين من أصل آسيوي. يوجد بالطبع العديد من القوقازيين في هاواي أيضًا، ونستخدم كلمة Haole (التي تعني فعليًّا «أجنبي» باللغة الهاوائية) للإشارة إلى البيض.

إنني مُدركة الآن وقد انتقلت إلى مينيسوتا أن كلمة Haole، وهي كلمة كنتُ أستخدمها في الماضي بكثيرٍ من الحذر والحيطة، محمَّلة بدلالاتٍ سلبية. لقد نبَّهتني الحياة في مينيسوتا إلى قدرٍ كبيرٍ من الخطاب العرقي وجعلتني أكثر انتباهًا للكلمات التي أختار استخدامها.

أنا الآن أستخدم مصطلحات مثل «أمريكي آسيوي»، و«شخصٍ ملوَّن» على نحوٍ نشط، بينما في هاواي لم أكن أستخدم هذا النوع من المفردات مطلقًا؛ لأن الفئات العرقية لم تكن بهذا الاتساع. الآن

وقد أصبحتُ أعيش مع طلابٍ من أنحاءٍ عديدة من العالم وأتعلم المزيد عن العرق، أحاول جاهدًا ألَّا أنقل معرفتي إلى والديَّ في هونولولو. بل أحاول أن أُبيِّن لوالدتي أن التكوينات العرقية مثل أن الأصل الأسود يُساوي الجريمة والأصل اللاتيني يساوي الفقر؛ خاطئة تمامًا، وأن ثمَّة عالمًا جديدًا تمامًا من التفكير لا بد أن تنفتح عليه.

رومينا تاكيموتو: معرض العرق،
متحف مينيسوتا للعلوم

سؤال الهنود الآسيويين

«يكشف تصنيف التعداد السكاني للهنود الآسيويين عن وجود ارتباك بشأن المعايير التي ينبغي استخدامها لوضع فئاته العرقية.»

بِيض، أم هندوس، أم آسيويون؟

في فتراتٍ مُتعدِّدة، كان التعداد يُصنف الفتاة في شكل ١٣-٩ إما كبيضاء، أو هندوسية، أو آسيوية.

بِيض؟

بدءًا من القرن السابع عشر فصاعدًا، صنَّف العديد من العلماء الأشخاص من شبه القارة الهندية إما كأوروبيين أو قوقازيين. وتماشيًا مع هذا، كان الهنود من أصل آسيوي يُصنَّفون كبيض في التعداد السكني حتى عام ١٩٢٠.

هندوس؟

تلقَّى موظَّفو التعداد في عام ١٩٦٠ تعليمات بتصنيف الهنود من أصلٍ آسيوي باعتبارهم «آخرين» وتسجيلهم في فئة «الهندوس». وكان هذا تماشيًا مع الممارسة الشائعة من الإشارة إلى الهنود الآسيويين كهندوس. ولكن كان في ذلك خلط للعرق مع الدين وتجاهُل لحقيقة أن العديد من المهاجرين الهنود من أصلٍ آسيوي كانوا من السيخ أو المسلمين.

آسيويون؟

منذ عام ١٩٨٠ أدرجت فئة الهنود الفرعية ضمن فئة الآسيويين الأكبر، في التعداد. ويعكس هذا موقع الهند داخل قارة آسيا.



شكل ١٣-٩: فتاة من جنوب آسيا iStockphoto.com/KailashSoni ©.

(٣-٢) «قاعدة القطرة الواحدة»

في مطلع القرن العشرين، تخلَّت معظم الولايات عن قوانين نسبة الدم لصالح قوانين أخرى تصنِّف أي شخص يعتقد أن لديه ولو «قطرة واحدة من الدم الأفريقي» كشخصٍ أسود. أما الأشخاص الذين كانوا يُعتبَرون بيضًا وفقًا لقوانين نسبة الدم، فصار يُقال عنهم إنهم «يجوز اعتبارهم» من البيض.

(٣-٣) التحديد الذاتي للهوية

يعدُّ التحديد الذاتي للهوية هو المُمارَسة المتعارَف عليها لمعظم الأغراض القانونية اليوم. فيمكن للأشخاص ذوي الأصل الأبيض والأسود المختلط تحديد ما إذا كانوا سيُصنِّفون أنفسهم كسود، أو كبيض؛ أو كليهما معًا.

(٣-٤) السعي إلى إدراج فئةٍ منفصلة

يُصنِّف التعداد السكاني الأمريكي اليوم الأشخاص القادمين من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا كبيض. قبل تعداد عام ٢٠٠٠، طالب بعض الأمريكيين من أصلٍ عربي بإدراج فئةٍ مُنفصلة للعرب. وكانوا يأمُلون أن يتمَّ جمع بيانات من شأنها المساعدة في رصد التمييز ضدهم كأقلية، ولكن باء مطلبهم بالفشل.

خلال القرن العشرين، طرَأت تغييراتٌ جوهرية على التعداد أدَّت إلى توسيع فئاته وتسجيل وجود الجماعات العرقية والإثنية المتنوعة التي هاجرت إلى الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وبمرور الوقت صار التعداد أطول، ولكن تمَّ تقصيره مجددًا في عام ٢٠١٠. وفي النهاية أُدخلت أيضًا فكرة الاستبيانات المتعدِّدة، وطُرحت أسئلة مميَّزة قائمة على محل الميلاد، ومستوى التعليم، والمهنة، واللغة المستخدمة في البيوت، والعرق/الإثنية. وقد طَرَح تعداد عام ٢٠٠٠ ستة أسئلة فقط على النموذج المختصر الذي ذهب إلى حوالي ٨٣ بالمائة من البيوت الأمريكية. وشملت هذه الأسئلة: السن، والنوع، والعرق، والأصل الهسباني، والعلاقات داخل المنزل، ووضْع الساكن بوصفه مالكًا/مستأجرًا (مكتب المراجع السكانية ٢٠٠٩: ٢).

(٤) حصر الأصل المكسيكي



شكل ١٣-١٠: المُرحَّلون ينتظرون في محطة قطار في لوس أنجلوس، ٩ مارس ١٩٣٢ (بتصريحٍ من مجموعة هيرالد إكزامينر، مكتبة لوس أنجلوس العامة).

لم يكن السكان المكسيكيُّون الأوائل في هذا البلد مهاجرين؛ فقد كانوا يَستوطنون أراضي ادَّعت الولايات المتحدة ملكيتها عقب الحرب المكسيكية الأمريكية التي استمرت من عام ١٨٤٦–١٨٤٨. وتعكس التصنيفات الرسمية المتغيرة للأشخاص ذوي الأصل المكسيكي عبر السنين الدور القوي الذي تلعبه السياسة في التعداد السكاني.

(٤-١) المكسيكيون: عرق في عام ١٩٣٠ ...

صنَّف تعداد ١٩٣٠ المكسيكيين كمجموعةٍ عرقية. وفسَّر مكتب التعداد السكاني إضافة هذه الفئة بتزايُد الهجرة إلى الولايات المتحدة في أعقاب الثورة المكسيكية التي اندلعت في عشرينيات القرن العشرين.

(٤-٢) ... ولكن ليسوا عرقًا في عام ١٩٤٠

خلال فترة الكساد الاقتصادي في ثلاثينيات القرن العشرين، تمَّ ترحيل ما يناهز ٤٠٠ ألف مكسيكي وأمريكي مكسيكي يعيشون في الولايات المتحدة إلى المكسيك. ورأى الكثير من الأمريكيين المكسيكيين صِلة بين الفئة العرقية المكسيكية في التعداد السكاني وهذا الترحيل الإجباري. ونجحوا في الضغط من أجل حذفها، ولم تظهر في تعداد ١٩٤٠. وفي ذلك العام، طُلب من موظفي التعداد احتساب المكسيكيين كبيض ما لم يكونوا هنودًا على نحوٍ جليٍّ أو ينتمون إلى عرقٍ آخر خلاف البيض.

(٤-٣) الأمريكيون المكسيكيون اليوم

يَشعر العديد من الأمريكيين المكسيكيين بأن وَضعهم كأمريكيين لا يزال محل شك، وأن المهاجرين المكسيكيين الجُدد يُعامَلون بلا إنصاف.

> ينتمي جميع العمال المكسيكيون، عمليًّا، إلى خليطٍ عرقي يَصعب تصنيفه، على الرغم من أنهم عادةً ما يكونون معروفين جيدًا في المناطق التي يسكنون فيها. ومن أجل الحصول على أرقامٍ منفصلة لهذه المجموعة العرقية، تقرَّر أنه ينبغي احتساب جميع الأشخاص الذين ولدوا في المكسيك، أو ولد أبواهم في المكسيك،

ما داموا لا ينتمون حتمًا إلى البيض، أو الزنوج، أو الهنود، أو الصينيين، أو اليابانيين؛ مكسيكيين.

تعليمات صدرت لموظَّفي تعداد ١٩٣٠ استُشهد بها في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ١٣-١١: احتجاج نشطاء إصلاح نظام الهجرة في واشنطن دي سي (مايو ٢٠١٠) © iStockphoto.com/rrodrickbeiler.

اشتمل النموذج الطويل لتعداد عام ٢٠٠٠ على ٤٦ سؤالًا إضافيًّا، وكان أقصر نموذج طويل منذ تعداد ١٩٤٠. وقد تغيَّر التعداد على مدار الزمن بطُرقٍ مختلفة للغاية. وكان يعكس نموَّ وتطور الأمة، واتجاهها نحو الغرب، واستيلاءها على أراضٍ جديدة بتهجير الأمريكيين الأصليين إلى محميات وأماكنَ موحشةٍ، ونمو مجتمعاتٍ سكانيةٍ جديدة، بما في ذلك استيعابها لمجموعاتٍ جديدة من المهاجرين من أوروبا في مطلع القرن العشرين (لمزيد من المعلومات عن التاريخ أو عن العرق والهجرة والقوانين، انظر

الموقع الإلكتروني لمشروع العرق http://www.understandingrace.org/history/ text_timeline.html#soc).

(٥) مشكلات تعداد عام ٢٠٠٠

يُمثل تعدادًا ٢٠٠٠ و٢٠١٠ مرحلةً جديدة من منهج الولايات المتحدة لإحصاء وتوثيق مواطنيها، لا سيما المواطنين الملوَّنين. كان تعداد عام ٢٠٠٠ يُرسَل بالبريد إلى جميع المنازل تقريبًا في عموم البلاد. غير أن ١٢ مليون أسرة «لم» تُرسِل المسح. ونتيجة لذلك، قام مكتب التعداد السكاني بتعيين أكثر من مليون موظَّف بنظام الدوام الجزئي لزيارة تلك الأسر. بلغَت تكلفة تعداد عام ٢٠٠٠ أكثر من ٤٫٥ مليارات دولار، وكان الإجمالي ٢٨١٤٢١٩٠٦ نسمة. كان ثمَّة تخوُّف من جانب العديد من جماعات الملوَّنين أن يُسجَّلوا بأقلَّ من أعدادهم في تلك السنة كثيرًا (خاصة الأمريكيين من أصول إسبانية، والسكان من المهاجرين الجدد، ومن لم تكن اللغة الإنجليزية لغتهم الأولى.) ثمة مشكلةٌ أخرى في تعداد عام ٢٠٠٠ وهي كيفية الاعتراف بالأعداد المتزايدة من الأشخاص المنحدرين من أصلَين أو أكثر من الأصول المعروفة في الولايات المتحدة؛ وقرَّرت الحكومة الفيدرالية أخيرًا إدراج مكانٍ في الوثيقة يستطيع فيه الناس كتابة أكثر مِن هويةٍ عرقيةٍ معروفة. وفي نهاية الأمر، كان المستفيدون من هذا الخيار يَزيدون قليلًا عن ٢ بالمائة من السكان. وما يلي من شأنه أن يُساعد قليلًا في توضيح كيف تعامَل التعداد السكاني مع الأصول المتعدِّدة على مدار الزمن.

(٦) سؤال الأعراق المتعددة

«لم تتغيَّر طريقة تصنيف الأشخاص ذوي الأصل المُختلط في فئات التعداد سوى مؤخرًا فقط.»

(٦-١) التصنيف في الخانات

قبل تعداد عام ٢٠٠٠، كان ينبغي تصنيف كل شخص بوصفه منتميًا لعرقٍ معين. وصدرت توجيهاتٌ مفصَّلة بشأن الكيفية التي ينبغي تصنيف شخص من أصلٍ مختلط بها. وفي التعدادات العديدة السابقة، كان بإمكان المشاركين في استبيان التعداد اختيار العرق الذي يَرغبون في تمييزهم به، ولكن ظلوا مقيَّدين بتسمية عرقٍ واحد فقط.

(٦-٢) «ضع علامة على واحد أو أكثر»

كان تعداد عام ٢٠٠٠ هو أول تعداد يُسمَح فيه للأشخاص بالاعتراف رسميًّا بجميع المصادر المعروفة أو المعتمَدة لأصلهم من خلال اختيار أكثر من فئةٍ عرقية. وقد اختار ما يقرب من ٦٫٨ ملايين شخص أكثر من عرق في تلك السنة.

(٦-٣) وقد حدَّدت تعليمات تعداد ١٩٣٠ الفئات التالية



شكل ١٣-١٢: يستطيع الأطفال في هذه الأسرة الآن اختيار كيفية تصنيفهم في التعداد السكاني
.© iStockphoto.com/RonTech2000

(١) «الزنوج»: أي شخص من دمٍ أبيضَ وزنجيٍّ مختلط ينبغي اعتباره زنجيًّا، مهما كانت نسبة الدم الزنجي لديه ضئيلةً. ويُعتبر الأشخاص المنتمون إلى السود والمولاتو على حدٍّ سواء زنوجًا بدون تمييز. أما الشخص ذو الدم الهندي والزنجي المختلط، فينبغي اعتباره زنجيًّا، ما لم يكن الدم الهندي هو السائد ووضع الهنود مقبولًا بشكلٍ عام في المجتمع.

(٢) «الهنود»: ينبغي اعتبار الشخص ذي الدم الأبيض والهندي المختلط هنديًّا، إلا إذا كانت نسبة الدم الهندي ضئيلة للغاية، أو إذا كان يُعتبر شخصًا أبيض من جانب من يعيشون معه في المجتمع الذي يعيش فيه.

(٣) «المكسيكيون»: ينتمي جميع العمال المكسيكيين، عمليًّا، إلى خليطٍ عرقيٍّ يَصعُب تصنيفه، على الرغم من أنهم عادة ما يكونون معروفين جيدًا في المناطق التي يسكنون فيها. ومن أجل الحصول على أرقامٍ منفصلة لهذه المجموعة العرقية، تقرَّر أنه ينبغي احتساب جميع الأشخاص الذين ولدوا في المكسيك، أو ولد أبواهم في المكسيك، ما داموا لا ينتمون حتمًا إلى البيض، أو الزنوج، أو الهنود، أو الصينيين، أو اليابانيين؛ مكسيكيين.

(٤) «الأعراق المختلطة الأخرى»: ينبغي تسجيل أي شخص من عرقٍ مختلط من البيض وغير البيض وفقًا للعرق غير الأبيض لأيٍّ من الأبوَين. أما الأشخاص ذوو الأعراق الملوَّنة المختلطة، فينبغي تسجيلهم وفقًا للعرق الذي ينتمي إليه الأب، عدا الهنود-الزنوج (معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).

(٦-٤) تعليمات تعداد ١٩٩٠

قم بملء دائرةٍ «واحدة» للعرق الذي يُعتبر الشخص نفسه منتميًا له.

(٧) سؤال الأعراق المتعددة: مع أم ضد؟

أشعلت التعديلات المُقترَحة لتعداد عام ٢٠٠٠ جدالًا بشأن كيفية تصنيف الأفراد ذوي الأصل المختلط، وكذا بشأن المنطق وراء السؤال الخاص بالعرق.

(٧-١) تعداد عام ٢٠٠٠ وحركة التعددية العرقية

في تسعينيات القرن العشرين، عملت إحدى الحركات الشعبية، التي تألَّفت بالأساس من آباء أطفالٍ متعدِّدي الأعراق، بنجاح على تغيير أسلوب جمع البيانات من أجل التعداد؛ دافعين بضرورة إضافة فئةٍ جديدة لذوي الأعراق المتعددة. ولكن العديد من قادة حركات الحقوق المدنية عارَضوا إضافة فئة لُمتعددي الأعراق، خوفًا من أن تُصعِّب جمع البيانات اللازمة لتطبيق قوانين مكافحة التمييز العنصري.

في النهاية، أقرَّ مكتب التعداد السكاني سؤالًا يُتيح للناس اختيار أكثر من فئة لوصف أصلهم. ولكن هذا الضغط من أجل التغيير أدَّى أيضًا إلى سؤالٍ أكثر جوهرية ألا وهو: هل يَنبغي أن يكون الغرض الأساسي لسؤال العرق في التعداد هو جمع البيانات اللازمة من أجل تعقُّب التمييز العنصري وإلغائه، أم أن الأهم هو السماح للناس بإثبات هويتهم؟

(٧-٢) ماذا يقول الناس؟

من الأشياء التي صارت تُثير حنقي أكثر وأكثر في السنوات الأخيرة كيفية تصنيف نفسي إثنيًّا أو عرقيًّا في نماذج الطلب والمسوح. فلديَّ مشكلة في تحديد ما إن كان عليَّ وضع علامة على خانة «أبيض» أم خانة «آسيوي»؛ لعدم رغبتي في إنكار أيٍّ من جانبي أصلي. ولكني أواجه صراعًا أكبر حين أضع علامة على خانة «عرقٌ آخر». فأنا لست «عرقًا آخر» ولم أكن أبدًا «عرقًا آخر». أريد أن أُعرَف بالشخص المختلط عرقيًّا الذي أنا عليه. حتى الآن، لم تُتح لي الفرصة لوضع علامة على خانة «ثنائي العرق» سوى مرةٍ واحدة.

كانديس ريا، مقتبَس في جاسكينز ١٩٩٩



شكل ١٣-١٣: كيمي أديمي (بتصريحٍ من متحف مينيسوتا للعلوم، كرايج ثيزن).

يحتاج الناس إلى مجموعات. ولكني الآن سوف أُؤيد وضع علامة على جميع الخانات التي تنطبق عليَّ. أعتقد أن أسوأ شيء يُمكن فعله هو إدراج فئة لمتعدِّدي الأعراق في التعداد؛ لأنك بذلك، في الواقع، ستكون داعمًا لنظام طالما بغضته طوال حياتك، نظام يَضغط عليك من أجل تصنيفك ضمن جماعةٍ ما؛ لذا

> أنت الآن لديك جماعة بالفعل، وتُصنَّف الآن ضمنها، ولكن بمَ سيُسهم ذلك في المشكلات العرقية في أمريكا؟ أكره أن أرى خلق المزيد من التقسيمات العرقية.
>
> مونينا دياز، مقتبس في جاسكينز، ١٩٩٩

> حين كنتُ طفلة، كان مَلءُ النماذج أمرًا قليل الحدوث، ولكنه كان حدثًا مُزعجًا. كنت أشعر بالقهر والحزن الشديد وأنا أُرغَم على الاختيار بين خانة الأبيض والأسود، وكنتُ أعتقد أنني الوحيدة التي عليها اتخاذ هذا الاختيار. عادة ما كنتُ أختار ما كان متوقَّعًا (أسود) وتمنيتُ ألا تضيع حقيقتي (أبيض). وفي الكلية، تعرَّضتُ إلى كثير من الأشخاص المختلفين بهوياتٍ مختلفة وأتيحت لي مساحة للتعبير عن تعقيد تجاربي الحياتية، مساحة للتوافُق مع مناقب «اختلاط العرق» بدلًا من التوافق مع مثالب محاولة [الانتماء] إلى خانةٍ واحدة على نحوٍ كامل.
>
> كيمي أديمي: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

ثمَّة مثالٌ آخر لنظرة الأمريكيين المُنحدِرين من أكثر من أصل إلى أنفسهم يُمكن أن نجده في عمل كيب فولبيك، وهو فنان وأستاذ بجامعة كاليفورنيا، سانتا باربرا. في مشروع هابا، يَبحث فولبيك في المقالات المصورة، الإرث الإثني المختلط للأشخاص المُنحدِرين من أصلٍ آسيوي أو سكان جزر المحيط الهادي الآسيويِّين وأصلٍ آخر.

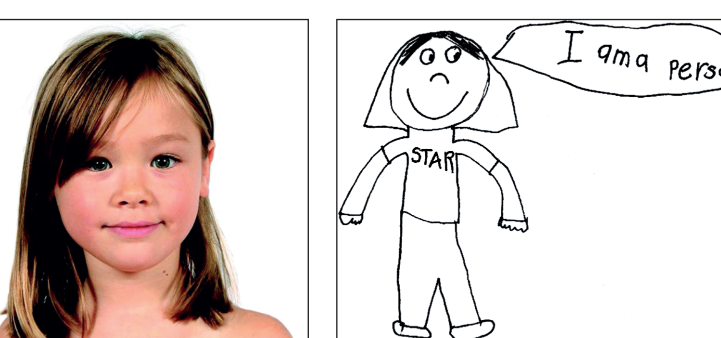
(٨) كيف كان تعداد ٢٠١٠ مختلفًا بالنسبة إلى إحصاء العرق؟

كان تعداد عام ٢٠١٠ مختلفًا عن التعدادات السابقة على عدة أصعدةٍ مهمة؛ فقد كان يتألَّف، بادئ ذي بدء، من نموذجٍ قصير فحسب. وكانت تلك أيضًا المرة الأولى منذ عام ١٩٤٠ التي يُستخدم فيها النموذج القصير. لماذا قرَّر مكتب التعداد السكاني الأمريكي استخدام النموذج القصير في عام ٢٠١٠؟ حدَث هذا، لأن النموذج الطويل الذي كان تاريخيًّا يُرسَل عبر البريد إلى عددٍ مختار من الأسر؛ قد حلَّ محله مسحٌ قوميٌّ جديد في عام ٢٠٠٧ يُسمى «مسح المجتمع الأمريكي». ومسح المجتمع الأمريكي هو عبارة عن مسحٍ مُتواصِل على مستوى البلاد صُمِّم لتوفير بياناتٍ ديموغرافية، وإسكانية، واجتماعية واقتصاديةٍ موثوقة ومحدَّثة أولًا بأول كل عام، وليس كل عشرة أعوام. وقد صمَّم

مسحُ المجتمع الأمريكي لتوفير صورةٍ أدقَّ ومُتواصلة للحياة في الولايات المتحدة (مكتب المراجع السكانية ٢٠٠٩: ١). ويُقدِّم مسح المجتمع الأمريكي، وفقًا لليندا جاكوبسن، نائب رئيس مكتب المَراجع السكانية للبرامج المحلية، بالفعل بياناتٍ غايةً في الأهمية للحكومات الفيدرالية والمحلية والهيئات غير الحكومية، بما في ذلك تعقُّب احتياجات الأطفال المُهاجِرين داخل البلاد ومن خارج البلاد. على سبيل المثال، ساهَم المسح في تحديد العدد اللازم من نماذج التعداد للإسبان الإنجليز ثُنائيِّي اللغة لتعداد عام ٢٠١٠. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتمُّ فيها توفير نماذج الإسبان الإنجليز للمنازل (مكتب المراجع السكانية، ٢٠٠٩: ١-٢). من جانبٍ آخر، تعرَّض مسح المجتمع الأمريكي إلى النقد؛ لاستخدامه حجم عينةٍ أصغرَ من التي يستخدمها التعداد التقليدي. ولكن حقيقة إمكانية توفير البيانات على نحوٍ مُنفصل وفقًا للفئة العمرية، والعرق، والأصل الإسباني، والنوع يُعتبَر ميزةً إضافية لصُناع السياسة والمشرِّعين. ويدَّعي مكتب التعداد أنه لا يوجد مصدر تعداد آخر سوف يُوفِّر مثل هذه المعلومات الاجتماعية، والاقتصادية، والإسكانية الوفيرة عن أفراد المجتمع الأمريكي أكثر مما سوف يَفعله مسح المجتمع الأمريكي على أساسٍ دائم (مكتب المراجع السكانية ٢٠٠٩: ١).

مشروع هابا: رؤية وتنفيذ كيب فولبيك

«ما ماهيتك؟» سؤالٌ شائع بين متعدِّدي الأعراق في دولة تُركِّز على تنظيم الفئات العرقية.





شكل ١٣-١٤: «أنا شخص». استُخدمت الصورة بإذن من كرونيكال بوكس إل إل سي، سان فرانسيسكو. زر موقع ChronicleBooks.com.



هاوائي، صيني، ألماني

I'm a grown man who just exposed my breasts to a complete stranger :)

شكل ١٣-١٥: «أنا رجلٌ ناضج كشفتُ عن صدري للتوِّ أمام شخصٍ غريب عني تمامًا.» استُخدمت الصورة بإذن من كرونيكال بوكس إل إل سي، سان فرانسيسكو. زر موقع ChronicleBooks.com.

هابا hapa: صفة. (١) عامية: من أصل إثني مختلَط وجذور تعود جزئيًّا إلى أصلٍ آسيوي و/أو سكان جزر المحيط الهادي. اسم. (٢) عامية: شخص من أصل كهذا [اللغة الهاوائية: hapa haole: (نصف أبيض)].

نشأتُ في لوس أنجلوس خلال سبعينيات القرن العشرين. والدتي وأربعة من أشقائها من الصين، وكذا أبناء خالاتي وأخوالي. أما والدي، فمن نيويورك، وهو ابن لمهاجرين من إنجلترا وأيرلندا. ويعدُّ هو وأنا الأفراد غير الصينيِّين الوحيدين في العائلة الممتدة.

كنتُ في المنزل الطفل «الأمريكي»؛ أي الذي لا يستطيع التحدُّث بالصينية، ولا يحب الطعام، ولا يستوعب الثقافة. ولكن عندما التحقتُ بالمدرسة، لم أكن أصنَّف كأبيض تمامًا. أُطلق عليَّ ألقابٌ وأسماءٌ عنصريةٌ عديدة غير لائقة. شعرت من نواحٍ عدة وكأنني لا أنتمي لأيٍّ من العالمين. إن الانتماء مُهم للجميع، ولكن له أهمية خاصة بالنسبة إلى الأطفال.

لم يكن أحد يتحدَّث آنذاك عن التعدُّدية العرقية. أذكر حين كُنا نملأ نماذج الاستمارات كان يُطلب منِّي تحديد عرقي بوضع علامة على «خانة واحدة فقط» لم يكن لذلك أي معنًى، سوى مطالبتي باختيار أمي فقط أو أبي فقط. لم يكن خيار وضع علامة على خانة «عرق آخر» أفضل بأي حال. فقد ساعَدني على معرفة أن هناك أشخاصًا آخرين لديهم نفس شعوري. وحتى الآن، حين تُناقَش مسألة التعددية العرقية، أجدها تُوضع على نحوٍ شبه دائم في إطار نموذج البيض والسود، تاركة الكثير منا خارج نطاق الحوار.

لقد بدأتُ «مشروع هابا» في عام ٢٠٠١، بالتقاط صور فوتوغرافية لأكثر من ١١٠٠ شخص ينحدرون جزئيًّا من سكان جزر المحيط الهادئ الآسيويين على مستوى البلاد. تم تصوير جميع المتطوِّعين بنفس الشكل: دون ملابس من عند الترقوة إلى أعلى، دون حُلي، أو نظارات، أو تجميلٍ مُفرط، أو تعبيرٍ متعمَّد. لقد أردتُ أن يبدو الناس كما هم. كان على كل مشترك الموافقة على صورته،

ثم كتابة إجابته الخاصة على سؤال «ما ماهيتك؟» بخطِّ اليد. فقد أردتُ أن أعزو القرار بالمشاركة في هذا الحوار إلينا. وبلغ المشروع أوج ازدهاره في أحد المعارض المتنقِّلة وفي كتاب «نصف آسيوي، ١٠٠٪ هابا»، وهو الكتاب الذي تمنَّيتُ لو اقتنيته وأنا طفل.

إن الهابا الآن بصدد اختراق الثقافة الشعبية، من كيانو ريفز، إلى تايجر وودز وصولًا إلى آن كوري، وميشيل برانش، وذا روك. يوجد الملايين منا، ولكن يظل الوعي بشأن الهابا عند الحد الأدنى على أقصى تقدير. أتمنى أن يساعد مشروعي في رفع درجة هذا الوعي (كيب فولبيك، فنان).[1]

(٩) أفريقيٌّ أم أمريكيٌّ أفريقي؟

«تضمُّ فئة «الأمريكيين الأفارقة» أشخاصًا من خلفياتٍ مختلفة تمامًا.»

(٩-١) الأمريكيون الأفارقة القدماء والجدد

حتى عهدٍ قريب، كان معظم الناس الذين يَعتبرون أنفسهم سودًا أو أمريكيين من أصلٍ أفريقي مُنحدِرين من أشخاصٍ مُستعبَدين. وعلى الرغم من كونهم مجتمعًا سكانيًّا متنوعًا، فقد جمعهم تاريخٌ مشترك. على مدار العقود العديدة الماضية، هاجر العديد من الأفارقة إلى الولايات المتحدة، حاملين معهم مجموعةً كبيرة من الثقافات، واللغات، والسجلات التاريخية. بالإضافة إلى ذلك، تختلف الكثير من خبراتهم في الولايات المتحدة عن خبرات الأمريكيين الأفارقة في ظلِّ امتلاك الأمريكيين الأفارقة تاريخًا عائليًّا في البلاد يمتد لمئات السنين.

لهذه الأسباب، تساءل المهاجرون الأفارقة والأمريكيون من أصلٍ أفريقي عما إذا كان تجميعهم معًا على التعداد سيكون له أي معنًى؟ من المحتمَل في السنوات القادمة أن يتعرض مكتب التعداد إلى ضغط للتفكير في هذا السؤال.

يقول مكتب التعداد الأمريكي إن فئاته العرقية «تعكس عمومًا تعريفًا اجتماعيًّا للأعراق المُعتمدة في هذا البلد. وهم لا يَسيرون وَفق أي معايير بيولوجية، أو أنثروبولوجية، أو وراثية.»

> إن كيفية تصنيف نفسي على التعداد مسألةٌ معقَّدة. ففضلًا عن حقيقة أن عائلتي قادمة من إثيوبيا، فإنهم لا يَعتبرون أنفسهم من السود أو الأمريكيين



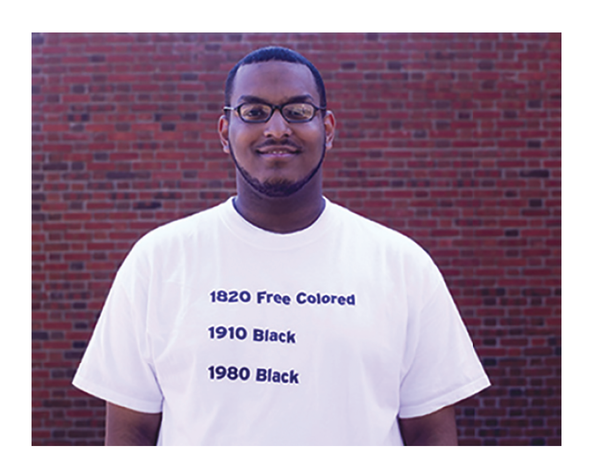
(أ) (ب) (ج)

شكل ١٣-١٦: أشخاص يُمثلون نطاقًا واسعًا من الثقافات، والديانات، والتآريخ، والأشكال الجسمانية يُصنَّفون معًا ضمن فئة «السود، أو الأمريكيين الأفارقة، أو الزنوج» في التعداد (بتصريحٍ من (أ) ماري بيجمان. (ب) iStockphoto.com/keeweeboy ©. (ج) كريس ماكجريفي).

الأفارقة؛ ومن ثم يُصنِّف أغلب أفراد عائلتي أنفسهم ﻛ «عرقٍ آخر» على التعداد، ثم يُكتبون «إثيوبيين». أما أنا، فنظرًا لأنني نشأتُ في الولايات المتحدة، فقد صُنِّفتُ كأشياءَ عديدة. يتساءل الناس عما إذا كنتُ شرقَ أوسطيٍّ، أم هنديًّا، أم من الكاريبي، أم ثنائي العرق، أم مزيجًا من أيٍّ من هذه الأمم/الأعراق، بناءً على شكلي. والآن وبعد أن ذكرتُ ذلك، فأنا أُصنِّف نفسي كأمريكيٍّ أفريقي؛ لأنني أشعر أنني كذلك؛ شخصٌ من أصلٍ أفريقي ولد ونشأ في الولايات المتحدة. ولكن عائلتي وآخرين كثيرين غيرهم هنا في الولايات المتحدة (حتى الأمريكيين الأفارقة) قد لا يتَّفقون معي في الرأي بالضرورة.

تينبت إرمياس، من تواصُلٍ شخصي مع سارة إلزي،
متحف مينيسوتا للعلوم، يوليو ٢٠٠٦

كما ذكرنا في موضعٍ سابق في هذا الفصل، كان يوجد أيضًا مجموعة من المشكلات بشأن العرق والتعداد مؤجَّلة من تعداد عام ٢٠٠٠ لزم مواجهتها. كان أولها مشكلة انخفاض التمثيل أو إحصاء الأقليات بأقل من أعدادها عمومًا. فقد كانت جماعات سكان المحيط الهادئ الآسيويون، والأمريكيون الأفارقة، وذوو الأصول الإسبانية متخوِّفين من عدم الوصول الشامل إلى هذه المجتمعات لضمان تلبية احتياجاتها. ولتهدئة هذا التخوف، أنفق مكتب التعداد السكاني ملايين الدولارات من أجل الوصول إلى المجتمعات الإثنية القديمة والحديثة، المحلية والمُهاجرة على حدٍّ سواء. على سبيل المثال، أنشأ المكتب «مجموعة أدوات جاهزة» مصمَّمة لاستخدامها من قِبَل مجموعات توعيةٍ خاصة تُسمى «لجان الإحصاء الكامل». صُمِّمت هذه الأدوات لاكتساب القدرة على تخصيص الرسالة لتتلاءم مع المجتمعات المتنوِّعة المختلفة من أجل حث الناس على ملء نماذج التعداد خاصتهم (النموذج القصير) وإرسالها عبر البريد (التعداد الأمريكي لعام ٢٠١٠: ص١–٤).



شكل ١٣-١٧: تينبت إرمياس (بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم، كرايج ثيزن).

في مثالٍ آخر، تعاون مكتب الإحصاء مع مجموعة قنوات «تليموندو» التليفزيونية الدولية الناطقة بالإسبانية، التي تصل إلى أكثر من مليون شخصٍ ناطق بالإسبانية كل ليلة في الولايات المتحدة؛ للترويج لتعداد ٢٠١٠ في واحد من أشهر مسلسلاتها التليفزيونية «ذا ديفل نوز بست» (مونتجمري ٢٠٠٩: ١–٣). في مثالٍ آخر، عقَد المكتب، في إطار

سعيه للوصول إلى الأمريكيين الأصليين الذين يتم إحصاؤهم بأعدادٍ أقلَّ من أعدادهم على نحوٍ روتيني ومزمن، شراكة مع جماعات مثل المؤتمر الوطني للأمريكيين الهنود. كان ذلك نهجًا للتعاون بين مؤسستين حكوميتَين؛ حيث قام مندوبون من مكتب التعداد بتقديم عروض إلى ٥٦٤ قبيلة معترفًا بها فيدراليًّا، وطلبوا السماح لهم بإجراء عمليات تعدادٍ على الأراضي القبَلية. وفي مقال كُتب في مايو ٢٠١٠، يُقدر جريج جوديل أنه من خلال جهود توصيل خدمات التعداد على نحوٍ شامل، رفَعت قبائل تولاليب وحدها معدَّل إرسال نماذج التعداد المملوءة بالبريد إلى ٧٠ بالمائة، حتى قبل وصول موظَّفي التعداد إلى هناك. ويأتي ذلك على عكس ما حدث في تعداد عام ٢٠٠٠؛ حيث بلَغ معدَّل الإرسال النهائي ٥٤ بالمائة فقط بين القبائل (جوديل ٢٠١٠: ١٠٢).

نقلَت الحكومة الأمريكية أهمية جمع بيانات تعداد عام ٢٠١٠ إلى قطاعٍ عريض من الجماعات المشمولة في التعداد. وساقت الحكومة الأسباب التالية لتبرير الحاجة إلى معلومات التعداد: (١) الحاجة إلى معرفة كيفية تخصيص ما يزيد على ٤٠٠ مليار دولار للولايات والمجتمعات. (٢) الحاجة إلى معرفة كيفية تخصيص الموارد للمساكن، والطُّرق، والبرامج التعليمية الجديدة. (٣) الحاجة إلى جمع البيانات لاستخدامها من قِبَل صُناع القرار وصناع السياسات الأمريكيين الأصليين عند التقدم للحصول على منح ووضع خطط العمل لإنشاء مجموعةٍ جديدة من الطُّرق، والمساكن، والمستشفيات، ودور رعاية الأطفال والمسنين، والمدارس، وغير ذلك المزيد (مكتب التعداد السكاني الأمريكي ٢٠٠٩). وهكذا كان للتركيز على استخدام بيانات التعداد المجمَّعة لمساعَدة المجتمعات التي كانت محرومة مردودٌ إيجابي.

(٩-٢) التعداد ومجتمَعات المثليين، ومُزدوَجي الميول الجنسية، والمتحوِّلين جنسيًّا

لأول مرة في تاريخ التعداد السكاني، بذَل مكتب التعداد جهدًا منظَّمًا للوصول إلى جميع مجتمعات المثليين، ومُزدوَجي الميول الجنسية، والمتحوِّلين جنسيًّا في الولايات المتحدة، لا سيما مجتمعات المثليين ومُزدوَجي الميول الجنسية والمتحوِّلين الملوَّنين. على سبيل المثال، في مجتمع الأمريكيين ذوي الأصول اللاتينية، ساعَدت مؤسسة «اتحاد مساواة اللاتينيين»، و«صندوق الدفاع القانوني والتعليمي الأمريكي المكسيكي» على إثارة القضية. كذلك كانت منظمة «الاتحاد القومي لسكان جزر المحيط الهادئ الآسيويين الشواذ» و«اتحاد حركات

فخر السود» من المنظمات التي تعاونت مع مكتب التعداد السكاني لإحصاء عناصرها ضمن تعداد ٢٠١٠. فقد أرادت جميع هذه المنظَّمات أن يتم إحصاء الأشخاص في دوائرها بغرض الحصول على موارد لهم ولعائلاتهم. وعلى حسب تعبير ماثيو ألدر بصندوق الدفاع القانوني والتعليمي الأمريكي المكسيكي: «يُشكل التعداد أهميةً قصوى لمجتمعات الملوَّنين والمهاجرين، لا سيما اللاتينيِّين. فغالبًا ما يكون القابعون في مُفترَق مجتمعات الأقلية مثل مثليِّي الجنس ومُزدوَجي الميول الجنسية والمتحوِّلين جنسيًّا الملوَّنين هم أكثر من يفتقرون إلى التوثيق؛ ومن ثم الأقل استفادة من الموارد المخصَّصة من قِبَل مكتب التعداد» («عائلاتنا مهمة» ٢٠١٠). ويعكس بنجامين ديجوزمان بالاتحاد القومي لسكان جزر المحيط الهادئ الآسيويين الشواذِّ نفس الآراء في قوله: «إنها لحظةٌ فارقة لمكتب التعداد، تلك التي يصل فيها إلى مجتمعاتنا. فعلى الرغم من التوتُّر المتصاعد الذي تخلقه القوانين الجديدة في أريزونا لدى المهاجرين وأي شخص قد تعتقد سلطات الولاية أنه «يبدو كمهاجرٍ شرعي»، فإننا بحاجة إلى الاستجابة إلى عمليات التعداد وأن يتمَّ إحصاؤنا أكثر من أي وقت مضى» («عائلاتنا مهمة» ٢٠١٠).

(٩-٣) القلق بشأن المشرَّدين والعمال غير الموثقين

قام التعداد فقط بإحصاء مَن كانوا موجودين بالبلاد خلال الأسابيع حول يوم ١ أبريل عام ٢٠١٠ الذي يوافق اليوم الوطني للتعداد. ويقوم التعداد بحصر الأشخاص الموجودين في المنازل، وليس المواطنين بالضرورة. بعبارةٍ أخرى، لا يوجد ما يقضي بأن يكون لديك إقامة دائمة أو لك وضع قانوني كمُواطنٍ أمريكي لكي يتم إحصاؤك. وغالبًا ما كان موظَّفو التعداد يجدون صعوبة خلال السنوات الماضية في العثور على أشخاص لإحصائهم يَخشون أو لا يُريدون إحصاءهم. على الجانب الآخر، يوجد أولئك الذين يعتقدون أن ولايات مثل كاليفورنيا تنتهك الدستور بإحصاء أشخاص سوف يكون من شأنهم منح الولاية مَقاعدَ إضافيةً بناءً على أشخاصٍ ليسوا مواطنين أمريكيين. فمنذ عام ١٩٨٠، لا يُميِّز التعدادُ المواطنين عن أولئك الموجودين على نحوٍ غير شرعي. ويتحدث بيكر وستونسايفر (٢٠٠٩) بأساليبَ محدَّدة للغاية عن كيفية استفادة ولاية مثل كاليفورنيا، ربما عن غير استحقاق. فيُشيران إلى أنه «وفقًا لأحدث مسح للمجتمع الأمريكي، تضمُّ كاليفورنيا ٥٦٢٢٤٢٢ شخصًا مقيمين، غير مواطنين، بين سكانها البالغ عددهم ٣٦٢٦٤٤٦٧ نسمة. وبناءً على تقديرنا التقريبي لعدد السكان في تلك الولاية

بنهاية العقد، والذي يصل إلى ٣٧ مليون (منهم ٥٧٥٠٠٠٠ غير مواطنين) فقد انحرف مكتب التعداد بعيدًا عن جذوره الدستورية، وسوف يسفر تعداد ٢٠١٠ عن ترتيبٍ خاطئ للأوضاع في الكونجرس» (بيكر وستونسايفر ٢٠٠٩: ١-٢).

(١٠) مشكلاتٌ لغوية: من يدخل ضمنَ التعداد وماذا يطلق عليه؟

ثمة العديد من المشكلات المتعلِّقة باللغة وبالهُوية أثارها تعداد ٢٠١٠، من بين هذه المشكلات الجدل حول استخدام كلمة «زنجي». كان لدى البعض تخوف من استخدام تعداد ٢٠١٠ لكلمة «زنجي» إلى جانب كلمتي «أسود»، و«أمريكي أفريقي». وكما أشرنا سابقًا في هذا الفصل، كانت المُصطَلحات العرقية تُستخدم على نحوٍ غاية في المرونة والتغيُّر في التعداد السكاني الأمريكي، وكان التعداد السكاني على مستوًى ما يُعدُّ انعكاسًا لقيم وتقاليد المجتمع الأمريكي، لا سيما المرتبطة بالعرق، والإثنية، والهوية، والمكانة الاجتماعية في أيِّ مرحلة معيَّنة من الزمن في تاريخ الأمة. في عام ١٩٦٠ لم يحتوِ التعداد على كلمة أسود؛ إذ لم تُستخدم سوى كلمة زنجي. في تلك الفترة من التاريخ، كان العديد من الأمريكيين الأفارقة يُعرَّفون ﻛ «زنوج». وبحلول عام ١٩٧٠ كان يمكن وضع علامة على خانة «زنجي» أو «أسود». وكان هذا أول ظهور لكلمة «أسود» في التعداد منذ عام ١٩٢٠. ولم يكن واضحًا لمَ استُخدمت كلمة أسود في عام ١٩٢٠؟ وفي عام ١٩٨٠ تغير الترتيب لتُصبح خانة «أسود» أولًا يليها «زنجي». وفي عام ٢٠٠٠، سُمح للناس باستخدام أكثر من مجموعة عرقية على نموذج التعداد لأول مرة.

(١١) إحصاء الأصول الهسبانية واللاتينية

«في عام ١٩٧٠ أضيف سؤال عن الإثنية الهسبانية إلى التعداد الأمريكي.»

(١١-١) الحاجة

للاطمئنان على أن التشريع الاجتماعي كان يعمل على نحوٍ فعَّال في الستينيات، كان على الحكومة الفيدرالية جمع بياناتٍ موثوقة عن مجموعات الأشخاص التي تستهدف القوانينُ

مساعدتهم؛ من بينهم الهسبان الأمريكيون (أي المُنحدرين من شبه الجزيرة الأيبيرية التي تضمُّ كلًّا من إسبانيا والبرتغال). على سبيل المثال، استَخدمت برامج التمييز الإيجابي إحصاءات عن عدد العاملين المُنتمِين إلى الأقليات في مجتمعٍ ما لتحديد ما إذا كانت جميع الجماعات تحصل على نصيبٍ متساوٍ من فرص التوظيف.

(١١-٢) إضافة السؤال

منذ أواخر الستينيات وحتى السبعينيات، عمل القادة الأمريكيون المكسيكيون على إضافة سؤال عن العرق الهسباني إلى التعداد. في البداية، رفَض مكتب التعداد الفكرة؛ لأن مصطلح الإثنية الهسبانية بدا شخصيًّا للغاية. ولكن أضيف سؤالٌ عن الإثنية إلى بعض نماذج تعداد ١٩٧٠، وبعد عشر سنوات ظهر واحد على جميع استبيانات تعداد ١٩٨٠. أما بالنسبة إلى تعداد ٢٠٠٠، فقد توسع السؤال ليشمل مصطلح الأصل اللاتيني.

(١١-٣) إثنية، وليس عرقًا



شكل ١٣-١٨: جيسيكا ماسترسون (بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم، كرايج ثيزن).

وفقًا لمكتب التعداد، يُعدُّ الأصل الهسباني واللاتيني مسمياتٍ إثنية، وأولئك الذين يعرِّفون أنفسهم كهسبان يُمكن أن ينتموا إلى أي عرق. والفارق بين الإثنية والعرق غير واضح لكثيرين. فثمة عدد ممَّن يَختارون «هسباني» كإجابة عن سؤال الإثنية في استبيان التعداد يَختارون «عرقًا آخر»، بينما يَملئون خانة «الهسبان»، أو «لاتيني»، أو «شيكانو» (وهو مُسمًّى للأمريكي المكسيكي)، أو اسم دولةٍ أمريكيةٍ لاتينية عند الإجابة عن سؤال العرق.

جعل القادة الهسبان موظفي التعداد الأصليين ثنائيي اللغة يعملون في الأحياء الهسبانية. ودفعوا الحكومة إلى تعيين غرباءٍ كموظَّفي تعداد مؤقَّتين، كما حصَلوا على تعهداتٍ حكومية من مسئولين فيدراليِّين رفيعي المستوى بأن هيئة خدمات الهجرة والتجنيس لن تشنَّ حملات على أحياء الإسبان بينما لا يزال التعداد جاريًا (كولدين ١٩٨٦).

لديَّ كراهيةٌ شديدة لمصطلح «هسباني»؛ لكونه يدلُّ ضمنًا على وجود صلة بإسبانيا التي لا تنتمي إليها عائلتي بالمرة. بالطبع كانت اللغة التي نتحدث بها لغتهم في الأساس، ولكن بمرور الوقت أعتقد أنها قد تطوَّرت لتُصبح أكبر بكثير من لغة المُضطهَدين. لقد صارت لغتنا نحن. وقطعًا أُفضِّل كلمة «لاتيني» عند الحديث عن الأشخاص الذين تعود أصولهم إلى أمريكا اللاتينية (جيسيكا ماسترسون، من تواصلٍ شخصي مع سارة إلزي، متحف مينيسوتا للعلوم، يوليو ٢٠٠٦).

أما المشكلة الكبيرة الثانية المتعلقة باللغة، وهي أيضًا مشكلة في تعداد عام ٢٠٠٠، فتمثَّلت في كيفية إحصاء الهسبان. فعلى الرغم من تاريخ الهسبان الطويل في الإقامة في الولايات المتحدة، لم يُبذَل جهد منهجي لإحصاء هذه المجموعة على نحوٍ منفصل في التعداد حتى أواخر القرن العشرين. يُشكِّل الأمريكيون الهسبان ١٦ بالمائة أو ٤٨ مليون من المقيمين في الولايات المتحدة اليوم، ويُشكِّلون أكبر أقليات البلاد. وكان قد تمَّ إدراج «المكسيكيين» كعرق مرةً واحدة في تعداد ١٩٣٠. فقد كان مسجلو التعداد يُعرِّفون الناس على أساس العرق على نماذج التعداد حتى ما قبل عام ١٩٧٠. غير أنه في عام ١٩٧٠، سُمح للمقيمين بتعريف بأنفسهم، أو تحديد هويتهم العرقية ذاتيًّا، على نموذج التعداد، دون ترك المهمة لموظف التعداد. وقد مثَّلت صياغة السؤال المتعلق بالهوية الهسبانية أو اللاتينية إشكالية. فكانت مُحيِّرة للغاية على نحوٍ واضح للجميع، وليس فقط للهسبان. في عام ١٩٨٠ تم نقل السؤال الخاص بالهوية الهسبانية إلى النموذج القصير وأُعيدت

صياغته. وفي تعداد عام ١٩٨٠، جرى حصر ١٤٫٦ مليون هسباني/لاتيني واعتَبره مكتب التعداد ناجحًا نوعًا ما. في عام ١٩٩٠، كان السؤال الخاص بالأصل الهسباني شبه مطابق لسؤال ١٩٨٠ وأحصى أكثر من ٢٢ مليون هسباني. غير أن نموذج هذا التعداد احتوى على سطر أقحم لتحديد أصول «إسبانية/هسبانية أخرى». كذلك اختصر النموذج مُسمَّى فئة المكسيكيِّين الأمريكيين من Mexican Amer إلى Mexican Am، مما ساعد على التعامل مع مشكلة قيام غير الهسبان بالإجابة عن الجزء الخاص بالأمريكيين في نموذج التعداد.

حصر تعداد ٢٠٠٠ أكثر من ٣٥ مليون هسباني، وشهد بعض التعديلات في البند الخاص بالأصل الهسباني. فأُضيفت كلمة «من أصل لاتيني»، وبذلك صارت صياغة السؤال على نموذج التعداد: «هل الشخص إسباني/هسباني/أمريكي لاتيني؟» وكان السؤال الخاص بالأصل الإسباني سابقًا على سؤال العرق، وكان الناس يُنصَحون بالإجابة على «كلا» السؤالين. وكان مطلوبًا من الأشخاص وضع علامة على خانة «لا» إذا لم يكن الشخص «إسبانيًّا/هسبانيًّا/لاتينيًّا».

شهد تعداد ٢٠١٠ تعديلَين آخرَين. فقد جاء ترتيب المصطلح مختلفًا. فجاء ترتيب كلمة «إسباني» الثالث بعد أن كان الأول، إلى جانب إضافة كلمة «أصل». وتمَّ تعديل صيغة فئات الإجابة لتعكس صيغة الأسئلة. ففي مقدمة السؤال، يُوجَّه المستطلعون إلى الإجابة عن «كل» من بند الأصل الإسباني «و» العرق، وتحديدهما بالاسم وليس مجرد ترقيمهما. كذلك نصَّت التعليمات على أن «الأصول الهسبانية ليست أعراقًا.» وأخيرًا حُذفت التعليمات الخاصة بـ «ضع علامة على خانة «لا»، إذا لم تكن هسبانيًّا.» وسوف نُضطر إلى الانتظار لنرى تأثيرًا لهذه التغيرات، إن وُجد أي تأثير (انظر شكل ١٣-١٩ لتُلقي نظرة على الأسئلة التي وردت في النموذج القصير بتعداد ٢٠١٠).

(١٢) هل حالف النجاح تعداد ٢٠١٠ في قضايا توثيق العرق؟

تفترض مبادرة «الأعراق البشرية: هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟» أن مفهوم العرق ليس حقيقيًّا من الناحية البيولوجية ولكنه حقيقي للغاية كمفهومٍ اجتماعي وثقافي. وهدفنا كعلماء أنثروبولوجيا هو التأكُّد من إدراك طلابنا وعامة الناس لمدى التغير

تعداد الولايات المتحدة ٢٠١٠

هذا هو النموذج الرسمي لجميع الأشخاص القاطنين في هذا العنوان. إنه سريع وسهل، وإجاباتك محمية بموجب القانون.

وزارة التجارة الأمريكية
إدارة الاقتصاد والإحصاء
مكتب التعداد السكاني الأمريكي

استخدم قلمًا أزرق أو أسود.

ابدأ من هنا

ينبغي أن يَحصر التعداد كل شخص يعيش في الولايات المتحدة في ١ أبريل ٢٠١٠.

قبل الإجابة عن السؤال ١، قم بإحصاء الأشخاص المقيمين في هذا المنزل، أو الشقة، أو البيت المتنقِّل مستعينًا بإرشاداتنا.

- قم بحصر جميع الأشخاص، بمن فيهم الرضَّع، الذين يقيمون ويبيتون هنا لمعظم الوقت.

يقوم مكتب التعداد أيضًا بعمليات حصر في المؤسسات والمواقع الأخرى، لذا:

- لا تُحص أي شخص يقيم بعيدًا سواء للدراسة في الكلية أو لأداء الخدمة العسكرية.
- لاتُحص أي شخص موجود في دار للرعاية، أو في سجن أو مُعتقَل، أو مرفق احتجاز ... إلخ، في ١ أبريل ٢٠١٠.
- استبعد هؤلاء الأشخاص من نموذج التعداد، حتى إن كانوا سيعودون للإقامة هنا بعد مغادرة الكلية، أو دار الرعاية، أو الخدمة العسكرية، أو السجن ... إلخ، وإلا تمَّ حصرهم مرتين.

لا بد أن يُدرج مكتب التعداد أيضًا الأشخاص بلا مقرٍّ إقامة دائم، لذا:

- إذا كان ثمَّة شخص ليس لديه مقرُّ إقامة دائم مقيمًا هنا في ١ أبريل ٢٠١٠، فيتمُّ حصر هذا الشخص. وإلا قد يُغفل في التعداد.

١. كم عدد الأشخاص الذين كانوا يقطنون أو يقيمون في هذا المنزل، أو الشقة، أو البيت المتنقل في ١ أبريل ٢٠١٠؟

عدد الأشخاص = ☐☐

٢. هل كان ثمة أي أشخاص إضافيِّين يُقيمون هنا في ١ أبريل ٢٠١٠ لم تدرجهم في السؤال رقم ١؟

ضع علامة ☒ على كل ما ينطبق مما يلي.

☐ الأطفال، مثل الرضَّع حديثي الولادة، أو الأطفال بالتبني
☐ الأقارب، مثل الأبناء البالغين، أو أولاد العمومة أو الأصهار
☐ غير الأقارب، مثل رفقاء الغرفة، أو مربيات الأطفال المقيمات
☐ الأشخاص المقيمون هنا بصفة مؤقتة
☐ لا يوجد أشخاص إضافيون

٣. هل هذا المنزل، أو الشقة، أو البيت المتنقل — ضع علامة ☒ في خانة واحدة مما يلي.

☐ مملوكًا لك أو لشخصٍ داخل هذا المنزل بموجب رهن عقاري أو قرض؟ أدرج قروض الأصل العقاري.
☐ مملوكًا لك أو لشخص في هذا المنزل ملكية خالصة (أي بدون رهن عقاري أو قرض)؟
☐ مؤجرًا؟
☐ مأهولًا بدون دفع إيجار؟

٤. ما هو رقم هاتفك؟ قد نتَّصل بك حال عدم فهم أي إجابة.

كود المنطقة + الرقم

☐☐☐ – ☐☐☐ – ☐☐☐☐

مكتب الإدارة والموازنة رقم ٠٩١٩-٠٦٠٧-سي: تاريخ انتهاء الاعتماد ٢٠١١/١٢/٣١.

نموذج **دي-٦١**، ١-١٥-٢٠٠٩

٥. برجاء الإدلاء بمعلومات عن كل شخص قاطن هنا. ابدأ بشخصٍ يعيش في هذا المنزل، أو الشقة، أو البيت المُتنقِّل ويَمتلكه أو يستأجره. إذا كان المالك أو المستأجر يعيش في مكان آخر، ابدأ باي شخص بالغ يعيش هنا. سوف يكون هذا الشخص رقم ١.

ما اسم الشخص رقم ١؟ اكتب الاسم أدناه.

لقب العائلة ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐

الاسم الأول ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ الاسم الأوسط ☐

٦. ما نوع الشخص رقم ١؟ ضع علامة ☒ في خانة واحدة.

☐ ذكر ☐ أنثى

٧. ما عمر الشخص رقم ١ وما تاريخ ميلاد الشخص رقم ١؟

برجاء كتابة صفر في خانة السن بالنسبة للأطفال إذا كان الطفل أقل من عام.

اكتب الأرقام في الخانات.

السن في ١ أبريل ٢٠١٠ ☐☐☐ شهر ☐☐ يوم ☐☐ سنة الميلاد ☐☐☐☐

← **ملحوظة: برجاء الإجابة على «كلٍّ من» السؤال رقم ٨ عن الأصل الهسباني والسؤال رقم ٩ عن العرق. هذا التعداد لا يَعتبر الأصول الهسبانية أعراقًا.**

٨. هل الشخص رقم ١ من أصل هسباني، أو لاتيني، أو إسباني؟

☐ **لا**، ليس من أصل هسباني أو لاتيني أو إسباني ☐ نعم، بورتريكي

☐ نعم، مكسيكي، مكسيكي أمريكي، شيكانو ☐ نعم، كوبي

☐ نعم، من أصل هسباني أو لاتيني أو إسباني آخر — اكتب الأصل، على سبيل المثال، أرجنتيني، كولومبي، دومينيكي، نيكاراجوي، سلفادوري، إسباني، وهكذا. ↘

☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐

٩. ما العرق الذي يَنتمي إليه الشخص رقم ١؟ ضع علامة ☒ في خانة واحدة أو أكثر.

☐ أبيض ☐ أسود، أمريكي أفريقي، أو زنجي

☐ هندي أمريكي أو من سكان ألاسكا الأصليين — اكتب اسم القبيلة المسجَّلة أو الرئيسة. ↘

☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐

☐ هندي آسيوي ☐ ياباني ☐ من سكان هاواي الأصليين ☐ صيني ☐ كوري

☐ جوامي أو شامورو ☐ فلبيني ☐ فيتنامي ☐ ساموي

☐ من بلد آسيوي آخر — اكتب العرق، على سبيل المثال، همونجي، لاوسي، تايلاندي، باكستاني، كمبودي، وهكذا. ↘

☐ من جزيرة أخرى من جزر المحيط الهادئ — اكتب العرق، على سبيل المثال، فيجي، تونجي، وهكذا. ↘

☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐

☐ عرق آخر — اكتب العرق. ↘

☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐

١٠. هل يعيش الشخص الرقم ١ أو يقيم أحيانًا في مكان آخر؟

☐ لا ☐ نعم — ضع علامة ☒ أمام كل ما ينطبق مما يلي.

☐ في سكن جامعي ☐ في مسكن موسمي، أو مسكن ثانٍ ☐ في السجن أو المعتقل ☐ لسبب آخر

☐ في الخدمة العسكرية ☐ بسبب حضانة الأطفال ☐ في دار للرعاية

← **إذا تمَّ حصر مزيد من الأشخاص في السؤال رقم ١، تتبع البيانات مع الشخص رقم ٢.**

مكتب التعداد السكاني الأمريكي

شكل ١٣-١٩: استبيان مكتب التعداد السكاني الأمريكي لعام ٢٠١٠ (بتصريح من مكتب التعداد السكاني الأمريكي).

الذي طرأ على هذا المفهوم المرن عبر الزمن، وأنه خاضع للتغير اليوم أيضًا. ثمة علماء أنثروبولوجيا وعلماءُ آخرون يعتقدون أن أسئلة العرق في نماذج التعداد الأمريكي لعامي ٢٠٠٠ و٢٠١٠ مزعجة، وغير دقيقة، وغير وافية؛ خاصة في ارتباطها برصد خبرات الأشخاص ذوي الأصل المُختلَط. على سبيل المثال، انظر كتاب كيم ويليام: «ضع علامة في خانةٍ واحدة أو أكثر: الحقوق المدنية في أمريكا متعددة الثقافات» (٢٠٠٦). يُؤرِّخ هذا الكتاب الشائق للحركة الشعبية السياسية التي أسفرت عن إجازة تعداد ٢٠٠٠ للأمريكيين، لأول مرة على الإطلاق، تسجيل أكثر من هُوية.

الأمر الأكثر إزعاجًا لنا كعلماء وإنسانيين هو الأسئلة التالية: (١) من الذي يُقرر ما يوضع في نماذج التعداد؟ (٢) ما مدى جدوى بيانات التعداد بالنسبة إلى توثيق نبض الأمة، بتحديد الناس لهويتهم بأنفسهم؟ لقد أمضينا ساعات وساعات في النقاش والحوار والجدل بشأن هذه القضية بين أعضاء المجلس الاستشاري لمشروعنا بينما كنا نَعكُف على تجميع المعرض، والموقع الإلكتروني، ومواد التدريس معًا. وفي النهاية، قمنا أخيرًا بتوثيق الحقائق التي توضح أن الناس في الولايات المتحدة قد نزحوا وعاشوا خارج إطار هذه الفئات الثابتة الجامدة للهوية التي نجدها على نماذج التعداد الحالية. والأمر يرجع إلى الحكومة (بمساعدة الشعب) في تحديد كيفية رصد تلك التغيرات وأساليب التفكير وأساليب الحديث الجديدة بشأن «العرق».

يُتاح لزوار المعرض أيضًا فرصة الإدلاء بآرائهم بشأن مُستقبَل التعداد الأمريكي. فهم يُطالَبون بالتفكير في أربعة خيارات: (١) «البقاء على المسار» — أي الاستمرار في استخدام الفئات العرقية المستخدمة حاليًّا. (٢) «التبسيط» — أي استخدام فئاتٍ أقل وإدراجها في قائمة وفق ترتيبٍ أبجدي. (٣) «اجعلها على طريقتك» — أي السماح لكل شخص بتحديد فئاته الخاصة. (٤) «عدم وضع أي سؤال على الإطلاق» — أي حذف سؤال العرق من التعداد الأمريكي تمامًا. ما الخيار الأفضل في اعتقادك؟

يعتقد كين برويت، أحد أعضاء المجلس الاستشاري لمشروع العرق والمدير السابق لمكتب التعداد الأمريكي، أن أسئلة العرق على تعداد ٢٠١٠ لا تزال «منقوصة»، خاصة فيما يتعلق بسؤال العرق والإثنية الهسبانية. وبينما يعترف بالحاجة إلى جمع بيانات التعداد وفقًا للعرق والإثنية من أجل تسليط الضوء على الفروق والتمييز القائم على اللون، أو الأصل، أو وضع الهجرة؛ يشير إلى ضرورة أن يتم هذا بمزيد من الحرص.

فيقول: «[لو] أن نموذج التعداد يطرح سؤال «ما الأصل القومي، أو الإثنية، أو القبيلة، أو المجموعة اللُّغوية، أو الأصل الذي تَعتبِر نفسك منتميًا إليه؟» (ويُدرج كل الفئات التي تُهمك في هذا الإطار)، لترَكنا الشعب الأمريكي يتحدث عن نفسه» (برويت ٢٠١٠). وكان هذا، بحسب برويت، ليخرج التعداد في النهاية من الهرمية العرقية التي وُضعت في مسح عام ١٧٩٠. بل إنه يذهب إلى أنه كان لَينأى بنا عن استخدام مصطلح «العرق» ذاته ويُتيح للناس تحديد هُوياتهم بأنفسهم، ويُتيح للناس في النهاية ادعاء هوياتهم المتعددة. ويمضي في حديثه قائلًا:

> إن هذا السؤال لا يفترض أن إثيوبيًّا وصل مؤخرًا ينتمي إلى نفس العرق (الاجتماعي) الذي ينتمي إليه الجيل العاشر من سلالة العبيد القادمين من ساحل الذهب في أفريقيا. ولا يَضع الجيل الخامس من الأمريكيين الصينيين في نفس الخانة مع الجيل الأول من الفيتناميين. ولا يَحتسب أرجنتينيًّا يتحدث الإنجليزية فقط مثلما يتعامل مع مُهاجر ماياني.
>
> برويت ٢٠١٠

لسوء الحظ، فهو لا يعتقد أنَّ الكونجرس الحالي أو البيت الأبيض تحت إدارة أوباما سوف يتوسَّطان لإجراء نقاشٍ جادٍّ أو حوارٍ وطني في هذا الوقت. وبينما قد لا يكون لدى الحكومة الإرادة السياسية لتبنِّي هذا التحدي، فإنه يضع على عاتق الجامعات، والباحثين، والإعلام، والمنظمات التوعوية، والمثقفين من العامة مسئولية الضغط من أجل إجراء هذه التغييرات.

ويتَّفق برويت وآخرون، من بينهم المساهمون في هذا الكتاب ومُحرِّروه، على أن الجمع المتواصل للبيانات من أجل فهم مواضع توجيه الموارد الحكومية ضروري للغاية. ولكن لا بد أن يَعكس أسلوبُ تنفيذ ذلك الواقعَ العرقي والإثني وواقع الهوية للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين. نَختتم هذا الفصل بمقالٍ سوف يساعدنا على التأمل وإعمال الفكر في واحدة من هذه الحقائق المعقدة. فتتحدانا آرلين توريس في مقالها «الثقافة الأفرو-لاتينية في القرن الحادي والعشرين» لكي نرى التنوع اللغوي والثقافي القائم بين هذه المجموعة التي نطلق عليها «اللاتينيين».

(١٣) آرلين توريس: الثقافة الأفرو-لاتينية في القرن الحادي والعشرين



آرلين توريس: مدير مبادرة توظيف أعضاء هيئة التدريس اللاتينيِّين في جامعة مدينة نيويورك، وأستاذ مشارك بقسم الدراسات الأفريقية والبورتوريكية بكلية هانتر. نشرت د. توريس، المتخصِّصة في الأنثروبولوجيا الثقافية، عن مجموعةٍ كبيرة من الموضوعات، من بينها العرق، والهجرة الداخلية، وظاهرة عبر الحدودية، والطبقات، والتطور الاقتصادي في الولايات المتحدة وجزر الكاريبي. عملت د. توريس أيضًا عضوًا بالمجلس الاستشاري لمشروع العرق. الصورة بتصريح من آرلين توريس.

* * *

إن هدف هذا المقال هو حثُّنا على التفكير في الوجود اللاتيني في الولايات المتحدة، والهجرة، والتمييز على أساس اللون، والمُمارَسات القائمة على التمييز العرقي، وتطور العلاقات والمؤسسات الاجتماعية.

أبدى ويليام إدوارد بورجاردت دو بويز الملاحظات التالية في خمسينيات القرن الماضي: «إن هذا الجنوب الأحدث، بالنظر إلى ماضيه الاستعبادي، يؤمن بأن رخاءه في الحاضر والمستقبل يُمكن بناؤه على أفضل ما يكون على فقرِ وجهل جماعاته المحرومة المنتمية إلى الفئات الدنيا؛ وهؤلاء العُمال ذوو الأجور المتدنِّية الآن لا يشملون الزنوج فحسب، بل أيضًا المكسيكيين، والبورتوريكيين، والبيض غير المؤهَّلين وغير المنتمين

للنقابات. فالتقدم بواسطة هذا الفقر هو عقيدة الجنوب الحالي.» إن هذا المقتطف يُطلعنا على بعض القضايا والمشكلات التي نصارع معها، وسوف تكون محل اهتمام في جنوب الولايات المتحدة وسائر أنحاء البلاد خلال القرن الحادي والعشرين. إن التحليلات الاجتماعية لم تَستوعِب بعدُ على نحوٍ وافٍ كيف يعمل الوجود اللاتيني، وبصفةٍ خاصة مجتمعات المهاجرين الداخليين والخارجيين والمستوطنين، على تغيير وجه البلاد. كذلك سوف تُساهم كيفية تصدينا للتحديات التي يستتبعها هذا في تحديد أسلوب معيشتنا في المواقع التي تشكل مستقبل الجميع.

ذهب دو بويز إلى أن المشكلة الجوهرية للقرن العشرين تمثَّلت في التمييز على أساس خطِّ اللون. كيف تُساهم الهجرة الداخلية، والخارجية، والاستيطان في تشكيل العلاقات الاجتماعية، وقاعدة القَطرة الواحدة، والخط اللوني ما بين الأسود والأبيض؟ في الولايات المتحدة، كان الأفراد من أي أصل أفريقي يُعتبرون سودًا، فيما كان الأفراد ذوو العرق المختلط يُصنَّفون كمولاتو، أو غير بيض. غير أن درجة اندماجهم داخل مجتمعاتهم كانت تتحدَّد بفعل التقاليد القانونية، والاجتماعية، والثقافية التي تغيَّرت على مر الزمن. وقد دفعَتْنا الزيادات في معدل الهجرة الداخلية والخارجية والاستيطان للاتينيين في مناطق لم تكن منظورة فيما سبق؛ إلى التفكير في تأثيرها على طبيعة خط اللون. إن مشكلة القرن الحادي والعشرين هي الطبيعة المتغيرة لخط اللون. فالخطُّ الذي كان محدَّدًا بصرامة بات الآن أكثر غموضًا وأصبح مؤهلًا للترويج للعنصرية والإثنية وممارستهما تحت ستار الاختلاف القائم على المواطنة، والطبقة، واللون، واللغة، والممارسات الثقافية. وبينما قد يجادل البعض بأن خط اللون قد بدأ في التلاشي، يُمكننا أن نجادل بأن خط اللون المتدرِّج ما بين الأبيض/غير الأبيض الذي يشمل آثار الماضي من شأنه تشكيل المشهد العرقي المعاصر.

ونظرًا لكون العرق مفهومًا اجتماعيًّا، فإن كيفية تحديد الأمريكيين للشخص المنتمي إلى جماعةٍ عرقيةٍ ما عُرضة للتغيير ويتغيَّر بالفعل. فبينما يُدمج المهاجرون في المجتمع الأمريكي، فإنهم يُدمَجون على نحوٍ مختلف بناءً على تصورات بشأن إرثهم العرقي ومكانتهم. ويذهب بعض الباحثين إلى أن اللاتينيين، على سبيل المثال، يُدمَجون على نحوٍ مختلف بناء على المفاهيم المُدرَكة للانتماء العرقي عبر خط اللون المتدرج ما بين الأبيض/غير الأبيض. ويذهب باحثون آخرون إلى أن اللاتينيين يسعون وراء الانتماء إلى العرق الأبيض. وهنا تظهر تساؤلاتٌ غاية في الأهمية: إذا كان اللاتينيون يسعون وراء الانتماء إلى العرق الأبيض، فكيف يُحدَّد هذا السعي وكيف يُدرك؟ أو

هل يُمارس اللاتينيون استراتيجياتٍ أخرى سعيًا نحو حراكٍ اجتماعي صاعد حيث يتمُّ إلغاء الحدود العرقية/الإثنية والإبقاء عليها على نحوٍ انتقائي؟ علاوة على ذلك، كيف تتشكَّل هذه الانتقائية، في ظل التاريخ، والمجتمع، والمكان، وهيمنة سلطة لون البشرة، واستمرار العرقية؟ كيف يستجيب أولئك المصنَّفون كإثنياتٍ بيضاء لهذا؟ نحن نعلم أن أولئك الساعين إلى الحفاظ على الحظوة والسلطة يَدمجون بالفعل بعض الجماعات الإثنية/العرقية دون غيرها على نحوٍ انتقائي لضمان موقعهم المميَّز في تسلسلٍ هرمي عرقي. وإذا تعقبنا هذا أكثر قليلًا، يصبح لزامًا علينا أن نبحث باستمرار في كيفية دمج أعضاء جماعةٍ إثنية ما، فيما يهمش آخرون أو يُمارس ضدهم تمييزٌ صريح بناءً على إسنادات سلبية ارتبطت بكون الشخص أسود أو غير أبيض.

يتشكَّل سلوك اللاتينيين بفعل ممارساتٍ قائمة على التمييز العرقي قادمة على المستوى التاريخي والمعاصر من بلادهم الأصلية سواء كانت الولايات المتحدة القارية، أو أمريكا اللاتينية، أو جزر الكاريبي. ويُشكِّل استعباد الأفارقة والسكان الأصليِّين جزءًا من تراث أمريكا اللاتينية والكاريبي؛ مما يُشكل دافعًا لإعادة التفكير في الطرق التي يُشكِّل بها الاستعبادُ في أمريكا اللاتينية وجزر الكاريبي خبراتِ وتجاربَ المهاجرين المنحدرين من أصولٍ أفريقية في الولايات المتحدة. وتزداد الأمور تعقيدًا بفعل التجسيد المادي لأيديولوجيات الامتزاج العرقي، والتكوين الاجتماعي للأشخاص المختلطي الأعراق، والنزعة الطبيعية نحو إثارة صراع من أجل إثبات هويةٍ سوداءَ غرقت في الماضي السحيق وانعزلت في أماكنَ معينة داخل هذه الدول القومية.

وشعور التهجير الذي واجهه المهاجرون اللاتينيون إلى الولايات المتحدة، الذين يؤمنون بأنهم بيض في إطار الفئات والممارَسات العرقية السائدة في بلادهم الأم؛ عميق للغاية. بالإضافة إلى ذلك، يواجه اللاتينيون الأفارقة الذين تختلف تجربتهم مع العرقية في أمريكا اللاتينية وجزر الكاريبي حالاتٍ من الانفصام أيضًا، بينما يسعون إلى فهم كيفية تموضُعِهم على المستوى الاجتماعي في مشهدٍ عرقي تشكَّل وفق قاعدة القطرة الواحدة. وهذا يُحتِّم إجراء استكشاف لأنواع الاستراتيجيات والقيود التي يصارع معها اللاتينيون في مواجهة الممارسات ومؤسسات السلطة القائمة على التمييز العرقي في الأمريكتين. وفي محاولة منهم لتأكيد هويتهم، ينأى بعض اللاتينيين بأنفسهم عن الأمريكيين الأفارقة وأقرانهم من اللاتينيين الأفارقة، وفي حالاتٍ أخرى يسعى اللاتينيون وأولئك ممن يُعرِّفون أنفسهم كلاتينيين أفارقة إلى الانضمام إلى صفوف جماعات تعاني أيضًا من العرقية

والتمييز. ومع انهيار الفوارق وتصنيفهم تحت فئة اللاتينيين، صار لدى الجماعات العرقية والإثنية القدرة على تطوير تحالُفات مُثمرة أحدهم مع الآخر.

من يُحتسب كلاتيني في القرن الحادي والعشرين؟ ما الأمور التي على المحكِّ في ضوء الإطار العرقي الأمريكي الذي لم يدعم الامتزاج العرقي على الرغم من وجود مُمارَساتٍ محدودة له في أماكنَ معينةٍ عبر تاريخ البلاد؟ هل يُعرَّف البورتريكيون، والدومينكيون، والبنميون، والمكسيكيُّون، والكولومبيون، والفنزويليون، والنيكاراجويون، والبرازيليون المنحدرون من أصلٍ أفريقي كلاتينيِّين وكأفرو-لاتينيين؟ كيف لنا أن نُحدِّد من ينحدر من أصلٍ أفريقي ومن ليس كذلك في ضوء تراث العبودية والامتزاج العرقي الاجتماعي والثقافي في أمريكيا اللاتينية، أو في جزر الكاريبي؟ لا تزال الافتراضات، والخرافات، والمفاهيم الخاطئة النمطية إلى اليوم تتخلَّل وسائل الإعلام في الولايات المتحدة، وأمريكا اللاتينية، وجزر الكاريبي، وتشكل الإدراك فعليًّا. وتكشف اللغة المجازية المعرقنة في التلفزيون، والقصص المصورة، وغيرها من وسائل الإعلام الناطقة باللغة الإسبانية والإنجليزية عن النزعة الطبيعية نحو دعم سلطة لون البشرة التي تُقلِّل من البشرة السوداء. فأيديولوجية العرق الأبيض تُنسب سلبية إلى ملامح ارتبطت بالسود وآخرين ممن يعتبرون من غير البيض. حتى لو كانت أيديولوجية الامتزاج العرقي قائمة ونشطة، يوجد مُتَّصلٌ عرقي ما بين الأسود والأبيض يَمنح قيمةً أعلى للموجودين على الطرف الأكثر بياضًا من المتصل. غير أن هذا لا يعني أن الحركات الاجتماعية وأيديولوجيات السود ليس لها وجود؛ فهي موجودة فعليًّا. والادعاءات بالانتماء إلى العرق الأسود، والعرق اللاتيني، والعرق الأفرو-لاتيني في أمريكا اللاتينية، والكاريبي، والولايات المتحدة ممكنة. وهذه عملياتٌ اجتماعية وثقافيةٌ معقَّدة تَتشكَّل أيضًا بفعل الفِكَر المُتغيِّرة بشأن العرق، والتاريخ الإقليمي، وأنماط الاستيطان، والتفاعلات الاجتماعية التي لا بد من فحصها ودراستها من خلال البحث والاطلاع المستمرَّين.

المراجع

Anderson, M. J.:

1988 The American Census: A Social History. New Haven, CT: Yale University Press.

Baker, S. and Stonecipher, E.:

2009 Our Unconstitutional Census California could get nine House seats it doesn't deserve because illegal aliens will be counted in 2010. Wall Street Journal, August 9. http://online.wsj.com/article/SB10001424052970204908604574332950 796281832.html, accessed January 24, 2012.

Choldin, Harvey M.:

1986 Statistics and Politics: The "Hispanic Issue" in the 1980 Census. Demography, August.

Gaskins, Pearl Fuyo:

1999 What Are You?: Voices of Mixed Race Young People. New York: Henry Holt and Company.

Guedel, G.:

2010 2010 Census Count Improving For Native Americans. Native American Legal Update, May 28. http://www.nativelegalupdate.com/2010/05/, accessed June 15, 2010.

Montgomery, D.:

2009 To engage Latinos about census, telenovela steps up to be counted. The Washington Post, October 7. www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2009/10/06/AR2009100601643.html, accessed October 7, 2009.

Our Families Count:

2010 LGBT Communities of Color Unite for the 2010 Census Fear doesn't count El miedo no cuenta. Washington, D.C.: Our Families Count. May 6, http://ourfamiliescount. org/, accessed December 13, 2011.

Population Reference Bureau:

2009 About the American Community Survey. Washington, DC: Population Reference Bureau.

Prewitt, K.:

2010 How to fix Census' broken race question. USAToday. com, July 12. http://www.usatoday.com/news/opinion/forum/2010-07-13-column13_ST_N.htm, accessed January 24, 2012.

U.S. Census Bureau:

2009 A Journey of Many Voices, July 2009. July 7. Washington, DC: U.S. Census Bureau.

U.S. Census Bureau:

2010 Take 1: Turnkey Kit. Washington, DC: U.S. Census Bureau.

William Kim,:

2006 Mark One or More: Civil Rights in Multicultural America. Ann Arbor: University of Michigan Press.

هوامش

(1) For more information, visit www.thehapaproject.com.

الفصل الرابع عشر

العرق والتعليم

سوف يُلقي هذا الفصل الضوء على قصة التعليم والعرق في الولايات المتحدة، مع التركيز على تأثير التمييز العنصري داخل المدارس في الماضي والحاضر، وعلى فجوة الإنجاز الدائمة ما بين البيض والأقليات الأخرى، ويتناول تداعيات هذه الفجوة على تطلعات التعليم العالي، ومستقبل الأقليات في مجال العلم، وأخيرًا يتناول الصلة بين الإنجاز الدراسي وجمع الثروات. كما قرأت في الجزء الأول، كان تعليم الجماعات العرقية والمهاجرين في الولايات المتحدة متدنِّيَ المُستوى (انظر الفصل السادس لتناول أكثر تفصيلًا لتوفير التعليم، أو عدمه، للأمريكيِّين الأصليين، والعبيد المحرَّرين، وجماعات المهاجرين في القرنين التاسع عشر والعشرين).

على الساحل الغربي، في سان فرانسيسكو، بولاية كاليفورنيا، في عام ١٩٠٦، اندلعت أزمةٌ دولية على خلفية احتجاج الحكومة اليابانية على حقيقة إصدار المجلس التعليمي بسان فرانسيسكو أمرًا بعزل الطلاب الآسيويِّين في جميع المدارس العامة. لقد اعتاد الناس الفصل العنصري وقوانين جيم كرو في الولايات الأمريكية الجنوبية؛ غير أن هذا الفصل العنصري التعليمي على أساسٍ عرقي/إثني في المدارس لم يكن مألوفًا في كاليفورنيا. في الواقع، كانت قضية «ميندز ضد ويستمينستر» — حيث قامت ويستمينستر، مقر الإدارة التعليمية بكاليفورنيا، بعزل طلابها المكسيكيين في مدارس معيَّنة بناءً على لون البشرة — هي التي ساعدت على توفير خلفية لقضية «براون ضد مجلس التعليم» التي نُظرت أمام المحكمة العليا في عام ١٩٥٤. كانت عائلة ميندز قد تحدَّت قانون كاليفورنيا للتمييز داخل المدارس وكان الفوز من نصيبها. ولفتت قضيتهم انتباه ثيرجود مارشال، محامي الجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين، الذي استغلَّ هذا النموذج الناجح فيما بعدُ لدعم القضية الخاصة بالجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين، وهي قضية «براون ضد مجلس

تعليم توبيكا، بولاية كنساس» (انظر مقال إيان هاني لوبيز في الفصل السادس لمزيد من التفاصيل).

في ١٧ مايو ١٩٥٤، أصدرت المحكمة الأمريكية العليا قرارًا بالإجماع في قضية «براون ضد مجلس التعليم»، نصَّ على أن مؤسسات التعليم المُنفصِل غير مُنصِفة في المقام الأول. وأبطل هذا القرار السابقة التي أرساها القرار الصادر مسبقًا من قِبَل المحكمة العليا في قضية «كامينجز ضد مجلس مقاطعة ريتشموند التعليمي (١٨٩٩)»، والذي أيَّد الفصل العنصري في المدارس العامة. ولم يُسفِر الحكم في قضية «براون» مباشرة عن إلغاء الفصل العنصري في مدارس أمريكا العامة، وكذلك لم يُلزم بإلغاء التمييز في المرافق العامة، مثل المطاعم أو دورات المياه التي كانت ملكيةً خاصة، ولم يَحدُث ذلك حتى صدور قانون الحقوق المدنية عام ١٩٦٤. في عام ١٩٥٥، أتمَّت المحكمة العليا حكمها ووجهت الولايات المحلية إلى ضرورة التحرك «بكل سرعةٍ مدروسة» نحو إلغاء الفصل العنصري في المدارس العامة. ومع ذلك، لم يكن الإذعان للحكم فوريًّا، ولم تَقُم معظم الولايات (والمدن الشمالية مثل بوسطن، ماساتشوستس) بإلغاء الفصل العنصري حتى أواخر الستينيات أو مطلع السبعينيات. وقد وجَدت دراسات أجريت مؤخرًا أن المدارس العامة، خاصة في الأحياء الحضرية الفقيرة، لا يزال يُمارَس فيها الفصل العنصري (موقع understandigrace.org: الخط الزمني الحكومي ٢٠٠٧).

وللفصل العنصري الجغرافي للسكن أثرٌ سلبي على جودة المدارس التي يُضطر العديد من أطفال الأقليات إلى الالتحاق بها. ففي ظلِّ قلة الموارد، غالبًا ما تُعاني المدارس من نقص التمويل. على سبيل المثال، تعيش ٢٥ بالمائة فقط من أسر البيض الفقيرة في أحياءٍ تعاني من فقرٍ مُدقع تزيد معدلاته على ٢٠ بالمائة مقارنة بـ ٧٥ بالمائة من السود الفقراء و٦٦ بالمائة من الأسر ذات الأصل اللاتيني.

شهدت حِقبتا الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين الضغط المُتواصِل على كل من المستوى المحلي والفيدرالي من قِبَل الحكومة لتعزيز الدمج في المدارس عبر أنحاء هذا البلد. ولاقت هذه الخطط نجاحًا محدودًا؛ فكانت هناك مدن في الشمال، مثل بوسطن، قاوَم مواطنوها عن طريق إحراج الأطفال وهم يترجَّلون من الحافلات في أحيائهم السكنية والتهكُّم عليهم. كانت بوسطن من المدن التي أصدرت فيها المحاكم أمرًا بإرسال الأطفال السود بالحافلات إلى أحياء البيض بينما يرسل الأطفال البيض بالحافلات إلى أحياء السود.

وتكرَّر هذا وقُوبل بمُقاوَمة ورفض في المدن عبر أنحاء البلاد. وكان من الطُّرق التي تجنَّبت بها أسر البيض الدمج في هذا المثال الانتقال خارج المدن؛ وهكذا كان إلغاء الفصل العنصري في المدارس بموجب أمرٍ فيدرالي بمنزلة دافعٍ كبير لنزوح البيض من الأحياء التي تَنتقل إليها الأقليات في الولايات المتحدة في أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات.

الفصل العنصري في المدارس

«للفصل العنصري الجغرافي للسكن أثرٌ سلبي على جودة المدارس التي يضطر العديد من أطفال الأقليات إلى الالتحاق بها.»

قضية عرق وطبقة

تعيش الكثير من أسر السود واللاتينيين الفقيرة في مناطق يسودُها فقرٌ مُدقِع. فنسبة أُسر البيض الفقيرة التي تقطن أحياءً ذات معدَّلات فقر تصل إلى أكثر من ٢٠ بالمائة لا تتجاوَز الربع، إلا أن ثلاثة أرباع السود الفقراء وثلثَي الأُسر الفقيرة ذات الأصول اللاتينية تقطن هذه الأحياء. وعادةً ما تعاني المدارس العامة في المناطق الأكثر فقرًا من انخفاض مواردها مقارَنة بنظيرتها في مناطق الطبقة المتوسطة. ونظرًا لأن أُسر البيض أقل عرضة للعيش في مثل هذه الأماكن، فإن الأطفال البيض الفقراء أقل عرضة للالتحاق بهذه المدارس من الأطفال الملوَّنين الفقراء.

إلغاء الفصل العنصري في المدارس

إبان ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، قامت الحكومات الفيدرالية والمحلية بتمرير قوانين تهدف إلى مواجهة التفاوت التعليمي الذي نتج عن الفصل العنصري في المدارس. وكانت هذه القوانين ناجحة إلى حدٍّ كبير في دمج العديد من أنظمة المدارس العامة على مستوى البلاد.

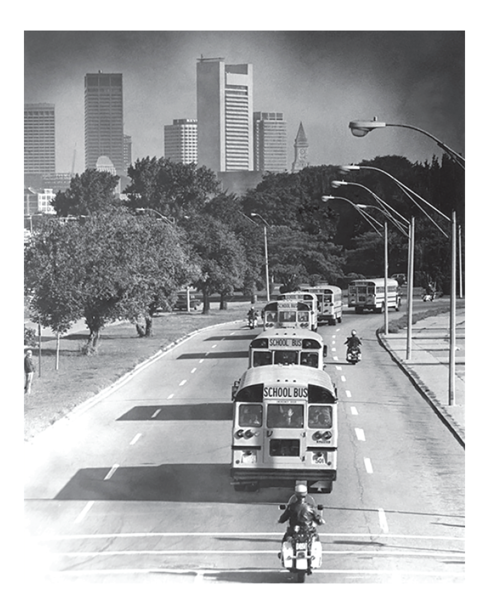
إعادة الفصل العنصري

في تسعينيات القرن العشرين واجهت قانونية العديد من جهود ومحاولات إلغاء الفصل العنصري تحدِّيًا باء بالنجاح؛ ما أسفر عن إعادة الفصل العنصري في بعض المدارس. وعادت المناطق التعليمية في مدنٍ أمريكيةٍ معيَّنة اليوم شبه مُنفصلة عنصريًّا كما كانت قبل خمسين عامًا.

إن المدارس والأحياء ذات الفصل العنصري تَعزل الأطفال عن تكوين الشبكات والصلات التي تُعدُّ مهمة لاكتساب الفرص للنجاح الاجتماعي والاقتصادي. (مايرون أورفيلد، معهد دراسات العرق والفقر، جامعة مينيسوتا، الفصل العنصري في المدارس: معرض العرق، معهد مينيسوتا للعلوم).

بوسطن: دراسة حالة

في عام ١٩٧٤، أصدر قاضي المحكمة الإقليمية آرثر جاريتي حكمًا بأن لجنة مدارس بوسطن قامت بـ «تنفيذ برنامجٍ منهجي للفصل العنصري بناءً على دراية مُسبقة.» ولمعالجة الموقف، أمرت المحكمة بنقل الأطفال السود بالحافلات إلى المدارس في المناطق التي يسكنها البيض بصورةٍ أساسية في بوسطن، بينما ينقل الأطفال البيض بالحافلات إلى المدارس في الأحياء التي يَغلب عليها السود.



شكل ١٤-١: النقل بالحافلات. بوسطن، ١٩٧٦ (بتصريح من جريدة بوسطن هيرالد).

كان ردُّ الفعل إزاء أمر النقل بالحافلات غاضبًا، وفي بعض الأحيان عنيفًا. ففي بعض المدارس كان الأطفال السود يُقذَفون بالحجارة وهم يترجَّلون من حافلاتهم. وقام العديد من الآباء البيض بسَحبِ أبنائهم من منظومة التعليم العام وإرسالهم إلى مدارسَ خاصةٍ.

ظل أمر القاضي جاريتي بنقل الأطفال بالحافلات قيد التطبيق حتى عام ١٩٨٩، حين طُبِّقت سياسة «الاختيار المحكوم»؛ فقد أتيح للآباء قدر من السعة في اختيار المدارس، ولكن كان التكوين العرقي لكل مدرسة يُضاهَى بالتكوين العرقي للمدينة ككل. وفي عام ١٩٩٠ رُفعت دعوى قضائية من قِبَل مجموعة من الآباء البيض ادَّعوا فيها عنصرية تلك السياسة، وتمَّ التخلي عن سياسة التناسبية

العرقية. واليوم، ونتيجة لنزوح البيض إلى الضَّواحي وقيد الأبناء في المدارس الخاصة، صارت نسبة الطلاب البيض في المدارس العامة ببوسطن ١٥ بالمائة.

لويفيل، كينتاكي: دراسة حالة

من أجل ضمان الدمج في مدارسها، اتَّبعت المنطقة التعليمية في لويفيل، بولاية كينتاكي، سياسةً تنصُّ على ضرورة أن يُمثِّل السود من ١٥–٥٠ في المائة من تشكيل طلاب كل مدرسة. وفي عام ٢٠٠٢، قام آباءُ بعض الطلاب البيض بمقاضاة المنطقة التعليمية، بدعوى أن هذا الإجراء يَرقى إلى مستوى التمييز العنصري ويَنتهك حقوق أبنائهم في الالتحاق بالمدرسة التي يختارونها.

في يونيو ٢٠٠٧، حكَمت المحكمة العليا، في تصويتٍ مُتقارب بنسبة ٥:٤، بأن أنظمة المدارس العامة لا يُمكنها تصنيف الطلاب حسب العرق لأغراض الالتحاق بالمدارس. وجارٍ حاليًّا تقدير تداعيات هذا القرار في المناطق التعليمية عبر أنحاء الولايات المتحدة، ومن المتوقَّع ظهور المزيد من التحديات القانونية في السنوات المقبلة.

وفقًا للباحثين التعليميين، مثل مايرون أورفيلد بجامعة مينيسوتا، فإن الأحياء والمدارس التي تتبنى سياسة الفصل العنصري تعزل الأطفال عن تكوين الشبكات والصلات التي تعدُّ مهمة لاكتساب الفرص للنجاح الاقتصادي والاجتماعي.

وتُبين البيانات الواردة من المركز القومي للإحصاءات التعليمية (٢٠١٠) أن التوزيع العرقي/الإثني لطلاب المرحلتين الابتدائية والثانوية قد تغيَّر مع الوقت. ففيما بين ٢٠٠٠–٢٠٠١، و٢٠٠٧–٢٠٠٨، انخفض عدد الطلاب البِيض المقيَّدين في المدارس العامة من ٦١ إلى ٥٦ بالمائة. وخلال نفس الفترة الزمنية، ظلت نسبة الطلاب السود والطلاب الأمريكيين الأصليين الهنود/الألاسكيين ثابتة عند ١٧ بالمائة و١ بالمائة على التوالي، ولكن زادت نسبة الطلاب الهسبان من ١٧ إلى ٢١ بالمائة، وارتفعت نسبة الطلاب من سكان جزر المحيط الهادئ من أصول آسيوية من ٤ إلى ٥ بالمائة.

(١) سد «فجوة الإنجاز»

من أكثر المشكلات المُستعصية في التعليم الحكومي في الولايات المتحدة الفجوة المُزمِنة في درجات الاختبارات بين الطلاب السود واللاتينيين من جانب، والطلاب البيض والطلاب

المنتمين لجُزر المحيط الهادئ من أصول آسيوية كجماعة على الجانب الآخر. للاطلاع على مراجعة للأدبيات السابقة وشرحٍ أكاديمي مفصَّلَين لفجوة الإنجاز، انظر هينسي ٢٠٠٧.
لعل من الرسائل الأساسية لهذا الفصل أن اللغة المستخدمة لتأطير هذه القضية هي لغةٌ مشحونة بافتراضاتٍ سلبية. وتحاشيًا لفكرة أن القضية تُعدُّ ظاهرةً طبيعية، يعتزم المؤلفون عدم الحديث عن «فجوة الإنجاز»، واستخدام مصطلح «فجوة الفرص» بدلًا منها، لوصف وتحديد المشكلة العرقية المُستمرَّة التي تواجهنا مع المؤسسات والظروف البيئية التي تمنَح الفُرص لطلابٍ بأعينهم «دون» غيرهم. و«فجوة الفرص» هي «النتيجة المنطقية لمئات السنين من الهرمية العرقية في الولايات المتحدة. فنحن في القرن الحادي والعشرين نحصد البذور التي غُرست في الولايات المتحدة منذ قرون. إنها تُبين لنا كيف نجحت المفاهيم الثقافية لعدم المساواة القائمة على العرق على نحوٍ قوي إلى حدٍّ أنه حتى في الوقت الحالي، برغم رغبة معظم الناس في تحطيم إرث العنصرية، لا يزال هذا الإرث مستمرًّا» (موكوباداي، وهينسي، وموزس ٢٠٠٧: ٢٠٢).

من المُحتمَل أن تظلَّ الكثير من العوامل تُساهم في الفجوة العرقية في الدرجات في الاختبارات القياسية الموحدة، من ضمنها المستوى التعليمي للآباء، وفقر المدارس وانخفاض جودتها، ونقص كفاءة المعلِّمين، وقلة الدورات الأكاديمية العالية المستوى. بالإضافة إلى ذلك، يَحظى العديد من الطلاب المُلتحِقين بمدارسَ ذاتِ جودة أعلى بميزة حين يتعلَّق الأمر بخوض الاختبارات القياسية الموحدة؛ نظرًا لقدرتهم على تحمُّل تكاليف الفصول المؤهِّلة للاختبارات من أجل «اختبار الاستعداد الدراسي» (سات)، أو «اختبار القبول الجامعي الأمريكي» (أكت)، وتوافُر الوقت والمال لديهم لخوض الاختبار عدة مرات.

الفجوة العرقية في درجات الاختبارات القياسية

«من المحتمل أن تظل الكثير من العوامل تُساهم في الفجوة العرقية في الدرجات في الاختبارات القياسية.»

الاختبار في المدارس

تُستخدم الاختبارات القياسية لتقييم قدرات الطالب وتقدير كفاءة التعليم. وقد صار اجتياز مثل هذه الاختبارات، على نحوٍ مُتزايد، شرطًا للتخرج في المدارس الثانوية. كذلك تعدُّ الدرجات في

اختبار الاستعداد الدراسي أو اختبار القبول الجامعي عاملًا حاسمًا للقبول في العديد من الكليات والجامعات.

تَبيَّن وجود فجوةٍ عرقية في درجات الاختبارات القياسية؛ حيث يُحرز الطلاب الأمريكيون الأفارقة درجاتٍ أقل من الطلاب البيض في المتوسط. وقد أُجري العديد من الأبحاث للكشف عن أسباب هذه الفجوة. ولعلَّ مِن ضمن العوامل التي وُجد أنها تلعب دورًا في ذلك؛ الفوارقَ الاقتصادية الاجتماعية بين أُسر الطلاب، والفوارقَ في المستويات التعليمية للآباء، والتحيُّزَ العرقيَّ أو الثقافي الذي تتضمَّنه الاختبارات نفسها.

الاستعداد الأفضل يؤدِّي إلى درجاتٍ أفضل

يكون طلاب الأقليات أكثر عرضة للالتحاق بمدارس في المناطق المحدودة الدخل التي تتلقى تمويلًا حكوميًّا أقل، ولديها معلمون أقل كفاءة وتأهيلًا، وتُوفِّر قدرًا أقل من الدورات الأكاديمية العالية المستوى. أما الطلاب المُلتحِقون بمدارسَ عاليةِ الجودة، فيكون لديهم ميزة حين يتعلَّق الأمر بالاختبارات القياسية. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لفصول الإعداد لاختبارات الاستعداد الدراسي أو القَبول الجامعي أن ترفع درجات الطلاب. ولكن ارتفاع تكاليف هذه الحصص الخاصة تجعلها صعبة المنال للعديد من الطلاب المحدودي الدخل.

بإيجاز، ما يُقاس من خلال اختبار الاستعداد الدراسي ليس أشياءَ مُطلقة، مثل القدرات الطبيعية والجدارة، بل أمورٌ عارضة غير جوهرية مثل الأصل، والمركز الاجتماعي، وإمكانية ارتياد المكتبات، والفرص المتاحة لقضاء إجازات أو الالتحاق بدورات الإعداد لاختبار الاستعداد الدراسي (ستانلي فيش، باحث قانوني، جامعة فلوريدا الدولية: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).

سيكولوجية خوض الاختبارات

ثمة سلسلة من خمس تجارب أُجريت في تسعينيات القرن العشرين تُقدِّم تفسيرًا محتملًا ولو لجزء من التفاوت في درجات الاختبارات القياسية؛ ألا وهو الخوف من تثبيت فِكَرٍ نمطيةٍ سلبية.

في هذه التجارب، أُعطي طلابٌ أمريكيون أفارقة وبيض في المرحلة الجامعية اختبارًا مدته ٣٠ دقيقة يتألف من أسئلة من اختبار تقييم الخرِّيجين في الأدب. أُخبر نصف الطلاب أن الاختبار هو مقياس لقدراتهم الأكاديمية، فيما أُخبر النصف الآخر أن الاختبار ليس مقياسًا لقدراتهم، بل مُصمَّم لدراسة كيفية حل الأسئلة اللفظية الصعبة. أحرز الطلاب الأمريكيون الأفارقة الذين أُخبروا أن الاختبار مقياس لقُدراتهم؛ درجاتٍ أقل في المتوسِّط من الطلاب البيض. أما أولئك الطلاب الأمريكيون الأفارقة الذين أُخبروا أن الاختبار ليس مقياسًا لقدراتهم؛ فقد أحرزوا درجاتٍ جيدة وكذلك البيض. وأحرز

الطلاب البيض درجاتٍ جيدة في كلتا الحالتَين. ويَفترض الباحثون أن أداء الطلاب الأمريكيين الأفارقة الذين أُخبروا أن الاختبار يَقيس قُدراتهم قد تدهور بفعل الخوف من تثبيت فِكَرٍ نمطيةٍ سلبية بشأن مهاراتهم الفكرية.

عندما يؤدِّي الطلاب الأمريكيون الأفارقة مهمةً دراسية أو فكرية على نحوٍ صريح، يُواجهون تهديدًا بتثبيت رأيٍ نمطيٍّ اجتماعيٍّ سلبي أو تقييمهم على أساسه — شك — بشأن القدرة والكفاءة الفكرية لجماعتهم ... وهذا التهديد الإضافي، بدوره، قد يؤثر على أدائهم (ستيل وأرونسون ١٩٩٥).

وتُقدِّم الأبحاث التي أجراها العالم الاجتماعي كلود ستيل في التسعينيات تفسيرًا محتملًا آخر للتبايُن العرقي في درجات الاختبارات، ألا وهو الخوفُ من الاختبارات القياسية والرأي النمطي الناتج الذي قد يَجلبه سوء الأداء. وتتحدى ميكا بولوك في مقال «من الضحالة إلى العمق: نحو تحليلاتٍ ثقافيةٍ شاملة لأنماط الإنجاز الدراسي»، وفي مقالها الوارد بنهاية هذا الفصل؛ علماءَ الأنثروبولوجيا وغيرهم لدحض ما تراه تحليلًا ضحلًا للثقافة. وتؤكِّد أن «هذه التحليلات تزعم في المدارس أنها تُفسِّر فجوات الإنجاز بوضع مزاعمَ سريعةٍ حول كيفية تفاعُل الآباء والأبناء المُنحدِرين من جماعات عرقية/إثنية متعددة، أو أصلٍ قومي، أو جماعات طبقية مع المدارس. ومثل هذه التحليلات الضحلة تُفْرِط على نحوٍ خطيرٍ في تبسيط العمليات الاجتماعية، والتفاعلات، والممارسات التي تخلق نتائجَ متفاوتة للأطفال» (بولوك ٢٠٠٨: ٣٦٩).

دراسة المنهج الخاطئ

«في المدارس التي تتبع أسلوب التقسيم حسب القدرات، غالبًا ما يوضع الطلاب الملوَّنون في فصولٍ إعدادية غير جامعية أقل مستوًى.»

ما المقصود بالتقسيم؟

التقسيم هو تجميع الطلاب وتنظيم الفصول وفقًا لمستوى الصعوبة. على سبيل المثال، قد يدرس طلاب المرحلة الثانوية المحدَّد لهم منهجٌ متقدمٌ للرياضيات؛ مادة الهندسة خلال العام الأول، والجبر ٢ في عامهم الثاني، ومبادئ التفاضل والتكامل وحساب المثلثات في العام الثالث، وأخيرًا التفاضُل والتكامل في عامهم النهائي. في غضون ذلك، يدرس الطلاب المحدَّد لهم منهج أقل مبادئ الجبر،

والجبر ١، والهندسة، وأخيرًا الجبر ٢ في عامهم النهائي. ونظرًا لأن كل فصل يُبنى على الفصول السابقة له، فمن الصعوبة بمكان أن يَنتقل طالب بدأ على منهج أقل إلى منهج أعلى.



شكل ١٤-٢: طلاب في حجرة الدراسة iStockphoto © /شركة بونيج لتصميم الجرافيك.

كيف تُحدَّد المناهج للطلاب؟

تُحدَّد المناهج للطلاب من خلال مزيج من توصيات المُعلِّمين، والتقديرات الدراسية، والدرجات في الاختبارات القياسية، وتفضيلات الطلاب وآبائهم. وقد وَجَدت معظم الدراسات التي أجريت على التقسيم أن الأمريكيين الأفارقة، وذوي الأصول اللاتينية، والطلاب المحدودي الدخل يأخذون المناهج الدنيا بكثافة، إلا أن ثمة إجماعًا محدودًا بشأن أسباب حدوث هذا التبايُن.

عواقب وخيمة

عادة ما تميل فصول المناهج الأدنى إلى تدريس مناهجَ أقلَّ جذبًا وإمتاعًا وتنخفض لديها توقُّعات إنجاز الطلاب. أضف إلى ذلك صعوبة التقدم من منهجٍ أقلَّ إلى منهجٍ أعلى، لتُصبِح النتيجة أن الطلاب الذين يَبدءون المرحلة الثانوية في فصولٍ ذات مناهجَ أقلَّ مستوًى غالبًا ما يكونون أقل استعدادًا للكلية أو الوظائف المجزية من أقرانهم ممَّن يدرسون مناهجَ أعلى.

في العديد من الولايات، أدى التخوُّف بشأن الظلم الاجتماعي الذي يعمل التقسيم على استمراره ببعض المناطق التعليمية إلى إلغاء التقسيم في المدارس. غير أن الأدلة بشأن ما إذا كان إنجاز الطالب أعلى في المدارس التي تَتبع التقسيم أم تلك التي لا تَتبعه؛ غير حاسمة. والتقسيم على أساس القدرات له آثارٌ طويلة المدى على الطلاب.

تأثَّرت التصورات الخاصة بمُلاءمة الطلاب للفصول في مختلف مستويات المناهج أيضًا بالعرق، والإثنية، والطبقة الاجتماعية؛ فقد أصبحَت المجموعات العرقية مميَّزة في معظم عقول المعلمين بمناهج بعينها. فكان الآسيويون، الذين كان التربويُّون يَعتبرونهم على نحوٍ شبه دائم ذوي قدرة ودافعيةٍ عالية، مميَّزين بقوة بأعلى المناهج. في المقابل، كان اللاتينيون يُعتبرون على نحوٍ شبه دائم الأقل ملاءَمة للعمل الأكاديمي، وكانوا في أغلب الأحيان يَرتبطون بالدورات الأكاديمية والبرامج المِهَنية ذات المناهج المنخفضة المستوى.

أوكس وجيتون ١٩٩٥

من الطرق المنهجية التي يوجَّه بها بعض الطلاب إلى مساراتٍ غير جامعية في المدارس هي من خلال عملية التقسيم، والتي هي عبارة عن تجميع الطلاب وتنظيم الفصول وفقًا لمستوى الصعوبة في محتوى المادة. تُخصَّص المناهج للطلاب بناءً على مزيج من توصيات المعلم، والتقديرات الدراسية، والدرجات في الاختبارات القياسية، ورغبات الطلاب وآبائهم. وقد وجدت معظم الدراسات التي أجريت على التقسيم أن الأمريكيين الأفارقة، وذوي الأصول اللاتينية، والطلاب المحدودي الدخل عمومًا يشغلون مستويات المناهج الأدنى بكثافة في المدارس عبر البلاد. وغالبًا ما توجد صعوبة في الانتقال من منهج إلى آخر. والعواقب الوخيمة لذلك هي أن المناهج غالبًا ما تكون أقل صعوبة وتحدِّيًا في مناهج المستويات الدنيا. وقرَّر بعض المديرين أن التقسيم تجربةٌ سلبية للغاية للطلاب لدرجة أنهم قد قرَّروا إلغاء التقسيم في مدارسهم تمامًا.

ثمَّة بعض الباحثين يقترحون ضرورة إلغاء التقسيم في المدارس كافة؛ ففي كتاب «إلغاء التقسيم من أجل التفوق والمساواة»، كتبَت كلٌّ من كارول كوربيت بوريس وديليا تي جاريت عن كيف تخلَّصَت مدرستهم من نظام التقسيم. وبدلًا من التقسيم، وضعوا محله عمليةً إصلاحيةً قائمة على «إلغاء التقسيم» لمنطقة روكفيل سنتر التعليمية. وأسفر تطبيق برنامجهم لإلغاء التقسيم عن القضاء تقريبًا على الفجوة الاقتصادية الاجتماعية العِرقية

التي كانت قائمة مِن قبلُ. وقد تطلَّب الإصلاح جهدًا ثقافيًّا وسياسيًّا متأنِّيًا. وتحدثت الكاتبتان عما كانت عليه المدرسة قبل إدخال عملية إلغاء التقسيم: «كان طلاب الأقليات والطلاب ذوو الخلفية الاقتصادية الاجتماعية المتدنية مُمثَّلين تمثيلًا زائدًا في المناهج الدنيا. إلى جانب ذلك، نشبت بين طلاب الأقلية والأغلبية في فصول المناهج الدنيا مشادَّات، وكان التركيز في حجرة الدراسة منصبًّا على الانضباط والتهذيب وليس على الجانب الأكاديمي. وعكست نتائج التعلم هذا الانعدام في تكافؤ الفرص أيضًا» (بوريس وجاريتي ٢٠٠٨: ٦).

في نهاية الكتاب، يَعرض المؤلفون قائمة «بالمعتقدات» التي يجب أن تتوافر لضمان نجاح أيِّ مدرسة في إلغاء التقسيم. وفيما يلي عرض لهذه المعتقدات والقيم الأساسية:

- المدارس والفرص لهما أهمية.
- التسريع والإثراء يُحسِّنان إنجازات الطلاب.
- جميع الطلاب لديهم مواهب ومنح.
- جميع الطلاب يَستحقون الحصول على المنهج الأمثل.
- فجوة الإنجاز يمكن رأبها.
- المدارس ملتزمة بأن تكون مؤسَّسات للتعلم.
- التدريس يتطلَّب مهارةً كبيرة وتفانيًا غير عادي.
- قيادة المدارس تتطلَّب رؤية وشجاعة.
- التعليم وسيلةٌ أساسية للتقدم والإصلاح الاجتماعي (جون ديوي).
- النجاح يُمكن أن يكون حصادًا جميلًا (بوريس وجاريتي ٢٠٠٨: ١٤٨–١٥٥).

(٢) التمييز الإيجابي: تحطيم اللامساواة

قال راندال كينيدي في مقاله الأخير «الأهمية المستمرة للتمييز الإيجابي»: «مِن أبرز إنجازات الليبرالية على مدى العشرين عامًا الماضية شيء «لم» يحدث، ألا وهو زوال التمييز الإيجابي» (٢٠١٠: ١). إنه يُعبِّر عن دهشته من استمرار وجود التمييز الإيجابي في ظل الثورة العنيفة للمحافظين على مدار العقد الماضي في الولايات المتحدة. إن هذا ليس انتصارًا للعلاقات بين الأعراق فحسب، وفقًا لكينيدي، بل أيضًا للرؤية الليبرالية لمجتمع شامل يُتيح الفرصة الكاملة للجميع (٢٠١٠: ١). ونورد في المربع الذي يحمل عنوان

«التمييز الإيجابي: تحطيم اللامساواة»، مسارًا زمنيًّا سوف يكون من شأنه تعريف القراء الأصغر سنًّا بالتاريخ القصير لقوانين وسياسات التمييز الإيجابي في هذا البلد. على سبيل المثال، في عام ١٩٤٩ قام الرئيس هاري ترومان بتوقيع أمر تنفيذي يقضي بإلغاء التمييز العنصري في صفوف القوات المسلحة الأمريكية. وفي عام ١٩٦٤، تم سنُّ قانون الحقوق المدنية. حظر هذا القانون، الذي يُعدُّ علامة بارزة، التمييز في التعليم والتوظيف على أساس العرق، أو اللون، أو الديانة، أو الأصل القومي. وفي عام ١٩٦٥، أصدر الرئيس الأمريكي ليندون جونسون أمرًا تنفيذيًّا يَقضي بـ «اتخاذ جميع الوكالات المتعاقدة مع الحكومة خطواتٍ تمييزيةً إيجابية لضمان تعيين جميع المُتقدِّمين للوظائف، دون النظر إلى عرقهم، أو لونهم، أو أصلهم القومي.» منذ عام ١٩٦٥، مثلما أشار المؤلِّفون في الفصل الثاني عشر، قام قطاع من السكان بالتصدي لهذه القوانين بوصفها قوانين غير عادلة (أي «غير عادلة للذكور البيض»). وفي عام ١٩٧٨، تحدَّى طالب بالطب يُدعى جون باكي سياسات التمييز الإيجابي بجامعة كاليفورنيا، مدرسة طب ديفيس، والتي كان لديها خطة تمييزٍ إيجابي قوية شَعَر باكي بأنها تمثل تمييزًا ضده كذكرٍ أبيض. وانتقلت هذه القضية إلى ساحة المحكمة العليا، وصدر قرار ينصُّ على جواز أخذ «العرق» في الاعتبار فيما يتعلق بالالتحاق بالجامعات كمِعيار ضمن معايير عدة. في عام ١٩٩٦، صوَّت مواطنو ولاية كاليفورنيا، عن طريق استفتاءٍ شعبي، على المُقترَح رقم ٢٠٩، الذي ألغى جميع برامج التمييز الإيجابي بالقطاع العام في ولاية كاليفورنيا. وفي عام ١٩٩٦، حذت تكساس حذو سابقتها في حظر التمييز الإيجابي في تكساس، وفي عام ١٩٩٨ في واشنطن وعام ٢٠٠٠ في فلوريدا تمَّ سنُّ قوانين تحذو نفس الحذو. بعد ذلك، في عام ٢٠٠٣، حكمت المحكمة العليا مرةً أخرى في قضيتَين تتضمَّنان تمييزًا إيجابيًّا بجامعة ميشيجان، أيدت فيهما مرةً أخرى استخدامًا محدودًا للعرق كعامل ضمن عواملَ عدةٍ في مراجعة طلبات الْتحاق الطلاب بكلية الحقوق بجامعة ميشيجان (جورين وآخرون ٢٠٠٢).

لا يزال بعض المحافظين الاجتماعيين والسياسيين يُوجِّهون اتهامات بأن التمييز الإيجابي يتعلق بتمييزٍ «عكسي» يؤثِّر على مواطنين بيضٍ أبرياءَ لا علاقة لهم بوضع و/أو الاستفادة من سياسات التمييز العرقي الماضية. وحديثًا انضمَّ سيناتور ويب، سيناتور فرجينيا، إلى صفوف الداعين لوضع نهاية لبرامج التنوع (ويب ٢٠١٠). (كما أشار المؤلفون في الفصل الثاني عشر، يسعى السيناتور ويب أيضًا إلى إثبات أن مثل هذه

البرامج ظالمة للبيض.) غير أن التحول إلى استخدام المفهوم الواسع الشامل «للتنوُّع» أصعب بعض الشيء في الاختلاف معه من قبل الناس. فالرغبة في خلق مجتمعات وأماكن عملٍ أكثر تنوُّعًا يصبُّ في صالح الولايات المتحدة على أصعدةٍ مُتعدِّدة للغاية. بل إن هذا التركيز على قيمة التنوع هو ما أدى في النهاية، بعد حوالي ١٠ سنوات من تمرير المقترح رقم ٢٠٩ الذي حظر أخذ العرق والنوع في الاعتبار عند التعيين والالتحاق بأماكن العمل في القطاع العام وفي الالتحاق بالكليات والجامعات؛ إلى إقرار سياسة التنوع بجامعة كاليفورنيا؛ ما أعاد التأكيد على التزام أعضاء مجلس الجامعة بخلق جامعةٍ حكومية ذات طرازٍ عالمي تضمُّ هيئة تدريس وموظفين وطلابًا أكثر، وليس أقل، تنوُّعًا يَشملون فيما بينهم مزيدًا من النساء والأقليات التي تُعاني من انخفاض التمثيل (بيان أعضاء مجلس جامعة كاليفورنيا عن التنوع ٢٠٠٩).

ليس واضحًا إلى أين تتجه الأمة ككل في هذه القضية. وطالما ظلت المناقشات حول التمييز الإيجابي والتنوع في التعليم الجامعي منصبَّة على كيفية توزيع الموارد الشحيحة ومن لهم الحق في الالتحاق بالمؤسسات التعليمية المرموقة، سوف يدور صراع حول هذه القضايا وسوف تُحمَّل بدلالاتٍ إضافية تتعلَّق بالعرق، والنوع، والطبقة الاجتماعية.

التمييز الإيجابي: تحطيم اللامساواة

«لا يزال إرث امتياز العرق الأبيض مُستعصيًا على جهود ومحاولات التعويض عنه.»

الامتيازات المقنَّنة للبيض

كانت السياسات الحكومية على مدار معظم التاريخ الأمريكي تمنح البيض معاملةً تفضيليةً مُتميِّزة إلى أقصى الحدود، فيما كان الأفراد من الأعراق الأخرى يُحرمون من المدارس، والوظائف، والسكن.

«قانون الضمان الاجتماعي الأمريكي، ١٩٣٥»

لم يكن الضمان الاجتماعي يُوفِّر مزايا للجميع على الدوام. في عام ١٩٣٥، حين تمَّ سنُّ قانون الضمان الاجتماعي، كان أكثر من ٦٠ بالمائة من العمال الأمريكيين الأفارقة مزارعين أو خادمات. وكانت تلك الوظائف مُستبعَدة من تغطية الضمان الاجتماعي حتى الخمسينيات، وكانت مُستثناةً أيضًا من تشريع يُجيز إنشاء نقاباتٍ عمالية، وتحديد حدٍّ أدنى للأجور، وتنظيم ساعات العمل.

«ميثاق حقوق المحاربين القدماء، ١٩٤٤»

ساعد ميثاق جي آي، أكثر من أي تشريعٍ آخر، على خَلقِ الطبقة الوسطى الأمريكية. فقد ساعد هذا القانون ملايين الجنود والمُحارِبين على الالتحاق بالكليات، وشراء منازلَ خاصةٍ، وبدء مشروعاتٍ خاصة. وعلى الرغم من أن مزاياه كان من المفترض أن تكون مُتاحة لجميع الجنود، بصرف النظر عن العرق، فقد كان معظم الجنود الأمريكيين الأفارقة، والآسيويين، واللاتينيِّين، عمليًّا، مُستثنَين منها.



شكل ١٤-٣: الرئيس فرانكلين دي روزفلت يعتمد ميثاق حقوق المُحاربين القدماء (الصورة بتصريح من مكتبة فرانكلين دي روزفلت الرئاسية).

«الكليات والجامعات التي تتبنى سياسة الفصل العنصري»

كانت الكليات والجامعات تتبنى سياسة الفصل العنصري إلى حدٍّ كبير؛ بحكم القانون في الجنوب، وبالممارسة الفعلية في الشمال. فلم تكن كليات السود ذات الموارد المالية الهزيلة لديها الموارد اللازمة لتوفير المستوى التعليمي المتاح في كثير من مدارس البيض.

التمييز الإيجابي

بدأت القوانين والبرامج العديدة التي نُصنِّفها الآن تحت مسمى التمييز «الإيجابي» في ستينيات القرن العشرين. وكان الهدف منها القضاء على أوجه التفاوت الفجَّة التي نجمت عن إرث العبودية والقوانين والسياسات التمييزية التي كانت سارية من ثمانينيات القرن التاسع عشر حتى خمسينيات القرن العشرين.

أنت لا تأخذ شخصًا ظل لسنوات مُكبَّلًا بالأغلال وتُحرِّره، بل تُحضره إلى خط بداية سباقٍ ما، ثم تقول: «أنت حرٌّ في التنافُس مع الآخرين كافة وتظلُّ مُصدِّقًا حقًّا أنك كنت منصفًا تمامًا.» (الرئيس ليندون بي جونسون، استشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).



شكل ١٤-٤: معهد توسكيجي (سُمي لاحقًا جامعة توسكيجي) (الصورة بتصريح من مكتبة الكونجرس).

لكي نتجاوز العرقية، لا بد أولًا أن نأخذ العرق في الاعتبار. لا سبيل لنا سوى ذلك. ولكي نتعامل مع بعض الأشخاص على قدم المساواة، لا بد أن نتعامل معهم على نحوٍ مُختلف. لا يُمكننا — بل لا نجرؤ — أن ندع مادة الحماية المُتساوية تَكتب للتفوق العرقي الاستمرارية (قاضي المحكمة العليا الأمريكية هاري بلاكمون، استشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).

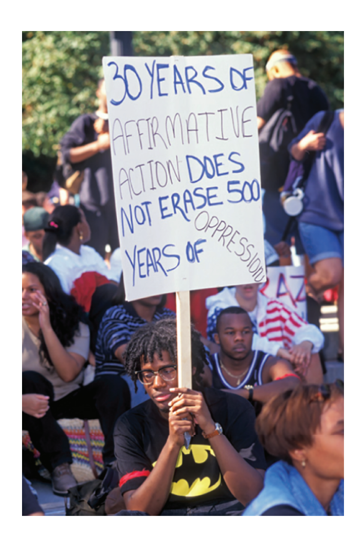
الجدل حول التمييز الإيجابي

التمييز الإيجابي يُفيد الجميع؛ فنحن أفضل حالًا كأمة حين يعكس أولئك القائمون على مدارسنا، وشركاتنا، وأقسامنا الشرطية؛ سكان بلادنا ككل. فأمريكا التي تتجاهَل الحاجة إلى مثل هؤلاء المُمثِّلين هي أمة تنشد الاضطراب الاجتماعي (ميلز ١٩٩٤).

أما زلنا هناك؟

يتَّضح من الإحصاءات القومية الحديثة لمعدلات التوظيف والدخل أن المساواة لا تزال بعيدة.





شكل ١٤-٥: مؤيدو ومعارضو التمييز الإيجابي (الصورة بتصريح من معرض جيم ويست للصور).

جدول ١٤-١: التوظيف المهني في القطاع الخاص، ٢٠٠٣، بالنسبة المئوية (المصدر: اللجنة الأمريكية لتكافؤ فرص العمل).

	إجمالي العاملين	المسئولون والمديرون	المتخصصون
البيض	٦٩,٩	٨٤,٥	٧٩,٤
السود	١٣,٨	٦,٥	٧,٢
الهسبان	١١,١	٥,٠	٤,١
الآسيويون/سكان جزر المحيط الهادئ	٤,٦	٣,٦	٨,٩
الأمريكيون الهنود/سكان ألاسكا الأصليون	٠,٦	٠,٤	٠,٤

لا يزال معدَّل البطالة بالنسبة إلى الأمريكيين الأفارقة حوالي ضعف البيض. ولا يزال المعدل بالنسبة إلى الهسبان أعلى كثيرًا. لقد قلَّلت النساء فجوة الدخول، ولكن لا يزلن يَحصُلن على ٧٢ سنتًا فقط مثل الرجال بالنسبة إلى الوظائف المتماثلة. ولا يزال متوسِّط الدخل للمرأة الهسبانية التي تحمل شهادةً جامعية أقل من متوسِّط الدخل لرجلٍ أبيض يحمل الشهادة الثانوية.

الرئيس بيل كلينتون، ١٩٩٦، التوظيف المهني
في القطاع الخاص ٢٠٠٣، استُشهد به في
معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم

امتيازاتٌ دائمة

تمنح الكثير من الكليات والجامعات نقاط دخول إضافية للمُتقدِّمين الذين التحق آباؤهم أو أجدادهم بهذه الكليات. وفي هذا نزعة إلى مُحاباة البيض؛ لأن العديد من آباء وأجداد طلاب الأقليات كانوا يُمنَعون من الالتحاق بالكليات بسبب الفصل العنصري في الماضي أو العوائق المادية التي لا تزال قائمة إلى اليوم.

كذلك غالبًا ما تذهب نقاط الدخول الإضافية إلى الطلاب الذين أَخذوا مناهج تعيين مُتقدِّم في المدرسة الثانوية. ولكن هذه النقاط غير متاحة بنفس القدر لجميع الطلاب؛ لأن الكثير من المدارس الثانوية في المناطق التعليمية الأكثر فقرًا لا تُقدِّم مثل هذه المناهج.

تاريخٌ موجز

«١٩٤٩»

وقَّع الرئيس هاري ترومان أمرًا تنفيذيًّا بإلغاء الفصل العنصري في القوات المسلحة الأمريكية.

«١٩٦٤»

حظَر قانون الحقوق المدنية التمييز في التعليم والتوظيف على أساس العرق، أو اللون، أو الديانة، أو الأصل القومي.

«١٩٦٥»

أصدر الرئيس ليندون بي جونسون أمرًا تنفيذيًّا يقضي بـ «اتخاذ جميع الوكالات المتعاقدة مع الحكومة خطواتٍ تمييزيةً إيجابية لضمان تعيين جميع المتقدِّمين للوظائف، دون النظر إلى عرقهم، أو عقيدتهم، أو لونهم، أو أصلهم القومي.»

«١٩٧٠»

أصدرت وزارة العمل الأمريكية أمرًا رقم ٤ أوصت فيه بوضع أهداف وجداولَ زمنيةً لتصحيح «القصور في الاستفادة» من الأقليات من قِبَل المتعاقدين الفيدراليين.

«١٩٧٨»

أيدت المحكمة العليا الأمريكية في قرارها الصادر في قضية باكي استخدام العرق كعنصرٍ مشروع في الْتحاق الطلاب بالكليات والجامعات، ولكنها حكمت ضد استخدام الحصص النسبية أو الحدود الدنيا المستهدفة.



شكل ١٤-٦: الرئيس ليندون بينز جونسون. مكتبة ليندون جونسون (الصورة بعدسة يويتشي آر أوكاموتو).

«١٩٩٦»

أقرَّ الناخبون مقترح كاليفورنيا رقم ٢٠٩، الذي قضى بإلغاء جميع برامج التمييز الإيجابي في القطاع العام في الولاية.

«١٩٩٦»

نتيجة لحكم الدائرة الأمريكية الخامسة للاستئناف، حظَرت تكساس التمييز الإيجابي في الالتحاق بالجامعة.

«١٩٩٨»

أقرَّ الناخبون المبادرة رقم ٢٠٠ في ولاية واشنطن والتي نصَّت على حظر التمييز الإيجابي في التعليم العالي وفي التعيين.

«٢٠٠٠»

أقرَّت الهيئة التشريعية لولاية فلوريدا خطة «فلوريدا واحدة»، التي تَحظر التمييز الإيجابي.



شكل ١٤-٧: أعضاء المحكمة العليا الأمريكية عام ٢٠٠٣ (الصورة بتصريحٍ من مجموعة المحكمة العليا بالولايات المتحدة).

«٢٠٠٣»

أصدرت المحكمة العليا الأمريكية أحكامًا في قضيتَين تتضمَّنان تمييزًا إيجابيًّا بجامعة ميشيجان، بتأييد استخدامٍ محدود للعرق كعامل في مراجعة طلبات التحاق الطلاب.

(٣) مايكل أومي: الأمريكيون الآسيويون

البياض غير المُحتمِل للكينونة؟



مايكل أومي: أستاذ مشارك في الدراسات الإثنية ومدير مؤقت لجامعة كاليفورنيا في معهد بيركلي لدراسة التغير الاجتماعي. يركِّز بحثه على النظرية العرقية والسياسة والأمريكيين الآسيويين والطبقات العرقية. من ضمن مطبوعاته العديدة عن هذا الموضوع الكتاب المؤثِّر «التكوين العرقي في الولايات المتحدة» (روتلدج ١٩٩٤)، والذي اشترك في تأليفه مع هوارد وينانت. (الصورة بتصريح من مايكل أومي).

* * *

يتأمل الكاتب إريك ليو في مذكراته في كونه حاملًا لصفةٍ جديدةٍ غريبة ألا وهي: «أبيض بالتصفيق». فكتب في مقاله «آسيوي بالمصادفة: مذكِّرات متحدث باللغة الأم» (راندوم هاوس ١٩٩٨: ٣٤–٣٥): «يولد البعض بيضًا، ويُحقق البعض البياض، بينما يُخلع البياض على البعض.»

يبدو أن الأمريكيين الآسيويين يواجهون المصير الأخير. فمثلما تمَّ دمج «غرباء» سابقين — مثل الأيرلنديين واليهود — في مفاهيمنا الجمعية لماهية الشخص الأبيض،

يَعتقد بعض الباحثين وصُناع السياسة أن الأمريكيين الآسيويين يتبعون مسارًا من الاندماج تحت مظلة مفهومٍ موسع «للبياض».

يذهب عالم الاجتماع جورج يانسي، في كتابه «من هو الأبيض؟ تقسيمة اللاتينيين، والآسيويين، والسود الجدد/غير السود» (لين راينر بابليشرز ٢٠٠٣)، إلى أن الأمريكيين الآسيويين، إلى جانب بعض اللاتينيين، يَندمجون بدرجةٍ كبيرة مع البيض على مستوى البنية، والزواج، وتحديد الهوية. ويعتمد على بياناتٍ استطلاعية ليوضح أن التوجهات الاجتماعية للأمريكيين الآسيويين في عدد من القضايا أقرب إلى توجهات البيض من السود. ويعتقد يانسي أن تقسيمة أسود/غير أسود آخذة في الظهور في الولايات المتحدة مع تحول الأمريكيين الآسيويين واللاتينيين إلى «بيض» واستمرار السود في تحمُّل شكلٍ معيَّن مما يُطلق عليه «العزل» العرقي.

إن السؤال الخاص بما إذا كان الأمريكيُّون الآسيويُّون بصدد التحول إلى بيض هو سؤال معقَّد. فعلى الرغم من اعتبار الأمريكيين الآسيويين، ظاهريًّا، «أقليةً عرقية»، فإنهم لا يُعتبرون أقلية «محرومة» أو «ناقصة التمثيل». والاعتقاد الشائع هو أن الأمريكيين الآسيويين لا يواجهون تمييزًا عرقيًّا على نحوٍ مباشر ولا يتعرَّضون إلى أضرارٍ اجتماعية على أساس العرق. وانطلاقًا من مجموعةٍ مختارة من المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية، يُقال إن الأمريكيين الآسيويين قد حقَّقوا تكافؤًا مع البيض فيما يتعلق بالدخل ومستويات التعليم؛ وبالتالي نأوا بأنفسهم عن الجماعات العرقية الملونة الأخرى.

ويعدُّ التعليم العالي من الأمثلة التي كثيرًا ما يُستشهَد بها في هذا الإطار: ففيما يشكل الأمريكيون الآسيويون أقل من ٥ بالمائة من سكان الولايات المتحدة، فإن نسبةً كبيرة وملحوظة على نحوٍ مُتزايد من الطلاب في الجامعات الخاصة والعامة المرموقة عبر أنحاء البلاد من الأمريكيين الآسيويين. ففي كاليفورنيا، يُمثل هؤلاء الطلاب ٢٤ بالمائة من الطلاب الجامعيين في ستانفورد، و٣٩ بالمائة من الطلاب في جامعة كاليفورنيا، و٤٢ بالمائة من الطلاب في بيركلي.

وبينما تُعتبَر المتوسطات المنقولة لدخل الأسرة المتوسطة، ومعدلات الفقر، ومستويات التعليم مرتفعة نسبيًّا بالنسبة إلى الأمريكيين الآسيويين مقارنة بالجماعات الأخرى، فإن المؤشرات تُخفي التنوع الداخلي فيما بين أفراد الجماعة المركبة اجتماعيًّا. ويُقدِّم الأمريكيون الآسيويون نمطًا ثنائيًّا؛ فبعض الجماعات الإثنية الآسيوية (أبرزها الآسيويُّون الشرقيون مثل الصينيين واليابانيين) موسرة اقتصاديًّا إلى حدٍّ كبير، ولكن الجماعات

الأخرى (الآسيويين الجنوبيين الشرقيين مثل الهامونج والكمبوديين) غارقون في فقرٍ مدقع. غير أن مثل هذا التفاوت غالبًا ما يُعتَّم عليه في الأدبيات في سبيل نشر فئةٍ شاملةٍ متعددة الأعراق.

من بين المؤشرات الاجتماعية والثقافية الأساسية الحاضرة في الأذهان، كان المؤشر المُستشهَد به الأكثر شيوعًا على أن الأمريكيين الآسيويين بصدد التحول إلى «بِيض» هو ارتفاع معدلات تزاوج الأمريكيين الآسيويين مع البيض. وحاليًّا، يرتبط أكثر من ربع إجمالي الآسيويين المتزوجين (٢٧,٢ بالمائة) بشريك حياة من خلفيةٍ عرقيةٍ مختلفة، بينما يرتبط ٨٦,٨ بالمائة من الآسيويين المتزوجين زواجًا مختلطًا بشريكٍ أبيض، وذلك وفقًا لدراسة أجرتها جينيفر لي وفرانك دي بين. في المقابل، ينتشر الزواج المختلط بين ١٠,٢ بالمائة فقط من السود، ويحظى ٦٩,١ بالمائة بشريك حياة أبيض.

في النموذج القديم للاندماج، الذي طوَّره عالم الاجتماع ميلتون جوردون في كتاب «الاندماج في الحياة الأمريكية: دور العرق، والدين، والأصول القومية» (مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٨)، تُفسَّر المعدَّلات المتزايدة للزواج بين جماعات الأقلية والأغلبية كمؤشِّرٍ مهم لحدوث انخفاض في التحيز والتمييز بين الجماعات، ولتقليل الفواصل الاجتماعية الصارمة بينها. يقول جورج يانسي: «مع مرور وقتٍ كافٍ وارتفاع معدَّل الزواج خارج إطار الجماعة بما يكفي، سوف يفقد الأمريكيون الآسيويون التصور الاجتماعي بالانتماء إلى عرقٍ مختلف» [٢٠٠٣: ١٣٠].

وعلى الرغم من وجود توقُّع متفائل بتلاشي التمايز العرقي داخل الجماعات، يمكن لمعنى الزيجات ما بين الأعراق بالنسبة إلى الأمريكيين الآسيويين في إطار نظامٍ اجتماعي مُعرقَن إلى حدٍّ كبير أن يخضع إلى تفسيرٍ آخر مُختلِف، مثل أن النساء الأمريكيات الآسيويات، على سبيل المثال، يشيع اعتبارهن مرغوبات جنسيًّا كزوجات. والفِكَر والصور الذهنية عنهن متداولة في مجموعةٍ متنوعة من الأفلام الشهيرة إلى الأفلام الإباحية، ومن إعلانات المواعَدة إلى خدمات «طلب عرائس عبر البريد». الفكرة هي أن «الاختلاف العرقي» يمكن تأكيده، لا حجبه، مثلما يجعلنا نموذج الاندماج نعتقد. وبدلًا من الاندماج، قد يعكس التزاوج المختلط المتزايد ببساطة؛ التفاوت في القوة العرقية واستمرارية المفاهيم النمطية الثابتة للعرق، والنوع الاجتماعي، والجنسانية التي تُشكِّل التفضيلات في الزواج.

من العوائق الواضحة لاكتساب منزلة البيض بالنسبة إلى الأمريكيِّين الآسيويين التصور الاجتماعي المستمر للآسيويين بوصفهم «أجانب أبديين»، وهذه الصورة هي

انعكاس لعملية عرقنة الأشخاص من حيث انتماؤهم المفترض إلى أماكنَ أجنبيةٍ. فلم تكن دولتنا قادرة على تطهير نفسها من مخزون من الصور التمثيلية العرقية والثقافية التي تُستحضَر في الأذهان أو تتأكَّد في لحظاتٍ تاريخيةٍ معينة، والتي تَعتبر الأمريكيين الآسيويين أجانب، ومخرِّبين، وموضع شبهة.

لقد كان في كلٍّ من مُناظرة حملة التمويل الآسيوي للانتخابات الرئاسية في عهد كلينتون–جور وقضية فضيحة التجسُّس المتورط فيها هو لي؛ تأكيدٌ على انعدام الثقة السائد في الأمريكيين الآسيويين بفعل أجنبيتهم المُفترَضة وولائهم المشكوك فيه. وقد وجد استطلاعٌ قومي أُجري عام ٢٠٠١ عن التوجُّهات الأمريكية نحو الأمريكيين الصينيين أن ٣٢ بالمائة ممن شملهم الاستطلاع كانوا يشعرون أن الأمريكيين الصينيين أكثر ولاء للصين عن أمريكا. وقد صرح أولئك الذين شملهم الاستطلاع أنهم سيكونون أكثر «انزعاجًا» من التعامل مع أمريكيٍّ آسيوي كرئيس للولايات المتحدة، أو رئيسٍ تنفيذي لشركة على قائمة فورتشن ٥٠٠، أو مُشرف في العمل من أمريكيٍّ أفريقي، أو امرأة، أو أمريكيٍّ يهودي.

في نظامٍ عرقي مُقسَّم إلى طبقات، تُحدَّد مواضع الجماعات المختلفة وتعرقن بطرقٍ مختلفة. وعلى عكس الأمريكيين الأفارقة، غالبًا ما تكون نظرة البيض للأمريكيين الآسيويين أنهم بمثابة تهديد ليس بسبب اعتبارهم أدنى شأنًا، ولكن بسبب اعتبارهم منافسين غير شرفاء يحققون «نجاحًا بالغًا» ويكتسبون مزايا اجتماعية ويحصلون على مواردَ ماديةٍ قيمة نتيجة لذلك.

كان لمثل هذا الاعتقاد عواقب هزلية. ففي نوفمبر ٢٠٠٥، نشرت جريدة «وول ستريت جورنال» مقالًا إخباريًّا بعنوان «النزوح الجديد للبيض» والذي ركَّز على مدرسة مونتا فيستا الثانوية، في مدينة كوبرتينو، بولاية كاليفورنيا؛ وهي مدرسةٌ ذات سمعةٍ أكاديميةٍ مميزة كانت تفقد الطلاب البيض مع ازدياد قيد الطلاب الآسيويين بها على نحوٍ مثير.

أقرَّت امرأةٌ بيضاء كانت ترأس رابطة آباء ومعلمي مونتا فيستا بأنها قد قامت مؤخرًا بإقناع أسرة طفلٍ صغير بالعدول عن الانتقال إلى كوبرتينو؛ نظرًا لقلة أعداد الطلاب البيض المتبقِّين في المدارس العامة: «قد لا يبدو وقع ذلك جيدًا، ولكن طفلهم قد يكون الطفل القوقازي الوحيد في الفصل ... فالتصور السائد عن الأطفال البيض أنهم أطفال أغبياء.» قارن ذلك مع موجة النزوح «القديمة» للبِيض بسبب السود والمناطق التعليمية «الآخذة في التدهور» وسرعان ما ستدرك الصورة كاملة.

ثمة دراسات وأدبيات حديثة تحدَّت وجهة النظر القائلة بأن الأمريكيين الآسيويين يمكن بسهولة تصنيفهم أو الاعتراف بهم كـ «بيض شرَفيين»، وفي إطار هذا التحدي ركزت على قضايا الهرمية العرقية، والعنصرية، وبروزها المتواصل.

في كتاب «الوسط العرقي: اللاتينيون والأمريكيون الآسيويون يعيشون خارج التقسيم العرقي» (مطبعة جامعة نيويورك ٢٠٠٨)، يُعبِّر المستطلعون من الأمريكيين الآسيويين الذين استجوبتْهم عالمة الاجتماع إيلين أوبراين عن أيديولوجياتٍ عرقية ويدافعون عن هويات تكشف عن موقعٍ اجتماعيٍّ متميز داخل نموذج السود/البيض السائد الخاص بالعرق في الولايات المتحدة.

وفي كتاب «خرافة الأقلية النموذجية: الأمريكيون الآسيويون في مواجهة العنصرية» (بارادايم بابليشرز ٢٠٠٨)، يُصوِّر عالما الاجتماع روزاليند شو وجو فيجين كيف يواجه الأمريكيون الآسيويون فرادى العَداء العرقي والتمييز في مختلف المواقع الاجتماعية والمؤسسية، وطرائقهم المتميزة في الاستجابة على نحوٍ استراتيجي لمثل هذه المعاملة، والتي من ضمنها التأقلُم السلبي والمقاوَمة النشطة.

ولكن ما قد يكون مفقودًا على نحوٍ جوهري في النقاش الأوسع فيما يتعلق بما إذا كان الأمريكيون الآسيويون سيُصبحون من «البيض» هو وجود تحدٍّ حقيقي لفئة «العرق الأبيض» الإشكالية ذاتها. كتب الباحث القانوني جون إيه باول يقول إنه حتى لو كان «يجوز اعتبار» هذه الجماعات من العرق الأبيض، «فإن هذا لا يُجدي بشيء في مسألة تغيير المعنى المقترن بهذا الحد الفاصل في المقام الأول.» ويُشير على نحو ينمُّ عن فطنة وفراسة إلى أن «الحاجة الملحَّة لجواز اعتبارهم من العرق الأبيض في حد ذاتها إنما تُشير إلى البروز المتواصل للهرمية العرقية.»

إن تطبيق فكرته من شأنه إضفاء معنًى مختلف على موضوع ما إذا كان الأمريكيون الآسيويون يتحوَّلون إلى بيض. ربما لا تكون القضية التي ينبغي مواجهتها ما إذا كانت فئة «البيض» تتمدَّد لتشمل الأمريكيين الآسيويين، وإنما لماذا يوجد تحرك نحو توسيع مفهومنا عن العرق الأبيض، في ظل المناخ العرقي الحالي؟

(نشر هذا المقال لأول مرة في دورية هاير إيديوكيشن، في ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٨، ص ٥٦–٥٨. حقوق الطبع محفوظة لمايكل أومي. أعيد طبعه بإذن من المؤلف.)

(٤) ميكا بولوك: بعض الخرافات عن العرق ينبغي لكل تربوي نسيانها تمامًا



ميكا بولوك: أستاذ التعليم بجامعة كاليفورنيا، بسان دييجو. ركزت في كتابتها وأبحاثها كمتخصصة في أنثروبولوجيا التعليم، على الكيفية التي يتواصل بها الشباب والكبار بشأن القضايا اليومية المعنية بالتنوع والفرصة في المدارس. وتضم كتبها التي حازت على جوائز: «إسكات الألوان: مُعضلات حديث الأعراق في مدرسة أمريكية» (٢٠٠٥)؛ «لأجل العرق: كيف يُناقش الأمريكيون مسائل الضرر والفرص في مدارسنا» (٢٠٠٨)؛ و«المناهضة اليومية للعنصرية: تحري الواقعية بشأن العرق في التعليم» (٢٠٠٨). من خلال «مشروع وانفيل» (www.oneville.org)، بدأت د. بولوك في دراسة كيف تدعم التكنولوجيا الشائعة الأشخاص في المجتمعات التعليمية المتنوِّعة من خلال مشاركة الأفكار، والمعلومات، والموارد، والجهود (الصورة بتصريح من ميكا بولوك).

* * *

تشير أبحاثي عن الحديث عن الأعراق في مجال التعليم — وجهود التطوير المهني مع المعلمين — إلى أن المعلمين الذين يتحدَّثون عن العرق اليوم (أو يرفضون الحديث عنه) غالبًا ما يُصارعون مع أربع خرافات عن العرق. وهذه الخرافات شائعة بين غير المعلِّمين أيضًا. فقد ظهرت على مدار القرون القليلة الماضية لتفسير التفاوت العرقي الذي وضعه

البشر، بوصفه أمرًا طبيعيًّا. أولًا: هل تُعتبر «الأعراق» حقًّا مجموعاتٍ بيولوجيةً أو وراثيةً حقيقية متشعِّبة من الجنس البشري؟ (لا؛ انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب.) ثانيًا: هل تكون بعض «الأعراق» أكثر ذكاءً من الأخرى؟ (لا، مثلما يوضح هذا الفصل.) ثالثًا: هل الفرص في أمريكا متكافئة على المستوى العرقي؟ (لا؛ كما يبيِّن هذا الفصل.) رابعًا: هل فجوات الإنجاز التي تحدُث بسبب التوجُّهات «الثقافية» للجماعات نحو التعليم؟ (لا؛ وأعالج هذه القضية هنا أيضًا.) نحن بحاجة إلى عرض الأدلة التي تدحض كل خرافة، حتى تكون الحقائق في متناول يد المعلمين وغيرهم.

ثمة الْتفاتةٌ سريعة للخرافة الأولى التي تفتقر إلى الدقة أساسًا، والتي نوقشت في موضعٍ آخر في هذا الكتاب، ألا وهي: «نحن لا ننتمي إلى مجموعاتٍ عرقية بأي معنًى بيولوجيٍّ ثابت.» فهذا فقط في منظومة عدم المساواة التي توارَثناها (بولوك ٢٠٠٤). فابتداء من التوسع الاستعماري والعبودية في القرن الخامس عشر، بدأ الأوروبيون في استخدام الشكل الجسماني — أي الفروق المنظورة في شكل الأنف، ولون الجلد، وملمَس الشعر، وشكل العين، وبِنية عظام الوجه — كوسيلةٍ مختصرة لتحديد من ستكون لهم الفرص ومن سيفقدونها (سانجيك ١٩٩٦؛ سميدلي ١٩٩٩). فكانت القوانين، على سبيل المثال، تقضي بأن يتقاضى «البيض» المنحدرون من أصلٍ أوروبي أجرًا نظير عملهم وألَّا يتقاضى العبيد «السود» ذوو الأصول الأفريقية أي أجر، وأن يمتلك «البيض» دون «الآسيويين» أملاكًا خاصة، أو يُعاملوا كمواطنين (سميدلي ١٩٩٩؛ الماجوير ١٩٩٤؛ هاني لوبيز ١٩٩٦؛ هو–ديهارت). نأتي إلى الخرافة الثانية: كانت هذه اللامساواة العرقية المتعمَّدة آنذاك مدعومة «بعلمٍ» عرقي، برَّر المكانة غير المتساوية على نحوٍ متزايد «للأعراق» بالدفع على نحوٍ مغلوط بأن الاختلافات «الداخلية»، مثل «الذكاء» أو الدافعية أو الأخلاق، تُبرِّر عدم تساوي المكانة (جولد ١٩٨١؛ سميدلي ١٩٩٩). اقترح توماس جفرسون، أحد المدافعين عن حرية الأمريكيين الأوروبيين، في كتابه «ملاحظات عن ولاية فرجينيا» أنه ربما ينبغي أن يظل العبيد السود عمالًا بلا أجر؛ لافتقارهم إلى القدرة العقلية التي تُؤهِّلهم لأي عمل من نوعٍ آخر.

إذن ماذا بعدُ؟ هل الفرص متكافئة عرقيًّا اليوم؟ حسنًا، كلا.

الخرافة: الفرص في أمريكا الآن متكافئة عمومًا بصرف النظر عن العرق.

الحقيقة: الفرص في أمريكا غالبًا لا تزال غير متكافئة على المستوى العرقي.

لعل أفضل أداة شاهدتُها لبدء حوارٍ شاملٍ قائم على الحقائق حول عدم المساواة العرقية في التعليم اليوم هي بِنيَة حوار قدمتها ريبيكا بلانك، وهي عالمة اقتصاد (٢٠٠٥). تناقش بلانك عدم المساواة العرقية اليوم باعتبارها نتاجًا لثلاثة أشكال من الأضرار التراكُمية بالنسبة إلى العديد من الملوَّنين، وعلى العكس، المزايا التراكمية للأشخاص الذين كان يُنظر إلى عائلاتهم باعتبارهم «بيضًا»:

الأضرار والمزايا التراكمية عبر «الأجيال».
الأضرار والمزايا التراكمية عبر «النطاقات»، مثل الصحة والإسكان.
الأضرار والمزايا التراكمية عبر «حياة الأطفال» في نطاقٍ واحد، مثل التعليم.

أولًا، كيف تراكم عدم المساواة العرقية-الطبقية «عبر الأجيال» في الولايات المتحدة؟ حسنًا، على مدى قرون بررت الخرافتان الأولى والثانية التوزيع غير العادل المتعمَّد لفُرص الحياة، غالبًا عن طريق التعليم ذاته. وفيما يلي بعض الأمثلة. في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، تم توسيع نطاق التعليم العام المجاني على نحوٍ استباقي ليشمل الأطفال ذوي الأصول الأوروبية في الولايات المتحدة. وبالتزامن مع ذلك حرَمت قوانينُ حَظرِ تعليم القراءة والكتابة الأطفالَ ذوي الأصول الأفريقية من العبيد في الجنوب؛ من تعلم القراءة على الإطلاق. كان السود محرومين من المدارس ذات التمويل الحكومي خلال القرن التاسع عشر في الشمال، وغالبًا ما كانوا يُضطرُّون إلى الدفع لمدارسهم؛ وبالمثل حُرِم الصينيون من المدارس ذات التمويل الحكومي في سان فرانسيسكو في القرن التاسع عشر وكانوا يدفعون لمدارسهم (وولينبرج ١٩٧٦)؛ وبحلول عام ١٩١٠ كان السود لا يَزالون يُلحُّون من أجل التوسع في المدارس العامة في الجنوب وكان واحد فقط من كل ١٢ شابًّا أسود في سن المرحلة الثانوية في الجنوب يقيَّد في المدارس من الأساس (أندرسون ١٩٨٨). في الوقت ذاته، كان الأمريكيون الأصليون يتعرَّضون للتهجير قسريًّا من أراضي أسلافهم ذات الاستدامة الاقتصادية بموجب قانون تهجير الهنود لعام ١٨٣٠، وأُرغم الكثيرون فيما بعدُ على الالتحاق بمدارس يقوم البيض على إدارتها صُمِّمت صراحة بهدف «قتل الهندي» الذي بداخل الأطفال. في عام ١٩٣٠، كان ٨٥ بالمائة من الأطفال الأمريكيين المكسيكيين في الجنوب الغربي يرتادون المدارس في بيئاتٍ مُتدنية الموارد وتعاني الفصل العنصري عمدًا؛ حيث كانوا، بالمقارنة «بأقرانهم» البيض، يُوجَّهون إلى التعليم المهني ويُشجَّعون على

التسرب من التعليم بعد المرحلة الابتدائية من أجل العمل في مِهَنٍ يدوية (دوناتو ١٩٩٧). وفي كل الحالات، كان لتجارب الأطفال «البيض» مع التعليم المجاني الأعلى جودة نتائجُ مهمة فيما يتعلق بجمع ثروات عائلاتهم؛ إذ كان يمكنهم آنذاك الالتحاق بوظائفَ أعلى أجرًا من أقرانهم غير «البيض».

على مدى كل ذلك، اختبر «البيض» أيضًا توسعًا تفضيليًّا في المزايا الاقتصادية على نحوٍ سافر. على سبيل المثال، حُرم المهاجرون الذين لم يُصنَّفوا ك «أشخاصٍ بيض أحرار» من المواطنة بموجب قانون التجنيس لعام ١٧٩٠ (الذي لم يُلغَ تمامًا حتى عام ١٩٥٢)؛ ومن ثمَّ لم يستطيعوا امتلاك أي ممتلكاتٍ خاصة في العديد من المناطق أو التصويت لأشخاص يستطيعون حماية مصالحهم الاقتصادية.

على مدار الزمن، صارت الفرص المَمنوحة والمحجوبة على المستوى «العرقي» بمثابة فروقٍ طبقيةٍ أساسية. وهذا تحديدًا ما جعل المُنظِّر مانينج مارابل يُطلِق على نقاش «العرق أم الطبقة؟» نقاشًا زائفًا (انظر أيضًا بولوك ٢٠٠٤). وفيما يلي مثالٌ شخصي لمثل هذه «المزايا التراكمية». لقد استفاد جدي، الذي لم يتجاوَز في تعليمه المرحلة الابتدائية، من ميثاق حقوق المُحاربين القدماء، الذي وضع بعد الحرب العالمية الثانية، ليقدم خدمات الإسكان والتعليم على نحوٍ تفضيلي للمحاربين القدماء من «البيض» (بحسب ما يوضح ساكس (١٩٩٧)، كان اليهود يُعامَلون ك «بيض» بعد الحرب العالمية الثانية) فقام مع جدتي بشراء منزل وساعَدا في توفير وعاءٍ ضريبي لدعم بناء مدارسَ عامةٍ جيدة التجهيز في الحي الذي يقطناه؛ وساعد هذا والدي على الالتحاق بالكلية. عندما حصل والدي على أول وظيفة له كأستاذٍ جامعي، ساعده جدي وجدتي في شراء منزل، باستخدام الثروة التي جمعاها بعد مجموعة من المنازل. والتحقتُ بمدارسَ عامةٍ ذات مواردَ كافيةٍ بوعاءٍ ضريبي كافٍ على نحوٍ مُماثل، والتحقتُ بالكلية دون حتى أن أتخيل بدائل أخرى. وحين كنتُ جاهزًا لشراء منزل، شملت الدفعة المقدمة التي دفعتها ليس فقط مدَّخراتي التي جمعتُها بشق النفس، بل أيضًا عطايا صغيرة تلقَّيتها من والدي جاءت من جيلَين من جمع الثروات من شراء المنازل. وكانت وظيفتي آنذاك تؤمِّن لي دفع أقساطٍ معقولة للرهن العقاري على ذلك المنزل، ورعايةً صحية مدعَّمة لأطفالي، وأتاحت لي إرسال أطفالي إلى دار للحضانة ساعدت في تأهيلهم للمدرسة. لنتأمل في النقاط الأساسية لإحصائيات بلانك المجمَّعة: بفضل توزيع ميثاق حقوق المحاربين القدماء ومزايا ما بعد الحرب العالمية الثانية الأخرى، «سوف يحصل الأمريكيون الأفارقة الذين بلَغ آباؤهم سن الرشد في

الأربعينيات والخمسينات من القرن العشرين على أقل من عُشر الإرث الذي يحصل عليه أقرانهم من البيض» (بلانك ٢٠٠٥: ١٥).

هذا هو التطبيق العملي «لامتيازات البيض»: إنها أموالٌ حقيقية. لقد كان جدي يذهب إلى العمل، حتى آخر يوم في حياته بمعنى الكلمة؛ وكان الأفراد في كل جيل مُتعاقِب من أجيال عائلته يعملون بكدٍّ على نحو لا يُصدَّق. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية، استفدنا جميعًا أيضًا من دعمٍ حكومي ساعدَنا في جمع ثروة.

ويوجد ما هو أكثر من ذلك: في سبعينيات القرن العشرين وما بعدها، كانت القرارات القضائية والحكومية بعدم معالجة التفاوت الذي نشأ عن الفصل العنصري الذي فُرض في السابق معالجةً تامَّةً بمثابة ضمان بأن يظل التفاوت العرقي-الطبقي المُتراكم الناجم عن الفصل العنصري بلا علاج أيضًا. واليوم، لا يزال الأطفال «البيض»، المُتكتِّلون في مدارسهم التي لا تزال تُطبِّق الفصل العنصري، وأحيائهم السكنية التي تحظى بأوعيةٍ ضريبيةٍ عقارية أعلى؛ ينعمون في أحيائهم بخدماتٍ اجتماعية ومستويات تعليم أفضل تمويلًا من أقرانهم الملوَّنين (كوزول ١٩٩١). والأطفال البيض اليوم غير فقراء على نحوٍ غير مُتكافئ، والأطفال الملوَّنون فقراء على نحوٍ غير مُتكافئ أيضًا، والعديد من المهاجرين من آسيا وأمريكا اللاتينية ينتقلون إلى الأحياء ذات الفصل العنصري التي تفتقر إلى الخدمات الاجتماعية أو وعاءٍ ضريبيٍّ جيد. حتى الملوَّنين الذين يَحصلون على صافي رواتب مكافئ «للبيض» لا يتمتَّعون بثروةٍ مجمعة عبر الأجيال على نحوٍ مُماثل (لارو وكونلي ٢٠٠٨). وبسبب اختيارات السكن التي يتسبب فيها العرق، يتشارك البيض المحدودو الدخل أيضًا الأحياء السكنية، والمَرافق، والمدارس مع البيض الأكثر ثراءً أكثر مما يَفعل الملوَّنون (تشارلز ٢٠٠٨). في الواقع، إن طلاب اليوم يدخلون وبرفقتهم كمٌّ ضخم من المزايا والمساوئ التراكمية للثروة. وتشمل الإجراءات التدخلية المتَّخذة ضد المساوئ الاقتصادية المتراكمة إنشاء منظومةٍ عامة لمرحلة الروضة (كيرب ٢٠٠٧؛ روثستاين ٢٠٠٤)، والجهود المبذولة على مستوى الأحياء، مثل برنامج «بروميس نيبرهوودز»، ومؤسسة «هارلم تشيلدرنز زون» (تاف ٢٠٠٨).

يقودنا هذا إلى الشكل الثاني «للمزايا والمساوئ التراكمية» لريبيكا بلانك. كيف يتراكَم عدم المساواة العرقية اليوم «عبر النطاقات»؟ حسنًا، في مدارس وأحياء اليوم، لا يزال الأطفال «البيض» يتمتَّعون في أغلب الأحيان، ليس فقط بالمزايا التراكمية للمدارس العامة ذات الموارد ومصادر التمويل الجيدة على نحوٍ غير مُتكافئ (هوتشيلد وسكوفرونيك

٢٠٠٣؛ كوزول ٢٠٠٥)، بل أيضًا بتعليمٍ ذي تمويلٍ خاصٍّ في فترة ما قبل المدرسة (كيرب ٢٠٠٧)، وأنشطة خارج المنهج الدراسي، واستقرارٍ سكني، وتغذية، ورعايةٍ صحية (روثستاين ٢٠٠٤؛ لارو ٢٠٠٣). وقد أوضَح الباحث ريتشارد روثستاين (٢٠٠٤) أنه عند تركيز الأطفال المحدودي الدخل في مدرسة تُطبق الفصل العنصري، إنما يتمُّ تركيز معدَّلٍ مرتفع من الاحتياج والعوز، وتَستفحِل مسألة عدم تكافؤ الفرص التعليمية؛ ما لم يتمَّ أيضًا تركيز مساعَداتٍ مستجيبة لهذه المشكلات. فإذا لم يكن بإمكانك أن ترى السبُّورة بسبب عدم وجود تأمينٍ صحي، ومن ثم لا تملك نظارة؛ فلن يُمكنك أداء العمل، وإذا كنت مصابًا بالربو أو لم تأكل، فلن يمكنك التنفس أو التركيز جيدًا. إذا كان حولك عددٌ كبير من الأطفال، فسوف تواجه مشكلة في التركيز، وإذا لم يكن لديك استقرارٌ سكَني، فالأغلب أنك ستَتنقَّل بين المنازل؛ والتنقُّل، الذي يُعرقل العلاقة بين المعلم والطالب ويعوق رصد التقدم الذي يحرزه الطالب؛ يؤثر سلبًا على النتائج الدراسية لكلٍّ من الطالب المتنقل والأطفال الذين يضطربون بفعل قدومه المفاجئ.

«غالبًا ما تُركِّز المدارس على المساوئ والمزايا الاقتصادية، ولكن ما يحدث للأطفال يوميًّا داخل المدارس يُشكِّل مسارات الأطفال أيضًا.» وهذا يقودنا إلى ثالث نقاط بلانك. تذهب بلانك إلى أن عدم المساواة العرقية في الفرص والنتائج في التعليم يتراكم أيضًا «كل يوم داخل المدارس». على سبيل المثال — حسبما تشير بلانك — من المحتمل أن يوضع الطلاب البيض (الذين في الغالب ما يكونون قد التحَقوا بالروضة) ضمن مجموعة قراءة ذات «قدرة» عالية في المدرسة الابتدائية على نحوٍ غير مُتكافئ. والطلاب الذين يوضعون ضمن مجموعة كهذه في المدرسة الابتدائية غالبًا ما يَحصلون على توجيهٍ أفضل، وينتهي بهم المطاف في فصول التعيين المُتقدِّم ثم الكلية لاحقًا. حتى إنه بينما نحن نتحدث عن مجموعات القراءة المُبكِّرة كمقاييس عادية «للقدرة» الفطرية، فإنها في الواقع عبارة عن تجمُّعات لأطفال يُجيدون القراءة بمستوياتٍ معينة في الوقت الحالي؛ نظرًا لوجود خبراتٍ تعليمية سابقة لديهم (وحتى ما يُزعم أنه «فطري» مثل درجات اختبار الذكاء هو نتاج الخبرات الحياتية والتعليمية على مدار الوقت. انظر ميهان ١٩٩٢، والجمعية الأمريكية لعلم النفس: «الذكاء: المعلوم والمجهول» [١٩٩٥ / ٦])، وهذه التجمُّعات يمكن «بعد ذلك» أن يكون لها نتائجُ جوهرية فيما يتعلق بمسارات الأطفال.

يوجد ما هو أكثر: يَميل المعلمون، الذين ينتمون هم أنفسهم إلى البيض والطبقة المتوسطة بالدرجة الأولى، إلى الاستجابة على نحوٍ أكثر إيجابية للطلاب ممَّن لديهم خبرات

من واقع الطبقة المتوسطة (لارو ٢٠٠٣؛ هيث ١٩٨٣)؛ ويميلون كذلك إلى الاستجابة على نحوٍ أكثر إيجابية للطلاب البيض؛ إذ تبدو أساليبهم في الحديث (بو ٢٠٠٨)، والملبس (كارتر ٢٠٠٨)، والتفاعل أكثر ألفة، وتحظى أيضًا بمزيد من التقدير إلى حدٍّ كبير. فلا تزال الفِكَر القديمة حتى عن شكل «الذكاء» وأي «المجموعات» تتسم «بالذكاء» (حتى ولو عن غير عمد) حاضرة في قرارات المعلمين اليومية بشأن تنسيق الموهوبين وتجميع ذوي القدرات وتخصيص المناهج، مما يترتب عليه عواقبُ جوهريةٌ لمسارات الطلاب الأكاديمية وكيفية تفكير الطلاب بشأن ذكائهم وإمكانياتهم (تايسون ٢٠٠٨؛ أونج ٢٠٠٨؛ روبين ٢٠٠٨).

يُوضِّح بيدرو نوجويرا (٢٠٠٨) أن المعلمين غالبًا ما يُقوِّمون الطلاب الملوَّنين على نحوٍ غير متكافئ، ويعتمدون القسوة خاصة في ذلك؛ وهذا التصرف اليومي ليس له عواقبُ جوهرية على دافعية الطلاب وعلاقتهم بالمعلمين وإدراكهم النهائي لإمكانياتهم فحسب، بل إن تكرار إيقافهم المؤقت عن الدراسة يساهم أيضًا في كثرة تغيبهم (بولوك ٢٠٠٨أ) وغالبًا ما يؤدي بعد ذلك إلى التسرُّب من التعليم. والتسرب في حد ذاته ليس قرارًا مفاجئًا، وإنما قرار ينشأ عبر عدة سنوات. تأمَّل خبرتك التعليمية، وفكِّر في «ملايين التفاعلات اليومية» (جونسون ٢٠٠٤) التي تسهم في دفع طفل إلى الوصول إلى مرحلة التخرج. تُوضِّح أعمال أنجيلا فالنزويلا (١٩٩٩)، ونيلدا فلوريس-جونزاليز (٢٠٠٢)، وبرودنس كارتر (٢٠٠٥)، وأعمالي وأعمال زملاء آخرين (بولوك ٢٠٠٨أ؛ ٢٠٠٨ب) كافة؛ كيف أنه من خلال التفاعلات مع الكبار بالمدرسة، وبين الأقران، وما بين الكبار بالمدرسة والأسر، إما أن يبني الطلاب علاقاتٍ إيجابية مع المدرسة وإما أن يَنصرفوا عن مدارس بعينها بمرور الوقت.

وأيُّ نظرة عن كثب إلى التفاعلات الفعلية في المدارس تُفجِّر أيضًا الخرافة الرابعة؛ خرافة أن النتائج التي يُحرزها الطلاب هي مجرد انعكاس «لخلفياتهم» «الثقافية»، أو «قيَمهم» «الثقافية»، وليس خبراتهم التعليمية. فمصائر الطلاب الأكاديمية تُبنى من خلال التفاعلات الآنية، عندما يتفاعل الأطفال مع معلميهم وأقرانهم وآبائهم ومختلف الأشخاص الآخرين والمواقف الأخرى في حياتهم. بعبارةٍ أخرى: «يتفاعل الطلاب مع مُعلِّميهم على أساسٍ يومي، بل لحظي.» حتى وهم يتفاعَلون بصفةٍ مستمرة مع آبائهم وأقرانهم ومع خبراتهم الضارة أو المفيدة خارج المدارس. بدورهم «يتفاعل المعلمون مع الأطفال على أساسٍ يومي، بل لحظي.» حتى وهم يتفاعلون مع الأسر وطرق تنشئة

الأسر لأبنائها. و«تراكم هذه التفاعلات اليومية، في سياقٍ من المزايا والمساوئ القائمة مسبقًا» هو ما يصنع إنجاز الطالب. فالتصرفات اليومية للمعلمين في الردهات ومكاتب العمداء (واستجابات الطالب لتصرفات المعلمين) تتراكم لتصوغ مسارات الطلاب المعرفية والأكاديمية، وتصرفات الكثير من الأشخاص تتجمَّع لتصنع «التسربات» (فرجسون ٢٠٠٠؛ فاين ١٩٩١). فالأطفال يوقفون عن الدراسة بسبب «العصيان» جزئيًّا؛ لأنه من خلال التوقيف المُتكرِّر بسبب العصيان، يَصيرون أكثر عصيانًا (لادسون-بيلينجس، حوارٌ شخصي، ٢٠٠٠؛ بولوك ٢٠٠٨أ؛ فرجسون ٢٠٠٠؛ نوجويرا ٢٠٠٨).

تتجاهَل التحليلات «السطحية» التي تقارن «الثقافات» في المدارس مثل هذه الحقائق والوقائع التفاعلية وتَزعُم أنها تفسر «فجوات الإنجاز الدراسي» بوضع مزاعمَ سريعةٍ حول كيفية تفاعل الآباء والأبناء المُنحدِرين من جماعات عرقية/إثنية متعدِّدة، أو أصلٍ قومي، جماعاتٌ طبقية مع المدارس (بولوك ٢٠٠٨ج). وغالبًا ما تكون مثل هذه التحليلات «السطحية» فِكَرًا نمطيةً ثابتة. وهي «سطحية»؛ لأنها تُسفِّه على نحوٍ خطيرٍ من العمليات، والتفاعلات، والممارسات الاجتماعية التي تصنع نتائجَ متفاوتةً للأطفال. ومثل هذه المزاعم تُتيح للمتحدثين تفسير نتائج الإنجاز ببساطةٍ شديدة بوصفها من صنع الآباء والأطفال دون بحث خبرات الحياة الواقعية للآباء والأطفال فعليًّا في سياقات فُرصٍ محدَّدة.

كذلك لا تنسى البياناتُ الخاصة بثقافة المكان، بصورةٍ روتينية، أن الأشخاص من مجموعةٍ ما كثيرًا جدًّا ما يشاركون المعتقدات، والدوافع، والسلوكيات الأساسية المرتبطة بالمدرسة مع أشخاص من مجموعةٍ أخرى فحسب، ولكن تنسى أيضًا أن أفراد المجموعة دائمًا ما يَتفاوَضون على مهمة «الإنجاز» في تفاعلٍ تكويني مع أشخاص من «خارج» «المجموعة». وتُوضِّح المقالات الواردة في كتاب بيري، وستيل، وهيليارد بعنوان «شاب، وموهوب، وأسود» (٢٠٠٣) كيف يتفاعل الشباب السود الملتحقون بالمدارس الأمريكية باستمرارٍ مع «غير السود» وفِكَرهم المُدمِّرة «بشأن» السود. على نحوٍ مماثل، يوضح كتاب أنيت لارو عن الضغط الأبوي في إطار «الطبقة المتوسطة» أنه في سبيل دفع «طلاب الطبقة المتوسطة» إلى النجاح، لا بد أن يتفاعل المُعلمون إيجابيًّا مع أساليب الآباء من «الطبقة المتوسطة» في الضغط. فحتى «دافعية» الطالب أو «توجهه» يُنمَّيَان أو يُهدَّدان في التفاعلات الآنية بين أفراد المجموعة والآخرين في السياقات المشتركة، ولا «يُتوارَثان» فحسب داخل «مجموعة» ما.

إن هذه المعلومات يُمكن أن تقود إلى طريقةٍ تحولية في الحديث عن قوة تأثير تصرفات المعلمين اليومية. ويُقدِّم كتاب «المناهضة اليومية للعنصرية»، الذي قدَّمتُه مع العديد من الزملاء، ٦٥ مقالًا قصيرًا، يَلفت كلُّ واحد منها انتباه المعلمين إلى واحد من التصرفات الروتينية التي يقومون بها في عملهم. ونُوضِّح أنه من خلال الانتباه بدقة إلى التفاعلات اليومية مع الطلاب، يستطيع المعلمون أيضًا مكافحة التفرقة العرقية على نحوٍ جوهري. حتى مع تراكُم المساوئ والمزايا عبر الأجيال وعبر النطاقات واستمرارها في التراكم، تكون مهمَّة المعلمين هي التأكُّد من أنه في كل خطوة يدفع في الاتجاه المضاد.

إن المعلمين ليسوا هم من صَنَع الخرافات العِرقية أو عدم المساواة العرقية؛ ولكنهم يتعايَشون معها كل يوم. واليوم، لا تزال العديد من تبايُناتنا بلا علاج بدلًا من تنظيمها على نحوٍ فعَّال (بولوك ٢٠٠٨أ)، وهو ما يُعزى جزئيًّا إلى أن الخرافات المتناوَلة هنا تشوِّش الرؤى الواضحة للتقدُّم. ومثل بقيتنا، يحتاج المعلمون إلى التفكير في الكيفية التي يَتشكَّل بها إنجاز الطالب، في ظل وجود حقائقَ ملموسةٍ في أيديهم، في منظومة تتَّسم فيها التفرقة العرقية بأنها «طبيعية» بالكاد، ولكنها تعزز بمرور الوقت من قِبَل العديد من الأطراف المساهمة في التفاعُل داخل وخارج المدارس.

(ظهر بعضٌ من هذه المادة لأول مرة في «التركيز على تصرُّفات المعلمين اليومية»، وهو منشور بمدونة لصالح «ليدسكيب» (http://www.niusileadscape.org/bl/?p=72#more-72)، وفي مقال من «الضحالة إلى العمق: نحو تحليلاتٍ ثقافيةٍ شاملة لأنماط الإنجاز الدراسي» بمجلة أنثروبولوجي آند إيديوكيشن الربع سنوية العدد ٣٩ (٤): ديسمبر ٢٠٠٨.)

المراجع

Burris, C. C., and D. T. Garrity:

2008 Detracking for Excellence and Equity. Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.

Gurin, P., E. L. Dey, S. Hurtado, and G. Gurin:

2002 Diversity and Higher Education: Theory and Impact on Educational Outcomes. Harvard Educational Review, 72(3): 330–366.

Henze, Rosemary:

2007 The Academic Achievement Gap and Equity. *In* How Real is Race?": A Source book on Race, Culture and Biology. Carol Mukhopad-hyay, Rosemary Henze, and Yolanda T. Moses, eds. New York: Roman and Littlefield.

Kennedy, R.:

2010 The Enduring Relevance of Affirmative Action. The American Prospect. August. http://www.prospect.org/cs/articles?article=the_enduring_relevance_of_affirmative_action, accessed January 29, 2012.

Mills, Nicolaus:

1994 Debating Affirmative Action: Race, Gender, Ethnicity, and the Politics of Inclusion. New York: Delta Trade Paperbacks.

Oakes Jeannie, and Gretchen Guiton:

1995 Matchmaking: The Dynamics of High School Tracking Decision. American Educational Research Journal (Spring) 32: 3–33.

Pollock, M.:

2008 From Shallow to Deep: Toward a Thorough Cultural Analysis of School Achievement Patterns. Anthropology & Education Quarterly, 30(4): 369–380.

Steele, Claude M., and Joshua Aronson:

1995 Stereotype Threat and the Intellectual Test Performance of African Americans. Journal of Personality and Social Psychology, 69(5): 797–811.

Webb, J.:

2010 Diversity and the Myth of White Privilege. Wall Street Journal, July 22. http://online.wsj.com/article/NA_WSJ_PUB:SB10001424052748703724104575379630952309408.html, accessed January 29, 2012.

مايكل أومي الأمريكيون الآسيويون البياض غير المُحتمِل للكينونة

Chou, Rosalind, and Joe Feagin:

2008 The Myth of the Model Minority: Asian Americans Facing Racism. Boulder, CO; Paradigm Publishers.

Gordon, Milton:

1968 Assimilation in American Life: The Role of Race, Religion, and National Origins. New York: Oxford University Press.

Hwang, Suien:

2005 The New White Flight. Wall Street Journal, November 19: A1.

Liu, Eric:

1998 The Accidental Asian: Notes of a Native Speaker. New York: Random House.

O'Brien, Eileen:

2008 The Racial Middle: Latinos and Asian Americans Living Beyond the Racial Divide. New York: New York University Press.

powell, john a.:

2005 Dreaming of a Self Beyond Whiteness and Isolation. Washington University Journal of Law and Policy, 18: 13–45.

Yancey, George:

2003 Who Is White? Latinos, Asians, and the New Black/Nonblack Divide. Boulder, CO: Lynne Rienner Publishers, Inc.

ميكا بولوك: بعض الخرافات عن العرق ينبغي لكل تربوي نسيانها تمامًا

Almaguer, Tomas:

1994 Racial Fault Lines: The Historical Origins of White Supremacy in California. Berkeley: University of California Press.

Anderson, J.:

1988 The Education of Blacks in the South, 1860–1935. Chapel Hill: University of North Carolina.

Baugh, John:

2008 Valuing Non-standard English. *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. Mica Pollock, ed. Pp. 102–106. New York: The New Press.

Blank, Rebecca M.:

2005 Tracing the Economic Impact of Cumulative Discrimination. American Economic Review 95(2): 99–103.

Carter, Prudence:

2005 Keepin' It Real: School Success Beyond Black and White. Oxford: Oxford University Press.

Carter, Prudence:

2008 Teaching Students Fluency in Multiple Cultural Codes. *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School, ed. Mica Pollock, ed. 107–111. New York: The New Press.

Charles, Camille Zubrinsky:

2008 Who Will Live Near Whom? Poverty and Race Research Action Council Newsletter. September/October.

Donato, Ruben:

1997 The Other Struggle for Equal Schools: Mexican Americans during the Civil Rights Era. Albany: State University of New York Press.

Ferguson, Ann Arnett:

2000 Bad Boys: Public Schools in the Making of Black Masculinity. Ann Arbor: University of Michigan Press.

Fine, Michelle:

1991 Framing Dropouts: Notes on the Politics of an Urban Public High School. Albany: State University of New York Press.

Flores-Gonzalez, Nilda:

2002 School Kids, Street Kids: Identity Development in Latino Students. New York: Teachers College Press.

Gould, Stephen Jay:

1981 The Mismeasure of Man. New York: W. W. Norton and Company.

Haney López, Ian F.:

1996 White by Law: The Legal Construction of Race. New York: New York University Press.

Heath, Shirley Brice:

1983 Ways with Words: Language, Life and Work in Communities and Classrooms. Cambridge: Cambridge University Press.

Hochschild, Jennifer, and Nathan Scovronick:

2003 The American Dream and the Public Schools. New York: Oxford University Press.

Hu-Dehart, Evelyn:

1996 P.C. and the Politics of Multiculturalism in Higher Education. *In* Race, Steven Gregory and Roger Sanjek, eds. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.

Johnson, Deborah J.:

2004 The Ecology of Children's Racial Coping: Family, School, and Community Influences. *In* Discovering Successful Pathways in Children's Development. Thomas S. Weisner, ed. pp. 87–110.

Kirp, David L.:

2007 The Sandbox Investment: The Preschool Movement and Kids-First Politics. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Kozol, Jonathan:

1991 Savage Inequalities. New York: Harper.

Kozol, Jonathan:

2005 Still Separate, Still Unequal: America's Educational Apartheid. Harper's Magazine 311(1864): 1, September.

Lareau, Annette:

2003 Unequal Childhoods: Class, Race, and Family Life. Berkeley: University of California Press.

Lareau, Annette, and Dalton Conley, eds.:

2008 Social Class: How Does it Work? New York: Russell Sage.

Mehan, Hugh:

1992 Why I like to Look: On the Use of Videotape as an Instrument in Educational Research. *In* Issues in Qualitative Research. M. Schratz, ed. London: Falmer Press.

Mehan, Hugh:

1993 Beneath the Skin and between the Ears: A Case Study in the Politics of Representation. *In* Understanding Practice: Perspectives on Activity and Context. Jean Lave and Seth Chaiklin, eds. Cambridge: Cambridge University Press.

Noguera, Pedro A.:

2008 What Discipline is For: Connecting Students to the Benefits of Learning. *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. Mica Pollock, ed. pp. 132–137. New York: The New Press.

Ong, Maria:

2008 Challenging Cultural Stereotypes of "Scientific Ability." *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. Mica Pollock, ed. pp. 114–119. New York: The New Press.

Pollock, Mica:

2004 Colormute: Race Talk Dilemmas in an American School. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Pollock, Mica:

2008a Because of Race: How Americans Debate Harm and Opportunity in Our Schools. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Pollock, Mica, ed.:

2008b Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. New York: The New Press.

Pollock, Mica:

2008c From Shallow to Deep: Toward a Thorough Cultural Analysis of School Achievement Patterns. Anthropology & Education Quarterly, 30(4): 369–380.

Rothstein, Richard:

2004 Class and Schools: Using Social, Economic, and Educational Reform to Close the Black-White Achievement Gap. Washington, DC: Economic Policy Institute; New York: Teachers College, Columbia University.

Rubin, Beth C.:

2008 Grouping in Detracked Classrooms. *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. Mica Pollock, ed. pp. 90–95. New York: The New Press.

Sacks, Karen Brodkin:

1997 How Did Jews Become White Folks? *In* Critical White Studies. Richard Delgado and Jean Stefancic, eds. Philadelphia: Temple University Press.

Sanjek, Roger:

1996 The Enduring Inequalities of Race. *In* Race. Steven Gregory and Roger Sanjek, eds. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.

Smedley, Audrey:

1999 Race in North America: Origin and Evolution of a Worldview. 2nd edition. Boulder, CO: Westview Press.

Tough, Paul:

2008 Whatever It Takes: Geoffrey Canada’s Quest to Change Harlem and America. Boston: Houghton Mifflin Harcourt.

Tyson, Karolyn:

2008 Providing Equal Access to “Gifted” Education. *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. Mica Pollock, ed. p. 126. New York: The New Press.

Valenzuela, Angela:

1999 Subtractive Schooling: U.S.-Mexican Youth and the Politics of Caring. Albany: State University of New York Press.

Wollenberg, C. M.:

1976 “Yellow Peril” in the Schools. *In* All Deliberate Speed: Segregation and Exclusion in California Schools, 1855–1975. Berkeley: University of California Press.

ميكا بولوك: بعض الخرافات عن العرق، قراءات إضافية

Abu El-Haj, T. R.:

2006 Elusive Justice: Wrestling with Difference and Educational Equity in Everyday Practice. New York: Routledge.

Appadurai, Arjun:

1996 Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Bailey, Benjamin:

2000 Language and Negotiation of Ethnic/Racial Identity among Dominican Americans. Language and Society 29: 555–582.

Barth, Fredrick:

1969 Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference. Boston: Little, Brown.

Cazden, Courtney B.:

2005 Agency, Collaboration, and Learning in a Middle-School Program. Paper prepared for the Charles Darwin Symposium Series 2005, Imagining Childhood: Children, Culture and Community, Alice Springs, Australia, September 20–22.

Conchas, Gilberto Q.:

2006 The Color of Success: Race and High-achieving Urban Youth. New York: Teachers College Press.

Diamond, John, and K. Williams Gomez:

2004 African American Parents' Orientations toward Schools: The Implications of Social Class and Parents' Perceptions of Schools. Education and Urban Society.

Erickson, Frederick:

1987 Conceptions of School Culture: An Overview. Educational Administration Quarterly 23(4): 11–24.

Erickson, Frederick:

1996 Going for the Zone: The Social and Cognitive Ecology of Teacher-Student Interaction in Classroom Conversations. *In* Discourse, Learning, and Schooling. D. Hicks, ed. Cambridge: Cambridge University Press.

Erickson, Frederick:

2006 Culture in Society and in Educational Practices. *In* Multicultural Education: Issues and Perspectives. 6th edition. James Banks and Cherry McGee Banks, eds. pp. 31–60. Hoboken, NJ: John Wiley/Jossey Bass.

Foley, Doug:

2008 Questioning "Cultural" Explanations of Classroom Behaviors. *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. Mica Pollock, ed. New York: The New Press.

Foley, Douglas A., Bradley A. Levinson, and Janise Hurtig:

2000–2001 Anthropology Goes Inside: The New Educational Ethnography of Ethnicity and Gender. Review of Research in Education 25: 37–98.

Foster, Michele:

1997 Black Teachers on Teaching. NewYork: The New Press.

Garcia, Eugene:

2008 Valuing Students' Home Worlds. *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. Mica Pollock, ed. New York: The New Press.

Geertz, Clifford:

1973 The Interpretation of Cultures. NewYork: Basic Books.

Gonzáles, Norma, Luis Moll, and Cathy Amanti, eds.:

2005 Funds of Knowledge: Theorizing Practice in Households, Communities, and Classrooms. Mahwah, NJ: L. Erlbaum Associates.

Goodenough, W.:

1976 Multiculturalism as the Normal Human Experience. Anthropology and Education Quarterly 7(4): 4–7.

Gutierrez, K., P. Baquedano-López, and C. Tejeda:

1999 Rethinking Diversity: Hybridity and Hybrid Language Practices in the Third Space. Mind, Culture, and Activity, 6(4): 286–303.

Gutierrez, K., and Barbara Rogoff:

2003 Cultural Ways of Learning: Individual Traits or Repertoires of Practice. Educational Researcher 32(5): 19–25.

Hall, Kathy:

2002 Lives in Translation: Sikh Youth as British Citizens. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Henry, Jules:

1963 Culture against Man. New York: Vintage Books.

Ibrahim, Awad El Karim:

1999 Becoming Black: Rap and Hip-Hop, Race, Gender, Identity, and the Politics of ESL Learning. ESOL Quarterly 33(3): 349–369.

Jacob, Evelyn, and Cathie Jordan, eds.:

1993 Minority Education: Anthropological Perspectives. Westport, CT: Ablex Publishing.

Jones, Makeba, and Susan Yonezawa:

2008 Inviting Students to Analyze their Learning Experience. *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. Mica Pollock, ed. New York: The New Press.

Kuipers, Joel, and Ray McDermott, eds.:

2007 Fine Description: Ethnographic and Linguistic Essays of Harold C. Conklin. New Haven: Center for Southeast Asian Studies, Yale University.

Ladson-Billings, Gloria:

1997 *The Dreamkeepers: Successful Teachers of African American Children*. San Francisco: Jossey-Bass.

Ladson-Billings, Gloria:

2006 It's Not the Culture of Poverty, It's the Poverty of Culture: The Problem with Teacher Education. Anthropology and Education Quarterly 37(2): 104–109.

Lamont, Michèle:

2000 The Dignity of Working Men: Morality and the Boundaries of Race, Class, and Immigration. New York: Russell Sage Foundation; Cambridge, MA: Harvard University Press.

Lave, Jean, and Etienne Wenger:

1991 Situated Learning: Legitimate Peripheral Participation. Cambridge: Cambridge University Press.

Lave, Jean, and Seth Chaiklin, eds.:

1993 Understanding Practice: Perspectives on Activity and Context. Cambridge: Cambridge University Press.

Lee, Stacey J.:

1996 Unraveling the "Model Minority" Stereotype: Listening to Asian American Youth. New York: Teachers College Press.

Levinson, Bradley A.:

2001 We Are All Equal: Student Culture and Identity at a Mexican Secondary School, 1988–1998. Durham, NC: Duke University Press.

Louie, Vivian S.:

2004 Compelled to Excel: Immigration, Education, and Opportunity among Chinese Americans. Stanford: Stanford University Press.

Maira, Sunaina, and Elisabeth Soep:

2004 Youthscapes: The Popular, the National, the Global. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

McDermott, R. P.:

1997 Achieving School Failure 1972–1997. *In* Education and Cultural Process: Anthropological Approaches. 3rd edition. George D. Spindler, ed. Prospect Heights: Waveland Press, pp. 110–135.

McDermott, R.P., Kenneth Gospodinoff, and Jeffrey Aron:

1978 Criteria for an Ethnographically Adequate Description of Concerted Activities and Their Contexts. *Semiotica* 24: 3/4.

Moerman, Michael:

1968 Being Lue: Uses and Abuses of Ethnic Identification. *In* Essays on the Problem of Tribe. Jane Helm, ed. Seattle: University of Washington Press.

Moll, Luis C., and Stephen Diaz:

1993 Change as the Goal of Educational Research. *In* Minority Education: Anthropological Perspectives. Evelyn Jacob and Cathie Jordan, eds. Westport, CT: Ablex Publishing.

Nieto, Sonia:

2000 Affirming Diversity: The Sociopolitical Context of Multicultural Education. New York: Addison Wesley Longman, Inc.

O’Connor, Carla:

1997 Dispositions toward (Collective) Struggle and Educational Resilience in the Inner City: A Case Analysis of Six African-American High School Students. American Educational Research Journal 34, Winter: 593–629.

Olsen, Laurie:

1997 Made in America: Immigrant Students in Our Public Schools. New York: The New Press.

Ortner, Sherry:

1984 Theory in Anthropology since the Sixties. Comparative Study in Society and History 26(1): 126–66.

Page, Reba Neukom:

1991 Lower Track Classrooms: A Curricular and Cultural Perspective. New York: Teachers College Press.

Payne, Charles:

1984 Getting What We Ask For. Westport, CT: Greenwood.

Perry, Pamela:

2002 Shades of White: White Kids and Racial Identities in High School. Durham, NC: Duke University Press.

Rosaldo, Renato:

1993 Culture and Truth: The Remaking of Social Analysis. Boston, MA: Beacon Press.

Schultz, Katherine, ed.:

2008 Interrogating Students' Silences. *In* Everyday Antiracism: Getting Real about Race in School. New York: The New Press.

Seyer-Ochi, Ingrid:

2006 Lived Landscapes of the Fillmore. *In* Innovations in Educational Ethnography: Theory, Methods, and Results. George Spindler and Lorie Hammond, eds. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.

Spindler, George:

1997 [1974] Beth Anne: A Case Study of Culturally Defined Adjustment and Teacher Perceptions. *In* Education and Cultural Process: Anthropological Approaches. 3rd edition. George D. Spindler, ed. Prospect Heights, IL: Waveland Press, 246–261.

Spindler, George D., and Louise Spindler, eds.:

1994 Pathways to Cultural Awareness: Cultural Therapy with Teachers and Students. Thousand Oaks, CA: Corwin Press.

Teel, Karen Mannheim, and Jennifer E. Obidah:

2008 Building Racial and Cultural Competence in the Classroom. New York: Teachers College Press.

Thorne, Barrie:

1993 Gender Play: Girls and Boys in School. New Brunswick: Rutgers University Press.

Varenne, Herve, and Ray McDermott:

1998 Successful Failure: The School America Builds. Boulder, CO: Westview Press.

Willis, Paul:

1977 Learning to Labor: How Working-class Kids Get Working-class Jobs. Farnborough, England: Saxon House.

Yoshikawa, Hiro:

2008 Roundtable: How Do We Talk Accurately about the Role of Parents? Harvard Graduate School of Education, February 13.

قراءات أخرى

Chronicle of Higher Education.:

2010 College-going rates for all racial groups have jumped since 1980: July 14.

Espinosa, L. L.:

2010 Where is the Dialoque? web log comment, July 8. http://diverseeducation.com/blogpost/277/where-is-the-dialogue.html, accessed January 29, 2012.

Hacker, A., and C. Dreifus, C.:

2010 Are Colleges Worth the Price of Admission? Chronicle of Higher Education. http://chronicle.com/article/Are-Colleges-Worth-the-Price/66234/, accessed January 29, 2012.

Lewis, B.:

2010 Webb Calls for Ending Diversity Programs. Diverse Education, July.diverseeducation.com/cache/print.php? articleId=13980, accessed January 29, 2012.

Malsen, G.:

2007 The Academic Achievement Gap and Equity. *In* How Real is Race? A Sourcebook on Race, Culture and Biology. Carol Mukhopadhyay, Rosemary Henze, and Yolanda T. Moses, eds. Roman and Littlefield.

Malsen, G.:

2010 US: Degree shortfall will hit economy hard. University World News, 132. http://www.universityworldnews.com/article.php?story=20100709182339930&query=Degree+s hortfall, accessed January 29, 2012.

Palmer, R.T., and K. A. Griffin:
2009 Desegregation Policy and Disparities in Faculty Salary and Workload: Maryland's Historically Black and Predominantly White Institutions. The Negro Educational Review 60: 7–21.

الفصل الخامس عشر

الربط بين العرق والثروة

معضلةٌ أمريكية

قَدِم المهاجرون من شتى أنحاء العالم إلى أمريكا طواعية منذ اكتشافها؛ بسبب الوعد بمُستقبلٍ أفضل. بمعنى أن أمريكا هي المكان الذي إذا اجتهَدتَ فيه، يمكنك أن تتعبَّد كما تشاء، وتعتنق معتقداتٍ سياسيةً مختلفة، وتَنجح اقتصاديًّا، وتُمرِّر ذلك الثراء والرخاء إلى أبنائك من بعدك. ولكن حقيقة هذا الادِّعاء كانت ولا تزال مختلفة تمامًا، ومن الصعوبة بمكان بلوغها بالنسبة إلى الكثير من الأمريكيين، لا سيما عند النظر إليها من خلال عدسة العرق.

بداية، كانت الثروة في الولايات المتحدة، ولا تزال، قائمة على العديد من الحقائق، من بينها الأصول المرئية، مثل الأراضي والأموال (جيرستل ٢٠٠١: ٧؛ أوليفر وشابيرو ١٩٩٥: ٢). تتضمن معادلة الثروة أيضًا الأصول غير المرئية، مثل التعليم، والمعرفة والمهارات المتخصصة، والفرص، والامتيازات. ويتَّسم تاريخ النمو الاقتصادي للولايات المتحدة بطابَعٍ عرقي إلى جانب كونه قائمًا على الطبقية. ولم يُخلِّف ذلك منظومةً اجتماعيةً متدرجة عرقيًّا فحسب، بل خلَّف أيضًا منظومةً اقتصادية لا بد أن نفهمها من أجل البدء في تفكيكها. سوف يَستكشِف هذا الفصل الدور الذي لعبه العرق وتقاطعاته مع الطبقية، وإلى حدٍّ ما، مع النوع الاجتماعي، والجغرافيا، من أجل الحفاظ على التفاوت في الثروة. وعلى الرغم من إحراز بعض التقدُّم حتى الآن، لا تزال سياسات وممارسات الماضي المتعلِّقة بحيازة الأراضي، وامتلاك المنازل، وجمع الثروة التي كانت تحابي النخبة من الأمريكيين

الأوروبيين تحافظ على التفاوت في الثروة بين الجماعات الملوَّنة المُعرقَنة حتى يومنا هذا (أوليفر وشابيرو ١٩٩٥؛ وشابيرو وآخرون ٢٠١٠). ولكن دعنا أولًا نبحث كيف نشأت هذه المنظومة وقت ميلاد ديمقراطيتنا في القرن التاسع عشر.

(١) حيازة الأراضي خلال الفترات الاستعمارية

خلال الفترات الاستعمارية كانت حيازة الأراضي مقتصرة على الذكور البيض الأثرياء على امتداد الساحل الشرقي، وأخيرًا فيما أصبح يُعرف بعد ذلك الولايات الجنوبية. خلال هذه الفترة، من عام ١٦٠٤ حتى عام ١٨٠٠، كانت المطالبة بالأراضي من الأمريكيين الأصليين تتمُّ إما عن طريق المقايضة أو الاتفاقيات أو المصادرة. بحلول عام ١٨٠٠، أدى المرض، والحرب، والمعاهَدات الأمريكية الاستعمارية إلى نزوح معظم القبائل إلى غرب جبال الأبالاش. ومع حلول منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أجاز قانون تهجير الهنود الصادر عام ١٨٣٠ للحكومة ترحيل آلافٍ آخرين من الأمريكيين الأصليين إلى الأراضي الواقعة غرب نهر المسيسيبي، ولقي المئات حتفهم جراء تلك الخطوة، التي يُطلَق عليها «درب الدموع» (انظر الفصل السادس لنظرةٍ أكثر شمولًا على القوانين الأمريكية المتعلِّقة بمصادرة أراضي الأمريكيين الأصليين). بحلول عام ١٩٠٠، وبموجب قانون إتاحة الأراضي العامة للاستخدام الزراعي الصادر عام ١٨٦٢، الذي منَح المستوطنين قطعًا من الأراضي العامة بمساحة ١٦٠ فدانًا، سُمح لآلافِ الأمريكيين البِيض بالاستيلاء على أراضٍ كان يشغلها الهنود الأمريكيون فيما سبق. إضافة إلى ذلك، قسَّم قانون دوز للملكية الفردية لعام ١٨٨٧ الأراضي التابعة للقبائل إلى حصصٍ فردية. وكانت الأراضي التي تُعتبَر زائدة تُباع إلى مشترين بيض. وحتى عام ٢٠٠٧، لا يزال ٦٠ بالمائة من الأراضي التي كان يُفترض أنها مملوكة للأمريكيين الأصليين في المحمية الهندية؛ غير مملوك للجماعة القبَلية. وخسر الأمريكيون الأصليون ٩٥ بالمائة من أراضيهم حتى الآن؛ إذ تم تهجيرهم على نحوٍ مُمنهَج من قِبَل الحكومة الأمريكية، التي هيَّأت في نفس الوقت فرصًا قانونية للمستوطنين البيض للاستحواذ على الأراضي مع اتجاه الدولة غربًا. وقد أطلَق بعضُ المؤرِّخين على هذه العملية أيضًا اسم «المصير الحتمي»، وبرَّروا ذلك بالحاجة إلى مزيد من الأراضي لاستيعاب ضغط البيض والمهاجرين الذين يحتاجون للاتجاه غربًا وتخفيف الزحام في الساحل الشرقي (زِن ٢٠٠٣: ٦٨٦).

من يملك الأرض؟

«خسر الأمريكيون الأصليون ٩٥ بالمائة من أراضيهم.»

خسائر مبكرة

خلال عقود من استعمار الأوروبيين الأوائل للأمريكتَين، بدأت الأمراض في إهلاك السكان الأصليين. فقد تُوفي عدد لا حصر له من الأمريكيين الأصليين جرَّاء أمراضٍ أوروبية، مثل الجدري، والملاريا، والحصبة. وفي نيو إنجلاند وحدها، انخفضت أعداد السكان الأصليين بنسبة ٧٠ بالمائة. ورأى الكثير من المُستوطِنين من أوروبا في الأوبئة دليلًا على رضا الرب عن ادِّعاء ملكية الأرض واستعمارها.

إرث التخصيص

خلال أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر بدأت الحكومة الأمريكية في تحديد إقامة الأمريكيين الأصليين في المحميات، بهدف تحويلهم إلى مُزارعين. ولكن العديد من المحميات كانت تحوي مواردَ ضخمةً في مجال الزراعة، وزراعة الغابات، والتعدين. وأتاح قانون دوز للملكية الفردية لعام ١٨٨٧ الكثير من هذه الأراضي للشراء من قِبَل البيض. و«خُصِّص» لكل ذكرٍ هندي ١٦٠ فدانًا، مع بيع الأراضي «الزائدة» لمُلَّاك المزارع ورجال الأعمال.

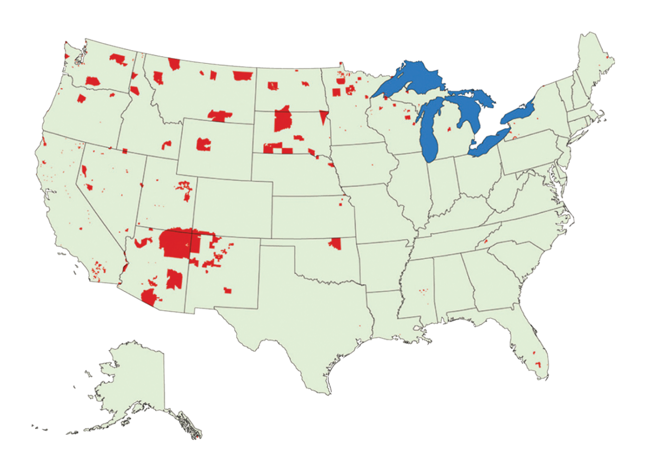
فيما بين عامي ١٨٨٧ و١٩٣٤، انخفضَت حيازات الأراضي لدى القبائل من ١٣٨ مليون فدان إلى ٤٨ مليون فدان.

لا تزال آثار تخصيص الأراضي ملموسة اليوم، في ظل «تقسيم» العديد من المحميات بين القبائل، والأفراد من الهنود وغير الهنود، والحكومات المحلية والفيدرالية. وبدون الامتلاك الفعلي للأراضي، يظلُّ الأمريكيون الأصليون من بين أفقر مُواطني البلد.

سار تخصيص الأراضي جنبًا إلى جنب مع السياسات الهادفة إلى دمج الهنود داخل ثقافة البيض. فمنذ ثمانينيات القرن التاسع عشر وحتى عشرينيات القرن العشرين، أُرسل آلاف من الأطفال الهنود إلى مدارسَ داخليةٍ خارج المحميات الهندية. وكان احتكاكهم بأُسرهم وبالتقاليد — بما في ذلك اللغة، والدين، والملبس — مقيَّدًا، وغالبًا ما كان يصل إلى مرتبة الحظر. وكانت العديد من المدارس تُرسل الطلاب للعمل كخدم في منازل البيض المحليِّين. وتُوفي الكثر من الأطفال من المرض والإهمال.

اقتلوا الهندي الذي بداخله، وأنقذوا الإنسان (الجنرال ريتشارد برات، مؤسس مدرسة كارلايل الهندية للتدريب الصناعي، ١٨٩٢، استُشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).

يحدوني قدرٌ وافر من الأمل في أن يمتلك الشعب الهندي هذه الأرض من جديد. لن يكون ذلك في حياتي، ولكن ربما يرى أحفادي يومًا تُصبح فيه كل الأراضي داخل حدود المحمية مملوكة فعليًّا للشعب الهندي وتحت إدارته (كريس شتاينبروك، رئيس مؤسسة «إنديان لاند تنيور»، مينيسوتا ٢٠٠٥، من تواصلٍ شخصي مع ريتشيل موريتز، متحف مينيسوتا للعلوم، سبتمبر ٢٠٠٦).



شكل ١٥-١: أراضي السكان الأصليين اليوم. أكثر من ٦٠ بالمائة من الأراضي الواقعة في المحميات الهندية خرَجت من حيازة القبائل. الخريطة بتصريح من مؤسسة إنديان لاند تنيور.

يمثل شعب الشيروكي دراسة حالةٍ مُثيرة للغاية في فهم كيفية سير هذه العملية على الأرض. ففي عام ١٨١٩، قرَّر شعب الشيروكي، في محاولة منهم للعيش في سلام مع التيار الدائم التمدد من المستوطنين البيض المتَّجهين غربًا، التعايُش معهم. وتبنَّوا أيضًا سياسةً فيدرالية كي يُصبحوا «مُتحضِّرين». وكان هذا يعني الاستقرار على قطع من الأراضي، والتحول إلى مزارعين. وقاموا بتأسيس حكومة كدولة ذات سيادة، ولكن لم يُعترف بحكومتهم قطُّ من قِبَل ولاية جورجيا. وبحلول العقد الثاني من القرن التاسع عشر وعلى الرغم من تبنِّيهم لطُرق وأساليب البيض المتحضرة، (بما في ذلك تأسيس هرمياتٍ عرقية داخل شعب الشيروكي)، كان ثمَّة ضغط من مواطني جورجيا البيض لدفع الحكومة الفيدرالية إلى تهجير الشيروكي لإفساح المجال للمزارعين البيض الراغبين في زراعة محاصيل القطن المجزية (ياربرو ٢٠٠٧: ٣٠).

تحويل «البنيين» إلى بيض/تهجير الشيروكي

لقد وضعت سياسة التحضر فعليًّا من أجل دمجنا داخل أمريكا، وكان هدفها أن تجعلنا مُزارعين في نهاية الأمر، وتجعلنا نعيش مثلما يعيش المُستعمِرون. لقد كانت سياسة التحضُّر من أجل جعلنا بيضًا بنيِّين (ريتشارد ألين، محلل سياسي، شعب الشيروكي، ٢٠٠٣: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).



شكل ١٥-٢: يُوضح الخط الأحمر أراضي الشيروكي قبل التهجير في عام ١٨٣٨. أما الخط الأزرق فيُوضِّح إقليم الشيروكي الأصلي (الصورة بتصريح من روجر بويم، متحف مينيسوتا للعلوم).

قصة الشيروكي

بحلول عام ١٨١٩ كان شعب الشيروكي قد تنازل عن أكثر من ٩٠ بالمائة من أراضيه للحكومة الأمريكية، وتبنَّى سياستها القائمة على خلق هنودٍ «مُتحضِّرين» بتحويلهم إلى مُزارعين. أدار شعب الشيروكي مزارع ومشاتل في ألاباما، وجورجيا، وتينيسي، وفي عشرينيات القرن التاسع عشر بدءوا في نشر جريدة شيروكي فونيكس، وهي جريدة تتحدَّث بلغتَين. بل إن البعض منهم امتلك عبيدًا. وقاموا بتشكيل حكومة ودستور على غرار حكومة ودستور الولايات المتحدة. ولكن

لم تَعترف ولاية جورجيا بوضعهم السيادي، واعتبرتهم بدلًا من ذلك مُستأجِرين يعيشون على أراضي الولاية. حين تقدَّم المُستوطنون البيض جنوبًا، مُتلهِّفين لزراعة القطن، استولوا على الماشية المملوكة للشيروكي، وحرقوا بلداتهم، واستولوا على أراضيهم. وبدءوا أيضًا في الضغط على الحكومة الفيدرالية للاستحواذ على إقليم الشيروكي.

الأراضي محل النزاع مملوكة لجورجيا، ولا بد أن تَحوزها، وسوف تحوزها (تقرير الهيئة التشريعية لولاية جورجيا، ١٨٢٧، استُشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم.)

ربما تُنهب ممتلكاتنا أمام أعيننا؛ وقد يُمارس العنف على مواطنينا؛ بل قد تُسلَب أرواحنا، ولا يوجد أحدٌ ينظر إلى شكاياتنا بعين الاعتبار. نحن مجرَّدون من صفتنا القومية، محرومون من حق التصويت، نحن محرومون من العضوية في العائلة البشَرية! ليس لدينا أراضٍ ولا منازل، ولا مقبرة يُمكن أن تُسمى ملكًا لنا (زعيم قبائل الشيروكي، رسالة إلى مجلس الشيوخ الأمريكي ومجلس النواب، ١٨٣٦، استُشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).

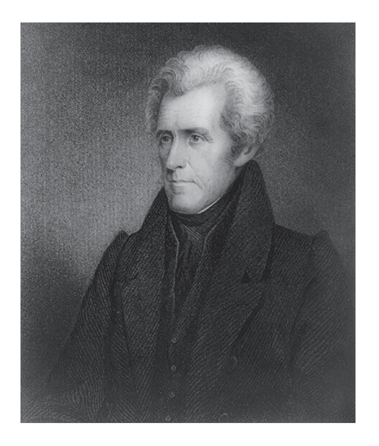
بما أنها قد نشأت وسط عرقٍ آخر ومُتفوِّق، فلا بد بالضرورة أن تَستسلم لقوة الظروف وتتلاشى قبل وقتٍ طويل (الرئيس أندرو جاكسون، الرسالة السنوية الخامسة للكونجرس، ١٨٣٣، استُشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).

فرص المواطن (الأبيض) العادي

في عام ١٨٢٨ انتُخب أندرو جاكسون رئيسًا على أساس برنامجٍ قائم على خلق فرصة أكبر «للمواطن العادي». ولكن أفكاره حول جَعْلِ أمريكا أكثر ديمقراطية لم تمتد إلى الأمريكيين الأصليين؛ فالهنود، من وجهة نظر جاكسون، لا ينبغي أن يُصبحوا مثل البيض، وإنما يجب أن يحافظوا على أنفسهم كهنود؛ على أرضٍ بعيدة عن مدن البيض ومُستوطَناتهم. وفي عام ١٨٣٠ أقر الكونجرس قانون تهجير الهنود، الذي أمر بتسليم أراضي قبائل الشيروكي، وكري، وتشوكتو، وتشيكاسو، وسيمينول شرق المسيسيبي.

درب الدموع

على مدى نحو عقد، دخَلت قبائل الشيروكي في حربٍ قانونية ضد تهجيرهم، وفازت باستئنافَين في المحكمة الأمريكية العليا. ولكن خلال شتاء عام ١٨٣٨، أرغمهم الجيش على مغادَرة منازلهم تحت تهديد السلاح. وتمَّ اقتيادهم في اتجاه الغرب إلى «الإقليم الهندي» المؤسَّس حديثًا في أوكلاهوما الحالية. بحلول عام ١٨٤٠ تم تشريد أكثر من ٤٦ ألف هندي شرقي؛ مما أتاح ٢٥ مليون فدان لاستيطان البيض.



شكل ١٥-٣: الرئيس أندرو جاكسون (الصورة بتصريح من مكتبة الكونجرس).



شكل ١٥-٤: «درب الدموع»، ١٩٤٢. لقي ربع شعب الشيروكي، أي نحو ٤ آلاف شخص، مصرعهم جراء أمراض مثل الحصبة والالتهاب الرئوي والسل، خلال الرحلة الإجبارية إلى الغرب التي صارت معروفة ب «درب الدموع» (الصورة بتصريح من مجموعة جرانجر، نيويورك).

في عام ١٨٢٣، انتُخب أندرو جاكسون رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية. كان لجاكسون شعبيةٌ هائلة وسط الطبقة العاملة أو «المواطنين العاديين»، خاصة صغار المزارعين. اعتُبر جاكسون، الذي كان أحد أبطال حرب ١٨١٢، الشخص الذي سيقود

البلاد بينما هي ماضية في دفع شعبها نحو الغرب. وقد تشكَّلت فِكَره بشأن الهنود بفعل مِهنته السابقة كجندي في الحرب. وأدَّى هذا الانحياز إلى اتخاذ قراره بتهجير ليس فقط الشيروكي، بل أيضًا تهجير قبائل كري، وتشوكتو، وتشيكاسو، وسيمينول من أراضيهم. خاضت قبائل الشيروكي، على خلفية درايتها بقوانين ومحاكم الولايات المتحدة، حربًا قانونية ضد تهجيرهم على مدى أكثر من عشر سنوات. ولكن في عام ١٨٤٠ بدأ التهجير على أشدِّه مع استنفاد خياراتها القانونية كافة. وهذه هي القصة السياسية والاقتصادية وراء الاضطراب الذي صار معروفًا باسم «درب الدموع»، الذي ورد ذكره من قبل في هذا الفصل وفي فصولٍ أخرى. وقد أتاح هذا النزوح لمختلف الجماعات القبلية إلى إقليم أوكلاهوما الجديد ملايين الأفدنة من الأرض أمام أولئك المزارعين والمستوطنين البيض الجدد (زِن ٢٠٠٣: ٦٨٦).

ثمة مثالٌ آخر لضياع الأرض ومُصادرتها؛ هو الأرض التي خسرتها قبائل أوجيبوا أو أنيشينابه بولاية مينيسوتا في أواخر القرن التاسع عشر. فقد أُرغمَت هذه القبائل على التنازل عن أراضيها لإفساح مجالٍ للمزارعين من المهاجرين البيض، وتم ترحيلهم إلى «محمية الأرض البيضاء». ولكن بحلول عام ١٩٢٠ رأى سكان «الأرض البيضاء» معظم تلك الأراضي وقد بيعت على نحوٍ غير قانوني لشركات الأخشاب وللحكومة الأمريكية. لمزيد من المعلومات الأساسية عن العواقب المعاصرة لتلك القضية تحديدًا انظر قانون تسوية الأراضي بمحمية الأرض البيضاء لعام ١٩٨٥ (الكونجرس الأمريكي ١٩٨٥).

الغزو الأمريكي لكاليفورنيا المكسيكية

[إن] مصيرنا الحتمي أن ننتشر في شتى أنحاء القارة التي وهبنا الله إياها من أجل التنمية الحرة للملايين من سكاننا الذين يتضاعفون سنويًّا (جون أوسوليفان، كاتب عمود ومحرر، ١٨٤٥، استشهد بها في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).

الحرب المكسيكية الأمريكية

في عام ١٨٤٦ اندلعت الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك بعد سنوات من التوتُّر والنزاع حول توسُّع الأولى نحو المحيط الهادئ. ومع مطلع عام ١٨٤٧، سيطرت الولايات المتحدة على كاليفورنيا وبقية ما كان آنذاك شمال المكسيك. وحوصر آلاف المكسيكيين الذين يعيشون في المناطق الحدودية.

الكاليفورنيون الإسبان

كان يشغل كاليفورنيا آلاف من الكاليفورنيين الناطقين بالإسبانية؛ وكان من بينهم أشخاص من سلالة مُستوطنين أوروبيين من إسبانيا والمكسيك إلى جانب أمريكيين أصليين، وأولئك المنحدرين من أصل أوروبي وأصلي مُختلَط ممَّن تبنَّوا الثقافة الإسبانية وتحوَّلوا إلى المذهب الكاثوليكي، وعاشوا هناك لأجيال. وبحلول عام ١٨٥٠، كان نحو ٢٠٠ من عائلات كاليفورنيا العريقة تمتلك حوالي ١٤ مليون فدان من الأرض في الإقليم. وكان الكاليفورنيون يَتكسَّبون من تربية الماشية، وصناعة النبيذ، وزراعة محاصيل الفاكهة الحمضية؛ لذلك كان امتلاك الأرض أمرًا بالغ الأهمية لهم.

إن حكومتنا هي حكومة البِيض … وعلى مدار التاريخ الإنساني كاملًا، ما من مثال لعرق ملوَّن مُتحضِّر، من أي لون، وُجد أهلًا لتأسيس حكومةٍ حرة والحفاظ عليها (السيناتور الأمريكي جون سي كالهون، في مناظرة حول ضم الأراضي المكسيكية، عام ١٨٥٠، استُشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).



شكل ١٥–٥: أنهت معاهدة جوادالوبي هيدالجو عام ١٨٤٨ الحرب رسميًّا ونقلت أقل من نصف أراضي المكسيك بقليل إلى الولايات المتحدة (بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم، سي جونسون).



شكل ١٥-٦: عائلة ديل فاييه، رانشو كامولوس، مقاطعة فينتورا، ١٨٨٨ (بتصريح من الجمعية التاريخية بكاليفورنيا).

النَّهَم بالذهب

في ٢٤ يناير ١٨٤٨، وقبل أسبوع من توقيع معاهدة جوادالوبي هيدالجو، اكتُشف الذهب في كاليفورنيا الشمالية، وسرعان ما وجَد أصحاب المزارع أراضيهم وقد غمَرها الأمريكيون البيض والمهاجرون من شتى أنحاء العالم. وفي أعقاب حُمى الذهب، صار الكثير من الوافدين الجدد يرون في امتلاك جزء من أراضي كاليفورنيا حقًّا وهبه الله لهم. وتصاعدت الخصومات العرقية وتزايدت وتيرة العنف، وكان جزء منها موجَّهًا ضد مُلاك الأراضي الكاليفورنيين.

قانون نزع الأراضي

سرعان ما ترك التأسيسُ السريع لأغلبيةٍ سياسيةٍ بيضاء — وهو الأمر الذي عجَّل به استقلال كاليفورنيا في عام ١٨٥١ — أصحاب المزارع الكاليفورنيين بلا حيلة. وصدَمَتهم الهيئة التشريعية للولاية بفرض ضرائبَ باهظةٍ على الأراضي. وجاء قانون نزع الأراضي لعام ١٨٥١ ليُثقِل كاهلهم أكثر بمطالبتهم بالخضوع لعمليةٍ بطيئة ومكلِّفة لإثبات حقوقهم في الأرض قانونًا؛ ما أجبر كثيرين على الاستدانة على نحوٍ بالغ. وتدريجيًّا اختفى أصحاب المزارع الكاليفورنيون. وبنهاية القرن، كان معظم مواطني الولاية المكسيكيين السابقين يعملون كعُمال مهاجرين بأجورٍ زهيدة.



شكل ١٥-٧: لوحة «التقدم الأمريكي»، ١٨٧٢. يظهر في هذه اللوحة التي رُسمت في عام ١٨٧٢، تجسيد ملائكي للولايات المتحدة وهي تحمل نور الحضارة متجهة غربًا مع مُستوطنيها، دافعة الأمريكيين الأصليين والحيوانات البرية نحو الظلام. وقد اعتبر الكثير من الأمريكيين البِيض أن الحرب المكسيكية الأمريكية دليل على أن المطالبة بامتلاك أراضي الغرب وتعميرها بالسكان كان جزءًا من «المصير الحتمي» للأمة. الطباعة الحجرية، حقوق الطبع محفوظة لجورج إيه كروفوت ١٨٧٣ (بتصريح من مكتبة الكونجرس).

كيف وقَع مثل هذا الانتزاع المصدَّق فيدراليًّا للأراضي؟ وقَّعت الحكومة الأمريكية، على الورق على الأقل، على اتفاقية تقضي بحيازة الأراضي كأمانة لأفراد القبائل لمدة ٢٥ عامًا. في نهاية الخمسة والعشرين عامًا، أكدت الحكومة أن كل شخص سوف يكون «مُندمجًا» في الثقافة الأمريكية بما يكفي لتمكينه من إدارة الـ ١٦٠ فدانًا المخصَّصة له. وكان الاستثناء في هذا القانون أن الهنود ذوي «الدم المختلط» يستطيعون تجنُّب فترة الـ ٢٥ عامًا، وهي مدة الائتمان، وبيع الأرض لمن يشاءون. وكان الافتراض الكامن وراء هذا الاستثناء أن «ذوي الدم المختلط» ربما سرَّعوا من عملية الاندماج والتحضُّر تلك؛ ومن ثم كانوا قادرين على التفكير بعقلانيةٍ كافية لتقرير ما يفعلونه بأراضيهم.

من الأشياء المُثيرة التي وجدها مؤلفو هذا الكتاب أثناء العمل مع أمناء متحف مينيسوتا للعلوم الدور الجوهري للأنثروبولوجيين في المساعدة في استمرار هذا الخداع القانوني ضد السكان الأصليين في الأرض البيضاء. وكان أليش هردليتشكا بمعهد سميثونيان وألبرت جينكز بجامعة مينيسوتا، هما عالما الأنثروبولوجيا محل النقاش. فلدى سفرهما إلى محمية الأرض البيضاء، استخدم العالمان أحدث ما وصل إليه علم الأعراق في عصرهما، من جراحة حج القحف، ومخططات لون البشرة، وعيِّنات شكل الشعر لتحديد درجة نقاء «الدم» (ومن ثم مستوى التفكير) للأمريكيين الأصليين محل البحث (جولد ١٩٩٦: ٨٨). وقد استُخدم هذا النوع من علم الأعراق في المحاكم في مينيسوتا وأماكنَ أخرى للمساعدة في حسم قراراتٍ قانونية مُلزمة؛ لذا، كان ثمة عاقبة في غاية الخطورة، في هذه الحالة كما في حالاتٍ أخرى، من الاعتقاد بأن من الممكن تحديد الهوية العرقية/الإثنية لشخصٍ ما من خلال تلك العلامات الشديدة السطحية. ويُخبرنا التاريخ أن نتيجة هذه القرارات عادةً ما كانت لصالح هيكل السلطة البيضاء والوضع «العرقي» الراهن. فقد كان الأمريكيون الأصليون عقبة في طريق التوسُّع الغربي، واعتبرتهم الحكومات الفيدرالية، والمحلية، والإقليمية عناصر يُمكن التضحية بها في الديمقراطية التوسعية.

ثمة مثالٌ آخر لمصادرة قِطَع ضخمة من الأراضي وقع في الغرب والجنوب الغربي. في الجزء الغربي من الولايات المتحدة، أتاحت الحرب الأمريكية المكسيكية للولايات المتحدة ضمَّ أكثر من نصف الأراضي المكسيكية من خلال معاهدة هيدالجو في عام ١٨٤٨. وأصبح مواطنو المكسيك السابقون الناطقون بالإسبانية مقيمين فيما يُعرف اليوم بولاية كاليفورنيا. في ذلك الإقليم في ذلك الوقت، كانت بعض العائلات المكسيكية العريقة تَمتلك أكثر من ١٤ مليون فدان. وكانت لغة الإقليم هي الإسبانية. وساهم كلٌّ مِن حُمَّى الذهب عام ١٨٤٨ ومعاهدة هيدالجو في تمهيد الطريق لعملياتٍ ضخمة غير قانونية وحكومية على حدٍّ سواء لنزع الأراضي (زِن ٢٠٠٣: ٢٧٠). حين صارت كاليفورنيا ولاية في عام ١٨٥٠، أدَّت ضرائب الأراضي الباهظة بالعديد من أصحاب المزارع الأثرياء سابقًا الذين كانوا يمتلكون تلك الأراضي الشاسعة إلى تقليل حجم أراضيهم، أو خسارتها، أو بيعها. وبنهاية القرن التاسع عشر، انتقلت ملكية الأراضي، خاصة الأراضي الزراعية، من ملاك الأراضي المكسيكيين السابقين إلى ملاك الأراضي البيض (فليز إيبانيز ١٩٩٦: ٩١).

خلال القرن العشرين، كان من أكثر عمليات مصادرة الأراضي من قِبَل الحكومة الأمريكية تأثُّرًا بدوافع عرقية هي عملية الاستيلاء على أراضي الأمريكيين اليابانيين أثناء

احتجازهم في معسكرات الاعتقال في الولايات المتحدة إبان الحرب العالمية الثانية (انظر فصل «الحرب العالمية الثانية: معضلةٌ أمريكية» في كتاب رونالد تاكاكي «مرآةٌ مختلفة: تاريخ أمريكا متعددة الثقافات» (٢٠٠٨)). كان الأمريكيون اليابانيون جزءًا من سكان كاليفورنيا لما يزيد على قرن من الزمان، وكثيرًا ما كانوا يَتفاوَضون من أجل الاعتراف بهم كمواطنين بناءً على صفتهم في التعداد السكاني كمنغوليين (انظر مقال هاني لوبيز في الفصل السادس). قامت البحرية اليابانية بقصف القاعدة البحرية الأمريكية في بيرل هاربور، بهاواي في ٦ ديسمبر عام ١٩٤٢. وفي الشهور التالية، انضمت الولايات المتحدة إلى الجهود الحربية لجبهة الحلفاء للقتال ضد كلٍّ من هتلر في ألمانيا واليابانيِّين. ولكن في داخل الولايات المتحدة، كان ثمة قرارٌ حكومي باعتقال حوالي ١٢٠ ألف أمريكي ياباني ومُصادَرة منازلهم، وممتلكاتهم، وأعمالهم. وبالطبع كان هذا النوع من الرد المُمنهَج من جانب الحكومة يعني وجود تحيزاتٍ راسخة بالفعل ضد المواطنين اليابانيين (تاكاكي ٢٠٠٨: ١٢٠). وربط قانون الهجرة لعام ١٩٢٤، صراحة بين صفة المواطنة والهجرة؛ إذ نصَّ أساسًا على أن الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يُصبحوا مواطنين أمريكيين بموجب القانون لا يمكنهم الهجرة إلى الولايات المتحدة. لذا مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، تضاءلت هجرة اليابانيين إلى نحو ٦٠٠ شخص سنويًّا. ولكن لم يكن قبل عام ١٩٨٨، أي بعد ٤٥ عامًا، أن اعتذَرت الحكومة الأمريكية رسميًّا للأمريكيِّين اليابانيين، ثم قامت بصرف تعويضاتٍ مالية للناجين وأُسَرهم عن ممتلكاتهم والخسائر الأخرى التي تكبَّدوها (تاكاكي ٢٠٠٨: ١٢١).

اعتقال الأمريكيين اليابانيين

إنني عازم إن كان لديهم قطرةٌ واحدة من الدم الياباني، فسوف يَذهبون حتمًا إلى المعسكر (كولونيل كارل بيندتسين، مدير عمليات، إدارة السيطرة المدنية للجيش في زمن الحرب، ١٩٤٢، استُشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).

جذور الاعتقال

ترجع جذور اعتقال الأمريكيين اليابانيين إبان الحرب العالمية الثانية إلى إرث من الكراهية العرقية لليابانيين. بدأ الشعب الياباني في الهجرة إلى هاواي وكاليفورنيا حوالي عام ١٨٩٠، وعملوا في

الزراعة أساسًا. ولكن ظهور اليابان في المشهد العالمي في مطلع القرن العشرين أدى إلى تيارٍ مُتصاعِد من التعصُّب ضدهم بين الأمريكيين البيض؛ ففي كاليفورنيا، أُقرَّت قوانينُ تُحبط هجرة اليابانيين وتحظر على غير المواطنين امتلاك أو تأجير الأراضي.

ترحيلٌ إجباري

في ٧ ديسمبر ١٩٤١، هاجمت القوات الجوية اليابانية القاعدة البحرية الأمريكية في بيرل هاربور، بهاواي؛ ما تسبَّب في دخول أمريكا الحرب العالمية الثانية. وخلال الشهور التالية، أجبرت الحكومة الفيدرالية نحو ١٢٠ ألف أمريكي ياباني، كان ثلثاهم تقريبًا مواطنين أمريكيين، على دخول «معسكرات الترحيل الحربية» عبر الغرب. وخسر المُعتقلون منازلهم، وأراضيهم، وأعمالهم. وعانوا كذلك من أزماتٍ نفسية وجسمانية فاقت الخراب الاقتصادي الذي ألمَّ بهم.



شكل ١٥-٨: كاليفورنيا، حوالي عام ١٩٢٠ (الصورة بتصريح من مؤسسة الجمعية التاريخية الأمريكية اليابانية الوطنية، وإدارة الأرشيف والوثائق الوطنية الأمريكية).

«التحيُّز العرقي، هيستيريا الحرب»

كان أعداء أمريكا الأوروبيون يُعتبَرون في العادة ضحايا مُضلَّلون لقادة مُستبدِّين، بينما كان اليابانيون يُطلَق عليهم «الطفيليات الصفراء»، و«الكلاب المسعورة»، و«الرجال القِرَدة». وفي عام ١٩٨٨ اعتذرت الحكومة الأمريكية رسميًّا للأمريكيين اليابانيين، معترفة بأن الاعتقال كان قائمًا على «تحيُّزٍ عرقي، وهيستيريا الحرب، وفشل للقيادة السياسية.» وبدءًا من عام ١٩٩٠ قامت الحكومة بصرف تعويضاتٍ مالية للمُعتقلين الناجين.

نحن متهمون بالرغبة في التخلص من اليابانيين لأسبابٍ نرجسية، ونحن مدانون بالفعل؛ إنها مسألة ما إذا كان الإنسان الأبيض هو من يعيش على ساحل المحيط الهادئ أم الإنسان البُنِّي ... لو أن جميع اليابانيين أزيحوا غدًا، فلن نشعر بغيابهم أبدًا في غضون أسبوعين؛ لأن المزارعين البيض يمكنهم تولي زمام الأمور وإنتاج كل شيء يزرعه اليابانيون. ولا نرغب أيضًا في عودتهم عندما تضع الحرب أوزارها.

أوستن إي أنسون، إدارة مزارعي ووكلاء
شحن الخضراوات بساليناس، ١٩٤٢،
استُشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ١٥-٩: مركز هارت ماونتين للترحيل، هارت ماونتين، وايومينج، ١٩٤٢ (الصورة بعدسة توم باركر بتصريح من مكتبة بانكروفت، جامعة كاليفورنيا، بيركلي).

المثال الأخير لخسارة الأقليات أراضيها؛ مأخوذ من عناوين صحفٍ رئيسيةٍ حديثة تَنطوي على عنصرية، عن وزارة الزراعة الأمريكية والدعوى التي أقيمت ضدهم من قِبَل مُزارعين أمريكيين سود. منذ نهاية العبودية في عام ١٨٦٨، استطاع بعض السود، على الرغم من العنصرية المنهجية الشديدة، أن يُصبحوا مزارعين في الجنوب. وزادت أعدادهم في عام ١٩١٠، حين حصل ٢١٨ ألف مزارعٍ أمريكي من أصلٍ أفريقي على حصة مِلْكية في ١٥ مليون فدان. ولكن بحلول عام ١٩٩٢ تقلَّصت هذه الأعداد إلى ٢٫٣ مليون فدان يَملكها ١٨ ألف مزارعٍ أسود. وادَّعى العديد من المزارعين السود على مدى أجيال أنهم قد حُرموا من المزايا الفيدرالية والفرص المالية التي ساعدت في دعم صغار المزارعين البيض ومؤازرتهم (كوم ٢٠١٠: ١). وكان من بين أعضاء الحكومة الأمريكية الذين خلصوا في النهاية إلى أن مثل هذا التحيز العرقي كان موجودًا؛ باحثو وزارة الزراعة الأمريكية أنفسهم. ونتيجة لنشر النتائج التي توصَّل إليها باحثو وزارة الزراعة الأمريكية في عام ١٩٩٧ والتي لم يكن من المُمكن التبرؤ منها أو إنكارها، وجد مكتب الحقوق المدنية بوزارة الزراعة الأمريكية (والذي كان شبه متوقِّف عن العمل بفعل الإهمال الذي تعرض له في عهد إدارة ريجان) أيضًا أن مكتب وزارة الزراعة الأمريكية المخصَّص للتعامل مع شكاوى الحقوق المدنية كان غارقًا في فوضى عارمة (كوم ٢٠١٠: ٢).

في عام ١٩٩٧، قام مجموعة من المزارعين الأمريكيين السود برفع دعوى قضائية جماعية ضد وزارة الزراعة الأمريكية. وإجمالًا، مُنِح ٢٢ ألف مزارع في النهاية ٢٫٣ مليار دولار كتسوية، ولكن كان هذا المبلغ لحوالي واحد من كل عشرة مزارعين ممَّن وقَّعوا على عريضة الدعوى في الأساس. فلم يكن غالبيتهم مستحقًّا لأي تسوية؛ نظرًا لتناول دعاويهم بدقةٍ شديدة من قبل محامي الحكومة ورفضها لأسبابٍ فنية. ولكن تحت إدارة أوباما الجديدة، وافقت وزارة الزراعة الأمريكية على إعادة النظر في القضية، وقدَّم الرئيس أوباما ١٫٢٥ مليار دولار أخرى للمزارعين الذين تم استبعادهم من القضية الأولى. وقد صارت هذه التسوية الثانية والأموال التي خصصت لتمويلها ساحة لمعركةٍ كبرى بين الجمهوريين المحافظين والديمقراطيين الأكثر ليبرالية في الكونجرس. (كوم ٢٠١٠: ٢) ويبدو أن الإعلام المحافظ يُعارض أيضًا المبالغ المدفوعة؛ إذ يرى أن الدفع للمزارعين الأمريكيين الأفارقة له صلة بقضية شيرلي شيرود. وشيرلي شيرود هي مسئولة وزارة الزراعة الأمريكية السوداء التي اقتُطعت تعليقاتها حول تفاعلاتها مع المزارعين البيض في الماضي من سياقها ونعَتها الإعلام المحافظ «بالعنصرية» (انظر الفصل الثاني عشر لمزيد من التفاصيل). وقد ظل تخصيص هذه الموارد للمزارعين السود معلَّقًا في الكونجرس منذ خريف ٢٠١١.

في الجزء التالي من هذا الفصل، سوف نتناول كيف كان جمع الثروة يتحقَّق من خلال ملكية المنازل في هذا البلد. وسوف يَنصبُّ التركيز على التواطؤ الذي حدث بين مؤسساتٍ، مثل البنوك، والمجالس العقارية، وصناعة الرهن العقاري، والحكومة الأمريكية في الماضي لخلق سوق إسكان مُنفصلة عنصريًّا. وكان لهذا التواطؤ، ولا يزال، عواقبُ ملموسةٌ للغاية بالنسبة إلى الملوَّنين في مقابل الأمريكيين الأوروبيين ومؤخرًا الآسيويين فيما يتعلق بجمع وتوريث الثروة من جيل إلى الجيل التالي.

(٢) سوق الإسكان

كما رأينا في موضعٍ سابق في هذا الفصل، تُجمع الثروة وتُورث من خلال تملُّك الأراضي والمنازل، ومن خلال التعليم، والمزايا المُستمَدَّة من السياسات الموضوعة لتعزيز الاستثمارات الاقتصادية والتعليمية. على سبيل المثال، فيما بين عامي ١٩٣٤ و١٩٦٢، قامت إدارة الإسكان الفيدرالية بتأمين ١٢٠ مليار دولار في صورة قروض إسكان جديدة، ولكن ذهب أقل من ٢ بالمائة من هذه القروض إلى غير البيض. ويُقدم كتاب ميلفن إل أوليفر وتوماس إم شابيرو الفذ «ثروة السود، ثروة البيض: منظورٌ جديد للامساواة العرقية» (١٩٩٥) أسلوبًا مختلفًا لفهم الطبيعة العسيرة للامساواة العرقية من خلال النظر إلى جمع وتوريث الثروة الخاصة عبر الزمن، وليس إلى الدخل فقط. وتبين حقيقة هذا الأسلوب أن التمييز في منْح قروض الرهن العقاري قد حجَّم الفرص بالنسبة للكثير من الملوَّنين في الولايات المتحدة؛ ما أدى بالتبعية إلى تحجيم فُرصهم في جمع ما يَكفل له أمانًا ماليًّا دائمًا؛ لذا فإن هذه الحقيقة هي التي تخلق فجوة في الثروات، حيث البيض كجماعة على قمة الهرم العرقي والاقتصادي.

كان من الطرق التي استطاع بها الأمريكيون العاديون المُنتمون إلى الطبقة العاملة امتلاك منازل في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين من خلال ميثاق حقوق المحاربين القدماء (انظر شكل ١٤-٣). فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كان هذا الميثاق حافزًا للجنود لشراء منازل. ولكن بينما كان هذا هو الهدف المنشود، فإن عددًا محدودًا جدًّا من الجنود المنتمين إلى أعراقٍ ملونة هم من استطاعوا الاستفادة منه (أوليفر وشابيرو ١٩٩٥: ١٦). ولم يستطع الجنود الملونون، خاصة السود، الاستفادة من «الثروة السكنية». في ثلاثينيات القرن العشرين، وبعد انتهاء مرحلة الكساد العظيم، وهي فترة من الركود الاقتصادي تسبَّبت في انهيار بورصة وول ستريت للأوراق المالية، وإغلاق آلاف الشركات،

وتسريح ملايين الأمريكيين من أعمالهم، وضعت الحكومة الأمريكية وبنوك الدولة خطةً لتقييم مخاطرة شركات الرهن العقاري حين تقدم رهونًا عقارية في المناطق السكنية. وجاء تقييم الأماكن التي يقطن فيها الملوَّنون منخفضًا، وتذيَّلت الأحياء التي يسكنها السود المقياس (أوليفر وشابيرو ١٩٩٥: ١٧). وأدت هذه السياسة وما ترتَّب عليها من ممارسات إلى عملية سُميت ﺑ «الخطوط الحمراء»؛ نسبة إلى عملية تلوين تلك المناطق ذات المُخاطرة العالية للبنوك وشركات الرهن العقاري على خريطة المناطق السكنية باللون الأحمر، والتي تَصادف أيضًا أن كانت هي ذاتها المناطق التي يتركز فيها الملوَّنون؛ ومن ثم أقرَّت كلٌّ من البنوك وشركات الرهن العقاري، بالتواطؤ مع الحكومة الأمريكية، هذه الممارسات لعقود. أُنهيت هذه الممارسة بموجب القانون في عام ١٩٦٨، ولكن حسبما يُخبرنا الباحثون، لا يزال العديد من تلك الممارسات قائمًا بطرقٍ غير ملحوظة من خلال التوجيه العرقي والإثني (أوليفر وشابيرو ١٩٩٦: ١٨٥). ومؤخرًا، أدركت الولايات المتحدة مجدَّدًا مدى هشاشة المجتمعات المفصولة عنصريًّا والمنخفضة الدخل في ظل ظهور سوق الإسكان عالية المخاطر. وتشير الأرقام القومية إلى أن العدد الهائل من الأحكام الصادرة بغلق الرهون قد أثر، مرة أخرى، على المُلاك من الأعراق الملوَّنة (استرادا ٢٠٠٩: ١).

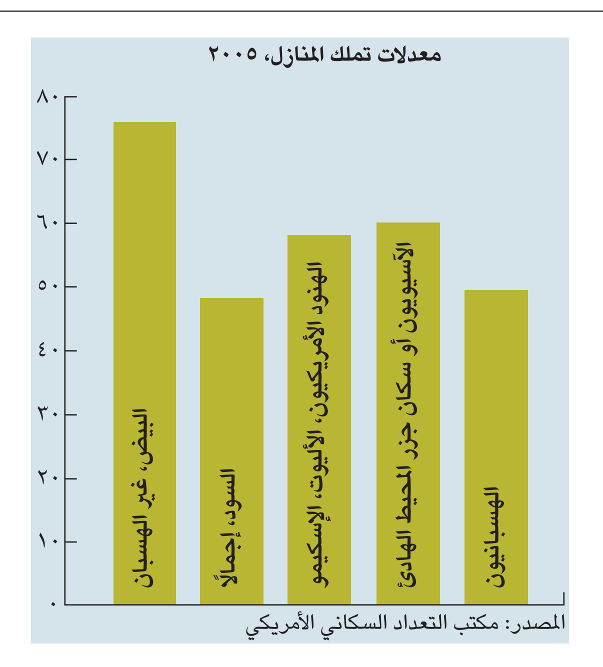
الأبيض: لون المال

«لقد أدى التمييز في قروض الرهن العقاري إلى تحجيم الفُرص أمام الكثير من الملونين لاكتساب أمانٍ مالي طويل المدى.»

الفجوة في الثروات

إن امتلاك منزل يزداد قيمةً بمرور السنين هو الوسيلة الأكثر شيوعًا التي يَبني بها الأمريكيون قاعدة من الأمان المالي. ولكن نظرًا لأن الحصول على قروضِ رهن عقاري يسيرة التكلفة عادة ما يكون أصعب على الأشخاص الملوَّنين من البيض، فإن فرصهم لبناء تلك القاعدة أقل بكثير.

واليوم، يبلغ صافي ثروة الأسرة الأمريكية المتوسِّطة من أصلٍ أفريقي حوالي عُشْر صافي ثروة الأسرة البيضاء المتوسطة. ويُعزى جزءٌ كبير من ذلك التفاوت إلى المعدلات المتفاوتة لتملُّك المنازل بين هاتين الفئتين وأيضًا إلى انخفاض قيم المنازل المملوكة للسود مقارَنةً بالمنازل المملوكة للبيض. وتظلُّ الفجوة مستمرة مع انتقال الثروة — أو الفقر — من الأب إلى الابن.



شكل ١٥-١٠: معدلات تملك المنازل، ٢٠٠٥ (الرسم البياني بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم).

عدم المساواة في قروض الرهن العقاري

في عام ٢٠٠٣، أفاد المجلس الفيدرالي لفحص المؤسسات المالية بأن احتمالات رفض طلبات الحصول على قروض الرهن العقاري المقدَّمة من السود والأمريكيين الأصليين بلغت حوالي ضعف احتمالات رفض طلبات البيض. فيما بلغت احتمالات رفض طلبات الهسبان ١٫٥ مرة من طلبات البيض، أما الآسيويون — بصورتهم النمطية الثابتة ﻛ «أقلية نموذجية» — فقد كانت احتمالات قبول طلباتهم أعلى قليلًا من البيض.

معدلات أعلى لغير البيض

كشفت البيانات التي جمعتها الحكومة الفيدرالية في عام ٢٠٠٤ بموجب قانون غلق الرهن العقاري للمنازل عن أنه حتى عند قبول طلبات قروض الرهن العقاري للملوَّنين، يكونون أكثر عرضة

للحصول على قروض «عالية المخاطر» ذات تكلفة أعلى. وتُقدَّم هذه القروض بمعدل فائدة أعلى من المعدلات القياسية بنسبة ٠,١ بالمائة إلى ٠,٦ بالمائة. وعلى الرغم من أن هذا الفارق قد يبدو للوهلة الأولى ضئيلًا، من الممكن بمرور الوقت أن يعني آلاف الدولارات في صورة مبالغ فائدةٍ إضافية. على سبيل المثال، سوف يَبلغ إجمالي مبلغ الفائدة على قرض رهنٍ عقاري قيمته ١٨٠ ألف دولار على ٣٠ عامًا بفائدة ٦,٥ بالمائة ٢١ ألف دولار إضافية عن نفس القرض العقاري بفائدة ٦ بالمائة.

فيما بين عامي ١٩٣٤ و١٩٦٢، قامت الحكومة الفيدرالية — من خلال إدارة الإسكان الفيدرالية — بتأمين ١٢٠ مليار دولار في صورة قروض إسكان جديدة. وذهب أقل من ٢ بالمائة من هذه القروض إلى غير البيض.

ميثاق حقوق المحاربين القدماء: انعدام في تكافؤ الفرص

«استفاد القليل من الجنود المنتمين إلى الأقليات من برنامج التعليم والإسكان المعروف بميثاق حقوق المحاربين القدماء، الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية.»

امتلاك المنازل والتغير الاجتماعي

أصبح قانون إعادة تأهيل الجنود لعام ١٩٤٤، والمعروف باسم «ميثاق حقوق المحاربين القدماء»، حافزًا قويًّا للتغيير الاجتماعي والاقتصادي في أمريكا في عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية.

تشجيع الحلم

كان من ضمن المزايا المقدَّمة لجنود الجيش السابقين العائدين من الحرب رهونٌ عقارية منخفضة الفائدة ذات دفعاتٍ مقدَّمة مُنخفضة. وهكذا جعل ميثاق حقوق المحاربين حلم امتلاك منزل حقيقة للملايين؛ مما عزَّز نمو الطبقة المتوسطة الأمريكية. وعلى الرغم من أن التشريع قد حدد أن كل محاربٍ سابق مستحق لهذه المزايا، لم يكن الكثير من المحاربين السابقين المنتمين للأقلية قادرين على تحقيق أي ربح.

الآثار الدائمة للتمييز في الإسكان

غالبًا ما يكون الأشخاص الذين تزداد منازلهم في القيمة السوقية قادِرين على استخدام تلك القيمة المالية للعقار في المساعدة في تمويل تعليم الأبناء، أو معاشهم. إضافة إلى ذلك، تؤدي الزيادة في

قيمة منازلهم إلى تجميع ثروة تُورَّث إلى أبنائهم وحتى إلى أحفادهم. في المقابل، لا يُحقِّق الأشخاص المقيدون بالشراء في الأحياء التي لا تزداد فيها قيمة المنازل سوى زيادةٍ مُتواضِعة «ثروة إسكانية» على مدار السنين. وبذلك تستمر الانعكاسات المالية للتمييز في الإسكان من العقود الماضية إلى اليوم.

حلمٌ واحد ونهاياتٌ مختلفة

كان هيرب كاليسمان ويوجين برنيت في نفس العمر والخبرة العسكرية، ولكنهما لم يتشاركا في مزايا ميثاق حقوق المحاربين القدماء بالتساوي.

«هيرب كاليسمان»

في عام ١٩٥١ استفاد هيرب كاليسمان وزوجته دوريس من قرض رهنٍ عقاري منخفض الفائدة بموجب ميثاق حقوق المحاربين القدماء لشراء منزل قيمته ٩٠٠٠ دولار في لفيتاون. كان من ضمن عوامل الجذب في هذه الضاحية الجديدة الواقعة في لونج أيلاند، بنيويورك، أنها أتاحت لهما العثور على مدارس مُمتازة لأبنائهما. وفي عام ٢٠٠٦، قُدِّرت قيمة المنزل، الذي لا يزالان يعيشان به، بـ ٤٢٠ ألف دولار.

«يوجين برنيت»

بعد الحرب، مُنِع يوجين وزوجته برنيس من شراء منزل في لفيتاون. وقيل لهما إن «أصحاب هذه المنطقة العمرانية الجديدة لم يُقرِّروا بعدُ بيع هذه المنازل للزنوج.»

عمل يوجين في وظيفتَين لكي يكون مستحقًّا لرهنٍ عقاري. وفي عام ١٩٥٠ اشترى الزوجان برنيت منزلًا بقيمة ٧٠٠٠ دولار في منطقةٍ عمرانيةٍ جديدة في أميتيفيل، بنيويورك، روَّجت لنفسها من خلال الإعلان عن ترحيبها بالأعراق كافة. حين باع المنزل بعد ١٠ سنوات للانتقال إلى بلدةٍ جديدة بها مدارس أفضل، قُدِّرت قيمته بـ ١٠١٠٠ دولار فقط. (كان المنزلان كلاهما يقعان ضمن شريحة المنازل المتوسِّطة. ففي عام ٢٠٠٦، بلغ متوسط سعر المنزل في أميتيفيل في هذا النطاق حوالي ٣٥٠ ألف دولار أمريكي (انظر http://www.trulia.com/real_estate/Amityville-New_York/market-trends/ تم الدخول على الموقع بتاريخ ١٧ يناير، ٢٠١٢).)

ونظرًا لحرمانهما من السكن بالضواحي ذات القيم الإسكانية السريعة النمو، لم يَستَطِع الزوجان برنيت تحقيق الكثير من الأمان المالي من خلال امتلاك منزل مثل الزوجَين كاليسمان.

«ها قد ذهب الحي هباءً»

«لا يزال التمييز العنصري المُنتشر في الإسكان قائمًا إلى اليوم، ولكنه يتَّخذ أشكالًا أقل بروزًا.»

الخطوط الحمراء في الماضي

في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، طوَّرت البنوك على مستوى البلاد نظامًا للتقييم لقياس مخاطر إقراض الرهن العقاري في المناطق السكنية. كانت المناطق التي يَقطنها الملوَّنون ذات تقييمٍ منخفض (بمعنى أن معدَّل خطورة العجز عن سداد أقساط الرهن العقاري بها أعلى) وتذيَّلت أحياء الأمريكيِّين الأفارقة المقياس. وكانت البنوك وشركات التأمين تتردَّد في إجراء صفقات عمل في المناطق المُنخفضة التقييم؛ مما أدى إلى تحجيم قُدرة الناس على شراء منازل هناك؛ ومن ثم انخفاض قيم العقارات. ولما كانت المناطق «غير المرغوبة» يُشار إليها باللون الأحمر على الخرائط التي كانت البنوك وشركات التأمين ترسمها، فقد سُمي هذا الإجراء ب «الخطوط الحمراء». وعلى الرغم من أن إجراء الخطوط الحمراء كان تمييزيًّا إلى حدٍّ كبير، فقد كان قانونيًّا تمامًا.

التوجيه العرقي اليوم

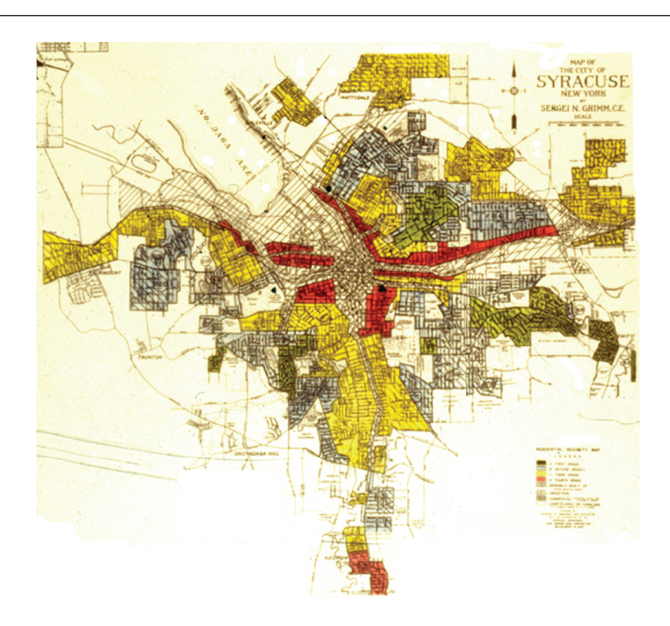
حظر قانون الإسكان العادل الفيدرالي لعام ١٩٦٨ إجراء الخطوط الحمراء، ولكن لا يزال التمييز في الإسكان قائمًا من خلال ممارسة «التوجيه العرقي»؛ إذ يقوم الوكلاء العقاريون بتوجيه الراغبين في شراء منازل من الأقليات إلى الأحياء التي يقطن بها أشخاص من نفس الخلفية الإثنية والطبقية. يُحجِّم هذا الإجراء من اختيارات السكن والأحياء ويُديم أنماط الفصل العنصري. وقد وجدت دراسة أجراها الاتحاد الوطني للإسكان العادل ووزارة الإسكان والتنمية الحضرية فيما بين عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٥ أن التوجيه العرقي قد ظهر بين الأفراد الذين خضعوا للاختبار — البيض والسود على حدٍّ سواء — في نسبة ٨٧ بالمائة من الوقت.

النزوح الأبيض

ثمة نمط يتمثَّل في مغادرة البيض لأي حي بمجرد انتقال أشخاص من أعراقٍ أخرى إليه ميَّز المدن على مستوى البلاد لعقودٍ عدة. يظهر هذا النمط المسمى «النزوح الأبيض» حين تنتقل بضع عائلات من الملونين من الطبقة المتوسطة إلى الأحياء التي يسيطر عليها البيض. فيرحل بعض السكان البيض، خوفًا من انخفاض قيمة منازلهم. ومع حدوث هذا، يُغادر المزيد من سكان الحي البيض وتتوافد أعدادٌ متزايدة من الملونين. ومع استمرار تغيُّر التكوين الاقتصادي والعرقي للحيِّ، يستمر النزوح الأبيض في التسارع.

يقلِّل الفصل العنصري الناجم عن التمييز في الإسكان والنزوح الأبيض من فرص التعليم والعمل. ويُلحِق أضرارًا بالغة بأحياء المدينة والضواحي الأقدم. وأيضًا يعمِّق الانقسامات العرقية والسياسية في أمريكا ذات الطابع الحضري.

مايرون أورفيلد، المدير التنفيذي لمعهد دراسات
العرق والفقر، جامعة مينيسوتا: معرض العرق،
متحف مينيسوتا للعلوم



شكل ١٥-١١: خريطة لسيراكيوز، بنيويورك، عام ١٩٣٧ توضِّح الأحياء «غير المرغوبة» مميَّزة باللون الأحمر (بتصريح من إدارة الأرشيف والوثائق الوطنية مقدمة من إيمانويل كارتر).

من الطرق الإيجابية لاستخدام التعداد السكاني قياس الفصل العنصري على المستوى القومي من خلال ما يُسمى بـ«مؤشر عدم التشابه». فرغم القوانين الواردة بالكتب، لا يزال الواقع هو أن معظم المدن الأمريكية لا تزال مقسمة عرقيًّا. والفترة الزمنية لهذه الدراسة هي من ١٩٨٠ إلى ٢٠٠٠. والمدن الثلاث التي خضعت للفحص والمراجعة من أجل هذه الدراسة هي شيكاغو، وسان دييجو، ونيو أورليانز. من هذه البيانات يتَبيَّن أن شيكاغو كانت الأكثر تعرُّضًا للفصل العنصري بين المدن الثلاث، فيما حلت نيو أورليانز في المركز الثاني (وربما ازدادت انفصالًا في ٢٠١٠؛ إذ تسبب إعصار كاترينا عام ٢٠٠٥ في ترحيل وهجرة العديد من الفقراء خارج الولاية، لا سيما الأمريكيين الأفارقة). ولا شك أن هذه واحدة من المناطق التي لا يزال أمام المثقَّفين، وجماعات النشطاء المجتمعيين، وصناع السياسات، والهيئات الحكومية الكثير من العمل من أجل إتاحة فرصٍ متساوية في مجالَي الإسكان وجمع الثروة.

(٣) كيف يتمكَّن المهاجرون الجدد من دخول سوق الإسكان؟

إذا كان المهاجرون الجدد فقراء، فإن أمامهم كفاحًا مريرًا لجمع الأموال وتأسيس الجدارة الائتمانية التي يحتاجون إليها. والمثال الذي سوف نستعين به يُركِّز على الهامونج في مينيسوتا. انتقلت أعدادٌ كبيرة من الهامونج إلى الولايات المتحدة وإلى مينيسوتا قادمين من لاوس في عام ١٩٧٩ (تاكاكي ٢٠٠٨: ٢٨٤)، كان من بينهم الزوجان يانج. تأقلم الزوجان يانج على الحياة في الولايات المتحدة؛ إذ كانا يعيشان في البداية في إسكانٍ اجتماعي ثم في منزلٍ مكوَّن من ثلاث غرف نوم مع أبنائهما السبعة. واستطاعا في النهاية شراء منزل، ولكن القيام بهذا استغرق منهما ١٧ عامًا من وقت وصولهما إلى البلاد. وقد استطاعا في النهاية شراء منزل بمقدمٍ صغير وبمساعدة قرضٍ حكومي، ولكنه كان كائنًا في حيٍّ فقير. وكانا آنذاك لا يستطيعان تحمُّل تكاليف الإقامة في منزلهما إلا بمساعدة من أبنائهما الذين كانوا قد كبروا وساعدوا في المساهمة في أقساطهما الشهرية. في مينيابوليس، أظهرت بيانات تعداد عام ٢٠٠٠ أن ٧٦ بالمائة من البِيض يمتلكون منازل، وأن ٥٥ بالمائة من الهامونج يمتلكون منازل، وأن ٤٠ بالمائة من الأمريكيين الأفارقة يمتلكون منازل، و٤٠ بالمائة من الهسبان/اللاتينيين يمتلكون منازل. وكان متوسط قِيَم المنازل كالتالي: كانت منازل البيض في ذلك الوقت تساوي ١٤١٢٠٠ دولار؛ ومنازل اللاتينيين تساوي ١١١٢٠٠ دولار؛ ومنازل الأمريكيين الأفارقة تساوي ١٠٧٥٠٠ دولار؛ ومنازل الهامونج تساوي ٩٣ ألف دولار.

قياس الفصل العنصري في الإسكان

«على الرغم من انتهاء الفصل العنصري المقنَّن، لا تزال معظم المدن الأمريكية منقسمة عرقيًّا.»

قياس الفصل العنصري في الإسكان

مؤشِّر عدم التشابه هو أحد وسائل رسم خريطة الفصل العنصري في المدن الأمريكية. تتراوح القيم في المؤشر من ٠ إلى ١٠٠؛ كلما ارتفع الرقم ارتفع مستوى الفصل العنصري بين أي فئتين. وتعتبر القيمة ٦٠ (أو أعلى) مرتفعة للغاية، بينما تشير القيمة ٤٠ أو ٥٠ إلى فصلٍ متوسط، أما القيمة ٣٠ أو أقل، فتعتبر منخفضة نوعًا ما. ونقدم فيما يلي بيانات مؤشر عدم التشابه للفصل العنصري لثلاث مدنٍ أمريكية هي: شيكاغو، وسان دييجو، ونيو أورليانز.

«شيكاغو»

منذ مطلع ثمانينيات القرن العشرين، أخذ الأمريكيون الأفارقة واللاتينيُّون يَنزحون إلى ضواحي شيكاغو بأعدادٍ مُتزايدة. ولكنهم لم يكونوا موضع ترحيب في جميع المجتمعات. وفي مناطقَ عديدةٍ يواجهون مستوًى من الفصل العنصري مُساوٍ لمستوى الفصل في المدينة من الداخل.

البيض-السود: ٨١
البيض-اللاتينيون: ٦٢
البيض-الآسيويون: ٤٤
(بناءً على بيانات من التعداد الأمريكي لعام ٢٠٠٠)

«سان دييجو»

برَز الملوَّنون بكثافة في النمو السكاني لهذه المنطقة خلال تسعينيات القرن العشرين. غير أن مستويات الفصل العنصري بالنسبة إلى السود وتزايُد معدلات الفصل العنصري بالنسبة إلى اللاتينيين؛ تُشير إلى أنه لا يزال يوجد الكثير للقيام به لضمان وصول هذه المجموعات السكانية إلى جميع الموارد الإسكانية على نحوٍ متساوٍ.

البيض-السود: ٥٤
البيض-اللاتينيون: ٥١
البيض-الآسيويون: ٤٧
(بناءً على بيانات من التعداد الأمريكي لعام ٢٠٠٠)

«نيو أورليانز»

جذب الفصل العنصري في نيو أورليانز الانتباه على المستوى القومي في عام ٢٠٠٥، كأحد آثار إعصار كاترينا. ولعل في تحدِّي إعادة إعمار المدينة فرصة لتغيير نمط الانقسام الاقتصادي والعرقي بها. فهل ستبدو خريطة نيو أورليانز ٢٠٢٠ مختلفة تمامًا، أم ستظل المدينة مؤلَّفة من أحياءٍ منفصلة عنصريًّا إلى حدٍّ كبير؟

البيض-السود: ٦٩
البيض-اللاتينيون: ٣٦
البيض-الآسيويون: ٤٨
(بناءً على بيانات من التعداد الأمريكي لعام ٢٠٠٠)

الفصل العنصري وإعصار كاترينا

كشف الدمار الذي خلَّفه إعصار كاترينا في عام ٢٠٠٥ على نحوٍ دراماتيكي مدى وتأثير الفصل العنصري في الإسكان في نيو أورليانز. فقد كان أكثر الأحياء تأثُّرًا بدمار كاترينا الجزء السُّفلي من الحي التاسع؛ حيث كان جميع السكان تقريبًا من الأمريكيين الأفارقة الرقيقي الحال، وحي ليكفيو؛ حيث كان معظم السكان من البيض المنتمين للطبقة المتوسِّطة. لم يكن العديد من سكان الحي التاسع يملكون الوسائل اللازمة لإخلاء المدينة، واضطروا إلى الاحتماء من العاصفة في ملعب سوبردوم أو مركز المؤتمرات. وبعد مرور عام، لم يكن الجزء السفلي من الحي التاسع قد أُعيد فتحه لسكانه. في المقابل، عاد سكان ليكفيو خلال تلك الفترة، وأُعيدت خدمات المدينة هناك.



شكل ١٥-١٢: سكان نيو أورليانز المرحَّلون من منازلهم يحتمون باستاد هوستون أسترودوم (بتصريح من الوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ، إد إيدال).

قصة عائلة

ينظر مجتمع الهامونج إلى العقارات باعتبارها مفتاح الحصول على ثروة في هذا البلد (كو فانج، وسيط عقاري بمنطقة سانت بول، ٢٠٠٦: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).

عائلة يانج

وصل جون سو يانج ولينتو يانج إلى مينيسوتا قادمَين من لاوس في عام ١٩٧٩. وعثرا على مسكنٍ تابع للإسكان الاجتماعي مكوَّن من ثلاث غرف نوم في سانت بول، وفي هذا المنزل قاما بتربية أبنائهما السبعة. بدأ الزوجان يانج في البحث عن منزل في عام ١٩٩٦، حين بلغت ابنتهما الكبرى ١٨ عامًا تقريبًا. في الثقافة التقليدية للهامونج، يعيش الأبناء مع والدَيهم حتى بعد بلوغ سن الرشد ويُساعدون في إعالة الأسرة. ولكن قواعد الإعانة العامة للولاية تفترض أن الأبناء يُغادرون منزل الأسرة بمجرد بلوغ السن القانونية، وهو ١٨ عامًا. وواجه الزوجان يانج احتمال الاضطرار إلى الانتقال إلى شقةٍ أصغر تتبَع الإسكان الاجتماعي مع تقدُّم أعمار المزيد من أبنائهما.

اشترى الزوجان يانج منزلهما في الجانب الشرقي من سانت بول في عام ١٩٩٦ بمقدمٍ صغير وبمساعدة قرضٍ حكومي. وكانوا المُنتَمين الوحيدين للهامونج في المربع السكني. بعد حوالي عشر سنوات، كان أربعة من أولادهما الخمسة لا يزالون يعيشون في المنزل، البعض منهم برفقة زوجاتهم وأبنائهم. وبفضل مساعدة الأبناء، يستطيع الزوجان يانج تحمُّل أقساط المنزل، برغم أن كليهما لا يعملان ولا يُجيدان الإنجليزية.



شكل ١٥-١٣: لينتو يانج وجون سو يانج (بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم، ريتشيل موريتز).

العرق وامتلاك المنازل في مينيسوتا

تضم المدينتان التوءمان مينيابوليس وسانت بوليس سابع أعلى معدل لتملُّك المنازل على مستوى البلاد؛ إذ بلغ ٧٢ بالمائة في عام ٢٠٠٠. غير أن ثمة تفاوتًا كبيرًا في قيمة المنازل لا يزال قائمًا بين

البيض والملوَّنين. فعلى الرغم من أن الأمريكيين الهامونج يحظون بثاني أعلى معدَّل في تملك المنازل في المدينتين التوءمَين، فإنهم يعيشون بالأساس في أحياء أكثر فقرًا؛ ومن ثم تقل قيمة منازلهم. وفي عام ٢٠٠٠ كان أكثر من ٦٠ بالمائة من سكان مينيسوتا من الهامونج يعيشون تحت خط الفقر.

نِسَب مئوية نسبية لتملك المنازل وقيم المنازل

«البيض»

نسبة امتلاك المنازل: ٧٦ بالمائة.

متوسط قيمة المنزل: ١٤١٢٠٠ دولار.

«الهامونج»

نسبة امتلاك المنازل: ٥٥ بالمائة.

متوسط قيمة المنزل: ٩٣ ألف دولار.

«اللاتينيون»

نسبة امتلاك المنازل: ٤٠ بالمائة.

متوسط قيمة المنزل: ١١١٢٠٠ دولار.

«الأمريكيون الأفارقة»

نسبة امتلاك المنازل: ٤٠ بالمائة.

متوسط قيمة المنزل: ١٠٧٥٠٠ دولار.

(٤) استمرار فجوة الثروات

يُوضِّح ميلفن أوليفر ودالتون كونلي الفارق بين الثروة والدخل في أحد الفيديوهات التي تُعرض في معرض العرق. وتُعرض تعليقاتهما على فجوة الثروات في نسخة تلك المحادثة الواردة بهذا الفصل.

حين نتحدث عن الفجوة في الثروات في عام ٢٠١١، فنحن لا نزال نتحدث عن حقيقة أن الفجوة في الثروات بين أسر البيض والأمريكيين الأفارقة قد زادت أكثر من أربعة أضعاف فيما بين عامي ١٩٨٤ و٢٠٠٧. وكذا نتحدث عن حقيقة أن أسر البيض المتوسطة الدخل تمتلك الآن ثروةً أكبر بكثير من أسر الأمريكيين الأفارقة العالية الدخل. وتعكس الزيادة المضاعفة أربعة أضعاف سياساتٍ عامة، مثل التخفيضات الضريبية على الدخل الاستثماري والمواريث، التي تفيد الأكثر ثراءً وتتسبَّب في التمييز المستمر في الإسكان، والائتمان، وسوق العمل (معهد دراسات الأصول والسياسة الاجتماعية ٢٠١٠: معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).



شكل ١٥-١٤: العرق وفجوة الثروات. تُمثِّل هذه الأكداس من النقد متوسط صافي ثروة الأسر بناء على العرق. تم جمع البيانات من قِبَل مكتب التعداد السكاني الأمريكي من عام ١٩٩٧ حتى عام ٢٠٠٠. يُعرف صافي الثروة بأنه حاصل طرح الأصول المملوكة للشخص وديونه. وأكبر الأصول لدى معظم الأمريكيين من الطبقة المتوسطة هو قيمة منازلهم. ويُعدُّ صافي ثروة البيض أعلى إلى حدٍّ كبير؛ نظرًا لأن فرصهم لامتلاك منازل في المناطق التي ترتفع فيها قيم المنازل أكبر على نحوٍ ملحوظ من الفرص المتاحة لأفراد الجماعات العرقية الأخرى (المصدر: مسح لمكتب التعداد السكاني الأمريكي. بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم).

يُصوِّر معرض العرق فجوة الثروات من خلال استخدام أكداس من النقود. وكانت هذه صورة في غاية القوة والتأثير في هذا المشروع؛ لكونها تُوضِّح في إطارٍ تصويريٍّ أن العامة يُمكنهم أن يفهموا كيف يبدو التفاوت في الثروة وكيف يَسير. تقول تتيانا ميشيده، أحد المشاركين في تأليف تقرير «الفجوة العرقية تزداد إلى أربعة أضعاف»: «إن الفجوة هي فرصةٌ ممنوعة وتضمَن عدم المساواة الاقتصادية العرقية للجيل القادم» (شابيرو، ميشيده، وسوليفان ٢٠١٠: ١). لا يزال هناك الكثير من الجهد يتوجَّب القيام به!

إن الطريق نحو سد فجوة الثروات سوف يتطلَّب حكومةً مُتوافقة، وتأييدًا، وجهدًا سياسيًّا. ونأمُل في ظل وجود مقترحات مثل المُبادَرة الوطنية الجديدة «خلق مجتمعات الفرصة»، التي تقدَّم بها أوباما، أن يكون لدينا نقطة بدايةٍ رائعة (فوكس وتروهافت ٢٠١٠).

(٤-١) حوار حول الثروة والإسكان

نختتم هذا الفصل «بحوار» مثقَّف آخر كالحوارات الواردة في الجزء الأول. فمن خلال سلسلة من نصوصٍ محرَّرة من فيديوهات معرض العرق، يوضح باحثون بارزون العلاقات بين السياسة العامة والتفاوت العرقي في الثروة والإسكان، في الماضي والحاضر. **دالتون كونلي:** أستاذ علم الاجتماع والسياسة العامة بجامعة نيويورك، وأستاذ مُساعد الطب المجتمعي بكلية طب ماونت وباحث مشارك في المكتب الوطني للأبحاث الاقتصادية. **ميلفن أوليفر:** عميد كلية العلوم الاجتماعية بمؤسسة سارة ميلر ماكيون (سيدج)، وأستاذ علم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا، بسانتا باربرا. **جون إيه باول:** هو المدير التنفيذي لمعهد كيروان لدراسة العرق والإثنية بجامعة ولاية أوهايو. **بيفرلي دانيال تيتوم:** رئيسة كلية سبيلمان.

* * *

فجوة الثروات

ميلفن أوليفر: لو كان ثمة شيءٌ واحد أودُّ أن يفهمه الناس بشأن فجوة الأصول، أو فجوة الثروات في أمريكا، فهو أن هذه فجوة صنعَتْها قراراتٌ حكومية في الغالب، اتُّخذت من قِبَل مؤسساتٍ حكومية تُعطي فرصًا مختلفة لأشخاصٍ مُختلِفين لخلق الأصول، وتنميتها، وكسبها.

دالتون كونلي: ثمة تاريخٌ طويل في أمريكا للسياسة الحكومية الواضحة في استبعاد الأمريكيين الأفارقة من قِطعة من الكعكة، من جمع الثروات. ويعود تاريخ ذلك إلى عصر العبودية؛ حيث لم يكن العبيد، بحكم القانون، يَمتلكون أجسادهم بالطبع، ناهيك عن الأصول الأخرى. حتى بعد الحرب الأهلية، كانت ثمة سياسات مثل القوانين السوداء في الجنوب، التي كانت تَفرض على السود رسومَ ترخيص ضخمة لبدء مشروعٍ ما، دون أن تفرض شيئًا على البيض.

ميلفن أوليفر: إن الفارق بين الثروة والدخل يَبرز فعليًّا عند النظر إلى الفروق بين السود والبيض. فبينما يمتلك السود عشرة سنتات مقابل كل دولار من الثروة التي يَمتلكها البيض، فإنهم يَملكون اثنين وستين سنتًا في مقابل كل دولار من الدخل؛ إذن ففجوة الثروة أكبر بكثير من فجوة الدخل؛ لذا إذا كانت الثروة مهمة لتأمين فرص تحسين الحياة، فإن السود إذن يُواجهون صعوبةً كبيرة للغاية في تحقيق ذلك مقارنة بالبيض.

دالتون كونلي: في عصر ما بعد الحقوق المدنية من الصعوبة بمكانٍ الحديث عن العرق والطبقة ككيانين منفصلَين؛ نظرًا لتداخلهما الشديد معًا في مجتمعنا. فالكثير من الأشياء التي نَقرنها بالعرق في ظاهرها، مثل الاختلافات في معدَّلات الادخار أو الاختلافات في التعليم والأداء، هي في الواقع اختلافاتٌ طبقية حين تجمع البيانات وتقارن الأفراد القادمين من ظروفٍ اقتصاديةٍ مُتشابهة. ولكن العامل المعقَّد هنا هو أن تلك الظروف الاقتصادية تتحدَّد وفقًا للعرق، من خلال أوجه التفاوت التاريخية، ومن خلال الديناميات المعاصرة؛ حيث يَحصل البيض على فُرَص العمل على نحوٍ غير متكافئ أكثر مما يفعل السود وجماعات الأقلية الأخرى. إذن فالعرق مهم، إلا أن أهميته غالبًا ما تكون غير مباشرة من خلال الوضع الطبقي، أو الموقف المالي للأسرة.

شراء منزل

دالتون كونلي: : يأتي صافي ثروة الأسرة من عدة مصادر. ولكن المصدر الأكبر، بالنسبة إلى غالبية الأُسر الأمريكية، هو القيمة العقارية التي يَحصلون عليها من منزلهم. وقد شهد النصف الأخير من القرن العشرين ارتفاعاتٍ مَهولة في قيم العقارات، والتي كانت في الأساس بمنزلة برنامج لتكوين الثروة لمعظم الأمريكيين البيض.

ميلفن أوليفر: في ثلاثينيات القرن العشرين، أقدمت الحكومة الفيدرالية على استحداث مجال التشييد والبناء ودعمه. وفي سبيل ذلك، استحدثت إدارة الإسكان الفيدرالية،

التي كانت مهمتها توفير القروض، أو توفير الدعم للقروض، للأمريكيين العاديين حتى يتسنَّى لهم شراء منزل.

دالتون كونلي: وفَّرت الحكومة الأمريكية قروضًا قليلة الفوائد للجنود العائدين من الحرب وغيرهم من الأمريكيين البيض بعد الحرب العالمية الثانية، من أجل إحداث انتعاشٍ في حركة امتلاك المنازل وانتِشار الضواحي، والتي استبعد منها السود.

ميلفن أوليفر: من الأمثلة الرائعة، المُجتمعاتُ التي نشأت على الساحل الشرقي والمسماة ليفيتاونز. كانت هذه المجتمعات عبارة عن مساكنَ شعبيةٍ بُنيت بتكلفةٍ معقولة للغاية وقت بنائها.

جون إيه باول: حين تمَّ الانتهاء من بناء ليفيتاون، أظن أنها كانت تضم أكثر من ١٧ ألف وحدة يقطنها ٨٢ ألف شخص. وكان البناء على نطاقٍ ضخم. وأعني بهذا أن بعض الناس يقولون إن ليفيتاون كانت موازية للسيارة تي موديل فورد. فقد جعلت الإسكان متاحًا لأبناء الطبقة العاملة في أمريكا. وجعلت الشراء أرخص من الإيجار، وأتاحت للناس فرصةً للخروج من المدن إلى الضواحي.

ميلفن أوليفر: كانت معظم هذه المجتمعات لا تَشترط دفعة مقدمة؛ لذلك كان العديد من الناس يَقفون في الصفوف لأيام في انتظار التوقيع، وكان أول شخص في الصف يَحصل على المنزل. وكانت هذه المنازل مموَّلةً من إدارة الإسكان الفيدرالية. وكانت كل المنازل في مجتمعات ليفيتاون لها ما نُطلق عليه عقودًا تقييدية. وكانت هذه العقود عبارة عن اتفاقياتٍ قانونية مُلزمة تقضي بأن أي شخص أسوَد أو لاتيني، أو صيني، وفي بعض الحالات يهودي، لا يستطيع الحصول على تلك المنازل، ولا يستطيع شراءها.

جون إيه باول: حتى عام ١٩٦٠، كان الـ ٨٢ ألف شخص الذين يَعيشون في ليفيتاون مدعومين بقوةٍ بالمال العام، وهو ما كان لا يعني أموال البيض فحسب، بل أموال السود أيضًا. ولم يكن ثمة أَسودُ واحدٌ يعيش في ليفيتاون.

لم يكن السود مُستبعَدين من سوق الإسكان تمامًا، ولكن سوق الإسكان المعروضة أمامهم كانت في الغالب هي سوق الإسكان العام. والإسكان العام، في المقام الأول، أنشئ حصريًّا في المدينة المركزية، مع بعض، إن لم يكن قليلًا جدًّا، من الاستثناءات. وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأنا في بناء مشروعاتٍ أكبر وأكبر للإسكان العام، سُميت «الجيتو العمودي». فإذا بكَ، على حين غِرة، تُركز أعدادًا كبيرة من الفقراء الملوَّنين في

مكانٍ واحد. وبعد ذلك خلال «الخمسينيات» و«الستينيات»، ظهرت أيضًا فكرة إجلاء الأماكن التي كان السود يَعيشون فيها من قبلُ. وقد أطلق بعض الناس على ذلك مسمى «التجديد الحضري». وأطلق عليه آخرون اسم «الإزالة الحضرية»؛ حيث قمنا بإزالة أحياءٍ كاملة، وفي بعض الأحيان كانت هذه الأحياء نابضة بالحياة والنشاط.

ميلفن أوليفر: في عام ١٩٩٤ حين ألقيتَ نظرة على المسح الخاص بالدخل والاشتراك في برامج الإسكان، كان بإمكانك أن ترى صاحب منزل اشترى منزلًا على طراز ليفيتاون في عام ١٩٥٠، ربما اشتراه مقابل ٥ آلاف دولار، يملك ثروة تُقدر بحوالي ٣٠٠ ألف دولار في صورة قيمةٍ عقارية لذلك المنزل. وهذا مثال لاستثمارٍ تنامى بمرور الوقت. ألقِ نظرة على أسرةٍ مماثلة من الأمريكيين الأفارقة في ذلك المسح لم تُتح لها فرصة لشراء مثل ذلك المنزل، أو اضطُرَّت إلى شراء منزل في المدينة من الداخل، وستجد أنها تملك ثروةً أقل بكثير. ومن هنا تبدأ في إدراك كيفية نشأة نسبة العشرة إلى واحد بين ثروة البيض وثروة السود.

سوق الإسكان

دالتون كونلي: يُعدُّ سوق العقارات هو ملتقى الثقافة والاقتصاد؛ فالبيض بوصفهم الأغلبية، يُسيطرون على السوق فعليًّا. فيُمكنهم الانتقال من مكان إلى مكان، ونظرًا لكونهم الجماعة الأكبر، ونظرًا لسياسة العرض والطلب، إذا أراد البيض العيش في مكانٍ ما، فسوف يقود ذلك الأسعار نحو الارتفاع. وإذا لم يكن لهم رغبة في العيش في مكانٍ ما، فسوف يهوي ذلك بالأسعار.

بيفرلي دانيال تيتوم: ربما أكون مسئولة قروض تَعتبر نفسها تقدمية، ومتفتِّحة للغاية، شخصٌ محدود التحيُّز، إن لم يكن عديم التحيُّز تمامًا. ولكني قد أعمل لدى بنك يَفرض معدلات فائدة أعلى على ... نعم نحن نقدم قروضًا، ولكننا نفرض فائدة أعلى من ... نحن نفرض معدَّل فائدة أعلى على الأشخاص الذين يعيشون في أحياءٍ بعينها.

لذا لنفترض أنه حين يأتي شخصٌ ملوَّن من ذلك الحي لمقابلتي، قد أميل إلى إعطاء هذا الشخص قرضًا ميسَّرًا. ولكن إذا كانت سياسة البنك هي منح قروض بفائدةٍ معيَّنة في حيٍّ بعينه، فسوف أقوم بتطبيق تلك السياسة، بصرف النظر عن توجُّهي الشخصي الخاص، ولكنَّني بقراري هذا أُعزِّز العنصرية المؤسسية التي تنطوي عليها تلك السياسة.

ميلفن أوليفر: من الحالات المُثيرة للاهتمام حالة محرِّر (بجريدة) وول ستريت جورنال كان يملك منزلًا في أتلانتا وتمَّ نقله إلى المقر الرئيسي للجريدة في واشنطن أو نيويورك. واضطرَّ إلى بيع منزله. وقام بعرض المنزل للبيع وجاء بمُثمِّن لتقدير قيمته. وحين حصل على التقدير، لم يُناسبه. فقد بدا أقل من قيمة المنازل الأخرى في المنطقة بحوالي من ٥ إلى ١٠ آلاف دولار. وحين توجَّه إلى منزله، أدرك أنه حتى بدون وجوده هناك، كان واضحًا أن هذا المنزل كان مملوكًا لشخصٍ أمريكي من أصلٍ أفريقي. فقد كان يَحوي لوحات وأعمالًا فنية ذات طابعٍ أمريكيٍّ أفريقي؛ ومن ثمَّ قرَّر أن يطلب حضور مُثمِّنٍ آخر، وأخرج جميع الصور الفوتوغرافية التي تشي بالطابع الأمريكي الأفريقي، وكذا جميع اللوحات، وزال كل شيء من شأنه أن يُعطي انطباعًا بأن هذا المنزل يخص أمريكيًّا من أصلٍ أفريقي. وجاء التقدير متَّسقًا مع التقدير الذي كان يعرفه في الحي. بعبارةٍ أخرى، حتى اليوم، لا تزال فكرة أن منزلًا في مجتمع كله من البيض، ولكنه مملوك لأمريكي من أصلٍ أفريقي تقلُّ قيمته عن منزل مملوك لشخص أبيض.

إدواردو بونيلا-سيلفا: معظم البيض، حين تَطلب منهم وصف الحي الذي يقطنونه، يخبرونك: «أنا أقطن بحيٍّ جميل.» وبعدها تسألهم: كم تبلغ نسبة الأشخاص في الحي الذين يُعتبَرون من الأقليات؟ فيقولون: «حسنًا، إنه حي يغلب عليه البيض في المُجمَل.» والحق أنهم لا يتعاملون مع حقيقة كونهم يعيشون في حيٍّ أبيض باعتبارها مشكلة؛ لأن البياض في نظرهم ليس عرقًا؛ فهم أشخاص طبيعيون ولُطفاء. والأشخاص الوحيدون الذين يُعتبَرون عرقيِّين في أمريكا هم الملوَّنون.

دالتون كونلي: لنضرب مثالًا: إذا كنتُ صاحبَ منزلٍ أبيضَ بلا أي نزعات تمييزية، وأرى أن الأمريكيين الأفارقة قد بدءوا في الانتقال إلى الحي الذي أقطنه، فقد لا يكون لديَّ أي سببٍ اجتماعي-نفسي لكي أرغب في الفرار، والنزوح، وتصفية منزلي. ولكن إذا فكَّرتُ في أن الأشخاص الآخرين ممَّن يقطنون حيي سوف يقومون بتصفية منازلهم، يُصبح لديَّ حافزٌ اقتصادي لتصفية المنزل والفرار من ذلك الحي قبل أن يفعل الآخرون؛ فالأسعار سوف تهبط بمجرد ظهور حمى البيع. وبالطبع يتحول الأمر إلى دائرةٍ مفرغة. فحتى لو لم يكن ثمَّة أي رغبةٍ نفسية لدى أي شخص في مجتمع البيض في البيع من أجل تجنُّب الاندماج مع السود، فإن لديهم جميعًا رغبةً اقتصادية في أن يكونوا أول النازحين قبل ملاحظة أي هبوط في الأسعار؛ ومن ثم يتحوَّل الأمر بالطبع إلى دائرةٍ مُفرغة، والتي تُمثِّل مشكلةً ضخمة. وكيف لك أن توقف عملية نزوح البيض

وتيار إحلال الطبقات الوسطى محلَّ الطبقات الدنيا المعاكس؛ حيث يَنزح البيض إلى الأحياء المُتدهورة ويدفعون الأسعار نحو الارتفاع من أجل أنفسهم على حساب السكان السود المحليِّين؟

(نُسخت بتصريح من كاليفورنيا نيوزريل.)

المراجع

Estrada, Vanessa Correra:

2009 The Housing Downturn and Racial Inequality: Executive Summary. Policy Matters, A Quarterly Publication of the University of California, Riverside 3(2): 1–11. Fall.

Fox, R., and S. Treuhaft:

2010 The President's 2011 Budget. Creating Communities of Opportunity. Oakland, CA: Policylink.

Gerstle, Gary:

2001 American Crucible: Race and Nation in the Twentieth Century. Princeton: Princeton University Press.

Gould, Stephen Jay:

1996 The Mismeasure of Man. New York: W.W. Norton.

Kromm, Chris:

2010 The real story of racism at the USDA. *Facing South* (July 22). http://nameorg.org/pipermail/name-mce_nameorg.org/2010-July/006093.html, accessed November 16, 2011.

Oliver, Melvin L., and Thomas M. Shapiro:

1995 Black Wealth, White Wealth: A New Perspective on Racial Inequality. New York. Routledge Press.

Shapiro, T. M., T. Meschede, and L. Sullivan, L.:

2010 The Racial Wealth Gap Increases Fourfold. Waltham, MA: The Heller School for Social Policy and Management, Brandeis University.

Takaki, Ronald:

2008 A Different Mirror: A History of Multicultural America. New York. Back Bay/Little Brown and Company.

U.S. Congress:

1985 White Earth Reservation Land Settlement Act of 1985. www.welsa.org/pdf/whiteearthlandsettlementact.pdf, accessed November 26, 2011.

Velez Ibanez, Carlos:

1996 Border Visions: Mexican Cultures of the Southwest. Phoenix: University of Arizona Press.

Yarbrough, Fay:

2007 Race and the Cherokee Nation: Sovereignty in the Nineteenth Century. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Zinn, Howard:

2003 A People's History of the United States: 1492–Present. New York: Harper-Collins.

قراءات أخرى

Cramer, R., M. Huelsman, J. King, A. Lopez-Fernandini, A., and Newville, D.:

2010 The Assets Report 2010: An Assessment of President Obama's 2011 Budget and the Changing Policy Landscape for Asset Building Opportunities. Washington, D.C.: New America Foundation.

Cytron, N.:

2010 Improving the Outcomes of Place-based Initiatives. San Francisco, CA: Community Investments, Federal Reserve Bank of San Francisco.

Mallach, A.:

2010 Facing the Urban Challenge: The Federal Government and America's Older Distressed Cities. Washington, D.C.: What Workscollaborative.

Massey, Douglas S., and Nancy A. Denton:

1993 American Apartheid: Segregation and the Making of the Underclass. Cambridge, MA. Harvard University Press.

National Alliance of Community Economic Development Associations:

2010 Rising Above: Community Economic Development in a Changing Landscape. Washington, D.C.: NACEDA.

Treuhaft, S., K. Rose, and K. Black:

2010 When Investors Buy Up the Neighborhood: Preventing Investor Ownership from Causing Neighborhood Decline. Oakland, CA: PolicyLink.

Wiedrich, K., S. Crawford, S., and L. Tivol:

2010 Assets & Opportunity Special Report: The Financial Security of Households with Children. San Francisco, CA: Federal Reserve Bank of San Francisco.

الفصل السادس عشر

العرق والتفاوت في الأوضاع الصحية

تناولنا في الفصول السابقة التي تتطرَّق إلى تجربة العِرق المعيشة الطُّرق المتنوعة التي يَرتبط بها العرق بجمع الثروة وتوزيعها، وكيف يؤثِّر العرق وتفاوُت الطبقة الاجتماعية على التعليم. وفي هذا الفصل نُركِّز على مجالٍ أخير يَبرُز فيه العرق على نحوٍ خاص، ألا وهو: المرض والموت.

كما ناقشنا، فالعرق ليس هو التنوُّع البيولوجي البشري وليس مسبِّبًا له. وفي هذا الإطار تكون مقولة إن العرق مثل البيولوجيا مجرد خرافة. غير أن العرق والعنصرية، كما نوضح في هذا الفصل، لهما طابعٌ بيولوجي من حيث ما لهما من عواقبَ بيولوجيةٍ. والعرقنة والعنصرية لهما عواقبُ بيولوجية تبدأ من قبل الولادة، بل إن الأبحاث الحديثة تشير إلى أنها حتى قد تمتد إلى ما قبل ذلك أو للأجيال السابقة من خلال عملية تسمى التخلُّق المتعاقب. وهذه العواقب المُترتِّبة على العيش في مجتمعٍ عنصري، أو حتى التعايش اليومي مع العواقب اليومية غير الملحوظة للعرقنة، تتراكَم وتُؤدِّي إلى إنهاك العقل والجسد وارتفاع معدَّلات المرض، والتوعُّك، والوفاة المبكِّرة. فالعرق والعنصرية لا يوجدان خارجيًّا فقط على المستوى الثقافي، بل يَتغلغلان تحت الجلد. وفي هذا الفصل نَستكشِف بعضًا من الآليات التي يَتغلغل بها العرق أسفل الجلد ويؤدِّي إلى تفاوتٍ عرقي على مستوى الصحة.

مقال الضيف في هذا الفصل بقلم د. سوزان إم ريفرباي، أستاذ التاريخ بكلية ويلسلي وخبيرة في استخدام العرق في الأبحاث الطبية. يُسلِّط مقال ريفرباي الضوء على البُعد العرقي لواحد من أكثر التجارب الطبية المُخيفة التي أجريَت باسم نشر العلم، ألا وهي

تجربة توسكيجي. في هذه «التجربة» التي استمرَّت لمدةٍ طويلة، خضع مواطنون أمريكيون فقراء من أصلٍ أفريقي مُصابون بمرض الزُّهري على مدى أربعة عقود للمتابعة دون علاج لتسجيل عواقب الزُّهري غير المُعالج. الأمر المهم بشأن مقال ريفرباي هو الأسلوب الذي تُبين به كيف أن تجربة توسكيجي ليست واقعةً منفصلة، بل إنها في قلب ممارسات علاج الأفراد على نحوٍ مُختلِف بناءً على عرقهم المُفترض، وهذه الممارسات، مع الأسف، ما زالت قائمة ومُنتشرة إلى اليوم. ولعلَّ من الطُّرق السريعة التي يؤدِّي بها العرق إلى عواقبَ بيولوجية الفروق في الرعاية الصحية.

يُقدِّم مجال الرعاية الصحية مجموعة من الروابط الواضحة بين العرق والنتائج الصحية؛ فما إن يتعامل الأفراد مع منظومة الرعاية الصحية، حتى يَجدوا اختلافًا في أسلوب التعامل معهم، ولا يدخلون المنظومة على نحوٍ مُتساوٍ، وهذا هو السبب الأساسي وراء الاختلاف التام في الإجراءات الصحية وفقًا للعرق.

لا شك في وجود علاقةٍ سبَبية بين العرق والصحة، وهذه العلاقة، كما سوف نوضح، تتجاوَز بكثيرٍ التفاوت بين الطبقات الاجتماعية الاقتصادية. بل إن المثير بشأن العرق أنه يُجسِّد تفاوتًا اقتصاديًّا وتفاوتًا اجتماعيًّا؛ فالصحة يتحدَّد نمطها وفقًا للعرق «و» الطبقة الاجتماعية. مبدئيًّا، إذا كنتَ فقيرًا وتعيش في مجتمعٍ فقير، تكون احتمالات الحصول على خدمات الأطباء، والمستشفيات، والعيادات الطبية أقلَّ؛ لذلك يقوم الفقراء بفحوصاتٍ طبية أقل؛ ومن ثم يكونون أكثر عُرضةً للمُعاناة من أمراضٍ مزمنة، وغالبًا ما تكون قابلة للعلاج، مثل البدانة، وارتفاع ضغط الدم، والسكري، وأمراض القلب والأوعية الدموية. وحقيقة أن ظهور هذه الأمراض بسهولةٍ أكبر في المجتمعات الفقيرة العرقية مقارَنة بالمجتمعات البيضاء؛ لها تاريخٌ طويل، ويبدو أنها من أكثر الجوانب الثابتة والمُستعصية على الحل للعرق. وحقيقة وجود فجوات في التشخيص، والرعاية، والعلاج بالنسبة إلى الفقراء الملوَّنين إنما تدلُّ على وجود تفاوُتٍ طبَقي مثلما تدلُّ على وجود تفاوتٍ عرقيٍّ أيضًا.

في هذا الفصل، نُتابع معرض «العرق» من خلال تقديم عدد من الأماكن يتدخل فيها العرق في الصحة والرعاية الصحية والآليات المختلفة التي تؤدِّي بها الحياة في مجتمعٍ مُعرقَن، وليس الوراثة، إلى تفاوتٍ عرقي في الصحة. ولنستهلَّ بدراسة عن العواقب الصحية للتمييز، ثم نبحث الاختلافات في مستويات ضغط الدم التي يبدو أنها تُعزى إلى الكيفية التي يُحدَّد بها عرق الأشخاص؛ ثم نقوم بدراسة الحالة المثيرة لعقار «بي ديل»،

وهو عقارٌ للقلب طُوِّر خصوصًا للأمريكيين الأفارقة، ونختم بتحليلٍ لما يُطلق عليه الآن العنصرية البيئية.

(١) العرق والتمييز والضغط

بينما توجد صعوبة في قياس التمييز على أساس العرق، إلا أنه قد وُثِّق من قِبَل الباحثة نانسي كريجر، الحاصلة على الدكتوراه، وستيفن سيدني الحاصل على درجة الماجستير من مدرسة هارفرد للصحة العامة. ففي عام ١٩٩٦ نشَرا مقالًا في دورية أمريكان جورنال أوف بابليك هيلث بعنوان «التمييز العرقي وضغط الدم: دراسة خطورة الإصابة بأمراض الشريان التاجي (كارديا) لدى الشباب من السود في مقابل الكبار من البيض.» وقاما بتطوير استبيانٍ لقياس حجم التمييز الذي يتعرَّض له الناس. وأظهرت النتائج التي توصَّلا إليها أنه «في المجمل، أقرَّ ٧٧٪ من النساء السوداوات و٨٤٪ من الرجال السود بتعرُّضهم لتمييزٍ عرقيٍّ فيما لا يقل عن واحد من المواقف السبعة المُحدَّدة. وأقرَّ أكثر من نصف السود من النساء والرجال معًا بأنهم قد تعرَّضوا لتمييزٍ عرقي في ثلاثة مواقع أو أكثر» (كريجر وسيدني ١٩٩٦: ١٣٧٤).

وكشف الباحثان عن وجود أثرٍ سلبي مزدوَج حين يجتمع كلٌّ من العرق/الإثنية والطبقة الاجتماعية معًا. وعند إضافة دينامية النوع الاجتماعي أيضًا، تُظهر النتائج أن المرض المزمن يُصبح بمنزلة صراعٍ مُتواصِل. ويوضِّح آمي جيه شولتز وليث مولينجز في كتابهما الرائد المحرَّر «النوع الاجتماعي للناجين وأُسرهم عن ممتلكاتهم والعرق والطبقة والصحة»، أن «التفاوت في الأوضاع الصحية القائم على العرق/العنصرية، والطبقة، والنوع الاجتماعي/الجنسانية هو مسألة حياة وموت.» ومضَيا يقولان إن قيمة هذا العمل المُتعدِّد التخصُّصات لا يزال من النادر تقديرها. «في هذا الكتاب جمعنا مجموعة من الباحثين من تخصصاتٍ متعدِّدة من العلوم الاجتماعية ومن الصحة العامة لدراسة الطرق التي يتشكَّل بها النوع الاجتماعي، والطبقة، والعرق ويترابَطون معًا على نحوٍ تبادُلي» (شولتز ومولينجز ٢٠٠٦: ٣). ومن المجال الأكاديمي إلى الصحافة الشعبية، تحظى مشكلات التفاوت في الأوضاع الصحية بين النساء باهتمام الجميع. على سبيل المثال، في مقال «النساء يُقرِّرن وجود فجوات في الرعاية الصحية»، تتحدَّث مولي هينسي-فيسك عن نتائج دراسة بعنوان «المؤشِّرات الصحية للنساء في لوس أنجلوس»، وهي دراسة أجرَتْها إدارة

الصحة العامة بلوس أنجلوس. كذلك أوضحت هذه الدراسة، التي وردت في جريدة لوس أنجلوس تايمز (هينسي-فيسك ٢٠١٠). مثالَين على الأقل من الأمثلة الأساسية للتأثير السلبي المزدوَج للعرق والنوع في مقاطعة لوس أنجلوس، بكاليفورنيا:

- كانت النساء الأمريكيات من أصلٍ أفريقي أكثر عُرضة للمعاناة من الأمراض التي تنتقل جنسيًّا، من بينها الإيدز، والوفاة جراء الأمراض المُزمنة. على سبيل المثال، بينما كان معدَّل الإصابة بسرطان الثدي أعلى بين النساء البيضاوات، كانت النساء الأمريكيات الأفريقيات أكثر عرضة للوفاة جراء الإصابة به.
- سجَّلت اللاتينيات أردأ وضعٍ صحي بين نساء جميع الفئات العرقية. على سبيل المثال، ارتفع معدل البدانة لديهنَّ من ٢٧ بالمائة في عام ٢٠٠٥ إلى ٣١ بالمائة في ٢٠٠٧.

يَكمن جزء من المُشكلة التي تقف خلف هذه البيانات المُزعِجة في أن عددًا كبيرًا من هؤلاء النساء الفقيرات في كتاب شولتز ومولينجز، وفي تقرير التفاوُت في الأوضاع الصحية الصادر من مقاطَعة لوس أنجلوس، يَفتقِرن ببساطة إلى التأمين الصحي والحق في الحصول على الرعاية الصحية. ولكن مع وضع ذلك في الاعتبار، تعتقد د. ريتا شنغهاي، أحد المشاركين في كتابة تقرير إدارة الصحة العامة، أن العنصرية أيضًا من العوامل المُساهمة في ارتفاع معدَّلات الوفيات بين النساء الأمريكيات الأفريقيات، على سبيل المثال. وقالت شنغهاي إن الباحثين يتشكَّكون في أن النساء الأمريكيات الأفريقيات واللاتينيات قد يُعانين من عدم المساواة العرقية، والتمييز، والضغط في محاولاتهنَّ للحفاظ على أنظمةٍ غذائيةٍ صحية، والحصول على رعايةٍ صحيةٍ مميزة (اقتُبست كلمات شنغهاي في دراسة هينسي-فيسك ٢٠١٠: أ٣٧). لذلك، وبينما نحن بصدد التفكير في قضية العرق والتفاوت الصحي، نحتاج إلى إدراك أن الحصول على الرعاية الصحية هو مزيج من القضايا البيئية، وكذا نقص الخدمات المتاحة (مثل نقص أشعة فحص الثدي المجانية والعيادات المجانية في الأحياء التي يقطنَّها).

يواجه اللاتينيون، بوجهٍ عام، عقباتٍ أخرى في سبيل الحصول على الرعاية المُتميِّزة. فثمة فرصةٌ أكثر من وفيرة للتحفُّظ في الكلام من جانب الشخص الذي لا يتحدَّث الإنجليزية؛ فإذا توجه الشخص إلى الطبيب أو المُمرِّضة، تزايَدت فرصة سوء التواصُل وربما خطأ التشخيص. وإضافة حاجز اللغة إلى قائمة العراقيل الضخمة في الأساس

للحصول على الرعاية الصحية (مثل الصعوبة في الحصول على إجازة من العمل، وصعوبة العثور على مكان لرعاية الأطفال من أجل الذهاب إلى المواعيد الطبية، وصعوبة العثور على وسيلة نقل للذهاب إلى المواعيد الطبية ... إلخ) من شأنها خلق سلسلةٍ قوية من العوائق.

الرعاية الصحية للَّاتينيين

«ثمة حواجز يُمكن أن تجعل من الصعب على كثير من اللاتينيِّين الحصول على الرعاية الصحية.»

اللغة حاجز بالنسبة إلى كثيرين

وفقًا لتقرير صدر عام ٢٠٠٠ عن مركز جامعة لوس أنجلوس بكاليفورنيا لأبحاث السياسة الصحية ومؤسسة عائلة هنري جيه كايزر، «يقول حوالي ثلاثة من بين عشرة لاتينيِّين (بنسبة ٢٩٪) إنهم واجَهوا مشكلة في التواصُل مع مقدمي الرعاية الصحية على مدار العام الماضي، من ضمنهم ١٢٪ يقولون إن هذه المشكلة كانت كبيرة، مقابل ١٧٪ يقولون إنها كانت مشكلةً بسيطة.»

في المناطق المأهولة بأعدادٍ كبيرة من السكان اللاتينيِّين، قد يتوافر مقدمو خدماتٍ صحية يتحدثون بالإسبانية. غير أن اللاتينيِّين الذين يتحدثون الإسبانية فقط غالبًا ما يُضطرون إلى الاعتماد على مترجمين أو أفراد العائلة الذين يُجيدون لغتَين. وقد يُساهم المترجمون ممن ليست لهم دراية بالمصطلحات الطبية، عن غير قصد، في سوء التواصُل بين المرضى والأطباء. علاوة على ذلك، قد يجد المرضى غضاضةً في مناقشة التفاصيل الشخصية الحيوية حين يَضطلِع أفراد الأسرة أو الأصدقاء بدَور المترجمين.

«يواجه العمال الفُقراء حواجز إضافية تحول دون الحصول على الرعاية الصحية.»

تعاني الأقليات العرقية والإثنية، بمَن فيهم اللاتينيُّون، من الفقر على نحوٍ غير مُتكافئ؛ ومن ثم فهم أكثر عرضة للعرقلة بفعل:

- الصعوبة في الحصول على إجازة من العمل من أجل المواعيد الطبية.
- صعوبة العثور على مكانٍ لرعاية الأطفال من أجل المواعيد الطبية.
- صعوبة العثور على وسيلة نقل للذَّهاب إلى المواعيد الطبية.

«غالبًا ما تَزداد العراقيل المادية لاستخدام الخدمات الصحية تعقيدًا بفعل عواملَ أخرى، مثل قلة عدد مُقدِّمي الخدمات الصحية في مجتمعٍ ما على نحوٍ بالغ، وطول فترات الرحلة إلى أقرب مقدم خدمة، والمُمارسين الذين لا يتحدثون لغة مرضاهم ولا يفهمون ثقافتهم» (براون وآخرون: ٢٠٠٠).



شكل ١٦-١: لوحة الصحة، ٢٠٠٣ (لوحة بالأكريليك على الكنفا) لخافير كورتادا (فنان معاصر) المجموعة الخاصة، مكتبة بريدجمان للفنون.

تحتاج الأبحاث المستقبَليَّة عن تفاوت الأوضاع الصحية والنوع الاجتماعي إلى الابتعاد عن الأبحاث الحالية التي، وفقًا لـ «روث زامبرانا وبوني ديل»: «تُساهم فيها الحجج الفارغة التي [تتجاهل] أوجه الظلم المؤسَّسي النوعية المعرقنة داخل منظومات الصحة العامة في ظهور مقارباتٍ نظريةٍ جامدة تعجز عن زيادة معرفتنا بالجماعات» (٢٠٠٦: ٢١٧). ويؤيد زامبرانا وديل الأبحاث التي تضع في الاعتبار «الواقع الهيكلي والسياسي للمؤسَّسات ذات الموارد الهزيلة، لا سيما المدارس ومُنشآت الرعاية الصحية، في المجتمعات الحضرية والريفية، ومجتمعات المهاجرين حيث تعيش اللاتينيات» (٢٠٠٦: ٢١٧).

(٢) العرق وارتفاع ضغط الدم: المدلول الثقافي لِلوْن البشرة

إنها لحقيقة طبية أن مُجتمعات الشتات الأفريقي والأمريكيِّين الأصليين يميلون إلى ارتفاع معدَّلات ضغط الدم لديهم، في المتوسط، عن البيض أو سكان جزر المحيط الهادئ الآسيويِّين. هل هذا أمر بيولوجي (عرقي) أم بيئي، أم مزيج من الاثنين؟ في الواقع، تبيَّن من خلال دراسة نشرها روبرت كوبر، وتشارلز إم روتيمي، وريك وارد، أن الأمريكيين

الأفارقة، على مستوًى عالمي أو عابر للأطلسي، لديهم واحد من أعلى معدَّلات ضغط الدم في العالم. غير أن في غرب أفريقيا، حيث يَنحدر الكثير من الأسلاف المعاصرين للأمريكيين الأفارقة، يوجد بعضٌ من أقل معدلات ضغط الدم في العالم. إذن، فهل يُعزى الأمر إلى الجانب البيولوجي أم إلى العرق؟ الإجابة الواضحة هي أن نمط ارتفاع ضغط الدم في جماعات الأفارقة، من الارتفاع في الأمريكتَين والانخفاض في أفريقيا، يُشير إلى أن شيئًا أكبر بكثير من العرق والوراثيات، له دورٌ نشط ومؤثِّر في هذا الصدد.

أدلى علماء الأنثروبولوجيا بدَلوهم حول جميع جوانب الجدال. فعلى سبيل مثالٍ آخر، ترى فرضية «الاستعباد» أن الأمريكيين الأفارقة لديهم ميل جيني لارتفاع ضغط الدم بناءً على عواقب الانتقاء الحادِّ خلال فترة «المَمر الأوسط» وطول حقبة العبودية هنا في الولايات المتحدة. و«الممر الأوسط» هو الرحلة العصيبة التي قام بها العبيد الأفارقة على متن سفنِ تجار الرقيق عابرينَ الأطلنطيَّ قادمين من القارة الأفريقية. ويمضي الجدال إلى أن هذه الظروف العصيبة الصادمة قد تسبَّبت في «عنق زجاجة» بيولوجي أو جيني أسفر عن الاحتفاظ بالملح داخل أجسام هؤلاء الأشخاص الذين نجوا من الممر الأوسط إلى جانب أمراضٍ مُعدية مثل الإسهال والقيء. وعلى الرغم مما اكتسبته النظرية من شهرة واهتمام في العديد من الدوائر، بما فيها الإعلام، ثمة نُقاد مثل جورج أرميلاجوس، أحد علماء الأنثروبولوجيا البيولوجية، يقولون إنه «لا وجود» لأي دليل «على عدم وجود دلالة على عنق زجاجة جيني أو دليل على اختلافات «عرقية» محددة جينيًّا.» وبحسب أرميلاجوس، لقد «حان الوقت لنبذ خرافة فرضية ارتفاع ضغط الدم الناتج عن العبودية، والبدء في دراسة القضية من منظورٍ بيولوجي واجتماعي يعكس مقاربةً أكثر واقعية للتفاوت القائم في انتشار وتفشي ارتفاع ضغط الدم» (أرميلاجوس ٢٠٠٥: ١١٩).

على الطرف الآخر من الجدال يَقف أولئك القائلون بأنه عند استكشاف دور التاريخ، فإن الضغط، والجينات، والخُطورة، والبيئة، وغير ذلك من العوامل قد تفسر أو لا تفسر الفرضية. تقول عالمة الأنثروبولوجيا البيولوجية فاتيما جاكسون: «الحقيقة هي أن ثمَّة العديد من الأنواع المختلفة من ارتفاع ضغط الدم؛ ومِن بين هذه الأنواع ارتفاع ضغط الدم نتيجة الحساسية للملح، ويبدو أن أفرادًا بعينهم من الأمريكيين الأفارقة مُعرَّضون للإصابة بباثولوجيات فسيولوجية أكبر من غيرهم استجابة للتعرض لمعدَّلات مُرتفعة من الملح في النظام الغذائي» (٢٠٠٥: ١٢٥). وتمضي لتتحدث عن علاقة تحمل الأملاح لدى البشر بتحمُّله لدى الثدييات الأخرى. فتقول إن معظم الثدييات البرية سوف تُصاب باضطرابات القلب والأوعية الدموية، والاضطرابات العصبية والكُلوية في وجود

تعرضٍ ممتد لمعدلاتٍ مرتفعة من الملح في الغذاء. ومن ثم يكون السؤال الأساسي لها هو «لماذا يَتميَّز بعض البشر بقدرةٍ أفضل على تحمُّل التعرض إلى هذا السم (الملح) دون الإصابة بهذه الاختلالات الفسيولوجية؟» (جاكسون ٢٠٠٥: ١٢٥) لعل من تحدياتها لعلماء الأنثروبولوجيا البيولوجية الذين لا يعتقدون في فرضية ارتفاع ضغط الدم نتيجة التعرض للملح هو اختبارها فعليًّا؛ وهذا يعني (بالنسبة إليها) الأخذ في الاعتبار تاريخ الأمريكيين الأفارقة، لا سيما الممر الأوسط وتقلبات حقبة العبودية.

هل ترَك الممر الأوسط إرثًا من حساسية الملح لدى الأمريكيين الأفارقة؟ شيءٌ وارد، ولكن ما هو بصدد أن يتبيَّن أيضًا من الأبحاث أن الأفريقيِّين ممن ليس لهم صلة بسكان الممر الأوسط يتعرَّضون أيضًا لضغط وتوعكٍ متزايد حين يعيشون في الولايات المتحدة. كذلك يعاني الأمريكيون الأفارقة من معدلاتٍ مرتفعة من أمراض أخرى ليس لها أدنى صلة بحساسية الملح. بل إنهم يُعانون من معدَّلاتٍ مرتفعة من كل مرض تقريبًا. ورأيُنا هو أن أسباب هذا التفاوت الواسع واسعة أيضًا، ألا وهي الحياة في مجتمعٍ عرقي.

ثمَّة مثالٌ مذهل يوضِّح كيف أن التصنيفات العرقية الدقيقة قد تؤدِّي إلى ارتفاع ضغط الدم، ويأتي هذا المثال من بحثٍ حديث لعالم الأنثروبولوجيا الطبية كلارينس جرافلي. يهتم جرافلي بفهم كيفية فصل تأثير لون البشرة كسِمَةٍ بيولوجية عن كيفية «عرقنتِنا» للأفراد بناءً على لون بشرتهم والسمات الجسدية الأخرى. ويُقيم بحثه، الذي نتناوله هنا بالمناقشة، على وجه التحديد كيف يؤثِّر التصنيف الثقافي «للون» المُجمع عليه، أو ما قد نُشير إليه بالعرق الاجتماعي، على ضغط الدم في جواياما، ببورتريكو. تعدُّ جواياما موقعًا منطقيًّا لأن نَسْب «اللون» يتشكَّل على أساس الملامح الجسدية، مثل شكل الشَّعر، إضافة إلى لون البشرة، وأيضًا على أساس مؤشِّرات المكانة الاجتماعية مثل الثروة. وجواياما هي مدينة يبلغ عدد سكانها ٤٥ ألف نسمة، وكانت ثالث أعلى بلدية في إنتاج السكَّر في الجزيرة في القرن التاسع عشر. ويعد «المشهد العرقي» الموضَّح في هذه الخريطة لبيانات التعداد الحديثة من الإرث الذي خلَّفته العبودية وتجارة السكر.

يَرتبط لون البشرة الداكنة، خاصة في البر الرئيسي للولايات المتحدة وكذا في بورتريكو، بارتفاع ضغط الدم لدى جماعات الشتات الأفريقي. ويُشير جرافلي إلى تقديم آليتَين مختلفتين تمامًا لتفسير تلك العلاقة؛ بناءً على مدلولَين مختلفَين تمامًا للون البشرة. التفسير الواقعي الأول هو أن لون البشرة الداكن يُستخدم كرمزٍ جيني للمزيج الأفريقي. وهكذا يكون الارتباط هو نتاج «الوراثيات الأفريقية». التفسير الثاني الأقل شيوعًا هو أن

لون البشرة الداكن «يدل» على تدني المكانة الاجتماعية وزيادة التعرض للعنصرية، وهذه الأمور تُسبِّب ارتفاع ضغط الدم. النقطة الأساسية هنا هي أن لون البشرة، أو الصباغ، في الحالة الأولى قد يَرتبط بالتفسير الثاني ألا وهو «اللون كتصنيفٍ اجتماعي».

ارتفاع ضغط الدم: عرق أم عرقية؟

«تُشير الدراسات إلى أن ضغط العرقية يُساهم في ارتفاع معدلات ضغط الدم بين الأمريكيين الأفارقة عنه بين الأمريكيين الأوروبيين.»

الأمر ليس جينيًّا

فيما بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٥، قام الباحثون بمقارنة مستويات ضغط الدم لدى أفارقة من نيجيريا والكاميرون بمستويات ضغط الدم لدى أشخاص مُنحدِرين من أصلٍ أفريقي في جزر الكاريبي والولايات المتحدة. وعلى الرغم من التشابُهات الجينية، فقد اختلفت معدلات ضغط الدم المرتفع بين الجماعات اختلافًا تامًّا. ومن المحتمل أن تُعزى تلك الاختلافات إلى البيئة الاجتماعية، والنظام الغذائي، وأسلوب الحياة.

عرف العلماء لفترة أن معدَّل ارتفاع ضغط الدم في المناطق الريفية من غرب أفريقيا أقل منه في أي مكان في العالم، فيما عدا بعض أجزاء منطقة حوض الأمازون وجنوب المحيط الهادئ. أما الأشخاص المُنحدِرون من أصولٍ أفريقية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على الجانب الآخر، فكانوا من بين أعلى معدَّلات ارتفاع ضغط الدم في العالم. وهذا التحول إنما يشير إلى أن شيئًا ما يتعلق بالبيئة المحيطة أو أسلوب الحياة لدى الأوروبيين والسود الأمريكيين — وليس عاملًا وراثيًّا — كان السبب الأساسي في تغيُّر قابليتهم للتعرض إلى ارتفاع ضغط الدم.

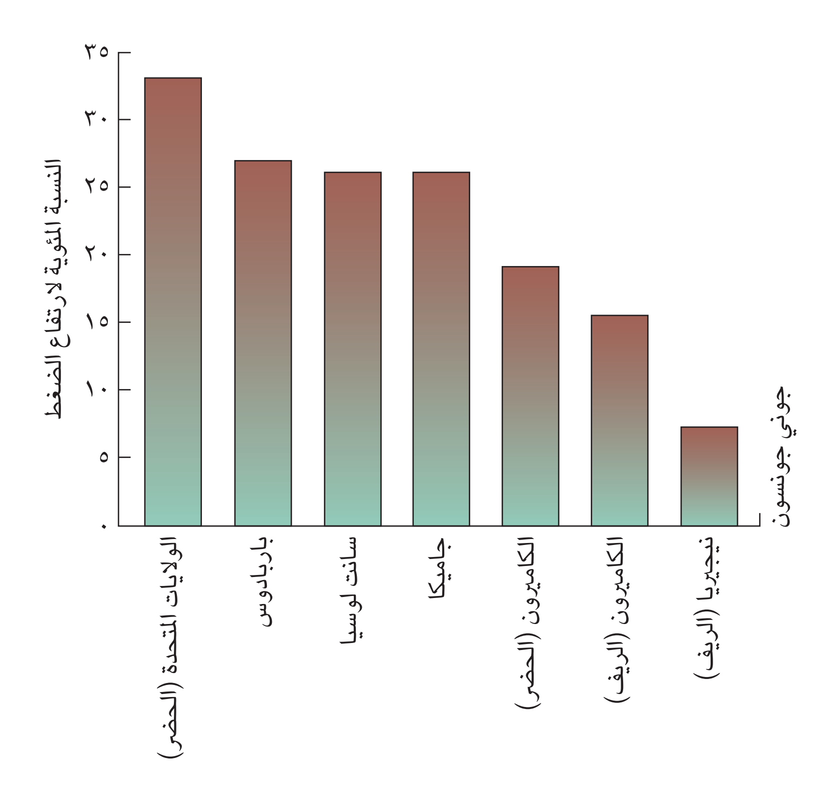
كوبر وآخرون ١٩٩٩

العنصرية تلعب دورًا

تدعم أبحاثٌ عديدة ادعاءَ أن ضغط العنصرية على الأمريكيين الأفارقة يرتبط بارتفاع ضغط الدم بينهم.

العرق فئةٌ اجتماعية مؤثِّرة إلى أقصى مدًى في الولايات المتحدة؛ فهو يؤثر على الأماكن التي نقطنها، ونوعية المدارس التي نَلتحِق بها، والوظائف التي نتقلَّدها، ونوعيات الضغوط التي نتعرض لها، وما إذا كان لنا حق الحصول على الرعاية الصحية، والعديد من جوانب حياتنا

الأخرى. ولما كان العرق فئةً اجتماعية مؤثرة إلى هذا الحد، فيُمكنها أن تؤثر على بيولوجيتنا وصحتنا (بيلار أوسوريو، أستاذ أخلاقيات الطب، مدرسة الحقوق بجامعة ويسكونسن، على موقع http://www.pbs.org/race/000_About/002_04-experts-01-12.htm).



شكل ١٦-٢: رسم توضيحي من متحف مينيسوتا للعلوم بعد الرسم البياني «إصابات ارتفاع ضغط الدم» من كوبر، وروتيمي، ووارد (١٩٩٩). حقوق الطبع ١٩٩٩ من شركة ساينتيفيك أمريكان. جميع الحقوق محفوظة.

التمييز غير المُدرَك مباشَرة قد يؤدي أيضًا إلى تغييرات في الحالة الصحية. على سبيل المثال، قد يتعرَّض الأفراد إلى الحرمان الاقتصادي الذي يكون نتاجًا للعنصرية، ولكنهم قد لا يَعتبرون أن ظروفهم الاقتصادية تتحدَّد على أساس تحيُّزٍ مُرتبط بالعرق (بروندولو وآخرون ٢٠٠٣).



شكل ١٦-٣: مديرة المشاركة المجتمعية بمتحف مينيسوتا للعلوم جوان جونز-ريتسي تقيس ضغط الدم (بتصريح من متحف مينيسوتا للعلوم، روبرت جارفينكل).

قام جرافلي بقياس كلٍّ من تصبُّغ الجلد — عن طريق قياس الطيف الضوئي لانعكاس الضوء القياسي — وكذلك تصنيف الأفراد في فئاتٍ للعرق/اللون. وباشر جرافلي سلسلة من الحوارات الإثنولوجية، محتذيًا في ذلك حذو عمل مارفن هاريس في البرازيل، واستطاع التوصُّل إلى تصنيفٍ متوافَق عليه للعرق، مُنتقلٍ من الفئة الأفتح، أي من البيض إلى ذوي اللون القمحي، ثم الهنود، إلى الفئات الأكثر دكنة التي تَشمل مُختلطي الأعراق وأخيرًا الزنوج (جرافلي ٢٠٠٥).

وجد جرافلي وزملاء له أن «اللون المنسوب» (في ظلِّ تحييد صبغة الجلد) وليس صبغة الجلد، يَرتبط بضغط الدم المرتفع. وهذا التفاعل القوي بين «اللون» المنسوب والمكانة الاجتماعية الاقتصادية كاشف على نحوٍ خاص. فمع ارتفاع المكانة الاجتماعية الاقتصادية يرتفع ضغط الدم؛ إذ ترتفع متوسطات ضغط الدم لدى أولئك المصنفين كزنوج، بينما يقل ضغط الدم لدى البيض أو ذوي البشرة القمحية (جرافلي وآخرون ٢٠٠٥). وتأتي هذه النتائج متَّسقة مع السجل الإثنوجرافي في بورتريكو، الذي يُشير إلى أن «اللون» لا قيمة له نسبيًّا في سياقات المكانة الاجتماعية الاقتصادية المُنخفِضة، وأن وبال

العنصرية يَصل إلى أقصى مداه في الطبقات المتوسطة والعليا. والمُستطلَعون المصنَّفون ك «زنوج» في سياقات المكانة الاجتماعية الاقتصادية المرتفعة هم «زنوجٌ» يعيشون في عالم من «البِيض». ونتيجة لذلك قد يتعرَّضون لعنصريةٍ مؤسسية وشخصية تتغلغل تحت الجلد. وقد يكون من نتائج ذلك ارتفاعٌ مستديمٌ في ضغط الدم.

إيجازًا، توضِّح دراسة جرافلي أن العرق ليس شيئًا بيولوجيًّا بمعنى أنه يختلف عن التباين الجيني البشري. غير أن العرق تصنيفٌ ثقافي مؤثِّر ذو عواقب بيولوجية.

(٣) العنصرية البيئية

ثمَّة آليةٌ أخرى تؤدي بوضوحٍ إلى تدني الأوضاع الصحية في المجتمعات الفقيرة، هي التعرُّض لمجموعةٍ كبيرة من الملوثات والمهيجات. وحين تكون المجتمعات الفقيرة مجتمعاتٍ ملوَّنة أيضًا، يُطلق على هذا «العنصرية البيئية».

أشارت الأبحاث على نحوٍ مُتزايد على مدى العقود القليلة الماضية إلى وجود علاقة بين وجود الأمراض المزمنة بعضها ببعض، مثل الربو لدى الأطفال ولدى البالغين، في المواقف المُجتمعية العالية السُّمِّية. وتشمل أمثلة التباينات في السموم والمُلوثات، حسب المكان، جودةَ الهواء (المركَّبات الكبريتية، والمواد الجسيمية، والمركبات العضوية المسبِّبة للسرطان)، والتخلص من النفايات، وتلوث المياه الجوفية. وهذه المواقع السامة غالبًا ما تكون غير ظاهرة للعين، ولكنها تكون في أغلب الأحيان بالقرب من أحياء الملوَّنين الفقيرة. وتُعيد لوحةُ المعرض التي تَحمل عنوان «التلوث وصحة الأعراق» التأكيد على هذا الزعم بتصريحٍ صادر من الوكالة الأمريكية لحماية البيئة يرجع إلى عام ١٩٩٢. كذلك تُصرِّح لوحة المعرض بأن الملوَّنين أكثر عرضة للعيش في مناطق لا تتطابق فيها جودة الهواء مع المعايير التي وضعَتها الوكالة. وتشمَل المشكلات الصحية التي يُسبِّبها هذا النوع من التلوث عدوى الجهاز التنفُّسي العلوي، والربو، ونوبات الصداع، والقيء، وسرطان الرئة، وأمراض القلب.

في عام ٢٠٠٧، طلبت أبرشيات العدالة وشهود المسيح التابعة لكنيسة المسيح المتَّحدة إعداد تقرير كمُلحَق لتقريرٍ سابق كانت قد أعدته في عام ١٩٨٧ لتقييم التقدم المُحرَز في تحديد مواقع النفايات السامة والتخلُّص منها في الأحياء الفقيرة في أنحاء الولايات المتحدة، وكان بعنوان «النفايات السامة والعرق في الولايات المتحدة». كان للتقرير قيمته آنذاك؛ لأنه وجد أن العرق هو المُتغيِّر الأهم في التنبُّؤ بمواقع المنشآت التجارية المتخصِّصة في

إدارة النفايات في الولايات المتحدة. فقد كان العرق مؤشِّرًا أقوى من دخل الأسرة، وقيمة المنازل، والكم المقدَّر من النفايات الخطرة التي تخلفها الصناعة (بولارد وآخرون ٢٠٠٧: ١٠).

طُلب التقرير الجديد كجزءٍ من الاحتفال بمرور ٢٠ عامًا على التقرير الأول. وكان من ضمن الأمور الأخرى التي تناولها التقرير أيضًا تداعيات العدالة البيئية في نيو أورليانز بعد إعصار كاترينا. لقد تمَّت كتابة تقرير «النفايات السامة والعرق في ذكراه العشرين» وتم تصميمه من أجل «تسهيل حركة التنظيم الشعبي المجدَّدة وتوفير عامل تحفيزي للمُنتديات العامة، ومجموعات النقاش، والتغييرات السياسية الخاصة بالعدالة البيئية على المستوى المحلي، والإقليمي، والقومي في عام ٢٠٠٧ وفيما بعد» (بولارد وآخرون ٢٠٠٧: ١٠). كان النهج الذي اتخذه التقرير الثاني مختلفًا عن نهج تقرير ١٩٨٧، من حيث توظيفه لاستخدام بيانات التعداد السكاني لعام ٢٠٠٠ (فيما يعدُّ مثالًا آخر على كيفية الاستخدام الإيجابي لبيانات التعداد)، والأساليب القائمة على استقاء البيانات عن بُعد، وقامت بتطبيقه على قاعدة بيانات حالية للمُنشآت التجارية المتخصِّصة في التخلص من النفايات الخطرة من أجل تقييم نطاق التفاوت العرقي والتجاري الاقتصادي في مواقع هذه المُنشآت في الولايات المتحدة. كان هذا التفاوت يُبحث حسب المنطقة والولاية، وكانت المناطق الحضرية تُختصُّ بتحليلٍ مُستقل لها؛ حيث كانت توجد معظم منشآت النفايات الخطرة.

وأظهر التقرير أن التفاوُتَ العرقي في توزيع النفايات الخطرة أكبر مما كان موثَّقًا في السابق. بل إن البيانات تُبيِّن أن الملوَّنين يُشكلون الأغلبية بين القاطنين في «الأحياء المؤوية للنفايات» في نطاق ١٫٨ ميل من منشآت إدارة النفايات الخطرة في البلاد. ووجَدوا أن التفاوت العرقي والإثني لا يزال منتشرًا عبر أنحاء البلاد (بولارد وآخرون ٢٠٠٧: ١٠). وفيما يلي النتائج على المستوى القومي وعلى مستوى الأحياء:

«التفاوت القومي»: يُقدَّر عدد القاطنين في الأحياء المؤوية للنفايات في نطاق ١٫٨ ميل من المنشآت التجارية لإدارة النفايات الخطرة في البلاد، البالغ عددها ٤١٣ منشأة، بأكثر من ٩ ملايين شخص. ويَعيش أكثر من ٥٫١ ملايين شخص من الملوَّنين في الأحياء التي تحوي واحدة أو أكثر من المنشآت التجارية لإدارة النفايات الخطرة (يُذكر أن معدَّلات الفقر في الأحياء المؤوية للنفايات أكبر من المناطق غير المؤوية للنفايات بمعدَّل ١٫٥ مرة (١٨٪ في مقابل ١٢٪)).

«الأحياء ذات المنشآت المجمَّعة»: تضم الأحياء ذات المنشآت المجمعة معًا نسبًا أعلى من الملوَّنين مقارنة بالأحياء التي لا تضمُّ منشآتٍ مجمَّعة (٦٩٪ في مقابل ٥١٪). وترتفع معدلات الفقر في هذه الأحياء. ونظرًا لتركز الملونين والفقراء على نحوٍ كبير في الأحياء التي تضمُّ مُنشآتٍ متعددة، فإن هذه الجماعات معرَّضة لمزيد من الخطورة والتأثير السلبي على صحتهم.

ويُختتم التقرير بملاحظات عن أنه على مدى عشرين عامًا منذ صدور التقرير الأول فصاعدًا، لا يزال هناك تفاوتٌ عرقي واجتماعي اقتصاديٌّ كبير في توزيع المنشآت التجارية للنفايات الخَطِرة في البلاد. حتى في وجود تكنولوجيا وتقنيات أفضل لأخذ العينات، وجد الباحثون أن النتائج، للأسف، جاءت مُشابهة لما كانت عليه في عام ١٩٨٧ (بولارد ٢٠٠٧: ١١). يُقدم التقرير أيضًا مجموعةً قوية من التوصيات تبدأ من المستوى الفيدرالي وتتدرَّج تنازليًّا إلى مستوى المجتمع المحلي. وقد أُلقي الضوء على نسخةٍ كاملة من التقرير في قسم القراءات الأخرى في نهاية الفصل.

العرق والتلوث والصحة

«الملوَّنون أكثر عرضة للتعرض إلى التلوث والمعاناة من آثاره.»

التلوث الصناعي

توجد منشآت تخزين ومعالجة النفايات الخَطِرة في أغلب الأحيان في الأماكن التي يقطنها الفقراء أو الأقليات وحولها، أكثر من مجتمعات الطبقة المتوسطة أو البيض.

تتبايَن الآثار الصحية للتعرُّض إلى المخلفات والصناعات السامة اعتمادًا على الملوِّثات ذات الصلة ومستويات التعرض.

تلوث الهواء

يُعدُّ الملوَّنون أكثر عُرضة للعيش في المناطق التي لا تتطابَق فيها جودة الهواء مع المعايير المحدَّدة من قِبَل وكالة حماية البيئة. وتشمَل المُشكلات الصحية التي يُسبِّبها تلوث الهواء:

- عدوى الجهاز التنفسي العلوي.
- الربو.

- نوبات الصداع والقيء.
- سرطان الرئة.
- أمراض القلب.

يتعرَّض سكان الأقليات العرقية ومحدودو الدخل بمعدلاتٍ أعلى من المتوسط لملوِّثات هواء معيَّنة، ومنشآت النفايات الخطرة، والأسماك الملوَّثة، والمبيدات الزراعية في مكان العمل (الوكالة الأمريكية لحماية البيئة ١٩٩٢، استشهد به في معرض العرق، متحف مينيسوتا للعلوم).



شكل ١٦-٤: الملوِّثات الصناعية لها تأثيرٌ كبير على نحوٍ غير مُتكافئ على الأقليات العرقية وأفراد المجتمع الأكثر فقرًا iStockphoto.com/AVTG ©.

(٤) عقار بيديل والعرق في الطب

في ٢٣ يونيو، من عام ٢٠٠٥، أعادت إدارة الغذاء والدواء الأمريكية إدراج «العرق» كبديل للتبايُن الجيني. واعتمدت إدارة الغذاء والدواء عقارَ بيديل «لعلاج قصور القلب كدواءٍ مُساعِد للعلاج النمطي لدى المرضى الذين يُصنِّفون أنفسهم من السود.» وعقار بيديل هو عقار مركَّب بتوليفةٍ ثابتة من عقارَين مكافئين هما، أيزوسوربيد ثنائي النترات (الذي يعمل على «منح» أكسيد النيتريك) وهيدرالازين هيدروكلوريد (وهو موسِّع للأوعية ومضاد للأكسدة). تَعتقد شركة نيتروميد للأدوية، الكائنة في ليكسينجتون، بولاية ماساتشوستس، والتي حصلت على براءة الاختراع للعقار أن عقار بيديل المركَّب ذا التوليفة الثابتة الجرعة

سوف يُعزِّز مستويات أكسيد النيتريك؛ ومن ثَمَّ يُحسِّن تمدُّد الأوعية الكبيرة وتدفُّق الدم (الجزء الخاص بعقار بيديل مقتبس من جونز وجودمان (٢٠٠٥)).



شكل ١٦-٥: عقار بيديل (بتصريحٍ من شركة نيترومِيد).

عقدت اللجنة الاستشارية لعقاقير الكُلى والقلب والأوعية الدموية التابعة لإدارة الغذاء والدواء اجتماعًا استمرَّ يومًا كاملًا في الأسبوع الذي سبَق اعتمادَها لعقار بيديل. وقد حضر هذا الاجتماع اثنان من المشاركين في تأليف هذا الكتاب، وهما جونز وجودمان، والذي عُقد في جايثرزبيرج، بولاية ميريلاند، في قاعة الاحتفالات بفندق هوليداي إن، واستمعا إلى العرض التقديمي الصباحي لشركة نيترومِيد عن تجربتهما على مرضى قصور القلب من الأمريكيين الأفارقة. وبحسب ما أورده تايلور وزملاؤه (٢٠٠٤) في دورية نيو إنجلاند جورنال أوف ميديسن، فإن من بين مرضى قصور القلب المتقدِّم من السود الذين شاركوا في التجربة، والبالغ عددهم ١٠٥٠ شخصًا، عانت المجموعة التي تلقَّت عقار بيديل من حالات وفيات أقل من المجموعة التي تلقَّت الدواء الوهمي بنسبة ٤٣ بالمائة. وخلال الساعة التالية المخصَّصة للتعليقات العامة، أشار مؤيدو البيديل إلى الحاجة إلى عقاقير أفضل

للقلب للأمريكيين الأفارقة، فيما تساءل الأكاديميون، مثل الطبيب وعالم الأنثروبولوجيا شوماركا كييتا، عن المنطق وراء اعتماد عقار لمثل هذا الفصيل الاجتماعي المتنوِّع جينيًّا. حينئذٍ تعمَّدت اللجنة، في الأغلب، كما بدا، مناقشة المستوى الملائم للدلالة الإحصائية لنتائج التجربة، قبل الموافَقة بالإجماع على استعمال بيديل. وصوَّت اثنان من أعضاء اللجنة بالموافقة على الاستخدام العام غير المُقتصِر على عرقٍ بعينه للعقار.

في الواقع، لقد جاء قرار إدارة الغذاء والدواء الأمريكية باعتماد عقار بيديل كعلاجٍ مُساعد «للمرضى الذين يُصنِّفون أنفسهم كسود» ليجعله أول عقار يحصل على براءة اختراع مصدَّق عليه فيدراليًّا يُخصَّص لعرق بعينه. ويتبع ذلك تاريخٌ طويل ومؤلم من العلاج الطبي المُنفصل والمُفتقِد إلى المساواة على أساس العِرق. ومن المؤكَّد أنه لن يكون آخر تطبيق لبراءة اختراع مُعتمَدة من إدارة الغذاء والدواء يقتصر على عرق بعينه.

(٤-١) شكٌّ صحي؟

يبدو أن اعتماد عقار بيديل يَدين إلى السياسة أكثر مما يدين إلى العلم؛ فقد لعبت شركة نيترو ميد على وتر السياسة بحذق وبراعة من خلال تغليف عقارِ بيديل بغلاف من الرطانة حول التفاوت في الأوضاع الصحية وتسجيل مجموعاتٍ أمريكية أفريقية في تجربتها عن قصور القلب وعملية اعتماد إدارة الغذاء والدواء للعقار؛ فقد قامت جمعية أطباء القلب السود، بصفتها أحد رعاتها، بتسهيل تسجيل المرضى في تجربة قصور القلب. وفي جلسة الاستماع التي عقَدَتها إدارة الغذاء والدواء في جايثرزبيرج، أبدت جمعية أطباء القلب السود، وهيئة خبراء الصحة بكتلة السود بالكونجرس الأمريكي، والجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين، ومؤسسة شهر صحة الأقليات القومية، تأييدها لاستعمال عقار بيديل. وأبدى مندوبو جمعية أطباء القلب السود والجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين أمانيهم أن يُتيح بيديل للأطفال معرفة أجدادهم. وأدلى الأمريكيون الأفارقة ممَّن شاركوا في تجربة قصور القلب، مثل ديبرا لي البالغة من العمر ٤٨ عامًا، بشهادة تأييد مشابهة؛ إذ قالت: «إنني أتناول ٢٣ حبة في اليوم، ولكن مبعث سروري هو معرفتي أن دوائي يعمل حقًّا بأقصى ما لديه لتصحيح شيء لا يُمكن إصلاحه، وهو قلبي … بمَ ساهمتُ بصفتي السبب في هذا التحول؟ بإيماني القوي بالله وحبةٍ صغيرة تُسمى بيديل.»

وتماشيًا مع الأجواء الانفعالية للمناقشات الدائرة حول التفاوت الصحي، أطرى ستيفن نيسن، الذي ترأس اجتماع اللجنة، على تركيز العرض كليًّا على ارتفاع معدَّل قيد

الأمريكيين الأفارقة في التجربة: «ثمَّة شكٌّ من قِبل الأمريكيين الأفارقة تجاه مجتمع مورِّدي الخدمات الصحية، البعض منه له ما يُبرِّره؛ لذا علينا تقديم تعويضاتٍ إضافية لكي نجعل الأفراد في جماعات الأقلية يَشعُرون بالارتياح في الاشتراك في التجارب الإكلينيكية ... لقد استطاع هؤلاء الناس إحراز النجاح، وسوف أمنحهم بعض النقاط مقابل ذلك. لنمضِ قدمًا.»

وبالفعل مضت جلسة الاستماع «قدمًا»، وتواصَلت فعالياتها دون نقاشٍ جادٍّ للقضايا والمخاطر التي ينطوي عليها اعتماد عقار لعرقٍ واحد. بل إن اللجنة الاستشارية واصلَت اعتماد منطق العرق كعلامةٍ غير دقيقة ولكنها ضرورية على الاختلاف الجيني على الطريق نحو عصر من الطب الشخصي. وأوجز نيسن الأمر بقول:

> رأيي ... أن العقاقير ليست عرقية؛ الأشخاص هم العرقيون ... نحن ماضون في الطب نحو عصر الطب القائم على أساسٍ جينومي. ولا جدال في أن هذا سوف يَحدث في غضون ١٠ أو ١٥ عامًا. أعلم أنه كانت ثمة تنبؤات لزمنٍ طويل بهذا ولم يَحدث بعدُ، ولكنه سيحدث ... ثقوا بي؛ لذا فما نفعله هو أننا نَستخدِم العرق الذاتيَّ التصنيف كبديل للطب القائم على الجينوم ... أتمنَّى لو كانت لدينا الرقاقة الجينية.
>
> إدارة الغذاء والدواء الأمريكية ٢٠٠٥

وفي رأينا أن بيديل هو خطوة في الاتجاه الصحيح إذا أوفى بجزءٍ ضئيل مما يَعد به من زيادة معدلات النجاة للأمريكيين الأفارقة (وآخرين) المصابين بقصور القلب. ولكن حسبما أشار أوباسوجي (٢٠٠٥) في دورية سان فرانسيسكو كرونيكال، قد يُمثِّل بيديل خطوةً واحدة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء. فمن المزعج على نحوٍ خاص ألَّا يكون لدينا إدراكٌ علمي لما إذا كان عقار بيديل يؤتي بالفعل نتائج أفضل لدى الأمريكيِّين الأفارقة منه لدى الآخرين؛ والمُثير في الأمر أن الباحثين في تجربة قصور القلب لدى الأمريكيِّين الأفارقة مُعترفون بأن تجربتهم لم تتناول هذا السؤال. وإذا كان بيديل يؤتي مفعولًا أفضل، كما يُعتقد، فما زلنا لا نعرف السبب. وفي ظل ترك هذه الأسئلة بلا إجابات، تكون قاعة هوليداي إن قد اجتيحَت بقفزتَين مزعجتَين من قفزات الإيمان العلمي هما: أن الاستجابات لعقار بيديل جينية، وأن الاختلافات الجينية تندرج تحت التقسيم العرقي.

(٤-٢) عرقنة المستقبل

في الواقع، ربما كان في عدم تناول المزايا العلمية لتصنيف بيديل كعقار لعرقٍ واحد أداة مُساعدة لتطبيق اختراع نيترو ميد. ويُشير جوناثان كان (٢٠٠٤)، في بيان مفصَّل لتاريخ كيفية إنشاء سوقٍ لسلعةٍ ما، إلى أن بيديل قد «صار إثنيًّا» من أجل ضمان اعتماد إدارة الغذاء والدواء له كعقارٍ «جديد» مع ضمان حماية ممتدَّة لبراءة الاختراع. وكانت محاولةً سابقة لضمان موافقة إدارة الغذاء والدواء الأمريكية على قصر استخدام بيديل على عرقٍ واحد، من قِبل شركة ميدكو، المالك السابق لبراءة اختراع العقار، قد باءت بالفشل. وقد انتهت صلاحية براءة اختراع نيترو ميد لعقار بيديل التي خلَت من الإشارة إلى العرق في عام ٢٠٠٧، بينما تمتد براءة الاختراع للعقار الذي يحمل ملصق «للسود فقط» حتى عام ٢٠٢٠.

يُحلِّل فرانتز فانون بأسلوبٍ كلاسيكي، في كتابه الصادر عام ١٩٥٢ «بشرة سوداء، أقنعة بيضاء»، ما يعنيه التصنيف كعرقٍ آخر، أو كشخصٍ معيب دائمًا بالفطرة. ومثل هذا التحليل يُقدِّم تقييمًا أكثر كآبة لاعتماد إدارة الغذاء والدواء لعقار بيديل للسود «للمُصنَّفين ذاتيًّا» كسود. وكما كتب فانون (١٩٦٧)، «ليس لزامًا فقط أن يكون الشخص الأسود أسود؛ بل لا بد أن يكون أسود فيما يتعلَّق بالشخص الأبيض.» يمكن أن تُعالج «حقائق» السواد الجينية التي تتبيَّن داخل التفاوت في الأوضاع الصحية بالدواء، ومادام القيام بهذا تجارةً مربحة، فسوف تنتشر الإهانة الاجتماعية الكامنة وراء الاختلاف العرقي.

هل ينبغي الاستعانة بالعرق في الأبحاث الطبية؟

«إن الاستعانة بالتصنيفات العرقية في الأبحاث الطبية ممارَسةٌ نمطية قد تُمثِّل إشكالية.»

ثمة حاجة لإجراء العديد من الدراسات البحثية الطبية لجمع بيانات عن العرق

تشترط معاهد الصحة الوطنية الأمريكية، التي تُعدُّ واحدًا من أكبر مموِّلي الأبحاث الطبية في الولايات المتحدة، في جميع المشروعات التي تُموِّلها، أن تجمع معلومات عن عرق وإثنية أفراد البحث فيها باستخدام الفئات الموضَّحة من قِبَل مكتب الإدارة والموازَنة بالبيت الأبيض؛ وهي نفس الفئات المستخدَمة من قِبل جميع الوكالات الفيدرالية، بما فيها مكتب التعداد السكاني الأمريكي. ولكن

بما أن مكتب الإدارة والموازَنة بالبيت الأبيض يقول إن هذه الفئات العرقية ليست علمية، فهل هي مجدية للأبحاث الطبية؟

بعض الأسباب للاستعانة بالعرق منطقية والبعض غير منطقي

من المُهم إجراء أبحاث على التفاوت العرقي في الصحة والرعاية الصحية. غير أن الاستعانة بالعرق كبديل للبيئة الاجتماعية، أو الأصل، أو الوراثيات أمر أكثر إشكالية.

«العرق كبديل للبيئة الاجتماعية»

من الممكن أن تتبايَن الخبرات الاجتماعية للأشخاص داخل ما يسمى بجماعةٍ عرقية أو إثنيةٍ واحدة إلى حدٍّ كبير. فكر، على سبيل المثال، بشأن مدى اختلاف النظم الغذائية، وأساليب المعيشة، والخبرات العامة لمهاجرٍ جديد من إثيوبيا عن نظيرتها لدى شخصٍ أمريكيٍّ أفريقي عاشت عائلته في الولايات المتحدة لأجيال. وعلى الرغم من أن كلا الفردَين يصنَّف ك «أسود»، فقد يكون لديهما مشكلاتٌ صحية شديدة الاختلاف.

«العِرق كبديل للأصل»

تنتشر أمراضٌ بعينها بين الأشخاص المُنحدِرين من أصلٍ معيَّن أكثر مما تنتشر بين عامة السكان. ولكن الفئات العرقية أكبر وأقل دقة من أن تُشير إلى أي شيء ذي معنًى على المستوى الطبي بشأن أصل الشخص. ولكي تكون وثيقةَ الصِّلة، لا بد أن تتبَع البيانات التي يتمُّ جمعها في الدراسات الطبية الأصل على مستوى دولة أو منطقةٍ معينة.

العرق كبديل للوراثيات

لا يوجد أساسٌ عامٌّ للعرق. والتنوع الجيني الضخم داخل كل ما يُسمى بالعرق يجعل العِرق غير ملائم كواسمة أو علامة للوراثيات. ويُعدُّ الأصل أو التاريخ العائلي بديلًا أفضل للوراثيات. «جميع الجماعات البشرية، مهما كان تكوينها، لديها مخاطرُ طبيةٌ معينة. فالأمريكيون الأفارقة، واليهود الأشكيناز، والأفريقيون من أصلٍ أوروبي (الأفريكان) واليابانيون، والفقراء، والأغنياء، وعمال تنظيف المَداخن، والعاهِرات، ومُصمِّمو الرقصات، وهنود البيما، جميعهم لديهم مخاطرُ صحية محدَّدة. والعرق ليس سبب هذه المخاطر. بل إن العرق يَحجبها قطعًا» (جوناثان ماركس، عالم أنثروبولوجيا، جامعة نورث كارولاينا، من تواصلٍ شخصي مع سارة إلزي، متحف مينيسوتا للعلوم، سبتمبر ٢٠٠٦).

الأصل، وليس العرق، هو ما يُحدِّد عوامل الخطورة للإصابة بالأمراض الوراثية

«داء الخلايا المنجلية»

توجد الطفرة الجينية التي تُسبِّب داء الخلايا المنجلية، الذي يصيب كرات الدم الحمراء، في غرب أفريقيا، وأوروبا الجنوبية، والشرق الأوسط، وجنوب آسيا. فشخص من أفريقيا الجنوبية لا يكون أكثر عُرضة للإصابة بداء الخلايا المنجلية من شخص من أوروبا الشمالية.

«التليف الكيسي»

تنتشر الطفرة الجينية التي تُسبِّب مرض التليف الكيسي، وهو مرضٌ يُصيب الغدد المخاطية بالجسم، أكثر ما تَنتشر لدى سكان أوروبا الشمالية؛ ومن ثم يكون لدى سكان أوروبا الجنوبية، الذين يُعتبَرون بيضًا من جانب مكتب التعداد السكاني الأمريكي، عوامل خطورة مُختلفة تمامًا لحمل الطفرة المسبِّبة للتليُّف الكيسي.

«داء تاي ساكس»

تَنتشِر الطفرة الجينية المُسبِّبة لداء تاي ساكس، وهو مرضٌ يُسبِّب تراكمًا مُميتًا للمواد الدهنية في أنسجة المخ والخلايا العصبية، على أوسع نطاق بين سلالة سكان أوروبا الشرقية واليهود الأشكيناز. قد يشترك سكان أوروبا الغربية في نفس العرق الاجتماعي مع جيرانهم من الأوروبيين الشرقيين، إلا أنهم لا يُشاركونهم نفس خطر حمل الطفرة الجينية المسئولة عن الإصابة بداء تاي ساكس.

تُظهر الإحصائيات الصحية للآسيويِّين الحاجة إلى النظر لما هو أبعد من العرق.

عند النظر إلى الأمريكيِّين الآسيويين ككلٍّ إحصائي، يتضح لنا أنهم من بين أكثر مواطني هذا البلد تمتُّعًا بالصحة. ولكن تلك الإحصائيات تُخفي بعض المشكلات الصحية الخطيرة داخل جماعات سُكانية متفرِّعة من الأمريكيين الآسيويين. على سبيل المثال، على الرغم من انخفاض معدَّلات الإصابة بالسرطان نسبيًّا لدى الآسيويين عمومًا، فإن الرجال من أصول فلبينية، وكورية وجنوب آسيوية لديهم أعلى معدلات للإصابة بسرطان الرئة والشُّعب الهوائية، فيما يُعاني الفيتناميون من الرجال من سرطان الكبد بمعدَّلٍ أعلى ١١ مرة من نظيره لدى الذكور الأمريكيِّين. ومثل هذه الإحصائيات قد تتعرَّض للتجاهل في تدريس الصحة العامة وجهود الفحص حين يتمَّ تجميع الآسيويين جميعًا في كتلةٍ واحدة.

(٥) سوزان ريفرباي: مفاهيم العرق، وممارسات العرقية



سوزان ريفرباي: أستاذ تاريخ الفكر التي تَشغل كرسي ماريون باتلر ماكلين، وأستاذ دراسات المرأة والنوع الاجتماعي بكلية ويلسلي، ومؤرِّخة لتاريخ المرأة الأمريكية، والطب، والتمريض. كتبت باستفاضة عن دراسة معهد توسكيجي المشينة على مرض الزهري والإرث الذي خلَّفته. أدت أبحاثها عن الدراسة الطبية التي أجرَتْها الحكومة على النساء والرجال الجواتيماليِّين فيما بين عامي ١٩٤٦ و١٩٤٨ إلى تقديم الرئيس باراك أوباما اعتذارًا إلى رئيس جواتيمالا ألفارو كولوم في عام ٢٠١٠ (الصورة بتصريحٍ من سوزان ريفرباي).

* * *

قامت مفاهيم العرق وممارَسات العرقية في أمريكا على «منطق الاختلاف» الظاهري الراسخ في الجسد الأسود عمومًا (هاموندز، يصدر قريبًا). وهذا المنطق يَستدعي الافتراض الخاص بالطبيعة البيولوجية للعرق، والذي يُعتقَد، وفقًا له، أن العمليات الطبيعية المتعدِّدة والمُتغيِّرة مختلفة في الأجسام وهو الأمر الذي على أساسه يُمكن بسهولة قراءة درجات لون البشرة أو خصلات الشعر بحيث يكون لها معانٍ دائمة أكبر (هاموندز وهيرتزج ٢٠٠٨). وهذا المنطق لم يظهر بسبب المعتقدات الدينية، والممارسات الاقتصادية والسياسية، والعبودية العرقية، والفلكلور فحسب (فريدريكسون ٢٠٠٢). فقد كان لزامًا أن يتكون بمساعدة السلطة الموثوقة التي تستطيع الدراسات البحثية فرْضَها. فمن خلال العلم، ومنظومة الرعاية الطبية في أغلب الأحيان، غالبًا ما تُفسَّر الاختلافات العرقية، وتُبرَّر

وتُستغل — مع استمرار قياس أجسام الأمريكيين الأفارقة، وحالاتهم الذهنية، وأوضاعهم الصحية وتقييمها — على أن بها ضعفًا ونقصًا. تُكمن الصعوبة في فهم الاختلاف بين تجارب العرقية التي تُؤثر على الجسم وفرضية أن الاختلافات العرقية توجد في حالةٍ بيولوجيةٍ بدائية.

وفي سبيل إيجاد هذا الاختلاف، كان لتوفُّر أجسام السود وعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم، سواء تحت الرقِّ أو الحرية، دوره في جعل الأمريكيين الأفارقة أدواتٍ للشغف الطبي، وأفراد بحث لعدد لا يُحصى من التجارب (جامبل ٢٠٠٠). في عام ١٨٣٨، نشرت صحيفة «تشارلستون ميركوري» هذا الإعلان لصالح دكتور تي ستيلمان:

> للمُزارعين وغيرهم؛ مطلوب خمسين زنجيًّا. لأي شخص لديه زنوج مرضى بأمراضٍ يرى أطباؤهم أنها مُستعصية على العلاج، ويَرغبون في التخلُّص منهم، دكتور إس على استعداد للدفع نقدًا مقابل زنوجٍ مصابين بسلِّ الغدد الليمفاوية أو داء الملك، والتوهُّم المرضي المزمن، والسكتة الدماغية، وأمراض الكبد، والكُلى، والطحال، والمَعِدة والأمعاء، والمثانة ولواحقها، والإسهال، والدوسنتاريا ... إلخ.
>
> ويلد ١٩٦٨: ١٧١

في عام ١٩٧٢، أذاع مراسل وكالة أسوشييتد بريس نبأً عاجلًا بأن خدمة الصحة العامة الأمريكية تُوهم مئات الأمريكيين الأفارقة على مدى ٤٠ عامًا بأنهم يخضعون للعلاج، وليس لمجرد الملاحظة والدراسة فقط، من مرض الزهري الذي يكون مميتًا في بعض الأحيان (ريفرباي ٢٠٠٠؛ ٢٠٠٩أ). وهذه التجارب وغيرها الكثير — بعضها لا تعدو كونها مجرد شائعات، والبعض الآخر صحيح — أضاف إلى ما أسمته إحدى المؤلفات على غلاف كتابها «التاريخ الأسود للتجارب الطبية على الأمريكيين السود من العصور الاستعمارية حتى اليوم» (واشنطن ٢٠٠٧).

ومع ذلك لم يكن كل لقاء للأمريكيين الأفارقة مع الأطباء تجربة، ولم يكن كل مشروع بحثي قائمًا على العرقية، لا سيما عند الاعتقاد بأن الفقراء من كل فئة عرقية متيسِّرون لأغراض البحث والتدريس مقابل تلقِّي الرعاية (وول ٢٠٠٦؛ إيمانويل ٢٠٠٧؛ ريفرباي ٢٠٠٨ب). لقد كان الاستخدام المعقَّد للعرق من قبل الطب يعني أن في بعض

الأحيان كان يُفترض أن الأمريكيِّين الأفارقة مختلفون لغرضٍ ما، ولكنهم، لغرضٍ آخر، متاحون لوضع تعميمات في المسائل العلمية. وفي القرن التاسع عشر، حرَّض المُعلمون في كلية طب جورجيا على نهب مقابر جثامين السود الأحرار والعبيد على حدٍّ سواء من أجل الحصول على جثامينَ لطلابهم في كلية الطب ليس لأنهم كانوا يبحثون عن الاختلاف، ولكن لأنهم كانوا بحاجة إلى جثث (بلاكلي وهارينجتون ١٩٩٧). ولعدم قدرة الباحثين بجامعة بنسلفانيا على العثور على أفراد بحثٍ بأنفسهم، فقد اعتمدوا على حارس بوابة الجامعة الأسود من أجل جلب أصدقائه «كفئران تجارب» على استعدادٍ «لابتلاع أنبوبٍ مرن طوله اثنتَا عشرة قدمًا متصل به بالونٌ مطاطي ينتفخ بمجرد دخوله إلى الأمعاء» (ليدرر ٢٠٠٠: ٢٦٩). ومع ذلك يظل هذا الاعتقاد بأن الأمريكيين الأفارقة كانوا هدفًا لممارساتٍ طبيةٍ مشبوهة على نحو متفرِّد؛ جزءًا من الصلة التي تربط العنصرية والرعاية الطبية معًا. وبحلول ستينيات القرن العشرين، حاوَرت الباحثة في مجال الفلكلور جلاديس-ماري فراي المئات من الأمريكيِّين السود الذين سردوا لها قصصًا عن أخطار «أطباء الليل»، الذين يُعتقد أنهم أطباء، أو طلاب يدرسون الطب، أو تابعون لهم يَعسون ليلًا بحثًا عن الغافلين ممن يُمكن اختطاف أجسادهم من أجل الأبحاث الطبية وأعمال التشريح (فراي ١٩٧٥: ١٧٠–١٩٥؛ جامبل ٢٠٠٠). ويُعتقد أن ذكرى الدراسة التي أُجريت في توسكيجي تؤثر على استعداد الأمريكيين الأفارقة للمشاركة في التجارب الإكلينيكية، وهو الأمر الذي غالبًا ما يفتقر إلى دليل (كاتز ووارين في الصحافة؛ بلا تاريخ).

كان من الأمور الأهم فيما يتعلَّق بالعلاقة بين العرق والطب أشكال مواجهة عدم المساواة في الحصول على العلاج وضغوط العنصرية في أجسام السود (سميدلي وآخرون ٢٠٠٣؛ كريجر ٢٠١٠؛ كوفمان وكوبر ٢٠١٠). فتظهر الإحصائيات منذ حقبة العبودية حتى العصر الحالي ما كان يُسمى في وقتٍ ما اللامساواة في الرعاية الصحية ويُسمى الآن بالتفاوت في الأوضاع الصحية لتوضيح الفروق الواسعة في فرص الحياة للسود والبيض. فحتى يومنا هذا، يتعرَّض الأمريكيون الأفارقة إلى مزيدٍ من التوعُّك، ومزيدٍ من وَفيات الأمهات والمواليد، ومزيد من الوفيات المبكِّرة أكثر من البيض.

يوجد الآن صناعة رعايةٍ صحيةٍ كاملة بها فروق موثَّقة في نوعيات الخدمات، والتدخُّلات، والرعاية المقدمة إلى المرضى، والتي تُحلَّل على أُسُس عرقية. وكل هذه الفروق مبنية على مشكلة التكدُّس وتردِّي الإسكان، ووجود «المناطق المَحرومة من الغذاء» في الأحياء التي تقتصر فيها خيارات الأكل على متاجر الأطعمة السريعة والمتاجر الصغيرة

ذات الملكية العائلية التي لا تحوي سوى القليل من الفواكه والخضراوات، إلى جانب غياب الأمن في الشوارع، وإلغاء التدخُّلات في مجال الصحة العامة، كل ذلك أدى إلى التأثير بقوة على فرص الحياة بالنسبة إلى الأمريكيين الأفارقة الذين اضطروا حينئذٍ إلى البحث عن الرعاية الطبية في منظومةٍ طبية مكدَّسة وغير مُستجيبة في الغالب (دو بويز ٢٠٠٧؛ روبرتس ٢٠٠٩؛ ماب ٢٠١٠). وحين تُصبح هذه التجارب مع العرقية مجسَّدة في عوامل ضغطٍ وتَنعكِس في إحصائيات نِسَب انتشار الأمراض والوفيات، حينئذٍ تُقرأ بدورها وكأن العرق تصنيف بيولوجي (براون وآخرون ٢٠٠٧؛ إبستاين ٢٠٠٧؛ كريجر ٢٠١٠).

وهكذا كانت منظومة الرعاية الطبية هي مدخل الأمريكيِّين الأفارقة للوقوع في شَرَك ما أطلق عليه المُنظِّر الفرنسي ميشيل فوكو «السياسة الحيوية»، وأصبحوا من خلالها «مواد بيوسياسية» صارت فيها «المَخاوف بشأن الصحة، والطب، والجسد، موضع تركيزٍ مُتزامِن للطب الحيوي وسياسة الدولة» (إبستاين ٢٠١٠: ٦٦). ويتطلب منطق العرقية الإيمان بالعرق كتصنيفٍ بيولوجي من هذه الصلات القائمة بين الرعاية الطبية، والتجريب الطبي، والسياسة لكي تَمنحه السلطة والقوة.

وتجتمع كل هذه الفئات — التجريب، والاعتقادات بشأن الاختلاف العرقي، وغياب الرعاية، وسلطة الحكومة، والشائعات بشأن كل هذا — معًا لتفسر ما حدث إبان ما خُلد في الأذهان كأسوأ التجارِب الطبية الأمريكية سُمعة، ألا وهي ما يُسمى بدراسة توسكيجي الطويلة الأمد لمرض الزهري غير المُعالج لدى الزنوج من الذكور. كان الأطباء بخدمة الصحة العامة الأمريكية قد أعدُّوا دراسة، بدأت في عام ١٩٣٢، لفهم ما يَحدث لدى الأمريكيِّين الأفارقة من الرجال حين يترك الزهري الكامن المتأخر (أي في المرحلة الثالثة ويفترض أنه غير مُعْدٍ) بلا علاج. استمرت الدراسة التي أُجريَت على هذا المرض الذي يَنتقِل عبر الاتصال الجنسي، داخل مدينة توسكيجي بولاية ألاباما، وفي محيطها، لمدة ٤٠ عامًا أخرى وشملت ٦٢٤ رجلًا، من بينهم ٤٣٩ مصابون بالمرض بالفعل و١٨٥ لم يكونوا مصابين به. كان الرجال يظنُّون أنفسهم مرضى يحصلون على الرعاية الطبية اللازمة لما كان معروفًا بـ «الدم الفاسد» من أطباء الحكومة. ولم يُخبر أطباء خدمة الصحة العامة هؤلاء الرجال قطُّ بأنهم في الواقع عناصرُ تجريبية وعناصر ضابطة تتمُّ متابعتهم في دراسةٍ قائمة على «عدم العلاج». لم يكن المرض هو سبب وفاة جميع الرجال ممَّن شملتهم الدراسة، ولكن أطباء خدمة الصحة العامة حاوَلوا التأكُّد من عدم حصولهم على

أي علاج (على الرغم من أن الكثير منهم قد تلقَّوا علاجًا على أي حال). وكان الشيء الوحيد الذي طلبوا الإذن به هو الحق في تشريح جثثهم بعد وفاتهم (ليدرر ٢٠٠٠).

تُشكِّل فرضية الاختلاف العرقي في المرض الأساسَ للحاجة إلى إجراء الدراسة؛ فقد أُجريت دراسةٌ سابقة على البِيض المصابين بالزهري في أوسلو، بالنرويج، في مطلع القرن التاسع عشر. غير أنه لم يكن يُعتقَد أن الدراسة متعلِّقة بالأمريكيِّين الأفارقة؛ إذ كان الأطباء يَعتقدون (بناءً على أدلةٍ محدودة للغاية أو مفسَّرة على نحوٍ خاطئ) أنهم أكثر عرضة لمُضاعَفات القلب والأوعية الدموية من المضاعفات العصبية التي يبدو أنها تصيب البيض (روي ٢٠٠٠). كذلك كان يُعتقَد أن الأمريكيين الأفارقة أكثر عرضة للمرض، على الرغم من أن مثل هذه الاعتقادات لم تضع في الاعتبار غياب التعليم والحصول على وسائل منع الحمل التي يُمكن أن توقف انتقال المرض.

بدلًا من ذلك، أوضح أطباء خدمة الصحة العامة لرجال ألاباما أن ما كان يُعطى لهم من أسبرين، ومنشِّطات، إلى جانب البزل القَطَنِي التشخيصي «علاجٌ مجاني». كان عامل الجذب في البداية هو الرعاية الطبية اللائقة في وقت كان الحصول عليها صعبًا وباهظ التكلفة. داومت المُمرِّضة المشاركة في الدراسة على زيارة منازل الرجال، وكانت تُساعِدهم في الحصول على الرعاية الطبية لأمراضٍ أخرى، ووعدت ذويهم بالحصول على أموال من أجل جنازاتٍ لائقة لهم في مقابل استخدام جُثث الرجال لتشريحها بعد وفاتهم.

لم تظلَّ الدراسة سرًّا خافيًا؛ فقد ظهر ما يزيد على اثني عشر مقالًا طبيًّا عكفت على رسم خريطة لتقدُّمها على مر العقود، بينما شكَّك العديد من المتخصِّصين في مجال الصحة في المعايير الأخلاقية للدراسة، لا سيما بعد أن صار البنسلين متوافرًا على نطاقٍ واسع في أواخر الأربعينيات وربما كان سيُساعد بعض الرجال الذين لا يزالون على قيد الحياة. وفي عام ١٩٧٢، تمَّ إنهاء التجربة البحثية وسط عاصفة من التغطية الإعلامية كانت سببًا في استدعاء محقِّقين فيدراليِّين، وعقد جلسة استماع في مجلس الشيوخ، وإقامة دعوى قضائية ضد خدمة الصحة العامة، وولاية ألاباما، والعديد من الأطباء المتورِّطين في التجربة.

غالبًا ما تَرتبط الدراسة التي أُجريت في توسكيجي في الأذهان بوصفها اللحظة التي مارس فيها الأطباء الأمريكيُّون الاحتيال والخداع وتصرَّفوا مثل الباحثين النازيين، بإجراء أبحاث لا يُمكنها أن تفيد «أفراد دراستهم»، وتتطلَّب إجراء عمليات البزل القطَني المؤلمة،

بل قد تتسبَّب في أمراضٍ مميتة وحالات وفاة. ويلجأ إلى هذه الدراسة لتبرير الحاجة إلى السيطرة على المشروعات البحثية، والمطالبة بوجود موافقةٍ خطية مطلعة من جانب أفراد التجربة، وتوجيه انتباه خاص للأمريكيِّين الأفارقة. وكل هذه الأمور مهمَّة.

وينبغي أيضًا تذكُّرها؛ نظرًا لأن الفرضيات المتعلقة بالطبيعة البيولوجية للعرق، وتوافر الأشخاص المستضعَفين المتلهِّفين ليُصبِحوا مواطنين بيولوجيين للدولة، وغياب بدائل الرعاية الصحية تتيح الفرص لظهور منطق من العنصرية الطبية يبدو معقولًا بل وعادلًا. فهؤلاء الرجال الذين يَعيشون في ريف ألاباما كانوا يتطلَّعون إلى العلاج؛ لا لأنهم كانوا أميِّين وكان من السهل خداعهم من قبل الحكومة، بل لأنهم كانوا بحاجة إلى الرعاية الصحية لأنفسهم ولعائلاتهم (ريفرباي ٢٠٠٩ب). وقد أثَّرت العنصرية على خياراتهم في الحياة وقابلية إصابتهم بالمرض؛ كما أن المعتقدات بشأن العرق هي ما شكَّل فهم الأطباء للمرض.

مرَّ أكثر من ثمانية عقود على بدء الدراسة في توسكيجي، وبالطبع تغيَّرت نظرتنا للعرقية في الطب واستخدام العرق كتصنيفٍ علمي. كان من المفترض أن يضع رسم خريطة الجينوم البشري في عام ٢٠٠٠، بما توصَّل إليه من نتائج بشأن تشابه الجنس البشري في ٩٩٫٥ بالمائة منه، نهايةً للاعتقاد بشأن الاختلاف العرقي، ولكن المُفارَقة أنه قد بعثه من جديد؛ إذ أخذت بعض الاختلافات الصغيرة معاني مهمة مُتغيِّرة (ريردون ٢٠٠٤؛ أوباسوجي ٢٠١٠). عاد خطر عدم ربط الفِكَر بشأن العرق بمُمارسات العنصرية إلى سابق عهده في عام ٢٠٠٥، على سبيل المثال، عندما اعتمَدت إدارة الغذاء والدواء الأمريكية عقار بيديل، وهو عقارٌ يُفترض أنه للمُصابين بقصور في القلب ممَّن «يُصنِّفون أنفسهم كأمريكيين أفارقة» فقط. ففي اجتماع إدارة الغذاء والدواء حيث كان العقار في طريقه إلى نَيل الاعتماد، أُشير إلى الدراسة التي أجريت في جامعة توسكيجي كمثالٍ للعنصرية الطبية؛ نظرًا لحجب الرعاية عن المرضى، ولكن لم يُشَر إليها كوسيلة لإدراك إلى أي مدًى يمكن للاعتقاد بشأن المفهوم البيولوجي للعرق أن يتسبَّب في أخطاء طبية وسياسية (كان ٢٠٠٤؛ ريفرباي ٢٠٠٨أ؛ أوباسوجي ٢٠١٠). ودون وجود أدلة على المعاني الحقيقية للاختلافات التي قد تحدث بسبب نزوح السكان عبر الزمان والمكان؛ تُعاود مفاهيم غامضة ومتباينة للعرق الظهور لتوضيح الاختلاف. وفي ظل عدم وجود الكثير من الأدلة، كما تذهب عالمة الأنثروبولوجيا ديوانا فوليلي، «يقال إن التكوين البيولوجيستي للعرق

… المشتق إحصائيًّا من الواسمات الجينية يُشير إلى «الأصل القاري»، و«يتجنَّب في سلام المعتقدات التاريخية المشحونة سياسيًّا لكلمة «عرق» ذاتها» (فولويلي ٢٠٠٨).

نظرًا لأن الطب يرسم خريطة الأمراض الخاصة بالشعوب إجمالًا وخبرات الأفراد، فسوف يظلُّ دومًا عنصرًا أساسيًّا لفهم كيفية استشعار مفاهيم العرق وتأثيرات العنصرية في الأجسام، مثلما تَستشعِر السياسة في جسد الجهاز السياسي. وسوف يكون الوعي بمرونة المفاهيم العنصرية من أجل ربط العنصرية بفِكَر العرق ضروريًّا دائمًا.

(٦) العرق والتفاوت في الأوضاع الصحية: ملاحظات ختامية

في هذا الفصل عرَضْنا بعض المسارات المُتنوِّعة التي تؤدي إلى الاختلافات العرقية في الرعاية الصحية وخلق تفاوت في الأوضاع الصحية. ومعظم الأمثلة الواردة مُستمَدَّة من الاختلافات بين البيض وجماعات الشتات الأفريقي. ولعلَّ من المشكلات التي ركزنا عليها المشكلة المعقَّدة الخاصة بالحالة الصحية للسود. غير أن الجماعات الأخرى أحيانًا ما تكون أكثر تأثُّرًا بالعرق والعرقية، مثل تفشِّي السكري والبدانة بين الأمريكيين الأصليين.

وما هو واضح من كل هذه المعلومات أن الاختلافات العرقية في الرعاية الصحية هي مشكلةٌ اقتصادية بالأساس، والقضاء على الفروق في الصحة الناتجة عن هذا الظلم الاقتصادي أمرٌ شديد الأهمية. وللأسف، فإن الفوارق الاقتصادية تروي جزءًا واحدًا فقط من القصة. فكما يوضِّح جرافلي في بورتريكو، وكما يوضح نافارو (١٩٩٠) بالنسبة إلى الولايات المتحدة، فإن الاختلافات العرقية في الصحة تستمر حتى بعد التحكُّم في التفاوت الاجتماعي الاقتصادي.

ويبدو أن عددًا من الآليات تُسهم في الاختلافات العرقية في الرعاية الصحية والصحة. وتشمل هذه الآليات التمييز العنصري داخل وخارج نطاق الرعاية صحية، وعدم المساواة في الحصول على الرعاية الصحية، والتعرُّض غير المتكافئ للسموم البيئية، والضغط المُستمِر الناتج عن الحياة في مجتمعٍ عرقي. وكل هذه الآليات يجري الآن استكشافها على نحوٍ نشط من قبل الباحثين في إطار جهدٍ منظَّم لطرح حلول للقضاء على التفاوت العرقي في الصحة. ونتركك الآن مع سؤال: متى يُمكن أن نعيش في مجتمع لا تتبايَن فيها مُتوسِّطات العمر المتوقَّعة على حسب العرق؟ إجابتنا، للأسف، هي أن ذلك لن يكون قريبًا على الإطلاق.

المراجع

Armelagos, G. J.:

2005 The slavery hypertension hypothesis-natural selection and scientific investigation: A commentary. Transforming Anthropology 13(2): 119–124.

Brondolo, Elizabeth, Ricardo Rieppi, Kim P. Kelly, and William Gerian:

2003 Perceived Racism and Blood Pressure: A Review of the Literature and Conceptual and Methodological Critique. Annals of Behavioral Medicine 25(1): 55–65.

Brown, E. Richard, Victoria D. Ojeda, Roberta Wyn, and Rebecka Levan:

2000 Racial and Ethnic Disparities in Access to Health Insurance and Health Care. Report by the UCLA Center for Health Policy Research and the Henry J. Kaiser Family Foundation. Los Angeles, CA: UCLA Center for Health Policy Research. California.

Bullard, Robert D., Paul Mohai, Robin Saha, and Beverly Wright:

2007 Toxic Wastes and Race at Twenty 1987–2007: Grassroots Struggles to Dismantle Environmental Racism in the United States. Cleveland, OH: United Church of Christ Justice and Witness Ministry.

Cooper, Richard S., Charles N. Rotimi, and Ryk Ward:

1999 The Puzzle of Hypertension in African-Americans. Scientific American, February: 50–58.

Environmental Protection Agency:

1992 Environmental Equity: Reducing Risk for all Communities. Washington, D.C.: Division of Policy, Planning and Evaluation.

Fanon, Frantz:

1967 [1952] Black Skin, White Masks. Charles Lam Markmann, trans. New York: Grove Press.

Gravlee, Clarence C.:

2005 Ethnic Classification in Southeastern Puerto Rico: The Cultural Model of “Color.” Social Forces 83(3): 949–970.

Gravlee, Clarence C., William W. Dressler, and H. Russel Bernard:

2005 Skin Color, Social Classification, and Blood Pressure in Southeastern Puerto Rico. American Journal of Public Health 95(12): 2191–2197.

Hennessy-Fiske, M.:

2010 Women report gaps in health services. Los Angeles Times, March 7: A37, A46.

Jackson, F. L. C.:

2005 A Response to George Armelagos’ Commentary. Transforming Anthropology 13(2): 125–135.

Jones, Joseph, and Alan Goodman:

2005 BiDil and the “Fact” of Genetic Blackness: Where Politics and Science Meet. Anthropology News 46(7): 26.

Kahn, Jonathan:

2004 How a Drug Becomes Ethnic: Law, Commerce, and the Production of Racial Categories in Medicine. Yale Journal of Health Policy, Law and Ethics 4: 1–46.

Krieger, Nancy, and Stephen Sidney:

1996 Racial Discrimination and Blood Pressure: The CARDIA Study of Young Black and White Adults. American Journal of Public Health 86(10): 1370–1378.

Navarro, Vicente:

1990 Race or Class Versus Race and Class. Lancet 336(8725): 1238–1240.

Obasogie, Osagie K.:

2005 One Step Forward, Two Steps Back. San Francisco Chronicle, July 5. http://www.geneticsandsociety.org/article.php?id=212, accessed December 26, 2012.

Schulz, Amy, and Leith Mullings:

2006 Gender, Race, Class and Health: Intersectional Approaches. San Francisco: Jossey-Bass.

Taylor, Anne L, Susan Ziesche, Clyde Yancy, Peter Carson, Ralph D'Agostino, Jr., Keith Ferdinand, Malcolm Taylor, Kirkwood Adams, Michael Sabolinski, Manuel Worcel, and Jay Cohn, for the African-American Heart Failure Trial Investigators:

2004 Combination of Isosorbide Dinitrate and Hydralazine in Blacks with Heart Failure. New England Journal of Medicine 351: 2049–2057.

United States Food and Drug Administration Cardiovascular and Renal Drugs Advisory Committee:

2005 Meeting notes, vol. 2, June 16. http://www.fda.gov/ohrms/dockets/ac/05/transcripts/2005-4145T2.pdf, accessed July 27, 2011.

Zambrana, Ruth E., and Bonnie Thornton Dill:

2006 Disparities in Latina Health. *In* Gender Race, Class and Health: Intersectional Approaches. Amy Schulz and Leith Mullings, eds. pp. 192 –227. San Francisco. Jossey-Bass. A John Wiley Imprint.

سوزان ريفرباي: مفاهيم العرق، وممارسات العرقية

Blakely, Robert, and Judith M. Harrington, eds.:

1997 Bones in the Basement: Postmortem Racism in 19th century Racism. Washington, D.C. Smithsonian Institution Press.

Braun, Lundy, et al.:

2007 Racial Categories in Medicine: How Useful are They? PLOS Medicine 4, September:e271.

DuBois, W. E. B.:

2007 [1889] The Philadelphia Negro. New York: Oxford University Press.

Emanuel, Ezekial:

2007 Unequal Treatment: Review of Medical Apartheid. New York Times, February 18: Book Review, 1.

Epstein, Steven:

2007 Inclusion: The Politics of Difference in Medical Research. Chicago: University of Chicago Press.

2010 Beyond Inclusion, Beyond Difference: The Biopolitics of Health. *In* What's the Use of Race? Ian Whitmarsh and David S. Jones, eds. pp. 63–90. Cambridge, MA: M.I.T. Press.

Fredrickson, George M.:

2002 Racism: A Short History. Princeton: Princeton University Press.

Fry, Gladys-Marie:

1975 Night Riders in Black Folk History. Knoxville: University of Tennessee Press.

Fullwilley, Duana:

2008 The Biologistical Construction of Race. Social Studies of Science 38(5): 695–735.

Gamble, Vanessa Northington:

2000 Under the Shadow of Tuskegee *In* Tuskegee's Truths: Rethinking the Tuskegee Syphilis Study. Susan M. Reverby, ed. pp. 431–442. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Hammonds, Evelynn M.:

2009 The Logic of Difference: A History of Race in Science and Medicine in the United States, 1850–1990. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Hammonds, Evelynn M., and Rebecca Herzig, eds.:

2008 The Nature of Difference. Cambridge, MA: M.I.T. Press.

Kahn, Jonathan:

2004 How a Drug Became Ethnic. Yale Journal of Health Policy and Law 4 (Winter): 1–46.

Katz, Ralph, and Rueben Warren, eds.:

2011 The Search for the Legacy of the U.S. Public Health Service Syphilis Study at Tuskegee. Lanham, MD: Rowman and Littlefield.

Kaufman, Jay S., and Richard Cooper:

2010 Use of Racial and Ethnic Identity in Medical Evaluations and Treatments. *In* What's the Use of Race? Ian Whitmarsh and David S. Jones, eds. pp. 187–206. Cambridge, MA: M.I.T. Press.

Krieger, Nancy:

2010 The Science and Epidemiology of Racism and Health: Racial/Ethnic Categories, Biological Expressions of Racism, and the Embodiment of Inequality—an Ecosocial Perspective. *In* What's the Use of Race? Ian Whitmarsh and David S. Jones, eds. pp. 225–258. Cambridge, MA: M.I.T. Press.

Lederer, Susan:

2000 The Tuskegee Syphilis Study in the Context of American Medical Research. *In* Tuskegee's Truths. Susan M. Reverby, ed. pp. 266–275. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Mapp, Marqui:

2010 Low Income Blacks Stranded in Food Deserts. The Grio, June 22. http://www.thegriot.com, accessed July 5, 2010.

Obasogie, Osagie K.:

2010 Reports of My Death Have Been Greatly Exaggerated: Race and Genetics Ten Years after the Human Genome Project. June 18. http://www.geneticsandsociety.org/article.php?id=5262, accessed December 26, 2012.

Reardon, Jenny:

2004 Race to the Finish. Princeton: Princeton University Press.

Reverby, Susan M. ed.:

2000 Tuskegee's Truths: Rethinking the Tuskegee Syphilis Study. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Reverby, Susan M.:

2008a Special Treatment: BiDil, Tuskegee and the Logic of Race. Journal of Law, Medicine and Ethics 36 (Fall): 478–484.

Reverby, Susan M.:

2008b Inclusion and Exclusion: The Politics of History, Difference and Medical Research. Journal of the History of Medicine 63 (January): 103–113.

Reverby, Susan M.:

2009a Examining Tuskegee: The Infamous Syphilis Study and its Legacy Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Reverby, Susan M.:

2009b A New Lesson from the Old Tuskegee Study. The Huffington Post, December 3.http://www.huffingtonpost.com/susan-reverby/a-new-lesson-from-the-old_b_378649.html, accessed July 6, 2010.

Roberts, Samuel Kelton:

2009 Infectious Fear. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Roy, Benjamin:

2000 The Tuskegee Syphilis Experiment: Biotechnology and the Administrative State *In* Tuskegee's Truths. Susan M. Reverby, ed. pp. 299–320. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Smedley, Brian, Adrienne Stith, and Alan R. Nelson, eds.:

2003 Unequal Treatment: Confronting Racial and Ethnic Disparities in Health Care. Washington, D.C.: Institute of Medicine.

Wall, L. L.:

2006 The Medical Ethics of Dr. J. Marion Sims. Journal of Medical Ethics 32 (June): 346–350.

Washington, Harriet:

2007 Medical Apartheid. New York: Doubleday.

Weld, Theodore Dwight:

1968 [1839] American Slavery As It Is. New York: Arno Press.

قراءات أخرى

Benderly, B. L.:

2010 The real science gap. It's not insufficient schooling or a shortage of scientist. It's a lack of career opportunities. Miller-McCune (July/August) 30–39.

Cloud, J.:

2010 Why Genes Aren't Destiny. The New Field of Epigenetics is Showing How Your Environment and Your Choices Can Influence Your Genetic Code—and That of Your Kids. Time 175(2): 48–58.

Di Leonardo, M.:

2004 Human Cultural Diversity. Paper contributed to the Race and Human Variation: Setting an Agenda for Future Research and Education Conference, Alexandria, VA, September.

Hart, D.:

2006 Changing Students' Understanding of Race. Anthropology News 47(3): 10–11.

Hartigan, J.:

2006 Saying "Socially Constructed" is Not Enough. Anthropology News 47(2): 8.

McGaghie, W. C.:

2007 Medical Education for Cultural Competence: Policies, Initiatives and Student Selection. Paper Contributed to the Race, Human Variation and Disease: Consensus and Frontiers Conference, Warrenton, VA, March.

Margolis, D.:

2010 Caring across Cultures: Barnes-Jewish Hospital Reapproached a Diverse Patient Population with Sensitivity to Any and All Worldviews. Diversity Executive, July 17. http://diversity-executive.com/article.php?article=955, accessed December 4, 2011.

Rose, H., and S. Rose:

2010 Darwin and After. New Left Review 63: 91–112.

Thompson, E. C.:

2006 The Problem of "race as a social construct." Anthropology News 47(2): 7.

الفصل السابع عشر

الخاتمة

في الفصل الأول، زعمنا أن هذا الكتاب من شأنه الإسهام في إجراء فحصٍ دقيق أوَّلي للكيفية التي تتحدَّث بها المجتمعات المختلفة في الولايات المتحدة عن العرق. لقد أرَدنا أن نضمَّ إلى مشروعنا مزيجًا من العلم، والتاريخ، والتجارب اليومية المعيشة مع «العرق والعنصرية». نتمنى أن نكون قد نجَحنا في فضِّ هذا التعقيد وتوجيه القراء نحو اتجاهات جديدة لفهم التبايُن البشري، وكيفية تكوين العرق اجتماعيًّا وثقافيًّا، و«ثقافات العرق» المعاصرة في الولايات المتحدة وخارجها. وكإضافة إلى الموقع والمعرض المتحفي: «الأعراق البشرية: هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟» أردنا أن نكشف جذور العنصرية الخبيثة، حتى نستطيع أن نجتثَّها من جذورها.

تناولنا في الجزء الأول تاريخ العرق في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال عدسات القوانين والسياسات الأمريكية وكذا من خلال العلم العرقي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين. وشمل هذا أيضًا نظرة إلى حركات تحسين النسل في الولايات المتحدة وفي أوروبا في مطلع القرن العشرين لنُبيِّن كيف أدَّت الاعتقادات المتشكِّلة اجتماعيًّا في كلٍّ من العرق البيولوجي وفي الدونية العرقية لبعضٍ من تلك الأعراق إلى خلق «عنصريةٍ علمية» استمر وجودها في السياسات النظرية والتطبيق العملي حتى منتصف القرن العشرين. فقد كانت المعتقَدات الاجتماعية والدينية بشأن الدونية العرقية بمثابة وقود لعلم الأعراق الذي كان مسئولًا عن «إهانة» البشر. ومن مراجعة لاستخدام العلم في بناء الطبقية الاجتماعية والحفاظ عليه خلال القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرين على أساس العرق والطبقة الاجتماعية، يَتوافر لدينا تعقيبٌ قويٌّ على ما تحقَّق حتى الآن من جانب

علماء الأنثروبولوجيا، والعديد من العلماء الآخرين، وأنصار العدالة الاجتماعية، وآخرين من أجل التغلُّب ليس فقط على القوانين العرقية الأمريكية، ولكن أيضًا على الافتراضات الراسخة المُنبثِقة من المُعتقَدات الكامنة خلفها، ولا يزال ذلك مُستمرًّا في الحوارات بشأن ما يُمثِّل، ولا يُمثل، ماهية العرق. أما ما لم نَستكشفه صراحة في هذا الكتاب، فهو العلاقة بين الدين المنظَّم أو المؤسَّسي والعلم وقوانين الولايات المتحدة؛ إذ لا يزال هذا بحاجة إلى القيام به كجزء من تناولٍ تاريخيٍّ نقديٍّ متواصل للعرق في أمريكا.

في الجزء الثاني، تناوَلنا ما كان لدى العلم والسجل الأنثروبولوجي لقوله بشأن ما يُمثِّل، ولا يُمثل، ماهية العرق. وكان الهدف من التركيز على موضوعات الأصول البشرية و«الخروج من أفريقيا» هو زعزعة الافتراضات الراسخة لدى الكثير من الناس عن منشئنا في الأصل كبشرٍ عاقلين، وإلى أي مدًى نحن مُتشابهون جينيًّا في واقع الأمر. كان التركيز العلمي الأساسي الثاني لنا على كيفية فهم العامة لعلم لون البشرة، وقد وضع من أجل زعزعة تفسير اختلاف درجات لون البشرة بين الناس ووضعه في سياقٍ علمي. إن لون البشرة، مرةً أخرى، يرتبط بعمليات التأقلم مع تنقُّل البشر واستيطانهم على مدى آلاف السنين، وعلاقة تلك المُستوطَنات بأشعة الشمس فوق البنفسجية، وقدرة الأشخاص على إنتاج ما يكفي من حمض الفوليك وفيتامين د من أجل البقاء في حالةٍ صحيةٍ جيدة. أخيرًا، وفي ميدان العلم، أردنا أيضًا أن نُوضِّح، من خلال إلقاء نظرة على الطب والصحة، وجودَ تفاوت في الحالة الصحية بين جماعات من أصولٍ معيَّنة بناءً على حقائق التكوين الاجتماعي والثقافي للعرق في المجتمع الأمريكي.

وفيما توجد صلة بين البيولوجيا والتفاوت العرقي الاجتماعي لا ينبغي أن تضيع، غير أن العرق يُعدُّ في النهاية بنيانًا اجتماعيًّا مؤثِّرًا، له عواقبُ اجتماعية وبيولوجية على حد سواء، وليس حقيقةً بيولوجية.

في الجزء الثالث، انصبَّ تركيزنا على المفاهيم المتنوِّعة للعرق وتراكم الثروة والسبب وراء استمرار التفاوت بين الأمريكيين الأوروبيين والآسيويين من جانب والأمريكيين الأفارقة واللاتينيين على الجانب الآخر. وركَّزنا على الطبيعة العنيدة للتفاوت في الصحة والتعليم، وكذا تناقضات التصنيفات التي وضعتها الحكومة الفيدرالية بالاستعانة بمكتب التعداد السكاني الأمريكي عبر السنين وفي الوقت الحاضر. وأخيرًا أدرجنا ضمن نص الكتاب بعضًا من آراء الأشخاص الذين حاوَرْناهم من أجل المشروع.

لم يكن الهدف من هذا الكتاب تغطية جميع جوانب التبايُن البشري من جانب، والعنصرية المنهجية والمؤسَّسية من الجانب الآخر. إنما أردنا أن نُشير إلى الروابط والصلات، الملحوظة والدقيقة على حدٍّ سواء، بين الطرق البيولوجية والتاريخية واليومية التي يختبر بها كل شخص «العرق» في الولايات المتحدة. كذلك الْتمَسنا مقالات من زملائنا من مجال العلوم الاجتماعية، والإنسانيات، والقانون، والسياسة العامة لمساعدتنا في استكمال ما لم نقم بتغطيته في الكتاب، وإثارة قضايا جديدة، وتعزيز، وتوضيح، وتحديث تلك القضايا التي لم نَستطع تغطيتَها بتعمُّق.

(١) ما لا يزال ينبغي القيام به: مُستقبل العرق في أمريكا وخارجها

عندما نَنظُر إلى مهمة تعرية العنصرية المنهجية، ومن ثم اجتثاثها، نجد أن هذا الكتاب لم يَلمس سوى سطح موضوع «العرق» من بعض النواحي. نعلم أنه ليس كافيًا أن نكشف عَرض وعُمق الأسس الاجتماعية والثقافية التي تقوم عليها العنصرية المنهجية وديناميَّات السلطة التي تعمل على الحفاظ على هذه المنظومة الاجتماعية التي تتَّسم بقدرٍ بالغ من العنصرية والطبقية. ويُذكرنا عالم الاجتماع هوارد وينانت ونحن نتحدث عن قضية «ما بعد العنصرية» في أمريكا بأن نتذكَّر أن بعضًا من المفاهيم الشمولية للاختلاف العرقي تميل في الواقع إلى إضفاء شرعية على الهويات التي تَزعم أنها تُشكِّك فيها. وبدلًا من أن تعمل كعوامل تحفيز لتشكيلاتٍ عرقيةٍ جديدة بحق، تعمل في الواقع على «تعزيز البنيات الاجتماعية العرقية مثل الطبقية العرقية الشاملة، والتمييز، وفوبيا الأجانب ... إلخ، التي تَستنكرها بشدة» (وينانت ٢٠٠٤: ١٩).

نودُّ أن نُشير إلى أنه لا يزال ثمة حاجة لإجراء المزيد والمزيد من الأبحاث النقدية والتطبيقات العملية في المجالات الآتية: تقاطعية العرق والطبقة والنوع؛ العرق والهجرة؛ التمييز العكسي؛ تناقضات عمى الألوان في مقابل الحوارات المستمرة بشأن العرق؛ تأثير التغيُّرات الديموغرافية القومية والعرق؛ دراسة العرق الأبيض والسلطة من الداخل إلى الخارج؛ العرق ودراسات العولمة؛ والعلاقة بين العرق وحقوق الإنسان، وذلك على سبيل المثال لا الحصر. وإلى جانب هذا، لا بد من إجراء تحليلٍ أعمق وأكثر نقدية للتفاوت في التعليم، والإسكان والصحة؛ القائم على أساس العرق والطبقة على حدٍّ سواء.

(٢) التقاطُعية

لا يزال مصطلح «التقاطُعية»، الذي صاغه كيمبرلي كرينشو في سبعينيات القرن العشرين، ملائمًا لعصرنا؛ فنحن الآن بحاجة إلى فهم الصلات بين العرق، والطبقة، والنوع الاجتماعي، والتوجه الجنسي، والدِّين؛ أكثر من أي وقت مضى. نحن بحاجة إلى اكتساب فهمٍ أعمق للعملية التي تتفاعَل بها فئات التمييز المتعدِّدة التي تشكَّلت اجتماعيًّا وثقافيًّا على عدة مستويات للإبقاء على اللامساواة الاجتماعية المُمنهجة الأشبه بنظام الطبقات الاجتماعية المُنغلِقة. وينبغي إجراء هذا البحث على كلٍّ من المستوى المحلي، والقومي، والعالَمي في كلا السياقين المعاصر والتاريخي. على سبيل المثال، طالع المقال الوارد في هذا الفصل لكلارك وتوماس لمزيد من التوجيهات بشأن ديناميَّات البحث والتطبيق العملي عن العرق والعولمة.

(٣) العرق والهجرة

في عام ٢٠١١، كان ثمَّة جدال لا يزال في طور التكوين من جانب اليمين السياسي المتطرِّف يتحدى مضمون التعديل الرابع عشر للدستور الأمريكي مرةً أخرى. في عام ١٨٦٨، صدَّق الكونجرس على فقرة المواطنة من التعديل الرابع عشر للدستور الأمريكي. وتأتي الفقرةُ في مقدمة التعديل، وتنصُّ على أن «جميع الأشخاص المولودين في الولايات المتحدة أو المتجنِّسين بجنسيتها والخاضعين لسلطاتها القضائية؛ يُعتبرون من مواطني الولايات المتحدة ومواطني الولايات التي يقيمون بها.» يعتقد مؤلِّفو هذا الكتاب أنه ينبغي إجراء المزيد من الأبحاث بين علماء الأنثروبولوجيا، والباحثين القانونيين، وصُناع القرار السياسي، والمنظمات غير الحكومية من أجل فهم وتعريف العامة كيف أن إعادة تفسير القوانين والدستور اليوم من قبل اليمين المحافظ إنما يستخدم للحيلولة دون هجرة سكانٍ جدد إلى هذا البلد. على سبيل المثال، على مدار الجزء الأكبر من التاريخ، كان التعديل الرابع عشر تدخُّلًا من جانب الكونجرس لإسقاط قرار المحكمة العليا بشأن دريد سكوت، والذي قضى بأن الأمريكيين الأفارقة ليسوا مواطنين للولايات المتحدة الأمريكية ولا يُمكن أن يكونوا كذلك؛ لأنهم «طبقة من الكائنات الدنيا والتابعة.» ولم يكن مزمعًا قطُّ أن يكونوا جزءًا من المجتمع السياسي (الدستور الأمريكي، التعديل الرابع عشر). وتَعزَّز هذا القرار في عام ١٨٩٨ في قضية «الولايات المتحدة ضد وونج كيم آرك» التي قضت فيها المحكمة العليا بأن أي طفل يولد في الولايات المتحدة ولكنه ولد لأبوين أجنبيين، يظل له حق المواطنة

بالولادة (التعديل الرابع عشر: حواشي: القسم ١. الحقوق المكفولة: التصنيفات الجديدة لقانون الحماية المتكافئة المستحَقَّة للتمحيص الدقيق. الأصل الأجنبي والجنسية).[1] وثمة حاجة في القرن الحادي والعشرين لمواصلة استكشاف تلك التوتُّرات العرقية والاقتصادية المتأصِّلة في السرد العرقي الأمريكي المتنازَع عليه حول من يُمكنه أن يكون أمريكيًّا بحق ومن لا يمكنه. وكان هذا الأمر محل جدال دار خلال القرنَين التاسع عشر والعشرين، ويبدو أن الحال سيظل كما هو في القرن الحادي والعشرين أيضًا.

(٤) الاستكشاف المتواصل لامتيازات البيض

في أمريكا القرن الحادي والعشرين، ثمة رفضٌ كبير من كل من اليمين السياسي (في الطبقات العاملة والمتوسطة) لدور الحكومة الكبيرة في حياتهم. وثمَّة رفضٌ مماثل من جانب طبقات رجال الأعمال الثرية، ومالكي الشركات الكبرى، والمصرفيِّين، ولكن ربما يكون لأسبابٍ مختلفة. فإدارة أوباما تُنادي بانحياز المسئولية الاقتصادية لرخاء جميع الناس. ولكن منذ فترة الكساد العظيم لم يكن هناك مثل هذا النقد اللاذع والسلبية تجاه فكرة محاسبة أباطرة الصناعة الذين قادوا الأمة بأسرها نحو حافة الدمار الاقتصادي للتكفير عما فعلوه أو تأنيبهم عليه. ومن الأهمية بمكان أن تدرس الأبحاث المستقبلية عن العرق الصلات التي تَربِط بين العرق، والطبقة الاجتماعية، والامتيازات على نحوٍ يُظهِر بوضوح كيف تُصبِح امتيازات البيض (لا سيما الامتيازات الممنوحة للنخب منهم) مستترة في السياسة الحزبية وراسخة في سردٍ مغلوط، لا للامتيازات، وإنما للإيذاء والتمييز العكسي ضد البيض (ويب ٢٠١٠). فهذا السرد المُضلِّل حوَّل دفة الحوار والاهتمام من العرق الأبيض بوصفه ميزة إلى العرق الأبيض بوصفه ضحية لحكومةٍ جامحة تَصادَف أن كان قائدها رجلًا أسود (قد يرى كثيرون في اليمين المُتطرِّف أنه ليس حتى مواطنًا أمريكيًّا!)

(٥) التداعيات الثقافية، والسياسية، والاقتصادية للديموغرافيات المتغيرة

أشار تعداد عام ٢٠١٠ إلى احتمال حدوث مشكلةٍ متعلِّقة بتغير الديموغرافيات في القرن الحادي والعشرين على عدة مستويات. فالشيب الذي يتغلغَل في رأس أمريكا ووصول جيل الأمريكيِّين الذين ولدوا فيما بين عامي ١٩٤٦ و١٩٦٦ إلى سن الشيخوخة ربما يَضع مجتمعًا سكانيًّا عجوزًا أغلبه من الأمريكيين البيض في مواجهة جيلٍ أصغرَ ناشئ من

الأمريكيين الملوَّنين المُتنوِّعين عرقيًّا وإثنيًّا ممن قد يكون لديهم رؤًى سياسيةٌ واجتماعيةٌ مختلفة. وتُشكِّل الأقليات الآن أكثر من خمسَي الأطفال دون ١٨ عامًا ويتوقَّع ويليام فراي بمعهد بروكينجز أنهم سوف يُمثلون أغلبية الأطفال الأمريكيين في مجملهم بحلول عام ٢٠٢٣ (فراي في براونستاين ٢٠١٠: ١). يقول فراي أيضًا إن هذا التناقض في كلٍّ من السن والثقافة قد يَخلق ما يُطلَق عليه «فجوةٌ جيليةٌ ثقافية» ومع مرور الوقت، من المحتمل أن يكون التركيز الأساسي لهذا الصراع هو التوتُّر القائم بين مجتمعٍ سكانيٍّ أكثر تحفُّظًا وتزمُّتًا من البيض ومجتمعٍ سكانيٍّ أصغر سنًّا وأكثر تحرُّرًا من الملوَّنين. والقضايا المتعلِّقة بالضرائب، ودور الحكومة في نَشرِ البرامج الاجتماعية، والتعليم، والرعاية الصحية، كلها قضايا تستدعي نظرةً أعمق إلى العرق والتقاطُعية من خلال عدسات السن وكذا عدسات العرق، والطبقة، والمنطقة الجغرافية (فراي في براونستاين ٢٠١٠).

(٦) متناقضة «عمى الألوان» والتركيز الأمريكي المُتواصِل على العرق

تناولنا في هذا الكتاب كيف تتكشَّف مفاهيم العرق البيولوجي، والاجتماعي، والتاريخي في المؤسَّسات وفي الحياة اليومية في الولايات المتحدة. في عام ٢٠١٠، أي في نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، لا يزال ثمَّة أصداءٌ حقيقية للغاية في المؤسسات القومية الأمريكية وفي حياة الأمريكيين جراء سلطة كلٍّ من مفهوم العرق وحقيقته. فبينما قد أرسينا في الكتاب حقيقة أن «العرق» هو مفهومٌ اجتماعي، فالواقع هو أنه لا يزال ثمة تفاوتٌ عرقي في كل جانب من جوانب المجتمع الأمريكي. فلا يوجد أساس في الواقع للتصريحات التي غالبًا ما تتردَّد في الدوائر السياسية ودوائر السياسة عن أننا نعيش في «عالم ما بعد العرق»، أو أننا ينبغي أن نكافح من أجل الوصول إلى «مجتمع لديه عمى ألوان». وما دامت العنصرية المنهجية والمؤسسية قائمة، وما دامت هرميةٌ اجتماعيةٌ عرقية يظلُّ فيها أصحاب السلطة (على المستوى الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي) في أماكنهم؛ فإن المساواة العرقية الحقيقية ما هي إلا خرافة. فجميع الحوارات المتعلِّقة بالعرق التي تُعقَد في الولايات المتحدة لن تُغيِّر تلك الديناميَّات العرقية للمكانة والسلطة. ولا يزال هذا مجالًا خصبًا للبحث في القرن الحادي والعشرين. ولا يزال لدينا الكثير لمعرفته بشأن استعصاء منظومة الامتيازات الراسخة بقوة في المجتمع.

(٧) العرق وحقوق الإنسان

من منظَّماتٍ على شاكلة منظمة العفو الدولية إلى هيومان رايتس ووتش (مراقبة حقوق الإنسان)، إلى الأمم المتحدة على المستوى العالمي، وصولًا إلى الجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين وصندوق الدفاع القانوني والتعليمي الأمريكي المكسيكي، والجماعات الأخرى المُدافعة عن العدالة الاجتماعية على المستويَين القومي والمحلي، يَزداد اعتبار عدم المساواة العرقية التي ينتج عنها معاملةٌ نظامية ومنهجيةٌ مُتفاوِتة للأشخاص بناء على «عرقهم» انتهاكًا لحقوق الإنسان المَكفولة للأفراد أكثر وأكثر. فما كان قبل ذلك قضيةً محلية، أو ولاياتية، أو فيدرالية، ينظر إليه الآن كقضية تنتهك الحق الأساسي سواء للأفراد أو الجماعات في أن يكونوا «بشرًا». ويرصد المقال الوارد في هذا الفصل الختامي لفاي في هاريسون التسلسل الزمني لنشاط الجماعات الدولية، والمنظمات الأهلية، والباحثين؛ إذ يَنسجون معًا خيوط العرق، والعنصرية، ومناهضة العنصرية على كلٍّ من المستوى العالَمي والمحلي. وفيما توجد مجموعةٌ ضخمة من الأبحاث لكل مجال من مجالات البحث، والعرق، والعنصرية، ومناهضة العنصرية، لا يزال ثمة أبحاث ينبغي إجراؤها عن آلية عمل الاضطهاد عبر حدود وتخوم الدول. وقد كان دور الباحثين، أمثال هاريسون، هو توضيح الروابط والصلات بين تلك الاضطهادات على مستوًى عالمي.

(٨) ديبورا توماس وكاماري كلارك: عولمة العرق





ديبورا توماس: أستاذ مشارك الأنثروبولوجيا بجامعة بنسلفانيا. تشمل اهتماماتها البحثية القومية، والعولمة، والسياسة الثقافية، والأداء، وظاهرة عبر الحدودية. وعملت كمحررٍ مشارك لمجلة «ترانسفورمينج أنثروبولوجي». الصورة بتصريح من ديبورا توماس.

كاماري كلارك: أستاذ الأنثروبولوجيا والدراسات الدولية ودراسات المناطق ورئيس مجلس ييل للدراسات الأفريقية بجامعة ييل. ركَّزت في مقالاتها وكُتبها على القضايا المتعلِّقة بالقومية الدينية، والمؤسسات القانونية، والقانون الدولي، والربط بين الثقافة، والسلطة، والعولمة (الصورة بتصريحٍ من كاماري كلارك).

* * *

صار من الشائع الحديث عن اشتداد عمليات العولمة والطُّرق التي تعيد بها تشكيل بِنيات الحياة اليومية باستمرار. وفيما تزايَدت التحليلات العلمية للعولمة، وفيما وُجدت مُحاولاتٌ حديثة داخل مجال العلوم الاجتماعية لدراسة العلاقات التي تربط بين الإثنية، والنوع الاجتماعي، والجنسانية داخل إطارٍ عالَميٍّ للتحليل، إلا أن العرق وعمليات العرقنة عادة ما لا تُعتَبر عناصرَ جوهريةً في المناقشات الأكاديمية للتحوُّلات الاقتصادية والسياسية العالمية. ومع ذلك تتيسَّر العولمة بفضل انتقال وإعادة استنساخ التحيُّزات الاجتماعية الراسخة بقوة في ماضٍ اتسم بمفاهيم الانتماء الإقليمية التي وَلَّدَت — وتولَّدت بفعل — التفاوت العرقي. وهكذا، فاقمت إعادة التوزيع المُعاصرة للثروة من التراتبيات الهرمية العرقية الراسخة تاريخيًّا. بعبارةٍ أخرى، تُمثِّل التشكيلات العرقية على نحوٍ ديناميكي انعكاسًا للعمليات العالمية وتُشَكِّلها، وليست مجرَّد آثار لها؛ ونتيجة لذلك، لا يُمكن على الإطلاق استيعاب تعقيد العمليات العالمية استيعابًا تامًّا دون فهمٍ عميق للطرق الديناميكية والخاصة التي شَكَّل بها العرق التحولات العالمية، وتَشكَّل بها، على المستوى التاريخي. وعلى ذلك، فمما يُشكِّل أهميةً بالغة لاكتساب فهمٍ أكثر شمولًا للعمليات العالمية المعاصرة وجودُ تحليلٍ مُتكامل للسوابق التاريخية للتداول الحالي للكيفية التي شكَّلت بها الإمبرياليةُ والترتيبُ العرقي الحركاتِ العالمية، والطرق التي جرى بها وضع مفاهيم الانتماء والعضوية والمواطنة، وإضفاء الطابع المؤسَّسي عليها في إطارٍ عرقي.

(٨-١) العمليات العالمية، والانتشار التاريخي، والترتيب العرقي

ظهرت فكرة العرق وإضفاء الطابع المؤسسي الهرَمي على الاختلاف العرقي على نحوٍ عقلاني فيما يتعلق بالتحولات الاقتصادية في القرن السادس عشر؛ التي خلقت في النهاية ما نَعرفه الآن بـ «الغرب الحديث» (هولت ٢٠٠٠؛ سيلفربلات ٢٠٠٤؛ ترويو ١٩٩٥). وبينما كانت مفاهيم الاختلاف تعمل قبل هذه الفترة، فإن طرد المسلمين من أوروبا، والرحلات البحرية الأولى للأوروبيين بغرض الاستكشاف والاكتشاف، ونموِّ التداول التجاري ولَّد حالةً جديدة أصبَح بموجبها للعمال العرقيِّين لأول مرة «أهميةٌ حتمية في تحريك القُوى الإنتاجية على نطاقٍ عالَمي» (هولت ٢٠٠٠: ٣٢). وفي نفس الوقت الذي صارت فيه الروابط والصلات بين بناء الأمة والإمبريالية وبين العبودية العرقية ونمو إنتاجٍ زراعي واسع النطاق موجه نحو التصدير أكثر ترابطًا على نحوٍ أقوى، بدأت أيديولوجيات جديدة تنتشر في أوروبا عن «طبيعة الإنسان». ففي داخل الخطابات الدينية، والفلسفية، والعلمية، والسياسية، كانت خريطة التراتبيات الهرمية لقيمة الإنسان ترسم على أساس اختلاف النوع الاجتماعي، والاختلاف العرقي، والحضاري (ترويو ١٩٩٥). وبذلك كان تكوين الدولة المُبكر والرأسمالية التجارية بمثابة الافتتاح للعمليات المادية والأيديولوجية التي ربطت على نحوٍ ثابت «العالم الجديد» و«القديم» في مشروعٍ مشترك لتعريف الذاتية الحديثة في إطارٍ عرقي. بعبارةٍ أخرى، تتشابَك جذور الحداثة الغربية مع مشروعات الغزو الإمبريالي، وعبودية المزارع، والهيمنة العرقية. ونظرًا لأن هذه العمليات العرقية أعادَت تكوين أوروبا نفسها أيضًا، فإن هذه الصياغة للحداثة التي تضع تصوُّرًا للمحيط الأطلنطي كوحدةٍ جيوتاريخيةٍ مُتكاملة ارتبطت فيه التحولات المنهجية بالتوسع الأوروبي المُبكِّر نحو الغرب خلقت ما صار في النهاية شبكةً ثلاثية للعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية الاجتماعية التي تربط الأفراد، والمجتمعات، والطبقات في ثلاث قارات في دائرة تفاعل واحدة.

لقد خلقَت الإمبريالية، والعبودية، والاستغلال الاستعماري روابطَ عالميةً متينة استمرَّت خلال حقبة ما بعد التحرُّر من العبودية في منتصف القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين. وهذه الروابط من شأنها أيضًا تعريف الناس من جنوب وشرق آسيا بالانقسام الثنائي لعالم المزارع الكبرى إلى بيض وسود من خلال برامج التعاقُد المؤقت مع العمالة. في الوقت ذاته، تفوَّق العلم على الدين بوصفه الخطاب السائد للإمبراطورية، وساعد المؤيِّدون للعبودية والتوسع الاستعماري في إضفاء الطابع المؤسسي على علم

الأنثروبولوجيا الجديد؛ وهو ما يُعزى جزئيًّا إلى إبطال مزاعم مؤيدي إلغاء العبودية استنادًا إلى العقائد الإنجيلية والأخلاقية. مع تطور هذا الفرع المعرفي خلال القرن التاسع عشر، جرى تحليل الاختلاف البشري عبر تراتبيةٍ هرمية ذات شفرة لونية تدرَّجت من البرابرة إلى المتحضِّرين — من الأسود مرورًا بالبُنِّي والأحمر والأصفر، وصولًا إلى الأبيض (بيكر ١٩٩٨). ولم تُفلح حقيقة أن بعض الباحثين قد وثقوا العادات والسلوكيات بينما قام آخرون بقياس الأدمغة والأجسام في تغيير هذه التراتبية الهرَمية؛ نظرًا لأن التنوع البشري والاختلافات الثقافية لم تكن واضحة ومخططة عرقيًّا؛ مما أعطى الأفضلية للبيولوجيا كأساس للاختلاف البشري.

على الرغم من تحدي بعض علماء الأنثروبولوجيا في الولايات المتحدة فعليًّا للأساس الذي تقوم عليه أبحاث علم تحسين النسل، فقد كان لإضفاء الطابع المؤسسي على العلم الأنثروبولوجي أثره في ترسيخ التصنيفات الهرَمية السابقة للجماعات العرقية. وخلال مطلع القرن العشرين، ترسخت هذه التصنيفات أكثر من خلال الدراسات المتدنية المستوى التي وضعت تصوُّرًا لتمايُز «الشعوب» و«الثقافات» المتنوعة فيما يتعلق بتصورات الانتماء القائمة على أساسٍ إقليمي. ومع ذلك فنظرًا لأن البيولوجيا العرقية — العلم المُعتمد للإمبراطورية — كانت أساسية لتأسيس عالم ما حول الأطلنطي، ظلَّت خريطة هذه الاختلافات ذات الجذور الإقليمية توضع على أساسٍ عرقي. وعلى الرغم من أن حجة فرانز بواس الأولى المؤيدة لوجود اختلافٍ تحليلي (وسياسي) بين العرق والثقافة، غالبًا ما كانت المناقشات التقليدية الدائرة داخل أنثروبولوجيا مجتمعات الشتات الأفريقي — وبين مجتمعات الناشطين المتنوعة — توظِّف مفاهيم العرق البيولوجي في القرن التاسع عشر باعتبارها الأساس المهيمن للاتصال والاستمرارية.

غير أن تغيُّراتٍ أخرى كانت في سبيلها إلى الحدوث في مطلع القرن العشرين عندما حولت العلاقات المُتغيرة بين الإنتاج والاستهلاك المعاني العرقية أيضًا، والتي انتشرت الآن مع تنقُّل كلٍّ من العمال والمُفكِّرين بين الولايات المتحدة، وأوروبا، وجنوب وشرق آسيا، وأفريقيا. وعكَس ظهورُ حركاتٍ واعية بالعرق، مثل حركة وحدة الشعوب الأفريقية، والجارفية، وحركة نياجارا، بعضًا من هذه التحوُّلات مع تعزيز سياسةٍ ثقافية للانتماء العرقي والعضوية. وفيما تطلَّبت الترتيبات السياسية والاجتماعية الاقتصادية ما قبل الفوردية بقاء القوى العاملة العرقية ثابتةً داخل المواقع (المادية والأيديولوجية) المحدَّدة التي نُقلت إليها، اعتمدت النماذج الفوردية للإنتاج والاستهلاك، بحلول منتصف القرن

العشرين، على حركة خروجٍ جماعية لنفس هذه القوى العاملة من موقعها، «من الجنوب إلى الشمال في الولايات المتحدة، ومن المستعمرة إلى العاصمة في جزر الهند الغربية البريطانية والفرنسية، ومن الريف إلى المدينة في أفريقيا الجنوبية والغربية» (هولت ٢٠٠٠: ٧٠). وقد ولَّد هذا التنقل، الذي تيسَّر بفعل تحرير قوانين الهجرة الأمريكية في عام ١٩٦٥، موجةً عبر حدودية من الممارسات الثقافية تتدفَّق من أراضي الأوطان الأصلية (خاصةً جزر الكاريبي، وأمريكا اللاتينية، وآسيا) إلى الأراضي الجديدة (الولايات المتحدة، وأوروبا وكندا ولكن بدرجةٍ أقلَّ).

(٨-٢) طرق التعبير الثقافية الجديدة عن العرق

بحلول منتصف القرن العشرين، حثَّت هذه التغيرات على تحوُّل مفاهيم الاختلاف المحلية إلى خطابات عن الأصل الإثني والقومي والانتماء. وتتبع هذه الإعادة لترتيب الذاتية البشرية في إطار إرثٍ إثنيٍّ مُتزايد تغيراتٌ ذات صلةٍ بنيويًّا في لغة التنظيم العرقي الأمريكي الخاصة بحِقبة ما بعد عام ١٩٦٥. خلال هذه الحقبة، كان من شأن اشتداد حدة خطابات حقوق الإنسان ضد التمييز توليد أيديولوجياتٍ جديدة تتعلَّق بالانتماء العرقي والاختلاف العرقي. وهيَّأت هذه التغيُّرات أيضًا الأجواء لتكوين حركات إرث ما بعد الحقوق المدنية وتطوُّر المصالح المؤسسية الشديدة الارتباط الراغبة في استغلال الأسواق المربحة. وكان من شأن التكوين الثقافي لسياسةٍ تجاريةٍ جديدة للاتصال بين الناس في الأمريكتين وأولئك في «الأوطان» المُرتبطة بها تهيئة الأجواء لإنشاء تصنيفٍ تُراثي اسُتخدمت من خلاله العلاقات التي تربطنا بالأصول لتكملة الهوية القومية والمُواطَنة. وقد أعاد هذا التأكيد على التواصُل بين مجتمعات الشتات، في المحيط الاجتماعي، تعريف المفاهيم السائدة للعرق البيولوجي لتصبح مفاهيم العرق الثقافي، والتي تشكَّلت هنا من خلال مفاهيم الإثنية، أو إرث الأجداد. وعلى الرغم من أن هذا المفهوم للإرث قد تجلَّى في السياقات المجرَّدة من أي حدودٍ إقليمية، فقد كان في الواقع إقليميًّا إلى حدٍّ عميق، ولكنه عكس مفهومًا تاريخيًّا وليس وجوديًّا أو بيولوجيًّا.

في الفترة الحالية، يُشرف الخطاب الخاص بالحقوق على الزوال؛ إذ تقلُّ سلطة الدول في بعض المواقع، وفي البعض الآخر تكون أقل استعدادًا لاعتناق «المساواة» كقيمة من قِيَمها. في غضون ذلك، يُعتبر سياق ما بعد الاستعمار واحدًا من السياقات التي خُلقت فيها الهجرة، والتنقُّل، والإعلام — وإن لم يكن ثمة تساوٍ في التعرُّض لها —

حالةٌ تعرَّضَت فيها «أبعاد التضامن العرقي القائمة على الأمة إلى الضمور» (وينانت ٢٠٠٠: ١٨٠). نحن في مواجهة عالم تتزايد فيه نِسَب الأمية بين الشعوب القومية أكثر وأكثر؛ حيث صارت سبُل التقدم الذاتي محدودة على نحوٍ متزايد، حيث تُشكِّل التحويلات النقدية نسبًا أكبر من إجمالي الناتج المحلي للدول النامية؛ حيث تتزايَد السياحة الجنسية والاتجار بالجنس؛ حيث يتناقص توافر الخدمات الاجتماعية الضرورية؛ حيث يُصاغ الالتزام نحو المساواة الاجتماعية كشكلٍ من أشكال مناهضة الرأسمالية، وحيث يُنظر إلى الدعوة الجادة إلى السلام كعملٍ مريب يفتقر إلى الوطنية. وهكذا أدَّت إعادة الهيكلة الاقتصادية العالمية إلى إفقار وتهجير أعدادٍ ضخمة من الناس من آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، والكاريبي، الذين في سبيل البحث عن درجة من الاستقرار الاقتصادي، تمركَزوا داخل المراكز الإمبريالية الأوروبية سابقًا وفي الولايات المتحدة المسيطرة حاليًّا، لا سيما في المناطق الحضرية.

درس الكثير من الباحثين، من الناحية الإثنوجرافية، الروابط (غير المتوقَّعة أحيانًا) بين الهجرة، والتكوين العرقي، وعمليات تحديد الهوية الإثنية، وتطور الوعي السياسي، والإنتاج الثقافي. كذلك قامت أبحاثٌ أحدث عن الهجرة ببحث النواحي التي شكَّل فيها تغيُّر عمليات تكوين مفاهيم للعلاقات بين الإثنية، والعرق، والثقافة، والمواطنة في الولايات المتحدة وأوروبا أهميةً بالغة فيما يتعلق بتشكيل الوجود العام والحياة السياسية للمهاجرين في الدول التي يهاجرون إليها. وكان من العناصر الجوهرية لهذه العمليات انتشار وتجديد الأشكال الثقافية الشعبية بين وداخل الجماعات؛ تلك الأشكال التي تحمل في حد ذاتها تاريخ التمثيلات العرقية، ومع ذلك، كانت الهجرة والتغيرات التكنولوجية تَعني أيضًا أن مفاهيم العرق والشتات تخضع للنقاش على نحوٍ أكثر آنية عبر المكان والزمان، خاصة في عالم الثقافة الشعبية الذي يُعتبر الآن، بدرجةٍ ما (بسبب هيمنة وسائل الإعلام الأمريكية) مشتركًا. ونتيجة لذلك، ظهرت لغةٌ مشتركةٌ جديدة، وهي لغةٌ سياسية على نحوٍ مختلف؛ فهي ليست لغة خطابات الحقوق المدنية والسياسية التي سادت في منتصف القرن العشرين، وإنما شيءٌ آخرُ متأصِّل في المفاهيم المُتغيِّرة للمجتمع العرقي.

إن ما نراه هو أن الانتماء في الحقبة المعاصرة يُعرَف كشيءٍ طارئ ومنقوص، والسمات المشتركة تخضع لإعادة التفكير فيها ليس فقط فيما يتعلق بالخصائص التاريخية الخاصة التي تضع الناس الذين يخضعون للعرقنة، والتجنيس، والتصنيف الطبقي، والتصنيف الجنسي على نحوٍ مختلف في علاقاتٍ معقَّدة أحدهم مع الآخر، ولكن

أيضًا فيما يتعلق بالعمليات المعاصرة التي يبدو أنها تُعزِّز أنواعًا معينة من التراتبية الهرمية داخل مجتمعات الشتات. وفي ضوء هذه التغيرات بمرور الوقت، ترغمنا التحولات المعاصرة على التفكير في التكوين العرقي كعملية — وكعملية تتكامل مع عملياتٍ أخرى — وليس كفئةٍ ثابتة (وقابلة للمعرفة). وقد أسهمت المقاربات الإثنوجرافية الحديثة لهذه العمليات المُتنوِّعة إسهاماتٍ مُهمةً في فهم كيف أحدثَت التطورات الجديدة على المستويات المحلية والإقليمية والقومية والعابرة للحدود؛ تغيُّراتٍ في الفِكر والخبرات المتعلقة بالمواطنة، والانتماء، والاختلاف العرقي. والعلماء الذين يستخدمون الطرق الإثنوجرافية — مثل علماء الأنثروبولوجيا، وعلماء الاجتماع، والمؤرخين الشفهيِّين، ومُنظِّري الدراسات الثقافية — في موقعٍ مثالي يؤهلهم لتسليط الضوء على مثل هذه العمليات؛ لأن الأبحاث الميدانية الطويلة المدى يمكن أن تساعد على اكتساب رؤًى عميقةً معقَّدة للعلاقات المتبادَلة العالَمية المحلية؛ لذلك تُقدم البيانات الإثنوجرافية للعمليات العالمية، على نحوٍ مُتزايد، تركيزًا متزامنًا على خصائص الأماكن (والتراتبيات الهرمية للأماكن) — سواء كانت هذه الأماكن قُرًى، أو مجتمعاتٍ مخترعة، أو دولًا قومية، أو شبكات، أو عملياتٍ متخيَّلة — وعلى المصفوفات المؤسسية والأيديولوجية الخاصة الموجودة على المستوى القومي، والإقليمي، والعالَمي، التي تؤثِّر على التطورات المحلية وتتأثَّر بها. وهكذا استطعنا أن نكتب عن العمليات ذات التأثيرات المشابهة عبر مجموعةٍ كبيرة من الأماكن، دون الإشارة إلى أن هذه العمليات تُفعَّل في كل مكان على النحو نفسه. ونتيجة لذلك، استطعنا إثبات أن «العرق» ليس خيالًا وليس شيئًا قائمًا وثابتًا. وركَّزنا، بدلًا من ذلك، على كيفية فهم الناس للهويات العرقية، أو تجسيدها، أو تدميرها عن طريق حشد المعلومات المجمعة من كل من تفاصيل ظروفهم المحلية ومن مجموعة الفِكَر والممارَسات المتداوَلة داخل محيطهم العام. ومن خلال هذا التركيز يُصبح أوضح من أي وقتٍ أن العرق وما يَرتبط به من خيالات كانت أساسية لتشكيل العمليات العالَمية، وفي هذا الإطار، تاريخ التفاعلات الثقافية عبر الزمن، ومن خلال هذه التشكيلات الدينامية، تَشكَّل العرق كحقيقةٍ اجتماعية، ولذا لا يزال يُحدث تغييرات بالعمليات العالمية ويَتغيَّر بفعلها أيضًا في نفس الوقت.

(هذا المقال مُقتبَس من «مقدمة: العولمة وتحول العرق»، لديبورا توماس وكاماري كلارك. في كتاب «العولمة والعرق: تحولات في الإنتاج العالمي للعرق الأسود». تحرير كاماري ماكسين وديبورا توماس، الصفحات ١–٣٦. حقوق الطبع، ٢٠٠٦: مطبعة جامعة ديوك.

(٩) فاي في هاريسون: العرق والعنصرية ومناهضة العنصرية

تداعيات على حقوق الإنسان



فاي في هاريسون: أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة فلوريدا، بجينزفيل. تُعالج أبحاثها التفاوت الاجتماعي والسياسة المنبثقة استجابة له. تُعنى مطبوعاتها العديدة باستكشاف الفروق الاجتماعية للعرق، والنوع الاجتماعي، والطبقة الاجتماعية، والهوية القومية (والعابرة للقومية) و«طريقة تفاعلها وعملها معًا على نحوٍ متزامن في الحياة اليومية» في الولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى، وجزر الكاريبي من بين أماكن أخرى. ود. هاريسون هي الرئيس السابق لجمعية الأنثروبولوجيين السود وعضوة سابقة (لفترتين) باللجنة التنفيذية للجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا، وترأَّست مفوضية الاتحاد الدولي للعلوم الأنثروبولوجية والإثنولوجية لأنثروبولوجيا المرأة، وعملت في اللجنة التنفيذية للاتحاد الدولي للعلوم الأنثروبولوجية والإثنولوجية. ود. هاريسون عضو بالمجلس الاستشاري العلمي لمشروع «العرق». الصورة بتصريح من فاي هاريسون.

* * *

(٩-١) العرق والثقافة والسلطة في عصر ١١ سبتمبر

العرق هو تمييزٌ محدد تاريخيًّا للتصنيف الطبقي الاجتماعي المخصَّص لفئات من الناس يُفترض أنهم يَشتركون في سماتٍ بدنية أو بيولوجيةٍ أخرى، أو يَشتركون في أصلٍ بارز اجتماعيًّا يُقتفى منه النسب وفقًا لمعاييرَ مختارةٍ ومشَكَّلة ثقافيًّا. زعم بعض العلماء أن تكوين العرق والهرمية الوثيقة الارتباط به له أصوله، تاريخيًّا، في سياقات التوسُّع الاستعماري وبناء الإمبراطورية، واللذان تميزا بالاستيلاء على الأراضي الخاصة، وبقهر العُمال، وبأشكالٍ قمعية، بل مُذلَّة ومجردة من الإنسانية، لسلطة الدولة. وقد تطورت تنويعات على هذه الموضوعات المثيرة للاستياء الخاصة بالحقبة الاستعمارية، وحقبة ما بعد الاستعمار فيما بعدُ، في الأمريكتين، وأفريقيا، وآسيا (جرينبرج ١٩٨٠). ومع التقاطعات الإرادية والقسرية لتدفُّقات السكان على مدار القرون العديدة الماضية، يمكن تخطيط الترتيبات العرقية (والتي تسمى أيضًا التكوينات العرقية أو منظومات العلاقات العرقية) على مستوًى عالَمي، مع ازدياد التنوع ثقافيًّا وعرقيًّا في أوروبا، التي تُعدُّ المركز التاريخي وقمة السلطة الإمبريالية، أكثر مما كان مُتخيَّلًا أن تكون عليه الدول الغربية في الماضي (أندرسون ١٩٩١). وفيما كان للأعداد المحدودة للأقليات العرقية (أو الإثنية المعرقنة)، بما فيها الأوروبيون السيئو السمعة مثل اليهود والروما، حضورٌ لزمنٍ طويل في تلك المجتمعات المُتجانسة المزعومة، أسهمَت موجات من الهجرة الداخلية (والهجرة العابرة للحدود) على نحوٍ خاصٍّ في العرقنة التعددية المعاصرة لأوروبا؛ مما يُشعل في العديد من الحالات جدلًا عامًّا حادًّا وردَّ فعل سياسيٍّ عنيفًا بشأن الحدود الإثنية للانتماء الإقليمي والقومي. فقد استهدف الخوفُ من الأجانب، الذي من المعتاد أن يأتي مُصاحبًا لمعاني وتأثيرات العرقنة، المهاجرين المسلمين على نحوٍ مُتزايد منذ أزمة الأمن الداخلي التي اندلعَت بفعل هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية، التي شنَّها تنظيم القاعدة (سبتمبر ٢٠٠١) في الولايات المتحدة وتفجيرات ٧ يوليو في محطة مترو لندن (يوليو ٢٠٠٥). وسواء في أوروبا، أو الأمريكتَين، أو أفريقيا الجنوبية، أو أي مكانٍ آخر، تتجلَّى ثقافة العرق، وسياساته، واقتصاده السياسي على نحوٍ بارز، على الرغم من أن أساليب الخطاب الحديث تَزعم أنها قد بلغَت لحظة من تجاوُز العنصرية أو انعدامها وطي صفحتها. على النقيض من هذا التفكير الآمل، أو السذاجة السياسية، أو الحيل الخطابية، تتسم المرحلة الحاسمة المعاصرة بـ «الصراعات العرقية [التي] تبدو أنها آخذه في التصاعد وليس الانحسار في العديد من الأماكن حول العالم» (هاريسون ٢٠٠٥ب).

في كثير من السياقات المعاصرة، تكون لغة العرق هي اللغة التي يَلعب فيها مفهومٌ ما للثقافة وليس البيولوجيا دورًا أيديولوجيًّا أساسيًّا. بعبارةٍ أخرى، أُعيدت صياغة الافتراضات بشأن العلاقات داخل الجماعات ومُبررات وجود الحدود والمسافات الاجتماعية في إطار اختلافاتٍ ثقافية لا يُمكن رأبها من الأساس. وفي أسوأ السيناريوهات تُصنَّف مثل هذه الاختلافات كمرضٍ أو كشرور شياطنية. وتمثل هذه المفاهيم الأساس الخطابي للمُمارسات والسياسات العقابية التي تَستهدف مجموعاتٍ معيَّنة من السكان، من السكان الأصليين والمهاجرين على حدٍّ سواء، بأنماطٍ متنوِّعة من التمييز والتنميط والتضحية بهم ككبش فداء، والاضطهاد والاعتقال الجماعي، أو في حالة المهاجرين واللاجئين، الترحيل والنفي. وعبر سياقاتٍ عديدة، يمثل العرق جزءًا لا يتجزَّأ من التصورات والإدراكات الشائعة للواقع الاجتماعي والتصنيفات وصور المنطق التي تعمل من خلالها هذه التصورات لكي تكون ذات معنًى. وعلى الرغم من طبيعة العرق البديهية، التي تُعدُّ جزءًا متأصلًا من رؤية للعالم مقبولة دون أي نقد، فإن «العرق عبارة عن مجموعة من المعاني المتناقضة والمتضاربة مشحونة [ومتغيرة] أيديولوجيًّا» (هاريسون ١٩٩٧، ٣٩٢). تشكَّلت بفعل عملياتٍ ثقافية ديناميكية حدثت بفعل تفاوُت السلطة. إنه سلسلة مترابطة من العلاقات نشأت على المستوى الاجتماعي، ولها أبعادٌ معرفية، وانفعالية، ومادية. وبِنيَتاه القائمتان على الشعور والمادية تتخللان الميادين الثقافية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. وفي النهاية، تُضمنان العنف المنهجي وأمراض السلطة (فارمر ٢٠٠٣) التي تُعدُّ عناصرَ مكونةً «للعنصرية» في أوساطها وأشكالها المتعددة. وقد وصفت بعض من هذه الأوساط والأشكال في إطار العنصرية الثقافية، والعنصرية المؤسسية، والعنصرية المنهجية، والتمييز العنصري العالمي (بوكر ومينتر ٢٠٠١؛ هاريسون ٢٠٠٢). وفي ضوء منطق البِنية، والقدرة على الفعل، والتغيير، فإن المشاعر والعلاقات المادية التي تمثل جزءًا لا يتجزأ من الواقع المعيش للعرق ليست جميعها سلبية. فقد ألهمت أنماط المقاومة الثقافية والسياسية التي تنشأ منها؛ هُوياتٍ مناهضةً للعرقية أكثر تمكينًا وتحشد من أجل تحقيق أهدافٍ من ضمنها التحرر من العبودية واضطهاد ما بعد التحرُّر، والارتقاء بالجماعات العرقية، والحقوق المدنية، وحقوق الإنسان، حسبما تُبيِّن خبرات ونضالات الأمريكيين الأفارقة.

(٩-٢) الاضطهاد العرقي أكثر من مجرد انحياز

العنصرية من القضايا المتجدِّدة التي تُعدُّ معانيها، وأشكالها (التي يمكن أن تكون دقيقة وغير ملحوظة)، وآثارها محل جدل إلى حدٍّ بعيد. فالعنصرية، التي غالبًا ما تُختزل إلى قصديةٍ مُتعصبة، أكثر من مجرد تعصُّب أو تحيز. وهي أيضًا أكثر من أيديولوجية ورؤية للعالم (سميدلي ٢٠٠٧). لقد عرَّف روث فرانكينبرج (١٩٩٣: ٧٠)، المتخصص في الدراسة النقدية لكيفية تكوين العرق الأبيض اجتماعيًّا، العنصرية، التي يُعدُّ تفوق العرق الأبيض هو الشكل السائد لها، بأنها «ليست فقط أيديولوجية أو توجهًا سياسيًّا، ولكنها أيضًا منظومة من العلاقات المادية مع مجموعة من الفِكَر مرتبطة بتلك العلاقات المادية وراسخة فيها.» وبناءً على أبحاثهما في نيوزيلندا/أوتيروا، تُقدم مارجريت ويزريل وجوناثان بوتر (١٩٩٢) رؤية للعنصرية بوصفها «أي أفعال، سواء كانت مقصودة أم لا، من شأنها إدامة وتعزيز هيكلٍ قمعي لعلاقاتٍ سلطويةٍ غير متكافئة.» بعبارةٍ أخرى، وبحسب تعبير هاريسون، «يُمكن أن تكون العنصرية هي النتيجة غير المقصودة للمحادثات والسلوكيات اليومية، على الرغم من غياب التعصُّب المتمركز حول العرق، وحتى الأفعال التي يُقصَد أن تكون مناهضة للعنصرية قد يكون لها نتائج معرقنة، بدلًا من أن تقضي على العرقنة عن غير قصد» (١٩٩٧: ٣٩٥).

وبالأخذ في الاعتبار أن العنصرية تؤدي إلى «القمع»، أو تُعزِّزه، أو تُقوِّيه، أو قد تكون «هي ذاتها قمعًا»، وأن هذا القمع، الذي يعمل بالاشتراك مع صورٍ مُتقاطعة للإجحاف والظلم (كتلك القائمة على الطبقة، والنوع الاجتماعي، والجنسانية)، غالبًا ما يجرد الشعوب التي يستهدفها من إنسانيتهم، فإن العنصرية مشكلةٌ أساسية فيما يَتعلق بمخاوف المجتمع الدولي وحركات حقوق الإنسان. «فالعنصرية انتهاك لحقوق وكرامة الإنسان». وحقوق الإنسان هي «المطالب المسوغة أخلاقيًّا وقانونيًّا بالكرامة، والحرية، والأمان الشخصي، والرفاهية التي يُمكن للأشخاص كافة بلوغها بفضل كينونتهم كبشر» (هاريسون ٢٠٠٥أ: ١١). تُحدَّد المعايير والمثل الدولية لحقوق الإنسان بدقة في البيانات، والمواثيق، والمعاهَدات التي توقع عليها الدول، إذا وقَّعت عليها. وتحميل الدول — والأطراف التي تفوق سلطتها سلطة الدولة، مثل الشركات عبر الوطنية — المسئولية عن تطبيق مبادئ حقوق الإنسان؛ أمرٌ صعب، لا سيما في «عالم» معولم «مشحون بالصراعات يتسع فيه التفاوت في الثروة، والصحة، والسلطة» (هاريسون ٢٠٠٥أ: ١١). وعلى الرغم من ذلك، فمنذ نهاية الحرب الباردة، «صارت حقوق الإنسان هي القيم السياسية الأكثر قبولًا

ووضوحًا على المستوى العالَمي في العالم. وعلى بعض الأصعدة المهمة، تملأ لغة حقوق الإنسان الفراغ الذي خلقه (هاريسون ٢٠٠٥أ: ١١) «توقُّف السرديات السياسية الكبيرة [السابقة]» (ويلسون ١٩٩٧: ١).

(٩-٣) تصنيف التمييز العنصري كانتهاك لحقوق الإنسان

تم التصديق على الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري في عام ١٩٦٥ ودخَلت حيِّز التنفيذ بعد ذلك بأربع سنوات، أي قبل عقد من إقرار اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، التي سرَت في عام ١٩٨١. وعلى الرغم من أن الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري كانت «من أولى معاهَدات حقوق الإنسان الدولية الأساسية التي تبنَّاها المجتمع الدولي» (منظمة العفو الدولية ٢٠٠١: ٢). فإنها أقل بروزًا وتأثيرًا من اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة وغيرها من الاتفاقيات. لقد حصلت على تصويت بالإجماع من الجمعية العامة للأمم المتحدة؛ غير أن «دعمها الواسع النطاق ... [نبع من] اعتباره في الأساس ... يستهدف التفرقة العنصرية، والمُمارسات العرقية للاستعمارية، وأسلوب معاملة الأمريكيين الأفارقة في الولايات المتحدة. فمعظم الدول لم تكن تراه قابلًا للتطبيق أو حتى يحتاج إلى التطبيق، داخل نطاق أراضيهم. ولا يزال مثل هذا الإنكار لوجود تمييزٍ عنصري يُمثل مشكلةً خطيرة حتى اليوم» (منظمة العفو الدولية ٢٠٠١: ٢-٣). وقد كتب عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية مايكل بانتون (١٩٩٦)، والذي عمل أيضًا في لجنة الأمم المتحدة للقضاء على التمييز العنصري، أيضًا عن أهمية السياسة الخارجية للاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري خلال الستينيات والكفاح المنظم منذ تلك البدايات لإجبار الدول — بما فيها الولايات المتحدة — على الانصياع لبنودها كمعاهَدةٍ ملزمة قانونًا.

انعكس الخفوت النسبي للاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري على نحوٍ واضح، ولكنه مثير للأسف في الأدبيات التي تتناول حقوق الإنسان. ومن الأمثلة على ذلك كتاب ميشلين آر إيشاي «تاريخ حقوق الإنسان: من العصور القديمة حتى عصر العولمة» (٢٠٠٤)، والجزء المُكمِّل له «دليل حقوق الإنسان: مقالاتٌ سياسيةٌ مهمة وخطب ووثائق من العصور القديمة حتى العصر الحاضر» (٢٠٠٧). فعلى الرغم من أن هذَين الكتابين يُعدَّان مصادرَ مفيدةً للمعلومات بالأساس، فإن البارز فيهما تجاهُلهما للقُوى التي أدَّت إلى إعلان عام ١٩٦٣ ثم اتفاقية عام ١٩٦٥، واللذَين عَرَّفا وصَنَّفا التمييز

العنصري كانتهاك لحقوق الإنسان وإنكار للحريات الأساسية. فيحوي دليل إيشاي، حتى في طبعته الثانية، وثائقَ مهمةً مثل وثيقة الماجنا كارتا الصادرة عام ١٢١٥، وإعلان استقلال الولايات المتحدة الصادر عام ١٧٧٦، والإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن (١٧٨٩) بوصفها الخلفية الفلسفية والسياسية للوثائق الأخرى المنشورة بالكتاب مثل ميثاق الأمم المتحدة لعام ١٩٤٥، إلى جانب سلسلةٍ طويلة من المواثيق، والاتفاقيات، والمعاهدات، وبروتوكولات الاتفاقيات، من بينها إعلان حقوق الأشخاص ذوي الاحتياجات الخاصة (١٩٧٥) واتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (١٩٧٩ / ١٩٨١). بالطبع كان على المحرِّرة أن تكون انتقائية. غير أنها تُكرِّر في اختياراتها طلاب الأقليات الأكثر عرضة للالتحاق نمطًا شائعًا من الطمس، أو الإسكات، أو ربما الرقابة الفعلية في بعض الحالات. ومع ذلك فقد ورد في كتابها الأول ذكرٌ خاطفٌ للعرقية ومكافحة العنصرية في بعض المواضع في سياق العبودية، وإلغاء العبودية، ومعاداة السامية في عصر الحرب العالمية الثانية. وقد أُدرجت الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري في ملحق الكتاب المعنون: «سجل زمني لترتيب الأحداث والكتابات ذات الصلة بحقوق الإنسان» (٢٠٠٤: ٣٦٥)، ولكن دون التطرُّق إلى مناقشته في أي موضع بالكتاب، على الرغم من الاستشهاد بخطبة مارتن لوثر كينج الابن «لدي حلم» في الجزء الخاص بالحركات الاجتماعية الجديدة من الكتاب. لقد أهدرَت إيشاي ببساطة فرصةً لإقامة صلات ربط مع جهود مناهضة العنصرية التي بُذلت داخل وخارج الولايات المتحدة والمُتعلِّقة بإقرار وتطبيق الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري والمُعاهَدات الأخرى ذات الصلة وبرامج عمل مؤتمرات الأمم المتحدة.

يَرتبط بهذا النمط في المحو والطمس نزوع التغطية الإخبارية والخطاب السياسي في المؤتمر العالمي لمناهَضة العنصرية، الذي عُقد في ديربان، بجنوب أفريقيا في عام ٢٠٠١، ومؤتمر مراجعة ديربان الذي انعقد في جينيف عام ٢٠٠٩ إلى الاستخفاف بأهمية هذه الفعاليات لحقوق الإنسان الدولية. فقد تعرَّضت هذه المؤتمرات إلى جانب جميع ما ارتبط بها من أبحاث، وجماعات ضغط، وأنشطةٍ تنظيمية أخرى إلى التشوية والتشكيك في وسائل الإعلام الرئيسية إلى حدٍّ كبير. وقد حدَث هذا، إلى حدٍّ كبير، بسبب موقف هذه المؤتمرات المُثير للجدل بشأن تعويضات ضحايا تجارة العبيد العابرة للأطلنطي، التي اعتبَرها المؤتمر العالَمي لمناهضة العنصرية «جريمة ضد الإنسانية»، وانتقادها لسياسة إسرائيل

تجاه فلسطين، والسياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط بالتبعية. فالعلاقات الدولية، وفقًا للحكومة الأمريكية، تتجاوز النطاق والهدف القانونيَّين لمؤتمرات الأمم المتحدة لمناهضة العنصرية، ومنتديات المنظمات غير الحكومية، التي واجهت هذه القضايا على نحوٍ غير ملائم في إطار العنصرية. ويتوافَق هذا الرد، من جوانب عدة، مع الأساليب التقليدية في التعامل مع العلاقات الدولية، التي تميل إلى إنكار أهمية العرق وآلياته في العلاقات الدولية الحديثة. فيذهب الباحث في العلاقات الدولية روبرت فيتاليس (٢٠٠٠) إلى أن ثمة «مبدأً» خفيًّا «ضد الالتفات إلى العرق» يطغى على السياسة الخارجية، وكما تُبين عالمة الأنثروبولوجيا كريستين لوفتسدوتير (٢٠٠٩)، أيضًا في مجال التنمية الاقتصادية ذي الصلة. وقد وضَع ويليام إدوارد بورجاردت دو بويز ورالف بانش سوابق علمية ونضالية في مكافحة هذا المبدأ (انظر هاريسون ٢٠٠٢).

ثمة مجالٌ آخر أكثر ارتباطًا بكثير بمجالات اهتمام علماء الأنثروبولوجيا، وهو الحوار المحدود والتفاعل بين أنثروبولوجيا حقوق الإنسان والدراسات الأنثروبولوجية النقدية للعرق والعنصرية. على سبيل المثال، نادرًا ما تَستقصي الأدبيات المُستفيضة التي تتناول الشعوب الأصلية وحقوقهم العرق والعنصرية على نحوٍ صريح كمُكونات للقمع، وفي أسوأ الحالات، الإبادة الجماعية التي تُجابهها الشعوب الأصلية. ويعدُّ أسلوب تعامل بيتر ويد مع «بِنيات الغيرية» (أي الاختلاف، أو الآخر)، التي تُخضِع سكانًا أصليين لأمريكا اللاتينية وأشخاصًا مُنحدِرين من أصول أفريقية إلى أشكالٍ مختلفة من العرقنة — ولكنها عرقنة على أية حال — من الأمثلة القليلة التي يُنظر فيها إلى التطبيق التقليدي «للإثنية» على الشعوب الأصلية والتطبيق التقليدي «للعرق» على السود كأمرٍ إشكالي وخاطئ (ويد ١٩٩٧: ٣٦–٣٧). ويُعدُّ جوناثان وارين (٢٠٠١) وتشارلز هيل (٢٠٠٦) اثنين آخرين من سكان أمريكا اللاتينية ممن حلَّلوا ثقافة وسياسة العرق في عمليات تعبئة وحشد الشعوب الأصلية من أجل العدالة والحقوق.

لقد كان مما جعل إعلان حقوق الشعوب الأصلية الذي تمَّ إقراره في عام ٢٠٠٧ مُمكنًا إلى حدٍّ كبير التأييد الأنثروبولوجي والأرض التي مهَّدتها كفاحات ائتلاف أوسع كثيرًا للمُناهضين للعنصرية لإعداد مسوَّدة الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري تنفيذها و«الإعلان وبرنامج العمل» اللذَين أُقرَّا في المؤتمر العالَمي لمناهضة العنصرية في ديربان، بجنوب أفريقيا في عام ٢٠٠١ (المؤتمر العالمي لمناهضة العنصرية، سكرتارية منتدى المنظمات غير الحكومية، ائتلاف المنظمات غير الحكومية

بجنوب أفريقيا ٢٠٠٢). وتضمُّ الوثيقة الأخيرة أجزاء عن «الشعوب الأصلية» (٢٠٠٢: ٢٣–٢٤، ٥٩–٦٢)، وأوصى بشدة بإقرار إعلان حقوق الشعوب الأصلية. وقد لعب تأييد علماء الأنثروبولوجيا نيابةً عن — وبالاشتراك مع — نشطاء يَنتمون إلى السكان الأصليِّين دورًا مهمًّا في تقديم حقوق الشعوب الأصلية كحقوق إنسان. وقد كانت المنظَّمات غير الحكومية مثل «البقاء الثقافي» و«البقاء الدولي»، نماذج في هذا التطبيق العملي.

(٩-٤) مناهضة العنصرية والحقوق في مجتمعات الشتات الأفريقي

يَعمد علماء آخرون في مجال الأنثروبولوجيا إلى إدخال الاهتمام بالعرق ضمن تحليل خطابات وممارسات حقوق الإنسان؛ أو إدخال حقوق الإنسان ضمن دراسة العنصرية ومناهَضة العنصرية. فإلى جانب مايكل بانتون (١٩٩٦)، الذي ذكرت بعض أعماله سابقًا، أقدم جواو كوستا فارجاس (٢٠٠٨) على تفسير مُتسلسلة الإبادة الجماعية (شيبر-هيوز ٢٠٠٠) التي تعمل في سياقات مجتمعات الشتات الأفريقي، خاصة في الولايات المتحدة والبرازيل حيث أجرى أبحاثًا، مُجمِّعًا النتائج التي توصَّل إليها في مواقعَ متعدِّدةٍ بطرُق سلطت الضوء على القواسم المشتركة أو أوجه التشابه بين القمع وانتهاك حقوق الإنسان. وتُوضِّح كيشا-خان بيري (٢٠١٠)، بناءً على أبحاث عن حركات النضال الشعبي للمرأة البرازيلية الأفريقية في سالفادور، بولاية باهيا، كيف تَحشد المنظَّمات التي تقودها النساء السوداوات في الأحياء «من أجل مكافحة القمع العرقي والجنسي والمطالبة بالحق في الحصول على الموارد مثل الأرض والماء» (٢٠١٠: ١٤٣). وتوضِّح كيف تلعب هذه السيدات أدوارًا أساسية في «إعادة صياغة مفاهيم المواطنة» و«توظيف خطاب الحقوق والمطالبة بالحق في الموارد؛ في تكوين ردود منظمة على الهيمنة العرقية المحدَّدة مكانيًّا» (بيري ٢٠١٠: ١٤٨).

تَدرس أبحاثي (هاريسون ٢٠٠٠؛ ٢٠٠٢؛ ٢٠٠٥أ وب؛ ٢٠٠٨) أيضًا مناهضة العنصرية كموضع للوعي بحقوق الإنسان، وخطابها، وممارَستها. وقد تتبَّعتُ شبكة إقليمية جنوبية للعدالة الاجتماعية، شارك قادتها، وأغلبهنَّ سيداتٌ أمريكياتٌ أفريقيات وسيداتٌ أخريات من أصولٍ أفريقية (مثل النساء الكاريبيات واللاتينيات في أتلانتا وجنوب فلوريدا) في المؤتمر العالمي لمناهضة العنصرية؛ وفي مؤتمر بكين الرابع للمرأة المنعقد عام ١٩٩٥. وقد جلبْنَ معهن إلى الوطن دروسًا تعلَّمنها في دورهام في المواقع المحلية والإقليمية التي يَقُمن فيها بنشاطهن الاجتماعي والاقتصادي، وفي مجال العدالة البيئية. وهنَّ يعملن

بصفتهن ناشطات على بناء جسور للربط بين عدد من حركات النضال المتقاطعة ضد العنصرية وما يرتبط بها من حملاتٍ قمعية؛ وهو ما يتجلى في المدارس غير المطابقة للمعايير، وظروف العمل الاستغلالية، والتفاوت في الأوضاع الصحية، والعنف ضد المرأة، والممارسات الشُّرطية القمعية، والاعتقال الجماعي. وكما كتبتُ في موضعٍ آخر، فإن «حركات النضال العديدة والمتشابكة في ذات الوقت يجري إعادة النظر فيها وإعادة تأطيرها في إطار شبكة تواصُل مُترابطة قائمة على حقوق الإنسان العالمية» (هاريسون ٢٠٠٨: ١١). وهدفي هو معرفة كيف تُترجم الأفكار والاستراتيجيات المتداوَلة في السياقات العابرة للوطنية (كسياقات الأمم المتَّحدة والمنظمات غير الحكومية الدولية مثل منظمة العفو الدولية والمجموعة الدولية لحقوق الأقليات) وإدراجها ضمن الخطاب اليومي الدارج (ميري ٢٠٠٦) في الحياة والنضال اليوميَّين في مواقعَ محليةٍ وإقليمية معيَّنة. وعدستي الإثنوجرافية المتعددة البؤر موجَّهة إلى النشطاء في مجال حقوق الإنسان في الجنوب الأمريكي، خاصة النساء السوداوات اللائي يضعن خرائط لأنفسهن ولدوائرهن المتعدِّدة الأعراق التي تضم مواطنين ومُهاجرين على نحوٍ متزايد في نقطة تقاطع العرق والنوع الاجتماعي والطبقة الاجتماعية الواقعة على مشهدٍ ثقافيٍّ اجتماعي؛ حيث يتلاقى الجنوب الأمريكي مع الجنوب العالمي (هاريسون ٢٠٠٥ب).

يعي نشطاء الشبكة البارزون تمامًا تاريخ الوعي بحقوق الإنسان والدفاع عنها في كفاح الأمريكيِّين الأفارقة من أجل الحرية. ويُلقي تقريرٌ سنوي صادر عن المركز القومي لتعليم حقوق الإنسان بولاية أتلانتا (٢٠٠٠) الضوءَ على مواجهة فريدريك دوجلاس لقضية «حقوق الإنسان للزنوج» في خمسينيات القرن التاسع عشر. وخلال أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين كانت أجندة حقوق الإنسان مركز حملات الجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين لمُناهضة العنصرية ومنظَّمات حقوق الإنسان الأخرى الأكثر يسارية، وأبرزها منظمة المؤتمر الوطني للزنوج ومؤتمر الحقوق المدنية (أندرسون ٢٠٠٣). وقد أعدَّت هذه المنظَّمات عرائض للأمم المتحدة توثِّق انتهاكات حقوق الإنسان، فيما ذهبت عريضة ويليام باترسون بعيدًا إلى الزعم بوجود إبادةٍ جماعية (مؤتمر الحقوق المدنية ١٩٥١). وفي النهاية، اتجهت الجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين إلى اليمين، لتتَّحد مع إدارة ترومان وتنأى بنفسها عن المواقف الراديكالية التي اتخذها ويليام إدوارد بورجاردت دو بويز، وويليام ولويس باترسون، وبول إسلاندا روبسون، الذين تمَّت شيطنتهم بوصفهم بأنهم «غير أمريكيِّين» في العصر المكارثي في خمسينيات القرن

العشرين. وأجبر مناخ الحرب الباردة هذا دو بويز على الهجرة إلى غانا حيث تُوفي هناك قبيل مسيرة واشنطن عام ١٩٦٣. في العام التالي مباشرة واصَل مالكولم إكس المطالبة بمراعاة حقوق الإنسان. ففي حوارٍ أجراه عام ١٩٦٤ مع مجلة مانثلي ريفيو، قال ما يلي:

> لقد كان الهدف من خطابي الموجَّه إلى [قادة حركة الحقوق المدنية] هو أن أُبيِّن لهم أنهم لو كانوا سيعملون على توسيعِ نطاق حركتهم للحقوق المدنية لتُصبح حركة لحقوق الإنسان، فإن ذلك من شأنه تدويلُها. أما الآن، فهي لا تزال داخل حدود السياسة المحلية الأمريكية لكونها حركة للحقوق المدنية، وما من دولة أفريقية مستقلة يمكنها أن تنبس بشيء يتعلق بالشئون الداخلية الأمريكية، في حين أنهم إذا وسَّعوا نطاق حركة الحقوق المدنية لتُصبح حركة لحقوق الإنسان، لصاروا مؤهَّلين للتوجه بقضية الزنوج إلى الأمم المتحدة تمامًا مثل قضية الأنجوليِّين المتداولة في الأمم المتحدة، وقضية مواطني جنوب أفريقيا المتداولة في الأمم المتحدة. وبمجرد توسيع نطاق حركة الحقوق المدنية لتصبح حركة لحقوق الإنسان يمكن لأشقائنا الأفارقة، وأشقائنا الآسيويين، وأشقائنا في أمريكا اللاتينية أن يضعوا القضية على أجندة الجمعية العامة للأمم المتحدة التي ستناقَش هذا العام دون أن يكون لأبناء العم سام أيُّ سلطة لاتخاذ القرار فيها.
>
> سبيلمان ١٩٦٤

لا تزال أصداء هذه المسيرة التاريخية، بما تحمله من أهمية وإرث، والموثَّقة على نحو شافٍ في تأريخ كارول أندرسون (٢٠٠٣؛ ٢٠٠٨)، تتردَّد في الوعي الأمريكي الأفريقي والأفرو-أطلنطي، وحركة النضال السياسي، والتحليل الاجتماعي إلى اليوم. فلم يكن من قبيل الصدفة مُطلقًا أن من بين أربع روايات وردت على لسان نشطاء في مجال حقوق الإنسان في كتاب «من الحقوق المدنية إلى حقوق الإنسان»، وهو الكتاب الثاني ضمن سلسلة كتب «إعادة حقوق الإنسان لأصحابها» المكوَّنة من ثلاثة أجزاء (سووهو، ألبيسا، وديفيز ٢٠٠٨)، كان ثلاثة منهم أمريكيِّين من أصل أفريقي، وهم: أجامو باراكا، المدير التنفيذي للشبكة الأمريكية لحقوق الإنسان؛ ولوريتا روس الناشطة النسائية المناهضة للعنصرية، والناشطة في مجال حقوق الإنجاب، والتي أسَّست المركز القومي لتعليم حقوق الإنسان؛ وليزا كرومز

الناشطة والباحثة القانونية والأستاذة بجامعة هوارد (ألبيسا ٢٠٠٨: ٤٩–٧٠). ولعلَّ في هذا دلالة على مركزية تجربة السود ومناهضتهم للعنصرية بالنسبة إلى حركة النضال من أجل حقوق الإنسان. ويُشير كذلك إلى عدم بلوغ التطورات التي طرأت على الديمقراطية الليبرالية الأمريكية وتوسيع الحقوق الانتخابية للمدى الكامل لحقوق الإنسان التي تتجاوَز الأبعاد السياسية والمدنية، وتؤكد على نحوٍ متزايد في المناقشات الدولية، على توسع نطاق فهم الاستغلال والانتهاك الذي يُشير ضمنًا إلى العنف المنهجي الذي يُمارسه الفقر، وظروف العمل المُجحِفة، والتدهور البيئي على بقاء الإنسان وسعادته.

كان لتجربة السود في الولايات المتحدة وعبر مجتمعات الشتات الأفريقي — لا سيما في ثورة هاييتي كحالةٍ نموذجية — دورها في توسيع معاني الحقوق وتقليص فروقها لزمنٍ طويل بطُرق تتجاوز رؤى ونوايا أنصار الثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية، وهزيمة النازية، وغير ذلك من أحداثٍ غيَّرت وجه العالم. ويظل هذا النوع من التأثير ضروريًّا اليوم في الوقت الذي لا تزال فيه حياة بعض الناس تحت مستوى البشر. والتأثير التقدمي لحركة التنوير وإرثها على كيفية وضع مفهوم للحقوق وتوظيفها سياسيًّا؛ من الأمور التي تأمَّلت فيها المتخصصة في نظرية ما بعد الاستعمار الجامايكية سيلفيا وينتر (٢٠٠٢؛ ٢٠٠٣) على نحوٍ جدِّي. وهي تؤيِّد فكرة بناء أي نظرية للمعرفة والوجود الاجتماعي على «أسس مفاهيمية خلاف تلك الراسخة في تصور حركة التنوير الغربي وفي حدود ثوابتها الموروثة» (هاريسون ٢٠٠٨: ١٤). وتذهب إلى أن «نموذج الإنسان المشتق من ذلك المسار الذي يدَّعي الكونية يفترض دونية الأفارقة وكل ما هو نابع من أصلٍ أفريقي واعتبارهم كائنات مختلفة جذريًّا. ونتيجة لذلك، لا يُمكن بلوغ الإنسانية الكاملة دون إعادة هيكلة أساسية لبنود وشروط اكتساب صفة إنسان» (هاريسون ٢٠٠٨: ١٤). وتزعم أن هذه الإعادة الجذرية الأساسية لهيكلة الإنسان التي تفرضها «حقبة ما بعد الإنسان» لها تداعيات على الافتراضات التي وُضعت بشأن موقف الأفارقة وأفارقة الشتات حتى في الحقبة المعاصرة داخل إطار التنمية الاقتصادية، والعلاقات الدولية، وأيضًا، حسب تخميني، حقوق الإنسان.

إن فحصًا وتنظيرًا جادَّين لتجربة السود — وكذا تجربة الشعوب الأصلية والآخرين ممن جُرِدوا من إنسانيتهم جذريًّا — من شأنهما أن يُمثِّلا تحدِّيًا بنَّاءً لإعادة النظر في حدود وخطوط حقوق الإنسان واستيعابها على نحوٍ أكبر إلى جانب العناصر الفاعلة والممارسات التي تَثبُت أهميتها وضرورتها في عالم اليوم.

المراجع

Brownstein, R.:

2010 The Grey and the Brown: The Generational Mismatch. *The National Journal*, July 24. http://www.national journal.com/magazine/the-gray-and-the-brown-the-generational-mismatch-20100724, accessed July 7, 2010.

Webb, J.:

2010 Diversity and the Myth of White Privilege. The Wall Street Journal, July 22. http://online.wsj.com/article/SB10001424052748703724104575379630952309408.html, accessed August 14, 2010.

Winant, H.:

2004 The New Politics of Race: Globalism, Difference, Justice. Minneapolis, MI: University of Minnesota Press.

ديبورا توماس وكاماري كلارك: عولمة العرق

Baker, Lee D.:

1998 From Savage to Negro: Anthropology and the Construction of Race, 1896–1954. Berkeley: University of California Press.

Holt, Thomas C.:

2000 The Problem of Race in the 21st Century. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Silverblatt, Irene:

2004 Modern Inquisitions: Peru and the Origins of the Civilized World. Durham: Duke University Press.

Trouillot, Michel Rolph:

1995 Silencing the Past: Power and Production of History. Boston: Beacon.

Winant, Howard:

2000 Race and RaceTheory. Annual Review of Sociology 26: 169–185.

فاي في هاريسون: العرق والعنصرية ومناهضة العنصرية تداعيات على حقوق الإنسان

Albisa, Catherine:

2008 First-Person Perspectives on the Growth of the Movement: Ajamu Baraka, Larry Cox, Loretta Ross, and Lisa Crooms. *In* Bringing Human Rights Home, vol. 2: From Civil Rights to Human Rights. Cynthia Soohoo, Catherine Albisa, and Martha F. Davis, eds. pp. 49–70. Westport, CT: Praeger Pubishers.

Amnesty International:

2001 Using the International Human Rights System to Combat Racial Discrimination: A Handbook. London: Amnesty International Publications.

Anderson, Carol:

2003 Eyes off the Prize: The United Nations and the African American Struggle for Human Rights, 1944–1955. Cambridge: Cambridge University Press.

Anderson, Carol:

2008 A "Hollow Mockery": African Americans, White Supremacy, and the Development of Human Rights in the United States. *In* Bringing Human Rights Home, vol. 1: A History of Human Rights in the United States. Cynthia Soohoo, Catherine Albisa, and Martha F. Davis, eds. Pp. 75–101. Westport, CT: Praeger Publications.

Anderson, Benedict:

1991 Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism. London: Verso.

Banton, Michael:

1996 International Action against Racial Discrimination. Oxford: Clarendon Press.

Booker, Salih, and William Minter:

2001 Global Apartheid. The Nation 9(July): 11–17.

Civil Rights Congress:

1951 We Charge Genocide: The Historic Petition to the United Nations for Relief from a Crime of the United States Government against the Negro People. New York: Civil Rights Congress. Papers of William Patterson, Moorland-Spingarn Research Center, Howard University.Washington, D.C.

Farmer, Paul:

2003 Pathologies of Power: Health, Human Rights, and the New War on the Poor. Berkeley: University of California Press.

Frankenberg, Ruth:

1993 White Women, Race Matters: The Social Construction of Whiteness. Minneapolis: University of University Press.

Greenberg, Stanley B.:

1980 Race and State in Capitalist Development: Comparative Perspectives. New Haven: Yale University Press.

Hale, Charles:

2006 Mas que un Indio: Racial Ambivalence and the Paradox of Neoliberal Multiculturalism in Guatemala. Santa Fe: School of Advanced Studies (SAR) Press.

Harrison, Faye V.:

1997 Entries on “race” and “racism.” *In* The Dictionary of Anthropology.Thomas Barfield, ed. pp. 392–396. Oxford: Blackwell.

Harrison, Faye V.:

2000 Facing Racism and the Moral Responsibility of Human Rights Knowledge. Annals of the New York Academy of Sciences 925: 45–69, December.

Harrison, Faye V.:

2002 Global Apartheid, Foreign Policy, and Human Rights. Theme issue, "Race & Globalization," Souls: A Critical Journal of Black Politics, Culture, and Society 4(3): 48–68.

Harrison, Faye V.:

2005a Introduction: Global Perspectives on Human Rights and Interlocking Inequalities of Race, Gender, and Related Dimensions of Power. *In* Resisting Racism and Xenophobia: Global Perspectives on Race, Gender, and Human Rights. Faye V. Harrison, ed. pp. 1–31. Walnut Creek, CA:AltaMira Press.

Harrison, Faye V.:

2005b What Democracy Looks Like: The Politics of a Woman-Centered, Antiracist Human Rights Coalition. *In* Resisting Racism and Xenophobia: Global Perspectives on Race, Gender, and Human Rights. Faye V. Harrison, ed. pp. 229–250. Walnut Creek, CA: AltaMira Press.

Harrison, Faye V.:

2008 The Politics of Antiracism and Social Justice: The Perspective of a Human Rights Network in the U.S. South. North American Dialogue 12(1): 8–17, October.

Ishay, Micheline R.:

2004 The History of Human Rights: From Ancient Times to the Globalization Era. Berkeley: University of California Press.

Ishay, Micheline R., ed.:

2007 The Human Rights Reader: Major Political Essays, Speeches, and Documents from Ancient Times to the Present. 2nd edition. New York: Routledge.

Loftsdóttir, Kristin:

2009 Invisible Colour: Landscapes of Whiteness and Racial Identity in International Development. Anthropology Today 25(5): 4–7, October.

Merry, Sally Engle:

2006 Human Rights and Gender Violence: Translating International Law into Local Justice. Chicago: University of Chicago Press.

National Center for Human Rights Education:

2000 Bringing Human Rights Home: Linking the Individual Dignity with Mutual Destiny; 1996–2000. Atlanta: National Center for Human Rights Education.

Perry, Keisha-Khan Y.:

2010 Racialized History and Urban Politics: Black Women's Wisdom in Grassroots Struggles. *In* Brazil's New Racial Politics. Bernd Reiter and Gladys L. Mitchell, eds. pp. 141–163. Boulder: Lynne Rienner Publishers.

Scheper-Hughes, Nancy:

2000 The Genocidal Continuum. *In* Power and Self. Jeannette Mageo, ed. pp. 29–47 Cambridge: Cambridge University Press.

Smedley, Audrey:

2007 Race in North America: Origin and Evolution of a Worldview. 3rd edition. Boulder, CO:Westview Press.

Soohoo, Cynthia, Catherine Albisa, and Martha F. Davis, eds.:

2008 Bringing Human Rights Home, vols 1–3.Westport, CT: Praeger Publications.

Spellman, A. B.:

1964 Interview with Malcolm X. Monthly Review 16(1) May. http://www.monthlyreview.org/564mx.htm, accessed April 5, 2008.

Vargas, João Costa H.:

2008 Never Meant to Survive: Genocide and Utopias in Black Diaspora Communities. Lanhan, MD: Rowman & Littlefield Publishers.

Vitalis, Robert:

2000 The Graceful and Generous Liberal Gesture: Making Racism Invisible in American International Relations. Millennium: Journal of International Studies 29(2): 331–356.

Wade, Peter:

1997 Race and Ethnicity in Latin America. London: Pluto Press.

Warren Jonathan W.:

2001 Racial Revolutions: Antiracism and Indian Resurgence in Brazil. Durham: Duke University Press.

Wetherell, Margaret, and Jonathan Potter:

1992 Mapping the Language of Racism: Discourse and the Legitimation of Exploitation. New York: Columbia University Press.

Wilson, Richaerd A., ed.:

1997 Human Rights, Culture and Context: Anthropological Perspectives. London: Pluto Press.

World Conference against Racism NGO Forum Secretariat:

2002 Declaration and Programme of Action. Johannesburg: Progress Press on behalf of WCAR NGO Forum Secretariat, South African Non-Government Coalition.

Wynter, Sylvia:

2002 After Man, towards the Human: The Thought of Sylvia Wynter. Keynote Response at conference in honor of Sylvia Wynter. Centre for

Caribbean Thought. University of the West Indies, Mona campus, June 14–15.

Wynter, Sylvia:

2003 Unsettling the Coloniality of Being/Power/Truth/Freedom: Towards the Human, After Man, Its Overrepresentation—An Argument. CR: The New Centennial Review 3(3): 257–337, Fall.

قراءاتٌ أخرى

Ambramsky, S.:

2010 Look Ahead in Anger. Hyperbolic Rhetoric Threatens to Swamp our Politics. The Chronicle of Higher Education, July 11. http://chronicle.com/article/Look-Ahead-in-Anger/66152/, accessed August 15, 2010.

Barash, D. P.:

2010 Hey, Wait a Minute! Biological Roots of Today’s Anger.The Chronicle of Higher Education, July 11. http://chronicle.com/article/Hey-Wait-a-Minute-/66156/, accessed August 15, 2010.

Darity, W. A., J. Dietrich, and D. Hamilton, D.:

2005 Bleach in the Rainbow:Latin Ethnicity and Preference for Whiteness. Transforming Anthropology, 13(2): 103–109.

Durrenberger, P. E., and D. Doukas:

2008 Gospel of Wealth, Gospel of Work: Counter Hegemony in the U.S. Working Class. American Anthropology, 110(2): 214–224.

Friedman, A.:

2010 All Politics is Identity Politics. The American Prospect, 22(7), August 10, http://www.prospect.org/cs/articles?article=all_politics_is_identity_politics, accessed August 14, 2010.

Keaton, T. D.:

2010 The Politics of Race-Blindness. (Anti)Blackness and Category-Blindness in Contemporary France. DuBois Review, 7(1): 103–131.

Mullings, L.:

2005 Resistance and Resilience: The Sojourner Syndrome and the Social Context of Reproduction in Central Harlem, 13(2): 79–91.

Sen, R., and Mamdouh, F.:

2008 The accidental American. San Francisco, CA: Berrett-Koehler Publishers, Inc.

Truong, K.:

2010 Review of Harvard Scholar's Arrest Cites Failure to Communicate. The Chronicle of Higher Education, June 30. http://chronicle.com/article/Review-of-Harvard-Scholars/66099/, accessed December 9, 2011.

Wellman, D.:

2009 Reconfiguring the Color Line: Racializing Inner city Youth and Rearticulating Class Hierarchy in Black America. Transforming Anthropology, 17(2): 131–146.

هوامش

(1) *United States v. Wong Kim Ark,* 169 U.S. 649 (1898), http://caselaw.lp.findlaw.com/scripts/getcase.pl?court=us&vol=169&invol=649, accessed July 14,2010.

مسرد المصطلحات

الإثنية (ethnicity): فكرة مشابهة للعرق تُصنِّف الأشخاص في مجموعاتٍ وفقًا للأصل المشترك أو الخلفية المشتركة. يُشير المصطلح عادةً إلى الانتماءات الاجتماعية والثقافية والدينية واللغوية وغيرها من الانتماءات، على الرغم من أنها — شأنها شأن العرق — يتم ربطها أحيانًا بالعلامات البيولوجية المُدرَكة. وغالبًا ما تُميَّز الإثنية من خلال سماتٍ ثقافية مثل الزي، واللغة، والدين، والتنظيم الاجتماعي.

الأزواج القاعدية (base pairs): إحدى سلاسل الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين (الدنا) التي تحتوي على أربع قواعد نيتروجينية — الأديسين A، والثايمين T، والجوانين G، والسايتوسين C — تَرتبط معًا عبر الروابط الهيدروجينية لتُكوِّن أزواجًا مع القواعد الموجودة على سلسلة الدنا مقابلة فيما يُشبه درجات السلم. تقترن القاعدة A دائمًا مع القاعدة T، وتقترن القاعدة G دائمًا مع القاعدة C.

الاستعلاء الإثني (ethnocentrism): الاعتقاد المتأصِّل وجدانيًّا بأن اتجاهاتك الثقافية عالَمية وطبيعية وسوية، بل وأسمى من الاتجاهات الثقافية الأخرى.

الأصل الواحد (monogeny): نظريةٌ علميةٌ سابقة على التطور مفادها أن «الأعراق» البيولوجية للبشر انحدرت جميعها من أصلٍ واحد (أو «آدم» كما وردَ في الكتاب المقدس). راجِع «تعدد الأصول».

الأليل السائد (dominant allele): أليل يَحجب تأثير الأليل الآخر (المتنحِّي) في النمط الجيني لزيجوتٍ متغاير.

الأليل المُتَنَحي (recessive allele): أليل يُحجَب تأثيره بفِعل الأليل الآخر (الذي يكون سائدًا) في نمطٍ جيني متغاير الزيجوت.

الانتخاب الطبيعي (natural selection): آلية للتغيير التطوري تنحاز لبقاء بعض الكائنات الحية وتناسلها على كائناتٍ حية أخرى نظرًا لخصائصها البيولوجية الخاصة في ظل ظروفٍ بيئيةٍ محددة. الانتخاب الطبيعي لا يؤدي إلى تباين، ولكنه يستند إلى التباين الموجود.

الأنثروبولوجيا البيولوجية (biological anthropology): قسم الأنثروبولوجيا الذي يُركِّز على التطور البيولوجي للبشر وأسلافهم، وعلاقة البشر بغيرهم من الكائنات الحية وبالبيئة، وأنماط الاختلاف البيولوجي داخل المجموعات البشرية وبينها. ويُشار إليه أيضًا بالأنثروبولوجيا الطبيعية.

الأنثروبولوجيا التطبيقية (applied anthropology): قسمُ الأنثروبولوجيا المعنيُّ بتطبيق المعرفة والأساليب الأنثروبولوجية على المشكلات الراهنة.

الأنثروبولوجيا الثقافية (cultural anthropology): قسم الأنثروبولوجيا الذي يُركِّز على وصف الثقافات البشرية وفهمها، بما في ذلك قابلية التغير الثقافي لدى البشر (عبر الزمن، في مختلف أنحاء العالم).

الأنثروبولوجيا الطبيعية (physical anthropology): دراسة الجوانب غير الثقافية، أو البيولوجية، للبشر والحفريات الخاصة بأسلافنا. يهتم علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية عادةً بأحد أنواع البحث الثلاثة التالية: (١) دراسات الرئيسيات غير البشرية (عادةً في البَريَّة). و(٢) استعادة السجل الأحفوري للتطور البشري. و(٣) دراسة التنوع البيولوجي للإنسان، وأنماط الوراثة، والتكيُّف البيولوجي مع الضغوط البيئية، والوسائل الثقافية للتكيُّف مع عوامل الضغط البيئية التي تؤثِّر على علم دراسة الأحياء. يُشار أيضًا إلى الأنثروبولوجيا الطبيعية بالأنثروبولوجيا البيولوجية أو الحيوية.

الأنثروبولوجيا اللغوية (linguistic anthropology): تخصُّصٌ فرعي من علم الأنثروبولوجيا يتمحوَر حول طبيعة اللغة لدى البشر وعلاقة اللغة بالثقافة.

الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان (anthropology): دراسة البشر وثقافاتهم، في الماضي والحاضر. يَشمل مجال الأنثروبولوجيا علم الآثار، والأنثروبولوجيا البيولوجية، والأنثروبولوجيا الثقافية، والأنثروبولوجيا اللغوية، والأنثروبولوجيا التطبيقية.

الانحدار (cline): تغيُّرٌ تدريجيٌّ مستمر في صفةٍ وراثيةٍ معينة أو سلسلةٍ معينة من الصفات الوراثية عبر المكان.

الانحراف الوراثي (genetic drift): آلية للتغيير التطوري تنتج عن التغيرات العشوائية في تواتُرات الجينات (على سبيل المثال، من جيل إلى الجيل الذي يليه). في غياب القوى التطورية الأخرى، يؤدِّي الانحراف الوراثي في النهاية إلى الفقد الكامل للتبايُن. راجع «تأثير المؤسس».

الاندماج (assimilation): عملية التغيير التي تحدث عندما يتبنَّى فردٌ أو مجموعةٌ سماتِ الثقافة السائدة ويندمج اندماجًا تامًّا في المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتلك الثقافة.

الإنسان العاقل الحديث تشريحيًّا (anatomically modern Homo sapiens): الشكل الحديث للنوع البشري، ونشأ في أفريقيا منذ ما يتراوح بين ١٥٠ ألف عام و٢٠٠ ألف عام مضت.

الأنيميا المنْجليَّة (sickle cell anemia): مرضٌ وراثي يُصاب به الشخص متماثل الزيجوت لأليل الخلية المنجلية، يُعدِّل تركيب خلايا الدم الحمراء مما يُضفي عليها شكلًا «منجليًّا». وتكون خلايا الدم الحمراء المَنجلية الشكل هذه أقل كفاءةً في نقل الأكسجين عبر الجسم، وهو ما قد يتسبَّب في حدوث ألم، بل وتلف في الأعضاء.

البنية الثقافية (cultural construct): فكرة أو نظامٌ فِكريٌّ متأصِّل في الثقافة. يُمكن أن يتضمن نظامًا مُبتكَرًا لتصنيف الأشياء أو الأشخاص؛ كالحال مع نظام التصنيف العنصري على سبيل المثال.

التباعُد الوراثي (genetic distance): متوسِّط مقياس القرابة بين الجماعات السكانية استنادًا إلى سماتٍ متنوعة. تُستخدَم قيم التباعد الوراثي لفهم تأثيرات الانحراف الوراثي والتدفُّق الجيني، اللذَين من المفترض أنهما يؤثِّران على كل المواقع الكروموسومية بنفس الدرجة.

التباين البشري (human variation): الاختلافات الموجودة بين الأفراد أو بين مجموعات الأفراد التي يُنظَر إليها باعتبارها جماعاتٍ سكانية. يدرس علماء الأنثروبولوجيا كلًّا من الاختلاف الثقافي والبيولوجي.

التباين البيولوجي البشري (human biological variation): الاختلافات التي يُمكن ملاحظتها بين الأفراد أو الجماعات، والتي نتجت عن عمليات الهجرة والزواج وأساليب التكيُّف البيئي لدى البشر. وغالبًا ما يشار إلى التباين البيولوجي بين البشر بـ «التنوع البيولوجي لدى البشر».

التحرُّر من العبودية (abolition): حركة التحرير التي تألَّفت من جهودٍ مُنظَّمة للقضاء على ممارسة الرق المشروعة في الولايات المتحدة. ونال الرقيق حريتهم تدريجيًّا في الولايات الشمالية، وأُلغيت العبودية في جميع أنحاء البلاد بالتعديل الثالث عشر للدستور الأمريكي.

التدفُّق الجيني (gene flow): هو آلية للتغيير التطوُّري تتضمَّن نقل الجينات (الموروثات) وتبادلها عبر جماعاتٍ سكانية في منطقةٍ معينة. يؤدي التدفُّق الجيني إلى إنتاج ألائلَ جديدةٍ في الجماعة السكانية ويجعل الجماعات السكانية أكثر تشابهًا من الناحية الوراثية.

التزاوج الداخلي بين أفراد العِرق الواحد (racial endogamy): زواج المرء من داخل الجماعة العِرقية التي ينتمي إليها (راجِع أيضًا «قوانين مناهضة اختلاط الأجناس»).

التزاوج غير العشوائي (non-random mating): أنماطٌ مدروسة من اختيار الشريك تؤثِّر على توزيع تواتُرات النمط الجيني والنمط الظاهري. لا تتمخَّض عن التزاوج غير العشوائي تغييراتٌ في التواتُرات الأليلية. ويُعدُّ الزواج المُدبَّر أو المُرتَّب له؛ أحدَ أشكال الزواج غير العشوائي.

التصنيف (classification): ترتيب العناصر في مجموعاتٍ حسب سماتها المشتركة. التصنيفات إبداعاتٌ ثقافية، وتضع الثقافات المختلفة طرقًا مختلفة في تصنيف الظواهر نفسها (مثل الألوان، والنباتات، والأقارب، وغير ذلك).

التصنيف العرقي (racial classification): عملية تصنيف البشر إلى جماعاتٍ عِرقية مميَّزة بناءً على خصائص وسماتٍ معيَّنة مثل لون البشرة أو المنطقة الجغرافية، غالبًا بهدف وضعهم في مراتبَ معيَّنةٍ بناءً على ما يُعتقَد أنه اختلافاتٌ فطرية ومتأصلة بين الجماعات.

التطبع الثقافي (acculturation): التغيير والتبادل الثقافي اللذان ينتجان عن الاتصال المستمر بين جماعاتٍ بشريةٍ مختلفة.

التطور (evolution): التغيُّر الذي يطرأ على أحد أنواع الحياة العضوية عبر فتراتٍ زمنيةٍ طويلة (التطور الماكروي) أو من جيل إلى الجيل الذي يليه (التطور الميكروي) نظرًا للقوى التطورية الأربع. يدرس علماء الأنثروبولوجيا كلًّا من التطور الثقافي والبيولوجي للسلالات البشرية.

التطور الماكروي (macroevolution): تتمحوَر دراسة التطور الماكروي حول التطور البيولوجي عبر أجيالٍ عديدة وعلى أصل الفئات التصنيفية العليا، مثل الأنواع.

التطور الميكروي (microevolution): تتمحوَر دراسة التطور الميكروي حول التغيُّرات التي تطرأ على تواترات الألائل من جيل إلى الجيل الذي يليه.

التعداد السكاني (census): إحصاءٌ رسمي لسكان منطقةٍ ما، وجمع بياناتٍ ديموغرافية. يُجري مكتب التعداد الأمريكي هذا الإحصاء كل عشر سنوات.

التمييز الإيجابي (affirmative action): أقرَّت الحكومة الفيدرالية هذا الأمر التشريعي للمرة الأولى عام ١٩٦٥، وهو يتألَّف من إجراءاتٍ خاصة في مجال التعيين والتوظيف وغيرهما من مجالاتٍ أخرى، مصمَّمة للحد من آثار التمييز التي مورست في السابق.

التمييز العنصري (discrimination): سياسات وممارَسات تُلحق الضرر والظلم بجماعة وبأعضائها.

التنميط (stereotyping): عملية نَسْب صفات أو خصائص أو سلوكيات أو قيم معينة إلى مجموعةٍ أو فئةٍ بأكملها من الأشخاص؛ ومن ثمَّ يُمثَّلون ككيانٍ واحد، ويشمل هذا عملية التنميط السلبي؛ أي إطلاق أحكامٍ سلبيةٍ مُسبقة.

التنميط العرقي (racial profiling): استخدام العِرق (وغالبًا الجنسية أو الديانة) لتحديد شخص على أنه مُشتبه به أو مُشتبه به مُحتمَل. والتنميط العرقي هو إحدى الطرق التي تظهر بها العنصرية وتتأصَّل.

الثقافة (culture): النطاق الكامل من السلوكيات، والقيم، والمعاني، وأساليب الإدراك، ونُظم التصنيف، المشتركة والمُكتَسبة بالتعلم والنمطية، وغير ذلك من المعرفة المكتَسبة من قِبل أشخاص مثل أعضاء مجتمعٍ ما؛ والعمليات أو آليات السلطة التي تؤثر في إمكانية مشاركة المعاني والممارسات داخل جماعة أو مجتمع من عدمها.

الجوهرية (essentialism): فكرة أن لكل الأشياء جوهرًا أساسيًّا أو حقيقيًّا. يرى أنصار الجوهرية العِرقية أن جميع الأعضاء في جماعة عِرقية معيَّنة يشتركون في خصائص أو صفاتٍ أساسيةٍ محدَّدة تُميِّزهم بأنهم مختلفون جوهريًّا عن غيرهم من أعضاء الجماعات العِرقية الأخرى.

الجين (gene): مجموعةٌ فريدة من القواعد (راجع «الأزواج القاعدية») تُشكِّل جزءًا محدَّدًا من الكائن الحي.

الجينوم (genome): نسخةٌ واحدةٌ كاملة من كل الجينات والحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين (الدنا) لنوعٍ ما.

الحتمية البيولوجية (biological determinism): الفلسفة أو الاعتقاد القائل بأن السلوك البشري والتنظيم الاجتماعي يُفرضَان أساسًا بفِعل الخصائص البيولوجية المتأصِّلة بالفطرة، بحيث تُعزى الاختلافات السلوكية داخل المجموعات أو بينها إلى الاختلاف الوراثي لا إلى تأثيرات البيئة أو التعلُّم.

الحتمية الثقافية (cultural determinism): الاعتقاد بأن السلوك البشري والتنظيم الاجتماعي يُفرضَان في الأساس بفِعل العوامل الثقافية.

الحُكم بالاستحقاق أو حُكم الجدارة (meritocracy): فكرة أن جدارة الشخص وجهده الفردي هما اللذان يحدِّدان نجاحه ووضعه الاجتماعي والاقتصادي، وليس عائلته أو خلفيته الاجتماعية (بما في ذلك عرقه، ونوعه الاجتماعي، وطبقته، وإرثه). وعلى نحوٍ مماثل، فكرة أن أوجه التفاوت الاجتماعي تأتي نتيجة الاختلافات الفردية من حيث الجدارة والجُهد.

الحلزون المزدوج (double helix): يُشبه الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين (الدنا) سلمًا طويلًا مُلتفًّا لولبيًّا. تتكوَّن جوانب السلم من الفوسفات والسكريات.

الحمض النووي الريبوزي (آر إن إيه) (Ribonucleic acid): الجزيء المسئول عن حَمْل التعليمات الخاصة بتخليق البروتين، والتي يُحددها جزيء الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين (الدنا).

الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين (Deoxyribonucleic acid): يشار إليه اختصارًا بـ «دنا»، وهو الجزيء المسئول عن تشفير المعلومات الوراثية.

الخَلْق (creationism): الاعتقاد بأن الكون خلقه الله.

الخلية (cell): أصغر وحدة حيوية في الكائن الحي. تتكوَّن أجسامنا البشرية من أكثر من ١٠٠ تريليون خلية. وتوجد داخل الغشاء الخلوي النواة، وتحيط بنواة الخلية مادة السيتوبلازم.

الدنا الميتوكوندري (mitochondrial DNA): كميةٌ صغيرة من الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين (الدنا) موجودة في ميتوكوندريات الخلايا. ويُورَث الدنا الميتوكوندري من خلال الأم فقط.

الذكاء (intelligence): القدرة الفطرية على التعلُّم وحل المشكلات الجديدة.

الرمز (symbol): علامة أو صفة تُشير إلى شيءٍ آخر، وقد يكون لها علاقة به أو لا. على سبيل المثال، العقاب الأصلع و«العَمُّ سام» رمزان للولايات المتحدة.

السائد المشترك (codominant): يؤثر كلا الأليلَيْن في النمط الظاهري لنمط جيني متعلِّق بالزيجوتات المُتغايرة، ولا يكون أيٌّ منهما سائدًا على الآخر. على سبيل المثال، في نظام فصائل الدم، يكون الأليلان A وB عبارة عن سائدٍ مشترك، ويُنتجان معًا فصيلة الدم AB.

السلوكية (behaviorism): مدرسةٌ فكرية في علم النفس تؤكِّد على أهمية الاستجابات السلوكية الظاهرية بما يفوق الخبرة الواعية لفهم التفاعلات الاجتماعية بين البشر.

السمة (trait): إحدى خصائص أو صفات النمط الظاهري أو النمط الجيني للفرد.

السمة المتفرِّدة (discrete trait): صفةٌ بيولوجية تتخذ قيمًا وخصائصَ مميَّزةً (مثل نظام فصائل الدم).

السمة المتواصلة (continuous trait): صفة تُقاس على مقياسٍ مدرَّج ولا تتضمَّن فجوات أو أقسامًا (مثل، لون البشرة).

السمة المعقدة (complex trait): صفة جسمانية تأثَّرت بمواضع كروموسومية متعدِّدة تفاعلت مع الظروف البيئية. تتَّسم معظم الصفات البشرية التي تمَّت دراستها بأنها معقَّدة (على سبيل المثال، الطول، وحجم الجسم، ولون البشرة).

الصدمة الثقافية (culture shock): الخبرة المضطربة والمرتبكة لإدراك أن آراء فرد أو جماعة أو مجتمعٍ ما وسلوكياته وخبراته لا تتمُّ مشاركتها من قِبل فردٍ آخر أو جماعةٍ أخرى أو مجتمعٍ آخر.

الضغط الانتقائي (selective pressure): الضغط البيئي على الأفراد في جماعةٍ سكانيةٍ ما، والذي ينتج عنه تغييرٌ تطوري يكون بمنزلة القوة المُحركة للانتخاب الطبيعي. ويُعد الارتفاع المفرط في درجات الحرارة والأشعة فوق البنفسجية أمثلةً على الضغط الانتقائي.

الطبقة الاجتماعية (social class): تصنيفٌ اجتماعي للأفراد استنادًا إلى الخصائص الاقتصادية المشتركة وغيرها من خصائصَ أخرى يُحددها المجتمع وتعكس شكلًا من الهَرَمية الاجتماعية.

الطَّبَقية (stratification): بالإشارة إلى المجتمع، نظامٌ تُصاغ من خلاله الفروق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع.

الطَبَقيَّة العِرقية (racial stratification): نظامٌ من الطبَقيَّة وعدم المساواة يعتمد فيه استخدام الموارد (السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية) بدرجةٍ كبيرة على التصنيف العِرقي للفرد.

الطفرة الوراثية (mutation): آلية للتغيير التطوُّري تنشأ عن تغيُّرٍ عشوائي في تسلسل القواعد في جزيء الحمض النووي (الدنا). الطفرات هي المصدر الأساسي لكل الاختلاف الوراثي، بيد أنها يجب أن تحدث في الخلايا الجنسية لإحداث تغييرٍ تطوري.

العالَمية (universalism): الاعتقاد بأن القيَم والمعايير هي أمورٌ مشتركة عمومًا بين الثقافات.

العبودية (slavery): شكلٌ متطرف من الاضطهاد البشري يجوز بموجبه لشخص ما أن «يملك» شخصًا آخر وحقوق عمله. في عالم الأمريكيتين الاستعماري، ظهر شكلٌ من العبودية العِرقية يُميِّز الأشخاص المُنحدِرين من أصولٍ أفريقية وحدهم على أنهم «عبيد».

العرق (race): فكرةٌ حديثة ابتكرها سكان أوروبا الغربية عقب رحلاتهم الاستكشافية عبر العالم لإظهار الاختلافات بين البشر، وتبرير الاستعمار، والغزو، والاسترقاق، والهَرَمية الاجتماعية بينهم. يُستخدَم المصطلح للإشارة إلى فئاتٍ من البشر مصنَّفة وفقًا للأصل المشترك أو الخلفية المشتركة ومرتبطة بعلاماتٍ بيولوجية (أي واصمات حيوية) مُدرَكة. لا توجد أعراق بين البشر باستثناء العرق البشري. في علم الأحياء، يُستخدَم المصطلح على نطاقٍ محدود؛ إذ عادةً ما يرتبط بالكائنات الحية أو الجماعات السكانية القادرة على التزاوج وإنتاج أفرادٍ قادرة على الإنجاب. إنَّ الفِكَر المتعلِّقة بالعرق موروثة ثقافيًّا واجتماعيًّا وتُشكِّل أساس العنصرية والتصنيف العنصري وغالبًا هُوياتٍ عرقيةً معقَّدة.

العرقنة (racialization): العملية التي يُنظَر من خلالها إلى الأفراد أو إلى جماعاتٍ من البشر من منظورٍ عِرقي، ومن خلال إطار عِرقي مُختلَق ثقافيًّا. وغالبًا ما يُشار إلى هذا المصطلح بالعنصرية.

العمل الميداني (fieldwork): شكل من أشكال جمع البيانات. يتضمَّن العملُ الميداني الأنثروبولوجي عددًا من الأساليب والاستراتيجيات التي تعتمد على الملاحظة المباشرة للتفاعل الاجتماعي (في الأنثروبولوجيا الثقافية) أو الاسترشاد بالحفريات (في علم الآثار).

العنصرية المؤسسية (institutional racism): رسوخ الممارسات القائمة على التَّفرقة العنصرية في المؤسسات، والقوانين، والقيَم والمُمارسات المُتفَق عليها لمجتمعٍ ما.

العنصرية أو العرقية (racism): استخدام العِرق في إقامة وتسويغ شكل من الهَرَمية الاجتماعية ونظام سلطة يُميِّز، أو يُفضِّل، أو يرتقي بأفرادٍ معينين أو بجماعاتٍ معينة من البشر، على حساب آخرين عادةً. تتأصل العنصرية من خلال ممارساتٍ فردية ومؤسسية على حدٍّ سواء.

الفرضية (hypothesis): تفسيرٌ مُقترَح لحقائق جرَت ملاحظتها. يجب أن تكون الفرضية العلمية قابلة للاختبار.

القوى التطورية (evolutionary forces): الآليات الأربع التي يمكن أن يتسبَّب كل منها في إحداث تغييراتٍ في تواترات الأليل عبر الأجيال: الطفرة الوراثية، والانتخاب الطبيعي، والانحراف الوراثي، والتدفُّق الجيني.

القياسات البشرية (anthropometrics): دراسة القياسات الخاصة بجسم الإنسان، لا سيَّما على نحوٍ مقارَن.

الكروموسوم (chromosome): سلاسل الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين (الدنا) الطويلة الموجودة داخل نواة الخلية. تحتوي كل خلية بشرية على ٢٣ زوجًا من الكروموسومات، الموروثة من الأبوين.

اللاتوافق (discordance): عدم الاتفاق، راجِع «عدم التوافق».

المَدْخل الثقافي الحيوي (biocultural approach): استخدام أساليب البحث في المجالات الثقافية والبيولوجية، والنظرية المُتعددة التخصُّصات، في دراسة الاختلاف البيولوجي بين البشر وعواملَ أخرى مثل الصحة من حيث علاقتها بالممارسات الاجتماعية والثقافية، والبيئة، والتغيير.

المقارنة عبر الثقافية (cross-cultural comparison): طريقة مقارنة خصائصَ ثقافةٍ معيَّنة بخصائصَ ثقافةٍ أخرى. ويعدُّ هذا أحد المحاور الأساسية في المعرفة الأنثروبولوجية.

الملاريا (malaria): مجموعة أمراضٍ تنشأ نتيجة أيٍّ من الكائنات الحية الدقيقة الأربعة المختلفة المُسمَّاة «المُتَصَوِّرات» (المُتَصَوِّرة المنجلية، المُتَصَوِّرة النشيطة، المُتَصَوِّرة البيضاوية، المُتَصَوِّرة الملارية)، وتنتقل عن طريق أنواعٍ معينة من البعوض. يمكن أن تكون الملاريا من الأمراض المُهدِّدة للحياة فعليًّا، وغالبًا ما توجد في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية من العالم.

الموقع الكروموسومي (locus): مكان جينٍ معيَّن أو تسلسل حمضٍ نووي (دنا) على كروموسوم ما.

المولاتو (Mulatto): المصطلح مُشتق في الأصل من الكلمة الإسبانية mulato ومعناها هجين؛ وهو شخصٌ مولودٌ لأبوين أحدهما أوروبي والآخر أفريقي، أو مولودٌ لسَلَفَيْن أحدهما أوروبي والآخر أفريقي، ويُستخدَم أيضًا للإشارة إلى شخصٍ يشير نمطه الجيني إلى أسلافٍ أفريقية وأوروبية مختلطة.

النسبية الثقافية (cultural relativity) **أو** (cultural relativism)**:** الاعتقاد بأن قيَم الثقافات ومعاييرها تختلف ولا يُمكن مقارنتها بسهولة مع قيم ثقافاتٍ أخرى ومعاييرها.

النظام الطبقي (caste system): نظام التدرُّج الهرمي الموروث المغلق، الذي يُملى غالبًا بحُكم الدين والوظيفة؛ تُسبَغ المكانة الاجتماعية على الفرد عند ميلاده؛ ومن ثمَّ يكون الفرد حبيس المركز الاجتماعي والاقتصادي لأبويهم.

النمط الجيني (genotype): مجموعة الصفات الوراثية التي يَرثها الفرد من الأليلين الموجودين في موقعٍ كروموسوميٍّ معين. راجع «النمط الظاهري».

النمط الظاهري (phenotype): الصفات التي يُمكن ملاحظتها أو اكتشافها في كائنٍ حيٍّ واحد. يتضمَّن النمط الظاهري للشخص الصفات الوراثية التي يُمكن رؤيتها بسهولة مثل لون الشعر ولون العينين، وكذلك قدراتٍ مثل ثني اللسان أو طيِّه.

النموذج القائم على الجماعات السكانية (populational model): فيما يتعلق بالبشر، هو نظامُ تصنيف قديم يقوم على افتراض أن الجماعات الوحيدة المميَّزة بيولوجيًّا هي جماعاتٌ سكانية متناسلة انعزلت منذ فترةٍ طويلة ولها سلالاتٌ تطورية مميَّزة. عمليًّا، من الصعب وضع تعريفٍ علمي للجماعات السكانية.

النموذج النمطي (typological model): بالإشارة إلى البشر، مُحاوَلة لتصنيف الأفراد بناءً على الافتراض المغلوط بأن البشر يُمكن تصنيفهم على نحوٍ واضح في مجموعاتٍ مُتمايزة على أساس صفاتٍ محدَّدة مثل لون البشرة، ومظهر الشعر، وشكل الجسم.

النُّوَيع (subspecies): جماعاتٌ سكانية يمكن تمييزها من خلال صفاتها الجسدية، وتكون مُميَّزة وراثيًّا داخل نوعٍ ما. لا يتوافق البشر مع معايير التصنيف النُّويعي.

الهجرة (immigration): دخول فردٍ إلى أراضي دولة لا ينتمي إلى سكانها الأصليِّين؛ ليُصبح من المقيمين الدائمين فيها. في الولايات المتحدة وغيرها، غالبًا ما تُمثِّل الهجرة وسياساتها قضايا مليئة بالعنصرية.

الهُويَّة العِرقية (racial identity): يعمل هذا المفهوم على مستويَين: (١) الهُوية الذاتية أو وضع المفاهيم الذاتية بناءً على تصوُّرات الفرد ومفاهيمه فيما يخص العِرق الذي ينتمي إليه. و(٢) تصوُّر المجتمع وتعريفه للعِرق الذي ينتمي إليه الفرد.

الوراثة المندلية (Mendelian genetics): فرعٌ من علم الوراثة سُمِّي بهذا الاسم نسبةً إلى جورج مندل الذي اكتشف القوانين الأساسية للوراثة في القرن التاسع عشر.

أليل (allele): الشكل البديل لأحد الجينات أو لأحد تسلسلات الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين (الدنا) الذي يحدث في موضع كروموسوميٍّ معين. بعض المواضع الكروموسومية يوجد بها أليلٌ واحد فقط، وبعضها يوجد به أليلان، والبعض الآخر يوجد به عدة أشكالٍ بديلة. توجد الألائل في مجموعاتٍ ثنائية، بمعدل أليلٍ واحد على كل كروموسوم.

أليل الخلية المَنْجلية (sickle cell allele): أليل في الموقع الكروموسومي للهيموجلوبين. يصاب الأفراد مُتماثِلو الزيجوت لهذا الأليل بالأنيميا المنجلية، بينما يحمل الأفراد المُتغايرو الزيجوت صفة الخلية المنجلية. في بعض المناطق من العالم التي تكون فيها الملاريا مرضًا مُستوطنًا، يكون للأفراد الحاملين لصفة الخلية المنجلية ميزةٌ انتقائية (راجِع «الانتخاب الطبيعي»).

امتياز البِيض (white privilege): إحدى النتائج المترتبة على العنصرية في الولايات المتحدة التي مُنِحَتْ بموجبها امتيازاتٌ على نحوٍ منهجي ومستمر وموسَّع للأشخاص البيض حسبما يُسمَّون، لا سيَّما مَن هم مِن أصلٍ أوروبي، على حساب الجماعات السكانية الأخرى.

تأثير المؤسِّس (founder effect): نوع من الانحراف الوراثي يحدث عندما يُنسَب جميع الأفراد في جماعةٍ سكانية ما إلى عددٍ صغير من الأفراد المؤسِّسين. قد يؤدي صغر حجم الجماعة السكانية المؤسسة إلى تواتُراتٍ أليلية مختلفة للغاية عن تلك الموجودة في الجماعة السكانية الأصلية التي جاء منها الأفراد المؤسِّسين. تشمل أمثلة الجماعات السكانية التي يظهر فيها تأثير المؤسس المُستوطنين الأكاديين الأوائل ذوي الأصول الفرنسية، والأميش، والهوتريتيين.

تحرير العبيد (emancipation): الحرية التي نالها معظم الرقيق المُنحدِرين من أصولٍ أفريقية، من الرق المشروع قانونًا، في أعقاب الحرب الأهلية الأمريكية مباشرةً. نصَّ إعلان تحرير العبيد على عدم مشروعية الرق في الولايات الكونفيدرالية.

تحسين النسل (eugenics): المصطلح الإنجليزي مُشتقٌّ من اللفظة اليونانية eugenes التي تعني «حسيب» أو «عريق الأصل». سعت حركة تحسين النسل التي تأسست في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى «تحسين» السلالات البشرية والحفاظ على «النقَّاء» العِرقي من خلال التناسل البشري المُوجَّه. أيَّد أنصار حركة تحسين النسل قوانين مناهضة اختلاط الأجناس وإجراءاتٍ أخرى، أكثر تطرُّفًا أحيانًا، مثل التعقيم (بمعنى سلب القدرة على الإنجاب).

تعدد الأشكال (polymorphism): صفةٌ وراثية مميَّزة يكون فيها لأليلَيْن على الأقل في موقعٍ كروموسوميٍّ ما تواتراتٌ أكبر من ٠٫٠١.

تعدد الأصول (polygeny): نظريةٌ علميةٌ سابقة على التطور مفادها أن «الأعراق» البيولوجية هي أنواعٌ منفصلة، انحدر كلٌّ منها من أصولٍ مختلفة، أو من «آدم» مختلفٍ بلغة الكتاب المقدَّس. راجِع «الأصل الواحد».

تعدُّدات أشكال النيوكليوتايد المفرد (single-nucleotide polymorphisms): زوجٌ قاعديٌّ واحد في سلسلة حمضٍ نووي ريبي منزوع الأكسجين (دنا) يُمكن أن يتبايَن بين الأفراد. من أمثلة تعددات أشكال النيوكليوتايد المفرد التغيُّر من A إلى T في سلسلتي AATGCT وATTGCT.

حركة الحقوق المدنية (civil rights movement): جهودٌ قانونية وجهودٌ أخرى قادها الأمريكيون ذوو الأصول الأفريقية لمناهضة العنصرية والفصل العنصري، ولتشريع قانون يضمن لهم التمتُّع بكامل حقوقهم المدنية والإنسانية. يرجع تاريخ حركة الحقوق المدنية الحديثة إلى منتصَف الخمسينيات من القرن العشرين وواصَلت مسيرتها بعزمٍ وجدٍّ خلال ستينيات القرن العشرين.

خصوبة نسل الأعراق المختلفة (interfertility): القدرة على التناسُل أو التزاوج وإنتاج نسلٍ قادر على الإنجاب. كل البشر أعضاءٌ من نفس النوع وقادرون على التزاوُج وإنتاج نسل له القدرة على الإنجاب.

خَلْقية التصميم الذكي (intelligent design creationism): فكرة أن العالَم البيولوجي قد خُلِقَ من قِبل موجودٍ ذكي ولم ينشأ عن عملياتٍ طبيعية. هذه

الفكرة مختلفة بعض الشيء عن تلك الفكرة التي اقترحها أصحاب نظرية «علم الخَلْق» أو «الخَلْقية العلمية».

دراسات العرق الأبيض (whiteness studies): الأبحاث المَعنيَّة بالهُوية العِرقية للبِيض، التي جرى تعريفها بأوجهٍ شتى على مدار تاريخ الولايات المتحدة، إلا أنها عادةً ما تتمحوَر حول المحافظة على امتياز البِيض أو تعقُّبه والسعي وراءه.

زواج الأباعِد (exogamy): اختيار أزواج أو أفرادٍ للتزاوج من خارج الجماعة السكانية المحلية.

شمولي (holistic): وجهة النظر القائلة بأن فهم التبايُن البشري يتطلَّب فهم كيفية ارتباط جوانبه المختلفة (على سبيل المثال، البيولوجية والثقافية) وتداخلها. وهذه إحدى السمات المُميِّزة للمعرفة الأنثروبولوجية.

عدم التوافق (nonconcordance): ميلُ بعض الصفات البشرية إلى التباين على نحوٍ مُستقلٍّ، وغالبًا ما يحدث ذلك استجابةً لظروفٍ بيئية أو انتقائيةٍ معينة. على سبيل المثال، لون البشرة ونظام فصائل الدم ABO هي سماتٌ غير متوافقة.

علم الآثار (archaeology): قسم الأنثروبولوجيا الذي يُركِّز على العلاقات بين السلطة والاختلاف الثقافي في الجماعات السكانية السالفة من خلال تحليل الآثار المادية (الثقافة المادية أو الأدوات التي من صنع الإنسان).

علم اللغة (linguistics): الدراسة المُقارَنة المَعنية بوظيفة اللغات وتركيبها وتاريخها، وعمليات التواصُل بوجهٍ عام. ويشار أيضًا إلى علم اللغة بالأنثروبولوجيا اللغوية.

علم الوراثة (genetics): دراسة مجموعة الصفات الموروثة، وآلياتها، والتباين البيولوجي ذي الصلة. يمكن دراسة الصفات الموروثة على مستوى الجزيء، أو الفرد (الكائن الحي)، أو الجماعة السكانية.

علم تصنيف الأنواع (taxonomy): علم وصف الكائنات الحية وتصنيفها.

علم وظائف الأعضاء (physiology): العمليات العضوية أو الجسمانية التي تتمُّ داخل الكائن الحي.

فقه اللغة التاريخي والمُقارَن (philology): الدراسة المُقارنة للغة البشر، المنطوقة والمكتوبة، لا سيَّما تلك الجوانب المُفيدة في فهم الحركات السكانية والتفاعلات عبر الثقافية التي حدثت في الماضي. راجِع أيضًا «علم اللغة» و«الأنثروبولوجيا اللغوية».

قابلية الانتقال بالوراثة (heritability): في علم الأحياء، هي نسبة التباين في سمةٍ وراثية نتيجة التباين الوراثي في جماعةٍ سكانيةٍ ما.

قانون ألين (Allen's): القانون البيولوجي الذي ينصُّ على أن الثدييات في الأقاليم المناخية الباردة تميل إلى أن تكون ذات أطرافٍ أقصر وأضخم، ممَّا يسمح بفقد كميةٍ أقلَّ من حرارة الجسم، بينما تميل الثدييات في الأقاليم المناخية الحارة إلى أن تكون ذاتَ أطرافٍ طويلة ونحيلة؛ مما يسمح بفقد كميةٍ أكبر من حرارة الجسم.

قانون برجمان (Bergmann's rule): القاعدة التي تنص على أنه (١) بين الثدييات المُتماثلة في الشكل، تميل الثدييات الأكبر حجمًا إلى فقد الحرارة بسرعةٍ أقل من الثدييات الأصغر حجمًا. وأنه (٢) بين الثدييات المُتماثِلة في الحجم، تفقد الثدييات ذات الشكل الخطي الحرارة بسرعةٍ أكبر من الثدييات ذات الشكل غير الخطي.

قوانين مناهضة اختلاط الأجناس (anti-miscegenation laws): القوانين الأمريكية التي تحظر العلاقات الجنسية أو الزواج بين الأشخاص ذوي الأصول العِرقية المختلفة. وأُعلِن عدم دستوريتها عام ١٩٦٧ (قضية لافينج ضد فرجينيا).

قوقازي (Caucasian): مصطلح غير علمي ابتكره الطبيب الألماني يوهان بلومينباخ عام ١٧٩٥ لوصف الأفراد ذوي البشرة الفاتحة من أوروبا (الوافدين، في الأساس، من غرب آسيا وشمال أفريقيا أيضًا)، الذين اعتقد بلومينباخ خطأً أنهم قادمون من جبال القوقاز. وأصبح المصطلح مرادفًا لوصف «أبيض».

كارولوس لينيوس (١٧٠٧–١٧٧٨) (Linnaeus Carolus): عالِم نباتٍ، وطبيب، سويدي الجنسية، طوَّر نظام تصنيف الكائنات الحية إلى فئاتٍ رئيسية (الجنس) ثم فئاتٍ أكثر تحديدًا (النوع). في الطبعة العاشرة من كتابه «نظام الطبيعة» عام ١٧٥٨، وضع لينيوس أول نظامٍ رسمي غير علمي في التصنيف العِرقي للبشر. وتضمَّن هذا النظام خمسة أنواع من الجنس البشري العاقل — الأمريكي، والأوروبي، والآسيوي، والأفريقي، والهمجي — استنادًا إلى الأوصاف الجسَدية والثقافية التي تُميِّز الأوروبيين. أثَّر نظام التصنيف البشري الذي وضعه لينيوس على الطريقة التي يُنظَر بها إلى العِرق في الولايات المتحدة. راجِع أيضًا «يوهان فريدريش بلومينباخ».

متعدد الأنماط (polytypic): نوعٌ ينطوي على جماعاتٍ سكانيةٍ محلية يمكن تمييزها من خلال صفاتها الجسدية. النوع البشري (الإنسان العاقل) هو نوعٌ متعدد الأنماط.

متعدِّد الجينات (polygenic): متأثِّر بموقعٍ كروموسومي واحد أو أكثر. راجِع «سمةٍ معقَّدة».

متغاير (فرداني) الزيجوت (heterozygous): امتلاك أليلين مختلفين في موقعٍ كروموسوميٍّ معين؛ على سبيل المثال، أليلان مختلفان لصفةٍ وراثيةٍ معينة. راجع «متماثل الزيجوت».

متماثل الزيجوت (homozygous): الوضع الذي يكون فيه زوج الأليلَين الموجودَيْن في موقعٍ كروموسومي معين مُتماثلَين.

مشروع «هاب ماب» (HapMap): مشروعٌ بحثيٌّ دولي يختص بالبحث عن الجينات المُرتبِطة بالأمراض التي تصيب الإنسان والاستجابة للمستحضرات الدوائية.

مشروع الجينوم البشري (Human Genome Project): مشروعٌ بحثي دولي يختص بتعيين سلسلة الجينوم البشري وخريطته الوراثية؛ الجينوم البشري هو جميع الجينات الموجودة على كل كروموسوم. اكتمل المشروع عام ٢٠٠٣.

مُعاداة السَّامية (anti-Semitism): التحيُّز أو التمييز ضد اليهود.

نظام فصائل الدم (ABO blood system): هو نظامُ تصنيف فصائل الدم البشري الذي يتألَّف من أربع فصائل مميَّزة: A وB وAB وO. ويتحدَّد نظام فصائل الدم بالأليلات الموجودة في موضعٍ واحد، التي يتمُّ توارثها من الوالدَين.

نظرية الأصل الأفريقي الأساسي (primary African origin model): أحد أشكال نموذج التطوُّر المتعدِّد المناطق لأصل الإنسان المعاصر يشير إلى أن معظم التحوُّل من الإنسان البدائي إلى الإنسان الحديث وقَعَ أولًا في أفريقيا ثم انتشر منها عبر بقية الأنواع في كل أنحاء العالم القديم بواسطة التدفُّق الجيني.

نموذج الاستبدال الأفريقي (African replacement model): الفرضية التي تفيد بأن البشر الحديثين تشريحيًّا نشئوا كأنواعٍ جديدة في أفريقيا منذ ما يتراوَح بين ١٥٠ ألف عام و٢٠٠ ألف عام مضت ثم انتشروا في ربوع العالم القديم، حالِّين محل الجماعات السكانية القديمة؛ وأحيانًا ما يطلق على هذا النموذج نموذج الأصل الأفريقي الحديث.

نموذج التطور المُتعدِّد المناطق (multiregional evolution model): الفرضية التي تقول بأن الإنسان الحديث تطوَّر في أرجاء العالم القديم كنوعٍ فردي بعد الانتشار الأول للإنسان المُنتصِب من أفريقيا. وفقًا لهذا النموذج، حدثَ الانتقال من الإنسان المُنتصِب إلى الإنسان البدائي إلى الإنسان العاقل في العصر الحديث ضمن خطٍّ تطوُّريٍّ واحدٍ في أرجاء العالم القديم.

وصْف الأعراق البشرية (ethnography): بحثٌ أنثروبولوجي يتعرَّف فيه المرء على ثقافة مجتمعٍ ما من خلال العمل الميداني، وأساليب جمع البيانات المقرونة بالمشاركة والملاحظة المباشرة في ذلك المجتمع و/أو المبنية عليها.

يوهان فريدريش بلومينباخ (١٧٥٢–١٨٤٠) (Blumenbach, Johann Friedrich): عالِمٌ ألماني بالتاريخ الطبيعي وضَعَ أحد أقدم نُظم التصنيف غير العلمية للأجناس البشرية، والذي تضمَّن الأجناس التالية المحددة على أساسٍ جغرافي، وهي: الجنس «القوقازي»، والجنس «المنغولي»، والجنس «الإثيوبي»، والجنس «الأمريكي»، والجنس «الملايي». راجِع أيضًا كارولوس لينيوس (Linnaeus, Carolus).


هنداوي